الدكتور وميض العمري



رجاء الفلاح
في التنمية الفكرية





رجـاء الفلاح

في التنمية الفكرية

رجاء الفلاح في التنمية الفكرية

المؤلف: الدكتور وميض بن رمزي بن صديق العمري

الطبعة الأولى ٢٠٢٤م-١٤٤٥هـ



مكتب التفسير

للطبع والنشر

أربيل ـ الشارع الثلاثيني قرب المنارة المظفرية

+964 750 818 08 65

www.al-tafseer.com

tafseeroffice@yahoo.com

\ tafseeroffice

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مكتب التفسير

العمري، وميض بن رمزي بن صديق

رجاء الفلاح في التنمية الفكرية، الدكتور وميض بن رمزي بن صديق العمري (المؤلف)

٦١٠ ص.

١٧* ٢٤ سم

١-الإسلام.٢- الفكر الإسلامي أ.العنوان. ب.السلسلة

ISBN: 978-9922-690-53-7

رقم الإيداع في المديرية العامة للمكتبات العامة - إقليم كوردستان (١٠٦١) لسنة٢٠٢٣

رجاء الفلاح

في التنمية الفكرية

الدكتور

وميض بن رمزي بن صديق العمري


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله على سعة وسبق رحمته وعلى عظيم ودوام فضله وعلى جميل فتحه، هو الأول فلا قبله شيء وهو الآخر فلا بعده شيء وهو الظاهر فلا فوقه شيء وهو الباطن فلا دونه شيء. واللهم صل على رسولك سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه وأتباعه.

أما بعد، فإن جودة العمل تابعة لجودة التفكير، فقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ الملك: ٢، يتضمن: أيكم أحسن عقلاً وتفكيراً في انتقاء الأحسن من بين الخيارات والبدائل.

وقال تعالى ﴿ يُؤۡتِى ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِىَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ البقرة: ٢٦٩؛ فمنشأ الحكمة في العقل والتفكير ثم تُنتج كلاماً او عملاً.

وحين نذكر ألفاظاً مثل الحكمة والتفكر والتعقل ونحوها، فإنها من الغايات الدينية العظيمة، كما يوضحه نحو قوله تعالى ﴿ ... وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل: ٤٤؛ غير أن لهذه الألفاظ حُكم المجملات لما فيها من إبهام، وحاجة إلى تفصيل لمهارات التفكير والتعقل والحكمة. وكثير من المسلمين قديماً وحديثاً أخذوا العلوم العقلية او الفكرية من المصادر الأجنبية. والإطلاع على المصادر الأجنبية مشمول بمنزلة الأُستاذية العالمية، أي بقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ البقرة: ١٤٣، فالمطلوب منا أن نكون شهداء على أفكارهم وأعمالهم.

ولكن يجب أن نتذكر دائماً قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ الفرقان: ٣٣، فالله تعالى هو أحكم الحاكمين، والقرآن الكريم هو كتاب الحكمة، كما في قوله تعالى ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ يونس: ١، كما أن من أهم وظائف النبوة أن يُعلم المؤمنين الحكمة كما في نحو قوله تعالى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٥١. فدين الإسلام مصدر عظيم للحكمة وما تحتاجه من مهارات تفصلية توضح الإجمال.

فالغاية من هذه الدراسة، تقديم ما يمن الله تعالى علينا به من المهارات العقلية كما نفهمها من الآيات القرآنية او السنن النبوية، وهي في غاية الأهمية لأنها من ضرورات تحسين الأداء والتفوق (أي المغالبة والإستباق) في المجالات عموماً.

وينبغي التذكير بأن هذا الكتاب يُعَـدُّ تتمة لما بيناه من مهارات التفكير في (المنطلق في فقه العمل)، وفي (نخبة المسار في فقه القيادة والإدارة)؛ وقد نحتاج هنا إلى تكرار او اختصار بعض ما ذكرناه هناك.

الدكتور

وميض بن رمزي العمري

009647723421649
wrsalomari@yahoo.com

المبحث الأول

معاني ألفاظ مهمة تتصل بالتفكير وبالعلوم العقلية

....

والمقصود في هذا المبحث ذكر المعنى الإجمالي. وأما المهارات الفكرية او العقلية التفصيلية للمعاني المجملة، فسنذكر جملة صالحة منها في المباحث القادمة إن شاء الله تعالى.

التفكير:

التفكير هو تشغيل الرؤية العقلية او هو إِعْمَال الخاطر فِي الشَّيْء، كما هي عبارة ابن سيده في (المحكم)، او هو ممارسة النشاط الذِّهنيّ كما في (معجم العربية المعاصرة)، او هو التأمل كما في (الصحاح تاج اللغة)، او هو تحريك قوة المعرفة في النفس كما هو قريب من عبارة الراغب والسمين الحلبي. وفي القرآن الكريم نصوص كثيرة توجب التفكير وتوجب توجيهه إلى الخير والحق:

منها قوله تبارك وتعالى ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِى ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأنعام: ٥٠. فتدبر الإنكار الذي تتضمنه عبارة ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

ومنها قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الرعد: ٣، فتدبر أنها آيات لقوم يتفكرون، فكأن الذين لا يتفكرون ليسوا من أهل هذا الشأن.

ومنها نحو قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الرعد: ٣. واضح من هذه الآية وغيرها أن أنواع التفكير تتضمن التوسم أي البحث عن العلامات او الآيات التي توصل إلى المعاني الصحيحة.

ومنها قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٠ – ١٩١. فالتفكر الموصل إلى الحق هو من خصائص أولي الألباب.

وقال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ سبأ: ٤٦ . فتدبر الأهمية العظيمة للتفكير كما تدل عليه عبارة ﴿ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾، فكأنها هي دون غيرها.

وتدبر التوجيه الخاطئ للتفكير السقيم كما يوضحه التهديد في قوله تعالى ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ المدثر: ١١، إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾ المدثر: ١٨ – ٢٦.

التقدير:

القَدِيرُ والقادِرُ: مِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَكُونَانِ مِنَ القُدْرَة وهي ضد العجز، ومنه قوله تعالى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الملك: ١. وَيَكُونَانِ مِنَ التَّقْدِيرِ، وهو إبرام الأمر والحكم فيه وإمضاؤه، ومنه قوله تعالى ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ الفرقان: ٢، وقوله تعالى ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فصلت: ١٢، وقوله تبارك وتعالى ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ القمر: ١١ – ١٤، وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ المرسلات: ٢٠ – ٢٣. ولذلك ذكر ابن سيده في (المحكم) وذكرغيره أيضاً أن الْقدَر هو: الْقَضَاء وَالْحكم، أي هُوَ مَا يُقَدِّرُه اللهُ عَزَّ وجَلَّ من القَضاءِ ويَحْكُم بِهِ من الأُمورِ كما هي عبارة (تاج العروس). ومنه معنى «ليلة القدر» أي ليلة الحكم والقضاء كما يوضحه قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ الدخان: ٣ – ٤. ويتفرع من ذلك استعمال التقدير بمعنى القياس، قال ابن منظور: وقدْرُ كُلِّ شَيْءٍ ومِقْدارُه: مِقْياسُه. وقَدَرَ الشيءَ بِالشَّيْءِ يَقْدُرُه قَدْراً وقَدَّرَه: قاسَه. وقادَرْتُ الرَّجُلَ مُقادَرَةً إِذا قَايَسْتَهُ وَفَعَلْتَ مِثْلَ فِعْلِهِ. اهـ من (لسان العرب)، وقد يتضمن ذلك قوله تبارك وتعالى ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ المعارج: ٤.

ولذلك فإن التقدير في النشاط البشري يشمل التفكير المتكامل بالأمر ومهارات صناعة القرار فيه بما يتوافق مع القُدُرات. ويشمل ذلك قرار المنهج والقِيَم الصحيحة، وقرار صناعة الهدف، وقرار التقويم، وقرار التخطيط والتنفيذ وغير ذلك من أنواع القرارات. وفي كثير من الأحيان يُستعمل له اصطلاح «تقدير الموقف». ويشـمل في العربية التقدير السـليم والتقدير الفاسـد، ويوضحه ما ذكرناه قبل قليل من قوله تعـــالى ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ﴾ المدثر: ١٨ – ٢٠.

النظر:

قال مرتضى الزبيدي: وَفِي البَصائر: وَالنَّظَر أَيْضا تَقليبُ البَصيرةِ لإدراكِ الشيءِ ورُؤيتِه وَقد يُراد بِهِ التَّأَمُّل والفَحْص، وَقد يُراد بِهِ المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفحْص. وَاسْتِعْمَال النَّظَر فِي البَصَر أكثرُ اسْتِعْمَالا عِنْد العامّة، وَفِي البصيرة أَكثر عِنْد الخاصّة. وَيُقَال: نَظَرْتُ إِلَى كَذَا، إِذا مَدَدْتَ طَرْفَكَ إِلَيْهِ، رَأَيْتَه أَو لم تَرَهْ، ونَظَرْتُ، إِذا رَأَيْته وتَدَبَّرْته، ونظرْتُ فِي كَذَا: تأَمَّلته. اهـ من (تاج العروس). والفرق بين التفكير والنظر، أن «التفكير» يمكن أن يقع بقصد العبث، وأما «النظر» فكأنك وجهت تفكيرك لرؤية أمر معين، سـواء كان صالحاً او فاسـداً، والله تعالى أعلم.

وفي القرآن الكريم بيان لأهمية النظر او التفكير الموجه إلى الخير والحق:

من ذلك قوله تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٧. فكأن الناظر يرجع إلى الوراء كي يقف في بداية الحدث الماضي، ثم يسير إلى الإمام في دراسة تطور الأحداث وإلى نهاية المطاف، وسيأتي تفسير مفصل لنظير آية آل عمران، تحت عنوان: «التحليل والخبرة غير المباشرة»، إن شاء الله تعالى.

ومنه قوله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ العنكبوت: ٢٠.

ومنه قوله تعالى ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ ...... ﴾ عبس: ٢٤ – ٣٢.

ومنه قوله تعالى ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ الصافات: ٨٨ – ٩٣.

ويقع بكثرة أن يتعمد الإنسان توجيه فكره للنظر إلى باطل ولتزيينه، وقد سبق قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾ المدثر: ٢٠ – ٢٣.

العقل والقلب:

العقل عند الإنسان نوعان:

(النوع الأول): يتضمن معنى التمنع او الإمساك او ما يقارب الحبس كما هي عبارة ابن فارس في المقاييس. ومنه: الْمَعْقِلُ وَالْعَقْلُ، وَهُوَ الْحِصْنُ، وَجَمْعُهُ عُقُولٌ. والعَقْل أيضاً الدية فإنها تُمسك عن المؤاخذة في الخطأ وتُمسك المخطئ عن تكرار مثل هذا الخطأ. وفي (لسان العرب) عن الأَصمعي: مَرِضَ فُلَانٌ فاعْتُقِل لسانُه إِذا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْكَلَامِ. واعْتُقِل: حُبِس. وعَقَلَه عَنْ حَاجَتِهِ يَعْقِله وعَقَّله وتَعَقَّلَهُ واعتَقَلَه: حَبَسَه. وعَقَلَ الدواءُ بَطْنَه يَعْقِلُه ويَعْقُلُه عَقْلًا: أَمْسَكَه، وَقِيلَ: أَمسكه بَعْدَ اسْتِطْلاقِهِ، واسْمُ الدَّوَاءِ العَقُولُ.

وعَقَلَ البعيرَ يَعْقِلُه عَقْلًا وعَقَّلَه واعْتَقَلَه: ثَنى وَظِيفَه مَعَ ذِرَاعِهِ وشَدَّهما جَمِيعًا فِي وَسَطِ الذِّرَاعِ، وَكَذَلِكَ النَّاقَةُ، وَذَلِكَ الحَبْلُ هُوَ العِقالُ، وَالْجَمْعُ عُقُلٌ، كما في (لسان العرب).

فهذا النوع من العقل هو قوة النفس التي تجعل الإنسان يمتنع عن القبائح والرذائل ويحبس نفسه على الخير والمحاسن. وعبارة ابن فارس أن العقل هُوَ الْحَابِسُ عَنْ ذَمِيمِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. وأما عبارة ابن منظور فقال: وسُمِّي العَقْلُ عَقْلًا لأَنه يَعْقِل صاحبَه عَنِ التَّوَرُّط فِي المَهالِك أَي يَحْبِسه. اهـ من (لسان العرب). وعن الأصمعي قال العَقْل: الإمْساك عَن القَبِيح وقَصْر النَّفْس وحَبْسها على الحَسَن. اهـ (نقله ابن سيده في المخصص). فهذا النوع كثير في الإستعمال القرآني، وهو قريب جداً من معنى الحِجْر والنُّهى واللب، وهو نقيض الحمق والسفه. ولذلك يوصف الأحمق بالرجل الباحِر (من البحر) لأنه يتسع بجهله فيما لا يتسع فيه العاقل (مادة بحر في المقاييس).ويتصل هذا النوع بميل النفس وسكونها إلى الخير او الشر، ومحله في القلب او في محتوَى القلب. فالعقل بهذا المعنى يتضمن التصرف الحسن في المعاني الباطنة، ثم يتبعها ما يناسبها من القول والعمل. وواضح من هذه المعاني أن العقل هو مركز الهداية ويقبل الزيادة بالإكتساب والخبرة والتدريب.

فمن هذا النوع نحو قوله تعالى ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ** ﴾ الحج: ٤٦، فواضح أن آلة العقل هو القلب الذي في الصدر.

وكذلك قوله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا** ﴾ الأعراف: ١٧٩، وقوله تعالى ﴿ **وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ البقرة: ١٧١.

وتدبر في هذا المعنى قوله تعالى ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ الأنعام: ١١٣، فتدبر أن فؤاد غير المؤمن يمكن أن يصغى إلى الباطل ويتبعه، وهذا بخلاف العقل. فالفؤاد هو الدماغ (جندي القلب) كما ذهب إلى ذلك بعض المعاصرين؛ والمشهور عن أئمة العربية أن الفؤاد هو القلب. المهم هنا أن الفؤاد يمكن أن يميل إلى الحق او الباطل. قال ابن سيده: التَّفَؤُّدُ: التَّوَقُّدُ. والفُؤادُ: القَلْبُ لَتفَؤُّدِه وتَوَقُّدِه. اهـ من (المحكم). وقال تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ الإسراء: ٣٦. فمن هذا النوع توجيه الفؤاد إلى الخير والحق، وأما توجيه الفؤاد إلى الباطل والفساد فهو من النوع الثاني. والمسؤولية عن الفؤاد تعني أن في عمل الفؤاد جانباً مُكتَسَباً.

وقال تعالى ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ق: ٣٧، واضح أن المراد هنا: من كان له قلب مستجيب لله تعالى فهو يتذكر هذه المعاني ويعقِلها. وأما غير المستجيب فإن له قلباً لا يتذكر الحق بآياته وأدلته، فلا يعقل هذه المعاني، كما هو واضح من آية الحج وغيرها، ولكنه يعقل أي يفهم المعلومات المجردة عن مقتضيات الإستقامة.

ويؤكد ما سبق، حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ » رواه مسلم والبخاري وغيرهما، وينبه هذا الحديث الشريف أن كل جزء من الجسد له نصيب من عمل القلب أي عمل العقل. ولعل أعظم صلة بين القلب والجسد هي الصلة بين القلب والدماغ، فإن جملة من أعمال القلب أي العقل تصبح غير ظاهرة حين يقع تلف مؤثر في الدماغ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا »، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ » رواه مسلم وأحمد والترمذي والبزار والبيهقي.

ولذلك يُستعمل العقل في فهم وقبول المعاني الصحيحة، من ذلك قوله تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ٤٤، وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران: ٦٥، وقوله تعالى ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يونس: ١٦.

وقد وهبنا الله عز وجَلَّ الطريق إلى التعقُل أي إلى إجادة الإدراك، قال تبارك تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ الإنسان: ٣، وقال تعالى ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ البلد: ١٠، أي السبيلين، سبيل الخير وسبيل الشر. وقال تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ الليل: ١٢، المشهور في تفسير الآية: إن علينا بيان طريق الخير والشر؛ ويوجد احتمال آخر: إن علينا أن نهبكم او نخلق فيكم آلة الهداية، وقد جمع أبو حيان بين الإحتمالين فقال: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾: التَّعْرِيفَ بِالسَّبِيلِ وَمَنْحَهُمُ الْإِدْرَاكَ. اهـ من (البحر المحيط). وبعد هبة الرحمن، فإن العقل يُكتسَب باتباع أسباب الهداية ونمو العقل، يدل على ذلك نحو قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ الحج: ٤٦، فالسير في الأرض بأفق واسع ورؤية تحليلية يؤدي إلى المزيد من التعقل.

ومعروف أن الحكمة تُكتسب بالتعلم والخبرة والتدريب، فكذلك العقل فإن الحكمة جزء عظيم منه.

(النوع الثاني): عَقَل بمعنى فهم وعرف وبصرف النظر عن حسن او قبح المعاني الباطنة. يُقال: عَقَل يَعْقِل عَقْلاً فَهُوَ عاقِل، بوزن عَجَزَ يَعْجِز فَهُوَ عاجِز. ويُقال: عَقَلْتُ الشيءَ أَعْقِله عَقْلاً، أي فَهِمته. ويُقال: لِفُلان قَلْبٌ عَقُول، ولِسانٌ سَؤُول، وقَلْبٌ عَقُولٌ فَهِمٌ وهي صيغة مبالغة. وَيُقَالُ أَعْقَلْتُ فُلَانًا أَي أَلْفَيْته عاقِلًا. وعَقَّلْتُه أَي صَيَّرته عاقِلًا. وتَعَقَّل: تكَلَّف العَقْلَ كَمَا يُقَالُ تَحَلَّم وتَكَيَّس. وتَعَاقَل: أَظْهَر أَنه عاقِلٌ فَهِمٌ وَلَيْسَ بِذَاكَ.

ولعل منه قوله تعالى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٧٥. ونرجع إلى قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ الحج: ٤٦، فإن عمى القلوب يجعلها لا تعقل القِيَم المعنوية الصحيحة ومفاهيم الإستقامة، ولكنها تعقل المعلومات المجردة عن اتجاه التوظيف، أهو توظيف باتجاه الحق أم باتجاه الباطل؟ وعلى هذا المعنى كلام الأصوليين والفقهاء في أحكام التكليف، كقولهم إن الصبي او المجنون غير مكلف حتى يعقل.

وقد أخطأ من أطلق القول بأن العقل هو العلم او العلم بعلوم معينة كاستحالة المستحيلات، او بالقدرة على التمييز بين المعلومات، فإن هذه وظائف التفكير والنظر، وقد يكون محلها في الدماغ. وإيضاً فإن العالم بالضروريات او بغيرها قد ينكرها ويكفر بها بدافع الهوى ونحوه، فعلمه ليس بعقل كما أنه لم يعقِل في تصرفه الباطن والظاهر، ومنه قوله تعالى ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ

ﭐلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ النمل: ١٤، وقال تعالى ﴿ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ١٣٦ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨ ﴾ الصافات: ١٣٦ – ١٣٨، فإنهم يمرون عليهم ويشهدون عاقبتهم فلا يتعظون، فهم لا يعقلون. وقال تعالى ﴿ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان: ٤٤. وقال تعــالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ الحجرات: ٤.

الوعي:

الوَعْيُ حفظ الشيء في وعاء او حافظة، سواء حفظ الإنسان مالا او ألفاظاً او معان صالحة او معان رديئة او ثقافة او عقيدة. ويختلف الوعاء بحسب الشيء الذي تحفظه. يُقال: وَعَى يَعِي وَعْياً: أيْ حَفِظ وفهم. ويُقال: أوعى المَتَاع يوعيه إيعاء إِذا جمعه فِي وعَاء فَهُوَ مُوعًى.

قال ابـن منظور: الوَعْيُ: حِفْظ القلبِ الشيءَ. وعَى الشَّـيْءَ وَالْحَدِيثَ يَعيه وَعْياً وأَوْعاه: حَفِظَه وفَهِمَه وقَبِلَه، فَهُوَ واعٍ، وَفُلَانٌ أَوْعَى مِنْ فُلَانٍ أَي أَحْفَظُ وأَفْهَمُ. وَفِي الْحَدِيثِ: « نَضَّر اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقالَتي فوَعاها، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعى مِنْ سامِعٍ ». الأَزهري: الوَعِيُّ الحافِظُ الكَيِّسُ الفَقِيه. وَفِي حَدِيثِ أَبي أُمامة: لَا يُعَذِّبُ اللهُ قَلْباً وَعَى القُرآنَ؛ قَالَ ابْنُ الأَثير: أَي عقَلَه إِيماناً بِهِ وعَمَلًا، فأَما مَنْ حَفِظ أَلفاظَه وضَيَّعَ حُدوده فإِنه غَيْرُ واعٍ لَهُ؛ الأَزهري عَنِ الْفَرَّاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ الانشقاق: ٢٣؛ قَالَ: الإِيعاء مَا يَجْمعون فِي صُدُورِهِمْ مِنَ التَّكْذِيبِ والإِثم. وَتَقُولُ: اسْتَوْعى فُلَانٌ مِنْ فُلَانٍ حَقَّه إِذا أَخذه كُلَّهُ. وَفِي الْحَدِيثِ: فاسْتَوْعى لَهُ حَقَّه؛ قَالَ ابْنُ الأَثير: اسْتَوْفَاهُ كُلَّهُ مأْخوذ مِنَ الوِعاء. اهـ من (لسان العرب).

وقال العلامة أحمد مختار عمر: وعِي فلانٌ: انتبه من نوْمه أو غفْلتِه؛ وعِي من إهماله. وعَّى يوعِّي، وَعِّ، تَوْعِيَةً، فهو مُوَعٍّ، والمفعول مُوَعًّى. وعَّى فلانًا: نَصحَهُ وحمله على إدراك موضوع من المواضيع. توعية [مفرد]: مصدر وعَّى. واعٍ [مفرد]: جمعه: واعون. ووُعاة: اسم فاعل من وعَى ووعِيَ. واعيَة [مفرد]: صيغة المؤنَّث لفاعل وعَى ووعِيَ. فقد وَعْيَه في حادث سيّارة، عاد إلى وعيه، استعاد وَعْيَه: استعاد حواسّه، ثاب إليه رُشْده. اهـ من (معجم اللغة العربية المعاصرة).

فمن وعْي الخير قوله تبارك وتعـالى ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ الحاقة: ١١ – ١٢، فهذا الوعي ليس هو مجرد حفظ تسلسل الأحداث التأريخية، ولكنه إتعاظ بنجاة نوح وأصحابه وهلاك الكافرين، فوعي الأُذن متصل بالقلب. يؤكد ذلك أن المفعول (الهاء) في ﴿ وَتَعِيَهَآ ﴾ يصلح أن يرجع إلى التذكرة، أي تعي التذكرة أُذن واعية، وهذا هو ظاهر السياق ولا موجب للخروج عنه. فهذا وعي خاص بالمؤمنين بدليل نحو قوله تعـالى ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ غافر: ١٣.

ومن وعْي الشـر ما يوضحه قوله تعالى ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الانشقاق: ٢٢ – ٢٣، أي الله أعلم بما جمعوا في صدورهم ويكتمونه من توابع الكفر كنوايا الشـر والعداء.

ومن هذا النوع قوله تعالى ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ المعارج: ١٥ – ١٨، أي جعل ما جمعه في وِعاء فلا يبذل منه ما أوجب الله تعالى بذله.

وعَنْ أَسْمَاءَ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لَهَا: « أَنْفِقِي أَوْ انْضَحِي، وَلَا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللهُ عَلَيْكِ، أَوْ لَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ » رواه أحمد والبخاري، والسياق لأحمد، وصححه شعيب الأرنؤوط على شرط الشيخين.

ويُفهم من آية المعارج وحديث أسماء رضي الله عنها أن عليك أن لا تغلق وعاء الخير، ولكن قم بضبط ما يخرج منه. وقد ألَّف كاتب (أظنه أميركياً) كتاباً بعنوان: «مُت فارغاً»، ومضمونه الإجمالي: أخرِج ما في عقلك من أفكار ومعان مفيدة قبل أن تموت وتُدفن معك في قبرك.

ومن هذا النوع حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْخَيْفِ، فَقَالَ: « نَضَّرَ اللهُّ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَا فِقْهَ لَهُ، وَرَبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ » رواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، ورواه أيضاً الإمام أحمد وأبو يعلى والدارمي.

واضح من حديث جبير بن مطعم، ومن بعض أمثلة ابن منظور في (لسان العرب) أن الوعي (بمعنى إدراك المعاني) أنواع، وأنه درجات ضمن النوع الواحد. فيمكن أن يكون الوعي ناقصاً ويحتاج إلى المزيد من التوعية.

الرؤية:

الرؤية النظر بالعين والقلب كما ذكر ابن سيده في (المحكم) وغيره. وَرَجُلٌ ذُو رَأْيٍ أَيْ بَصِيرَةٍ وَحِذْقٍ بِالْأُمُورِ. وجمع الرأي آراءٌ.

فمن رؤية العين ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗا ﴾ الأنعام: ٧٦، وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ ﴾ يوسف: ٢٨. ويمكن لرؤية العين او الحاسة الظاهرة أن تكون

خاطئة، فقد قال تعالى ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ النمل: ٤٤.

وأما رؤية الفكر او القلب، فهو تقدير بالتفكر او بالحاسة الباطنة او بالتعليم او بالإدعاء. وبعبارة أُخرى، هو الرأي الذي يراه الإنسان في معنى أمر معين وفي تقويمه، او ما يراه بادعائه، ويمكن أيضاً أن تكون صائبة او خاطئة.

فمن الرؤية الصائبة للعقل او القلب رؤية يوسف عليه السلام كما في قوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ يوسف: ٢٤، وقوله تعالى ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ سبأ: ٦.

ومن الرؤية الخاطئة، للقلب او الفكر، قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ الأعراف: ٦٦، وقوله تعالى ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ فاطر: ٨، وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الأحقاف: ٢٤. وقال تبارك وتعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ غافر: ٢٩، وهذا مجرد ادعاء من فرعون، فقد قال تعالى ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ النمل: ١٤.

وسواء كانت رؤية الفكر صحيحة او خاطئة، فإنها درجات. مثال ذلك أن الرؤية الصحيحة تتفاوت بين اليقين وما دونه من الدرجات، فمن اليقين قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾

النساء: ١٠٥، فهذه رؤية يقينية بالتعليم عن طريق الوحي، ولعلها سُمِّيت رؤية لأن صاحبها متيقن وكأنه يراها بعينه. وقريب من ذلك غير أن المجتهد معرض للخطأ في فهم الحكم، قوله تعـــالى ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾ البقرة: ١٢٨.

ومن جهة أُخرى، يمكن أن تنزل درجة الرؤية إلى الظن والخيال. قال أحمد بن محمد بن علي الفيومي رحمه الله: «اَلَّذِي أُرَاهُ»، بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ بِمَعْنَى الَّذِي أَظُنُّ، وَبِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ بِمَعْنَى الَّذِي أَذْهَبُ إِلَيْهِ. اهـ من (المصباح المنير). وقال أبو الفيض مرتضى الزبيدي رحمه الله: الرُّؤيَةُ، بالضَّمِّ: إدْراكُ المَرْئي، وذلكَ أَضْرُب بحَسَبِ قُوَى النَّفْس: الأوَّل: النَّظَرُ بالعَيْنِ، الَّتِي هِيَ الحاسَّة وَمَا يَجْرِي مجْراها. والثَّاني: بالوَهْمِ والتَّخَيّل نَحْو: أَرَى أَنَّ زيْداً مُنْطَلِقٌ. والثَّالث: بالتّفَكّر. والرَّابع: بالقَلْبِ، أَي بالعَقْل. اهـ مع اختصار من (تاج العروس).

وكثر في كلام السلف استعمال كلمة «الرأي» في القضايا الإجتهادية حين لا يتيقن المجتهد من الإصابة، او حين يخشى من الخطأ في التفريعات وفي الأعمال التنفيذية، فلا يريد أن يُنسب الخطأ إلى الإسلام، ولكنه يقول إنه رأيه واجتهاده ونحو ذلك، وهذا بخلاف ضعيف الرأي فإنه قد يستسهل أن يقول: الشرع كذا والسنة كذا وحكم الله تعالى كذا، وهو لا يشعر أنه أخطأ في كثير مما قاله!! فعن ابن مسعود أنه قال في غير ما مسألة: أقول فيها برأيي. اهـ. وعن الشعبي قال: لما بعث عمر شريحاً على قضاء الكوفة قال له: «وما لم يتبين لك فيه السنة فاجتهد رأيك». وعن ابن مسعود نحوه. وعن ابن عباس إذا سئل عن شيء، فإن لم يكن في كتاب الله ولا عن رسول الله ﷺ ولا عن أبي بكر ولا عن عمر اجتهد رأيه. روى هذه الآثار الإمام ابن عبد البر في (جامع بيان العلم ٢/ ٧١-٧٤).

....

الملاحظة:

قال ابن سيده وغيره: لَحَظَه يلْحَظُه لَحْظاً ولَحَظاناً، نظره بمؤخر عينه من أَي جانبيه كَانَ، يَمِينا أَو شمالا. اهـ من (المحكم). واللحظ أَشدّ الْتِفَاتًا مِنَ الشزْر كما في (لسان العرب). ومنه «الملاحظة» وهي صيغة مفاعلة من لَحَظ. وعلى ذلك كلام أئمة العربية في المعاجم، وأصل ذلك أن اللِّحاظ: مُؤَخَّر العَيْن او مَا يَلِي الصدغ من كل عين.

غير أن كثيراً من علماء الأمة والشعراء استعملوا عبارة «لَحَظَ» بمعنى: نظر إلى شيء معين بعينه او نظر في شيء بعقله وبصيرته، من غير ربط بين موقع اللحاظ وحركة العين في حجرتها. من ذلك قول صاحب (طرح التثريب): فَكَأَنَّ الْفَارِقِيَّ لَحَظَ كَوْنَ الْفَصْلِ مِنْ مَصْلَحَةِ الصَّلَاةِ. اهـ. ومنه قول ابن حجر في (فتح الباري): وَكَأَنَّ صَاحِبَ الْقَوْلِ الثَّانِي لَحَظَ أَنَّ الْمُطْلَقَ يَنْصَرِفُ إِلَى الْكَامِلِ. اهـ. ومنه قول الزرقاني: كَأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لَحَظَ هَذَا الْمَعْنَى. اهـ . ومنه قول ابن رشد في (بداية المجتهد ونهاية المقتصد): وَمَنْ لَحَظَ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قُلْنَاهُ. اهـ. ومنه قول الشريف الرضي: (طأْطأت لحظ العين حين خطا .... وَالبَيْنُ يَرْمُقُني وَيَرْمُقُهُ). وتوجد أمثلة كثيرة أخرى في كتب التفسير والفقه وعلوم العربية والأخلاق والرقائق وغيرها.

فالملاحظة في هذه الدراسة هي رؤية شيء معين او النظر إليه، بصرف النظر عن حركة العين داخل حجرتها. وواضح أيضاً من كلام السلف المذكورين هنا وغيرهم، أن اللَّحْظَ يُستعمل (ولو مجازاً) في ملاحظة المعاني أي رؤية العقل والقلب، وفي الأمثال: «لحظ أصدق من لفظ». وإذا كانت الملاحظة مقصودة فهي أشبه بالمراقبة.

الحكمة:

الحكيم هو المتصِف بالحكمة، وهو من صفات الله تعالى ومن صفات القرآن الكريم. قال تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ يوسف: ١٠٠. وقال تعالى

﴿ الَرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ يونس: ١، وقال تعالى ﴿ يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٥ ﴾ يس: ١ – ٥، فالقرآن الكريم مصدر عظيم للحكمة.

والحكمة عند الإنسان هي حُسْن او إتقان وإجادة التعبير والتصرف، واجتناب ما يُعيب ويُشين. والإحكام الإتقان، ولا يتحقق تحصيل ذلك إلا بتنمية العقل وإتقان التفكير؛ والحكماء درجات في ذلك.

قال ابن الأثير: فِي أَسْمَاءِ اللهَّ تَعَالَى «الحَكَم والحْكِيمُ» هُمَا بِمَعْنَى الحَاكِم، وَهُوَ الْقَاضِي والحكيم. والحِكْمةُ عِبَارَةٌ عَنْ مَعْرِفَةِ أفضلِ الْأَشْيَاءِ بِأَفْضَلِ الْعُلُومِ. وَيُقَالُ لِمَنْ يُحسِنُ دَقَائِقِ الصِّناعات ويُتْقِنُها: حَكِيم. اهـ من (النهاية).

وقال ابن منظور: وأَحْكَمَ الأَمرَ: أَتقنه، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذا كَانَ حَكِيمًا: قَدْ أَحْكَمَتْه التجارِبُ. وَالْحَكِيمُ: الْمُتْقِنُ للأُمور. الأَزهري: وحَكَمَ الرجلُ يَحْكُمُ حُكْماً إِذا بَلَغَ النِّهَايَةَ فِي مَعْنَاهُ مَدْحًا لَازِمًا؛ أَبو عَدْنَانَ: اسْتَحْكَمَ الرجلُ إِذا تَنَاهَى عَمَّا يَضُرُّهُ فِي دِينه أَو دُنْياه؛ وأَحْكَمْتُ الشَّيْءَ فاسْتَحْكَمَ: صَارَ مُحْكَماً. واحْتَكَمَ الأَمرُ واسْتَحْكَمَ: وثُقَ. اهـ من (لسان العرب).

وقال ابن منظور أيضاً: وحَكَمَ الشَّيْءَ وأَحْكَمَهُ، كِلَاهُمَا: مَنَعَهُ مِنَ الْفَسَادِ. وحَكَمَ الرجلَ وحَكَّمَه وأَحْكَمَهُ: مَنَعَهُ مِمَّا يُرِيدُ. وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَ الرَّجُلُ يَرِثُ امرأَةً ذاتَ قَرَابَةٍ فيَعْضُلُها حَتَّى تموتَ أَو تَرُدَّ إِليه صَدَاقَهَا، فأَحْكَمَ اللهُّ عَنْ ذَلِكَ وَنَهَى عَنْهُ أَي مَنَعَ مِنْهُ. يُقَالُ: أَحْكَمْتُ فُلَانًا أَي مَنَعْتُهُ، وَبِهِ سُمِّيَ الحاكمُ لأَنه يَمْنَعُ الظَّالِمَ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ حَكَمْتُ الفَرسَ وأَحْكَمْتُه وحَكَّمْتُه إِذا قَدَعْتَهُ وكَفَفْتَه. وحَكَمْتُ السَّفِيه وأَحْكَمْتُه إِذا أَخذت عَلَى يَدِهِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ جَرِيرٍ: (أَبَني حَنِيفَةَ، أَحْكِمُوا سُفهاءكم). وحَكَمَةُ اللِّجَامِ: مَا

أَحاط بحَنكَي الدَّابَّةِ، والحَكَمَةُ: حَدِيدَةٌ فِي اللِّجَامِ تَكُونُ عَلَى أَنف الْفَرَسِ وحَنكِهِ تَمْنَعُهُ عَنْ مُخَالَفَةِ رَاكِبِه. اهـ مع اختصار من (لسان العرب).

<u>وقال الراغب الأصفهاني</u>: ومكارم الشريعة هي الحكمة، فبالتعلم يتوصل إلى الحكمة، وباستعمال العفة يتوصل إلى الجود، وباستعمال الصبر تدرك الشجاعة والحلم، وباستعمال العدالة تصحح الأفعال. والذي يلزم تطهيره من النفس هو القوى الثلاث: قوة الفكر بتهذيبها حتى تحصل الحكمة والعلم، وقوة الشهوة بقمعها حتى تحصل العفة والجود، وقوة الحمية بإسلاسها حتى تنقاد للعقل فتحصل الشجاعة والحلم، ويتولد من اجتماع ذلك العدالة. اهـ عبارات منتقاة من (الذريعة إلى مكارم الشريعة).

<u>وتوجد أخبار كثيرة ذكرها السلف او نقلوها تدل على ما ذكرناه في معنى الحكمة، فمنها</u>:

عن هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ: الرِّفْقُ رَأْسُ الْحِكْمَةِ.» رواه وكيع في (الزهد). وعن أَبِي حَبِيبٍ السُّلَمِيُّ قَالَ: «قَرَأْتُ فِي الْحِكْمَةِ: أَنْصِتْ لِلسَّائِلِ حَتَّى يَنْقَضِيَ كَلَامُهُ، ثُمَّ ارْدُدْ عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ، وَكُنْ لِلْيَتِيمِ كَالْأَبِ الرَّحِيمِ، وَكُنْ لِلْمَظْلُومِ نَاصِرًا، لَعَلَّكَ تَكُونُ خَلِيفَةَ اللهِ فِي أَرْضِهِ.» رواه أحمد في (الزهد).

وقال أبو العباس المبرد: وأعجب ما في الإنسان قلبه، وله موادّ من الحكمة، وأضداد من خلافها، فإنْ سنح له الرجاء أذلّه الطمع، وإن أسعد بالرضا نسى التحفّظ، وإن ناله الخوف شغله الحذر، وإن أفاد مالا أطغاه الغنى .... فكلّ تقصير به مضرّ، وكل إفراط له مفسد. اهـ مع اختصار من كتاب (الفاضل).

وقال ابن عبد ربه الأندلسي: نوادر من الحكمة: قيل لقسّ بن ساعدة: ما أفضل المعرفة؟ قال: معرفة الرجل نفسه. قيل له: فما أفضل العلم؟ قال: وقوف المرء عند علمه. قيل له: فما أفضل المروءة؟ قال: استبقاء الرجل ماء وجهه. وقال الحسن: التقدير نصف الكسب، والتّؤدة نصف العقل، وحسن طلب الحاجة نصف العلم. وقالوا: لا عقل

كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق، ولا غنى كرضا عن الله، وأحقّ ما صبر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل. وقالوا: التفكّر نور والغفلة ظلمة، والجهالة ضلالة، والعلم حياة، والأول سابق، والآخر لاحق، والسعيد من وعظ بغيره. اهـ من (العقد الفريد).

وقال أبو الليث السمرقندي: قَالَ مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، فِي الْحِكْمَةِ: مَنْ أَبْصَرَ عَيْبَ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ تَعَرَّى عَنْ لِبَاسِ التَّقْوَى لَمْ يَسْتَتِرْ بِشَيْءٍ، وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فِي يَدِ غَيْرِهِ وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قَطَعَ بِهِ يَدَهُ، وَمَنِ احْتَفَرَ بِئْرًا لِأَخِيهِ، وَقَعَ فِيهَا، وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ غَيْرِهِ، انْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ، وَمَنْ نَسِيَ زَلَلَ نَفْسِهِ، اسْتَعْظَمَ زَلَّةَ غَيْرِهِ، وَمَنِ اسْتَغْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ، وَمَنْ فَخَرَ عَلَى النَّاسِ قُصِمَ، يَعْنِي كُسِرَ، وَمَنْ سَفِهَ عَلَيْهِمْ شُتِمَ، وَمَنْ صَاحَبَ الْأَرْزَالَ حُقِّرَ، وَمَنْ جَالَسَ الْعُلَمَاءَ وُقِّرَ، وَمَنْ دَخَلَ مَدْخَلَ السُّوءِ اتُّهِمَ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالدِّينِ ارْتَطَمَ، وَمَنِ اغْتَنَمَ أَمْوَالَ النَّاسِ افْتَقَرَ، وَمَنِ انْتَظَرَ الْعَافِيَةَ اصْطَبَرَ، وَمَنْ جَهِلَ مَوْضِعَ قَدَمِهِ مَشَتْ فِي نَدَامَةٍ، وَمَنْ خَشِيَ اللهَ فَازَ، وَمَنْ لَمْ يُجَرِّبِ الْأُمُورَ خُدِعَ، وَمَنْ صَارَعَ أَهْلَ الْحَقِّ صُرِعَ، وَمَنِ احْتَمَلَ مَا لَا يُطِيقُهُ عَجَزَ، وَمَنْ عَرَفَ أَجَلَهُ قَصُرَ أَمَلُهُ، وَمَنْ تَعَوَّدَ طَرِيقَ الْجَهْلِ تَرَكَ طَرِيقَ الْعَدْلِ. اهـ مع اختصار من (تنبيه الغافلين).

وقد أمرنا الله تعالى بتعلم الحكمة، قال تعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ النحل: ١٢٥؛ وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ الجمعة: ٢؛ وقال تعالى ﴿ **وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ الزخرف: ٦٣.

المبحث الثاني

بناء الرؤية القوية والوعي الصالح

....

الرؤية القوية ليست وصفاً بسيطاً (أي واسعاً) واحداً، ولكنه وصف مركب من منهج متعدد المهارات. والمتشبع بهذا المنهج يصير جديراً برؤية قوية واسعة لأُفق القضية التي يتصدى لها، وكأنه مشهد مُصَغَّر أمامه، فنستعين بالله تعالى على إيضاح هذه المهارات.

قوة الملاحظة
وتحليل العلامات

تظاهر النصوص التي
توجه إلى الرؤية والملاحظة:

في القرآن الكريم نصوص كثيرة في هذا المجال، تتضمن الأمر بالنظر والملاحظة او الإرشاد إليه، وتحليله والإستنتاج منه. وبعض الآيات تذكر حقائق وتنبه إلى إمكان استنتاجها حين توجد رؤية جيدة او ملاحظة قوية.

من ذلك قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ الحج: ٦٥، فتدبر عبارة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ... ﴾، ولها نظائر كثيرة في القرآن الكريم، وهي تحض على أن يكون للإنسان رؤية منتجة لما تدل عليه الأشياء حوله، أي يلاحظ العلامات

ويحللها ويستنبط منها. وبعبارة أُخرى، ينبغي للمسلم أن تكون له رؤية عقلية واسعة ومنتجة للأفكار، ولكنه مستعد لإخضاعها لنصوص القرآن والسنة.

وقال تعالى ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ .... ﴾ الشعراء: ٢٢٤ – ٢٢٧، فينبغي لقوي الملاحظة أن يرى أنهم في كل واد يهيمون، وما هي مقتضيات هذه الصفة.

وقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المجادلة: ٨.

وقال تعالى ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ طه: ٨٩.

وقال تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ الأنعام: ٤٦.

وقال تعالى ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٧. فتدبر عبارة ﴿ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ ... ﴾، فتدبر أنه يمكن لأحدنا أن يقول: فانظروا عاقبة المكذبين، أي انظروا نهايتهم، غير أن الله تعالى في آيات كثيرة أمر بأن يتناول النظر: «كيف كان عاقبة ..»، أي كيف حدث ذلك. ويتضمن ذلك تحليل المسار التأريخي عموماً، كيف نهضوا، ما هي عوامل القوة وعوامل الضعف في مسارهم، ما هي المؤثرات عليهم، ثم كيف تغلبت عوامل الضعف وأدخلتهم في الإنحدار؟ وسيأتي تفسير مفصل لآيات السير في الأرض إن شاء الله تعالى.

وقال تعالى ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ العنكبوت: ٢٠.

وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ يونس: ٦٧.

وتوجد آيات أخرى كثيرة.

تأثير ختمة التدبر:

أغنى مصدر لتعلم الحكمة ومهارات التفكير هو القرآن الكريم، ولاستخراج هذه الفوائد نحتاج إلى تدبر القرآن، وهو يختلف عن تلاوة القرآن، فإن التركيز في التلاوة على الجهاز الصوتي مع الذاكرة او بدونها. وأما تدبر القرآن فهو حركة الفكر في معاني القرآن، فهي قراءة بالنظر والعقل من غير صوت، وقد تكلمنا بالتفصيل عن منهج ختمة التدبر، وعن أهميتها في (نخبة المسار/ المبحث السادس، تحت عنوان: الهداية المستمرة «ختمة التدبر»).

وواضح في هذه الدراسة أن نصوص الإسلام هي أفضل مصدر للمهارات العقلية. ونكتفي هنا بذكر بعض أوصاف القرآن التي تجعله أغنى مصدر لتعلم الحكمة والمهارات العقلية.

فمن أسماء القرآن: الفرقان، فنتعلم منه أُصول التفريق المعنوي بين الأُمور المختلفة، كالحق والباطل، والحسن والقبيح. قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الفرقان: ١ .

وقال تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ ص: ٢٩، فإن عبارة ﴿ مُبَٰرَكٞ ﴾ اسم للمفعول من «بارك»، والبَـرَكة هي الزيادة والنماء

بالخير المادي والمعنوي، فمن مضامين وصفه بأنه مبارك أن فيه من المعاني والفوائد ما يزيد على كل مقدار.

وقال تعالى ﴿ .... قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ المائدة: ١٥ – ١٦. فالقرآن الكريم نور وكتاب مبين، وبه الهداية إلى سبل السلام وإلى الإخراج من الظلمات والعمى المعنوي إلى النور وإلى صراط مستقيم بلا اعوجاج.

وقال تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ لقمان: ٢ – ٣. وقال تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ الإسراء: ٨٢.

وقال تعالى ﴿ .... وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ فصلت: ٤١ – ٤٢. فالقرآن كتاب عزيز، لا يُوهنه إنكار المنكرين ولا يُذله جحود الجاحدين ولا يمكن النيل منه بما قبله من عقائد وأفكار ولا بما يأتي بعده مما يفتعله الناس من مذاهب وآراء؛ فالقرآن كما قال تعالى ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ الإسراء: ١٠٥.

ونختم هذا العنوان بقوله تعـــالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ الفرقان: ٣٣.

....

ملاحظة العلامات والتعامل معها:

(مهارة التوسُّم): قال تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ الحجر: ٧٢ – ٧٦.

فلنتدبر عبارة ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾:

أما «الآية»: فهي الدليل والعلامة الصحيحة الثابتة التي تدل على أمر من المهم أن يُعرف سواء كان خيراً او شراً. من ذلك نحو قوله تعالى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ الشعراء: ١٢٨، أي تبنون آية أنكم تعبثون، بمعنى: تبنون دليلاً أكيداً وعلامة على عبثكم؛ وقال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ آل عمران: ٤١. وقال تعالى ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا .... ﴾ آل عمران: ١٣. وقال تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ يوسف: ١٠٥ . وقال ابن منظور: وَآيَاتُ اللهِ: عَجَائِبُهُ، والآيَة: الْعَلَامَةُ. أهـ من (لسان العرب).

وأما التوسُّم: فهو من «السِّمَةِ» وهي العلامة والأثر الذي يدل على شيء، وبعيرٌ موسومٌ: وُسِمَ بسمةٍ تدل على أنه لفلان، وفلانٌ مَوْسومٌ بالخير او الشّرّ، أي: عليه علامته، وتوسمتُ فيه الخَيْرَ او الشَّرّ، أي: رأيت فيه أثره وعلامته، والوَسَامة: الحُسْن، والوَسِيم: الثابتُ الحُسْن: كأنّه قد وُسِم. ومَوْسِم الحج سُمِّي مَوْسِماً لأنّه مَعْلمٌ يُجتَمَع إِلَيْهِ، وَكَذَلِكَ كَانَت مواسمُ أسواقِ العَرَب فِي الجاهليّة. وتدبر أن لفظ «مُتوسِّم» بصيغة «مُتفعِّل» وهو اسم الفاعل من «تـفَعَّل»، تقول تَصبَّر فهو مُتَصَبِّر وتَوَسَّم فهو مُتَوَسِّم. ويمكن أن يدل

على واحدة من ثلاث درجات من الفاعلية أي من قيام الوصف بالإنسان. **الدرجة الأولى**: أن يكون الوصف حالة مؤقتة كقولك: فلان مُتوَرِّك (أي جلس متوركاً)، وفلان مُتخوِّف، تريد أنه متخوف بسبب قضية طارئة. **الدرجة الثانية**: أن يكون الإنسان سائراً في مسار الوصف كي يثبت عليه، كما يُقال: فلان مُتصبِّر ومُتفهِّم ومُتبصِّر. **الدرجة الثالثة**: أن يصير الوصف راسخاً وكأنه سجية، فبهذه الإرادة يُقال: فلان مُتكبِّر ومُتَشَـدِّدٌ ومُتقَلِّب ومُتعفِّف ومُـتَوَرِّع ومُتَربِّص ومُتهوِّد. ولا شك أن الدرجة الثانية من التوسم أشـد من الأولى، والدرجة الثالثة أشـد من الثانية، حيث يُراد من كلمة ﴿ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴾، أي للمتعاملين بكفاءة عالية مع العلامات بالبحث والتفكر والإنتفاع، لأن التوسم جزء ثابت من تفكيرهم. ومن أهم مضامين الكفاءة العالية أنك تلاحظ التفاصيل المهمة التي يغفل عنها الآخرون، وأنك تلاحظ المعاني الخفية التي لا يدركها الآخرون. وقد تكون السمة نافعة جداً في فهم حقيقة الحدث، وهذا كقول بعضهم: إذا لم تعرف مصدر المال فتعرَّف إلى حركته وأين يذهب.

أهمية قوة الملاحظة:

من العلامات ما يبدو ظاهراً وبالرؤية الأولى، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد او لايدرك ببادىء النظر، بل يحتاج إلى رؤية ثانية وثالثة او أكثر، يدل على ذلك قوله تعـــالى ﴿ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا ﴾ البقرة: ٢٧٣، تنبه الآية أن من الجهل عدم التوسم.

ملاحظة لحن القول ونحوه: تدبر قوله تعالى ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠ ﴾ محمد: ٢٩ – ٣٠. ملاحظة لحن القول هي

ملاحظة ما يميل إليه المتكلم وإن لم يصرح به. قال الأزهري: قَالَ اللَّيْث: اللَّحْنُ مَا تَلْحَنُ إِلَيْهِ بلسانِك أَي تَمِيلُ إِلَيْهِ بِقَوْلِك. وَقَالَ أَبُو إِسْحَاق الزجَّاجُ ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ أَي نحوِ القَوْل. دلَّ بِهَذَا وَالله أعلم أنَّ قولَ القائلِ وفعلَه يَدُلاَّن على نِيَّتِه وَمَا فِي ضميرِه. اهـ من (تهذيب اللغة). وقال ابن عطية: لَحْنِ الْقَوْلِ، معناه: في مذهب القول ومنحاه ومقصده، وهذا هو كما يقول لك إنسان معتقده وتفهم أنت من مقاطع كلامه وهيئته وقرائن أمره أنه على خلاف ما يقول، وهذا معنى قوله: «فِي لَحْنِ الْقَوْلِ». ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: « فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض »، الحديث، أي أذهب بها في جهات الكلام. اهـ من (تفسير ابن عطية).

ومن فوائد الآيتين الكريمتين وغيرها من أدلة الملاحظة، ومنها آية سورة الحجر، أي قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾:

(الفائدة الأولى): واضح من الآيتين أن ملاحظة العلامات يمكن أن يؤدي إلى المعرفة، وذلك بحسب وضوح العلامة وقوة مفهومها. وتوجد علامات أخرى غير كافية لإنتاج المعرفة وتحتاج إلى مزيد من البحث. المهم هنا أن كل نشاط يمكن أن يؤدي إلى المعرفة فهو نشاط في غاية الأهمية. وتدبر عبارة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾، فكأن غير المتوسمين لا ينتفعون بمثل تلك الآيات.

(الفائدة الثانية): الملاحظة المبكرة للآفات، أي قبل أن تتفاقم. وهذا من الضروريات، فإن المشكلة المتفاقمة يراها العالم والجاهل، والذكي والغبي. فسلامة المؤسسة كسلامة الفرد إذا أصابه داء، سلامته في الرؤية المبكرة للأعراض المرَضية، فإن كان المرض شديداً فمن الضروري معالجته في بداية الأمر. فإن كانت الأعراض هينة طفيفة في بدايتها، ولكنها يمكن أن تنمو او تنتشر او تصبح مزمنة، فهي أعراض مهمة

وتستحق المعالجة بحسب شأنها. وكل ظاهرة عارضة تقترن بها يدفع إحتمالات النمو والإنتشار والضرر، فإنها يمكن أن تكون ظاهرة غير مهمة وليست جديرة بالإشتغال، وهذا كما أن الرجل الصحيح لابد وأن يشعر أحياناً بقليل من الصداع او التعب او شبه ذلك من العوارض .

(الفائدة الثالثة): إن من أهم أهداف التوسم او ملاحظة العلامات هو معرفة الميول والمقاصد غير المعلنة والأوصاف الخفية في تصرف الأشخاص والجماعات، غير أنه غير محصور بذلك، بل يشمل كل ملاحظة يمكن أن تكون نافعة. مثال ذلك عبارة ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾، في سياق قصة لوط عليه السلام وكيف أنجاه الله تعالى وأصحابه وأهلك قومه. فالتوَسُّم هنا يقع على ملاحظة الحدث التأريخي وتحليل محاوره وعلاماته والإعتبار بها. وقريب من ذلك قوله تعالى ﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا** .... ﴾ آل عمران: ١٣، فإن الآية توصي بملاحظة النظائر السابقة.

وأيضاً، فإن التوسُّم جزء مهم من مضامين «الحذر» و«الرصد»، كما في قوله تعالى ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ التوبة: ٥، فإن الراصد غير المؤهل لا يلاحظ إلا الحدث الصريح الكبير، وأما الراصد المؤهل فإنه يلاحظ بدايات الحدث، والتمهيد له قبل الشروع فيه، ويتخذ ما يلزم من مضامين الحذر.

ومع ذلك، ينبغي التنبيه إلى تحكيم العقل والعلم والخبرة وضبط النفس في الأعمال التنفيذية للحذر، كي لا يقع الراصد في الإسراف، كما يوضحه قوله تعالى ﴿ **يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ** ﴾ المنافقون: ٤، وسيأتي الكلام عن الإسراف في الحذر تحت عنوان «من موانع صحة التفكير» إن شاء الله تعالى.

وقال بعض مشاهير اللصوص:

لَقَد خِفتُ حَتّى لَو تَمُرُّ حَمامَةٌ　　لَقُلتُ عَدُوٌّ أَو طَليعَةُ مَعشَرِ
وَخِفتُ خَليلي ذا الصَّفاءِ وَرابَني　　وَقيلَ فُلانٌ أَو فُلانَةُ فَاحذَرِ
فَأَصبَحتُ كَالوَحشِيِّ يَتبَعُ ما خَلا　　وَيَترُكُ مَأنوسَ البِلادِ المُدَعثِرِ
إِذا قيلَ خَيرٌ قُلت هَذي خَديعَةٌ　　وَإِن قيلَ شَرٌّ قُلتُ حَقٌّ فَشَمِّرِ

وللملاحظة أثر مهم في الأحكام الفقهية، بل ينبغي إعطاء الملاحظة حقها في نحو قوله تعالى ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ البقرة: ١٨٢، وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ﴾ النساء: ٦، وقوله تعالى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الأنفال: ٥٨. فهذه الأحكام تعتمد على الإتقان في ملاحظة العلامات.

وكذلك أمر الملاحظة والتوسُّم في البحوث الطبيعية والإجتماعية والسياسية وفي العلاقات والإستجابات وغيرها، بل إن البناء على الملاحظة الجيدة أدى إلى اكتشافات كبيرة في الطب وغيره. ولا ريب أن كل إنسان يحتاج إلى مهارة في الملاحظة والتوسُّم.

(الفائدة الرابعة): أن التوسُّم يشمل معرفة الدوافع والنوايا كما تنبه إليه آيتا سورة محمد، فإن مضامين الآيتين تشمل معرفة من في قلبه مرض وضغينة أي حقد.

(الفائدة الخامسة): يتفاوت الناس في قوة التوسُّم او ملاحظة العلامات، كما تدل عليه عبارة ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ .... ﴾، فهذا حال الجاهل، وأما حين تتلاشى استقامة التوسُّم فإن الإنسان يُعرض عن العلامات ويسخر منها،

قال تعـــالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ الصافات: ١٤ – ١٥.

ومن عمل الطبيب تتضح أهمية قوة الملاحظة والتفاوت فيها. فإن الطبيب يجمع علامات المرض المسـموعة (كلام المريض)، والمرئية (الفحص السريري)، والباطنة (نتائج المختبر وتصوير الباطن)، كل ذلك لأجل تشخيص المرض وعلاجه. وعمل الطبيب يوضح الأهمية العظيمة لقوة الملاحظة، فإن نسبة عالية من المرضى يمكن تشـخيصهم بالإنتباه إلى العلامات المسـموعة والمرئية، أي من غير تحريات لكشـف الباطن. ومن كان ضعيف الملاحظة فإنه قد يلجأ إلى كثير من التحريات التي لا داعي لها، مما يُرهق المريض والمؤسسة الصحية. ومن جهة أُخرى، إذا أغفلت الملاحظة علامة مهمة، فإنها قد توقع ضرراً كبيراً بالمريض وربما تؤدي إلى الوفاة.

وتدبر كيف أن الطبيب يبدأ بالعلامات المسـموعة ثم المرئية (الفحص السـريري)، ثم يلجأ عند الحاجة فقط إلى رؤية الباطن (التحريات المختبرية والتصويرية)، وبعد كل ذلك قد لا يصل إلى قرار حاسـم، فيضطر إلى اعتبار الإحتمالات والإحتياطات في علاج المريض.

وكذلك ينبغي أن يكون عمل الرجل الكفوء من الشرطة والإستخبارات، فإنه يجمع العلامات المتنوعة، ويقوم بالتحريات التي لها صلة محتملة. وقد لا يصل إلى نتيجة حاسمة، فلا يلجأ حينذاك إلى الإكراه، ولكنه يُعالج الموقف وفقاً للإحتمالات المعتبرة وما تقتضيه من إجراءات وقائية.

(الفائدة السادسة): تتفاوت العلامات في قوة دلالتها، ينبه إلى ذلك قوله تبارك وتعـالى ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الزخرف: ٤٨. وأما العلامات التي نلاحظها في مجالات الحياة، فكثير منها لا تكتمل دلالته بنفسه، ولكن يحتاج إلى علامات أخرى تكمله او إلى قرائن توضحه وتزيل

الإشتباه عنه. يوضح ذلك علامات المرض، فإن علامة معينة قد نلاحظها في عدة أمراض فلا يمكن تحديد التشخيص بها لوحدها، ولكن بأن نجمع معها علامات وقرائن أُخرى حتى تكتمل حزمة او مشهد خاص بمرض معين.

(الفائدة السابعة): بناء قوة الملاحظة. يمكن ذلك باكتساب مهارات فكرية مهمة، مثل الأفق الواسع، والرؤية التحليلية، ورؤية المعاني والمسارات المتحركة، ورؤية الفروق، والتدريب، وغير ذلك مما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

(الفائدة الثامنة): قلنا أن الدرجة العالية من الملاحظة هي أن يصير التوسُّم راسخاً وكأنه سجية، فكأنه يلاحظ كل شيء، ولكن لا تحتفظ ذاكرته إلا بالمفيد كي يحافظ على التركيز وعدم التشتيت. ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ المائدة: ٣١.

(الفائدة التاسعة): ضرر الإعراض عن العلامات الدالة. من ذلك الإعراض عن العلامات الكثيرة التي تؤدي إلى معرفة الخالق الواحد ولزوم عبادته وحده، ومنها العلامات التي تدل على حقيقة الدواخل والنوايا، وكذلك سائر المجالات وما يدل على مضامينها من العلامات. وفي هذا المعنى نصوص قرآنية كثيرة:

قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ البقرة: ١٦٤.

وقال تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران: ١٩٠ – ١٩١.

وذكرنا قبل قليل قوله تعالى ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ البقرة: ٢٧٣.

الإحساس: قال تعالى ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٥٢، حَسَّ بالشَّيْء يَحُسُّ حَسًّا وحِسا وأَحَسَّ بِهِ واحَسَّه: شعر بِهِ، كما في (المحكم) وفي (لسان العرب). والحِسُّ والحَسيسُ: الصوت الخفي، والحَسِيسُ: الشَّيْء تَسْمَعُه مِمَّا يَمُرُّ قَرِيبا مِنْك وَلَا تَراهُ. وَيُقَال أحسست الْخَبَر إِذا عرفت مِنْهُ طَرَفاً، نقله الأزهري وابن منظور، ولذلك يُقال في النفي: مَا أحسست بالْخبر، أَي ما عرفت طرفاً منه او لم أعرف مِنْهُ شَيْئاً.

والإحساس ليس شعوراً منفرداً، بل هو مبني على ملاحظة الكلام والتصرفات مما يؤدي إلى تفاعل الحواس الباطنة وتشكيل إحساس معين.

وذكر بعض أئمة العربية أن الإحساس إدراك بالحواس الظاهرة وهي الطَّعْم وَالشَّمُّ وَالبصرُ وَالسَّمْعُ وَاللَّمْسُ، وإنما يصح هذا الكلام بمعنى أن الحواس الظاهرة هي المداخل إلى الحواس الباطنة. يوضح الأمر أن شواهد العربية ليس فيها ما يدل على حصر الإحساس بالحواس الظاهرة، بل إن الإحساس بكفر القوم كما في الآية الكريمة إنما هو تشغيل للحواس الباطنة التي تشكل صورة معنوية للمنظورات والمسموعات.

ومهما كان نوع الإحساس ودرجته، فإنه إدراك شخصي محض ببعض الحواس سواء كان إدراكاً كلياً او جزئياً، وسواء كان شعوراً ظنياً اومعرفة يقينية، وقد يكون إدراكاً لمقدمة الحدث وإن كانت المقدمات مبهمة او مُشتبهة في كثير من الأحيان.

وتدبر الآن كيف أن الإحساس بشيء خطير يقتضي إجراءات مناسبة، كما فعل عيسى عليه السلام.

وقريب من ذلك يُقال في قوله تعالى ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ النساء: ٦.

ومن الإحساس الرفيع بالإلتزامات الدينية حديث أَنَسٍ ﷺ قَالَ: « إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ الْمُوبِقَاتِ » رواه أحمد والبخاري وغيرهما.

خطوات التوَسُّم ضمن الإعداد لمشروع:

الملاحظة الهادفة قد تكون عملاً جماعياً، ولها خطوات ضرورية:

الخطوة الأولى: اختيار المكلفين بالتوسُّم، يُراعى فيه مؤهلات مهمة، **(منها)**: درجة عالية من التوسُّم، أي تكون مهارة التوسم راسخة في النفس وكأن دقة الملاحظة سجية له، وربما يصفه بعضهم بأنه شكاك او وسواس او متطبع بطباع رجل المخابرات. **(ومنها)**: الموضوعية أي عزل العاطفة بصورة كاملة في تفسير الملاحظة. **(ومنها)**: ضبط النفس حين الملاحظة، أي ضبط الغضب والإنفعال والقلق. **(ومنها)**: القدرة على التركيز وضبط التفكير من التفلت هنا وهناك. ويقتضي ذلك القيام بما يمكن من اجتناب أسباب تفلت التفكير، الذاتية منها: كالعاطفة ووجود مشاغل شخصية كبيرة، والتلقائية في تسجيل كل ملاحظة بإغفال ربطها بالهدف وخصائص المجال. وكذلك الأسباب الخارجية لتفلت التفكير، منها: الضوضاء والحوادث الحادة. **(ومنها)**: المهارة

في التفريق بين تصرف الإنسان على سجيته، وتصرفه بتكلف. وبعبارة أُخرى، مهما كانت حركات الجسد التي يذكر بعض الباحثين أهميتها، هل يشعر الملاحِظ أن هذا الإنسان يتصرف على سجيته أم انه مُتكلِف يخفي شيئاً؟ **(ومنها)**: سرعة البديهة، وهذه صفة مهمة في كثير من مجالات الملاحظة، ولكنها قد لا تقترن بجودة التفكير الطويل الذي يحتاجه تفسير الملاحظة. ويمكن جعل فريق الملاحظة يضم من هو سريع البديهة ومن هو متفوق في التفكير الطويل.

الخطوة الثانية: ما هو الهدف من الملاحظة؟ كأن يكون الهدف ملاحظة ما يساعد على توقع ردود فعل جمهور محدد لمؤثر او حافز معين، او معرفة أنماط تفكير هذا الجمهور في قضية معينة، او ملاحظة المضامين الخفية في كلام كبار المسؤولين في دولة معينة، او غير ذلك من الأمور المهمة. ومن أهداف التوسم الرؤية المستقبلية، أي رؤية العلامات الحاضرة التي تصلح لتوقع مستقبل معين وتقتضي التخطيط للمستقل المتوقع. مثال ذلك وجود علامات أكيدة على انحدار متواصل لدولة معينة، ولهذه الدولة أهمية عندك (إيجابية او سلبية)، فأنت تخطط من الآن لما ستفعله خلال مسار الإنحدار ثم حين يقرب الإنهيار. والتخطيط عموماً يقوم على ملاحظة الواقع والتوقع للمستقبل.

الخطوة الثالثة: دراسة وتقويم مجال او مشهد الملاحظة، أي الجمهور المعين المذكور في الخطوة الثانية، او التقويم السياسي لقادة دولة معينة. فإن مجال الملاحظة يجب أن يُدرس مُسبقاً دراسة تفصيلية واعية تتضمن خصائص بيئة المجال والمؤثرات المحتملة عليه (الداخلية والخارجية) والتدخلات المحتملة في مواجهة عمل مؤثر، وشبه ذلك من معالم المجال وما يتصل به. وذلك لأن وجود هذه المعلومات في ذاكرة الملاحِظ، تساعده جداً على الإنتباه لما ينبغي أن يُلاحظ. وبخلاف ذلك فإنك لن تفرق بين الملاحظة المهمة والملاحظة التافهة، بل لن تعرف ما ينبغي أن تلاحقه من الملاحظات.

الخطوة الرابعة: استيعاب كل ما تحتاجه من وسائل الملاحظة، منها: **(الملاحظة المباشرة)**: أي أنك تراقب المجال في ثقافته وحركته وأنشطته وعلاقاته وسائر ما يمكن أن تحتاجه، وتسجل أثناء ذلك ما تلاحظه. ومنها: **(ملاحظة الإستجابة للمؤثرات)**: فمن الوسائل المعروفة صناعة مؤثرات تنبه المجال او تستفزه او تحركه، ثم تسجل الملاحظات عن الإستجابة. ومنها: **(الملاحظة غير المباشرة)**: أي تحليل سوابق المجال الموجودة في السجلات والصحف وغيرها، ثم استنباط الملاحظات التي يمكن أن تتصل بها تصديت له. وتحليل السوابق أمر في غاية الأهمية، ولذلك أمر الله تعالى به في آيات عديدة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ الروم: ٤٢، فتدبر عبارة ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ ...﴾، فكأن الناظر يرجع إلى الوراء كي يقف في بداية الحدث الماضي، ثم يسير إلى الإمام في دراسة تطور الأحداث وإلى نهاية المطاف. وتشمل عبارة «كيف كان» دراسة تحليلية لتأريخ القوم وكيفية حصول عاقبتهم. ويشمل ذلك بداية نهوضهم وما فيه من عوامل ضعف وقوة، وكيف دخلوا مسار الإنحدار، وإلى غير ذلك من التفاصيل التي يمكن الإعتبار بها ويمكن أيضاً تسجيل ملاحظات مفيدة كثيرة منها. وسيأتي تفسير مفصل لنظير آية الروم، تحت عنوان: «التحليل والخبرة غير المباشرة»، إن شاء الله تعالى. ومنها: **(الملاحظة بالمشاركة)**: أي دخول المجال والإندماج فيه كي تلاحظ ظواهره وخفاياه، ويُستعمل ذلك في الدراسات الاجتماعية، وهو كذلك وظيفة الإختراق في عمل الإستخبارات. وكثيراً ما يتم دعم الإختراق بأنواع من تقنيات التجسس والتضليل.

الخطوة الخامسة: تفسير او تحليل الملاحظات والإستنتاج منها، والأُفق الواسع في ذلك. فإن الملاحظة الواحدة في كثير من الأحيان تُعطي رؤية ناقصة او خادعة. وينبغي لذلك تقسيم المجال او المشهد إلى محاور لها خصوصياتها، وهو تقسيم غير عشوائي،

ثم جمع الملاحظات التي تتكامل او تتآلف من كل محور، وفيما بين المحاور. وكذلك رؤية وجمع الملاحظات التي ربما تُعاكس او تُناقض المجموعة الأولى. وفي تفسير كل ملاحظة يُنظر إلى الإحتمالات في تفسيرها، ويُنظر أهي مؤقتة لأنها خاصة بظرف معين وسياق طارئ، أم هي ثابتة راسخة. وقد أجاد صاحبا كتاب (كيف تقرأ شخصاً كأنه كتاب) في تشبيه الملاحظة الواحدة باللفظة الواحدة في اللغة، يتعذر فهم حقيقتها الواقعة إلا بوضعها في جملة تامة.

وفي تفسير الملاحظات محاذير مهمة، منها: **(المحذور الأول)**: ضعف المهارة في ملاحظة ما يقتضي إنذاراً مُبكِراً وقطع التراخي. فهذا الضعف يؤخر الإستجابة وقد يؤدي إلى أضرار كبيرة. **(المحذور الثاني)**: ضعف مهارات التحليل وإثارة الإحتمالات والأفق الواسع في تفسير الملاحظة. **(المحذور الثالث)**: وجود خلل في أهلية الملاحِظ كما ذكرناها في الخطوة الأولى. **(المحذور الرابع)**: أن تتوهم كمال ملاحظتك وعدم غياب شيء مهم عنها!! فالصحيح أنك ربما لم تلاحظ أُموراً مهمة، وقد يوجب ذلك اتخاذ سياسات احتياطية لتخفيف ضرر هذا الإحتمال. **(المحذور الخامس)**: أن تكتفي بنفسك في تفسير الملاحظات، فإن هذا خطأ كبير، إذْ ينبغي العرض على آخرين من أهل الخبرة والإستماع إليهم. **(المحذور السادس)**: هل توجد ظواهر تبدوا مهمة ولكنها في الحقيقة نابعة من أسباب غير متصلة بالهدف، كمشكلة عائلية او اقتصادية او غضب بسبب قضايا شخصية؟ ولا شك من كثرة وجود هذه الأمور، ولكن توجد وسائل تساعد في التفريق بين ما يتصل بالهدف وغيره. **(المحذور السابع)**: هل يُحتمل وجود عمليات تضليل او ظواهر مصطنعة كي تخدع الملاحظ؟ وللخداع علامات كثيرة، وتختلف بحسب أسباب الخداع، وسيأتي موضوع «التضليل» في أواخر هذه الدراسة إن شاء الله تعالى، ونكتفي منها بأمثلة محدودة، **فمنهـــا**: إجراءات او سياسات جديدة غير واضحة الأسباب والأهداف او بأسباب وأهداف غير معقولة. **ومنهـــا**: إشغال فكر العامة بمخاوف

وأزمات او بالإستهلاك والملاهي، للتغطية على أعمال غير مقبولة في الظروف الإعتيادية. **ومنهــا**: تجهيل ممنهج لتسهيل التضليل. **ومنهــا**: رفع أشخاص في السلم الوظيفي، من غير اعتبار المؤهلات. **ومنهــا**: عمليات إعلامية لتحريك جهة إلى عواقب وخيمة، كالتركيز على جزئية تثير العاطفة، بقصد التحريك إلى عمل، وكافتعال مؤامرة وهمية للتحريك إلى عمل دفاعي غير مبرر او القيام بهجوم استباقي ضد فئة او ضد دولة. **ومنهــا**: استعمال قوة الملاحظة لخدمة الشـر، فقد قال تعالى ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ ﴾ طه: ٩٥ – ٩٦، ومعنى: «بصرت بما لم يبصروا به» أي علمت بما لم يعلموا به، او رأيت ما لم يروه، واستخدم السامري ملاحظته لتضليل أصحاب موسى عليه السلام. وسـيأتي بيان ما يتصل بتفسير الملاحظة، كالأفق الواسـع، والتشـخيص التمييزي وغيرهما من المهارات إن شـاء الله تعالى.

الخطوة الســادســة: تسجيل الملاحظات وتفسيرها والأراء والإحتمالات فيها، وارتباطها المحتمل بالـهدف وأهميتها. كل ذلك بلغة واضحة وترتيب واضح يفهمه الآخـرون. وبعد ذلك يأتي التخطيط القريب والمسـتقبلي وفقاً لمقتضيات الملاحظة والتوسُّــم.

ملاحظة البدايات والعلامات المبكرة:

وهذا من أنواع المبادرة، وهو أمر في غاية الأهمية في عمليات تحصيل المنافع وفي عمليات إبعاد ومنع المضار والمخاطر.

ويحتاج ذلك إلى إستعداد خبراء كل مجال للتعامل مع العلامات المبكرة في مجالهم.

فكما أن عدم رؤية بوادر اوبداية علامات المرض الجسدي وعدم التأهيل للتعامل مع العلامة، يمكن أن يؤدي في كثير من الأحيان إلى تفاقم المرض وحصول أضرار دائمة وربما الوفاة؛ فكذلك عدم ملاحظة العلامات المبكرة للفرص الكبيرة في السياسة وغيرها، يمكن أن يؤدي إلى إضاعة الفرصة وإلى استفادة الخصم من تأخرك. وكذلك الأمر في عدم ملاحظة العلامات المبكرة للمضار او الإختراق او تلويث الفكر والثقافة او الفساد الوظيفي والمؤسسي وشبهها.

وقد قال تبارك وتعالى ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ الحج: ٣٠، الإجتناب المأمور به في الآية يشمل إجتناب بدايات وبوادر انتقال الرجس من الأوثان إلى المؤمنين. ومن الخطأ الكبير عدم تشخيص البوادر إلى أن يكبر الرجس ويتفاقم. وسيأتي تفسير الآية في الفائدة الرابعة تحت عنوان: «صيانة النفس من استهواء الشيطان» إن شاء الله تعالى.

وقال تعالى ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ النحل: ٢٦، استهداف القواعد (البُنَى التحتية) هنا عقوبة ربانية بسبب تطورهم السفلي. ويدل تأريخ الأُمم أن نخر القواعد يتفاقم تدريجياً في الغالب، حتى يصل الترهل والتراجع إلى نقطة تَحَوُّل حاسمة يعقبها الإنهيار. وكذلك الأمر حين يستهدف العدو بلاد المسلمين التي أصابها الترهل وضَعْف الإعداد، فإن نخر القواعد (البُنَى التحتية) يبدأ في كثير من الأحيان ضئيلاً، فلا يلاحِظُ جذوره وما يُتوقع بعده إلا من كان قد اكتسب رؤية ثاقبة واهتماماً شديداً وغيرة على المصلحة العامة. وبخلاف ذلك، فإن النخر يتسع ويتسع حتى يخر عليهم السقف ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون.

وتوجد نصوص كثيرة توجب الملاحظة المبكرة في خدمة الواجبات، كالتعامل مع فرص المنافع العامة ومكافحة عوامل المضار والمفاسد. ويشمل ذلك نصوص المغالبة والإستباق والمبادرة والمسارعة في الخيرات؛ وسيأتي بيانها في الكلام عن «التركيز» ثم في المبحث الرابع: «الإقتحام والمسارعة الإستراتيجية» إن شاء الله تعالى.

الأُفق الواسع

قال ابن فارس: (أَفَقَ) الْهَمْزَةُ وَالْفَاءُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى تَبَاعُدِ مَا بَيْنَ أَطْرَافِ الشَّيْءِ وَاتِّسَاعِهِ، وَعَلَى بُلُوغِ النِّهَايَةِ. وَمِنْ ذَلِكَ الْآفَاقُ: النَّوَاحِي وَالْأَطْرَافُ، وَآفَاقُ الْبَيْتِ مِنْ بُيُوتِ الْأَعْرَابِ: نَوَاحِيهِ دُونَ سَمْكِهِ. وَلِذَلِكَ يُقَالُ: أَفَقَ الرَّجُلُ: إِذَا ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ. فَأَمَّا آفَاقُ السَّمَاءِ فَمَا انْتَهَى إِلَيْهِ الْبَصَرُ مِنْهَا مَعَ وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِيهَا. اهـ من (معجم مقاييس اللغة).

ويُقال: فلان صَفَّاقٌ أفّاق يُعمِل الناقةَ والسَّاق. مَعْنَاهُ: أَنه يضْرب فِي آفَاق الأَرْض كاسباً، رَاكِبًا وماشياً على سَاقه. ويُقال: فلان جوال في الآفاق، وما في آفاق السماء طرة سحاب، وعجت رائحة البخور في آفاق البيت. وَأُفق الْبَيْت من بيُوت الْأَعْرَاب: مَا دُون سَمْكه، أي ما تحت سقفه. وهذه الأقوال منقوله من (المحكم) او من (تهذيب اللغة) او من (أساس البلاغة).

فالأُفق مفرد آفاق، وهي النواحي والجهات والأطراف في الأرض وفي الفضاء (ويُسمى مجازاً بالسماء)، وكذلك في أجزاء الأرض والفضاء. فيمكن لأُفق معين (كالأُفق الفكري للإنسان)، أن يكون بعيداً او قريباً، ويمكن أن يكون واسعاً او ضيقاً.

وقال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فصلت: ٥٣، وتدبر أن عبارة ﴿ وَفِىٓ

﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ معطوفة على ﴿ فِي ٱلْأَفَاقِ ﴾، والعطف ينبه إلى احتمال المغايرة، فكأنَّ الآيات في نفس الإنسان أي في داخله هي بالنسبة إلى الإنسان من الذات وليست من الأُفق، وكأنَّ الآيات في نفس الإنسان إنما تُشكل للإنسان أُفقاً بعد أن تمتد بالكلام وعرض الأفكار وبالأعمال. والآفِق، (عَلَى وزن فَاعِلٍ): الَّذِي قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ فِي الْعِلْمِ وَالْكَرَمِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْخَيْرِ، كما في (لسان العرب) وغيره، فلكل إنسان أُفُق يمتد من عطائه من العلم او الحكمة او الكرم او غيرها، والله تعالى أعلم.

وبهذا المعنى يُقال: فلان واسع او رحب الأُفق، وفلان ضَيق او صغير الأفق.

ونحتاج الآن أن نعرف أهمية الأُفق الواسع:

ذم الرؤية الجزئية:

أي الحكم على مشهد برؤية جزء من مضامينه ومتعلقاته. وتُسمى أيضاً بالرؤية الضيقة والمحدودة او الرؤية الانبوبية، كمن يضع على وجهه انبوباً فلا يرى إلا قطعة صغيرة من الأفق الواسع ولا يهتدي لمتعلقاتها ولا لما يتصل بها من الأفق.

قال تعالى ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الملك: ٢٢. أما تفسير عبارة ﴿ مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ ﴾ ، فقد قال الأزهري: قَالَ اللَّيْث: تَقول: كببت فلاناً لوجهه فانكبَّ. وكببت الْقَصعَة: قلبتها على وَجهها. وأكبَّ الرجل على عمل يعمله. وَيُقَال: أكبَّ فلَان على فلان يُطَالِبهُ. وَالْفرس يكب الْحمار: إِذا أَلْقَاهُ على وَجهه. وَقَالَ الله تعالى ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ الشعراء: ٩٤، قَالَ أهل اللُّغَة: مَعْنَاهُ: دهوروا، وَحَقِيقَة ذَلِك فِي اللُّغَة تَكْرِير الإنكباب، كَأنه إِذا أُلقِي ينكب مرّة بعد مرّة حَتَّى يسْتَقرّ فِيهَا، ونستجير بِاللهَّ مِنْهَا. اهـ من (تهذيب اللغة).

فالمكب على وجهه لا يرى من الأُفق إلا قطعة صغيرة جداً، فهو بعيد إلى الغاية عن الهداية في رؤية أُفق المشهد وفهمه. وهذا بخلاف من يمشي سوياً، أي قائماً منتصباً يستطيع

أن يجول في الأُفق من كل جهة، كما أنه يمشي بقلبه وروحه على صراط مستقيم ليس فيه اعوجاج ولا تناقض، فلا يخشى أن تخدعه مضامين فاسدة في الأفق. وهو كذلك لا يخشي أن ينتقي من الأفق ثروة معرفية (أي ليست عقيدية) او وسائل تنفيذية لأنه يعرف كيف يُحاكِمها إلى الصراط المستقيم ليعرف الجيد منها والفاسد.

وواضح أن آية الملك لم تذكر جواباً عن السؤال: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا ... ﴾ ، فإنه لا ضرورة هنا من إيضاح الواضحات، فإن كل إنسان يعلم يقيناً أن المكب على وجهه يفقد رؤية المشهد.

أمثلة من الرؤية الجزئية:

منهـــا: قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٣٠ ، فتدبر كيف حصرت الملائكة النظر في جزء من الأفق او المشهد على الأرض وهو جزء القتل والفساد، فأعلمهم الله تعالى بوجود أجزاء لا يعلمونها، أي أن الحكم تابع للمشهد المتكامل وليس للرؤية الجزئية، والله تعالى أعلم. وفي توجيه سؤال الملائكة قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله تعالى: وكان من القواعد الشرعية والعقائد الإسلامية عصمة الملائكة من المعاصي والإعتراض. هناك احتاج أهل العلم إلى إخراج الآية عن ظاهرها. ومن أندر ما وقع في تأويل الآية ، ما ذهب إليه صاحب كتاب (فك الأزرار) وهو الشيخ صفي الدين أبو عبد الله الحسين، قال في ذلك الكتاب: ظاهر كلام الملائكة يشعر بنوع من الإعتراض، وهم منزهون عن ذلك. والبيان أن الملائكة كانوا حين ورود الخطاب عليهم مجملين، وكان إبليس مندرجاً في جملتهم فورد منهم الجواب مجملاً. فلما انفصل إبليس عنهم بإبائه وظهور إبليسيته واستكباره، انفصل الجواب إلى نوعين، فنوع الاعتراض منه كان عن إبليس، وأنواع

الطاعة والتسبيح والتقديس كان من الملائكة، فانقسم الجواب إلى قسمين كانقسام الجنس إلى جنسين، وناسب كل جواب من ظهر عنه، والله تعالى أعلم. هذا كلامه وهو تأويل حسن وصار شبيهاً بقوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ البقرة: ١٣٥، لأن الجملة كلها مقولة والقائل نوعان فرد كل قول لمن ناسبه. اهـ من (البحر المحيط).

ومنها: قوله تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢٧٥، فتدبر كيف أن الكافر كَبَّ وجهه على جزء صُوَرِيٍّ من مشهد الربا فجعله مثل البيع، فإذا نظر المرابي إلى قرض العملة النقدية وغيرها وكأنه استئجار للنقد، فإن الإجارة نوع من البيع، وكأنه في ظن المرابي بيع مؤقت لمنفعة معينة وتستحق في العقار ونحوه ثمناً بالإضافة إلى إعادة العين المؤجرة، يُقال: آجَرْتُهُ الدارَ أي أكريتُها، وقال تعالى ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ القصص: ٢٧، نقل الأزهري عن الزجاج قال: أي تكون أَجيراً لي ثَمانِيَ حِجَج. اهـ من (تهذيب اللغة). فكذلك يرى المرابي أن الإنتفاع بالقرض له قيمة مضافة إلى قيمة الأصل، كما هو حال الإنتفاع بالعقار المؤجر. وفات المرابي أكثر من أمر، **(الأمر الأول)**: أن النقد ليس كالعقار ونحوه، فإن هذه الأعيان تعود ذاتها إلى صاحبها، وأما النقد المقترَض فإنه يُستهلك ويمكن للمقترِض أن يخسره ثم يعيد نقداً آخر مطابقاً، ويريد المرابي زيادة ربوية فوق ذلك. **(الأمر الثاني)**: إجراء أحكام الإستئجار على القرض فيه إهدار للأخلاق في القروض، فإن القروض غير الربوية تكاد تتلاشى في المجتمعات القائمة على

الربا. **(الأمر الثالث)**: في حال تعذر توفية الدَيْن بأجله مع الزيادة الربوية، فإن الزيادات الربوية تتراكم أجلاً بعد أجل، ويتضمن التراكم الزيادات الربوية على الزيادات غير المدفوعة. وقد دُمِّر اقتصاد دول بسبب ذلك، وصارت الزيادات المتراكمة تستهلك قسماً كبيراً من الدخل القومي، ويبقى أصل الدين قائماً!!! **(الأمر الرابع)**: في حال غياب الوازع الأخلاقي، فإن طبيعة القروض الربوية الكبيرة بين الدول تفتح شهية المرابين ومن وراءهم للتآمر وتحطيم اقتصاد الدولة المقترِضة كي يتواصل تحويل الدخل القومي إلى الجهة الدائنة. يوضح ذلك وصف آكلي الربا بعبارة ﴿ **لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ** ﴾، فلو كانت العبارة بالباء، أي: يتخبطه الشيطان بالمس، لكان المعنى أن الشيطان يصيبه بالمس. وأما استعمال «مِن» في عبارة ﴿ **مِنَ ٱلْمَسِّ** ﴾، فمعناها أن المرابي ممسوس أساساً بشهوة الإستحواذ على أموال الآخرين، ولذلك يستطيع الشيطان أن يتخبطه أي يحركه بشدة. وقوله تعالى ﴿ **لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ** ... ﴾، أي لا يقومون إلا قياماً مثلَ قيامِ الذي يتخبطه الشيطانُ، وهي صيغة عموم لأن الفعل في سياق النفي يعم كالنكرة في سياق النفي، ومعنى القيام هو النهوض إلى أمر او التصدي له، فهم لا ينهضون إلى أمر إلا كما ينهض الذي يحركه الشيطان. ومعلوم أن حركة الشيطان محصورة بالشر، فقد قال تعالى ﴿ ... **وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾** ﴾ البقرة: ١٦٨ - ١٦٩. **(الأمر الخامس)**: لا شك أن القروض ليست خاضعة لنظام الإستئجار، ولا يصح كذلك تضمين القروض الربوية معنى بيع المنافع بسبب شبه شكلي عديم القيمة. **(الأمر السادس)**: الرؤية الشاملة لحكمة التشريع الديني يعلمها الله تعالى، وحين يتعذر على المؤمن رؤية ما يكفي لتعليل تشريع معين، فليس له إلا التسليم التام إلى حكم الله تعالى، وهذا بعض مضامين قوله

تعــالى ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾. **(الأمر السابع)**: ما سـبق كله كان في ربا الأجل (أي ربا النسـيئة)، وأما ربا المقايضة أي الزيادة بسـبب تفاوت الوصف ضمن نوع معين من المقايضات الممنوعة، فهـذا ذريعة إلى أنـواع من الغش والغرر.

مضامين الأفق الواسع:

المقصود أنك حين تتصدى لقضية او تكون مكلَّفاً بها فعليك أن تتعرف جيداً إلى القضية بمضامينها وأجزائها كافة، وأن تتعرف كذلك إلى كل ما يمكن او يُحتمل أن يتصل بالقضية او يؤثر عليها او يؤثر على العمل لأجلها، ويشمل ذلك الإحتمالات الحاضرة، والإحتمالات المستقبلية (القريبة والبعيدة)، وكذلك الإحتمالات المتفرعة من جذور كامنة او خفية. وتختلف هذه المضامين بحسب نوع القضية.

ويمكن تلخيص جملة من من مضامين الأُفق الواسع لقضية محددة وهي تحقيق هدف معين، فإنه يقتضي:

- رؤية الهدف او المشهد بسعة تامة وقابلة للإتساع.
- رؤية البدائل في اختيار الهدف.
- رؤية الإمتدادات الخلفية للهدف (الجذور والأسباب)، والإمتدادات الأمامية المحتملة (أي النتائج والعواقب)؛ ورؤية الخطوة اللاحقة أي المتوقعة في تحليل الحدث والخطوة.
- رؤية المؤثرات والتفاعلات القريبة والبعيدة، والمحلية والخارجية، والنافعة منها والضارة.
- رؤية التقاطع الإستراتيجي.

● رؤية الموارد والقُدُرات الحاضرة والممكنة وإلى نهاية الطريق. وبعبارة أُخرى: رؤية توقعية لفرص النجاح في تحقيق الهدف، وكذلك القدرة على إدامة النجاح.

● رؤية نوافذ الخير في الجوانب الضارة المحتملة خلال المسار، من أجل الإعداد لها واستثمارها.

● التفكير بما لا تعلمه وبما لا تراه مما يُحتمل أن يتصل بالمشهد. قال تبارك وتعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ الأنفال: ٦٠، الإعداد للردع مُوَجَّهٌ في الآية الكريمة إلى ثلاث فئات كما هو حكم العطف بالواو، فالفئة الثالثة تبينها عبارة ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾. وفي ذلك تفاصيل ذكرناها في (وِجهة اللواء/ تفسير آية الإعداد). المهم هنا أنك في تحليل مشهد مركب يجب عدم افتراض الإحاطة بمتعلقات المشهد كلها، بل ينبغي افتراض وجود ما غاب عنك من الأمور المهمة؛ ويتبع ذلك لزوم التدريب على إثارة أنواع الإحتمالات (الإفتراضات المحتملة) وما تقتضيه من إعداد احتياطي. ويشمل ذلك السياسة الدفاعية والإقتصادية والتنمية العلمية وغيرها.

أمثلة من التفكير بأُفق واسع:

منهـــا: رؤية الأُفق العالمي للأفكار والأقوال والأعمال. فقد قال تبارك وتعـــالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة: ١٤٣، وقال تعــــالى ﴿ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ الحج: ٧٨ ، وشهادة المؤمنين على الناس تشمل الدنيا والآخرة. يتضح المعنى بأُمور، **(الأمر الأول)**: الآية حكم تكليفي، فإن لام التعليل

المتصلة بالفعل المضارع في جملة تصلح لمعنى الطلب كما في عبارة ﴿ لِّتَكُونُواْ ﴾، فإنها تفيد الوجوب كما في نحو قوله تعالى ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ص: ٢٩، وقوله تعالى ﴿ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ الحديد: ٢٥. وأيضاً فإن كلمة «شهداء» نكرة في سياق الإثبات والطلب، فهي تقبل الإطلاق إلا ما يمنعه الدليل، فيمكن أن تشمل الشهادة في الدنيا وفي الآخرة. وفي غير سياق الطلب فإن العبارة تصلح لبيان المآل او العاقبة، كقوله تبارك وتعالى ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ القصص: ٨، وكأن الجملة الفعلية أصبحت بمعنى الخبر المحض عن المستقبل. **(الأمر الثاني)**: شهادة المؤمنين على الناس في الدنيا، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « وَجَبَتْ »، ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: « وَجَبَتْ»، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﵁: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: « هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ » رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم. الحديث متفق عليه وهو صريح في شهادة المؤمنين على الناس في الحياة الدنيا، وقد رواه عن النبي ﷺ أنس وأبو هريرة.

(الأمر الثالث): نرجع الآن إلى عبارة ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾، فإنها عامة في الناس، مؤمنهم وكافرهم؛ ولا شك أن واجب الشهادة على الناس إنما هي شهادة على آرائهم وأقوالهم وأفعالهم، وليست على أشكالهم الظاهرية وألوانهم. فلما كان المطلوب من المسلم أن يكون شاهداً على آراء الناس وأقوالهم وأفعالهم، فإن ذلك يقتضي أن يُرابط كل من يقدر او يُكلف من المسلمين على مجال معين، وأن يتعرف إلى الأُفق العالمي في هذا المجال وأن يُحاكم إلى الصراط المستقيم ما يريد أن ينتقيه او يشهد عليه من الأُفق العالمي، معنى ذلك أن المطلوب من المؤمن أن يبلغ مرتبة الأُستاذية العالمية في مجال اهتمامه او اختصاصه، أي في مجال تركيزه. **(الأمر الرابع)**: شهادة المؤمنين في الآخرة، فعَنْ أَبِي

سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﵁، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « يُجَاءُ بِنُوحٍ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، يَا رَبِّ، فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ شُهُودُكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَيُجَاءُ بِكُمْ، فَتَشْهَدُونَ »، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، قَالَ: « عَدْلًا »، ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾. رواه البخاري وغيره. وظاهر الحديث أن الشهادة في الآخرة يمكن أن تكون بالعلم اليقيني بصرف النظر عن البينات القضائية في الدنيا، او يُريهم الله التسجيل المحفوظ لتكذيب أولئك القوم، فيشهدون به، والله تعالى أعلم. **(الأمر الخامس)**: معنى ﴿ وَسَطًا ﴾ أي «عدلاً» كما هو تفسير النبي ﷺ، وكأنه من باب تفسير الشيء بلازمه او بنتيجته، فإن «الوسط» في سياق الشهادة على الناس ولأجلها يدل على غاية العدالة كما ذكر السهيلي وغيره، لأن الوسط مسافته متساوية متعادلة من جميع من يشهد عليهم، فيشهد على الواقع بالحق بصرف النظر عن ميول القلب والأهواء؛ ويشهد برؤية غير جزئية، فكما يرى معايب الآخرين فعليه كذلك أن يرى تفوقهم الكبير في الوسائل وإتقانهم لها، ويشهد بذلك كي يُحاكم نفسه ويعرف ما يجب عليه من تغيير وتطوير، فهذه هي حقيقة الوسطية. وأما مجال الصلاح بين النقيضين، ففيه تفصيل فلا وسط مثلاً بين الكرم والبخل، ولا وسط كذلك بين الحق والباطل. ولكن يكون التوسط بين الإسراف والتقتير وأشباه ذلك، ونقطة التوسط حينئذ تعتمد على درجة الإسراف ودرجة التقتير، فلا يلزم أن تكون المسافة متعادلة بينهما، قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ الفرقان: ٦٧، فإن عبارة ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾، لا يلزم أن تكون نقطة في وسط المسافة الإفتراضية في الأحوال كلها، وتوجد أمثلة تنفيذية كثيرة.

ومنهـــا: شروط الإجتهاد لمعرفة الحكم الشرعي في قضية معينة، فإن أُفق البحث يشمل أربعة محاور او مجالات، **(المجال الأول)**: النصوص التي تتصل بالقضية في القرآن الكريم كله، وكذلك الأحاديث النبوية الصحيحة التي تتصل بالقضية، وقد تكون مفرقة في عدد من كتب الحديث. **(المجال الثاني)**: تحصيل أدوات فهم القرآن والسنة، وأهمها الكفاءة في استعمال قواعد أُصول الفقه، واستعمال علوم العربية. **(المجال الثالث)**: الكفاءة في فحص الخيارات المحتملة، قال تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ الملك: ٢، فتدبر أن الله تعالى لم يقل: أيكم حسن العمل، بل قال: ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، بصيغة التفضيل، والأحسن هو الأفضل، أي المتفوق على غيره. ولا يمكن معرفة الأحسن إلا بمهارة فحص الخيارات المحتملة، والترجيح وفقاً للدليل وليس بالهوى والتعصب المذهبي؛ ويوضح ذلك الغاية من النظر في الخلاف كما يُروى عن بعض السلف أنه كان يوصي به. وهذا أصل مهم في فحص الخيارات الإجتهادية المحتملة، وفي فحص البدائل في المشاريع وفي الخطط التنفيذية. **(المجال الرابع)**: مقتضيات التنفيذ القائمة في الناس، كالإستطاعة وتوافر الشروط وانتفاء الموانع. وتشكل هذه المجالات أُفُقاً في غاية السعة، فلابد من استعمال وسائل مساعدة تُقَربك إلى الشمول في البحث، مثل كتب السلف في الفقه وأحكام القرآن، وكتبهم في أحاديث الفقه. فمن توصل إلى بعض النصوص في حكم معين، ولم يهتد إلى نصوص أُخرى تؤثر في الحكم، فلا شك أنها رؤية جزئية توقع في الخطأ.

ومنهـــا: التصدي لتحقيق هدف مستقبلي، كأن يكون الهدف سياسياً. **(فالأُفق الأول)**: ما هي بدائل الهدف كي يتم اختيار أحسنها. ثم ما هي المتطلبات الكاملة لصناعة القرار، ثم تصميم (رسم) الهدف بأُفق واسع أي بمضامينه كلها وبالمعايير

المرجوة وكأنه حقيقة واقعة، وكذلك تصميم بدائل قليلة تنفعك إذا اضطُررت إلى التحول إلى بديل. وقد يُطلق على التصميم المستقبلي: «الصورة الإفتراضية او السيناريو». وعليك أيضاً أن تقوم بتقسيم الهدف الكبير إلى محاور غير عشوائية، ثم تقوم بدراسة وتقويم الهدف الكلي وكذلك تقويم المحاور والعلاقات والتفاعلات بينها. ثم ترسم المسار الممكن (الخطط) إلى الهدف كله، والمسار إن أمكن إلى بعض محاوره. **(الأُفق الثاني)**: هو رؤية واسعة لكل شيء يُمكن او يُحتمل أن يؤثر على تصميم الهدف او على المسار التنفيذي او على نجاح الهدف بعد تحقيقه. ويشمل ذلك أُموراً ذكرناه قبل قليل تحت عنوان: «مضامين الأفق الواسع».

ومنهـــا: التعامل مع الشدائد. فمِن الناس من يضيق أُفقه حين يقع في شدة فلا يرى إلا الشدة وآثارها المكروهة، فإذا طالت الشدة او تفاقمت فلا يتسع تفكيره لغير الهروب منها؛ قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَـرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَـرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ البقرة: ٢٤٣، وسيأتي تفسير الآية تحت عنوان «الإسراف والغلو في الحذر» إن شاء الله تعالى. فينبغي في الشدائد توسيع الأُفق برؤية نوافذ الخير في الشدائد، فإن القرآن الكريم يدل عليها في عدد من الآيات، منها قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ الشرح: ٥ – ٦، فتدبر استعمال أداة المعية: «مع»، فإن مع كل عسر نافذة او نوافذ إلى اليسر ولكن على المؤمن أن يبحث عنها ويستثمرها.

وقال تعالى ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ لقمان: ٢٠، فمن لم يجد مخرجاً في النِّعَم الظاهرة فعليه أن يبحث في النعم الباطنة. وتحتاج هنا إلى مهارة تَصَوُّر الأُفُق الواسع للنعم والبحث فيه.

وقال تعالى ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾ الطلاق: ٢ – ٣، في الآيتين نـوافذ إلى الخير والفرج، فعلى المؤمن التقي أن يتحرك على بصيرة بهذا الإتجاه فكرياً وعملياً، كي يجد الخير في طريقه.

وفي قصة حديث الإفك قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ النور: ١١، فتدبر عبـارة ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، فإن الشدة في قصة الإفك اقترنت بخير كثير بينته الآيات التي نزلت في القصة، وقد بينا بعضها في الكلام عن أمهات المؤمنين في كتاب (أهل البيت بين الخلافة والملك). وهكذا الأمر في كل خطأٍ فاحش، فإن فيه العِبَر والتصحيح والإجراءات الوقائية وغيرها من الفوائد.

وقال تعالى ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة: ٢٥١. الدفع عن الشيء هو الذب والمحاماة والإنتصار للشيء ورد او إزالة او إبعاد او إيقاف المكاره والمخاوف والعدوان ، يُقال: دفع الشـر عنه: أي رده عنه وحماه منه. ويمكن أن يكون بالقوة الصلبة او بالقوة الناعمة كما في قوله تعالى ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ فصلت: ٣٤ . وتدبر عبارة ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾، فعلى الرغم من الأضرار الكبيرة للصراع، ومحاولات العقلاء لإخماده مع تحقيق العدل، على الرغم من ذلك فإن الصراع الدولي يقترن بتحولات كبيرة في موازين القُوى، وبتصعيد التنافس الدفاعي والإقتصادي، وبالتآمر الخفي، وبتغيير المصالح والشراكات والتحالفات، وبتغيير أيضاً في السياسة والإقتصاد. فمن نظر بأُفق واسع وملاحظة قوية إلى هذه

التحولات، فإنها قد تفتح منافذ كثيرة لفرص كبيرة لم تكن متاحة سابقاً، وخاصة حين يقلل الصراع من المظالم التي أدت إليه.

من أسباب الرؤية الجزئية او الأُفق الضيق:

فمنها: ضعف التأهيل في بناء الوعي وسعة الأُفق، ويلحق بذلك القصور الذاتي الذي يُعيق التأهيل.

ومنها: ضغوط الإسراع، وإصدار القرار قبل اكتمال بناء الأُفق.

ومنها: الوقوع في الخداع والتضليل، فقد يستخدم الخصم مهارات الإيهام بأن جانباً من الأُفق ليس بالمهم ولا يستحق جهود الإعداد، وكذلك مهارات تشويه الأفق او إعادة تركيب بعض مضامينه.

ومنها: حصول اختراق معاد يؤثر على مراحل صناعة القرار، او على مراحل المسار التنفيذي، كأن يقوم بتشويه جانب من الأُفق او إزاحته من الرؤية.

ومنها: الفساد الوظيفي او الإنتقاء من الأُفق وفقاً للهوى او الضغوط، وهذا سبب شائع جداً، مثاله وجود خيارات متعددة في أُفق قضية عامة، غير أن المسؤول يكبُّ رؤيته على خيار معين لأنه يخدم مصلحته الخاصة وإنْ كان متأخراً في خدمة المصلحة العامة. وقد يقوم المسؤول بزخرفة خياره وتلميعه وإظهاره كأفضل خيار، وعلى الآخرين أن ينكبوا عليه أيضاً. ويقترن ذلك بإظهار الخيارات الأُخرى بصورة متردية لا تستحق النظر. وهذا النوع من الرؤية الجزئية شائع جداً في الفساد السياسي والإقتصادي والأمني وغيرها من مجالات الحياة. ويتفرع من هذا النوع ضغوط المسؤولين والمفسدين على من هو أدنى درجة منهم كي يجرد أُفقاً معيناً إلا من الخيار الذي يريدونه.

ومنهـا: الغرور وغطرسة القوة، فإن المغرور يبالغ في تصَوُّر قُدُراته ويتوهم أنه قادر على الإنجاز من غير كثير من التحليل الفكري.

الرؤية العميقة والمنقحة

قال تعالى ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ هود: ٢٧. تدل الآية الكريمة على ذم الرؤية السطحية والرؤية غير المنقحة في صناعة الرأي بالتفكر. فمن فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى:

مقدمة تفسيرية:

- الرأي في ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ﴾، هو رأي القائلين، كما أنه بادي او بادئ رأيهم ومقدار تفكيرهم.

- تدبر أن «بادي الرأي» يصلح أن يكون معناه: في بادِي الرأي، فله حكم الظرف، وهذا تفسير مشهور فقد أخذ به او أجازه او نقله بلا اعتراض أبو البقاء العكبري ومكي بن أبي طالب وأبو علي الفارسي والنحاس والزمخشري وأبو حيان والسمين الحلبي والآلوسي وابن عاشور.

- وكذلك تصلح عبارة «بادي الرأي» أن تكون وصفاً (ظرفاً او حالاً) للفاعل في عبارة ﴿ مَا نَرَىٰكَ ﴾، الثانية او الأولى، وهو معنى قول الإمام الطبرى، وروَى معناه عن ابن عباس، وكذلك رواه ابن أبي حاتم عن عطاء. فعن ابن عباس، قوله: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾، قال: «فيما ظهر

لنا»؛ رواه الطبري. وهذا وجه من وجوه الإعراب غير المتناقضة التي ذكرها أبو البقاء العكبري وابن عطية وأبو حيان الأندلسي والسمين الحلبي وابن عادل. ولا إشكال في هذا الإعراب كما بين أبو البقاء وغيره. وأيضا فإن من يمنع عمل ما قبل «إلا» في غير المستثنى وتوابعه مما بعدها، فإنه لا يعترض على المعنى نفسه ولكن بإعمال فعل مقدر بعد «إلا»، أي بتقدير: إلا الذين هم أراذلنا، نراه او نقوله في بادِي الرأي او ببادي الرأي. فالخلاف شكلي فقط حين يستقيم تقدير عامل محذوف مناسب للمعنى. يضاف إلى ذلك أن الإعراب الذي ذكرناه هو الأصل، لأنه إذا تزاحمت الإحتمالات غير المتناقضة فإما أن نتعامل مع كل احتمال جائز وكأنه قراءة يُحتج بها، وإما أن نرجع بعبارة «بادي الرأي» إلى أصل الكلام دون التوابع والتفريعات، وأصل الكلام هنا هو قول الكفار ﴿ مَا نَرَىٰكَ ﴾. وقريب من ذلك قول الإمام القرافي: العطف يقتضي التشريك في أصل الحكم دون توابعه. قال النحاة: فإذا قال: مررت بزيد قائماً وعمرو، لا يلزم أن يكون مررت بعمرو أيضاً قائماً، بل في أصل المرور فقط، كذلك جميع التوابع من المتعلقات وغيرها. اهـ من (شرح تنقيح الفصول ٢٢٣).

● واضح أن «بادي الرأي» طريقة سيئة في صناعة الرأي، فقد أدت بمتبعيها إلى الكفر برسالة نوح عليه السلام وإلى احتقار المؤمنين. وعلى إعراب «بادي الرأي» بتقدير: في بادي الرأي، فإن للعبارة حكم الظرف، فهي تقبل ما يحتمله حرف الظرفية «في» من تخصيص. ومع ذلك فإن ذم «بادي الرأي» هو الغالب في كثير من الأحوال، بل من الضروري اجتناب بادي الرأي في كل قضية مهمة تحتاج إلى رؤية عميقة، وفي كل قضية تحتاج إلى رؤية منقحة. والحاصل من الأمر أن ضرورة التنقيح، أي ذم بادي الرأي يشمل نوعين من الأُمور، **النوع الأول**: قبول كل أمر يحتمل الخطأ. **النوع الثاني**: رد كل أمر يحتمل الصواب.

● أما الثوابت الدينية التي لا تحتمل الشك في صحتها، والمحرمات التي لا تحتمل الشك في تحريمها، فهذه من نوع العقائد وليست من نوع الرأي، فلا يشمل التنقيح أصلها عند من سلمت فطرته وأسلمَ لله تعالى، ولكن يشمل التنقيح فروعها التي تحتاج إلى الإجتهاد في تفسير النصوص. ويلحق بالثوابت المبادرة بالرأي الذي سبق إخضاعه لأدلة الحق وبلغ درجة اليقين أي درجة الإعتقاد. يوضح الأمر قوله تعالى ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إبراهيم: ١٠، وقال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة: ١٣١، وقال تعالى ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ١٤. وقد ذكرنا هذا الأصل بالتفصيل في (ثمار التنقيح على فقه الإيمان).

● وينبغي التحذير هنا من الغلو في إدخال آراء اجتهادية في جملة الثوابت العقيدية، والتحذير كذلك من الإسراف في الخوف من القطع مما يؤدي إلى الشك في معان بلغت اليقين في ثبوتها.

الفائدة الثانية:

(ذم الرؤية السطحية): قرأ الجمهور «بادي» بالياء أي بدون همز، وهو من: بدا يبدو، إذا ظهر. ويُقال لِلْبَرِيَّةِ بَادِيَةٌ لظهورها. ومنه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ يوسف: ٣٥ ، أي ظهر للعزيز وأهل مشورته من بعد أن رأوا الآيات، أي علامات براءة يوسف من قدِّ القميص من دُبُرٍ وشهادة الشاهد، وحز الأيدي: أن يسجنوه كتماناً للقصة ألا تشيع في العامة، او للحيلولة بينها وبينه. وواضح أن ما يبدو يمكن أن يكون قراراً رديئاً.

المهم هنا أن «بادي الرأي» في آية هود، كانت طريقة مذمومة في صناعة الرأي، فقد أدت بـهؤلاء إلى الكفر برسـالة نوح عليه السـلام، وإلى احتقار المؤمنين. وقد قلنا قبل قليل أن ذم «بادي الرأي» هو الغالب في كثير من الأحوال وعلى مَرِّ الزمان، وتوجد أنواع من ذلك:

منهـا: تقويم الإنسان ببعض ما ظهر على السطح دون المعاني الكامنة والقِيَم المعنوية والأعمال الصالحة. وهذا واضح من قوله تعالى في حكاية قول قوم نوح ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾. الرَّذْلُ الدُّونُ من النَّاس فِي مَنظره وحالاتِه، وَرجل رَذْلُ الثيابِ والنعْلِ، كما في (تهذيب اللغة). وَالرُّذَالُ وَالرُّذَالَةُ هُوَ الَّذِي أُنْتُقِيَ جَيِّدُهُ وَبَقِيَ أَرْذَلُهُ، كما في (المصباح المنير)، ومنه «أرذل العمر». وعَنْ قَتَادَةَ في قوله تعالى ﴿ **وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا** ﴾ البقرة: ٢٥: «أَيْ خِيَارًا لَا رَذْلَ فِيهِ، وَإِنَّ ثِمَارَ الدُّنْيَا يُنَقَّى مِنْهَا وَيُرْذَلُ مِنْهَا، وَثِمَارُ الْجَنَّةِ خِيَارٌ كُلُّهُ لَا يُرْذَلُ مِنْهُ شَيْءٌ» رواه الطبري، وروى نحوه عن الحسن. فمعيار التقويم عند قوم نوح كان المنظر الخارجي والمهنة (أهي مهنة الفقراء أم الأغنياء؟) وشبه ذلك من أوصاف السطح. وهذا من أرذل أنواع الرؤية الجزئية، وحال أصحابها كحال المترفين في الغفلة التامة عن معنى حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » رواه مسلم وغيره. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ » رواه مسلم وابن حبان.

ومن هذا النوع قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٤ – ٢٠٦.

ومنه الإقتصار على فهم معاني العبارات الصريحة، وعدم ملا حظة المعاني شبه الخفية. مثال ذلك التقويم السطحي لدعاوى الإيمان، وعدم ملاحظة العلامات الكامنة للنفاق، وقد ذكر القرآن الكريم جملة من علامات النفاق، منها قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾ محمد: ٢٩ – ٣٠. «لحن القول» من: لَـحَنَ يَلْحَنُ لَحْنًا، هو ميل او اتجاه معنى الكلام ومقصده ومذهبه وما يؤدي إليه مع غياب التصريح بمضمون اللحن.

و«لحن القول» ليس محصوراً في علامات النفاق ولا في المعاني السيئة، بل إن كل صاحب قضية قد يَلْحَن ببعض المضامين التي لا يريد التصريح بها. فمن المهم ملاحظة المعاني الخفية في كلام القادة ونحوهم، ولكن مع اعتبار احتمال استعمال لحن القول للخداع وتضليل الآخر. فينبغي إخضاع «لحن القول» للتحليل.

ومنهـا: التسليم بمضمون عنوان معلن او لافتة معلنة من غير ملاحظة ما ينبه إلى الأعماق الكامنة او الخفية، ومنه قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ... ﴿١٠٨﴾ ﴾ التوبة: ١٠٧ – ١٠٨. فالعنوان المعلن هو مسجد للصلاة وللدعوة إلى الحق، وأما المضامين الداخلية فهي الكفر والإضرار والتفريق واستمالة الأعداء إلى محاربة دين الله تعالى.

وهذه اللافتة لـها نظائر كثيرة جداً اليوم وفي دول كثيرة، فتجد مثلاً مركزاً إعلامياً او سياسياً وهو في الحقيقة مركز للتحريك العدائي بين الدول والمنظمات (مهارات النميمة الكبرى). وتجد مركزاً تجارياً وهو في الحقيقة مركز لغسيل الأموال، وتجد مركزاً للسياحة

او التوظيف وهو في الحقيقة مركز للتجنيد. وتجد إنقلاباً على حكومة في دولة ما، وحقيقته أن حكومة الدولة عرفت كيف تخترق وتستدرج المنافس الكبير وتحركه إلى إنقلاب محكوم عليه بالفشل.

ومنهـــا: ذم عدم ملاحظة علامات الفساد الباطن وما يُسمى في بعض الدراسات الغربية بالفساد غير المباشر، قال تعالى ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٠. الآية الكريمة عامة في تحريم الفساد الباطن كله. وأمثلة الفساد الباطن كثيرة جداً في القضايا العامة والخاصة، فلابد من البحث في الإعماق. وسيأتي بعض التفصيل في المبحث الثالث (من موانع صحة التفكير/ الفساد الباطن والمراوغة في التعامل مع الشرع) إن شاء الله تعالى.

ومنهـــا: عدم رؤية المضامين الداخلية (المعنوية) او المعاني المركزية او لُب المشروع في صناعة القرار، قال تعـــالى ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ..... ﴾ البقرة: ١٧٧. فقيمة التوجه إلى جهة مادية هي قيمة المضامين المعنوية التي أدت إلى التوجه، وما تستلزمه هذه المضامين من أعمال، فهذه الأعمال ضرورية بشرط أن تكون لباساً للمضامين الداخلية.

وكذلك الأمر في القرارات السياسية وغيرها. فإذا قيل مثلاً إن العراق يحتاج إلى شراكة اقتصادية مع الدولة «س» والذين قالوا بذلك أظهروا منافع هذه الشراكة، فإن هذا القول وحده ليس بشيء، لأن الدولة «س» هي الغلاف الخارجي، ولكن يجب التحدث عن المعاني المركزية او الجوهرية، أي نوع تلك المنافع بصرف النظر عن دولة معينة، ثم نبحث عن أفضل الخيارات المحتملة، أهي مع هذه الدولة او غيرها. وبعبارة أُخرى أخذناها من

(نخبة المسار)، أن الأصل تعليق الهدف بالجوهر والمعنى وليس بالأشخاص والأمكنة، فهذه ليست أهدافاً إلا باعتبار ما تحمله من معان. فلو تم تصميم أولي لهدف سياسي معين او غيره، كتحويل رؤية استراتيجية نخبوية إلى رأي عام راسخ، او إجراء تعديلات كبيرة على الوجهة الإستراتيجية، او عمليات كبرى للإصلاح السياسي او موقف دفاعي كبير، وكان الهدف لسبب او آخر مقترناً بمكان معين او بأشخاص او بأحزاب، فإن السؤال الضروري لتنقيح التصميم: ما هو موضع الأهمية في الهدف؟ أهو ضروري لذاته أم لمصلحة ضرورية تتصل به؟ وهل يمكن تحقيق المصلحة من طريق تصميم آخر او هدف آخر او أهداف أخرى؟ وفي كثير من الأحوال، بل هو الأصل، يكون تحقيق المصلحة او دفع المفسدة هو سبب التفكير بذلك الهدف. غير أن إعادة الأمور إلى ميزان المصلحة والمفسدة يساعد في رؤية الخيارات الكثيرة والبدائل المتعددة. وبذلك فإن التصميم الأولي للهدف قد يصير مرجوحاً ومتأخراً في سلم الأولويات، بل قد يُستبدل الهدف جملة.

ولتقريب الأمر ننبه إلى الفرق بين القانون والقضاء ، فإن القانون يصدر مثلاً بمكافأة او عقوبة من يفعل كذا وكذا، ومن غير تحديد أسماء الأشخاص، ثم تقوم الإدارات والقضاء بتنفيذ القانون على الأشخاص بصورة عادلة. فلو صدر القانون بإسم الأشخاص فإن المصلحة الظاهرية سوف تكون ضيقة جداً وغير عادلة فهي مفسدة. وكذلك الأمر مع القرارات العامة فإنها إذا ارتبطت ابتـداءً بتعيين الأشخاص او الأمكنة، فإنها ستستبعد تلقائياً خيارات أخرى قد تكون هي الأفضل.

والمقصود من ذلك، تدريب الفكر على ملاحظة المعاني والعلامات عليها، والنظر (ولو بصورة مجملة) فيما وراء الجدار او فيما تحت الغطاء، سواء كان المتوقع خيراً او شراً. وحين تغيب العلامات، يمكن التوقف من أجل التثبت والتبين او اتخاذ إجراءات احتياطة إذا كانت الخطورة المحتملة عالية.

فمن الأقوال الخالية من باطن موافق لها كلام أصحاب الإفك، كما في قوله تعالى ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ النور: ١٢. ومن رؤية ما يدل على الباطن من علامات، قوله تعالى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٧٥.

الفائدة الثالثة:

(أهمية الرؤية المنقحة): قرأ الإمام أبو عمرو بن العلاء (وهو من القراء السبعة)، قرأ: «بادِئ» بالهمز، من بدأ يبدأ. وبهذه هذه القراءة الصحيحة، فإن معنى قوله تعالى ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾، هو أنهم اتخذوا قرارهم بإنكار رسالة نوح عليه السلام وباحتقار المؤمنين، اتخذوه بالرؤية الأولى من غير تنقيح برؤية ثانية وثالثة فصاعداً. والسياق كله سياق ذم ابتداءً من إنكار الرسالة إلى استنادهم إلى بادى الرأي.

ومن أهم فوائد التنقيح تقليل الأخطاء، وتحسين القرار، وإضافة ما يتصل به (ردم الثغرات)، وتدريب الفكر على مواصلة التحسين والتطوير.

الفائدة الرابعة:

طرق وشروط تنقيح الرؤية:

- **الإخراج المنقح للكلمة**: قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ الأحزاب: ٧٠ - ٧١ ، قال الزمخشري: قَوْلًا سَدِيداً: قاصداً إلى

الحق؛ والسداد: القصد إلى الحق، والقول بالعدل. يُقال: سدّد السهم نحو الرميّة: إذا لم يعدل به عن سمتها، كما قالوا: سهم قاصد. اهـ من (تفسير آية الأحزاب). والتسديد هُوَ التَّوْجِيه للصَّوَاب كما في الفروق اللغوية للعسكري. وعن عَلِيٍّ عليه السلام، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « قُلِ اللهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بِالْـهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّـدَادِ سَـدَادَ السَّهْمِ » رواه مسلم وأحمد وأبو داود وأبو يعلى، وصححه الألباني وحسين سليم أسد، وقوَّاه شعيب الأرنؤوط. **فواضح أن السداد إصابة القصد الصالح،** فعلى المؤمن أن يجعل لكلمته او تصرفه غاية صالحة، كمن يسدد سـهمه إلى هدف مُـحَدد. وهذا غير ممكن إلا بضبط النفس، أي حماية عملية صناعة الكلمة والتصرف من العوارض المؤثرة كالغضب والهوى والتسرُّع والإضطراب. وقال تعالى في أهل بيعة الرضوان: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ الفتح: ١٨، السكينة نقيض الإضطراب وتزلزل النفس، ولذلك قال ابن سيده: السكينة الوقار. اهـ، وقال صاحب (المصباح المنير): السكينة المهابة والرزانة والوقار. اهـ. ومع السكينة، فإن خارطة الأفكار تكون مرتبة ومنسقة فلا يضطرب صاحبها. وأما مع فقدان السكينة فإن خارطة الأفكار تكون مضطربة متدافعة او مشوهة، على نحو قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ...... ﴾ المعارج: ١٩ – ٢٣.

● **<u>متطلبات التنقيح السريع</u>**: أي سرعة البديهة. توجد أحوال شائعة تقتضي قراراً سريعاً إذ لا مجال لفترة حضانة للعقل الباطن، كتفادي حادث مروري او التعامل مع خطر داهم. ويمكن تعريف سرعة البديهة بأنها سرعة فهم الموقف او

الحدث الطارئ مع سرعة الإستجابة الجيدة. مثال واضح قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦ ﴾ الأنفال: ١٥ – ١٦، فلابد هنا من قرار سريع، وتوجد عوامل تساعد على تصويب القرار السريع، **(العامل الأول)**: الخبرة المباشرة أي الممارسة العملية، فإنها تُـمَكِّن من تشغيل سريع لشبكة المعلومات الكامنة في الذاكرة، وهي من ضروريات التفكير السريع وجودة التصرف مع المفاجآت في القضايا المركبة المعقدة. يوضح الأمر قيادة السيارة، فإن الخبرة المباشرة تيسر التصرف السريع لاجتناب الحوادث، وكذلك الأمر في الحاجة إلى قرار سريع أثناء العمليات العسكرية كما في آية الأنفال. **(العامل الثاني)**: السكينة وضبط النفس. وليس المراد هنا التأنِّي، ولكن القدرة على كبح الهلع والجزع كما نبهنا إليه قبل قليل، وهو من ضروريات التفكير السريع. **(العامل الثالث)**: الخبرة غير المباشرة أي تعَلُّم خبرة الآخرين، وهي مفيدة جداً في كثير من التصرفات التلقائية غير المعقدة، مثل استعمال أدوات الإطفاء وبعض عمليات الإنقاذ ومواجهة الحوادث. ويلحق بالخبرة غير المباشرة التدريب النظري على مواجهة المفاجآت، وكذلك التدريب العملي شبه الإفتراضي، كما في التدريب والمناورات العسكرية. وأما في القضايا المعقدة غير العاجلة، فإن للخبرة غير المباشرة أهمية كبيرة جداً. **(العامل الرابع)**: الحكمة والبصيرة، الحكمة من البشر هي التفكير والتصرف بإحكام، أي بعلم وفقه وإتقان، فإن من مضامين «الحكم» العلم والفقه، يُقال: أَحْكَمَتْه التَجارِبُ إذا تعلم منها أن يتصرف بحكمة، ويُقال لمن أتقن أمراً: أحكمه او قام به بإحكام. وَيُقَالُ لِمَنْ يُحسِنُ دَقَائِقِ الصِّناعات ويُتْقِنُها: حَكِيم، كما ذكر ابن الأثير. ويشمل ذلك الأفق الواسع ورؤية الغايات والأولويات والمتطلبات والآثار او العواقب. صحيح أن آثار الحكمة تظهر بقوة في التفكير الطويل الممتد عبر

الزمن، غير أن الحكمة تظهر آثارها أيضاً في التفكير السريع وفي مواجهة المفاجآت. **(العامل الخامس)**: مكافحة عوامل الشرود، كالعوامل النفسية (إشغال الفكر بالحسد والغيرة والغضب ونحوها)، وكالتشتيت الألكتروني وقلة النوم. **(العامل السادس)**: النشاط الجسدي، فإنه يوَلِّد نشاطاً عاماً بما في ذلك النشاط الفكري. **(العامل السابع)**: مقاومة الإسراف في التردد والتأني. **(العامل الثامن)**: التركيز على مجال معين والتوسع في معرفته، فإنه يوَلِّد سرعة البديهة في المجال نفسه، كقرار الضابط وهو في ساحة المعركة، وكذلك الباحث في مجال علمي إذا سمع او قرأ عبارة تنفعه في مجاله، تجده سريع البديهة في ربط العبارة بموضعها في بحثه. وهذا بخلاف المتوسع في الثقافة العامة من غير مرابطة على مجال معين، فإن سرعة بديهته متشعبة وغير مركزة. **(العامل التاسع)**: مهارة اجتناب العبارات الحاسمة والجازمة، أي إضفاء قدر من المرونة او الغموض إلى أن يتضح الإتجاه.

● **الصبر والتثبت قبل الكلام**: أي ضبط النفس في نشر الأفكار والمعلومات التي يمكن أن يؤدي نشرها إلى عواقب ضارة كالتضليل او التثبيط في غير محله او التحرك على غير بصيرة او تزيين الشر او تلويث الصلاح او شبه ذلك من المضار. قال تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ النساء: ٨٣، واضح أن أمور الأمن والخوف تحتاج إلى مراجعة من يفهمها جيداً من خبراء السياسة وتحليل المعلومات، فلا يصح الإسراع فيها بالإشاعة والإذاعة. وتدبر استعمال عبارة ﴿ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ ﴾، والإستنباط هو استخراج الدواخل والمعاني الكامنة او المستترة، وهذه وظيفة أهل الخبرة في المجال. ومن هذا الأصل قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن

﴿ تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ الحجرات: ٦، وفي قراءة صحيحة لحمزة والكسائي: «فتثبتوا». وفي حال الثقة التامة بمجموعة القرار وبكفاءة المحاسبة والمؤاخذة فإنه يمكن التفريع على مضمون قوله تعالى ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴾ الكهف: ٧٠، والله تعالى أعلم.

● **يشمل التنقيح السريع الكلمة المقُولة والكلمة المضمرة**، فحين تباشر الإنفاق على شيء مثلاً، توقف قليلاً وفكر فيه، هل يتضمن الإسراف او التبذير او الترف او خطأ التقدير؟

● **تكرار النظرة السريعة**: فحين افتح الكتابة عن الموضع الذي وصلت إليه، فإنه من المفيد أن أُلقي نظرة على بعض المواضع التي سبقته. وفي كثير من الأحيان تتم بذلك بعض التنقيحات الشكلية او المعنوية.

● **الرؤية الثانية فصاعداً وشروطها**: او التنقيح التدريجي. وهي إعادة شاملة للنظر في القضية قبل التنفيذ، فإن كانت القضية تأليف كتاب فينبغي أن يُنقح قبل نشره. وإن كانت القضية تحقيق هدف سياسي او غيره، فإن دراسة الهدف ومتعلقاته ودراسة الخطط التنفيذية يجب أن تُنقح قبل الشروع في التنفيذ، هذا بالإضافة إلى تقويم وتعديل المسار التنفيذي بعد الشروع فيه. وأما شروط الرؤية الثانية فصاعداً، **(فالشرط الأول)**: الإهتمام الكبير بالقضية، فإن الإهتمام هو الذي يجعل القضية حاضرة في العقل على طول الوقت مما يحفز الذاكرة الكامنة او العقل الباطن على إخراج الأفكار التي تخدم القضية. وأما مع ضعف الإهتمام (سلوك إسقاط الفرض)، فإن الرؤية العاشرة قد لا تكون أحسن من الرؤية الأولى إلا في أمور شكلية وتنظيمية وليست في الإبتكار والإحسان. **(الشرط الثاني)**: فترة حضانة، أي أن الباحث

يحتضن القضية في عقله زمناً غير محدد من أجل مقاربة الإكتمال في توليد الأفكار المهمة، وذلك لأن الأفكار لا تتدفق دفعة واحدة، بل لابد من النمو التدريجي للأفكار او التحليل التدريجي للمضامين. وبعبارة أُخرى ينبغي تغذية الفكرة والمعلومة حتى تنضج، فإن الفكرة الجيدة تشبه الثمرة التي تحتاج إلى زمن وتغذية. وعن ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ النبي ﷺ « لَا تَبْتَاعُوا الثَّمَرَ حَتَّى يَبْدُوَ صَلَاحُهُ، وَتَذْهَبَ عَنْهُ الْآفَةُ » رواه مسلم وغيره. وأيضاً فإن إنضاج الفكرة قبل ترويجها قد يكون من أهم عوامل القبول وتخفيف المقاومة، وتذكر في هذا المعنى قوله تبارك وتعالى ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ الكهف: ٦٨، فمن النضج أيضاً ربط الفكرة الجديدة بالمتعلقات التي يعرفها الآخرون، وينبغي أن يتضمن الإنضاج حججاً قوية تجعل المخالف يقبل النظر فيها. وأما سياق التسرع كأن نجعل الرؤية الأولى اليوم ونجعل الرؤية الثانية غداً، فهو سياق ضعيف وقليل النفع ويمكن أن يكون كثير الضرر. **(الشرط الثالث)**: تقوية الرؤية باستشارة الآخرين وبمهارات جمع الأفكار وجمع الآراء في أفكار محددة، وتدبر قوله تعالى ﴿ .... فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ الزمر: ١٧ – ١٨. وسيأتي تفسير الآية الكريمة إن شاء الله تعالى. **(الشرط الرابع)**: الأمانة، فإن الغاية من التنقيح هي تحسين القرار وتحقيق أكبر منفعة منه، وأما مع الفساد الوظيفي وغياب الأمانة فإن الرؤية العاشرة يمكن أن تكون أسوأ من الرؤية الأولى، لأن تكرار النظر عندهم يُستعمل لإحكام الفساد وتحويل المصلحة العامة إلى جيوب مجاميع الفساد. **(الشرط الخامس)**: ينبغي اللجوء إلى الله بالدعاء والرجاء لتحسين الرؤية قبل التنفيذ، فقد قال تعالى ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ الكهف: ٢٤، الأمر في هذه الآية الكريمة من أدلة التنقيح، ويجب أن يقترن هذا الدعاء

بجهود التنقيح. وينبغي التبكير بذلك، أي قبل التنفيذ بمراحل، وبعبارة أُخرى: قبل تحمل أوزار وعواقب الخطأ والتقصير.

- **إعادة التنقيح أثناء المسار التنفيذي وبعده**، وذلك لتحقيق ثلاثة أهداف، **(الهدف الأول)**: المحافظة على منهج التحسين المستمر. **(الهدف الثاني)**: تدارك الأخطاء وتغييرها. **(الهدف الثالث)**: التعامل مع التفاعلات الجديدة أثناء المسار والتي لم تحتسب في التخطيط.

- **طريقة مفيدة في التنقيح**: وهي إعطاء سقف زمني يكفي لإعداد المشروع ولتنقيح متكرر، مع فترات حضانة متكررة. وهذه طريقة جيدة حين تكون غير مضطر إلى الإسراع، وهي طريقة متبعة في بعض المؤسسات، حيث يبقى المشروع الإستراتيجي حبيس الدراسة والتقويم لزمن طويل قبل الشروع في التنفيذ. ويمكن أحياناً تجزئة المشروع، للإسراع ببعضه وإعادة تنقيح بعضه الآخر، أي إنتقاء محاور لها بعض الإستقلالية.

الرؤية التحليلية ورؤية النظائر

وهي رؤية في غاية الأهمية، ولها صلة قوية بالأُفق الواسع وبقوة الملاحظة. ويمكن أن تكون الغاية من الرؤية التحليلية: تحليل حَدَث معين بسبب أهميته، او تحليل أداء معين كالأداء السياسي مثلاً لغرض تحسينه، او تحليل هدف يُراد تحقيقه. وتقوم الرؤية التحليلية على القدرة على رؤية أجزاء المشهد (عناصره او مكوناته او محاوره) وكذلك رؤية نظائر القضية وكأنه مشهد للنظائر. ويساعد ذلك على رؤية حجم كل عنصر وأهميته، ورؤية التأثير المتبادَل بين العناصر، ورؤية ما يثيره العنصر عند المشاهدين في الداخل والخارج.

وإذا كان المشهد هدفاً يُراد الوصول إليه، وكان اختيار هدف معين يعتمد على المقارنة مع الأهداف البديلة، فإن التفكير التحليلي يجب أن يتضمن الكفائة في رؤية الفوارق والدرجات كما سنذكر إن شاء الله تعالى. وبعد ذلك يمكن استثمار هذه الرؤية الشاملة لفهم المشهد بالتفصيل، وما يترتب على ذلك من معارف وتطبيقات عملية. وقد يكون المشهد واسعاً جداً، كالرؤية التحليلية للأداء السياسي او الدفاعي او التربوي في دولة معينة. وقد يكون المشهد محدوداً نسبياً كتحليل خطة معينة او محوراً محدداً من مشهد كبير كتحليل الإعلام السياسي في الدولة.

رؤية الفوارق والدرجات:

قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ .... ﴾ الأنفال: ٢٩.

يُستعمل الفُرقان مصدراً لـ: فرَقَ يفرُق ويَفرِق، ويُستعمل في التفريق المادي والمعنوي. وَالفُرْقَان أبلغ من الفَرق، كما ذكر أبو البقاء الكفوي في (الكليات). ويمكن الحمل على المصدر في قوله تعالى ﴿ .... وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ ﴾ الأنفال: ٤١، أي يوم الحدث الكبير الفارِق بين الحق والباطل.

وكذلك يُستعل الفرقان اسماً للقدرة على رؤية الفروق والتمييز بين المتباينات، وهو الأظهر في عبارة ﴿ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾. قال الآلوسي: ﴿ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾: نوراً تفرقون به بين الحق والباطل، وربما يقال: إن ذلك إشارة إلى نور يفرقون به بين الأشياء بأن يعرفوها بواسطته معرفة يمتاز بها بعضها عن بعض. اهـ من (تفسير الآلوسي). ومن استعماله إسماً قوله تبارك وتعالى ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ

﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان: ١، أي نزل القرآن الكريم الذي يفرق بين الحق والباطل وبين الخير والشـر.

وعبارة ﴿ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ مرتبطة في الآية بالتقوى، ولا شك أن الفرقان بين الحق والباطل في مجال الإيمان وعبادة الله عز وجل، مرتبط بتقوى الله عز وجل، وفي ذلك نصوص شرعية صريحة. وليس للآية مفهوم مخالفة في غير مجال تقوى الله تعالى. فيمكن لغير المؤمنين اكتساب مهارة رؤية الفروق في مجالات حياتية كثيرة كالفيزياء والكيمياء والهندسة وغيرها، وعلى المؤمنين أن يغالبوا الآخرين في ذلك.

ويتصل بذلك قوله تعالى ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ البقرة: ٤٢ ، التلبيس خلط الأمور ومحاولة تغييب الفواصل والفروق، يُقال: لَبَسْتُ عليه الأمرَ ألبِسُه، أي جعلته مختلطاً وليس بواضح، ورجُلٌ إِلْبِيسٌ: أحْمَقُ.

أمثلة من رؤية الفوارق والدرجات:

منهـــا: تحليل المشهد الكبير كالأداء السياسي مثلاً. ويحتاج الباحث هنا إلى أمرين، **(الأمر الأول)**: أن يدرب الباحث نفسه على رؤية الفوارق، وأن لا يرى المشهد المركب وكأنه محور واحد متمدد. **(الأمر الثاني)**: أن تقسيم المشهد إلى محاور او أجزاء، ليس تقسيماً عشوائياً، فإن هذا يقدر عليه كل إنسان ولا يفتقر إلى مهارة.

فإما أن يكون الجزء محوراً له درجة من الإستقلالية، كالحرية السياسية ضمن مشهد الأداء السياسي، فيمكن دراسة هذا المحور بذاته ثم دراسته كجزء من المشهد، أي دراسة التفاعلات بينه وبين سائر المحاور، وكذلك دراسة تفاعلاته مع مشاهد أخرى غير الأداء السياسي، فإن بعض الجوانب السياسية قد تتفاعل مع المشهد الاقتصادي والقانوني والثقافي وغيرها.

وإما أن يكون الجزء مضموناً متشعباً في عدة محاور، كالفساد السياسي فإنه مضمون متشعب يدخل في محور الانتخابات النيابية والمحلية، ويدخل في محور أداء النوّاب، ويدخل في محور الضغوط على القرار السياسي، وفي غيرها، كما أنه يتفاعل ويرتبط بالفساد الوظيفي عامة.

وتوجد مشاهد أُخرى شديدة التداخل بين المحاور والمضامين، وتحتاج إلى مزيد من التفكير لتحديد خطوط فصل معقولة بين المحاور.

ومنهــا: رؤية الفرق بين الرياء وإفشـاء السـلام. قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ البقرة: ٢٠٨؛ وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ. » رواه مسلم وغيره.

فمن إفشاء السلام وليس الرياء، كلام هارون عليه السلام، قال تعالى ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ طه: ٩٢ – ٩٤. فليس معنى الآية أن الرياء دخل في تصرف هارون عليه السلام، ولكنه أراد المحافظة على التماسك ودفع أسباب الكدر بينهما.

وكذلك قول يوسف عليه السلام كما في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾ يوسف: ٥٢؛ أي ليعلم الملك أني (أي يوسف) لم أخنه في زوجته في الغيب، هذا قول الإمام الطبري، ورواه عن مجاهد وقتادة، وهو أيضاً قول الزجاج والماتريدي والسمرقندي ومكي والزمخشري والقاضي أبي محمد الذي يكثر ابن عطية الرواية عنه، ونقله القرطبي عن الحسن وقتادة وغيرهما. وذكر مكي وابن عطية فيما

نقله عن القاضي أبي محمد، ذكرا وبينا جواز التقديم والتأخير بين الجمل لتحقيق فائـدة معنوية. وتتسع هذه القصة لبيان نقاء السـريرة وصحة العمل في تعامل المسـلم مع غير المسـلمين.

ومنهـــا: رؤية درجات الأوصاف والأعمال، وهذا أصل مهم ونحتاج إلى تدبر الآيات القرآنية فيه. فقد ذكر الله تعالى الصالحين ثم الفاسدين، ثم قال تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ الأحقاف: ١٩.

وقال تعـــالى ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٦٢ – ١٦٣، أي هم متفاوتون كما تتفاوت الدرجات، والمعنى تفاوت منازل المثابين منهم ومنازل المعاقبين، أو التفاوت بين الثواب والعقاب. هذا حاصل كلام الزمخشري والزجاج وغيرهما.

وقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ الأنعام: ١٦٥. وهذا أصل مهم في التقويم.

وقال تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ فصلت: ٣٤، فتدبر أن الله لم يقل هنا: ولا تستوي الحسنة والسيئة، ولكنه تعالى كرر «ولا» مع ذكر السيئة أيضاً. وتقتضي قواعد الأصول أنه إذا استقام المعنى، فإن تأسيس المعاني مقدم على توكيدها. معنى ذلك أن «ولا» الثانية غيرُ مؤكِّدة؛ إذ يُراد بالحسنةِ الجنسُ، وكذلك السيئة، فكلٌّ واحدٍ منهما متفاوتٌ في جنسِه؛ لأنَّ الحسناتِ درجاتٌ متفاوتةٌ، وكذلك السَّيئاتُ. وعلى أي حال، فإن قاعدة تقديم التأسيس على التوكيد قاعدة مشهورة، وربما يحصل خلاف فيها في تفسير

كلام الناس وذلك لتأثير العرف على الصياغة اللفظية. ونكتفي هنا بقول الإمام السيوطي: قَاعِدَةُ «التَّأْسِيسُ أَوْلَى مِنْ التَّأْكِيدِ»، فَإِذَا دَارَ اللَّفْظُ بَيْنَهُمَا، تَعَيَّنَ عَلَى التَّأْسِيس. اهـ من (الأشباه والنظائر). وسيأتي المزيد عن هذا الأمر في الكلام عن التزكية والإحياء في المبحث الخامس إن شاء الله تعالى.

ومن هذا الأصل الإتصاف بشعبة او خصلة من جملة خصال أمر معين. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً. فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُّ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ؛ والحياء شعبة من الإيمان » رواه مسلم وغيره. وكذلك حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ.» رواه البخاري ومسلم وابن حبان وغيرهم. وهكذا الأمر في خصال او شعب العقائد والأعمال، قال تعالى ﴿ ..... وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ النحل: ١٠٦، فشعبة او درجة من ذلك لكل من شرح صدره لباطل او لخطأ يعلم أنه خطأ.

وكذلك أخلاق الكفار المذكورة في القرآن، فباستثناء الكفر، فإن أخلاقهم ليست محصورة بهم، فقد يحمل المسلم درجة صغيرة او كبيرة من بعضها. فمن فائدة ذكرها تنبيه المؤمن لاجتنابها ولتنقية نفسه من تلك الصفات.

ومن التطبيقات التنفيذية لتحليل الفروق أنك إذا أردت الإختيار من بين عدة خطط تتصل بالمصالح العامة، فعليك أن تُقَوِّم درجة المنافع والمضار (العاجلة والآجلة) في كل خطة، كي تستطيع أن تختار.

ومن التطبيقات التنفيذية إعطاء الناس حقوقهم وفقاً لدرجة عطائهم، ويقتضي ذلك وضع أدوات لحساب الدرجات والحقوق. وقد قال تعالى ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ

ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ الشعراء: ١٨١ – ١٨٣، وسيأتي تفسير آيات الشعراء تحت عنوان: «الوزن والميزان» إن شاء الله تعالى.

ومنهـــا: رؤية الفروق بين الصفات والأعمال المتنوعة وما يترتب عليها من قرار وعمل، وتوجد أمثلة واضحة:

منها قوله تعالى ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ التوبة: ١٩، وقوله تعالى ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٩٥. وقال تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ الحديد: ١٠.

وقد تكون الفروق كبيرة إلى درجة تقتضي نوعاً من الفصل، كقوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ آل عمران: ١٧٩، وقوله تعالى ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة: ١٠٠.

وقد تكون الفروق جلية واضحة، ولكن يتغافل عنها متبع الهوى، من ذلك قوله تعالى ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ القلم: ٣٥ – ٣٦. وقال تعالى ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الرعد:

١٩. وقال تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٢.

وأما رؤية النظائر واللوازم:

فأمثلتها كثيرة في القرآن الكريم، وإغفالها هو أحد أسباب كفر المشركين، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ يس: ٧٨ - ٧٩. وقال تعالى ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ الإسراء: ٥١.

ومثل ذلك الرؤية الجزئية للنظائر مما يؤدي إلى إغفال فروق عظيمة، كما هو حال المشركين في قوله تعالى ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ المؤمنون: ٤٧ – ٤٨.

ومن إثارة النظائر نحو قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ القصص: ٧١ – ٧٢.

ومن الأمثلة الفقهية قوله تعالى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٧٥.

ففي الآية توجيه للمؤمنين إلى حكم عملي استناداً إلى المتوقع من المشركين من دراسة النظائر السابقة.

ومن أهمية رؤية اللوازم قوله تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ الإسراء: ٤٢ – ٤٤.

وقوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ طه: ٨٨ – ٨٩.

ومن الإلزامات العقلية قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ الطور: ٣٣ – ٣٨.

التحليل والخبرة غير المباشرة:

المقصود إضافة خبرة من دون ممارسة عملية، ولكن من تحليل مسار الآخرين في الماضي والحاضر.

فلنتدبر نحو قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فاطر: ٤٤، وقوله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ النمل: ٦٩. فلننظر في فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأُولى: قوله تعالى ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، معلوم أن الآثار المادية لكثير من الأمم الماضية قد زالت او بقي منها ما لا يدل على أكثر من انها آثار قوم قد رحلوا. ولذلك فإن السير في الآية هو سير العقل والتفكير في مسارهم التأريخي، وذلك بقراءة ما ثبت نقله من تأريخهم.

قال ابن فارس: السِّينُ وَالْيَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُضِيٍّ وَجَرَيَانٍ، يُقَالُ سَارَ يَسِيرُ سَيْرًا. وَالسِّيرَةُ: الطَّرِيقَةُ فِي الشَّيْءِ وَالسُّنَّةِ، لِأَنَّهَا تَسِيرُ وَتَجْرِي. يُقَالُ سَارَتْ، وَسِرْتُهَا أَنَا. اهـ من (معجم مقاييس اللغة). **وقال الأزهري**: وَيُقَال: هَذَا مَثَل ساير، وَقد سَيَّر فلانٌ أَمثالاً سائِرةً فِي النّاس. اهـ من (تهذيب اللغة). **وقال ابن سيده**: وسَيَّرَ سِيرَةً حَدَّثَ أحادِيثَ الأَوائِل وسارَ الكَلامُ والمَثَلُ في النَّاسِ شاعَ. اهـ من (المحكم). **وقال ابن منظور**: وَفِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ: «تَسايَرَ عَنْهُ الغَضَبُ» أَي سارَ وَزَالَ. وَقَالَ أَبو عُبَيْدٍ: سارَ الشيءُ وسِرْتُه، فَعَمَّ. والسِّيرَةُ: الطَّرِيقَةُ. يُقَالُ: سارَ بِهِمْ سِيْرَةً حَسَنَةً. والسَّيرَةُ: الهَيْئَةُ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ طه: ٢١، وسَيَّرَ سِيرَةً: حَدَّثَ أَحاديث الأَوائل. وسارَ الكلامُ والمَثَلُ فِي النَّاسِ: شَاعَ. وَيُقَالُ: هَذَا مَثَلٌ سائرٌ؛ وَقَدْ سَيَّرَ فلانٌ أَمثالًا سَائِرَةً فِي النَّاسِ. اهـ مع اختصار من (لسان العرب).

فمعنى عبارة: ﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، أن الناظر يرجع بفكره إلى الوراء كي يقف في بداية الحدث الماضي، ثم يسير إلى الإمام في دراسة تطور الأحداث وإلى نهاية المطاف، كي يفهم العوامل التي أدت إلى العاقبة، والله تعالى أعلم.

الفائدة الثانية: معنى عبارة: ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾، واضح أن النظر هنا هو نظر الفكر والبصيرة. ونحتاج إلى البحث في معنى ﴿ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ﴾. **(أما «كيف»)**، ففيها هنا ثلاثة أُمور، **الأمر الأول**: أنها اسم مبهم للإستفهام عن حال

شيء، او هي اسْتِفْهَامٌ عَنْ حَالِ الشَّيْءِ لَا عَنْ ذَاتِهِ، كما هي عبارة الزركشي في (البرهان في علوم القرآن). وقد تتضمن معان كالتعجب والإنكار، وهي نكرة. والأصل في النكرة في سياق الإثبات في خطاب التكليف وما في معناه، أنها نكرة مطلقة في كل ما أدي إلى عاقبة أولئك، فيدخل في الإطلاق مضامين المسار السياسي والقانوني والإقتصادي والإجتماعي وغيرها. وتدبر سعة الإطلاق في نحو قوله تعالى ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ** ﴾ آل عمران: ٦، أي عَلَى أَيِّ حَالٍ شَـاءَ أَنْ يُصَوِّرَكُمْ صَوَّرَكُمْ، كما هي عبارة أبي حيان في (البحر المحيط). **الأمر الثاني**: تدبر أن الله تعالى لم يقل: متى كان، ولا: أين كان، بل يمكن في كلامنا أن نقول: فانظروا عاقبة المجرمين، من غير «كيف كان»، أي انظروا نـهايتهم. ولكن الآيات الكثيرة (نحو عشـرين آية) جاءت بزيادة: ﴿كَيۡفَ كَانَ ﴾، وتوجه هذه العبارة إلى دراسة التأريخ برؤية تحليلية لكيفية الوصول إلى تلك العاقبة. وبداية ذلك من نـهوضهم ومواضع قوتـهم وضعفهم والمؤثـرات الداخلية والخارجية عليهم ومسار حياتهم ثم كيف كان انحدارهم ثم سقوطهم. فيمكن أن يؤدي العمل بعبارة «كيف كان» إلى تحليل المشهد التأريخي وإلى القول بأن الحدث الفلاني وعامل الضعف الفلاني وإهمال المحور الفلاني كانت أسباباً تفسر عبارة: ﴿ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾. وبعبارة أُخرى: أن الناظر يرجع بفكره إلى الوراء كي يقف في بداية الحدث الماضي، ثم يسير إلى الإمام في دراسة تطور الأحداث وإلى نهاية المطاف. **الأمر الثالث**: ذهب بعض المفسرين في تفسير الآية او تفسير بعض نظائر آيتي غافر والنمل المذكورتين هنا، ذهبوا إلى أن المطلوب هو النظر في نهاية القوم، ومنه قول الزمخشري: ولأنّ المعنى: كيف كان آخر أمرهم. اهـ من تفسير آية النمل المذكورة هنا. فإذا كان يريد: كيف حدث ونشأ، فهذا صواب ويقتضي تحليل المسار او الأسباب. وأما إذا كان يريد حصر النظر في العقوبة، فهذا قول ضعيف، فإن نهايتهم معروفة بدون سير، غير أن الله تعالى أمر بالسير

او حض عليه في آيات كثيرة. ولو كانت العاقبة فقط، فإنه يكفي ذلك أن تقول: فانظروا عاقبة المجرمين، أي من غير عبارة «كيف كان»، غير أن هذه العبارة ثابتة في آيات كثيرة، فلا شك أنها تضيف مضامين مناسبة للأمر بالسير في الأرض او الحض عليه. **(وأما عبارة)**: ﴿كَانَ عَـٰقِبَةُ﴾، ففيها أمران، **الأمر الأول**: تدبر أن الله تعالى قال: «كان»، ولم يقل «كانت» مراعاة للتأنيث، والمشهور عند المفسرين أن السبب هو أن تأنيث العاقبة تأنيث غير حقيقي. ولكن يمكن أن يكون السبب هو الحذف، وهو كثير الوقوع جداً في القرآن الكريم وفي كلام العرب، وهو ما يحتاجه الإبـهام في «كيف»، كأن يكون التقديـر: كيف كان طريق عاقبتهم او مسـار عاقبتهم او منشأ عاقبتهم. **الأمر الثاني**: يـوجد وجهان في إعراب «كان»، **الوجه الأول**: أنـها فعل ناقص يحتاج إلى اسم وخبر، وأمره معروف. **الوجه الثاني**: أنها فعل تام يرفع فاعلاً كشبهه من الأفعال. وقد ذكر هذا الإعراب ابن عطية في تفسير آية غافر المذكورة، وجوزه أبو البقاء العكبري والمنتجب الهمداني في إعراب قوله تعالى ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ النمل: ٥١، وتوجد شواهد قرآنية كثيرة من «كان» التامة. وأما معنى «كان» التامة، فقال أبو البقاء العكبري: «كَانَ» التامَّة دَالَّة على الْكَوْن وكلُّ شَيْء دَاخل تَحت الْكَوْن. اهـ من (اللباب في علل البناء والإعراب)، ومعنى الكون في عبارة أبي البقاء أي الحدث وكل ما يدخل فيه من بدايته إلى منتهاه. وفي سياق مثال في باب المبتدأ، قال أبو حيان الأندلسي: فقدرت «كان» التامة لتدل على الحدث المطلق الذي يدل الكلام عليه. اهـ من (التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل)، وهذا مثل كلام أبي البقاء مع اعتبار السياق في تفسير الإطلاق. ولذلك قالت الدكتورة عزيزة فوال بابتي: تكون تامة (أي كان) إذا اكتفت بمرفوعها، وإذا صار معناه: «ابتدأ» او حدث او حصل او وجد او خلق. اهـ من (المعجم المفصل في النحو العربي). فمعنى «كيف كان»: كيف حدث، ويشمل ذلك المسـار كله من الإبتداء إلى الإنتهاء. وهذا قريب من «كان» التامة في قوله تعـــالى

﴿ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ﴾ المائدة: ٧١، فتشمل العبارة ابتداء الفتنة ضمن جملة الحدث.

الفائدة الثالثة: الحكم الإجمالي للنظر في التأريخ. ففي تفسير قوله تعالى ﴿ .... فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٧، قال ابن عاشور: وَفِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَهَمِّيَّةِ عِلْمِ التَّارِيخِ لِأَنَّ فِيهِ فَائِدَةَ السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ، وَهِيَ مَعْرِفَةُ أَخْبَارِ الْأَوَائِلِ، وَأَسْبَابِ صَلَاحِ الْأُمَمِ وَفَسَادِهَا. قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: «السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ حِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ، وَالْمَعْنَوِيُّ هُوَ النَّظَرُ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ بِحَيْثُ يَحْصُلُ لِلنَّاظِرِ الْعِلْمُ بِأَحْوَالِ الْأُمَمِ، وَمَا يَقْرُبُ مِنَ الْعِلْمِ، وَقَدْ يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يَحْصُلُ بِالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِعَجْزِ الْإِنْسَانِ وَقُصُورِهِ». اهـ من (تفسير ابن عاشور). ولنتدبر نحو قوله تعالى ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ النمل: ٦٩، فإن الأمر بالسير ظاهره الوجوب وبالمعنى الذي ذكرناه في الفائدة الأولى؛ غير أن الفعل في سياق الإثبات له حكم النكرة في سياق الإثبات، أي له حكم الإطلاق، فالذي لا يريد أن يُتعب نفسه في هذا المجال فإنه يكتفي من عبارة ﴿ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾، برؤية إجمالية لفاعلية عوامل الإنحدار في حصول العاقبة، وهذا على نحو تفسير النكرة المطلقة في قوله تعالى ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾ البقرة: ٦٧، فعن مجاهد قال: «لو أخذوا بقرة ما كانت، لأجزأت عنهم». رواه الإمام الطبري، وزاد مجاهد في رواية: «ولكنهم شددوا فشدد عليهم». رواه الطبري. وأما من كان منتصباً لفهم حركة الأُمم بين النهوض والإنحدار، ويحتاج إلى خبرة غير مباشرة فيما هو مكلف به، فلابد له من دراسة تحليلية لجوانب من تأريخ الأمم، فإن أحدنا لن يستطيع تحليل

التأريخ كله وإنْ كان تأهيله عالياً. وتدل صيغة الأمر في عدة آيات على الأهمية الكبيرة لـهذا الحكم.

ويؤكد أهمية دراسة التأريخ، قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ البقرة: ١٤٣، فالمطلوب من أُمة الإسلام أن تشهد على الناس عموماً، ولا شك أنها شهادة على أفكارهم وأقوالهم وأعمالهم.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: « مُرَّ بِجِنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ نَبِيُّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ »، وَمُرَّ بِجِنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ نَبِيُّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ »، قَالَ عُمَرُ: « فِدًى لَكَ أَبِي وَأُمِّي مُرَّ بِجِنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَمُرَّ بِجِنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ »، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الْأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الْأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الْأَرْضِ. » رواه مسلم والبخاري وأحمد وغيرهم، واللفظ لمسلم. وهذا نص صريح أن شهادة المسلم على الآخرين تشمل ما يستحق الثناء بخير وما يستحق الثناء بشر، أي الأفكار المعلنة والأقوال والأعمال. والحديث نص أن شهادة المسلم على الآخرين تشمل الأموات. فإن كان الميت معاصراً فإن الشهادة عليه ممن شهد حاله او روى عمن شهد. وإن كان الميت غير معاصر، فإن الشهادة عليه يجب أن تستند إلى الأسانيد الصالحة التي تصل إلى الميت، كما نفعل في رواية الأحاديث النبوية وفي رواية التأريخ.

وذهب بعضهم إلى الزجر عن دراسة وتحليل تأريخ غير المعاصرين، واحتجوا بقوله تعالى ﴿ ...... قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا

وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤ ﴾ البقرة: ١٣٣ – ١٣٤، وهذا الاستدلال خطأٌ في غاية الوضوح فهو غفلة، فقد جاءت عبارة ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ ... ﴾ في موضعين من سورة البقرة، واسم الإشارة (أي «تلك») يعود في الموضعين إلى إبراهيم وبنيه الصالحين عليهم السلام، كما هو واضح في النص القرآني، وبه فسر الآية الإمام الطبري وغيره. فلو كانت الآية تنهى عن التأريخ فإن النهي يشمل تأريخ الصالحين قبل غيرهم، ولوجب عدم رواية ودراسة تأريخ خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وهذا باطل لا يقوله أحد فيما أعلم. غير أننا نجد في هذا الزمان من يزن الأمور بموازين مختلفة او معايير مزدوجة كما في اصطلاح اليوم، فما يوافق مذهبه من التأريخ فإنه يرويه بإسهاب ويزخرفه بزيادات، وأما ما يُخالف هواه فإنه يملأُ الساحة ضجيجاً لإعادة صياغة التأريخ وفقاً للهوى او لإيقاف البحث في التأريخ لأنها أُمة قد خلت!!!! وقد قال تعالى ﴿ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴾ الشعراء: ١٨٢، فالميزان الشرعي مستقيم مع الجميع.

وأما المعنى الضمني لقوله تعالى ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، أي لها ثواب ما كسبت، ولكم ثواب ما كسبتم، ويتضمن ذلك أن تقويمكم وحسابكم إنما يكون بما كسبتم من عقيدة وعمل. وأما الانتساب إلى إبراهيم وبنيه بالإدعاء او النسب، فلا يتصل بإبراهيم وبنيه إلا إذا كان العمل موافقاً لدين إبراهيم عليه السلام.

ومما قيل في أهمية التحليل التأريخي: «كلما أطلت النظر إلى الوراء أحسنت النظر إلى الأمام»، و«مكتوب على الذين لا يتذكرون الماضي أن يجربوه مرة أُخرى»، ذكرهما الباحث منير عبود في كتاب (موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية).

الفائدة الرابعة: أصول مهمة في التحليل التأريخي، لمن أراد درجة عالية من العمل بنحو قوله تعالى ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾. فأكثر الناس يستطيعون تحليل او تقسيم المشهد بشكل عشوائي إلى أجزاء، ولكن المقصود هنا القدرة على على رؤية الفواصل المميزة والمؤثرة كي يكون التقسيم مفيداً في فهم تفاعلات الأجزاء وفي صناعة الرأي وتنفيذه وفي جودة الخطط. وفي رواية الحدث التأريخي، فإن السرد المجرد يركز على الزمان والمكان والأسماء وهذا جزء مهم لحفظ التأريخ، غير أن الإنتفاع بالتأريخ من أجل كسب الخبرة غير المباشرة وتوقع الخطوات المقبلة في زماننا يقتضي رؤية تحليلية للحدث التأريخي. وللإنتفاع بدراسة التأريخ واكتساب خبرة غير مباشرة منه، يمكن القول إن محاور الرؤية التحليلية تتضمن: **(المحور الأول)**: نشوء الحدث، وجذوره او العوامل التي أدت إليه. **(المحور الثاني)**: مسار الحدث وتفاعلاته ونقاط قوته وضعفه والغاية التي بلغها، ثم مسار الإنحدار وتفاعلاته. ويقتضي ذلك التركيز على المضامين المتحركة للحدث، وعدم التحجر على المضامين الجامدة كالأسماء والأعداد والأمكنة والأزمنة. **(المحور الثالث)**: العوامل المؤثرة في المسار، الداخلية والخارجية. **(المحور الرابع)**: تأهيل الفكر لرؤية الجوهر او اللب او المعنى المركزي للحدث، بمعزل عن الملابسات والقرائن الشكلية او الظرفية او التضليلية. ورؤية المعنى المركزي ضرورية للإستفادة من التأريخ ومن تجارب الآخرين، لأن المعنى المركزي هو الذي يتكرر مع تعاقب الأزمنة. وأيضاً، فإن رؤية المعاني المركزية ضرورية لفهم حقيقة الحدث وغاياته بعيداً عن الخداع والتضليل. وبهذه المهارة مع القُدرة على رؤية خصائص الحاضر، يمكن القول: إن الخبرة غير المباشرة تساعد جداً في استخراج حلول من الماضي لمعضلات الحاضر. ونؤكد أن من يُقصر في رؤية المعنى المركزي، فإنه سيتعب نفسه بالتفاصيل التأريخية الكثيرة وغير المفيدة. **(المحور الخامس)**: منتهى الأمر او العاقبة ومضامينها والعوامل المؤثرة فيها وتسلسل الأحداث الموصلة إليها. وبنحو هذه الرؤية للمحاور

يكون تحليل مشهد التغيرات الدولية في الإرتباط الإستراتيجي والتحالفات الدفاعية وتوسيع النفوذ والتوجيه السياسي للإقتصاد وغير ذلك من الأحداث.

الفائدة الخامسة: من أعظم فوائد الرؤية التحليلية للتأريخ المعاصر والقريب والبعيد، هو **اكتساب الخبرة غير المباشرة**: وذلك باستيعاب غير تقليدي لخبرة الآخرين. ويمكن أن تكون خبرة الإنسان غير المباشرة أكبر بكثير من خبرته المباشرة أي من عُمره الوظيفي. ويقوم بناء الخبرة غير المباشرة على ثلاثة عوامل ، **(العامل الأول)**: دراسة التأريخ بنحو ما ذكرناه هنا قبل قليل؛ وكذلك مهارات الإستماع والقراءة واستطلاع الآراء. **(العامل الثاني)**: قوة الملاحظة. **(العامل الثالث)**: التفكير التحليلي بنحو ما ذكرناه قبل قليل، وكأن القراءة عندك ليست مجرد مطالعة ولكنك تدرس ما تقرأه وما تستمع إليه وما تلاحظه، وتُدوِّن ملاحظاتك ثم تنظمها وتفكر بها وكأنك تعيش فيها. وواضح أن من أراد التفوق فينبغي أن تكون خبرته غير المباشرة أكبر بكثير من المباشرة، لأن مدى الخبرة المباشرة يقتصر على الأيام المفيدة من العمر الوظيفي للإنسان، فهو في الغالب جزء من العمر الوظيفي. وأما الـمُوَفق في دراسة خبرة الآخرين واستيعاب مضامينها المفيدة والمتكررة، فإن مدى خبرته قد يزيد بكثير على مائة سنة وظيفية، بل قد يكتسب خلال أشهر من الدراسة خبرة سنين سابقة كثيرة. ويحتاج ذلك إلى مهارة فكرية عالية.

ومن عظيم أهمية موعظة التأريخ قوله تعالى ﴿ ..... أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ إبراهيم: ٤٤ – ٤٥؛ المعنى: أقسمتم بعدم زوال سلطانكم وقُدُراتكم، وسكنت نفوسكم في مثل مساكن الظالمين قبلكم وتبين لكم كيف فعل الله بهم، وضرب الله لكم الأمثال؛ والإعتماد هنا على

المعنى اللغوي للسكن والسكون، فالمسكن هنا هو البيت الفكري الذي تسكن فيه النفس المشركة، وما فيه من ظلم وإعراض عن الحق. يؤيد ذلك أن معنى الآية ثابت، وأما المساكن المادية للأُمم الماضية فيمر الناس على آثارها من غير أن يسكنوا فيها، فلا يصح حمل النص عليه. وهذا أقرب ما يكون إلى تفسير الماتريدي، وعبارته: أي: سكنتم في الدنيا في مثل منازلهم ومساكنهم؛ فرأيتم ما نزل بأُولَئِكَ الذين صنعوا مثل صنيعكم. وقال بعض أهل التأويل: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ : أي: عملتم مثل أعمالهم. اهـ مع اختصار من (تفسير الماتريدي).

وفي كتاب (جدوى القوة ١٨٩-١٩٠) ضرب خبير الحرب البريطاني روبرت سميث مثلاً من نفسه، فإن الخبرة المباشرة في الحرب لقائد عسكري قد تبلغ بضع سنوات فقط من جملة وظيفة عسكرية لبضعة عقود، مما يجعل الخبرة غير المباشرة ضرورية جداً، أي المهارة في التعلم من الماضي والتأريخ.

ومن المجالات المهمة التي تجمع بين التحليل التأريخي وتحليل النظائر التي ذكرنا أصلها قبل قليل: أن نتذكر أن كثيراً من حقائق اليوم كانت في الماضي من المجاهل او مجرد افتراضات خيالية، ثم تطوَّر أمرها حتى أصبحت حقائق قائمة. فإذا درسنا مراحل التطور من الخيال إلى الحقيقة دراسة دقيقة ذكية، فهل يمكن استثمارها لتسريع تطوير نظائرها من مجاهل وخيالات اليوم وجعلها بإذن الله حقائق قائمة؟؟ ويشمل ذلك العلوم المادية او الطبيعية، وكذلك العلوم الفكرية والإنسانية.

....

اكتساب معارف الآخرين

الإستماع واتباع التي هي أحسن:

قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨ ﴾ الزمر: ١٧ – ١٨. من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: مقدمة تفسيرية:

● الفاء في عبارة ﴿ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴾، للتفريع وربط المعاني، وتدبر أن الله تعالى لم يقل: فبشرهم، بل قال: ﴿ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴾، كي يتضح ارتباط المعنى بما بعدها، أي بعبارة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ... ﴾، بالإضافة إلى ارتباطه بما قبله. والمعنى: أن الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هم الذين يجتنبون الطاغوت أن يعبدوها وينيبون إلى الله. وعلى هذا المعنى تفسير الزمخشري وأبي حيان والرازي والبيضاوي والنسفي والآلوسي وابن عاشور ، وهو ظاهر كلام القرطبي. وعلى هذا المعنى أيضاً قول محمد الأمين الأرمي بأن «الذين» الثانية صفة لـ «عباد» كما في (حدائق الروح والريحان). وقريب من ذلك قول الإمام الطبري: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم: فبشر يا محمد عبادي الذين يستمعون القول من القائلين، فيتبعون أرشده وأهداه. اهـ. وقال الإمام الزمخشري: وأراد بعباده الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير. اهـ.

● قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾، فيه أُمور، **(فالأمر الأول)**: تدبر لفظ: يستمعون وليس يسمعون ، فإن السماع قد يحصل بدون قصد، وأما الإستماع على صيغة «افتعَل»، فينبه إلى تعمد او تكلف السماع اوالإجتهاد في تحصيله. وهذا كالفرق بين كسب واكتسب، وصحب واصطحب، وجَهَد واجتهد، وبَكَر وابتكر، وغنمَ واغتنم. **(الأمر الثاني)**: لفظ «القول»، صيغته عامة في جنس القول وبصرف النظر عن قائله. وقد قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة: ١٤٣، فالشهادة على الناس عموماً إنما هي شهادة بالحق على أقوالهم وآرائهم ومذاهبهم وأعمالهم. وقال تعالى ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الملك: ٢٢، فالذي يمشي سوياً منتصباً فإنه ينظر في الأُفق كله شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ويمكن له أن ينتقي من الأُفق ولكنه يمشي بعقله وقلبه على صراط مستقيم، فهو يُحاكم ما ينتقيه إلى مرجعيته. معنى ذلك أن على المؤمن اكتساب مهارة تتبع وجمع الأقوال او مهارة "حصاد الأفكار"، كي تكون له ثروة معرفية وليست عقائدية. **(الأمر الثالث)**: عبارة ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾، كلمة «أحسنه» صيغة تفضيل عند المقارنة، فمن الخطأ إدعاء أن التفضيل غير مراد. معنى ذلك أن على المؤمن اكتساب مهارة رؤية الخيارات المحتملة وتقويمها والمقارنة بينها من أجل اختيار أحسنها أي أفضلها. ويشمل ذلك فحص الوجوه في الإجتهاد الفقهي، من أجل انتقاء أحسنها أي أقربها إلى مضامين الأدلة الشرعية وإلى قُدُرات التنفيذ؛ ويشمل أيضاً فحص الخيارات في القرار التنفيذي من أجل تقديم الأحسن. والأحسن في القرار التنفيذي هو الأكثر نفعاً والأطول أثراً والأبعد عن الضرر والفساد، كما ينبه إليه قوله تعالى ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ

أَمَلًا ﴾ الكهف: ٤٦، فإن لفظ «الباقيات» ينبه إلى طول الأثر وإلى بقاء الصلاح أي فشل عوامل الفساد في النيل منه. **(الأمر الرابع)**: قوله تعـالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾، تبين العبارة الثناء العظيم والمبالغة في مدح المشمولين بالآيتين الكريمتين.

● يتصل بذلك قوله تعـــالى ﴿ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ الإسراء: ٤٦ – ٤٧ ، فتدبر أن الله تعـــالى لم يقل: بما يستمعون إليه، ولكنه تعـــالى قال في سياق الذم: ﴿ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾ ، فإن الباء في: «به»، للإيصال بأداة الإستماع او بمنهج الإستماع وهو المراد هنا، وهـذا كما تقول: رأيته بعيني وقاومته بالحجة والفكر وضربته بيدي، فالعقلية او المنهج الذي يستمع به أولئك الكفار كان رافضاً للمسموع مُسبقاً وغير مستعد لرؤية معانيه وتحليلها كما هو واضح من السياق.

الفائدة الثانية: من أُمور الإستماع واتباع الأحسن:

● مهارات إعداد الفكرة الجيدة وإنضاجها ثم نشرها او سوقها إلى مجال الإستماع والإنتفاع بها. ويشمل ذلك عمليات منهجية للتبرع بالأفكار ولحصاد الأفكار، والتدريب على إنضاجها. وبالعودة إلى قوله تعالى ﴿ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ ﴾، فإن العبارة توجب إتباع الأحسن سواء وافق قول الحزب والطائفة او خالفه. ولذلك يجب أن يتعهد كل صاحب مسؤولية عامة أن يجتهد في معرفة الأحسن والدعوة إليه والعمل به، غير متأثر بجماعات الضغط من المصالح الخاصة، وبصرف النظر عن موافقة او مخالفة جماعته وحزبه وطائفته. وهذا قريب من قواعد علم الأُصول أن

على المجتهد أن يتبع اجتهاده، ولا يجوز له أن يقلد غيره، وقد بينا ذلك في (المنهج الفريد)، غير أن تنقيح القول يوجب العرض على الآخرين والإستماع إلى أدلتهم. وتوجد تفاصيل تنفيذية ذكرناها في مبحث الشورى من (نخبة المسار).

● فتح المجال على مصراعيه أمام الأفراد لتحصيل مهارات إعداد الفكرة الجيدة وإنضاجها ثم نشرها او سوقها إلى مجال الإستماع والإنتفاع بها. ويشمل ذلك عمليات منهجية للتبرع بالأفكار ولحصاد الأفكار، والتدريب على إنضاجها، وتوفير فرص للتدريب في مراكز الفكر والبحوث وعبر شبكات التواصل وغيرها من المراكز النظيفة للتنمية الفكرية. وهذا كله داخل في تعليم الحكمة أي الطريقة الصحيحة في التفكير والتصرف وفي التزكية أي تنمية النفس والحال بالخير، وهي من أهم وظائف النبي ﷺ وأتباعه، فقد قال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ آل عمران: ١٦٤.

● تحصيل مهارة استطلاع الآراء او تحفيز الكلام: فإن فريق العمل في إعداد مشروع معين قد يحتاج إلى آراء من خارج الفريق ومن غير فتح المشروع للآخرين. وبعبارة أُخرى فإن عضو الفريق قد يشارك في لقاء اجتماعي او ثقافي، وفي حوار مع من يمتلك خبرة، وغيرها من اللقاءات المتاحة. ويستطيع عضو الفريق توجيه المداولة إلى قضايا تتصل بمشروعه. وهذه مهارة كثيرة الفائدة لأنها تيسر اكتساب أفكار وخبرات الآخرين.

● اتباع الأحسن إنما يُعرف بالمقارنة بين الأقوال، ولتوسيع أُفق المقارنة نحتاج إلى تعبئة لجمع الأقوال وفرزها وتقويمها، ثم انتقاء ما يُحتمل أن بعضه هو الأحسن، ثم إنضاج وتنقيح هذه الأقوال كي يمكن اختيار أحسنها.

التعرف إلى النشاط الإنساني:

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ الحجرات: ١٣. فمن فوائد التفسير:

الفائدة الأولى: مقدمة تفسيرية، قال الزمخشري: الشعب: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة، فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع، العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل. وسميت الشعوب، لأنّ القبائل تشعبت منها. اهـ من (تفسير الزمخشري).

فتدبر أن الخطاب في الآية لعامة الناس.

وقوله تعالى ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾، اللام للتعليل، وتُستعمل هذه الصيغة بكثرة لبيان الواجبات، نحو قوله تعالى ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ الحديد: ٢٥، وقوله تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ص: ٢٩.

والفعل في: ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾، مضارع تعارَف، والأصلُ: لتتعارفوا فحذفَت إحدى التاءَيْن.

وأما معنى التعارف، فإن المعروف نقيض المنكر. وعلى ذلك فإن التعارف نقيض التناكر، يُقال: ناكر فلان فلاناً أي خادعه وراوغه او عاداه او حاربه، وتناكر الأصحاب تغافل بعضهم عن بعض او تغيروا عن سابق عهدهم. والنُّكْر والمنكر ما يُستقبح ويُستبشع، قال تعالى ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ لقمان: ١٩، وبخلافه المعروف وهو ما تقبله النفوس الطيبة والعقول السليمة، ولعله لذلك صار المعروف إسماً للجود او لما يُعطَى للآخرين من خير. ومنه قول الشاعر: (ولم أَرَ كَالْمُعْروفِ أَمَّا مَذَاقُهُ .... فَحُلْوٌ

وَأَمَّا وَجْهُهُ فَجَمِيلُ). فالتعارف هو التعرف إلى الآخر بالسلوك الذي تقبله النفوس الطيبة والعقول السليمة. والآية الكريمة مطلقة في التعارف وتقبل درجات متفاوتة جداً فيه. وأما قول بعض المفسرين في معنى لتعارفوا: «ليعرف بعضكم بعضا في النسب». اهـ، فهذا جزء صغير جداً من أُفق الإطلاق في التعارف.

ويتصل بذلك قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة: ١٤٣، فالشهادة على الناس عموماً إنما هي شهادة بالحق على أقوالهم وآرائهم ومذاهبهم وأعمالهم. ولذلك فإن التعرف إلى النشاط الإنساني أصل كبير عندنا ويؤدي إلى ثروة معرفية وليست عقائدية، والله تعالى أعلم.

الفائدة الثانية: ومما ذكرناه في (نخبة المسار) أن غاية التعارف ليست هي مجرد التعرف إلى اسم الشخص ودينه ووظيفته، ولكن الإطلاق في التعارف يشمل المعرفة الحاصلة بالفحص والتنقيب، فما هم وما هي نقاط ضعفهم وقوتهم وما هي عوامل نهوضهم وانحدارهم وما هو تأريخهم والعقيدة الداخلية (غير المعلنة) لهم، وما هي مناهجهم وما هي أفضل الوسائل التي تجعل التعرف بهم مفيداً او تحقق منافع متبادلة؟ وأمر الشعوب والمؤسسات هو صورة مكبرة ومركبة لصور الأفراد، فلو افترضنا أن رجلا هيأ لنفسه وسيلة للإمداد بالطعام والشراب ثم انزوى في بيته وأغلق على نفسه الباب فلا يخرج أبداً، فهذا قد حكم على نفسه بالهلاك المعنوي وصار عرضة أيضاً للهلاك الجسدي . وذلك أنه منع على نفسه سُبل التأثر والتأثير، وابتعد عن سبيل المصابرة والمغالبة، ووضع غطاءً يمنعه من رؤية المشهد الخارجي، وقد تكون في المشهد مؤامرة لتدميره وتدمير بيته. يوضح الأمر أن الإنسان إذا تجاهل المشكلات الداخلية والخارجية فإنها لا تتجاهله، بل

تتفاقم حتى تُـفسـد حاله وهو غير مستعد للدفاع عن نفسه. وفي كثير من الأحيان يكون الغائب خاسراً.

وضعف التحرك الخارجي للتعارف، يمكن أن يؤدي إلى:

- ضعف القدرة على التأثير.
- ضعف القدرة على تحريك الآخرين.
- فقدان عنصر المبادأة (المبادرة).
- ضعف القدرة على الدفاع والمواجهة.
- عدم الإستفادة من وجود القيمة العالمية بيدك.
- ضعف القدرة على نقل ما تقدم به الآخرون من الوسائل والمتطلبات التنفيذية.
- فقدان الرؤية الصحيحة في تعيين من تصادق ومن تعادي.

و على ذلك، فإن منهج التعارف يشمل:

- التعرف إلى أنواع المعاني المتصلة بالآخرين، فهو يتسع للتعرف إلى كل ما هو ضروري او مفيد عنهم ، من تأريخهم وعقائدهم ومنهجهم السياسي والعسكري، وقُدُراتهم وطموحاتهم المشروعة وغير المشروعة، وطرق التأثير عليهم، وعلاقاتهم العميقة والسطحية وتحالفاتهم وغير ذلك من المعارف.
- إخضاع تلك المعارف إلى التحليل والإنتقاء.
- وكذلك يشمل التعارف:
  - ✓ بناء العلاقات الإيجابية مع المسالمين عموماً من الناس.
  - ✓ العمل لتحويل العلاقات السيئة (التناكر) إلى علاقات حسنة.

....

كثرة القراءة:

ضرورة القراءة: القراءة الكثيرة والهادفة والمنتقاة ضرورية جداً لتحقيق فوائد عظيمة، **منهــا**: تعويض النقص الكبير في الإستماع المباشر وفي الرؤية المباشرة، كما في نحو قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فاطر: ٤٤، فكأن الناظر يرجع إلى الوراء كي يقف في بداية الحدث الماضي، ثم يسير بالتفكير إلى الإمام في دراسة تطور الأحداث وإلى نهاية المطاف؛ وكل ذلك عن طريق القراءة والتفكر، وجاءت نحو هذه الآية ولكن بصيغة الأمر الصريح في آل عمران والأنعام والنحل والنمل، وقد تقدم تفسير مفصل لآية فاطر، تحت عنوان: «التحليل والخبرة غير المباشرة». **ومنهــا**: ممارسة التفكر والتوسع في الأُفق العقلي، خاصة في المجال الذي تتصدى له وترابط عليه، وفيما تنتقيه من القراءة، وكذلك ممارسة إثارة الإحتمالات التي تفسر الفكرة والحدث التأريخي، وقد يُطلق عليه في الدراسات الأجنبية: «ممارسة التخيل». يوضح الأمر أن القراءة مُعَلِّم صامت ومتاح لكل من يطلبه، ولكنه قد يعطيك طرفاً من الأمر او دليلاً عليه او احتمالاً ينبه إليه، وشبه ذلك من المثيرات العقليةالتي تدفعك لتعاطي أنواع المهارات الفكرية، وخاصة حين يتصل المقروء بما تتصدى له. **ومنهــا**: تحصيل الخبرة غير المباشرة عن طريق تحليل ما تقرأه، وقد سبق ذكرها. **ومنهــا**: التدريب على النقد وتنقيح وتصحيح او رد المفاهيم. **ومنهــا**: تَعَلُّم أشياء مهمة كثيرة والتذكير بأشياء مهمة كثيرة كانت كامنة في الذاكرة الساكنة. **ومنهــا**: تنمية مهارة التركيز، خاصة في المباحث المنتقاة والتي يتصدى لها الإهتمام. **ومنهــا**: أن القراءة يمكن أن تجعلك بإذن الله تعالى مُنتِجاً لأفكار قابلة للتوظيف او قابلة للبناء عليها والتقدم بها، فهي طريق إلى

حسنات كثيرة. **ومنهـــا**: أن القراءة المنتقاة تُحسن الأداء العقلي وما يتبعه من تصرفات. وتُنقل نتائج دراسات أن القراءة تُحسن صحة الإنسان.

وقال تعالى ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ العلق: ٣ – ٥، فتدبر عبارة ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾.

وقال تعـــالى ﴿ ... وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ آل عمران: ٧٩، الدراسة تشمل قراءة الكتب ودراستها، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ .... أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ القلم: ٣٧ – ٤٠، تبين الآية أهمية دراسة الكتاب الصالح للدراسة، وفي الآية أيضاً إنكار على المشركين لعدم استنادهم إلى مثل هذا الكتاب. يؤكد ذلك قوله تعالى ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الصافات: ١٥٦ – ١٥٧.

ونذكر بقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة: ١٤٣، فالمسلم مأمور بقراءة الأُفق العالمي في مجال اختصاصه كي يشهد عليه.

من أنواع القراءة: تتنوع القراءة بحسب الغاية منها:

فمنهـــا: القراءة لبناء المعرفة في مجال التخصص، ولابد في بدايات الأمر من أن تكون القراءة متأنية لتحقيق الفهم. ويشمل ذلك قراءة الأُفق العالمي في مجال البحث، وذلك لبناء ثروة معرفية وليست عقائدية. **وبعد زمن يمكن أن يكون المتخصص مُدرَّباً على القراءة السريعة لقطف أقصى ما يمكن من الفوائد التي تخصه.**

ومنهـــا: قراءة التدبر، وهي قراءة صامتة، يقوم بها النظر والعقل، ومن غير تحريك الجهاز الصوتي. والغاية منها في تدبر القرآن الكريم: الفهم بأوسع ما يمكن واستخراج ما يمكن من المعاني الكامنة. وتدبر القرآن يشمل كل كلمة وكل عبارة، وبصورة متكررة، فإن فوائد القرآن لا نهاية لها. وقد بينا منهج تدبر القرآن بالتفصيل تحت عنوان:«الهداية المستمرة/ ختمة التدبر» في كتاب (نخبة المسار في فقه القيادة والإدارة). وأما في غير القرآن الكريم، فإن الغاية من التدبر الفهم والإنتباه إلى ميول الكاتب ومقاصده التي لا يصرح بها وهل فيها شـر كامن؟ وكذلك ملاحظة الفوائد التي يتجاوزها كثير من القُراء. وبصورة عامة، فإن التدبر قراءة متأنية، وقد نُـقِل عن بعض المفكرين أن قراءة كتاب واحد جيد ثلاث مرات أنفع من قراءة ثلاثة كتب جيدة مرة واحدة. وواضح أن قراءة التدبر تأخذ الكثير من الوقت، فلابد من انتقاء ما ينبغي أن يُقرأ بالتدبر.

ومنهـــا: القراءة الصوتية، كما في إلقاء الخطب والمحاضرات والشعر وغير ذلك.

ومنهـــا: تلاوة القرآن الكريم، وهي قراءة صوتية ولكنها تنفرد بخصائص عظيمة، ولذلك تُذكر لوحدها.

ومنهـــا: القراءة لتحصيل ما يُطلق عليه: «ثقافة عامة»، كتحصيل معلومات في مجالات متنوعة كثيرة. ومن المفيد تحصيل نوع هادف من الثقافة العامة، لأن معلومات في مجال معين يمكن أن تكون مفيدة جداً في مجال آخر وخاصة حين توجد أُصول مشتركة، فإن معرفة قواعد إدارة الشـركات قد تُضيف إلى قواعد الإدارة السـياسـية، ويحتمل أيضاً أن دراسة محركات الطائرات تنفع في تطوير محركات أُخرى. وواضح أن تحصيل معلومات يمكن توظيفها قد يتطلب المرور بمعلومات كثيرة بعيدة جداً عن التوظيف المفيد، ولكن ينبغي تدريب العقل على الإحتفاظ بمعلومات التوظيف ومعلومات المضار التي نحتاج إلى اجتنابـها، وكذلك الإحتفاظ بالمعلومات التي تمس المصالح العامة في

بلدك بصورة مباشرة او غير مباشرة. ولا مفر كذلك من تذكر المعلومات الشائعة التي يتكرر ذكرها على الملأ كمخاطر السلاح النووي. وينبغي إغفال سائر المعلومات العامة حتى يحدث ما يوقِظ المعلومة النائمة. وأما احتفاظ الذاكِرة بمعلومات كثيرة جداً في مختلف المجالات، وبعيدة عن التوظيف المفيد، فمن العبارات المأثورة: أنها أمور لا ينفع العلم بها ولا يضر الجهل بها؛ ولعل الأصح أن احتفاظ الذاكرة بها يضر، لأنها تُشغل العقل عما هو أهم وأنفع.

وفي العنوان الآتي ما يتصل بالقراءة إن شاء الله تعالى.

تركيز التفكير

الرَّكْزُ تثبيت شيء في شيء كقولهم: رَكَزَ الرمح في الأرض. **قال ابن منظور**: ومَرْكَزُ الجنْدِ: الْمَوْضِعُ الَّذِي أُمروا أَن يَلْزَمُوهُ وأُمروا أَن لَا يَبرَحُوه. ومَرْكَزُ الرَّجُلِ: موضعُه. يُقَالُ: أَخَلَّ فلانٌ بِمَرْكَزِه. وارْتَكَزْتُ عَلَى الْقَوْسِ إِذا وَضَعْتَ سِيَتَها بالأَرض ثُمَّ اعْتَمَدْتَ عَلَيْهَا. ومَرْكَزُ الدَّائِرَةِ: وَسَطُها. وَمَا رأَيت لَهُ رِكْزَةَ عَقْلٍ أَيْ ثَبَاتَ عَقْلٍ. اهـ من (لسان العرب). والرِّكَازُ المال المدفون. وأَمْرٌ مركوزٌ في العقول: مقرر ثابت.

فالمقصود بتركيز التفكير تثبيت الفكر على أمر فلا يكاد يشتغل بغيره، او هو الإهتمام الفائق بواجب المغالبة. ويتضح تركيز الفكر بعبارتين رشيقتين، **العبارة الأولى**: التركيز يحتاج إلى إبعاد، أي إبعاد ما يُشغلك عن قضيتك. **العبارة الثانية**: الإشتغال بغير المقصود إعراض عن المقصود. ومن أهم علامات التركيز أنه تقوم في داخل الباحث أفكار تلقائية تخص قضيته، وكأنها تطرق عقله او تُولَد فيه من حيث لا يشعر، وقد تكون بعض هذه الأفكار عظيمة الفائدة.

....

آية المرابطة:

وتشكل مع آية البقرة أعظم منهج للتركيز، فقد قال تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ آل عمران: ٢٠٠. ولنا في كتاب (المنطلق) تفسير مفصل لآية آل عمران، ونحتاج هنا إلى بعضه مع شيء من التنقيح:

(أما الصبر): فهو الثبات على الشيء، ومنه الصبر على البلاء وهو الثبات على حسن التصرف ومقاومة الجزع. ومنه الصبر عن الشهوات أي الثبات على مقاومتها، والصبر على عمل او مطلب فكري، وهو الثبات على العمل وعلى خدمة المطلب، مع مقاومة الملل والتفلت، ومن هذا النوع قوله تعالى ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم .. ﴾ الكهف: ٢٨، أي اثبت معهم، ومن العبارات المشهورة في تفسير هذه الآية: احبس نفسك عليهم؛ وكذلك قوله تعالى ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا ﴾ طه: ١٣٢.

(وأما الفعل «وصابروا»): فَمِن صابرَ يصابرُ، مُصابَرةً فهو مُصابِر. ومعناها أن الصابِر يغالب وينافس في مجالات الحياة كمجال السياسة والإقتصاد والتنمية والدفاع وغيرها، فهو يغالب في الصبر على التفكير وعلى العمل وعلى التحسين والتفوق. يوضح الأمر أن عبارة ﴿ وَصَابِرُواْ ﴾ صيغة مفاعلة وهي تقتضي تفاعلاً ظاهراً او مقدراً بين طرفين، فالفرق بين صَبرَ وصابَرَ كالفرق بين قتل وقاتل، ومنه قولهم: صابَر فلان أخاه، أي غالبه في الصبر. فتشمل العبارة أمرين، **الأمر الأول**: غالبوا أنفسكم، أي غالبوا عوامل الملل والركود والتفلت. **الأمر الثاني**: غالبوا خصومكم في الصبر على مقتضيات المنافسة والمواجهة. ولا يمكن هنا أن يكون «صابروا» بمعنى: اصبروا، لأنه معطوف عليه فلابد من المغايرة، وكذلك لعدم جواز إغفال صيغة المفاعلة بلا ضرورة

وبرهان. وواضح أن الآية نص في فكر المغالبة والمنافسة؛ وقريب منها آية سورة البقرة التي سنذكر تفسيرها بعد قليل إن شاء الله تعالى.

(وأما عبارة ﴿وَرَابِطُواْ﴾): فإنها أصل كبير في تركيز التفكير، وذلك أن المصابر قد تعتريه بعض الشواغل والواجبات الجانبية وفروض الكفاية، وعلاج ذلك في المرابطة، فكأن المرابط يربط نفسه او فكره على واجبه المتعين عليه فلا يميل هنا ولا هناك إلا لفروض العين وللضرورة وللإبقاء على قدر مقبول من التوازن بين الأنشطة المتنوعة. صحيح أن أنشطة التوازن كالعلاقات العائلية وتحصيل المنافع الدنيوية ينبغي أن تأخذ حقها وأن يكون التعامل معها بإتقان، ولكن ينبغي تنظيم هذه الأنشطة بحيث تنسجم مع إعطاء واجب المرابطة حقه كاملاً. بل إذا كان يُنصح لغرض التوازن بقصر العمل الرسمي على ساعات العمل الرسمي، فإن التفكير غير مشمول بذلك ، أي ان التفكير بواجب المرابطة ليس له حدود. والمفاعلة هنا تقديرية للمبالغة أي المغالبة في الرباط، وكأنّ الأمر الذي يرابط عليه المؤمن يريد أنْ يفلت منه ولكن المرابط يحرص عليه ويُمسك به بقوة ويركز عليه. ويُقال لكل من أقام على أمر وثبت عليه: ربط قلبه عليه وربط نفسه.

(وأما صيغة الفعل في سياق الإثبات): كما في ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾، فهي صيغة مطلقة تقبل أنواعاً من الأمور التي تصح المرابطة عليها، وذلك كالإطلاق في المأكول في قولك لجماعة: كلوا. ومما يؤثّر على الإطلاق أن المصابرة غير مقتصرة على مغالبة النفس، بل تشمل مغالبة المنافسين والخصوم، فلا مجال للركود ولا لدرجة ضعيفة نسبياً، وذلك لأن المغالبة واجبة في مقدار ونوع العمل الذي نصبر عليه. وبعبارة أخرى فإن من أهم غايات المصابرة هو تحقيق تفوق نوعي، معنى ذلك أنك تملك شيئاً مهماً لا يملكه غيرك ويتعذر او يصعب مضاهاته. ولو افترضنا أن الأمر بالصبر لا يدل بنفسه

على المبالغة فيه، فإن الأمر بالمصابرة يستلزم الدوام والتكرار والمبالغة، بسبب ما ذكرناه من معنى المغالبة بين طرفين او أكثر.

ومن توابع صيغة الإطلاق هو الشيء الذي ترابط عليه. فالمرابطة التامة تكون على واجب واحد من فروض الكفاية، فإن تم تحقيق الهدف صح الإنتقال إلى واجب آخر. وذلك أنك حين ترابط على واجبين او أكثر، فإنك تترك المرابطة على الواجب الأول حين تشتغل بالواجب الثاني، فحين يكون السقف الزمني لتحقيق الهدف محدوداً ويجب الإسراع الممكن، وتكون مسؤولية المغالبة قائمة، فلا شك أن من الضروري أن تكون المرابطة تامة، أي على واجب واحد. وأما حين يكون السقف الزمني مفتوحاً كما في النشاط الشخصي في كثير من الأحيان، فإنه يمكن المرابطة على واجبين، غير أن زمن تحقيق الهدف سيكون أطول إلا بتوفيق من الله تعالى.

(خطاب الآية الكريمة): خطاب الجماعة في آية المصابرة يشمل الجماعة منفردين ومجتمعين. فكل مجموعة او فريق عمل او فرد، يتصدى لأمر عام او لعمل خاضع لقانون المغالبة، فعليه أن يؤهل نفسه للعمل بمضامين آية آل عمران، وأن يشمل ذلك أعضاء الفريق كلهم وإن تفاوتت درجاتهم في ذلك. وربما يُـقْبَل في الفريق شخص ضعيف في نـوع ولكنه قوي في نـوع آخر من المغالبة، المهم أن مجمل عمل الفريـق يـجري بكفاءة عالية على طريق المغالبة. فالأمر الضروري هنا أن كل وظيفة تحتاجها الأمة فإن المنتصب لـها يجب أن يكون مصابراً مرابطاً عليها، ويعيد تنظيم سائر أعماله بحيث لا تتعارض مع إتقان وإجادة واجب المرابطة، وبعبارة أخرى يكون متخصصاً في هذا الواجب، وبدرجة عالية ومتفوقة.

(المرابطة ليست خاصة بالعمل العسكري): قد يظن بعضهم أن الرباط خاص بمواقع الجهاد العسكري (الثغور)، ولا شك أن هذا ليس بصحيح ، لأن الآية الكريمة لم تذكر متعلّقات الصبر والمصابرة والمرابطة، وعدم ذكر المتعلقات يفيد الإطلاق فيها، أي في

كل واجب يحتاج إلى مرابطة. ولا يـوجد في آيـة آل عمران أدنى إشـارة للحصر في العمل العسـكري. والغالب في واجبات المرابطة هي فروض الكفاية كالعلوم الشرعية والطبية والهندسية والتصنيعية والدفاعية وغيرها. فإن الأصل في هذا النوع من الفروض هو عدم الإقتصار على حد معين، بل ينبغي دائماً طلب المزيد من التحسين والتطوير من أجل تحصيل متطلبات المنافسة والمغالبة.

يؤكد عدم الحصر في الجهاد العسكري، حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ »، قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ الله قَالَ: « إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ » رواه مسـلم وأحمد وغيرهما، وفي رواية لـهذا الحديث زيادة « فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ » رواه مسلم ، وتدل عبارة « فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ »، وتكرارها على الإهتمام او التعظيم، على نحو قوله تعالى﴿ **ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا** ﴾ النساء: ٧٠ ، كما ذكر ابن عاشور في تفسير الآية. ولعل سبب الإهتمام والتأكيد، أن المحافظة على استقامة الجمهور أمر في غاية الأهمية. ويستطيع كثير من الجمهور المحافظة على درجة من المرابطة على الصلاة في المسجد، غير أن أهلية الجمهور غير كافية للمرابطة على السياسة او الاقتصاد او العلوم الشرعية او الصناعية او الطبية وشبهها مما يحتاج إلى أهلية خاصة، وقد نقل الإمام النووي ما يُنبه إلى ذلك. قال النووي رحمه الله تعالى: قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ الْبَاجِيُّ: وَقَوْلُهُ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ أَيِ الرِّبَاطُ الْمُرَغَّبُ فِيهِ وَأَصْلُ الرِّبَاطِ الحبس على الشئ كَأَنَهُ حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَى هَذِهِ الطَّاعَة، قِيلَ وَيَحْتَمِلُ أَنهُ أَفْضَلُ الرِّبَاطِ كَمَا قِيلَ الْجِهَادُ جِهَادُ النَّفْسِ، **وَيَحْتَمِلُ أَنهُ الرِّبَاطُ الْمُتَيَسِّرُ الْمُمْكِنُ أَيْ أَنَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الرِّبَاطِ**. اهـ مع اختصار من (شرح النووي على صحيح مسلم/ باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره).

و ونؤكد أن حصر المصابرة والمرابطة بالعمل العسكري هو أحد أسباب إنحدار الأمة، فإنه يؤدي إلى غياب المرابطين على كثير من التخصصات الضرورية لنهضة الأمة أي تعطيل تركيز التفكير، وهذا بخلاف ما نجده اليوم في دول الغرب من كثرة المرابطين على العلوم الصناعية والطبية والإستراتيجية وغيرها، ولكن مع انحدار واضح في الجوانب العقيدية والإجتماعية وما يتصل بها.

وقد ذكر الإمام الرازي رحمه الله أنواع واجبات المرابطة، وقال: وَاعْلَمْ أَنَّهُ يُمْكِنُ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى الْكُلِّ، وَأَصْلُ الرِّبَاطِ مِنَ الرَّبْطِ وَهُوَ الشَّدُّ، يُقَالُ: لِكُلِّ مَنْ صَبَرَ عَلَى أَمْرٍ رَبَطَ قَلْبَهُ عَلَيْهِ. اهـ من (تفسير الرازي).

آية الوجهة الشخصية وحكم تجزئة الإجتهاد:

قال تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ البقرة: ١٤٨. سنذكر تفسيراً أكثر تفصيلاً لهذه الآية الكريمة في المبحث الثالث، وذلك تحت عنوان «مهارة إنتاج وإنضاج الأفكار». المهم هنا أن «الوِجهة» (على وزن: فِكرة وخِبرة) هي اسم للمعنى الذي تتوجه إليه وتجعله قبلة معنوية لك. والمعنى أن لكل واحد غاية قد ولّى نفسه او عمله إليها وينبغي أن يركز عليها. والغاية الرئيسة هي الغاية العظيمة الشأن عند الله تعالى ولها الأولوية العالية، فالأهداف المرحلية يجب أن تتجه إليها. حاصل ذلك أن على المسلم أن يتخذ غاية يتجه إليها بالإهتمام الشديد والجهد والبذل كي يكون بصيراً بها وحكيماً في تصرفه فيها وسائراً بها على طريق الإستباق والمغالبة، ولا يكون ذلك إلا بأن تأخذ لوجهتك متطلباتها وعُدَّتها، كما هو حقيقة الإستعداد. وما ذكرناه يتفق مع ظاهر اللفظ لأن الوجهة اسم لكل مُتوجَّه إليه وليس خاصاً بالقبلة، ونقل نحو ذلك الراغب في تفسيره الموجود في المكتبة الشاملة، وهو اختيار ابن عاشور في تفسيره، أي ان الآية

شـاملة للمعنى العام وليســت خاصة بالقبلة، ونُقل عن الحســن أيضاً أن الوجهة الطريقة.

وتدبـر أنـها «وِجهة» بصيغة المفرد، ويمكن جمعها على وِجْهات. وصيغة الآيـة قد لا تمنع صراحة من أن يجعل الإنسـان لنفسـه وجهتين او أكثر من الغايات المشـروعة، ولكن نص الآية الكريمة ينبه إلى الصلة بين الوجهة بصيغة المفرد واسـتباق الخيرات، أي قوة وجودة الإنتاج.

ومن توابع التركيز على وِجهة معينة، أن تطلع على أُفق هذه الوجهة عند الآخرين والخصوم، وما هي الفرص التي تبحث عنها او تمهد لها او تصنعها.

وأيضاً، فإن من لم يلزم وجهة معينة، فإن تركيزه الفكري يتشـتت، وسـتجره الأحداث إلى مشاركات طفيفة في وجهات كثيرة هنا وهناك، وقد تمضي حياته كلها من غير أن يحقق الكثير.

ويتصل بذلك موضوع تجزئة الإجتهاد الشرعي: فإن طالب الإجتهاد يحتاج إلى تحصيل متين في أربعة أمور ثم يختار مِن الخامس، **(الأمر الأول)**: أصول الفقه، فإن فيه علوماً من العربية انفرد الأُصوليون بالتوسع فيها، كالعام والخاص، والمطلق والمقيد، والأوامر والنواهي، وغيرها. **(الأمر الثاني)**: علوم العربية، وخاصة معاني النحو، وكذلك بناء مهارة في انتقاء معاني الألفاظ. ولا يلزمه حفظ كل شيء، ولكن يلزمه التمرس والمثابرة كي يصل إلى ما يحتاجه بسهولة، ويتمكن من استعمال هذه العلوم. وسيأتي إيضاح ذلك في آخر الكلام عن التركيز، إن شاء الله تعالى. **(الأمر الثالث)**: دراسة متقنة لعلم الحديث، ولا يلزمه دائماً أن يقوم هو بدراسة الأسانيد والحكم عليها، ولكنه يعرف جيداً كيف ينتقي الأحاديث الصحيحة من مصادر علماء الحديث. **(الأمر الرابع)**: بناء مَلَـكَة فقهية، وليس ذلك بالقراءة لمجرد المطالعة، ولكن بقراءة لدراسة أدلة الفقه ومذاهب العلماء في تفسيرها، وينبغي أن تشمل الدراسة أبواباً فقهية كثيرة. **(الأمر**

الخامس): اختيار أحد الطريقين، الطريق الأول: أن يستمر في دراسة عامة أبواب الفقه إذا أملت عليه الأحوال أن ينتصب للفتوى في الفقه. وفي هذا الطريق نظر، فإنه قد يوقع في أخطاء كثيرة وفي قصور في الفهم، وذلك لأن الفقه بكل أبوابه أكبر من طاقة الفرد المجتهد إذا أراد التركيز والإتقان وتقليل الأخطاء، ولذلك كان الإمام من السلف يقول «لا أعلم» في كثير من الأُمور. ولا شك أن من أكثرَ أخطأ، أي كثرت الأخطاء عنده، فلا يستقيم هذا الطريق لمجتهد إلا إذا كان ضمن جماعة يتقاسمون الفتوى في أبواب الفقه فيما بينهم. الطريق الثاني: أن يركز على مجال معين كأركان الإسلام والعبادات، او الفقه السياسي مع الأمن والدفاع، او الفقه الاقتصادي والمعاملات المالية، او الأحوال الشخصية وما يتصل بها، او السلوك والتربية والتهذيب، او غير ذلك من المجالات العلمية. والمشهور في أصول الفقه جواز تجزئة الإجتهاد، كأن يكون الرجل مجتهداً في مجال دون مجال؛ والذي أراه أنه فرض كفاية، لأن المرابطة والتركيز على مجال معين يُعَدُّ من ضرورات التوسع وتقليل الأخطاء الاجتهادية، فهو من ضرورات المغالبة والإستباق، والله تعالى أعلم.

متطلبات التركيز:

منهـــا: الإهتمام الشديدة بواجب المرابطة، وهو من ضرورات قوة التركيز، وبخلافه يكون الأداء مجرد إسقاط واجب، وقد قال تعالى ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ الأعراف: ١٧١، وفي قصة ذي القرنين ﷺ قال تعالى ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ الكهف: ٩٥. وهذا لا يعني عدم الإهتمام بالإلتزامات الأُخرى، ولكن يتم ترتيب الإلتزامات حسب الأولوية، وإعطاؤها حقها وفقاً لذلك.

ومنهـــا: أن تكتسب رؤية واضحة وتفصيلية لمجال المرابطة، فإنك لن تصيب الهدف من التفكير ما لم تكن رؤيتك للمجال والهدف واضحة وشاملة؛ وأيضاً فإن الرؤية غير الواضحة والجزئية يمكن أن تضلل صاحبها، كأنْ تحجب عنه مخاطر كبيرة او مصالح عظيمة. وسنذكر المزيد عن أهمية الوضوح في بدايات المبحث الثالث، تحت عنوان «مهارة إنتاج وإنضاج الأفكار» إن شاء الله تعالى.

ومنهـــا: أن لا تكون مغموراً بأمور تافهة، وتدبر في ذلك قوله تعالى ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾ الذاريات: ١٠ – ١٢، فالمغمورون باللهو والترف ساهون، ويصعب عليهم التفكير خارج غمرتهم. وأما المرابط على أمر صحيح، فهو مشغول وليس بغافل ويمكن أن ينتبه إلى أمر آخر، ولكن من غير أن يُضعف مرابطته.

ومنهـــا: تحديد موعد للبداية وموعد للإنتهاء بإذن الله تعالى، فهذا يوجب التركيز كي لا يتجاوز السقف الزمني. والإلتزام بذلك شائع في عمل المؤسسات وفي الدراسات الجامعية العليا، وقد يستوجب الأمر تمديد السقف الزمني.

ومنهـــا: تنظيف النفس من عوائق التركيز كالحقد والغيظ وكثرة التفكير باللذات الشهوانية.

ومنهـــا: إذا كان التزاحم والإضطراب في الفكر مصحوباً بتهيج النفس بسبب مخاوف او غيرها، فأحسن تهدئة وعودة إلى التركيز هو قوة الرجاء وبعض النوم.

أما قوة الرجاء فعلى نحو قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ الشعراء: ٦١ – ٦٢، فحين تأتي مخاوف الخطر او المرض او الفقر، فمع اتخاذ الأسباب عليك أن تقتدي بموسى عليه السلام او

بيعقوب عليه السلام بعد أن فقد الولدين، كأن تقول: بل أرجو من الله تعالى الحفظ او الحماية او الدفع والدفاع عني، او تقول: أرجو من الله العافية والغنى. والأمر أفضل إذا كان الرجاء مسبوقاً بحسنات، فقد قال تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠، فعلى نحو تفسير سعيد بن جبير فإن المعنى: فمن كان يرجو لقاء ثواب ربه او نعمة ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، وهذا المعنى يشمل نِعَم الدنيا والآخرة، وأعظمها رؤية الله تعالى في الآخرة. وهذا على نحو قوله تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٩؛ فأصح خيار في المعنى والإعراب هو الأوسع إن شاء الله تعالى، أي: فعلى ما أصابكم فأنتم الأعلون الآن بسبب إيمانكم وثوابكم، وكذلك أنتم الأعلون فيما يَدَّخره الله لكم من النصر في الدنيا، فأنتم ترجونه بقوة، وتعملون بجد لبلوغه. قال ابن عاشور: وَقَوْلُهُ: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، الْوَاوُ لِلْعَطْفِ وَهَذِهِ بِشَارَةٌ لَهُمْ بِالنَّصْرِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَالْعُلُوُّ هُنَا علوّ مَجَازِيٌّ وَهُوَ عُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ. اهـ، من (تفسير ابن عاشور). وذهب آخرون من المفسرين إلى نحو ما قاله ابن عاشور، منهم القرطبي في ظاهر كلامه، وله تفصيل حسن في تفسير الآية، والله تعالى أعلم.

وأما النوم القليل، فلقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ آل عمران: ١٥٤، وقوله تعالى ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ الأنفال: ١١.

ومنهـــا: عمليات الإزاحة والتخفيف، فلما كانت الطاقات البشرية محدودة فان التركيز يحتاج إلى إزاحة كثير من الأمور الثانوية والتافهة والحوادث اليومية غير المهمة، أي إزاحتها عن الفكر. وهذه موهبة عند بعض الناس ولكن يمكن اكتسابها بالتدريب.

والأمر يسير إن شاء الله تعالى فإن الإهتمام الشديد وحده إذا اقترن بفكر منظم وقاعدة علمية فإنه كفيل بالتركيز على مجال المرابطة وبإزاحة منظمة لما يعترض الطريق. مثال ذلك إزاحة الأمور الثانوية التي يجب إتمامها ويمكن تحويل مسؤوليتها إلى مساعد او أجير او عامل او غيرهم، المهم أن تكون الإزاحة نظامية كي لا تنتهي بالفوضى، وكذلك المشاكل الجانبية فإن التركيز يحتاج إلى اجتنابها او فضها.

ومنهــا: ما ذكرناه في المنطلق عن «مساعدة الذاكرة »، ويسميه بعض خبراء الإدارة بـ «الذاكرة التعاملية»، والمثال المعروف هو أرقام الهاتف الكثيرة التي نستعملها، فهي بالمئات ولا يصح إرهاق الذاكرة بحفظها، ولكن يكفي أن تحفظ الذاكرة الموضع الذي نجد الأرقام فيه كهاتف حديث او سجل او ملف او دفتر صغير. وهكذا في كثير من العلوم ولوازم المهارات، فبعض التفاصيل يجب حفظها في الذاكرة، ويصحب ذلك بناء مَلَكَة عن طريق كثرة الدراسة والممارسة، ويمكن بعد ذلك أن تحفظ الذاكرة كيفية الرجوع إلى مواضع ومصادر التفاصيل الكثيرة الأخرى. ومما يساعد على التركيز، الكتابة فينبغي أن تكون الكتابة قرينة للتفكير وللقراءة، كوضع جدول مكتوب لأفكارك التي تريد تنميتها وإنضاجها، واختصار ما تراه مفيداً أثناء القراءة، وإعادة تنظيم مخزونك العلمي وتدوين كل ما يُحتمل مراجعتك له، وقد قال تعالى ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ ﴾ العلق: ٣ – ٥.

التفكير بالإحتمالات

إثارة الإحتمالات له أهمية كبيرة في تحديد (تشخيص) الحالة او نفيها، وله أيضاً أهمية كبيرة في الإبتكار واكتشاف المجاهِل، وفي النصوص الشرعية شواهد كثيرة. وخبراء القيادة الغربيون يستعملون اصطلاح «قانون او مبدأ الشك»، والمختار في هذه الدراسة

هو: «نظام او قانون او إثارة الإحتمالات». والمراد التأهيل للتفكير بالإحتمالات الممكنة في مَـجَاهِل الأُمور ومعاميها، وفي الأُمور التي لم تصل درجة الإعتقاد واليقين. مثال ذلك الوجوه المحتملة في الإعراب والتفسير، فإن الآية القرآنية، يقينية الصحة والتنزيل من عند الله تعالى؛ وأما الوجوه في إعراب وتفسير الآية، فيوجد فيها ما هو قطعي يقيني بنفسه، ويوجد فيها ما هو احتمال ويحتاج إلى مقارنة ببقية الإحتمالات من أجل التوصل إلى المضمون الحقيقي للآية الكريمة. وأما التذبذب في أصل العقيدة فهو سبيل المنافقين كما يدل عليه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ النساء: ١٤٢ – ١٤٣.

التفكير بالإحتمالات

في الرؤية السلوكية والفقهية:

فمن إثارة الإحتمالات قوله تعالى ﴿.... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ يوسف: ٢٦ – ٢٧.

وقوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ عبس: ١ – ٤.

ومن مآلات نسيان الإحتمالات قوله تعالى ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

الأنبياء: ٨٧ – ٨٨، فتدبر عبارة ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾، أي ظن أن لن نُضَيق عليه في المكان؛ ومن أصل التضييق قوله تعالى ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ ﴾ الفجر: ١٦، أي ضيق عليه رزقه؛ وأما «الظن» فيستعمل بمعنى «الإعتقاد»، كما في قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٢٤٩. وتدبر هنا أنه عليه السلام خرج مغاضباً، أي مغاضباً لقومه؛ وليس في الآية أنه خرج مُهَجَّراً او مضطهَداً، فابتلاه الله تعالى بمكان ضيق جداً، ثم نجاه، والله تعالى أعلم.

وتدبر قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الملك: ٢، فإنه لا يمكن معرفة الأحسن من العمل إلا برؤية الإحتمالات والخيارات والمقارنة بينها، سواء أردت اختيار خطة تنفيذية من بين خطط، او أردت إجراء تعديلات قانونية او تطوير أداء دفاعي او غير ذلك.

وقال تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ البقرة: ٢١٩، فحقيقة أن إثمهما أكبر من نفعهما يُحتمل أن يُراد به تحريم الخمر والميسر وذلك بسبب غلبة الإثم، ويُحتمل أن يراد به جواز تحصيل منافعهما ومنع الوقوع في إثمهما. وبسبب الإحتمالات فإن تحريم الخمر والميسر لم يكن بهذه الآية الكريمة، ولكن بالآية التي نزلت بعد ذلك كما في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ المائدة: ٩٠.

مثال آخر، حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ جاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ، إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلاَمًا أَسْوَدَ، فَقَالَ: « هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ »، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: « مَا أَلْوَانُهَا »، قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: « هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ »، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: « فأَنَّى كَانَ ذَلِكَ »، قَالَ: أُرَاهُ

عِرْقٌ نَزَعَهُ، قَالَ: « فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ » رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وفيه أن النبي ﷺ ذكر الرجلَ باحتمال مؤثر في الحكم فلا ينبغي إغفاله. والأورق هو الذي فيه سواد ليس بصاف.

ومن أثر الإحتمال في القضايا الفقهية قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ البقرة: ٢٨٢.

بل إن حصر التفكير باحتمال خاطئ يُعَدُّ من أكبر أسباب الضلال، كما أن تحجر الفكر على قرار سقيم يُعَدُّ من أهم أسباب القرارات الإستراتيجية المهلكة. يوضح ذلك نحو قوله تعالى ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ آل عمران: ١٧٨، فتدبر أنهم حصروا تفكيرهم باحتمال خاطئ. ومثله قوله تعالى ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الكهف: ٣٥ – ٣٦.

وأيضاً، فإن الأشرار يستعملون ضرب الإحتمالات لأجل التضليل، ومنها عرض إبليس كما في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ الأعراف: ٢٠. بل إن ترويج وزخرفة الخيارات الفاسدة وحصر الإحتمالات فيها، يُعَدُّ من أهم طرق الإستدراج والتحريك العدائي، وهو كذلك من طرق زخرفة الفساد الوظيفي. وواضح أنه توجد ثلاثة أسئلة جوهرية في دراسة أي خيار، الأول: لِـمَ هذا وليس غيره؟ الثاني: ما هو الطريق والموارد المطلوبة؟ الثالث: ما هي العواقب المتوقعة والمحتملة؟

التشخيص الإحتمالي:

ويُسمى أيضاً بالتشخيص الفارِق (أي الفارق بين الإحتمالات). معنى ذلك أنْ تبني لنفسك خبرة جيدة بأوصاف الحالة الصحيحة في المجال الذي تعمل فيه او تتصدى له، سواء كان ذلك أوصاف الجسد الإنساني الصحيح او الحركة الفكرية الصحيحة او الإدارة الصحيحة لمؤسسة معينة او الأداء السياسي الصحيح او تحليل حدث او غير ذلك. وبهذه الخبرة، فإنك حين تلاحظ ظاهرة غير صحية كمرض وظيفي او جسدي او ثقافي او أمني او غيره، او تلاحظ ظاهرة غير متوقعة وفقاً للمعطيات القائمة كصعود وظيفي غير مبرر او حصر منفعة بأشخاص معينين او حدث سياسي غريب او شبه ذلك، فإنك لا تبادر إلى تشخيص محدد، بل تفكر وتضع قائمة بالتشخيصات المحتملة، ثم تقوم بدراسة تحليلية لعزل الإحتمالات الواهية، ثم التركيز على تشخيص نهائي او تشخيصات ممكنة قليلة وما يتبع ذلك من تحريات وإجراءات علاجية ووقائية.

وباختصار شديد، فإن متطلبات قانون الإحتمالات:

واضح أن «رؤية الإحتمالات» عبارة عامة تشمل التفكير بالأسباب المحتملة، والخيارات والبدائل الممكنة في الأهداف والحلول وغيرها؛ فهي عبارة عن أُفق واسع في رؤية الإحتمالات في قضية محددة. ولذلك فإن نوع المتطلبات يتفاوت بين مجال وآخر، غير أن القُدْرة على إثارة الإحتمالات مطلوبة في المجالات كلها. فمن المتطلبات:

- بناء خبرة جيدة في أوصاف الحالة الصحية في المجال الذي تتصدى لتفسير الظواهر الحادثة فيه.
- قوة ملاحظة، لأي ظاهرة مَرَضية او غير طبيعية ولأي ظاهرة مهمة، وللرسائل الخفية (البوادر المبكرة).
- مهارة فكرية قوية في إقامة الإحتمالات في المجال المعين، وربما يعبر عنه خبراء الغرب بـ: «درجة شك عالية».

- أفق واسع للأسباب والعواقب والمآلات المحتملة.
- ترويض النفس على فتح المجال ورفض الحصر في غير القطعيات، والبحث دائماً عن بدائل أفضل، والتدريب على تكرار الأسئلة المفتوحة، مثل: لماذا وكيف. وتذكر دائماً قوله تعالى ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ الكهف: ٢٤.
- عزل تام (١٠٠٪) للعاطفة في التحليل والقرار الإستراتيجي، فلا نكره فكرة نراها ضعيفة اليوم، وذلك كي لا ننكرها حين تظهر عليها علامات الصحة مستقبلاً.
- تعليق الأهداف بالمعاني وليس بالأشخاص والأمكنة والأزمنة إلا باعتبار ما تحمله من معان. فإن إعادة الأمور إلى ميزان المصلحة والمفسدة يساعد في رؤية الخيارات الكثيرة والبدائل المتعددة. وبذلك فإن التصميم الأولي للهدف قد يصير مرجوحاً ومتأخراً في سلَّم الأولويات، بل قد يُستبدل الهدف جملة. وقد سبق بيان ذلك.
- أجواء الأمل والرجاء (وليس الأحلام ولا الكآبة والتشاؤم).
- نصيب فكري للحقائق الغائبة (افتراض وجود ما لا نعرفه)، وسنذكرها بعد قليل إن شاء الله تعالى.

ومن الأمثلة المتقنة لتطبيق قانون الإحتمالات هو التشخيص الإحتمالي في الطب، ويمكن إعادة صياغته في مجالات أُخرى، ويقوم على خطوات مدروسة:

- وجود مؤهلين في المجال.
- عرض الإحتمالات التي يمكن أن تفسر الأعراض المرضية، أي وضع قائمة بها.
- تحليل علمي للأعراض لاستبعاد الاحتمالات الضعيفة، وللوصول إلى تشخيص نهائي واحد او احتمالات قليلة.

- استكشاف الباطن (مختبرياً/ شعاعياً/ ....) عند فشل او عدم كفاية العملية العلمية والعقلية.
- ترتيب الإحتمالات (الخطورة والشيوع). فالخطورة العالية في احتمال معين قد تقتضي إجراءات سريعة قبل الوصول إلى تشخيص نهائي.
- متى نصل إلى تشخيص نهائي واحد ومتي يكون التشخيص النهائي متعدداً؟

فإذا أُصيب شاب صحيح بمرض، فإن الأعراض كلها ترجع عادة إلى مرض واحد. وأما عند كبار السن، فقد يكون المريض مصاباً بارتفاع ضغط الدم وبداء السكري وبتضخم البروستات وبعدم كفاءة الشرايين؛ ولذلك فإن الأعراض قد تكون مركبة معقدة وبينها تأثير متبادل. وكذلك الأمر في المؤسسات والدول، أما الملك المشتد كما في قوله تعالى ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ ص: ٢٠، فإنه كالشاب السليم حين يمرض، بمعنى أن الأعراض ترجع إلى مرض او مرضين او أكثر بقليل، وفي مواضع محدودة. وأما حين يترهل الملك ويُخترق ويفسد، فإن أمراضه كثيرة وفي مواضع كثيرة.

فهذه الخطوات كلها يمكن تكييفها للتشخيص الإحتمالي في مجالات الحياة الأُخرى، وهي عظيمة الفائدة. وفي كل ذلك تفاصيل مهمة ذكرناها في المبحث العاشر من (نخبة المسار).

الإحتمالات في الحقائق الغائبة:

في الكلام عن الأُفق الواسع، تحت عنوان «مضامين الأُفق الواسع»، ذكرنا وجوب الإعداد لردع عدو لا نعلمه، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ .... وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ الأنفال: ٦٠؛ وذكرنا في تفسير آية الإعداد في (وِجهة اللواء) بعض الإحتمالات في العدو الذي لا نعلمه.

وينبغي في كثير من الأحيان افتراض وجود حقائق مهمة غائبة عنا حين نواجه مشروعاً او نخطط له، وقد يقتضي ذلك القيام بإجراءات احتياطية لما هو خارج الإحتمالات المعروفة.

ومن أنواع الحقائق الغائبة: ما ينبه إليه قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الرعد: ٢، و«العَمَد» جمع «عَمود»، وهي السَّواري، وما يعمد به البناء كما ذكر الطبري. وَالْعِمَادُ وَالْعَمُودُ مَا يُعْمَدُ بِهِ الشَّيْءُ، وَمِنْهُ يُقَالُ: فُلَانٌ عَمَدُ قَوْمِهِ إِذَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، ذكر ذلك الرازي في تفسيره. وعند المفسرين أكثر من وجه في إعراب قوله تعالى ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾:

(الوجه الأول): أن «ترونها» يمكن أن يكون صفة لـ «عمد»، أي ان الضمير في «ترونها» يرجع إلى العَمد لأنه أقرب مذكور فهو أولى بعود الضمير؛ والمعنى: رفعها بغير عمد مرئية لنا. ويمكن أن تكون حقيقة هذا المعنى أن الله تعالى رفع السموات بعمد لا نراها، وقد روى الطبري هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد، وهو قول الزجاج كما نقل ابن سيده في (المحكم) وابن منظور في (لسان العرب/ مادة: عمد). وهذا إعراب ظاهر مستقيم المعنى، وقد ذكره أبو حيان والسمين الحلبي وغيرهما. ويفتح هذا الإعراب آفاقاً في البحث والإبتكار، فإذا كانت السماء مرفوعة بعمد غير مرئية، فهل يمكن اكتشاف وسائل لرفع الأشياء في عالمنا هذا، بعمد غير مرئية؟؟ ومثل ذلك في تحريك الأشياء بوسائل غير مرئية؟ ولا أعني بذلك الطائرات ولا تحريك الآلات من بُعد ولا شبه ذلك.

ولكن أعني ما هو قريب من عمل الرجل الذي عنده علم من الكتاب، قال تعالى ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ النمل: ٤٠. وبهذه الرؤية وبالرؤية التي ذكرناها في تفسير آية الأنفال،

يمكن أن يُقال: «تَصَوَّر ما لا تراه»، أي اجعل له نموذجاً (شكلاً افتراضياً) وفقاً للمعطيات التي تعلمها والمعطيات التي يُحتمل أن تمتد منها إلى مساحات العلم التي سيأتي بيانها إن شاء الله تعالى، ثم فكر كيف تجعل الصورة الإفتراضية او ما يقاربها حقيقة قائمة. والتوسع الذكي في هذه الرؤية يمكن أن يؤدي إلى أنواع من الإبتكار والإكتشافات.

(الوجه الثاني): أن الضمير في «ترونها» يعود على السموات، وأن «ترونها» جملة حالية، أي: رَفَعَهَا مَرْئِيَّةً لَكُمْ بِغَيْرِ عَمَدٍ، كما هي عبارة أبي حيان. وبحمل «ترونها» على الرؤية البصرية (وليست رؤية العلم والبصيرة)، فإن هذا الوجه يقبل أن تكون السموات مرفوعة بعمد ولكن بصر العين يرى السماء فوقه ولا يرى العمد، فكأنها نوع من الغيب، نؤمن بوجوده وإن غاب عن رؤية العين. فهذا الوجه قريب من الوجه الأول.

(الوجه الثالث): أنك تقف عند قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾، وتكون عبارة ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ جملة جديدة أي استئنافية، وليست مرتبطة بما قبلها في الإعراب، ولكن في عود الضمائر ونحوه. وقد ذكر هذا الإعراب أبو حيان والسمين الحلبي. وعلى هذا الإعراب فإن السموات رُفعت بغير عمد وبصرف النظر عن كونها مرئية او غير مرئية. وأما جملة «ترونها»، فهو كلام مستقل ويمكن أن تكون له صلة معنوية بما قبله، كأن يكون التقدير: أنتم ترونها، أي ترون السماء؛ وقد ذكر النحاس هذا التقدير. والذي أراه لنفسي أن الوجه الثالث ضعيف جداً، لأنه يجعل عبارة «ترونها» في غاية الإبهام بل أشبه باللغز، ولا يمكن تفسيرها إلا بافتراضات لا دليل عليها؛ فمثل هذه العبارة ينبغي أن تكون بياناً (وصفاً) لشيء قبلها كي يتضح المعنى؛ وأقرب مذكور قبلها هو الـ «عَمَد» كما في الوجه الأول.

....

عزل العاطفة في رؤية
الحقيقة وفي التفكير الإستراتيجي

آية المائدة:

قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ المائدة: ٨. في الآية الكريمة فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: معنى عبارة ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾، **(أما معنى اللفظ)**: فالقيام في الأجساد نقيض الجلوس والسقوط والإضطجاع، تقول: جلس فلان على الكرسي ثم قام عنها، وقام المريض ثم سقط. وأما في المعاني وفي أداء الأُمور، فإن القيام يُستعمل بمعنى النهوض للأمر، أي الإستعداد والتحضير والتأهب لأداء الأمر؛ ونقيض ذلك: توانَى وتقاعس وتكاسل وتثبط. وكذلك يُستعمل القيام بمعنى النهوض بالأمر ومراعاة متطلباته وفعله وتوفيته حقه؛ ونقيضه: هدَّم وهَدَّ وقوَّض وخَرَّب. ومن النهوض بالأمر أي فعله وتوفيته حقه من الجهد، قوله تعالى ﴿ **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ المائدة: ٦٨. **(وأما معنى العبارة)**: أي ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾، فهي صيغة أمر يفيد الوجوب. وقال الإمام أبو بكر الجصاص: وَمَعْنَاهُ كُونُوا قَوَّامِينَ للهَّ بِالْحَقِّ فِي كُلِّ مَا يَلْزَمُكُمْ الْقِيَامُ بِهِ مِنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ وَاجْتِنَابِهِ فَهَذَا هو القيام لله بالحق. اهـ من (أحكام القرآن). و«القَوَّام» صيغة مبالغة مثل الصوّام، فهي أبلغ من: قائم. ويشمل ذلك أمرين، **الأمر الأول**: على المؤمن أن يتأهل ويستعد بقوة للنهوض بدين الله تعالى ولخدمة مقاصده

وأحكامه. **الأمر الثاني**: أن ينهض المؤمن بالحق في كل ما يُكلف به او يعرض له من الأحوال التي تقتضي موقفاً جيداً.

الفائدة الثانية: معنى عبارة ﴿ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾، **(أما الشهادة في العربية)**:

فهي بيان ما يشهد به الإنسان بطريق الحضور والمعاينة كما في الشهادة على الحدث في القضاء، او ما يشهد به الإنسان بطريق العلم والبصيرة كشهادتنا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن هذا الأمر صحيح او خطأ، وأن هذا الأمر جيد او هو الأجود، ومنه قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ البقرة: ١٤٣، أي شهداء على آرائهم وأقوالهم وأفعالهم. والمشهد والمشهدة: مَحْضر النَّاس. ويحصل أن تتفاوت قيمة الشهادة، كما ينبه إليه قوله تعالى ﴿ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾ البقرة: ٢٨٢، وقوله تعالى ﴿ .... فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ .... ﴿١٠٨﴾ ﴾ المائدة: ١٠٧ – ١٠٨. وأما القِسط بكسر القاف والإقْساطُ فهو العدل في القسمة والحكم وفي أداء المشورة والرأي وتقويم القرار، ومنه القسطاس المستقيم وهو أقوم وزن للأُمور المعنوية والمادية. فواضح من العبارة أن المسلم إذا شهد في أمر من الأمور فيجب أن تكون شهادته بالعدل أي يجتهد كي يشهد بحقيقة ما يعلمه، وبمعزل عن الهوى والشهوة والحقد والبغض ورغبة الإنتقام والميول العاطفية. ويشمل ذلك القرار الإستراتيجي في المصالح العليا المتنوعة. وواضح من النصوص أن الشهادة على الأمر (القضائية وغير القضائية) يجب أن تكون بالحق بصرف النظر عن الأهواء وعن موقف القيادات وعن المآرب الشخصية، والأمر كما قال تعالى ﴿ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴾ الزخرف: ١٩.

الفائدة الثالثة: معنى عبارة ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾، معنى «ولا يجرمنكم» أي لا لَا يَحْمِلَنَّكُمْ او لَا يَكْسِبَنَّكُمْ. ومعنى «شَنَآنُ قوم» أي بغض قوم. والمعنى الإجمالي: ولا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل، او لا يكسبنكم بغض قوم أن لا تعدلوا. فهذه العبارة تأكيد معنوي لما قبلهامن عزل الدوافع النفسية عن رؤية الحقيقة في قضية ما، وعن ما يتعلق بها من قرار. والعدل ليس محصوراً في القضاء بل يشمل القول والسلوك، قال تعالى ﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ ﴾ الأنعام: ١٥٢. والعدل الإستقامة، ورجل عَدْل وقضاء عدْل. والعدل من الناس المرضي المستوي الطريقة. ويُرجع في كل ذلك إلى (تهذيب اللغة) للأزهري، وإلى (معجم مقاييس اللغة) لإبن فارس، وإلى التفاسير.

صلح الحديبية:

وهو عقد مصالحة في السنة السادسة للهجرة ، بين رسول الله ﷺ وكفار قريش . وهي قصة مهمة جداً في أبواب التزاحم والإضطرار والمآلات، وتظهر الضرورات المتراخية ظهوراً قويا في هذه القصة وكيف يجب التعامل معها على أنها ضرورات، وكيف يجب في التفكير الإستراتيجي الإهتمام بالمصالح العامة (الحاضرة والمتراخية) مع عزل تام لتأثير العاطفة. ففي القصة قول النبي ﷺ « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ الله إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا » رواه البخاري وغيره، ولا يُتوقع من الكفار أن يُطالبوا بتعظيم حرمات الله تعالى بصورة مباشرة، ولكن المراد مطالبة الكفار او موافقتهم على ما يؤول إلى تعظيم حرمات الله تعالى، وهذا يؤكد أهمية العواقب المتوقعة أي الضرورات المتراخية؛ وكذلك يشمل نص الحديث شرعية الإتفاق مع الكفار على تفعيل بعض المفاهيم المشتركة في الظاهر، كالعدل والحرية وعدم الإعتداء وما أشبه ذلك مما يؤدي إلى

تعظيم حرمات الله تعـــالى. وفي القصة قول النبي ﷺ « إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ، فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ » رواه البخاري وغيره ، فتدبر عبارة « مادتهم مدة ... »، فهذا عرض لمدة من الصلح ولكن بشرط فتح طريق الدعوة، وبعد المفاوضات أتفقوا على وضع الحرب عشر سنين كما هو مشهور. وفي القصة من حديث أَنَسٍ أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاشْتَرَطُوا أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ، وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَنَكْتُبُ هَذَا؟ قَالَ « نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا » رواه مسلم وأحمد، ورواه البخاري مطولا من حديث المسـور ومروان. وقد كبُر هذا الشـرط على الصحابة وإنْ تم اسـتثناء النسـاء منه، وذلك أن الولاء في الدين يقتضي نصرة من جاءهم من المؤمنين وخاصة المضطهدين والمعذبين منهم كأبي جندل وأبي بصير؛ وذلك أن إعادة المسلم البريء الى قومه الكفار الظالمين له غير جائز إلا بالإضطرار، خاصة أن أبا جندل حين قدم على رسول الله ﷺ كان يرسف في قيوده أي يتحامل برجله بسبب القيود، وكان قد عُذّب عذاباً شديداً في الله تعالى، وهذا كله ثابت في رواية البخاري، فلا شك أن العاطفة الدينية تدفع إلى حمايته بعد أن وصل إليهم. وكذلك حكم الولاء، فلولا الضرورة المتراخية، فإن قواعد الولاء توجب هجرته وتوجب قبولها حين يصل إلى جماعة المسلمين او إلى دار الإسلام، وإنما جاز في صلح الحديبية تسليمه لقريش بسبب ضرورة المصالح العليا المتوقعة من الصلح، ويجوز أيضا كلما دعت إليه الضرورة، وواضح أن النسخ لا يتناول الإضطرار. وكذلك كبر على الصحابة شرط عدم دخول المسلمين مكة ذلك العام ولكن العام المقبل، حتى قال عمر رضي الله عنه: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: « إِنِّي رَسُولُ الله

وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي »، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: « بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟ »، قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: « فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ » رواه البخاري وغيره. وقد كان رسول الله ﷺ مضطراً إلى قبول تلك الشروط، وذلك لأهمية فترة السلم وما كان فيه من المصالح الحاضرة والعواقب الحميدة التي ذكرناها في (المنطلق). ولحذيفة عبارة توضح حقيقة التعامل مع الضرورات او تزاحم المصالح والمفاسد، فعن حذيفة قال « إِنِّي أَشْتَرِي دِينِي بَعْضَهُ بِبَعْضٍ مَخَافَةَ أَنْ يَذْهَبَ كُلُّهُ » رواه ابن أبي شيبة.

وبالجملة، فإن تحكيم العاطفة في القرار الإستراتيجي وغيره، قد يؤدي إلى خسارة مصالح عظيمة او جلب مضار كبيرة، فيجب عزل العاطفة او توجيهها إلى المصالح الحاضرة والمتراخية.

آية سورة البقرة:

قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢١٦. واضح من صدر الآية الكريمة أن الخطاب فيها هو للمؤمنين بدين الله تعالى، فالمعنى أن القتال فُرِض عليهم وكانوا يكرهونه قبل ذلك. فكما كانوا يكرهون القتال ثم فُرِض عليهم بعد ذلك لأنه بشروطه الشرعية يحقق مآلات محمودة. فكذلك الأمر في مواجهة الأحداث واتخاذ القرارات للمستقبل والتخطيط للأهداف فإنهم قد يكرهون شيئاً وهو خير لهم، وقد يحبون شيئاً وهو شر لهم، و«عسى» للإشفاق او بمعنى «قد» كما ذكر القرطبي، وهي في كلام الناس توهم بالشك، وأما في كلام الله تعالى فهي تبين حقيقة يمكن أن تقع.

فينبغي توجيه التفكير إلى عزل العاطفة (الحب والكره) بصورة تامة، وحصر التفكير بالمنافع العاجلة والآجلة. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » رواه مسلم وأحمد والنسائي في (الكبرى) وغيرهم، وصححه الألباني وغيره. فتدبر عبارة « احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ »، وليس ما يعجبك ولا ما تشتهي، والحرص هو شدة الإرادة للأمر.

فمدار التفكير في الخيارات وقرارات المصلحة العامة هي المنفعة سواء كانت دينية او دنيوية مشروعة، وسواء كانت معنوية او مادية وسواء كانت عاجلة او آجلة، وينبغي تذكر أن المنافع المادية هي حماية للمنافع المعنوية. وفي كثير من الأحيان تتزاحم هذه الأنواع من المنافع، فالأولوية للمنافع الدينية والمنافع الضرورية والحاجية للدنيا، ولأعظمها نفعاً وأطولها أثراً، ولأبعدها عن الإقتران بالمضار. وينبغي التنبيه إلى أن الحاجيات هي أدوات الواجبات والضروريات، فلا يصح استسهال الحرمان منها. فينبغي ربط التفكير بهذه المعاني في تحليل الأهداف والخطط وفي تحليل التوقعات.

المبحث الثالث
تركيب المهارات الفكرية

نظام التفكير

توجد ثلاثة عناوين في كتاب (نخبة المسار) تتضمن الكثير عن نظام التفكير وعن انتاج وإنضاج الأفكار، وهي: «الهدف والمشروع/ المنهجية وأهمية البدايات/ الأداء الإستراتيجي». وكذلك في عنوانين من كتاب (المنطلق في فقه العمل)، هما: «من قواعد وعوامل الإبتكار والتحسين/ مقاومة الإصلاح والتغيير».

النهي عن العثو في الأرض:

قال تعالى ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ البقرة: ٦٠، وردت هذه العبارة في خمسة مواضع من القرآن الكريم. ولفظ: لا تعثوا، من عَثِي يَعْثَى عُثُواً، وكذلك في لغة بني تميم: عاث يعيث عيثاً.

قال ابن فارس: الْعَيْنُ وَالْيَاءُ وَالثَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ مُتَقَارِبَانِ، أَحَدُهُمَا: الْإِسْرَاعُ فِي الْفَسَادِ، وَالْآخَرُ تَطَلُّبُ الشَّيْءِ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ. فَالْأَوَّلُ قَوْلُهُمْ: عَاثَ يَعِيثُ، إِذَا أَسْرَعَ فِي الْفَسَادِ. وَيَقُولُونَ: هُوَ أَعْيَثُ النَّاسِ فِي مَالِهِ. وَالذِّئْبُ يَعِيثُ فِي الْغَنَمِ، لَا يَأْخُذُ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا قَتَلَهُ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة). وقال ابن فارس: والعثوة في الشعر: جفوفه وبعد عهده بالمشط. اهـ من(مجمل اللغة).

وقال ابن منظور: عاثَ فِي مَالِهِ إِذا بَذَّرَه وأَفْسَده. والتَّعْيِيثُ: طَلَبُ الشيءِ بِالْيَدِ، مِن غَيْرِ أَن تُبْصِرَه. أَبو عَمْرٍو: العَيْثُ أَن تَرْكَبَ الأَمرَ، لَا تُبالي علامَ وقَعْتَ. والتَّعْييثُ: طَلَبُ الأَعمى الشيءَ، وَهُوَ أَيضاً طَلَبُ المُبْصِرِ إِياه فِي الظُّلمة. اهـ من (لسان العرب).

فلعل أقرب ما يقع عليه العثُو في التصرفات هو **أولاً**: فقدان النظام والترتيب او الفَوْضى، ومنه تصرف الناس بلا تفويض ولا نظام، **وثانياً**: هو ما يُوصف بأنه عمل في الظلام او في المجهول، وذلك حين تضع خطاك على أرض وأنت لا تعرف طبيعة هـذه الأرض وما يزاحمك عليها وما يؤثـر عليك فيها. وقد قيل إن نصف العلم الترتيب او التنظيم. وأما عبارة: «مفسدين» في الآية الكريمة، فهي حال ثابتة أي غير منتقلة، لأن الفوضى في الأرض تستلزم الفساد، ولذلك فسر العلماء العثو بالفساد، وهذا من باب تفسير اللفظ بما يستلزمه او يؤدي إليه. غير أن اللفظين غير مترادفين قطعا، حتى على قول من جوّز أن يكون لفظ: مفسدين حالا مؤكدة لعاملها وهو: «تعثوا» ، فإن الحال المؤكدة لمعنى عاملها ليست مرادفة له كما هو واضح من الأمثلة المشـهورة للنحاة.

وفي آية سـورة البقرة دليل آخر يقتضي التنظيم، فتمام الآية قوله تعـالى ﴿ **وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾ البقرة: ٦٠، الاستسقاء طلب السـقي أو الإسـقاء، وعبارة ﴿ **قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ** ﴾، جملة مستأنفة لبيان أن كل سبط منهم قد صار له مشرب يعرفه فلا يتعدى لمشرب غيره، ولا يدخل سبط على سبط في شربه. والمشرب إما اسم مكان أي محل الشرب، أو مصدر ميمي يجسد معنى الشرب، كما يجسد «المصير» معنى وخاتمة «الصيرورة». فهذا تنظيم واضح، وتُـختم الآية بالنهي عن العثو في الأرض.

....

النهي عن العبث:

قال تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ المؤمنون: ١١٥ – ١١٦، أما العبث، فقال ابن منظور: عَبِثَ بِهِ، بِالْكَسْرِ، عَبَثاً: لَعِبَ، فَهُوَ عابِثٌ: لاعِبٌ بِمَا لَا يَعْنيه، وَلَيْسَ مِنْ بالِهِ. والعَبَثُ: أَن تَعْبَثَ بالشيءِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ قَتَل عُصفوراً عَبَثاً»، الْمُرَادُ أَن يَقْتُلَ الحيوانَ لَعِباً، لِغَيْرِ قَصْدِ الأَكْل، وَلَا عَلَى جِهَةِ التَّصَيُّدِ لِلانْتِفَاعِ، والعَبْثُ: الخَلْطُ. اهـ من (لسان العرب). وأما إعراب «عبثاً»، ففي نصبه وجهان في كتب التفسير، **(أحدهما)**: أنه مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحالِ أي: عابثين. **(الثاني)**: أنه مفعولٌ أي: لأجل أن تعبثوا. فلا مجال للعبث في طاعة الله تعالى ومنه خلط الأمور من غير مراعاة لمصلحة الشرع ولا إتقان للنظام الأنفع. وتدبر الإنكار الشديد في بداية الآية الأولى ثم في قوله تعالى ﴿ فَتَعَالَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾، أي تعاظم الله وتنزه عن العبث وعن خلقكم لأجل أن تعبثوا.

اجتناب الحرية غير المنضبطة، وحماية الحرية المنضبطة:

(أما دعاة الحرية المتفلتة): **فقد قال تعالى**: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ هود: ٨٧، فكانوا لا يريدون التقيد بنظام، ولكن يريدون فقدان النظام العام كي تحكمهم الشهوات والرغبات او أنظمة الهوى والطغيان. وأيضاً، فإن رفض الخضوع لنظام شرعي عام هو الدافع عند كثيرين لمقاومة التطبيق الشرعي. وكثير من هؤلاء المقاومين يعيشون على الفساد الوظيفي ويخشون إنهاء الكسب غير المشروع. وأيضاً، فإن

الضغوط الخارجية تدفع باتجاه رفض التطبيق الشرعي. فالحرية بلا ضوابط فوضى وفساد، وقد أدت بدول كبيرة إلى غاية الإنحلال الأخلاقي.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ الفرقان: ٤٣ – ٤٤؛ فأصل العبودية لغير الله تعالى تأليه الهوى وعدم الإصغاء لصوت الحق، ثم يجر الهوى صاحبَه إلى عبادة المال او التسلط او المتسلط او غيرها، وتتخطفه هذه الجهات كما تبينه آية الحج:

قال تعالى: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ الحج: ٣١، شبه الله تعالى المشرك بالذي سقط من السماء فتختطفه الطيور، وتتفرق أجزاؤه في حواصلها، وذلك أن الساقط من السماء لا يملك نفسه ولا يقدر أن يدافع عن جسده من اختطاف الطيور؛ والخطف والإختطاف هو تناول الشيء او سلبه بسرعة. فكذلك المشرك، ليست له عقيدة صحيحة تحميه من الإختطاف المعنوي، وإنما تستهويه وتتخطفه الأهواء المختلفة من كل جهة فلا قرار له، وليس له طريق لمدافعة الأهواء والشهوات أي للرجعة إلى الحق والعدل إلا بالرجوع إلى التوحيد. فالمشرك ليس بِحُرٍّ ولكنه أسير ما يتخطفه من الأهواء والشهوات وإنْ لم يشعر بذلك. وعبارة ﴿ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾، يُراد بها أن المشرك يدخل في مسار الإنحدار إلى بُعْد عميق بسبب شركه، فهو كالذي تهوي به الريح في مكان سحيق بعيد، فلا يستطيع بعد بلوغ الهاوية أن يخرج منها إلى الحرية الصالحة، ولا يقدر الصالحون خارج الهاوية على تحصيل شيء ثابت منه او إيصال شيء مفيد له. وهذا تصوير لإنحطاط شديد يسمح لكل فكرة فاسدة من أصحاب المكان السحيق أن تأخذ مأخذها منه. وتدبر الفعل المضارع في «فتخطفه» وفي «تهوي به»، فإنه

يصلح لمسار طويل يتكرر فيه الإختطاف والـهَوِيّ حتى يبلغ المكان السحيق. وأما حرف الظرفية: «في مكان ..» فهو تعبير عن نهاية المطاف، والله تعالى أعلم.

فلا شك أن أوسع مجال للحرية الصالحة هو تمام العبودية لله تعالى، لأنها تحرر الإنسان من أنواع العبودية للأهواء والشهوات والتبعية للطغيان والفساد.

(وأما ضبط الحرية): فمن قواعدها أن الحرية الصالحة **يجب أن لا تعتدي** على حرية وحقوق الآخرين إلا باستثناءات معروفة كبعض العقوبات السالبة للحرية او الإجراءات الإستثنائية السالبة لبعض الأنشطة، كمنع ما يؤدي إلى تهلكة وشبه ذلك. والمرجع في ذلك كله إلى القانون الشرعي وأدلته، وفي ذلك نصوص كثيرة. ويشمل هذا الأصل المجالات الدفاعية والسياسية والقانونية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية والتعليمية وغيرها. ومن قواعد ضبط الحرية أيضاً **أن لا تكون الحرية وسيلة لنشر أي نوع من أنواع الفساد**. وسنتكلم هنا عن ضبط الحرية وعن حمايتها ضمن الضوابط، وسنتكلم في العنوان القادم عن أهمية الحرية الصالحة، إن شاء الله تعالى.

يتضح وجوب ضبط الحرية من الأوامر والنواهي في القرآن والسنة:

قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ البقرة: ١٩٠، تشمل الآية: لا تعتدوا بمجاوزة ضوابط الحرب، ولا تعتدوا أيضاً بمقاتلة من له حق المسالمة.

وقال تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٩٣، أي فلا عدوان إلا على من قام بظلم يُسقط حرمة بعض حقوقه.

وقال تعالى: ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾ المائدة: ٣٢ ؛

فتدبر أن العمل لنشر الفساد في الأرض جريمة كبرى تنقض حرمة الحرية. يؤكد ذلك آية المائدة في المحاربة، وكذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ النور: ١٩، فتدبر أنه عذاب أليم في الدنيا ثم في الآخرة. وقال تعالى ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ الشعراء: ١٥١ – ١٥٢.

وقال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٠ – ٦٢، آيات الأحزاب أصل كبير في الخيار الجنائي ضد مخربي المجتمع؛ وقد ذكرنا تفسيراً مفصلاً لها في (ثمار التنقيح)، وفي المبحث السادس من كتاب (وِجْهة اللواء في فقه الأمن والدفاع).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمَجَانَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ الله عَنْهُ. » رواه البخاري وغيره، ورواه مسلم بلفظ: « كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَاةٌ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ ».

ولنتدبر حديث حديث النُّعْمَان بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا.» رواه البخاري وأحمد وغيرهما، فتدبر العبارتين

الأخيرتين في الحديث. فلابد من الأخذ على أيدي هؤلاء وتقييد حريتهم لمنع الإضرار بالآخرين.

وتدبر كم في القرآن والسنة من مضمون: «أفعلوا» ومضمون «لا تفعلوا»، وكذلك نصوص التغيير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصوص العقوبات، وهي تقطع بأن الحرية الصالحة لها ضوابط واجبة الإتباع.

(وأما حمايـة الحرية المنضبطة): فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُـولُ الله ﷺ: « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ. » رواه مسلم وأحمد وغيرهما. وتدبر أوسع العموم في عبارة « كُلُّ الْمُسْلِمِ »، معنى ذلك أن عبارة « وَعِرْضُهُ » تشمل كل الحقوق المادية والمعنوية التي لا تشملها عبارة « دَمُهُ وَمَالُهُ ».

وأما معنى «العِرض» في العربية:

فقال ابن فارس: الْعَيْنُ وَالرَّاءُ وَالضَّادُ بِنَاءٌ تَكْثُرُ فُرُوعُهُ، وَهِيَ مَعَ كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْعَرْضُ الَّذِي يُخَالِفُ الطُّولَ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة).

ويُستعمل العَرْض في المعاني بمعنى الإتساع او الكثرة، ومنه قوله تعالى ﴿ ... وَإِذَا مَسَّـهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَـآءٍ عَرِيضٍ ﴾ فصلت: ٥١.

ويُستعمل العَرْض بمعنى إبانة الشيء وإظهاره وكأنه برز كله بعَرْضه وطوله، فإن قياس العرض كاملاً يستلزم بروز الطول كاملاً، لأن خط العرض قد يكون مائلاً او متسعاً من الأعلى او الأسفل. وعليه نحو قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ الحاقة: ١٨، وقال تعالى ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾ الكهف: ١٠٠. وقال ابن منظور: وعَرَضْتُ الجاريةَ والمتاعَ عَلَى البَيْعِ عَرْضاً، وعَرَضْتُ الكِتاب،

وعَرَضْتُ الجُنْدَ عرْضَ العَيْنِ إِذا أَمْرَرْتَهم عَلَيْكَ ونَظَرْتَ مَا حالُهم. اهـ من (لسان العرب).

وأما «العِرْض»، فهو ما يُعْرَض من حال الإنسان في تفكيره وأقواله وأعماله وخياراته في الأمور الخاصة والعامة، مما يمكن أن يقتضي مدحاً او ذمّاً. ويقتضي حديث: « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ. »، أن خيارات المسلم حقوق له فلا يجوز انتهاكها إلا بالحق.

قال ابن منظور: قَالَ ابْنُ الأَثير: وَفُلَانٌ نَقِيُّ العِرْض أَي بَرِيءٌ مِنْ أَن يُشْتَم أَو يُعاب، وَالْجَمْعُ أَعْراضٌ. وَقَالَ أَبو الْعَبَّاسِ: إِذا ذُكِرَ عِرْضُ فُلَانٍ فَمَعْنَاهُ أُمُورُه الَّتِي يَرْتَفِعُ أَو يَسْقُطُ بِذِكْرِهَا مِنْ جِهَتِهَا بِحَمْدٍ أَو بِذَمّ، فَيَجُوزُ أَن تَكُونَ أُموراً يُوصَفُ هُوَ بِهَا دُونَ أَسْلافه، وَيَجُوزُ أَن تُذْكَرَ أَسلافُه لِتَلحَقه النّقِيصة بِعَيْبِهِمْ. لَا خِلَافَ بَيْنَ أَهل اللُّغَةِ فِيهِ إِلا مَا ذَكَرَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ مِنْ إِنكاره أَن يَكُونَ العِرْضُ الأَسْلافَ والآباءَ. اهـ من (لسان العرب).

وأبو العباس الذي نقل عنه ابن منظور، المشهور أنه إمام العربية محمد بن يزيد أبو العباس المبرد.

وقال الحافظ ابن حجر: الْعِرْضِ وَهُوَ مَوْضِعُ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ مِنَ الشَّخْصِ، أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي نَفْسِهِ أَوْ نَسَبِهِ أَو حَسبه. اهـ من (فتح الباري).

ويشهد لما ذكرناه حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ. » رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فيشمل العِرْض أمور الإنسان المعنوية والمادية، كخياراته وسلوكه والتزامه وشبه ذلك مما يقبل المدح او الذم. ومعنى تحريم أعراض المسلمين فيما بينهم كما في الحديث الآتي إن شاء الله تعالى، أن مضامين العِرْض حقوق لكل فرد منهم وهو حُرٌّ فيها في حدود

القانون الشرعي، سواء كان الأمر في المجال السياسي او الاجتماعي او في غير ذلك. فالحديث يمنع الإعتداء على الحرية وتقييدها إلا ضمن ضوابط الشريعة.

ويؤكد معناه قول النبي ﷺ « فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. »، رواه بإسناد صحيح بهذا اللفظ عن النبي ﷺ، من الصحابة أبو بكرة وابن عباس وابن عمر، ورواياتهم مفرقة في صحيحي البخاري ومسلم، وكذلك في مسند أحمد، ومنها أسانيد صححها شعيب الأرنؤوط، ورواه آخرون أيضاً.

فمعنى تحريم الدم والمال والعِرض هو تحريم تصرف الآخرين بها او الإعتداء عليها او تقييدها إلا بإذن صاحبها او بحجة من الله تعالى، كما في قوله تعالى ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ النساء: ١٤٨. وكذلك يحرم على الفرد تلويث عِرْضه بارتكاب المحرمات.

وتدبر المبالغة في العموم في عبارة « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ »، ففي المجال السياسي مثلاً، يشمل ذلك تحريم قيادة المسلمين بغير رضاهم لأنه يسلبهم حق البحث والاختيار. ولكن يمكن بلوغ رضاهم التوافقي بنظام يتم فيه ترشيح المؤهلين فقط لأن الله أوجب ذلك، ثم يكون المواطن حُراً في أن ينتخب من يشاء من المؤهلين، ثم يكون الفوز لمن حصَدَ أغلبية الأصوات العامة كما هو شائع، او حصَد أغلبية أصوات عدد كبير من المؤهلين الذين وافق عليهم الشعب. والتوافق على أغلبية موصوفة يستند إلى نصوص تحريم التفرق، ويستند أيضاً إلى حديث التطاوع، فقد بعث النبي ﷺ معاذاً وأبا موسى إلى اليمن وقال لهما « وَتَطَاوَعَا وَلَا تختَلِفا » رواه مسلم والبخاري وغيرهما، أي توافقا على قرار واحد وإنْ تباينت الآراء. وواضح أن تحريم العِرض يقتضي وجوب الشورى وتغليب صوتها ضمن نظام شرعي، ويشمل تحريم تحويل صوت الناخب إلى غير من

انتخبه. ويشمل كذلك تحريم تضليل الناخب وتوجيهه بمقتضى المنافع الخاصة او الميول الشخصية.

ومنهــا: أن الحرية الصالحة او المنضبطة لها فوائد عظيمة، لعل من أهمها تنمية الفكر والإبتكار. وسنوضح ذلك في العنوان الآتي عن انتاج وإنضاج الأفكار.

مهارات إنتاج وإنضاج الأفكار:

هذه المهارات ضرورية للإبتكار والتحسين المستمر والتفوق. وننصح بقراءة ما يتصل بها في كتاب (نخبة المسار)، وفي الفصل الثاني من كتاب (المنطلق في فقه العمل):

فمنهــا: أن تختار مجالاً مفيداً ترابط على الاهتمام به وتحسينه ومغالبة الآخرين به؛ وليس المراد مغالبة الضعفاء، ولكن مغالبة أقوى المستويات. وقد سبق ذكر أدلته في الكلام عن «التركيز».

ومنهــا: أن تكتسب رؤية واضحة وتفصيلية لمجال المرابطة، فإنك لن تصيب الهدف من التفكير ما لم تكن رؤيتك للمجال والهدف واضحة وشاملة؛ وأيضاً فإن الرؤية غير الواضحة والجزئية يمكن أن تضلل صاحبها، كأنْ تحجب عنه مخاطر كبيرة او مصالح عظيمة. فينبغي أن تسـدد رؤيتك إلى مشاهد مهمة، **(المشهد الأول)**: مضامين ومحاور المجال والهدف باستعمال مهارات التحليل والتقسيم إلى محاور بصورة غير عشوائية. **(المشهد الثاني)**:المؤثرات المحتملة (الإيجابية والسلبية) على المجال والهدف وعلى المسار إليه وعلى الهدف بعد تحقيقه، ويشمل ذلك المؤثرات الداخلية والخارجية. وهل توجد او يمكن أن تظهر عقبات وتقاطعات استراتيجية؟ وما هي الفرص والمنافع، وما هي المضار والمخاطر وما هي التناقضات في صناعة الهدف والتي يمكن أن تؤثر سلباً على النجاح. **(المشهد الثالث)**: ما هي نقاط القوة والضعف، وكيف يمكن تنمية نقاط القوة وإصلاح

او تحييد نقاط الضعف؟ **(المشهد الرابع)**: هو تقويم كل بيئة او جهة يمكن أن تتفاعل مع الهدف قبل تحقيقه وخلال المسار إليه، او يمكن أن تتفاعل بعد تحقيق الهدف. **(المشهد الخامس)**: ما هي الموارد والقُدُرات وفرص تنميتها، وما هي قُدُرات مَنْ يمكن أن يتدخل ويحاول قطع المسار او تخريبه او التآمر عليه؟ فحين تخطط لتحقيق هدف، فعليك بناء القُدُرات لحماية مسار التحقيق وحماية الهدف بعد تحقيقه، فإن النجاح الذي يتعذر عليك المحافظة عليه إنما هو فشل يضر ولا ينفع. **(المشهد السادس)**: هل توجد مفاتح يمكن أن تيسر وتقوي المسار او يمكن أن تمنع الخصم من التدخل؟ **(المشهد السابع)**: هل يمكن صياغة تركيب استراتيجي يشمل المضامين الحساسة التي تحتاج إلى المزيد من الاهتمام؟ **(المشهد الثامن)**: وسائل التقرب من بعيد إلى الهدف او الإمتداد التدريجي إلى الهدف. فالمطلوب في التخطيط الإستراتيجي رسم أهداف مستقبلية كبيرة، بل أكبر بكثير من طاقتنا اليوم، فإنما يبلغ هذه الأهداف من يفكر بها ويرجوها من الله تعالى ويصابر على العمل لها وإنْ طال الأمد. ونفكر بعد رسم هذا النوع من الأهداف: ما هي الأعمال التي تمتد تدريجياً إلى الهدف المستقبلي، المباشرة منها وغير المباشرة، وما هي متطلباتها اليوم ومستقبلاً وما تحتاجه من تنمية المهارات والقُدُرات؟ وفي الطريق إلى الهدف، نُعِدُّ نقاطَ تحول تقربنا إلى الهدف الكبير وتُبْعِد العوائق. ونُصابِر حتى يصير الهدف ضمن قُدُراتنا. ونُذكِّر ثانية بأن نقطة التحول الكبير قد تكون الحدث الحاسم المسبوق بسلسلة من الأحداث المتتابعة او المتزامنة. ويقترن كل ذلك بعمليات الرصد والمكافحة لنقاط التحول التي يعمل العدو لأجلها، وغايته في هدم المجتمع والنمو. وسيأتي إيضاح «نقاط التحول» إن شاء الله تعالى. **(المشهد التاسع)**: التخطيط والإعداد لحماية النجاح وتطويره وتحسينه. **(المشهد العاشر)**: الحال بعد النجاح وبعد المحافظة عليه، قد يتضمن أُموراً، **منها**: أن يتقرب إليك أصدقاء مخادعون. **ومنها**: أن تكسب عداوة المنافسين والحاسدين وما تُنتجه العداوة من تآمر. **ومنها**: ينبغي أن تكون حذراً جداً من

الفتور والإسترخاء، كما ينبغي محاولة المزيد من التحسين والتقدم. **ومنهـــا**: إذا كانت إدارة النجاح ليست لك، فعليك أن تبحث عن هدف جديد.

ومنهـــا: الإهتمام الشديد بما تتصدى لفعله او تحقيقه، فإن شدة الاهتمام وكثرة التفكير بالأمر يكون حافزاً كبيراً لتحريك القُدرات المستترة في العقل والدماغ (العقل الباطن او الذاكرة المستترة)، أي تحريكها لإنتاج الأفكار المبتكرة والمفيدة. ويعتمد الإهتمام على ركائز، **(الركيزة الأولى)**: الثبات او الإلتزام بمطالب المرابطة على الأمر وبجعله طريقاً إلى رضوان الله تعالى وإلى الجنة، فتكافح الوهن والتفلت، ونكتفي هنا بنص قوله تعـــالى ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ البقرة: ١٤٨. **(الركيزة الثانية)**: الصبر على الإحتضان العقلي لما تصديت له، مما يساعد على النمو التدريجي للأفكار وتكرار التحليل والتنقيح خلال المسار، فإن القُدُرات العقلية المستترة تُـخْرِج ما فيها بصورة تدريجية مع ثبات الإهتمام والحافز. **(الركيزة الثالثة)**: حافز المواجهة، فمنهج الإسـلام يؤكد على المغالبة التنافسـية. وقوة حافز المغالبة تتناسـب مـع قوة الإيمان بقضيتك وما يجب أن تقدم لـها في مواجهة المنافسـين. يوضح حافز المواجهة أنك قد تكون منشغلاً عن قضية فقهية معينة فلا تتكلم فيها، ولكنك حين تسمع من يتكلم فيها بالباطل والتضليل فإنك قد تبادر إلى الرد والمواجهة؛ وكذلك الأمر في مواجهة المنافسة. **(الركيزة الرابعة)**: الأمانة والإستقامة، فقد ذكرنا في الكلام عن التنقيح أن الغاية من الرؤية الثانية فصاعداً هي تحسـين القرار وتحقيق أكبر منفعة منه، وأما مع الفســاد الوظيفي وغياب الأمانة فإن الرؤية العاشـرة يمكن أن تكون أسـوأ من الرؤية الأولى، لأن تكرار النظر عندهم يُسـتعمل لإحكام الفسـاد وتحويل المصلحة العامة إلى جيوب مجاميع الفساد.

ومنهـــا: أن أوسع مجال للسياحة في المعاني القيمة وبناء قُدرة فكرية متينة وحرية صالحة، هو الإيمان بالتوحيد وتدبر القرآن الكريم، ولنتدبر هنا قوله تعالى ﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا** ﴾ الإسراء: ٨٨، فانظر في عبارة ﴿ **لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ** ﴾، فإنها في حكم النكرة في سياق النفي، وتفيد العموم في نفي الإتيان بالمماثل، فلا يأتون بمثله في التشريع، ولا بمثله في سعة معانيه، ولا بمثله في الجمال والتأثير في النفوس الطيبة، ولا بمثله في النظم والتعبير، ولا بمثله في أي وجه من وجوه عظمة وإعجاز القرآن الكريم. والمقصود هنا سعة معاني القرآن التي لا يقربها الإنس والجن مجتمعين ولو كانوا متظاهرين على هذا الأمر. فمن أراد الخير لنفسه وأهله وشعبة فلن يجد ما يماثل معاني القرآن بحال من الأحوال. ونكرر هنا قوله تبارك وتعالى ﴿ **وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا** ﴾ الفرقان: ٣٣.

ومنهـــا: أهمية الحرية الصالحة في انتاج الفكر. ذكرنا في العنوان السابق حكم اجتناب الحرية غير المنضبطة، وذكرنا حكم حماية الحرية الصالحة. المهم هنا أن التمتع بالحرية الصالحة او المنضبطة، له فوائد عظيمة، لعل من أهمها تنمية الفكر والإبتكار. فحين يجد الإنسان أن له الخيار في أُمور كثيرة في حياته، وأنه يستطيع إطلاق طاقاته الفكرية، فإن له فرصاً كبيرة في الإبتكار والإتيان بالجديد المفيد.

وفي الكلام عن «التركيز» تقدم تفسير مختصر لقوله تعالى ﴿ **وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ** ﴾ البقرة: ١٤٨، ونحتاج هنا إلى المزيد في بيان معاني الآية، فإن نص الآية ينبه إلى ثلاثة أمور، **(الأمر الأول)**: التعبير في الآية بـ: «وِجهة» بصيغة المفرد، ويمكن جمعها على وِجْهات. والوِجْهة اسم للأمر المعنوي او المادي الذي تتوجه إليه، أي

هدفك وغايتك التي تعمل على بلوغها؛ وواضح أن ألفاظ الآية ليست خاصة بقبلة الصلاة. وقال الراغب: ووجّهت الشيء: أرسلته في جهة واحدة فتوجّه، وفلان وجِيهٌ: ذو جاه. قال تعـالى: ﴿ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ آل عمران: ٤٥. اهـ من (المفردات). ونقل الراغب في تفسيره الموجود في المكتبة الشاملة نحو ذلك في معنى الوجهة، وهو اختيار ابن عاشور في تفسيره، أي ان الآية شاملة للمعنى العام وليست خاصة بقبلة الصلاة، ونُقل عن الحسن أيضاً أن الوجهة الطريقة. **قال الراغب**: وفي الآية قول آخر، وهو أن الله تعالى قيض الناس في أمور دنياهم وأخراهم لأحوال متفاوتة، وجعل بعضهم أعوان بعض فيها، فواحد يزرع، وآخر يطحن، وأخر يخبز. وكذلك في أمر الدين، واحد يجمع الحديث، وواحد يطلب الفقه، والثالث يطلب الأصول وهم في الظاهر مختارون وفي الباطن مسخرون وإليه أشار النبي بقوله: « كل ميسر لما خلق له ». اهـ من (تفسير الراغب). **وقال ابن عاشور**: وَتُسْتَعَارُ الْوِجْهَةُ لِمَا يَهْتَمُّ بِهِ الْمَرْءُ مِنَ الْأُمُورِ تَشْبِيهًا بِالْمَكَانِ الْمُوَجَّهِ إِلَيْهِ تَشْبِيهَ مَعْقُول بمحسوس، ولفظ وجْهَةٌ فِي الْآيَةِ صَالِحٌ لِلْمَعْنَيَيْنِ الْحَقِيقِيِّ وَالْمَجَازِيِّ فَالتَّعْبِيرُ بِهِ كَلَامٌ مُوَجَّهٌ وَهُوَ مِنَ الْمَحَاسِنِ. اهـ من (تفسير ابن عاشور). وصيغة الآية قد لا تمنع صراحة من أن يجعل الإنسان لنفسه وجهتين او أكثر من الغايات المشروعة، غير أن الآية تنبه إلى الصلة بين الوجهة بصيغة المفرد واستباق الخيرات، أي قوة وجودة الإنتاج، فينبغي للمؤمن أن يرابط على واجب واحد لتحقيق الإستباق والتفوق فيه. ويمكن عند الضرورة المرابطة على واجبين كحد أقصى، ولكن فقط حين يكون السقف الزمني مفتوحاً. **(الأمر الثاني)**: عبارة «ولكلٍّ»، فإن التنوين عوض عن المضاف إليه المحذوف كما ذكر النحاة، كأن يكون الأصل: ولكل فرد او طائفة او أُمة. وتُعَـدُّ كلمة «كل» من أوكد صيغ العموم فيما يُضاف إليها، كقولك: كل موظف او كل يوم. ومن فوائد حذف المضاف إليه التوسع في العموم ليشمل كل ما يمكن إضافته إلى «ولكل» ويقبله السياق بلا تكلف، فتصلح العبارة لشمول كل مؤمن وكل فريق وكل

مؤسسة وشبه ذلك. فلكل مؤمن صورته المعنوية التي ينفرد بها حين يُفَعِّلها ولا يميتها بالتقليد، فهي صورة مفيدة للأُمة إنْ كانت في مجال استباق الخيرات ونحوه. يؤيد ذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ أي هو بذاته، فهذه العبارة أبلغ من قولك: يتجه إليها او يعمل لـها، فإن تقديم موضع الاهتمام او الاختصاص شـائع جداً في العربية، ومنه قوله تعــالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴾ الزمر: ١٧، فإن عبارة ﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ ﴾ تفيد الاختصاص والإهتمام؛ وكذلك قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ الفاتحة: ٥. ويؤكد أهمية تحفيز المواهب وإطلاق طاقات الخير، قوله تعــــالى ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾ الإسراء: ٨٤، فلا شك أن الشاكلة التي يعمل عليها كل إنسان هي الأوصاف التي شكَّلَت صورته الداخلية أي صورة تفكيره وعقله وعاطفته. وإذا نظر الناظر إلى الصور الظاهرة لملايين الناس فإنه لا يجد اثنين متطابقين البتة، إلا التوائم المتطابقة، وهي حالة نادرة. وأما سائر الناس فإن كل واحد منهم ينفرد بأوصاف كثيرة جدا تكوِّن صورته الظاهرة الفريدة، وبذلك يتنوع الجمال الظاهر تنوعا لا يحصره إلا الله عز وجل. والأمر أعظم إذا نظر الناظر إلى الصور الباطنة للناس، وهي عقولهم وقدراتهم الفكرية والعاطفية، فما من إنسان إلا وتنفرد صورته الباطنة بما يُكَوِّن صورة عقلية وفكرية فريدة لا نظير لها مهما كثر الناس. فإذا أطلق الإنسان فكره وأعطاه حقه من المهارات وحرَّره إلا من قيود الشرع، فإن إنتاجه الفكري لابد وأن ينفرد بأمور كثيرة لا توجد عند غيره، وبذلك تنهض الأمة حين يضاف ما انفرد به هذا إلى ما انفرد به ذاك، وهكذا بحسب عدد من يسلك هذا المسلك. وهذا المسلك هو الذي أدى إلى ظهور عدد كبير جداً من المتقدمين في العطاء الفكري عند القدماء من المسلمين في القرون الثلاثة الأولى ومن سار على نهجهم في الإجتهاد ممن جاء بعدهم. وعلى سالك هذا المسلك أن يستعد لمواجهة

بعض المصاعب من الآخرين، فإن بعض الأساتذة يريد من التلميذ أن يكون نسخة مطابقة من استاذه؛ وكذلك بعض الشيوخ مع تلاميذهم. وهذا خطأ كبير، فإن الواجب إطلاق مواهب الآخرين وخاصة من كان متوقد الفكر وحسن السلوك. **(الأمر الثالث)**: «هو» في الآية يرجع إلى «ولكل»، ومعنى «موليها» مستقبلها أي متجه إليها. والأصل في نصوص الإسلام أن كل صيغة خبر يمكن أن يكون الواقع مخالفاً له، فهو خبر عن حكم الشرع وليس خبراً عن الواقع. فينبغي لكل مؤمن ولكل فريق أن يتجه إلى غاية يحبها الله تعالى، فيجعلها وجهته التي يرابط عليها ويستبق الخيرات بها، والله تعالى أعلم وله الحمد الكثير.

ومنهـــا: كسـب معارف وخبرات الآخـرين، وقد سـبق ذكره موضعين من المبحث الثاني. ومن سبل ذلك الإستقراء، أي دراسة النظائر والأمثلة السابقة. المهم هنا أن إنتاج الأفكار والإبتكار يكون في كثير من الأحيان بالتفريع الجديد على البُـنى او النظائر السابقة.

ومنهـــا: رؤية مضامين سبيل الشـر، للعلم به ولإنتاج أفكار الكبح والمواجهة. قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الأنعام: ٥٥؛ من فوائد الآية الكريمة: **(الفائدة الأولى)**: الإعراب ومعناه. تفصيل الآيات معناه تبيينها وشرحها وإظهارها. وقد قرأ الجمهور «سبيلُ» بالرفع فهو فاعل، والمعنى: ولتتضح لكم سبيل المجرمين او لتنكشـف لكم سـبيل المجرمين مفصلة. وأما نافع وهو من القراء السـبعة، وأبو جعفر المدني من العشرة فقرأ «سبيلَ» بالنصب على أنه مفعول لـ: «تستبين»، ومعنى هذه القراءة: ولترى بوضوح سبيل المجرمين، وتكون السين والتاء للطلب كما ذكر ابن عاشـور. وحكم القراءات الصحيحة العمل بها كلها. ومن جميل الإعراب قول الإمام

الرازي: وقوله تعالى: ﴿ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾، عَطْفٌ عَلَى الْمَعْنَى كَأنهُ قِيلَ لِيَظْهَرَ الْحَقُّ وَلِيَسْتَبِينَ، وَحَسُنَ هَذَا الْحَذْفُ لِكَوْنِهِ معلوماً. اهـ من (تفسير الرازي).

(الفائدة الثانية): توجب الآية كشف سبيل المجرمين عموماً، أي معرفة مناهجهم ووسائلهم التنفيذية، وذلك لمنع تأثيرها ولكبحها او مواجهتها. وتصح لذلك عبارتان متكاملتان: لا يعرف الحق من يجهل الباطل، ولا يعرف الخطأ من يجهل الصواب.

(الفائدة الثالثة): من وسائل كشف سبيل المجرمين والأشرار افتراض ما يليق بمنهجهم. فبالإضافة إلى البحث عن المشكلة وتحليلها، يمكن أن نطرح سؤالاً استباقياً: لو أرادت جهة أن تُحْدِث مشكلة او أزمة او نزاعاً او تخريباً كبيراً فماذا يمكنها أن تفعل هنا او هناك او في الأداء العام، وكيف يمكنها التنفيذ؟ وستُظهر الأجوبة جملة من سبل المجرمين؛ ومن المشهور قول بعض الخبراء: فكر بطريقة عدوك، أي بصورة افتراضية.

<u>ومنهـا</u>: الرصيد والخبرة. فمما ذكرناه في (المنطلق) أن الإبتكار او الإبداع هو في الغالب إخراج فرع جديد من أصل كبير، فلابد من معرفة الأصل وتفاصيله كي يكون بالمقدور إخراج فروع جديدة منه. فمن البعيد جداً على غير الطبيب او الخبير بالعلوم المساعدة للطب أن يبتكر طريقة جديدة في التشخيص السريري لمرض معين او في علاجه. وكذلك من البعيد على من ليس له رصيد في السياسة والعلوم المتعلقة بها أن يبتكر حلولا استراتيجية للمشاكل الأمنية والدبلوماسية القائمة. وطريق تحصيل الرصيد الجيد متشعب، فمن شُعَبه كثرة وحسن القراءة أي القراءة المصحوبة بالتفكير مع المهارة في التقاط الدرر، ومنها أن تكون مستمعاً جيداً، ومنها مصاحبة الأذكياء والمفكرين، ومنها إشراك الآخرين في التفكير معك (التشاور)، ومنها قوة الملاحظة، ومنها مساعدة الذاكرة بتدوين الملاحظات والأفكار المستحصلة بهذه الطرق، أي ان الأمر ليس مجرد استحضار

معلومات ولكن إخضاع المعلومات لشيء من التحليل كالأسباب والنتائج والمشاكل والحلول، ونحوها مما يتعلق بمجال الباحث.

ومنهـــا: التحسـين المسـتمر. قال تعـــالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ الرعد: ١١؛ فمن لم يغير أبقاه الله تعالى على حاله، وذلك لأن حركة المخلوقات خاضعة كلها لمشيئة الله تعالى، فإنْ لم يغيرها الله تعالى فلا تغيير أبداً. ولا شك أن المطلوب شرعاً التغيير إلى الأحسن، وواضح أن عدم التغيير يعني التراجع قياساً إلى من يغير ويتقدم. وواضح أن كل تغيير منك إلى الأحسن يتبعه تغيير من الله تعالى، فمعنى التحسـين المسـتمر أن يتكرر التغيير إلى الأحسـن بلا انقطاع، كي لا ينقطع عنا التغيير من الله تعالى. وهذا أصل في غاية الأهمية، وقد ذكرنا ما يتصل به في الكلام عن التنقيح في هذه الدراسة وغيرها، وذكرنا تفصيلاً مهماً في الفصل الثاني من (المنطلق في فقه العمل)، وتحت ثلاثة عناوين: «سلوك التغيير والتحسين»، ثم: «قواعد وعوامل تساعد على الإبتكار والتحسين»، ثم: «مقاومة الإصلاح والتغيير».

ومنهـــا: اجتناب عوامل الخطأ في صنع القرار. وقد ذكرنا هذا العنوان ومضامينه في توابع «الهدف والمشروع»، وتوابع «الأداء الإستراتيجي» من (نخبة المسار).

ومنهـــا: الإبتعاد عن الإسراف في التنعم بالمباحات، فإنه يُعطل التفكير. وقد قال تعـــالى ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ الأعراف: ٩٥، وسيأتي تفسير الآية الكريمة في أواخر عنوان «طرق إطالة الإمتداد المستقبلي» إن شاء الله تعالى.

ومنهـــا: أن لا يوقِفك الحرج (عنق الزجاجة): يُقال: أحرجت فلاناً أي ألجأته إلى مضيق، ورجل حَرَج وحَرِج أي ضيق الصدر كما في (تهذيب اللغة). وفي (المحكم):

والحَرِجُ الَّذِي يهاب أَن يتَقَدَّم على الْأَمر وَهَذَا ضيق أَيْضا. اهـ. وربما يُطلق الحرج على الضيق بسبب تشابك المعطيات، ففي (المحكم) أيضاً:والحَرَجَةُ: الغيضة لضيقها، وَقيل: الشّـجر الملتف، وَهِي أَيْضا الشَّجَرَة تكون بَين الْأَشْجَار لَا تصل إِلَيْهَا الآكلة. اهـ. وقال تعالى ﴿ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ الأنعام: ١٢٥، قال الإمام الطبري: و«الحرج»، أشد الضيق، وهو الذي لا ينفذه، من شدة ضيقه، وهو ههنا الصدر الذي لا تصل إليه الموعظة. اهـ. وعن ابن عباس قال: «من أراد الله أن يضله يضيق عليه صدره حتى يجعل الإسلام عليه ضيقًا، والإسلام واسع». رواه الطبري. فالمطلوب للمفكر أن لا توقفه المضايق، ولكن يثابر على التفكير لإيجاد المخارج، فيرزقه الله مخرجاً من حيث لم يكن يحتسب. وقد قال تعالى ﴿ .. وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾ ﴾ الطلاق: ٢ – ٣. وبصيغة ثانية: تجنب العجز في التفكير، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » رواه مسلم وأحمد والنسائي في (الكبرى) وغيرهم، وصححه الألباني وغيره. فتدبر عبارة « وَلَا تَعْجَزْ »، وأما العبارات التالية فتنبه إلى أنه مهما كانت المثابرة فإن الفشل محتمل الوقوع وقد يكون فشلاً جزئياً. المهم أن الفشل لا يقطع العمل، فإن كان فشلاً جزئياً، فينبغي التخطيط للتعامل معه منذ البداية والإعداد لمكافحة أسبابه. وإن كان فشلاً كبيراً، فينبغي إجراء تقويم شامل والتعامل مع أسباب الفشل ثم البداية بمسار جديد.

ومنهـــا: إعداد حقيبة الأفكار والمعلومات، فإن جمع الأفكار عملية مستمرة وضرورية لكل صاحب قضية، وبإختصار شديد فإنها تقوم على أربعة مساع، **(المسعى الأول)**: المبادرة باصطياد الأفكار والمعلومات المفيدة من كل مكان، وذلك بالإنتباه لكل فكرة او معلومة يحتمل أن تكون مفيدة، وتدوينها في سجل او مستودع الأفكار والمعلومات، أي دفتر الجيب ثم الحاسبة. وقد يكون أصل الفكرة من خبرات العمل وسجلاته او الحوار مع الآخرين او التفكر في حدث معين او غير ذلك. **(المسعى الثاني)**: إنتاج الأفكار وإضافتها إلى الحقيبة، ويحتاج الإنتاج إلى كثير من التفكير والإنضاج. **(المسعى الثالث)**: تنظيم أفكار الحقيبة، أي فرزها وتبويبها وتحليلها، وإعدادها للتوظيف والعمل. **(المسعى الرابع)**: أن يدرب جامع الأفكار نفسه على توظيف الأفكار وتحويلها إلى مفاهيم منضبطة وأهداف عالية الأهمية ويمكن التخطيط لتنفيذها، هذا بالإضافة إلى قدرته على التخيل والإفتراض، أي إقامة الإحتمالات المعقولة. وينبغي لجامع الأفكار أن يتمتع بالصبر والمصابرة والمرابطة (أي المغالبة في الجودة قبل المغالبة في وقت الإنجاز)، فهو يستمر في تنقيح المفاهيم حتى تنضج؛ ويمكن أن يُسَرِّع النضج بمهارات العمل الجماعي المتنوعة. ولاجتناب آثار الأخطاء بسبب التسريع، فإنه قد يُقَسِّم العمل إلى مراحل كي يستمر الإنضاج خلال المراحل الأولى.

ومنهـــا: كن راجياً للخير من الله تعالى، أي كن متفائلاً وليس بحالم. يوضح الرجاء قوله تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ الكهف: ١١٠، فعلى نحو تفسير سعيد بن جبير فإن المعنى: فمن كان يرجوا لقاء ثواب ونعمة ربه فليعمل عملا صالحاً. فأعمل عملاً صالحاً راجياً أن تصل إلى غايتك الصالحة؛ وهذا خلاف النذر، فالناذر لا يبادر بالخير إلا بعد حصول المراد. فالرجاء منهج الكرماء ويُثاب بكرم الله تعالى؛ وأما النذر فلا يُقدِم شيئاً ولا يؤخر وإنما يُستخرج به من

البخيل، كما ثبت في حديث الصحيحين. ويقتضي الرجاء أن تنبذ التشاؤم وأن لا تكون صفتك سلبية أي تـركز على الفشل ولا تركز على النجاح، وهذا بعض ما يشمله قوله تبارك وتعـــالى ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ النمل: ٤٦.

ومنهـــا: صياغة أُخرى في حال التصدي لتحقيق هدف كبير، فإن **(الخطوة الأولى)**: شكل مجموعة صناعة الهدف او حدد المستشارين، فقد قال تعالى ﴿ ... فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨ ﴾ الزمر: ١٧ – ١٨، فتدبر المبالغة او الحصر في معرفة أُولي الألباب، ولذلك قيل: إن العاقل من اكتسب عقول الآخرين. **(الخطوة الثانية)**: انظر إلى الهدف بأوسع أُفق وبرؤية تحليلية غير مرتجلة، وباستخدام المهارات الفكرية التي ذكرناها في المبحث الثاني لأجل الجواب على الأُمور الآتية:

- ما هي صورة الهدف بالتفصيل، وكأنك ترى مشهداً كاملاً بكل تفاصيله ومتعلقاته والمؤثرات عليه، وأنت بعيد عنه الآن ولكنك تريد التقرب إليه وتحصيله.
- ماهي الجذور والدوافع العميقة.
- ما هي الفرص والمنافع، وما هي المضار والمخاطر وما هي التناقضات في صناعة الهدف والتي يمكن أن تؤثر سلباً على نجاح الهدف. وما هي التفاعلات المحتملة داخلياً وخارجياً (الإيجابية والسلبية) أثناء المسار التنفيذي وبعد تحقيق الهدف، وما يمكن أن يقوم به الخصوم والمنافسون.
- ما هي العواقب والمآلات.
- ما هي الموارد والقُدُرات، وكيف يمكن تنميتها الآن وخلال المسار التنفيذي. وحين تخطط لتحقيق هدف، فعليك بناء القُدُرات لحماية مسار التحقيق وحماية

الهدف بعد تحقيقه، فإن النجاح الذي يتعذر عليك المحافظة عليه إنما هو فشل يضر ولا ينفع.

● إعادة التفكير موضوعياً بالهدف بعيداً عن الأشخاص والأمكنة، أي تدريب الفكر على البحث عن الخيارات والبدائل. وبعبارة أُخرى تجريد النظر بفوائد الهدف، وهل يمكن تحقيقها بشكل آخر او بهدف آخر أكثر نفعاً او أقل خطراً؟ فإن التفكير بالبدائل طريقة مهمة، وقد قال تبارك وتعـالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ الملك: ٢، والأحسن هو المتفوّق على غيره من الخيارات والبدائل. وفي المقارنة بين الخيارات انظر إلى الفوائد والمضار القريبة والبعيدة. ومن الكلمات المتعارف عليها في المصادر الغربية: «فكر خارج الصندوق» أي ابحث عن بدائل وأشياء جديدة.

● قارن جوهر الهدف أي المغزى المركزي منه، قارنه بالتجارب السابقة وبتجارب الآخرين، فإن تأريخ المعاني المركزية يعيد نفسه، وسوف تريك النتائج والعواقب.

● قارن الهدف بالنظائر، وهل يمكنك إضافة تحسينات او إضافة استخدامات أخرى او تحويله إلى شيء آخر؟ ففي السياسة مثلاً، مقارنة العمل النيابي بنظائره في الدول الأخر لاستخراج الفوائد وتنقيح نظام العمل. وفي الصناعة مثلاً، فإن دراسة محرك الطائرة وغيره يمكن أن تجعلك تنقل بعض الفوائد من محرك إلى آخر.

● هل توجد في صورة الهدف فراغات يجب ملؤها؟ وهل توجد مضامين غير مفيدة؟ وهل يحتاج الهدف إلى تعديل او إضافات او استبدال؟

● ما هي الخيارات والبدائل في سلسلة المسار التفيذي.

● قم بجمع المعلومات وفرزها وتحليلها وتقويمها.

● ارسـم صورة تفصيلية جديـدة للهدف(خارطة الهدف) واتخذ القرار بشأنه.

● قم بعد كل ذلك بإجراء تنقيح متكرر، وقد سبق ذكر شروط التنقيح.

التفكير
التصميمي او التشكيلي

أي تصميم او رسم صورة مرئية متكاملة لمشهد الهدف او لمنهج تنفيذي او لنتائج متوقعة في العمل للمستقبل او لنتائج متوقعة من المسار القائم، او شبه ذلك مما نحتاج فيه إلى شكل مرئي يعبر عن المعاني المراد عرضها، كتسلسل الخطوات والعوامل المؤثرة والمتعلقات، او غير ذلك، وبطريقة مرنة تقبل التعديل والإضافات. وإنما يصح تشكيل الصورة بعد تحليل شامل للمحاور والمتعلقات. ولفظ «التصميمي» مستعار أو مجاز، يُراد به رسم شكل يُمثل قِوام ما تفكر به من هدف او غيره. قال الصاحب بن عباد: والتصْمِيْمُ: المُضِيُّ في الأمْرِ. والصمِيْمُ: العَظْمُ الذي هو قِوَامُ العِضْوِ. وصَمِيْمُ الرأْسِ ونَحْوِه. وهو من صَمِيْمِ قَوْمِه: أي من خالِصِهِم وأصْلِهِم، وصِمَّتُهم نَحْوُه. وصَمِيْمُ الحَرِ والشتَاءِ: أشَدُّه بَرْداً وحَراً. اهـ من (المحيط في اللغة).

وتشكيل صورة افتراضية لهدف مستقبلي او لتوقعات مستقبلية، يُطلق عليها في إصطلاح خبراء بعض الدول الغربية: «السيناريوهات» المحتملة في الرؤية المستقبلية، وقد تزايد الاهتمام بها، وهي من فروع نظام التفكير كما في العنوان السابق. وتُستعمل أيضاً عبارة «الخرائط الذهنية» لوصف تنظيم المعلومات او الأفكار او المراحل او محتوى الهدف او غير ذلك، تنظيمها بصورة مرئية او رسم الهدف كذلك؛ وقد استعمل هذا المصطلح الباحث توني بوزان في كتاب (كتاب القراءة السريعة).

حديث الصراط المستقيم:

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: « هَذَا سَبِيلُ اللهِ »، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: « هَذِهِ سُبُلٌ - قَالَ يَزِيدُ (هو الإمام المحدث ابن هارون): مُتَفَرِّقَةٌ - عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ »، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَأَنَّ

﴿ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ الأنعام: ١٥٣. رواه أحمد وابن ماجه والبزار والنسائي في (السنن الكبرى) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، وحسنه شعيب الأرنؤوط بسبب الراوي عاصم بن أبي النجود، وقد تابع الأرنؤوط هنا تعنت بعض المحدثين، فإن عاصماً هو صاحب القراءة القرآنية المعروفة وهو إمام كبير صحيح الرواية بلا ريب.

آية الدخول إلى البيوت:

قال تعالى ﴿ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَا ﴾ البقرة: ١٨٩.

الفائدة الأولى: معنى البيوت والأبواب.

(أما البيت)، فقال ابن فارس: الْبَاءُ وَالْيَاءُ وَالتَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْمَأْوَى وَالْمَآبُ وَمَجْمَعُ الشَّمْلِ. يُقَالُ بَيْتٌ وَبُيُوتٌ وَأَبْيَاتٌ. وَمِنْهُ يُقَالُ لِبَيْتِ الشِّعْرِ بَيْتٌ عَلَى التَّشْبِيهِ لِأَنه مَجْمَعُ الْأَلْفَاظِ وَالْحُرُوفِ وَالْمَعَانِي، عَلَى شَرْطٍ مَخْصُوصٍ وَهُوَ الْوَزْنُ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة). وقال الراغب: أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل، لأنه يقال: بَاتَ: أقام بالليل، كما يقال: ظلّ بالنهار، ثم قد يقال للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه، وجمعه أَبْيَات وبُيُوت، لكن البيوت بالمسكن أخصّ، والأبيات بالشعر. وعُبّر عن مكان الشيء بأنه بيته. اهـ من (المفردات).

فالبيت هو المأوى والمآب ومجمع الشمل كما ذكر ابن فارس، وهو مكان الشيء كما ذكر الراغب. والْمَسْجِدُ: بَيْتُ الْسُّجودِ. وعلى ذلك، فإن بيت الشعر هو الكلام الحاوي لصياغة ونظام الشعر، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال « أَصْدَقُ بَيْتٍ قَالَتْهُ الشُّعَرَاءُ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلٌ » رواه مسلم وغيره. وبيت المال هو الحاوي للمال ولنظامه، وبيت العرب هو الشيء الحاوي لشرف العرب، وفلان بيت قومه أي شريفهم كما في (تاج

العروس). فكل حاو لشيء فهو بيته، فبيت المنهج هو الحاوي لمضامينه، وبيت الخطة هو الحاوي لمضامينها.

(وأما الباب)، فهو مدخل الشيء ومُستفتح الأمر والأسباب المؤدية إليه، ويُستعمل في الأجسام كباب الدار، ويستعمل بكثرة أيضا في المعاني بمعنى الطرق والأسباب المؤدية إلى النهاية، ومنه أبواب الخير وأبواب الشر، كما في نحو قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا ... ﴾ الأنعام: ٤٤ ، وقد يكون الباب المدخل الأولي إلى الطريق، وتحتمله آية الأنعام وغيرها. وقد يكون الباب المدخل إلى ثمرة العمل وإن طال الطريق، كقولهم: الأعمال الصالحة أبواب الجنة والفواحش أبواب جهنم.

الفائدة الثانية: في رسم الهدف المستقبلي، فإنه يُنظر إلى كل أمر مهم كبيت يجمع شمل ذلك الأمر، فمن أراد دخول هذا البيت فعليه أن يكون منهجياً، فيعرف قبل كل شيء محتويات البيت والحركة داخل أجزاء البيت والعوامل المؤثرة عليها، كي يعين مدخلاً او طريقاً إليه ثم المسار فيه ثم المخرج منه. قال الراغب الأصفهاني: وقوله تعالى ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾، أي تحروا في كل عمل إتيان الشيء من وجهه تنبيها أن ما يطلب من غير وجهه صعب مناله. اهـ من (تفسير الراغب في المكتبة الشاملة). وقال عبد الكريم الخطيب رحمه الله: فليس من التزكية للنفس والهداية للعقل والإطمئنان للقلب، أن يلقى الإنسان الأمور من ظهورها وأن ينظر إليها من ورائها، فذلك لا يطلعه منها إلا على ظلال وأشباح. أما إذا أراد أن يتعرف إليها ويعرف وجه الحق منها، فليلقها مواجهة ولينظر إليها نظراً قاصداً، فذلك هو الذي يدنيه من الحق إن كان طالباً له عن نية خالصة وقلب سليم. وليس كذلك شأن المنافقين الذين لا يأتون الأمور إلا مواربة ولا ينظرون إليها إلا بأبصار زائغة منحرفة. اهـ من (التفسير القرآني

للقرآن). ونحو هذا التفسير للآية ذكره أيضاً ابن عطية والزمخشري والرازي وغيرهم. ويؤيد كلام الخطيب عبارة ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾.

معنى ذلك في إعداد الأهداف المستقبلية والتخطيط لها أن لا تفكر برؤية جزئية ولا مرتجلة، ولكن عليك أن تفكر بالهدف بعناية، ثم ترسم الهدف بأجزائه او محاوره المتكاملة، وترسم معه التفاعلات المحتملة، الإيجابية والسلبية والداخلية والخارجية، وبعبارة أُخرى تقوم بتحليل مضامين الهدف. ثم ما هو المدخل (الباب او البداية) وما هو نوعه ووقته. وكذلك تَـفعل مع الخطة التنفيذية ثم المسار التنفيذي وخطواته. وبذلك تكون قد شكلت صورة مفصلة لبيت الهدف والطريق إليه.

وبصياغة أُخرى، فإننا نحتاج إلى إجادة توقع وتشكيل صورة تفصيلية للمستقبل الممتد من الماضي، ويقتضي ذلك تحليل كل ما يمكن أن يؤثر على الهدف او على المسار التنفيذي او على إدامة النجاح بعد تحقيق الهدف. وهذا جوهر رسم الأهداف المستقبلية الناجحة والتخطيط لتحقيقها، ولا شك أن صورة الهدف المستقبلي قبل بلوغه هي صورة احتمالية، ولكن يجب أن تستند إلى خمسة أُمور كي تكون مرتبة الإحتمالية جيدة، **(الأمر الأول)**: جذور قائمة تمتد منها الصورة المستقبلية، وكأن الهدف بيت بعيد غير أن جذوره في الشرعية والضرورة والدوافع والقُدُرات ممتدة من عندنا، وهو يحوي المعاني الكبيرة الممتدة من الجذور. وقد يكون الجذر هو المعنى المركزي (اللب او الجوهر) دون الظواهر والأشكال والسـعة والمتعلقات، ولذلك فإن الرؤية السطحية قد لا تجد أي صلة بين الجذر والصورة المستقبلية. **(الأمر الثاني)**: تتضمن صورة الهدف البدايات والمداخل إلى الأهداف التمهيدية التي تقربنا إلى الهدف الكبير. **(الأمر الثالث)**: تحليل واسع للقُدُرات الحاضرة ولخطط تنميتها خلال المسار التنفيذي. **(الأمر الرابع)**: تحليل شامل لما يُحتمل حدوثه من العوامل المؤثرة، الداخلية والخارجية. ويساعد هذا التحليل او التقويم على رؤية المؤثرات القائمة والتي يمكن أن تمتد إلى المستقبل، وكذلك توقع المؤثرات التي

يمكن أن تظهر او تحدث خلال المسار، وكذلك دراسة طرق كبح المؤثرات الضارة وطرق تغيير تأثيرها. **(الأمر الخامس)**: عزم شديد على المضي في المسار إلى تحقيق الهدف بإذن الله تعالى وإنْ طال الطريق وكَبُر الجهد.

ولابد في كل بناء نظري من إعداد خيارات وبدائل عن كل مُكَوِّن من مكونات البناء، بل يمكن في الرؤية الموضوعية إعداد أكثر من بديل للبناء كله، غير أن البدائل تشترك في تحصيل مصلحة مهمة او دفع مضرة كبيرة؛ ويتم ترتيب البدائل حسب الأفضلية. وبعد هذا الإعداد، فإنك تدخل وأنت مستعد لمواجهة الأحداث، وثابت في وِجهتك إلى الهدف. وهذه رؤية عامة، أي تصلح للأهداف السياسية والأمنية والدفاعية والإقتصادية والإجتماعية وغيرها.

الفائدة الثالثة: اهتمام الآية الكريمة بإتيان البيوت من أبوابها يعني الاهتمام بنقطة البداية او بعمليات الشروع والإنطلاق. ومما ذكرناه في (نخبة المسار) من كلمات السلف أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها. فإن كانت البداية مدروسة ومتقنة، فإن ما بعدها يكون أكثر إتقاناً لأن مراحل الطريق خاضعة للتقويم والتحسين. وبهذا النظر فإن النهايات أكمل من البدايات، غير أن للبداية الحسنة فضيلة كبيرة. ولذلك فإن رجال المشروع الناجح يشتاقون إلى أيام البدايات وما فيها من إندفاع ورجاء وتأثير في ما بعدها. وأما إذا كانت البداية غير متقنة، فإن العثرات سوف تُشغل عن التقويم والتحسين، كما أن الإستقامة إلى الهدف تتعثر، وقد يبقى الطريق وعراً إلى النهاية، خاصة إذا كان مجال المشروع يتسع كلما اقترب من نهايته، كأن يكون في البداية عملية محدودة (سياسية او غيرها) ولكن المجال يتسع مع التقدم ويشمل عمليات كثيرة متنوعة، فإن الأخطاء والعثرات تكون أكثر عدداً وأكثر تعقيداً مع إتساع المجال. وهكذا تبقى في الذكريات حسرة بسبب تلك البداية غير المتقنة. ومما قيل في أهمية البدايات: «ما يفعله الأحمق في النهاية، يفعله الحكيم في البداية»، نقله الباحث منير عبود في (موسوعة الأمثال

والحِكم والأقوال العالمية). وواضح أن تعيين الباب او المدخل او الطريق ليس أمراً عفوياً، ولكنك:

- ✔ تدرس منظومة البيت القائم او الذي تريد إقامته.
- ✔ وتدرس البيئة ، أي العوامل المؤثرة الداخلية والخارجية.
- ✔ ثم تفكر في الخيارات العديدة للمدخل او الباب، وهل تجعله دخولاً مباشراً إلى ما بعد الباب أم غير مباشر، أي بمسار من الأعمال المساعدة والتمهيدية؟؟
- ✔ ثم تقرر ما هو أصلح وقت ومضمون يمكن أن تجعله باباً او مدخلاً، وما هو ترتيب الخيارات الأخرى، فقد يصلح لبيت واحد أكثر من مدخل؛ وصيغة الجمع في الآية الكريمة ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ تحتمل ذلك ولا تمنعه.

الفائدة الرابعة: في تقديم الفتح على الكسر. فإن عبارة ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾، تنبه إلى أهمية التفكير بوسائل فتح الأبواب المعنوية فلا نلجأ إلى وسائل كسر الأبواب إلا عند الإضطرار. ويقتضي ذلك تولية أصحاب الفكر الواسع في المجالات عموماً، كمجال العلوم الشرعية والمجال السياسي والقانوني وغيرها، لأن ضَيِّق الفكر سوف يدعي الإضطرار لأنه فاشل في التفكير فلا يستطيع أن يتوسع في البحث عن وسائل الفتح.

الفائدة الخامسة: قال تبارك وتعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الأنعام: ٥٥، تقتضي الآية أن رسم بيت لمنهج الخير وإيجاد بدايات تكون نقاط تحول إلى الخير وترك الشر، فإن ذلك كله يجب أن يقترن برصد ومكافحة البدايات التي يجعلها الأشرار أبواباً إلى الشـر، وقد تكون بدايات الشر صريحة او مستترة وخادعة، ويجب مكافحة كل ذلك. وقد سبق تفسير آية الأنعام تحت عنوان «مهارة إنتاج وإنضاج الأفكار».

الفائدة السادسة: فوائد تشكيل صورة مرئية لتركيب الأفكار ونحوها: **منهـــا**: إيضاح الأمر المركب والمعقد، وإيضاح الإتجاه والإمتدادات المحتملة. **ومنهـــا**: تنظيم المراحل او الأسباب او التركيب. **ومنهـــا**: تعيين المعاني المركزية وما يتصل بها او يتفرع منها. **ومنهـــا**: تيسير المراجعة للتنقيح والتعديل، غير أن التنقيح يجب أن يشمل الصورة بجملتها أيضاً، وهل تصلح أم يجب وضع صورة جديدة؟؟

التفكير
بالمآلات والغايات

وهذا الأصل جزء كبير من الرؤية المستقبلية والتخطيط للمستقبل، فهو تمهيد وجزء من العنوان القادم: «الرؤية المستقبلية والتقاط ما يُخرِجُه اللهُ من الغيب» إن شاء الله تعالى. وقضية العواقب والمآلات لها أهمية عظيمة، وأفضل طريق لفهمها هو فهم النصوص الشرعية فيها.

قال تعـــالى ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ البقرة: ١٩٥.

(أما معنى «بأيديكم») أي بأعمالكم، فاليد كناية عن العمل كما في نحو قوله تبارك وتعالى ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ الروم: ٤١، وقد بينا ذلك في مواضع من الكتب الأُخرى.

(وأما معنى «التهلكة»)، فهي عامة في أشكال التهلكة، وتشمل كل شيء يؤدي إلى التهلكة كما ذكر الأزهري والراغب والفيروزآبادي وأبو البقاء الكفوي. ويُستعمل لفظ الهلاك في الموت، ويُستعمل كذلك في أنواع العذاب والشدة وتعطيل المنافع. قال ابن

الجوزي: الهلاك والفساد يتقاربان، إلا أن الفساد مع بقاء العين، والهلاك يكون مع بقائها ويكون مع عدمها. اهـ (نزهة الأعين النواظر). ويقال هلك الرجل إذا وقع في أمر شديد، ذكره أبو هلال العسكري في (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم). وكذلك جعل الدامغاني من معاني الهلاك: العذاب والفساد (الوجوه والنظائر). وصح كذلك عن عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك، قالت « فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي » رواه مسلم والبخاري وغيرهما، وصح عن النبي ﷺ قال « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » قَالَهَا ثَلَاثًا. رواه مسلم وغيره، والمعنى أصابهم عطب وعطل. وتوجد أحاديث أُخرى صحيحة وآثار عن السلف، فيها لفظ الهلاك بمعنى فساد الحال وتعطيل المنافع.

(وأما عبارة «إلى التهلكة»)، فتدبر استعمال حرف الغاية «إلى» وليس حرف الظرفية «في»، ويدل ذلك على أن طريق التهلكة قد يكون ممتداً. وتُستعمل «إلى» للغاية المجاورة والقريبة والمتوسطة والبعيدة وشديدة البعد. تقول: أنا ذاهب إلى بيت جاري، وأنا ذاهب إلى السوق، وأنا ذاهب إلى بغداد، وأنا ذاهب إلى الشام، وأنا ذاهب إلى استراليا، وأنا ذاهب إلى القمر في رحلة فضائية. وعلى ذلك، فإن الآية الكريمة تنهى عن الإلقاء إلى التهلكة الوشيكة والقريبة والمتوسطة والبعيدة، وسواء كانت التهلكة موتاً او فساداً وتعطيلاً للمنافع الكبيرة. وبعبارة أُخرى يجب مكافحة التدمير السريع والبطيء، ومكافحة الفساد ومكافحة تعطيل المنافع السريع والبطيء.

وكثير من القرارات المهلكة للأمم إنما أدت إلى التهلكة بعد سنوات طويلة، وقد لا يشعر القادة بالتهلكة المقبلة إلا بعد أن يكون التصحيح مكلفاً جداً او متعذراً. ولذلك فإن باب الإضطرار تدخل فيه الضرورة الحاضرة والمتراخية. ولعل سبب توارث تضييق الإضطرار أكثر مما هي حقيقته، أن طائفة جعلت مدار حكم الإضطرار على خشية الهلاك الوشيك بمعنى الموت، علماً أن الله تعالى قال ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ الأنعام: ١١٩، فواضح أن معنى ﴿ مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾، أي ما أجأكم

الضرر إليه، فالضرر هو مدار الحكم، وتدبر كذلك استعمال حرف الغاية «إليه» وليس لام الإختصاص «له». ولكن العبارة ليست على العموم في كل ضرر، إذ يوجد مجال واجب وواسع للصبر والسعي لإزالة الضرر او تخفيفه قبل اللجوء إلى المحرمات. ولكن إذا تفاقم الأمر واشتَدَّ احتمال أن يؤدي إلى تعطيل المصالح التي أوجبها الشرع على الجماعة فقد حَقَّ حكم الإضطرار. وهذا كلام مختصر جداً، والتفصيل في (المنطلق في فقه العمل)، ولكن سبق هنا الكلام عن صلح الحديبية وما يتضمنه من الضرورات المتراخية، وسيأتي أيضاً الكلام عن «رؤية الواقع وتأثيره»، وما يتصل به من أحكام الإضطرار، إن شاء الله تعالى.

ولذلك ينبغي في كل مشروع او قرار التفكير بالنتائج المتوقعة، الظاهرة منها والكامنة، وما يُحتمل فيها من خير او شر. وينبغي العمل على غلق طرق الشر، وتدبر قصة ذي القرنين رحمه الله، وكيف ردم باب الشر ردماً عصياً فنحن إلى اليوم ننعم به، ومعنى الردم الغلق من جميع الجهات، قال تعالى ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ الكهف: ٩٥ ، إلى قوله تعالى ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ الكهف: ٩٧.

والتوقعات المستقبلية ليست يقينية، ولكن يكفي في هذا المجال العلامات المهمة والأحاسيس الذكية التي تؤدي إلى مخاوف يتعذر دفعها، وفي ذلك أدلة قرآنية عديدة، وسيأتي بيانها في الكلام عن الإستشراف في جملة العنوان القادم، أي «الرؤية المستقبلية والتقاط ما يُخرِجُه اللهُ من الغيب» إن شاء الله تعالى.

ومن الأمثلة المتعلقة بالصراع معرفة «فن التراجع»، فمن كان تقديره للمآلات والعواقب جيداً فإنه قد يعرف في ظرف معين أن استمرار التقدم ينتهي بتهلكة متراخية او بحرب خاسرة، وبذلك يستطيع التراجع في وقت يكون التراجع فيه نُبلاً وحكمة او إعادة ترتيب، وكذلك يستطيع بتوفيق الله تعالى تحديد مقادير التراجع، وأما من لا

يربط المعطيات بالنتائج المتوقعة، فإنه لا يفكر بالمصيبة إلا بعد وقوعها، فلا يتراجع إلا بعد هزيمة مرة ودمار واسع. وينبغي في كل تراجع او سقوط التخطيط لجعله قضية ظرفية ومن غير المقبول البقاء فيها او دوامها.

ومن الأُمور المهمة أن الكثير من المباحات قد تؤدي إلى تـهلكة متراخية إذا أسـرف الناس فيها، كبعض الزيوت في الطعام والسـكر وغيرها، فهذا لا يعني منع الحلال على الناس، ولكن منع الإسـراف والطغيان في الحلال، وسـيأتي بيان ذلك بعد قليل (تفسـير آية البقرة ٢١٦/ الأصل الثالث) إن شاء الله تعالى.

ويتصل بذلك قوله تعــالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ النساء: ٢٩. تشمل الآية الكريمة أمرين، **الأمر الأول**: لا يقتل بعضكم بعضاً، وفي هذا المعنى نصوص في القرآن والسـنة. **الأمر الثاني**: لا تفعلوا ما يؤدي إلى قتلكم إلا بحجة شـرعية ثابتة. ومما يقتضيه هذا المعنى دراسة عادات التغذية وأنظمة العمل والمرور وغيرها، بهدف تقليل الحوادث الضارة التي يمكن أن تقتل الإنسان. وبعبارة أُخرى يجب اجتناب أسباب التهلكة.

وتدبر التفكير بالعواقب في القضايا الاجتماعية ونحوها، قال تعالى ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يوسف: ٥، وقال تعالى ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ يوسف: ٦٧.

وتدبر الأهمية العظيمة للعواقب، كما في نحو قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يس: ١٢. وقال تعالى

﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ الكهف: ٤٦.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩. وقال تعالى ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾ الإسراء: ٣٥. فتدبر في الآيتين عبارة ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾، فقد اشتهر عند المفسرين أن المعنى: ذلك خير مآلاً او عاقبة او جزاءً. قال الإمام الطبري: وأما معنى «التأويل» في كلام العرب، فإنه التفسير والمرجع والمصير. وآل الشيء إلى كذا، إذا صار إليه ورجع، يَؤُول أوْلا، وأوَّلته أنا صيرته إليه. وقد قيل إنّ قوله: ﴿ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴾، أي جزاءً. وذلك أن «الجزاء» هو الذي آل إليه أمر القوم وصار إليه. اهـ، وفي تفسير آية النساء قال الطبري: وأحسن تأويلاً، يعني: وأحمد مَوْئلا ومغبّة، وأجمل عاقبة. اهـ من (تفسير الطبري).

وقال الإمام الرازي: وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا، أَيْ ذَلِكَ الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً لَكُمْ لِأَنَّ التَّأْوِيلَ عِبَارَةٌ عَمَّا إِلَيْهِ مَآلُ الشيء ومرجعه وعاقبته. اهـ من (تفسير الرازي). ومثل ذلك روايات ابن المنذر وقول الزجاج والماتريدي والنحاس ومكي بن أبي طالب، والراغب الأصفهاني وأبي البقاء العكبري وغيرهم.

وفي الآيتين كان مآل أعمال معينة سبباً في إيجاب أحكام الآيتين. فلا شك أنه ينبغي النظر في المآلات المتوقعة من الأعمال، بما في ذلك المآلات القريبة والمتوسطة والبعيدة، فإنها قد توجب أعمالاً معينة، وقد تمنع أعمالاً معينة.

المنافع وما يقترن بها
وما يؤول إليه استخدامها:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » رواه مسلم وأحمد والنسائي في (الكبرى) وغيرهم، وصححه الألباني وغيره. فتدبر عبارة « احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ »، وليس ما يعجبك ولا ما تشتهي، والحرص هو شدة الإرادة للأمر.

ولابد من التفكير بما يقترن بالمنفعة وبما يؤول إليه استخدام معين لها. ففي كثير من الأحيان يكون تحصيل المنفعة بطريق محرم، او يقترن تحصيل المنفعة بالغفلة عن الإلتزامات الشرعية او بمسايرة الظلمة في ظلمهم او بشبه ذلك من المضار، او يؤول استخدام معين للمنفعة إلى مضار شديدة. وفي هذه الأحوال يكون تحصيل المنفعة امتحاناً كبيراً، هل ينسَى المؤمن دينه لمجرد تحصيل منفعة مباحة في الأصل. وتوجد أدلة شرعية توضح ذلك:

منهـــا: قوله تعالى ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ البقرة: ٥٧، إلى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ البقرة: ٦١.

فتدبر عبارة ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ..... ﴾، فلا شك أن الإستفهام هنا يفيد الإنكار والذم، حتى ذكر ابن عاشور أنه توبيخ شديد لأنه مجرد عن المقنعات وعن الزجر، أي إن كان هذا همكم فأهبطوا. ورجح سيد قطب أن المعنى: عودوا إذن الى مصر التي أُخرجتم منها، عودوا إلى حياتكم الدارجة المألوفة، إلى حياتكم الخانعة الذليلة حيث تجدون العدس والبصل والثوم والقثاء، ودعوا الأمور الكبار التي نُدبتم لها. وكلام ابن عاشور وسيد قطب موافق للقول بأن سؤال بني إسرائيل كان معصية، وهو قول أكثر المفسرين كما نقل ابن عادل في تفسيره.

وقد استغرب بعضهم الحمل على الإنكار، بحجة أن استبدال طعام بطعام ليس من المنكرات إذا كان حلالا؛ وهذه حجة ضعيفة. يوضح الأمر في الآية أن الإنتقال في الإنكار من ذكر أنواع الطعام الى ذكر «الذي هو أدنى» و«الذي هو خير»، يشعر بأن الإنكار قد لا يرتبط بالطعام نفسه، بل بالتزاحم بين متعلقات او عواقب الطعامين: المن والسلوى من جهة وهو من الطيبات في أرض لا طغيان عليهم فيها، ومتعلقات الفوم والبصل والعدس والقثاء من جهة أخرى، كأن يحتاج هذا الطعام إلى هبوط أرض الذل او إلى ذل الإستعانة بطغاتها لمجرد تحقيق شهوة كما ينبه إليه سياق الآية الكريمة.

ومنهـــا: قوله تعالى ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ طه: ٨١، فتدبر النهي عن الطغيان في الطيبات أي في الحلال، بمعنى سوء استخدامها. يوضح الأمر أن استخدام الحلال لخدمة الحرام كثير جداً، ويؤدي إلى عواقب شديدة ومآلات ضارة، وكذلك إماتة الواجبات والإلتزامات بسبب الإسراف في المباحات والغمر في الشهوات.

ومنهـــا: قوله تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ القصص: ٥٨، البطر غلو في المرح الدنيوي يجعل الإنسان يستخف بحقوق الله تعالى عليه. ومنه قول النبي ﷺ « الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ » رواه مسلم وغيره، أي الكبر الإستخفاف بالحق ودفعه. ومعنى الآية الكريمة: بطرت جودةَ معيشتها (بحذف المضاف كما ذكر ابن عاشور)، وذلك لأنها في غمرة من الملذات والشهوات، فلم تشكر الله تعالى وغفلت عن مكافحة عوامل الإنحدار والتردي.

ويوضحُ حديثٌ صحيح قضية استخدام الحلال في الخير او الشر، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الحُمُرِ، فَقَالَ « لَمْ يُنْزَلْ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الآيَةُ الجَامِعَةُ الفَاذَّةُ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ » رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

أمثلة مهمة من التفكير بالمآلات:

(حديث « لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا »): فمما ذكرناه في (وِجهة اللواء) حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله » رواه مسلم والبخاري وأحمد وغيرهم. ومعنى عبارة «في سبيل الله»، يتضح بأمرين، **الأمر الأول**: أن النية إنما هي جزء من المنظومة الكاملة للجهاد، وهذا مثل أحاديث فضائل الصلاة والزكاة والصيام ونحوها، فصحيح أن النية ركن فيها، غير أن صحة الصلاة ونحوها لا تتناول إلا من أدى الصلاة بأركانها وشروطها العملية كلها. وكذلك الأمر في الدفاع او الجهاد، فإنه منظومة كبيرة، فيها شروط للعمل العسكري، فلا مجال البتة لصرف النظر عن الأجزاء المتكاملة للمنظومة.

<u>الأمر الثاني</u>: تدبر في الحديث عبـارة « لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا »، فإن لام التعليل في بداية العبارة تقديرها: لأجل أن تكون ....، معنى ذلك أن عاقبة العمل او التقويم بالنتائج والمآلات جزء أساسي من تقويم العمل الجهادي، وقد يُطلق عليه: «التقويم بالجدوى»، فإذا كانت نتيجة العمل الجهادي إعلاء كلمة الله تعالى مع الإلتزام بشـروط العمل العسـكري فهو في سـبيل الله تعالى، وأما إذا كانت النتيجة خادمة لغايات العدو أكثر من خدمة غايات المسلمين او كانت حرباً ظالمة فاقدة لشروط الشرعية، فهو ليس في سـبيل الله تعالى وإن كان المقاتلون مسلمين. وقد تحصل أخطاء في التقويم وتكون النتائج غير مرضية، ولكن يجب أن يكون القرار قد مر بتقويم عميق شـامل للجدوى وقد تعاونت عليه العقول وتم تنقيحه المرة بعد المرة، كي يكون الخطأ مغفوراً. وأما دعوى سـلامة نية هذا المقاتل او ذاك فلا قيمة لها، لأن نتيجة القتال تابعة لنية وخطط جملة الجيش وقيادته وليست تابعة لنية أفراد محدودين. بل يمكن لجهة غير مسـلمة أن تحرك خفية عمليات قتالية بإسم الجهاد، وإنما المقصود الوصول إلى عواقب مضادة للجهاد، ويمكن أن يكون الحال كذلك في كل عمل إسـلامي في الظاهر ولكنه مدعوم سـراً من جهة غير إسـلامية كما كان حال مسجد الضرار. وقد تكلمنا في (نخبة المسار) عن التقويم بالنتائج، ومن الضروري التأكيد على أهمية تقويم النتائج المحتملة في بداية الأمر أي قبل الشـروع، ولا يجوز الإقتحام بالمجازفة بحجة عدم العلم بالغيب؛ فإن عدم العلم بالغيب يقترن بالعلم بالأسباب التي يُتوقع أن تحقق النتائج بإذن الله تعالى، كما أن عدم العلم بالغيب يقتضي المبالغة في التقويم والتنقيح. ويتصل بذلك ما يُقال: «لا تجعل نفسك هدفاً سهلاً، فإنما ينتصر المدافع إذا كان قادراً على الهجوم».

(قوله تعـالى): ﴿ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ الأعراف: ١٨٨. ومما ذكرناه في (المنطلق) أن الآية تقطع بأن أخطاء التدبير (التخطيط والتنفيذ) واقعة لا محالة، وهذا في حق النبي ﷺ غير معارض للعصمة لأنه

ليس في التشـريع، ولكن في وسـائل التنفيذ ووسـائل الصيانة والإدامة، وما تتضمنه من أسـباب جلب المنافع (الإسـتكثار من الخير) وأسـباب دفع المضار (مس السـوء). وهذا يتفق مع المشـهور من تفاسـير السـلف، فقد فسـروا «السـوء» في الآية بالضر وبالفقر، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون وأتقيه. رواه ابن أبي حاتم . وقريب منه ما نقله الطبري عن آخرين، قالوا: ولو كنت أعلم الغيب لأعددت للسَّـنة المجدبة من المخصبة، ولعرفت الغلاء من الرُّخْص، واسـتعددت له في الرُّخْص.

فمن أراد تقليل الأخطاء والخسائر، والوصول إلى أفضل عاقبة، فعليه أن يبالغ في تنقيح وتقويم الهدف قبل عمليات التنفيذ، ولا يقصر أيضاً في تقويم مراحل وخطوات التنفيذ بعد الشـروع فيها. ولنا في (المنطلق) تفسـير مفصل لآية الأعراف.

(قوله تبارك وتعالى): ﴿ .... فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩ إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٢٠ ﴾ الكهف: ١٩ – ٢٠، فتدبر عبارة ﴿ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴾، وقد قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ الشورى: ١٩. ومما ذكرناه في (المنطلق) أن اللطف هو تعاطي الأمور الدقيقة والتعامل مع الخفايا على وجه الرفق والإحسـان. واللطيف هو الذي يوصل إليك الإحسـان بـرفق حيث ييسر لك الأسباب ويسهل لك الصعاب، يُقال: لطف الله تعالى بك او لك، أي أوصل إليك ما تحب برفق، ولطف فلان بفلان أي رفق به، وجاءتنا من فلان لَطَفَة أي هدية، وألطفه بكذا أي برّه به، والملاطفة المبارّة والملاينة، واللطيف في وصف الأجسام ضد الكثيف والخشن والغلي، ودواء او ظرف مُلطّف أي مُخفف. فلا شك أن اللطف صفة راسـخة في دين الله تعالى وتظهر في مآلات تطبيق الدين. فإذا ظهر اللطف في تطبيق

الشـريعة فهو علامة على فهم الشـريعة وحُسـن التطبيق. وأما إذا نُزع اللطف من قواعد التطبيق، فلا شك أنه تطبيق غير منضبط بالشرع، ولكنه كما قال رسول الله ﷺ « مَنْ يُحْرَمُ الرِّفْقَ يُحْرَمُ الْخَيْرَ كُلَّهُ » رواه أبو داود وابن أبي شيبة، وصححه الألباني، وأصله في صحيح الإمام مسلم بدون عبارة « كله ».

(متى يُترك الجدال الديني؟): ففي سورة الشورى، بعد ذكر المشـركين ثم أهل الكتاب قال تعالى ﴿ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ الشورى: ١٥، فتدبر عبارة ﴿ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ﴾، و«الحجة» مصدر او اسم للمصدر، ومعنى العبارة: لا احتجاج بيننا وبينكم كما هي عبارة الراغب، أي فلا جدال ولا مناضرة كما هي عبارة ابن عطية. وهذه العبارة ليست لتحريم الجدال معهم، ولكن لبيان أن منع الجدل الديني معهم هو الأصل، وأن جواز الجدال هو الإستثناء بشرط أن يكون بالتي هي أحسن مع الملتزمين منهم بقواعد الحوار. ولعل السبب في ذلك هو اجتناب المآلات الضارة، فإن المحاجة او الجدال بين الطرفين مع وجود تناقض في العقيدة، من المحتمل جداً أن يخرج من الضبط ويؤدي إلى تفاقم الشحناء ثم تأليب العداء بين الظرفين. ولعله لذلك فسر مجاهد وابن زيد وغيرهما عبارة ﴿ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ﴾، بمعنى «لا خصومة»، روى ذلك الإمام الطبري عنهما. يوضح الأمر أن الأصل في نشـر الإسلام هو التبليغ والدعوة، فإن تأثير القرآن الكريم على النفس الطيبة التي تتذكر خالقها هي الحجة الأولى، وسيأتي بيان ذلك في أوائل الكلام عن «من عوامل التفكير السليم» إن شاء الله. وأما حوار الإحتجاج والمناظرة، فقد قال تعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ العنكبوت: ٤٦، فجواز الجدال جاء هنا بصيغة الإسـتثناء من النهي التي تفيد مطلق

الجواز وليس تحديد الوجوب، وبشرط أن يكون بالتي أحسن إلا مع من ظلم منهم بخروجه عن آداب الجدال.

آيات أُخرى تنبه إلى التفكير بالعواقب:

منهـــا: قوله تبارك وتعـــالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ المائدة: ٩١، فكل أمر يؤول إلى العداوة والبغضاء وإلى الصد عن ذكر الله وعن الصلاة، فينبغي إحداث تغيير في تركيبه او متعلقاته كي لا يؤدي إلى مآلات ضارة.

ومنهـــا: قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ المائدة: ١٠١، تبين لنا الآية الكريمة الأمرَ قبل تهيئة الأحوال الملائمة للعمل بالحكم، ولذلك أُمروا بالعناية بما عندهم، وترك السؤال عن أمور مؤجلة، وذلك لاجتناب عاقبة سيئة وهي التثاقل والتردد في تطبيق الحكم. ثم تأتيهم الأحكام الجديدة بعد الإعداد كي يكون محل الحكم متآلفا مع الحكم او مؤهلا له، فيحق لهم حينئذ السؤال عن هذه الأحكام وتفاصيلها، كما يفهم من قوله تعـــالى ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾.

ومنهـــا: قوله تعالى ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الأنعام: ١٠٨.

ومنهـــا: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ الكهف: ٧١، فوازن الخضر عليه السلام بين عاقبتين، الأولى: ترك السفينة صالحة فيأخذها الملك الظالم غصباً. الثانية: خرق السفينة كي يُعرض الملك عنها، ويمكن إصلاحها بعد ذلك.

ومنهـــا: قوله تعالى ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ الكهف: ٩٤ – ٩٥، فتدبر أن فساد يأجوج ومأجوج لم يكن قد وصل إلى أولئك القوم، ولكنهم فكروا بالعاقبة او المستقبل حين يصل إليهم، وأقرَّهم ذو القرنين على ذلك، بل فكر ذو القرنين بمنع فسادهم زمناً طويلاً جداً، فلا زلنا إلى اليوم ننتفع بعمل ذي القرنين إذْ جعل ردماً بين القوم ويأجوج ومأجوج. والردم هو غلق جميع المنافذ كالدفن، وقال تعالى ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ الكهف: ٩٧. وذهب بعض المعاصرين إلى أن الردم على يأجوج ومأجوج كان ردماً فضائياً، والله تعالى أعلم.

ومن أصول رعاية العواقب والمآلات: الرؤية المستقبلية وتوابعها، وإعداد نقاط تحول تنفع المستقبل. وسنذكر هذه الأُصول في العنوان الآتي إن شاء الله تعالى.

الرؤية المستقبلية
والتقاط ما يُخرِجُه اللهُ من الغيب

معنى الغيب:

الغَيْبُ في العربية: كلُّ مَا غَابَ عَنْكَ، كما في (لسـان العرب) وغيره، وسواء كان الغياب دائماً او مؤقتاً. وغياب الشـيء نقيض حضوره ومشـاهدته، ولذلك جاءت المقابلة بين الغيب والشـهادة كما في نحو قوله تعـالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الأنعام: ٧٣. وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾ النمل: ٧٤ – ٧٥، أي

ما مِن مكتوم سـرٍّ، وخَفِيٍّ أمر يغيب عن أبصار الناظرين في السماء والأرض إلا في كتاب مبين عند الله تعالى، كما في تفسير الإمام الطبري.

والغيب أكثر من نـوع، وشواهد العربية مشهورة في التنبيه إلى أنواعه.

قال ابن منظور: وَقَالَ ابن الأَعرابي: والغَيْبُ أَيضاً مَا غابَ عَنِ العُيونِ، وإِن كَانَ مُحَصَّلًا فِي الْقُلُوبِ. ويُقال: سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ وَرَاءِ الغَيْب أَي مِنْ مَوْضِعٍ لَا أَراه. قَالَ شَمِرٌ: كلُّ مَكَانٍ لَا يُدْرَى مَا فِيهِ، فَهُوَ غَيْبٌ؛ وَكَذَلِكَ الْمَوْضِعُ الَّذِي لَا يُدْرَى مَا وَرَاءَهُ، وَجَمْعُهُ: غُيُوبٌ. وغابَ الرجلُ غَيْباً ومَغِيباً وتَغَيَّبَ: سافرَ، أَو بانَ. وغَيابةُ كلِّ شَيْءٍ: قَعْرُه مِنْهُ، كالجُبِّ وَالْوَادِي وَغَيْرِهِمَا؛ تَقُولُ: وَقَعْنا فِي غَيْبةٍ وغَيابةٍ أَي هَبْطة مِنَ الأَرض؛ وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ يوسف: ١٠. وغابَ الشيءُ فِي الشيءِ غِيابةً، وغُيُوباً، وغَياباً، وغِياباً، وغَيْبَةً اهـ، مع اختصار من (لسان العرب).

وقال الزبيدي: والغَيْبُ من الأَرْضِ: مَا غَيَّبكَ، وجَمْعُه غُيُوبٌ. وغَيَابَةُ كُلِّ شَيْءٍ: مَا سَتَرَك، وَهُوَ قَعْرُه، كالجُبِّ والوَادِي وغَيْرهما. اهـ من (تاج العروس).

وقال مكي بن أبي طالب: والغيب: كل ما استتر عنك. اهـ من (تفسير مكي: «الهداية»). وواضح أنه بعد أن يتم إدراك الشيء او إدراك جزء منه، فإن ما تم إدراكه لم يعد غيباً.

وفي تفسـير «الغيب» قال الزمخشـري رحمه الله: قيل: والمراد به الخفي الذي لا ينفذ فيه ابتداء إلا علم اللطيف الخبير، وإنما نعلم منه نحن ما أعلمناه، أو نصب لنا دليلاً عليه. ولـهذا لا يجوز أن يطلق فيقال: فلان يعلم الغيب. وذلك نحو الصانع وصفاته، والنبوّات وما يتعلق بها، والبعث والنشـور والحسـاب والوعد والوعيد، وغير ذلك. اهـ (من تفسـير أوائل سـورة البقرة). وتدبر عبار الزمخشـري، وهي صحيحة لأن الإنسـان المعين لا يعلم الغيب، وإنما يعلم ما كان سابقاً غيباً وبعد أن ذهبت صفة الغيب عنه، فلا

يُقال: فلان يعلم الغيب، ولكن: فلان يؤمن بالغيب، وفلان يستكشف الغيب، أي الغيب القريب الذي تمتد إليه المعلومات الموجودة. وأما الغيب البعيد عن ما نمتلك من المعطيات، فقد قال تعالى ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾ سبأ: ٥٣. **وقال الرازي**: قَالَ الْعُلَمَاءُ: الِاسْتِدْلَالُ بِالشَّاهِدِ عَلَى الْغَائِبِ أَحَدُ أَقْسَامِ الْأَدِلَّةِ. اهـ من (تفسير أوائل سورة البقرة)، أي معرفة حكم الغائب عن طريق المعاني التي تمتد إليه من الأمور الـمُشاهَدة. وهذا يؤكد ما ذكرناه في شرح عبارة الزمخشري.

ويمكن تقسيم الغيب إلى أنواع:

(النوع الأول): إطلاق «الغيب» على الشيء الذي يدوم غيابه عنا، كما في نحو قوله تبارك وتعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء: ٨٥.

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** صلى الله عليه وسلم **قَالَ**: « ﴿ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾ الأنعام: ٥٩، خَمْسٌ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسُۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ لقمان: ٣٤ » رواه الإمام البخاري والنسائي في (السنن الكبرى) والطبراني في (المعجم الكبير)، ورواه ابن حبان بالمعنى وفي روايته نظر. وينبغي التنبيه إلى أن مضامين عبارة ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ﴾، أكبر بكثير من العلم بأنه ذكر او أُنثى ، ونحو ذلك يُقال في سائر عبارات الآية الكريمة حين تُفَسَّر ببعض مضامينها او بما يتصل بها. وعَن ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما فِي قَوْله تعالى ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾ الأنعام: ٥٩، قَالَ:« هن خمس: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ

﴿ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ إِلَى قَوْله تعالى ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾» رواه الإمام الطبري وابن المنذر كما في (الدر المنثور). **وقال بدر الدين العيني**: قَوْله (أي النبي ﷺ): « مَفَاتِيح الْغَيْب »، التخصيص بِهَذِهِ الْخَمْسَة مَعَ أَن الَّتِي لَا يعلمهَا إِلَّا الله كَثِيرَة، إِمَّا لأَنهم كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنهم يعرفونها، أَو لأَنهم سَأَلُوهُ عَنْهَا، مَعَ أَن مَفْهُوم الْعدَد لَا احتجاج بِهِ، فَافْهَم. اهـ من (عمدة القاري ١٨/ قول الله ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾)، وكلام الإمام العيني صحيح فإن الغيوب التي لا يعلمها إلا الله في غاية الكثرة، فلعل التقدير في حديث ابن عمر: «منها خمس»، فإن الحذف في العربية كثير جداً، كما أن الرواية بالمعنى ليست قليلة، والله تعالى أعلم.

(النوع الثاني): إطلاق «الغيب» على الأمور التي نعلم وجودها بيقين، وبدرجات متفاوتة من الإجمال والتفصيل. وهو علم مبني على الإيمان بدين الله تعالى والتيقن من صحة مضامينه، غير أننا لم نشاهد هذه المضامين وجهاً لوجه أي بصورة مباشرة لأن ذات تلك المضامين غائبة عنا. مثال ذلك الإيمان بحقيقة الجنة وجهنم وعذاب القبر وموازين يوم القيامة وتخاصم أهل النار، وكذلك الإيمان بالملائكة وبعرش الرحمن، والإيمان بحصول مضامين قصص الأنبياء المذكورة في القرآن والسنة، وشبه ذلك من أمور الغيب التي نعلم بعض مضامينها ونؤمن يقيناً بوجود مضامينها كلها التي نعلمها والتي لا نعلمها. ومع هذا العلم، فإن هذه الأمور تبقى غيباً لأن ذاتها غائبة عنا. وبعبارة أُخرى فإننا نعلم تلك التفاصيل التي أخبرتنا بها نصوص الدين، ولكن من غير مشاهدتها. وقد ينبه إلى ذلك المقابلة بين علم الغيب والشهادة في نصوص عديدة، كقوله تعالى ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ الرعد: ٩؛ أي يعلم الله تعالى ما يغيب عنكم وما تشهدونه.

(النوع الثالث): إطلاق الغيب على الأمر وقت غيابه وليس بعد حضوره ومعرفته. ويشمل ذلك ما يُظهره الله تعالى من الخبء (أي الغيب)، كما سنذكر بعد قليل إن شاء الله تعـــالى. ويُطلق الغيب أيضاً على ما كان غيابه جزئياً أي مقيَّداً. يدل على ذلك نحـو قوله تعالى ﴿ **مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ** ﴾ آل عمران: ١٧٩، فالمعنى: أن ضمائر المنافقين كانت غائبة عن الصحابة، وأن الله تعالى لا يُطلعهم عليها بالوحي، ولكن الإختبار والإبتلاء يُظهر ما في الضمائر وينهي حالة الغيب فيها، كما تنبه إليه عبارة ﴿ **مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ** ﴾. وأما رُسـل الله تعـالى، فإنه عز وجل يجتبي منهم من يطلعه على باطن المنافقين كلهم او بعضهم، وهذا المعنى مشـهور في تفسـير السـلف للآية الكريمة، وقد ذكره القرطبي بصيغة واضحة. وأيضاً، فإن عبارة ﴿ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ** ﴾، في سياق الآية كلها تنبه إلى أن من أراد اكتشاف بعض ما يغيب عنه فعليه بالبحث والتعب وبذل الجهد كي يهديه الله إليه، فلا ينتظر أن يرتمي عليه الإكتشاف وكأنه وحي منزل.

(النوع الرابع): ما يخرجه الله من الخبء أي الغيب القريب، وهذا فرع كبير من النوع الثالث. قال تعالى ﴿ **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾** ﴾ النمل: ٢٤ – ٢٥، وفي تفسير الآية أُمور، **الأمر الأول**: قوله تعـالى ﴿ **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾، حكاية لكلام الهدد، وأما ما بعد ذلك فقال ابن عاشور: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنْ جُمْلَةِ الْكَلَامِ الَّذِي أُلْقِيَ عَلَى لِسَانِ الْهُدْهُدِ، فَالْوَاوُ لِلْعَطْفِ. وَالْأَظْهَرُ أَنهُ كَلَامٌ آخَرُ مِنَ

الْقُرْآنِ ذُيِّلَ بِهِ الْكَلَامُ الْمُلْقَى إِلَى سُلَيْمَانَ، فَالْوَاوُ لِلِاعْتِرَاضِ بَيْنَ الْكَلَامِ الْمُلْقَى لِسُلَيْمَانَ وَبَيْنَ جَوَابِ سُلَيْمَانَ، وَالْمَقْصُودُ التَّعْرِيضُ بِالْمُشْرِكِينَ. اهـ من (تفسير ابن عاشور). وقال القرطبي: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ .... ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ [قَوْلِ] اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ وَهُوَ الثَّابِتُ مَعَ التَّأَمُّلِ. اهـ من (تفسير القرطبي). **الأمر الثاني**: قوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، أما كلمة «يخرج»، فمعناه يُظهر الخبء، ويشمل ذلك جعله مُشاهَداً كإنزال المطر وإخراج بعض ثروات الأرض، ويشمل كذلك جعله قابلاً للبحث والإستكشاف. وأما كلمة «الخبء» فهو مصدر بمعنى الصفة، ويقع على كل مخبوء وغائب. قال الزجاج: كل ما خبأته فهو خبء، ويجوز وهو الوجه أَنْ يكون الخبء كل ما غاب. اهـ من (معاني القرآن وإعرابه). وقال الماوردي: فيه تأويلان: أحدهما: يعني غيب السموات والأرض، قاله عكرمة، ومجاهد، وقتادة، وابن جبير. الثاني: أن خبء السموات المطر وخبء الأرض النبات، قاله ابن زيد، والخبء بمعنى المخبوء وقع المصدر موقع الصفة. اهـ من (تفسير الماوردي). ولا ريب أن القول الثاني الذي ذكره الماوردي تخصيص بلا دليل، ولكن يصلح لذكر أمثلة فقط. **الأمر الثالث**: عبارة ﴿ يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، ليست عامة في الغيب او المخبوء في السموات والأرض كله، وذلك لأدلة، منها أن حمل الصيغة على العموم إذا كانت صالحة للعموم ومجردة من أدلة التخصيص، هو أصل صحيح في سياق أحكام التكليف كقوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ البقرة: ٨٣. وأما الصيغة الصالحة للعموم في سياق الخبر المحض فلا يشملها الأصل المذكور وإنْ تضمن الخبر معان كامنة تحتاجها الأحكام التكليفية كما في آية الخبء، والحكم حينئذ

للقرائن. ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ الإسراء: ٨٥، فمهما أخرج الله تعالى لنا من الخبء فإن مضمون ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ يبقى قائماً إلى قيام الساعة. **الأمر الرابع**: الغيب او الخبء الذي يخرجه الله تعالى هو في غاية القلة قياساً إلى المخبوء غير المخرج، ولكنه في غاية الكثرة والأهمية قياساً إلى حاجة الإنسان وحاجة المؤمنين في البحث والإستكشاف، وسيأتي في الكلام عن مساحات العلم بيان كيفية التقرب إلى ما يُخرجه الله تعالى من الخبء او الغيب، إن شاء الله تعالى.

ومن هذا الأصل قصة سليمان عليه السلام، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ سبأ: ١٤. واضح أن موت سليمان عليه السلام، غاب عن الجن فكان غيباً حينذاك، ثم لما علموا موته انتهى عهد الغيب في هذا الخصوص وأصبح الأمر شهادة، ولذلك تكرر في القرآن الكريم المقابلة بين الغيب والشهادة، كما في نحو قوله تعالى ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الأنعام: ٧٣. قال علاء الدين الخازن: قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾، أي على سليمان، قال: العلماء: كان سليمان يتجرد للعبادة في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين، وأقل من ذلك وأكثر فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه فدخله المرة التي مات فيها، وقام يصلي على عادته متكئاً على عصاه فمات قائماً، فكان الجن يعملون تلك الأعمال الشاقة التي كانوا يعملون في حياة سليمان، ويحسبون أنه حي ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس لطول صلاته، وانقطاعه قبل ذلك، فمكثوا يدأبون بعد موته حولا كاملا حتى أكلت الأرضة عصا سليمان، فخر ميتا فعلموا بموته وأيقنت (أي الجن) أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في التعب والشقاء مسخرين لسليمان، وهو ميت ويظنونه حياً، أراد

الله تعالى بذلك أن يُعلم الجن أنهم لا يعلمون الغيب لأنهم كانوا يظنون ذلك لجهلهم. اهـ من (تفسير الخازن)، مع اختصار ومع تصحيح كلمة «وشرابهم» إلى «وشرابه»، وهذا التفسير مشهور عند المفسرين.

ويتصل بذلك أيضاً، قوله تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ طه: ١١٤، فإن الإنسان بفضل الله تعالى يتعلم اليوم ما كان غائباً عنه بالأمس. وفي حق غير الأنبياء، فإن زيادة العلم او تحوّل بعض الغيب إلى مشاهدة يكون بالبحث والإستكشاف.

وكذلك قوله تعالى ﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ هود: ٤٩، فكما أن الله تعالى أوحى بعض أنباء الغيب للنبي ﷺ وتعلمها المسلمون منه، فكذلك علَّم الله الناس بعض الغيب عن طريق النظر والإستدلال والبحث، فإننا ليس لنا من العلم إلا ما كان بإذن الله تعالى، فقد قال تعالى ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ البقرة: ٢٥٥. وواضح أن ما تعلمه النبي ﷺ بالوحي من أُمور الدين صار علماً ولم يعد غيباً إلا ما كان منه بمعنى أنه غير مُشاهَد او بمعنى غياب تفاصيل كثيرة، وكذلك ما يتعلمه الناس عن طريق النظر والبحث، فلا تعارض بين آية هود المذكورة وقوله تعالى قبل ذلك ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ... ﴾ هود: ٣١.

ويتصل بهذا النوع قوله تعالى ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ الأعراف: ١٨٨، وقد تقدم تفسير الآية في الكلام عن التفكير بالمآلات والعواقب.

ومن الغيب المقيد بحالة خاصة، قوله تبارك وتعالى ﴿ ..... وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ الأنبياء: ٤٨ - ٤٩ ، وفي تفسير نظير هذه الآية في سورة الملك، قال مكي بن أبي طالب: أي الذين يخافون ربهم ولم يروه، وقيل: يخافون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس، فمن خاف الله في الخلاء فهو أحرى أن يخافه بحضرة الناس. اهـ (الهداية إلى بلوغ النهاية)، القول الثاني فيه إطلاق الغيب على حالة خاصة وهي خشية الله تعالى في غياب مشاهدة الناس. وجمع الإمام القرطبي القولين في تفسير سورة الأنبياء، فقال: «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ»، أي غائبين، لأنهم لم يروا الله تعالى، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم رباً قادراً، يجازي على الأعمال فهم يخشونه في سرائرهم وخلواتهم التي يغيبون فيها عن الناس. اهـ من (تفسير القرطبي).

وقريب من ذلك نحو قوله تعالى ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ النساء: ٣٤، قال الإمام الطبري: وأما قوله: ﴿ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾، فإنه يعني: حافظات لأنفسهن عند غيبة أزواجهن عنهن، في فروجهن وأموالهم، وللواجب عليهن من حق الله في ذلك وغيره. اهـ من (تفسير الطبري)، وروى الطبري هذا المعنى عن قتادة وعطاء وسفيان. وهذا القول مشهور عند المفسرين، قال به السمرقندي ومكي والقرطبي والآلوسي وابن عاشور. وقريب منه قول غيرهم، قال ابن عطية: و«لِلْغَيْبِ» معناه: كل ما غاب عن علم زوجها مما استرعته، وذلك يعم حال غيب الزوج وحال حضوره. اهـ من (تفسير ابن عطية).

ويدخل في النوعين الثالث والرابع أمور كثيرة نعلمها ونشهدها اليوم، ولكنها كانت غيباً في القرون الماضية كالطائرات والصواريخ ووسائل الإتصالات الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعي والأجهزة الطبية المعاصرة، وغيرها من أمور في غاية الكثرة.

مقدار الغيب
وكيفية التقاط ما يُخرجُه الله منه:

قال تعالى ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ الإسراء: ٨٥. وهذا معنى ثابت إلى يوم القيامة، فلو جمعنا اليوم علوم البشر كلهم فإنما هو جزء قليل جداً من العلم المخزون في الكون. وإدراك الفرق العظيم بين المعلوم والمخزون يزداد مع زيادة معرفة البشر، فحين يكتشف علماء الطبيعة ونحوهم شيئاً معيناً فإن مسار الإكتشاف يدلهم على مجاهل كثيرة جداً هي في حكم الغيب القريب، أي بدايات ظهور الخبء في مجال الإكتشاف.

فنحن محاطون بمقدار هائل من الغيوب، والمقدار الأعظم من هذه الغيوب في كل زمن هي بعيدة جداً عن الإتصال بما يعرفه البشر فلا يمكن التقرب منها بالعلم البشري ولكن بالعلم المستنبط من القرآن الكريم. وقسم قليل جداً من الغيوب (قياساً إلى القسم الأول) هي امتدادات غير مكتشفة مما يعلمه الإنسان، ويحتاج الإنسان إلى مؤهلات فكرية قوية لربطه بالمعلومات الموجودة وتحويله من غيب إلى شهادة. يوضح الأمر أن «الإبداع» في الغالب هو اكتشاف فرع جديد لأصل حاضر او قديم، وبعبارة أُخرى فإن الإبداع هو في الغالب النجاح في اكتشاف الصلة بين الحاضر والمستقبل الوشيك والقريب. ولا نعني بالقريب غداً او بعد غد، ففي التطور الاجتماعي مثلاً، فإن توقع الإنحدار او التحسين وفقاً للأسباب القائمة قد يشمل مدة مستقبلية تزيد على عشرين سنة، وهو المدى القريب او المتوسط في بعض دراسات الإستشراف. **وسيأتي المزيد من الإيضاح في الكلام عن «مساحات العلم» إن شاء الله تعالى.**

وهذا في العلوم الكونية والطبيعية، وأما في العلوم الدينية، فإن إخراج المعاني الجديدة من عبارات القرآن الكريم يحتاج إلى قلب متوجه إلى الله تعالى بالإضافة إلى المتطلبات العلمية لفهم النصوص الدينية.

ويوضح حجب المعرفة الدينية عمن يعاند في رفضه للدين، نحو قوله تعالى ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ الروم: ٦ – ٧، وقال تبارك وتعالى ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾** ﴾ النجم: ٢٩ – ٣٠، فتدبر عبارة ﴿ **ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ** ﴾، فإنه مصدر ميمي يعبر عن الخاتمة او النتيجة النهائية لتحصيلهم العلمي، ولإيضاح ذلك أنظر إلى الفرق بين الصيرورة والمصير، وبين الإنقلاب والمنقلب. وقال تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ ﴾ الإسراء: ٤٥ – ٤٦.

ونُذَكِّر في هذا المجال بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء: ٨٨، فتدبر عبارة ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾، فإنها نكرة في سياق النفي وتفيد العموم في نفي المماثلة، فلا يأتون بمثله في التشريع، ولا بمثله في سعة معانيه، ولا بمثله في الجمال والتأثير في النفوس الطيبة، ولا بمثله في النظم والتعبير، ولا بمثله في أي وجه من وجوه عظمة وإعجاز القرآن الكريم. والمقصود هنا سعة معاني القرآن التي لا يقربها الإنس والجن مجتمعين ولو كانوا متظاهرين على هذا الأمر. ويتصل بذلك قوله تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ص: ٢٩، فإن عبارة ﴿ **مُبَٰرَكٌ** ﴾ اسم للمفعول من «بارك»، والبَـرَكة هي الزيادة والنماء بالخير المادي والمعنوي، فمن مضامين وصف كلام الله تعالى بأنه مبارك، أن فيه من المعاني والفوائد ما يزيد على كل

مقدار. فلا شك أن معاني القرآن الكريم تكمن فيها تنبيهات إلى غيوب كثيرة يمكن بناء البحوث عليها. وتدبر نحو قوله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ إبراهيم: ٣٣، وقوله تعالى ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الأنعام: ١٢٥، وقوله تبارك وتعالى ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ العلق: ١٦، فإن المؤمن في صدر الإسلام كان متيقناً من صحة مضامين هذه الآيات ولكنه غيب غير مشاهَد حينذاك، ففي أكثر من آية فرَّق الله تعالى بين الغيب والشهادة. وأما الآن فإن جملة من تفاصيل حركة الأفلاك وضيق الصدر في الإرتفاعات العالية وصناعة الصدق والكذب في مقدمة الدماغ، أصبحت في حكم الحضور والشهادة. ويوجد شرطان لبناء البحوث على بعض الغيوب القرآنية، **(الشرط الأول)**: الإيمان وطهارة النفس، ونكتفي هنا بقوله تبارك وتعالى﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الواقعة: ٧٧ - ٧٩، المس هنا مس معنوي، أي لايفقهه وينتفع به إلا المطهرون. فالمس هنا من جنس المس في نحو قوله تعالى ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الأنعام: ١٧. والتنبيه إلى هذا التفسير تعلمناه من الراغب الأصفاني في مقدمة (المفردات)، وقد بينا تفصيل ذلك في كتب أُخرى. **(الشرط الثاني)**: أن يبني الباحث لنفسه رصيداً معرفياً كبيراً في مجال معين من العلوم الإنسانية او الطبيعية، كي ينتبه إلى المعاني القرآنية الكامنة التي يمكن أن تتصل ببعض مضامين مجاله.

<u>يؤكد ذلك قوله تعالى</u>: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ النحل: ٨٩، فإن التبيان في عبارة ﴿ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾، نكرة في سياق الإثبات فهي مطلقة وتقع على أي تبيان سواء كان كلياً او جزئياً، ولذلك ذكر بعض

السلف أن السنن النبوية كلها لها أصل معنوي في القرآن الكريم. وأما عبارة «لكل شيء» فهي في غاية العموم والشمول. فالقرآن الكريم فيه ما لا نحصيه من التبيان الجزئي، وهي معان كامنة تتفرع السنن النبوية من بعضها، ويمكن أيضاً أن تُبنى الدراسات والبحوث العلمية على بعضها الآخر. معنى ذلك أن المؤمن المتخصص في مجال معين إذا تعلم أدوات فهم القرآن، فإنه يستطيع أن يستخرج بعض جواهر القرآن الكريم في مجال اختصاصه، لأن تلك الجواهر ستجد مفتاحاً لها في فكر المتخصص. فالعالم بالسياسة يستطيع استخراج جواهر السياسة من القرآن، وكذلك العسكري والمهندس والصناعي والإداري وغيرهم، وهذه الجواهر هي منطلقات وتحتاج إلى بناء علمي عليها كي تكون جاهزة للعمل. وبعبارة مختصرة أن وصف القرآن الكريم بأنه تبيان لكل شيء ينبه إلى وجود المفاتيح او المنطلقات إلى بناء البحوث العلمية، غير أن المتخصص ينتبه إلى المنطلقات التي تخص مجاله. وهذه المنطلقات لها في البداية حكم الغيب لأنه ذاتها المتجسدة غائبة عنا وليست مشاهَدة وإنْ كنا نؤمن بها، ثم تزول عنها صفة الغيب بعد دراستها وتحويلها إلى ذات متجسدة. وهذا كما أن الجنة وجهنم غيب لأنها خارج عالم الشهادة عند البشر، وإنْ كنا نؤمن بها وبأمثالها من الغيوب، ثم حين يدخل المؤمنون الجنة في الآخرة تزول عنها صفة الغيب، يؤيد ذلك ما ذكرناه من المقابلة بين الغيب والشهادة في أكثر من آية. وتوجد أمثلة كثيرة من هذه المنطلقات ذكرها المعاصرون في مباحث الإعجاز العلمي، كقوله تبارك وتعالى ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يس: ٤٠، وقوله تعالى ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ العلق: ١٥ – ١٦، فتدبر كيف جاز وصف الناصية بالكاذبة الخاطئة لأنها تضم جزءًا من الدماغ يُصنع فيه الخبر الصادق او الكاذب، ولا يحسن مثل ذلك في وصف الظهر والبطن إلا تجوّزاً او بقرينة.

وسيأتي المزيد في الكلام عن «مساحات العلم» إن شاء الله تعالى.

صلة المستقبل بما قبله:

واهِمٌ جداً من يظن أن المستقبل تركيب يرتمي على الأرض بمعزل عما قبله!!! يوضح الأمر أن الحياة فيها مسارات كثيرة جداً يمتد مَعْدِنها او عمودها (جوهرها ولُبُّها وأصلها) إلى المستقبل، مع تغيير طفيف او كبير في الصُّوَر الظاهرة. ويُقال في العربية: فلانٌ مَعْدِنُ الخَيْرِ ومَعْدِنُ الشّرّ. وقال مرتضى الزبيدي: ومَرْكَزُ كلِّ شيءٍ: مَعْدِنُه. والمَعادِنُ: الأُصُولُ. وَهُوَ مَعْدِنٌ للخَيْرِ والكَرَمِ إِذا جُبِلَ عَلَيْهِمَا. اهـ من (تاج العروس)؛ وأما عَمُودُ الْأَمْرِ: فهو قِوَامُهُ الَّذِي لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِهِ كما ذكر ابن فارس. وقد تُسمى الإمتدادات المذكورة بـ: «المسارات» او «الإتجاهات»، لأنها بدأت في الماضي او الحاضر ولكن لها خاصية الإتجاه او الإمتداد إلى المستقبل، ولذلك يصح أن يُقال: إن المستقبل قد بدأ اليوم او قبل ذلك. وينبغي التذكير أن المستقبل هو ما بعد الحاضر، فيمكن أن يكون المستقبل غداً او بعد غد او بعد شهر او بعد عشرين سنة فصاعداً.

يـؤكد الأمر أنه يجب على المسلم أن يجتهد في حساب الآثار المستقبلية المتوقعة لعمله لأنه محاسب عليها. قال تعالى ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ الكهف: ٤٦، والباقيات الصالحات نوعان:

النوع الأول: العمل الصالح الذي لا يضيع أجره.

النوع الثاني: العمل الصالح الذي يمتد عطاؤه إلى المستقبل. ولكل نـوع عبـارة في قوله تعـالى ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يس: ١٢. وقال تعـالى ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ الانفطار: ٤ – ٥.

وكذلك تفسير المستقبل استناداً إلى الماضي، قال تعـالى ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴾ النور: ١٢، إلى قوله تعالى ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ النور: ١٧.

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الحشر: ١٨ – ١٩، الغد هو اليوم الذي يلي يومك، والعرب تكني عن المستقبل بالغد كما ذكر الإمام القرطبي وغيره، وتنكير «غد» ينبه إلى الإطلاق او العموم في أيام المستقبل لأن كل يوم من أيام المستقبل هو غد لليوم الذي سبقه. وفي هذا تقريب للمستقبل وكأنه غدك، ويمكن لذلك استعارة قول الشاعر: إن غداً لناظره قريب. وهذا مثل التعبير عن الماضي بالأمس، قال تعالى ﴿ كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ ﴾ يونس: ٢٤. فعلى العاملين أن يعلموا أن الغد هو امتداد لما قدمناه في الحاضر والماضي، وعليهم أن يشكلوا صورة للأهداف المستقبلية كي ينظروا هل أعدوا لها وهل أقاموا مساراً جيداً يصلح أن يمتد لغد، أم يحتاج إلى تصحيح او تطوير؟ وعليهم أن ينظروا كذلك هل قدموا لغد ما يكفي لإدامة وتنمية القوة المعنوية والمادية ونقلها للأجيال المقبلة؟ وبعبارة أخرى: هل قدموا لغد ما يكفي في مكافحة عوامل التراجع والتوهين والإنحدار؟ ثم تدبر عبارة ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾، فهؤلاء قطعوا الإمتداد إلى المستقبل او غيروه تغييراً سيئاً.

وكما تمتد الحسنات إلى المستقبل، فكذلك السيئات، قال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

الذاريات: ٥٢ – ٥٣ ، أي لم تكن وصية جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، ولكن الطغيان تأصل فيهم وأمتد عبر الأجيال او عبر المجاميع البشـرية.

وقال تعالى ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ النور: ٢٦، فالخبيثات من الأعمال متوقعة من الخبيثين من الناس، والخبيثون من الناس للخبيثات من الأعمال، ويقابل ذلك الطيبات من الأعمال للطيبين من الناس. وكل نوع من العملين يمكن أن يمتد إلى المستقبل.

ومن الإتعاظ بالتجارب السـابقة وتأثيرها على الرؤية المسـتقبلية، قوله تبارك وتعـالى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٧٥، معنى ذلك أن تحريف كلام الله بعد أن يُعقل يدل على مَعْدِنٍ سيء لا يُتوقع من صاحبه أن يؤمن للمؤمنين. وواضح أن الآية الكريمة ترشـد المؤمنين إلى ربط التصرف المسـتقبلي بما كان من أولئك القوم في تحريف كلام الله تعـالى. وبعبارة أُخرى يجب مراجعة ودراسة التجارب السابق ففيها عبرة في التخطيط المستقبلي.

ومن لم يدرك امتداد السلوك السيء ابتداءً فلا ينبغي له بحال من الأحوال أن يغفل عنه ثانية، ولذلك صح في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ « لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ » رواه مسلم والبخاري.

غير أن إعادة الكرة (أي المحاولة الثانية) يمكن أن تسـتند إلى إضافات يُتَوقـع معها تحسـين النتائج، وهذا يختلف من قضية إلى أُخرى، ويظهر أن منه قوله تبارك وتعـالى ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ يوسف: ٦٤، فالإضافة الأُولى تقديم الرجاء على الخوف، خلافاً للمرة

الأولى؛ وأما الإضافة الثانية ففي قوله تعالى ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ يوسف: ٦٦، والله تعالى أعلم.

ويجمع الإمتداد الصالح والسيء حديث مشهور. **فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » رواه مسلم وأحمد وابن ماجه والترمذي، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

وعن الْحَسَنَ (وهو البصري)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَنْ سَنَّ سُنَّةَ ضَلَالٍ فَاتُّبِعَ عَلَيْهَا، كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَوْزَارِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ هُدًى فَاتُّبِعَ عَلَيْهَا، كَانَ لَهُ مِثْلُ أُجُورِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ » رواه الإمام أحمد ورجاله ثقات كما ذكر شعيب الأرنؤوط.

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « مَنِ اسْتَنَّ خَيْرًا فَاسْتُنَّ بِهِ فَلَهُ أَجْرُهُ، وَمِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ غَيْرَ مُنْتَقِصٍ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنِ اسْتَنَّ شَرًّا فَاسْتُنَّ بِهِ فَعَلَيْهِ وِزْرُهُ، وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مُنْتَقِصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا »، قَالَ: وَتَلَا حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ الانفطار: ٥. رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ » رواه البخاري وأحمد والبزار. ورواه الطبراني من طريق بِلَالِ بْنِ

الْحَارِثِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « إِنَّ الرَّجُلَ لِيُلْقِي الْكَلِمَةَ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، فَيُكْتَبُ بِهَا مِنْ أَهْلِ رِضْوَانِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيُلْقِي الْكَلِمَةَ مِنْ سَخَطِ اللهِ مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا فَيُكْتَبُ بِهَا مِنْ أَهْلِ سَخَطِهِ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ »، من (المعجم الأوسط والصغير). وقد يكون ذلك بسبب آثار الكلمة في وقتها او آثارها المستقبلية.

وهذا الحساب الشديد على الآثار المستقبلية يقع على اثنين، **الأول**: رجل مسيء فاسد النية وأدى قوله او عمله إلى آثار شديدة الضرر او إلى أضرار مركبة. **الثاني**: رجل مِهذار في الكلام ومجازف في العمل وغير مؤهل فيما يتصدى له، ومع ذلك يتعرض للمصالح العامة والسياسات العليا وللأمور الكبار التي لها عواقب وخيمة.

وأما المجتهد الذي يعطي الإجتهاد حقه، فله أجران إذا أصاب وأجر واحد إذا أخطأ، سواء كان اجتهاده في فقه العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية او في السياسة والأمن والدفاع، غير أن لكل مجال متطلبات خاصة للإجتهاد بالإضافة إلى المتطلبات العامة، ولاشك أن المصالح العامة تحتاج إلى عناية فائقة للوصول إلى اجتهاد. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ » رواه النسائي والترمذي وابن حبان، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط. ورواه الإمام البخاري ومسلم وأحمد من حديث عمرو بن العاص عن رسول الله ﷺ. والإجتهاد في عبارة « إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ » تقتضي أن يجهد العالم نفسه في طلب الصواب، ويتضمن ذلك أن لا يكتفي بنفسه، ولكن ينظر بكفاءة عالية في آراء الآخرين؛ وكذلك يكرر المراجعة والتنقيح بالتعاون مع فريق العمل. يُقال: جَهَدَه المُرَض والتعب وَالْحب يَجْهَدُه جَهْدا: هزله. وقال جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي الحنبلي: فمادة (جَ هـ دَ) حيث وُجِدَت فيها معنى المُبَالَغة. اهـ من (الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي).

من طرق الإمتداد إلى المستقبل:

وهي طرق بينها كثير من التداخل:

فمنهـا: **نظام السبب والنتيجة**: وهو نظام يمارسه عامة الناس، فحين يخطط الإنسان لهدف مستقبلي فإنه يتخذ الأسباب إلى الهدف، كأن يريد أن يكون صناعياً او سياسياً او مهندساً او داعية. وعلى ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُـرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ التوبة: ٤٦، فلا شك أن إعداد العدة سيؤدي إلى حالة مستقبلية ملائمة لها. ويوضح الصلة بين السبب والنتيجة نحو قوله تعـــالى ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران: ١٥٩، وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ ﴾ الأنعام: ١٠٨. وكذلك قوله تعالى ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ الكهف: ٩٥، إلى قوله تعالى ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى .... ﴾ الكهف: ٩٧ – ٩٨. وواضح أن الأسباب يمكن أن يمتد تأثيرها إلى مستقبل بعيد جداً، فإننا إلى اليوم ننعم بردم ذي القرنين رحمه الله تعالى.

ومن المهم التذكير بأن الصلة بين السبب والنتيجة يمكن أن تشكل خطاً مستقيماً واضحاً كمن شرب ماءً فزال عطشه، وقريب منه من درس فنجح في الإمتحان حيث تكون العوامل المؤثرة عدا الدراسة محدودة وقابلة للضبط والتقويم. وفي أحوال أخرى يكون المشـهد مركبا معقداً بسـبب كثرة العوامل والمؤثرات المتعاكسـة (المساعدة والمضادة)، ولذلك تتقاطع الخطوط وتتعذر رؤية الخط المسـتقيم بين كل مؤثر ونتيجته، ويكون تقويم الإسـتجابات المتوقعة صعباً والثقة به ضعيفة. وهذا النوع من التركيب

والتعقيد كثير جداً في التعامل مع بيئة بشـرية متعددة الميول والمؤثرات، وكذلك في الصراع السـياسـي والدولي، وفيما وراء العلاقات الخارجية (الأمور المستترة). وتوجد إحتمالات في دراسـة وتقويم المشهد المركب، منها التركيز على الأمور الكبرى مع احتياطات لاجتناب الأضرار الكبيرة المحتملة من إغفال أمور أُخرى، ومنها التركيز على الإحتمالات الأكثر خطورة والتعامل معها بخطط متعددة، وكذلك مع احتياطات لاحتمال الخطأ في تقدير المخاطر.

وينبغي تَذَكُّر الأسباب المعنوية التي تشارك بقوة في الوصول إلى نتائج متعددة، نحو قوله تعالى ﴿ ... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ الطلاق: ٢ – ٣، وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ الأعراف: ٩٦. وكذلك حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، قَالَ: « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ » رواه مسلم وأحمد وغيرهما، وصححه الألباني. غير أن الأسباب المادية يجب أن تأخذ حقها كاملا في الأعمال التي تتضمن أُصولا مادية، كالجهاد والصناعة والزراعة والصحة وغيرها، وتوجـد نصوص قطعية من القرآن والسـنة تبين ذلك. غير أن الإقتران بالأسـباب المعنوية يـؤدي إلى المزيـد من النجاح ومن حل العقد.

ومن أهم استخدامات السبب والنتيجة هو كيف تبني أسباباً تجعلك بإذن الله متفوقاً في المستقبل.

ومنهـا: **النمو والإنتاج**: وهو فرع من السبب والنتيجة. مثال واضح نمو الإنسان من الطفولة إلى الشيخوخة، كما في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن

نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ غافر: ٦٧، وتدبر عبارة ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾، فإنها تنبه إلى أن العوامل المضادة يمكن أن تقطع النمو والاستمرارية كما في هذا المثال، فمنها عوامل تعمل في داخل الجسد كالأمراض والتسمم، وعوامل أُخرى تضرب من الخارج كالحوادث المرورية والإصابات وشبهها. وكذلك في أمور أُخرى كالأعمال الإستراتيجية وشبهها؛ فإنها قد تُؤتَى من داخلها كعمليات الإختراق ونشر الفساد، وقد تُؤتَى من خارجها كعمليات إيقاد الحروب ونهب الأموال ونشر الأوبئة ونحوها. وفي كثير من الأحيان، يكون الإتيان من الداخل ممهداً للضرب من الخارج، وينبه ذلك إلى ضرورة مكافحة الأمراض والأعمال العدائية التي يمكن أن تُهلك الجسد او تُفسد العمل. وكذلك الأمر حين تخطط لتحقيق هدف، فعليك بناء القُدُرات لحماية مسار التنفيذ ولحماية الهدف بعد تحقيقه، فإن النجاح الذي يتعذر عليك المحافظة عليه إنما هو فشل يضر ولا ينفع.

فمن المهم بناء أعمال قابلة للنمو ولو ببطئ. وكل نمو لابد له من تعهد وتغذية منظورة، او غير منظورة فيُتوهم أنه نمو تلقائي. ومن المهم إبعاد النمو عن التآكل الداخلي وعن الضربات الخارجية.

ومنهـــا: **تأثير البيئة**، كما في قوله تعالى ﴿ **وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا** ﴾ الأعراف: ٥٨. وقد ذكرنا تفسيراً مفصلاً لهذه الآية الكريمة في (نخبة المسار، بعنوان: البيئة الطيبة او الإستراتيجية). وباختصار، فإن «**البلد**» هو كل قطعة محدودة من الأرض مُعَـدَّة للإقامة كما هو واضح من كلام الراغب في (المفردات)، وظاهر الإستعمال أن البلد هو الأرض وما عليها من عمران ومؤسسات او زرع او غيره. وأما «**النبات**» فهو ما نشأ في شيء يساعد على النشوء او ضروري له، يُقال:

نبت فلان في أكرم المنابت، ونبتت لبني فلان نابتة: نشأ لهم نشءٌ صغار، وإن بني فلان لنابتة شر، وقال تعـــالى ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ آل عمران: ٣٧، أي جعلها تنشأ نشـأة حسـنة. ولما جاز أن يكون البلد عامراً بالبناء والمؤسسات، فنباته حينئذ ليس الشجر والنخيل، ولكنها الأعمال والأنظمة والأفكار. ويشمل ذلك الأنظمة السياسية والقانونية والاقتصادية والإدارية وغيرها، ولعل ذلك هو السبب في التعبير بالبلد الطيب وليس بالأرض الطيبة. ومعنى «الطيب» في عمل الدولة بمؤسساتها، يشمل أمرين، **الأمر الأول**: أن العقول تستحسنه والضمائر ترضى به مـع تطلعها للمزيد وللتحسـين. **الأمر الثاني**: أن انتاج البلد (أي نباته) انتاج طيب، سواء كان الإنتاج سياسياً او اقتصادياً او اجتماعياً او غير ذلك.

وتدبر عبارة ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾، فقراءة القراء بإسناد الخروج إلى النبات نفسه وليس إلى البلد، أي ليست بلفظ: يُخرج بضم الياء، فكأن النبات (الإنتاج) يخرج تلقائياً لأن العمل الصحيح صار راسخاً في المؤسسات وفي أنشطة المجتمع وكأنه طبيعة للمجتمع. وأيضاً، فإن الفعل المضارع ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ ﴾، ينبه إلى تكرار خروج النبات وكأن عدم التوقف صار طبيعة وسجية للمجتمع، ويمكن أن يستمر الأمر كذلك حتى يصل إلى الجيل القادم وما بعده، وبذلك يتصل الحاضر بالمستقبل.

ثم تدبر عبارة ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾، فإنها تتضمن أكثر من معنى، **(المعنى الأول)**: أنها إذن عناية وتكريم وموافقة تشريعية، كما هو واضح من سياق المدح، فالإنتاج الصالح يخرج ببركة الله ورضاه؛ وبعبارة أُخرى فإن البلد الطيب يكون انتاجه طيباً في الفكر والثقافة والقوانين وفي الأنظمة التعليمية والسياسية والإقتصادية والأمنية والدفاعية والإجتماعية. وكذلك يكون انتاجه طيباً في الإنتاج المادي كالإنشاء والتعمير والصناعة والزراعة وغيرها. ويشمل الإنتاج الطيب (المادي والمعنوي) ثلاثة مضامين على أقل تقدير، **المضمون الأول**: النية والإتجاه الإسـتيراتيجي إلى المعالي والمكارم. **المضمون الثاني**:

الإتقان، فقد قال تعـــالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ النحل: ٩٠، فإن لفظ «الإحسان» إذا لم يكن متبوعاً بحرف الغاية «إلى» فإن معناه إتقان الخير، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى. **المضمون الثالث**: المغالبة العالمية، أي الإستباق والتنافس مع الآخرين بهدف التفوق العالمي؛ وفي ذلك نصوص قرآنية متعددة، ذكرنا منها في تفسير آية المصابرة والمرابطة من (المنطلق/ الفصل الثاني)، وفي هذه الدراسة تحت عنوان «التركيز»، وتحت عنوان «مهارة إنتاج وإنضاج الأفكار». ولا شك أن المغالبة تستلزم التطوير والتحسين المستمرين. **(المعنى الثاني)**: أن تدبير رب العالمين هو الفاعل في تسديد قرار الطيبين وفي توقيت خروج الإنتاج وفي مدى تكراره وتأثيره في المستقبل. ويرجو المؤمن أن يكون الإمتداد المستقبلي مستمراً إلى قيام الساعة، على نحو قوله تعـالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ إبراهيم: ٢٤ – ٢٥، فهذه كلمة منتجة ويتكرر ظهور أثرها وإنتاجها بلا انقطاع، فهي ممتدة إلى المستقبل البعيد. وتَذَكَّر ردم ذي القرنين رحمه الله تعالى وكيف امتد الإنتفاع بعمله آلاف السنين وإلى يومنا هذا. ومع ذلك كله، لابد من الرصد والإشـراف والمراجعة والتقويم، لأن الخصم ينتظر أدنى غفلة كي يقطع الطريق، ولأن اتخاذ الأسباب واجب.

وأما عبارة ﴿ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾، فإن «**النَّكَدُ**» هو اللؤم والشـؤم، وكل شـيء جرَّ على صاحبه شـراً فهـو نَكَدٌ، وصاحبه: أَنْكَدُ ونَكِدٌ. وأَرَضُونَ نِكادٌ: قَلِيلَةُ الْخَيْرِ. والنُّكْدُ والنَّكْد: قِلْةُ العَطاء وأَن لَا يَهْنَأَه مَن يُعْطاه. ونَـكِدَ الرجلُ نكَداً: أي قلل العطاء او لم يُعط البتة. ورجلٌ نَـكِدٌ وقومٌ أَنْكادٌ ومَناكيدٌ، وناكَدَهُ فلانٌ وهما يتناكدان، إذا تعاسـرا. وقرأ الجمهور ﴿ نَكِدًا ﴾، بكسر الكاف على أنه اسم فاعل او صفة مشبهة، والصيغة تقبل الوجهين، يُقال: رجلُ نَكِدٌ وعمل نَكِدٌ. وتقدير العبارة: والبلد الذي خبث

لا يخرج نباته إلا نكداً. والمعنى أن السبب الخبيث (القول او العمل)فإن الصفة الإجمالية والدائمة لإنتاجه هي النكد لأن الصيغة صيغة حصر وإن تضمن قليلاً من الخير. وصيغة العبارة تشمل الإنتاج الخبيث الذي يخرج اليوم والذي يخرج في المستقبل. وينبه ذلك إلى أهمية إيقاف او إبطال الإتجاه الخبيث.

ومن تأثير البيئة قوله تعالى ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ مريم: ٢٧ – ٢٨.

ومنهـــا: المحافظة على الجذور وتحسينها، فلنتدبر نمو العمل الإسلامي في عهد النبوة، كما في قوله تعالى ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ الفتح: ٢٩؛ فإن بلوغ المرحلة الخامسة كما في عبارة ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ يجب أن يقترن بالمحافظة على انتاج بل تحسين انتاج المراحل الأربع قبله، وبخلاف ذلك فإن المرحلة الخامسة تنقطع بعد حين. ويُعَدُّ هذا النوع من الإنقطاع من أهم أسباب إنحدار الأُمم. وبعبارة أُخرى، فإن الفرح والتوسع في المرحلة الخامسة يجب أن لا يُشغل عن إدامة وتحسين المراحل التي انتجته. ويتصل بذلك المثل القائل: «لجني الثمار عليك أن تحافظ على البذور»، نقله الباحث منير ب عبود في (موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية).

ومنهـــا: التَّغيُّرات المؤثرة، وهو أيضاً فرع عن السبب والنتيجة. فإن حياة الشعوب والأفراد ليست جامدة، بل فيها كثير من الحركة والتغيير، وفيها صراع بين الخير والشر.

أما أعمال الخير، ففيها دائماً خاصية الإمتداد الثابت إلى المستقبل، وإنْ كان ذلك يتفاوت بحسب جودتها وسعتها وامتدادها كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ الكهف: ٤٦، فتدبر معنى الثبات والبقاء في عبارة ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ﴾. وقد سبق قبل قليل ذِكْر نوعي الباقيات الصالحات.

وأما أعمال الشر والباطل فقد تمتد أيضاً إلى المستقبل، غير أن وجودها المعنوي هَشٌّ شديد الرخاوة وتكمن فيه عوامل البوار والإضمحلال، كما أن المواجهة بالحق تُعجِّل بواره.

يوضح الأمرين (الخير والشر) قوله تعالى ﴿ ... قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ الرعد: ١٦ – ١٧. واضح أن الآية الكريمة مثل لمسار الحق وما يُحدثه من تغييرات مستقبلية، ومسار الباطل وما يُحدثه أيضاً، كما تنبه إليه عبارة ﴿ .. كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾. وتدبر عبارة ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾، أي بقدرها في استيعاب الماء وبقدرها في الإحتفاظ بالماء، فمع سقي الجوانب فإن الماء لا يسيح هدراً، بل يمتد السَيَلان إلى أبعد مدىً. وينبه ذلك إلى أن أعمال الخير تتفاوت في درجتها وسعتها وفي حركتها وامتدادها، فإن امتدت الحركة إلى غد فهو امتداد إلى المستقبل، ويمكن أن يكون الأمر أبعد من ذلك بكثير. وكما أن الله تعالى يحيي الأرض بالماء، فكذلك مسار الحق والإيمان فإنه يحيي النفوس ويُسدد الأعمال ويُحدث كثيراً من التغيرات. وليس المراد بعبارة ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ مجرد كثرة العدد، ولكن سعة وجَوْدة ما بنوْه من قُدرات

فكرية ومعنوية ومادية، ومقدار استعداد النفوس لخدمة الحق وإبعاد الباطل والإبتعاد عنه. وأما الباطل والشر فهو من الجهة المعنوية زَبَدٌ هشٌّ متفكك الأجزاء فهو يذهب جُفاءً. وتتضمن كلمة «جُفاء» أن تحصل الصفة بصرف النظر عن طريقة الحصول، ولذلك فسره بعضهم بمعنى أسم المفعول، أي: يذهب الزبد مدفوعاً منبوذاً، وفسره بعضهم بمعنى اسم الفاعل، أي: يذهب مضمحِلاً متلاشياً، فلا قيمة له ولا فائدة. وتدبر عبارة ﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾، ثم عبارة ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾، أي احتمل الماء على سطحه زبداً ظاهراً منتفخاً، فهو غير مندمج بالماء ولكنه محمول عليه. وكذلك الحال بين الحق والباطل، فإن الباطل (الزبد المعنوي والبشري) قد يدخل بين صفوف الحق، ولكنه عند التدبر والفحص منفصل عنه غير ممتزج به، ولهذا الإنفصال درجات كثيرة تختلف في شدتها، وقد يكون إنفصالاً عقيدياً او عملياً، ومع تفاوت الدرجات. ومن المهم أن عمليات فصل الماء عن الزبد او فصل الحق عما تلبس به من الباطل تشمل عمل الصاحين في دفع الشبهات ورد الأباطيل ومكافحة تلبيس الحق بالباطل، ويتضمن ذلك سعة الأُفق من غير تميع في تصور الحق، ومن غير أدنى انصهار في الباطل. ثم تدبر عبارة ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، فأُصول المنافع المعنوية والمادية تبقى في الأرض فهي ممتدة إلى المستقبل بانتظار من يعرف قيمتها، ويحوِّلها إلى مضامين وأدوات جاهزة للإستعمال، أي يحوِّلها إلى منافع يمكن مباشرة العمل بها. وتدبر استعمال الفعل المضارع «ينفع» فإنه يشمل الحاضر والمستقبل أي ما يمكن أن ينفع مع تتابع الأيام والسنين. فمن أراد أن يحمل المنافع المعنوية فعليه أن يجهز للناس أفضل ما يمكن من الأنظمة الفكرية والتعليمية والقانونية والسياسية وغيرها، وأفضل ما يمكن من الصالحين المؤهلين لتشغيل هذه الأنظمة. ومن أراد أن يحمي المنافع المعنوية فعليه أن يجهزها بأفضل ما يمكن من المنافع المادية كالمدارس والجامعات والمصانع ومراكز البحث وسائر وسائل العمل والحماية. فالنفوذ العميق هو الإمساك بمنافع معنوية ومادية

ممتدة في الأرض والزمان، وما كان كذلك فهو ماكث في الأرض ومن المتعذر إزالته. ولنا في (نخبة المسار) تفسير مفصل لهذه الآية الكريمة، بعنوان «بناء النفوذ العميق».

ومنهـــا: الإستشراف المستقبلي، ونحتاج هنا إلى عنوان مستقل.

الإستشراف المستقبلي:

الإستشراف في العربية هو وضع الناظر يده على حاجبيه كالذي يستظل من الشمس كي يُبصر الأشياء، ويُقال شارف الشيءَ أي دنا منه وقارب أن يظفر به، وأشرف على الموت أي قاربه، وينظر في ذلك (المحكم) لإبن سيده، و(النهاية) لابن الأثير. فاستعارة هذا اللفظ في هذا المجال يُراد به عملية تخفيف بعض حُجُب او حواجز الرؤية المستقبلية بواسطة استثمار الحقائق المعلومة، وبعبارة أخرى توقع ما لم يكن بمعرفة ما كان، او هو استقراء احتمالي للمستقبل بما يمتد إليه من الحاضر والماضي. وهذا كله من جنس توقع النتيجة إذا علمت أن السبب قائم، كما في نحو قوله تعـــالى ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران: ١٥٩. يرشد إلى ذلك نصوص شرعية كثيرة، فالإستشراف المقصود هنا ليس من باب التنجيم والعِرافة بحال من الأحوال، بل هو علم في غاية الأهمية.

ويقوم عامة الناس بدرجات متفاوتة من تحسس المستقبل أي الإستشراف لمستقبل قريب جداً، كمن يخطط ويتخذ الأسـباب لمسـتقبله المهني او العائلي او الثقافي. ومن الممارسات اليومية التي تعتمد على مرتبة من التوقع والإستشراف أن التاجر يشتري ويبيع بضاعته بحسب ما يتوقعه من عرض وطلب وشبه ذلك من المؤثرات، والمزارع يتوقع نوع وجودة الإنتاج من طبيعة الأرض ونوع الخدمة. وكذلك الرجل في اختيار الزوجة، فإذا أعجبته امرأة من بيئة غليظة الطبع فإنه يتوقع أن يتعرض لأنواع من الخشونة والفظاظة، وإذا أعجبته امرأة متقدمة عليه مهنياً واجتماعياً فإنه يتوقع أن يقدم لها ما يُشبع تقدمها، إلى

غير ذلك من الأمثلة التي تقع كل ساعة. وأما إنكار بعضهم للإستشراف الأكثر طولاً كما يقع في الرؤية المستقبلية لأهداف المصالح العامة العليا، فربما لأن التفكير أصعب من العمل، فإن التفكير يكون أكبر بكثير وأشد تركيباً وتعقيداً مع الأهداف طويلة الأمد، ولكنه مستقبل كله.

من أدلة الإستشراف: قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ ﴾ التوبة: ٤٦، فالعُدَّة ليست خاصة بالمعركة الوشيكة جداً أي التي بدأ الشروع فيها ويمكن أن يبدأ التلاحم اليوم او غداً، بل يشمل الإعداد المعركة المحتملة بعد زمن قد يطول. يؤكد ذلك قوله تعالى في آية الإعداد ﴿ ..... وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ ﴾ الأنفال: ٦٠، أي وأعدوا لقوم آخرين لا تعلمونهم، فقد تكون عداوتهم كامنة او يمكن حدوث متغيرات تبدل موقفهم السياسي. ومعلوم أن إظهار العداوة الكامنة او تغيير الموقف التحالفي قد يأخذ زمناً طويلاً. معنى ذلك أنك بالإضافة إلى الإعداد الذي تقتضيه المعطيات القائمة، فإنك تستشرف نوع العدة الضرورية بعد عشر سنين فصاعداً وتُعِدُّ وفقاً لذلك وزيادة. المهم، ينبغي ملاحظة مصادر المضار الكامنة، كالتدابير الخفية والخلايا النائمة، وملاحظة الرماد خشية أن توجد نار تحته.

ويقطع بهذا الأصل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ﴾ البقرة: ١٩٥، فتدبر استعمال أداة الغاية المستقبلية «إلى» وليس حرف الظرفية «في» كما هو شائع، فإن أداة الغاية هذه تُستعمل للغاية المجاورة والوشيكة والقريبة والمتوسطة والبعيدة والتي في غاية البُعد، وقد سبق بيان ذلك تحت عنوان: «التفكير بالعواقب والمآلات». ولا سبيل لنا إلى العمل بهذه الآية الكريمة إلا إذا كنا نستطيع أن نجتهد في رسم الإحتمالات المستقبلية والتخطيط للتعامل معها.

ومن الإمتداد بين الحاضر والمستقبل، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١. قوله تعالى ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، أي الذي بأنفسهم، والنفس هنا هي ذات الشيء وجملته، كما في نحو قوله تعالى ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ الأنعام: ١٢٣. وتدبر استعمال حرف الباء وليس حرف الظرفية (أي: في)، والأصل في حرف الباء إفادة الإلصاق والإختلاط أي الإتصال، والمعنى: حتى يغيروا ما يتصل بهم من أحوال وأعمال، وذلك أن استعمال الباء يشمل قطعاً الأحوال الخارجية المتصلة او المختلطة بالذات، كقوله تعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ النحل: ٥٣، وقوله تبارك وتعالى ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ البقرة: ١٦٦. ولذلك ذهب جماعة من المفسرين في تفسير ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، في الأنفال والرعد، ذهبوا إلى أن المعنى: ما بهم من نِعَم وأحوال وأعمال، منهم السمرقندي والقرطبي والبيضاوي والآلوسي وغيرهم، وهذا كلام صحيح. وظاهر كلام الآلوسي وأبي السعود أن حرف الباء يشمل أيضاً النوايا، أي يشمل الأعمال ومَلَكاتها، ويساعد على ذلك قول النحاة ان حرف الباء يُستعمل أيضاً للظرفية، أي بمعنى «في»، ولكن من غير أن يفقد معناه الأصلي، أي الإتصال والإلصاق. وواضح من كل ذلك أن تحصيل التغيير من الله تعالى يحتاج في الإبتداء إلى تغيير عملي جديّ من الإنسان. والأمر أكبر بكثير حين نتكلم عن التغيير في المجتمع وفي السياسات العامة، فإنه جهد كبير وطويل لتغيير الأحوال القائمة. فمن فوائد الآية الكريمة أنه لا تغيير من الله تعالى إلا بتغيير من الناس، فإذا أردت الحصول على تغيير مستمر او متكرر من الله تعالى، فعليك أنت أن تتغير عملياً بصورة مستمرة او متكررة، كي تحصل بعد كل تغيير منك على تغيير من الله تعالى. وهذا من جنس السبب والنتيجة، فالسبب هو التغيير الذي أحدثته أنت، والنتيجة المستقبلية هو الإمتداد المتطور للسبب والبركة فيه بإذن من الله تعالى. ولا شك أن وجوب المغالبة يجعل الرؤية المستقبلية في غاية

الأهمية، لأنه يجب عليك أن ترسم هدفاً مستقبلياً متفوقاً في كل مجال من مجالات المغالبة، ثم تبحث كيف يمكن أن تمتد إليه من الحاضر.

دور الإستشراف في تشكيل المستقبل: وذلك أنك تجتهد في تشكيل مجمل مستقبل الدولة اوالأمة، او تشكيل مستقبل مجال معين، ويمكن بإذن الله أن تنجح في كثير من الأحيان. وباختصار شديد يمكن اتباع الخطوات التالية:

(الخطوة الأولى): أن تقوم مجموعات متخصصة بتقويم المجالات او الإتجاهات الكبرى التي تريد لها مستقبلاً متفوقاً، كالأداء الإيماني والسياسي والاقتصادي والصناعي والدفاعي والاجتماعي والثقافي والعلمي وغيرها، والتنمية فيها. ويتضمن التقويم محورين، **المحور الأول**: الأداء الحاضر والبُنى التحتية له ومواضع القوة والضعف والقُدُرات، والعوامل المؤثرة والتي يمكن أن تؤثر سلباً او إيجاباً (الداخلية منها والخارجية)، وكذلك المقارنة بين قُدُراتك وقدرات الدول المؤثرة. وتفكر بعد ذلك بالأداء الكبير الذي تريد أن تبلغه في المستقبل. **المحور الثاني**: تحديد الإتجاهات الكبرى من الأداء المذكور، أي الأنشطة الكبرى التي نريدها أن تمتد إلى المستقبل بصورة متطورة، وما هي قوة توقع امتدادها وصمود تطويرها.

(الخطوة الثانية): على القائمين على كل مجال او اتجاه أن يتخذوا مسارين لخدمة أهداف المؤسسة او الدولة، **المسار الأول**: هو الأداء الحاضر ومتطلبات الهدف الوشيك، فهذه تكون متوافقة مع القُدُرات القائمة. **المسار الثاني**: مبني على أننا نحتاج إلى مستقبل متفوق على الحاضر. فعلى قادة العمل أن يفكروا بعناية لوضع أهداف مستقبلية كبيرة قبل التقيُّد بقُدُرات محددة، فينبغي أن تكون صورة الهدف المستقبلي أكبر او أكبر بكثير من القُدُرات الحاضرة، ولكن يُرجى إمكان تنمية القُدُرات خلال المسار إليها فهي قابلة للتحقيق. وبعبارة أُخرى أن الهدف المستقبلي الكبير حافز قوي، لأنه يوجب علينا أن

نفعل الكثير كي نصل إليه، وهو أفضل بكثير من البقاء ضمن أهداف صغيرة عاجلة. ولا يكون رسم الهدف في أيام قليلة، بل يجب جعل الهدف ومتطلباته التنفيذية مركز التفكير بين مجموعة رسم الهدف، ويُعاد تنقيحها مرة بعد مرة حتى يُصار إلى درجة عالية من النضج في رسم الهدف وفي المتطلبات التنفيذية. ويتم وضع مدى زمني لكل هدف، ويمكن أن يكون المدى قصيراً لبعض الأهداف التمهيدية، غير أن الأهداف الكبرى تحتاج عادة إلى سقف زمني طويل وقد يزيد على عشرين سنة. وينبغي رسم الهدف المنشود بتفاصيله المهمة كلها (السيناريو المفصل)، وكذلك رسم أهداف بديلة (سيناريوهات مغايرة جزئياً او جوهرياً) مع التفكير بمدى تداخلها مع السيناريو او الرسم المفصل، وذلك لأن الهدف مستقبليٌ فهو قابل لعمليات التعديل والتنقيح، بل يجب خلال المسار حساب حصول المفاجآت غير المتوقعة، فقد قال تعالى ﴿ .. لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ الطلاق: ١. ويجب كذلك افتراض وجود أمور مهمة غائبة عن تفكيرنا، وقد ذكرنا قبل قليل قوله تعالى ﴿ ..... وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾. ولذلك ينبغي قبل الشروع في التنفيذ إعداد صُوَر (او سيناريوهات) محتملة لأمرين، الأمر الأول: العمليات المضادة والمفاجآت المحتملة وسبل التعامل معها. الأمر الثاني: سُبُل تنمية الموارد. ولتجنب المهالك وللمحافظة على المكاسب، لابد من الواقعية والتقيد بالوسع، وبعبارة أُخرى فإننا نعمل للهدف المستقبلي ولكن لا نعيش فيه إلا بعد تحصيله. وشرط نجاح ذلك أن تكون خلال المسار وقبل تحقيق الهدف قد أزلت العوائق والمضادات الكبيرة، فإن من الخسائر الكبيرة أن تفشل في الإحتفاظ بالهدف بعد تحقيقه، وبذلك يضيع جهدك ومالك ومنزلتك. وهذا من أهم مجالات الإبتكار والتقدم النوعي، وبه يظهر الفرق بين من هو بعيد النظر ومن هو قصير النظر.

(الخطوة الثالثة): بعد تكرار تنقيح مشهد الهدف والخطط التنفيذية، ينبغي أن تكون مؤهلاً لصنع أعمال وأفكار متتابعة ومتزامنة تتجه إلى المستقبل بإذن الله تعالى، وتتظافر خلال المسار في تشكيل وبلوغ الـهدف المستقبلي، ويُسـاير ذلك عمليات تنمية القُدُرات كما ذكرنا. ويتم تنظيم كل ذلك بخطة تنفيذية منقحة لكل هدف مرحلي. وفي كل مرحلة من مراحل المسـار يتم إعادة تقويم الـهدف ومسـاره التنفيذي، فقد تقع فُرَص تسـاعد على تحسـين وتحقيق الـهدف، وكذلك يمكن أن تـقع أمـور تـوجب بعض التراجع او التوقف او التعديل. ويحتاج الأمر إلى أهلية عالية في مهارات التأثير والعلاقات ووسائل تخفيف التقاطع والإستفزاز.

وقد ذكرنا جملة من متطلبات وضع وتحليل الهدف المستقبلي، وأوصاف الخطة الجيدة، وذلك في (نخبة المسـار/ مبحث الأداء الإسـتراتيجي وغيره).

ويمكن إعادة صياغة هذه الخطوات من أجل تحقيق أنواع أُخرى من الأهداف.

الإستشراف المبني على العلامات: العلامات لها أهمية كبيرة في الفقه وغيره من مجالات الحياة، وقد قال تعالى ﴿ **فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾** ﴾ الحجر: ٧٤ - ٧٦، «السِّـمَةِ» هي العلامة، والمتوسمون هم المتعاملون بكفاءة مع العلامات بالبحث والتفكر والإنتفاع، لأن التوسم جزء ثابت من تفكيرهم. ومن أهم مضامين الكفاءة العالية أنك تلاحظ التفاصيل المهمة التي يغفل عنها الآخرون، وأنك تلاحظ المعاني الخفية التي لا يدركها الآخرون. وقد بينا ذلك في أوائل المبحث الثاني، تحت عنوان «قوة الملاحظة وتحليل العلامات».

وتوجد أمثلة كثيرة من التصرف المبني على التوسم وما يؤدي إليه من استشراف. مثاله قوله تبارك وتعـــالى ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَـٰانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا**

يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الأنفال: ٥٨. واضح هنا أن نبذ العهد معلق في الآية على وجود المخاوف، معنى ذلك أن الإعتماد في مثل هذه الأمور ليس على العلم اليقيني ولا على العلم الظاهر، ولكن على الأحاسيس الذكية او على العلامات والأمارات والمقدمات والشبهات التي قد نعجز عن إثباتها، وكذلك يعجز المقابل عن نفيها إلا بمجرد الإدعاء ويمتنع او يفشل في تقديم إثباتات وإجراءات عملية للطمأنة وإزالة المخاوف. فلو كان الأمر خلاف ذلك لما جاز تعليق نبذ العهد على الخوف، ولكن تعليقه على التبين والتحقق، كأن تتضمن العبارة معنى: وإما تخافن من قوم خيانة فتبين او فتحقق او فتثبت. فمعنى التعليق على المخاوف أن الوسيلة الوحيدة لإبقاء العهد هي إزالة المخاوف بإجراءات عملية والتزامات مضمونة. وأما من تأخر في نبذ العهد حتى يصل إلى علم يقيني او علم ظاهر فإن المصيبة الكبرى قد تصله قبل ذلك، لأن خطورة الحليف الخائن كبيرة جداً. ومن جهة أخرى، ينبغي الحذر أيضاً من تسريب العدو لمعلومات خاطئة من أجل تفكيك العهد او الحلف. ويتضح مما سبق أن مهارات الرصد وتحليل المعلومات لها أهمية فائقة. وواضح أيضاً أن نبذ العهد يعني إبطال الإلتزامات المتبادلة، وأما من زعم أن نبذ العهد يعني التحول تلقائياً إلى الحرب، فهذه مزعمة خارج نص الآية الكريمة، غير أن التحول إلى الحرب أمر محتمل وليس بلازم، وذلك بحسب اجتماع شروط الحرب.

ومن الأحكام المبنية على العلامات والمقدمات قوله تعالى ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ البقرة: ١٨٢، وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ .... ﴾ النساء: ٣٤، وقوله تعالى ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ النساء: ١٢٨، فالحكم في هذه الآيات يتعلق بالخوف من أمور يمكن أن تكون غير حاصلة، ولكن يوجد ما يساعد على توقعها من العلامات، وبالقدرة على إثارة الإحتمالات الممكنة لكل

علامة، ويستعمل بعضهم عبارة «درجة عالية من الشك» بدلاً من عبارة «درجة عالية من إثارة الإحتمالات».

وخلاصة ذلك أن المتوسم يرسم صورة مستقبلية محتملة (سيناريو محتمل) لما يُحتمل أن تتضمنه او تؤدي إليه العلامات.

طرق إطالة الإمتداد المستقبلي:

منهـــا: سياسة التغيير والتحسين المستمر، وهذا الطريق هو أصل الطرق الأُخرى.

فقد قال تعـــالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ الرعد: ١١، فالإمتداد إلى المستقبل لا يرتمي علينا ولكنه ثمرة عمليات التغيير التي نقوم بـها. وبعبارة أخرى أنك إذا أردت إطالة الإمتداد المستقبلي أي الحصول على تغيير مستمر او متكرر من الله تعـالى، فعليك أنت أن تتغير عملياً بصورة مستمرة او متكررة، كي تحصل بعد كل تغيير منك على تغيير من الله تعـالى. وقد ذكرنا تفسير آية التغيير قبل قليل في «أدلة الإستشراف»، كما ذكرنا في (المنطلق) تفاصيل مهمة عن التغيير، وذلك تحت عنوان «سلوك التغيير والتحسين».

ومنهـــا: حماية البناء الداخلي من الهدم، وخاصة البُنى التحتية، ويقوم ذلك على فهم الصلة بين الأوامر والنواهي. ومما ذكرناه في (المنطلق) وفي (نخبة المسار) أن بناء الإسلام في الأرض، إنما هو بطاعة الأوامر الشرعية، أي إقامة الواجبات من عبادات ومعاملات وقوة وعدل وعمران ومؤسسات وأنظمة اجتماعية وقانونية وسياسية ودفاعية وغيرها. وأما التحريم او النواهي الشرعية فهي حماية للبناء من أن يُهدم. فبناء الفرد بالتقوى والفضائل والعلم، ويُهدم بالشهوات والأهواء. والبناء الإجتماعي يُهدم بالرذائل والفساد. والبُنية القانونية تُهدم بالظلم. والبُنية السياسية والأمنية تُهدم بتولية الظالمين

وموالاة الأعداء وشبهها من المحرمات السياسية، وهكذا الأمر في البُنى الإسلامية كلها. وعند التساهل في تمرير الفساد وحصول النخر في قواعد البناء فإن الهدم يتسارع جداً، ولذلك قالوا: إن الهدم أسرع من البناء.

وقد قال تعالى ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ النحل: ٢٦، فالبنيان هو الشئ المنشأ من أجزاء مضموم بعضها الى بعض، ويستعمل في البناء المادي والمعنوي، ومنه حديث « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ ». والقواعد هي الأُسس او البُنى التحتية التي يُبنى عليها، وتُستعمل كذلك في القواعد المادية والمعنوية، ومنه قولهم «قواعد التفسير وقواعد العمل». فالقواعد في بناء الدول والمؤسسات والشعوب متشعبة ونسبية، إذْ توجد أسس فكرية متداخلة تُبنى عليها فروع فكرية وأعمال كثيرة، وتوجد أُسس تنظيمية مرتبطة بالفكر تُبنى عليها تطبيقات كثيرة. وهكذا الأمر في القواعد او البُنى التحتية للنظام السياسي والإداري والدفاعي والإقتصادي والإجتماعي وغيرها. وكذلك لفظ ﴿ ٱلسَّقْفُ ﴾ فهو كل ما ارتفع او كان غطاءً لغيره سواء كان مادياً او معنوياً ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ الأنبياء: ٣٢ ، ومنه قول جليلة بنت مرة امرأة كليب حين قَتَل أخوها زوجَها كليباً:

يا قتيلاً قوَّضَ الدَّهرُ به — سَقْفَ بيتَيَّ جميعاً من عَلِ
هدَّم البيتَ الَّذي استحدثتُهُ — وبدا في هدم بيتي الأوّلِ
خَصَّني قتلُ كليب بلظًى — من ورائي ولظىً مُسْتَقْبِلي

ولا تريد من سقف البيت سقف الحائط ولكنه غطاء وأمْن الصلات العائلية، فهو سقف معنوي وقد وصفته بالتقويض.

ونخر القواعد وتقويضها يـؤدي في كثير من الأحيان إلى انـهيارات كبيرة غير متوقعة او مفاجئة، ولذلك قال تعالى في آخر الآية ﴿ وَأَتَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، هذا بالإضافة إلى حرف الفاء في ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ﴾، وهو رابط معنوي بين ما بعد الفاء وما قبلها، والأمر أشد حين يكون البناء من غير قواعد. وأما إذا كانت القواعد راسخة ومقاوِمة، فإن الإضرار بالبنية الفوقية يمكن إصلاحه. ولذلك يجب على القادة في كل مجال أن يعرفوا الأهداف النبيلة التي يعملون لها، ثم معرفة ما يدخل في القواعد أي البنية التحتية، وما يدخل في البناء الفوقي.مثال ذلك المشاركة السياسية، فإن البنية التحتية هي الحرية السياسية (أي حرية المنافسة الآمنة) وتكافؤ الفرص والأنظمة الإنتخابية العادلة واستقلالية المؤسسات الأمنية، والقوانين التي تؤدي إلى تبصير الناخبين وحمايتهم من التضليل ومن شراء الذمم ومن الفساد الوظيفي؛ يوضح العبارة الأخيرة أن حرية التعبير يجب أن تنمو من حرية التفكير، غير أن حرية التعبير السياسي عند جملة من الناس وربما أكثرهم ليس لها جذور فكرية سليمة، ولكن تُخرِجُها المنافع الخاصة والميول العاطفية، وقد تسـيطر عليها عمليات التضليل. وأما البنية الفوقية فهي تحديد الدوائر الإنتخابية وإعداد المراكز الإنتخابية والتوقيتات وإجراء الإنتخابات ووسـائل الفرز، وشـبه ذلك من المتطلبات التنفيذية التي تفقد من قيمتها إذا كانت البنية التحتية ناقصة، وهكذا الحال في سائر الشؤون المهمة.

فلا شك أن بداية الإنشاء يجب أن تكون بالقواعد، مع عمليات مستمرة للتقوية والتحصين من النخر والإختراق. ولأهمية القواعد صارت هدفاً متبادلاً بين الأعداء، كل طرف يحاول نخر او تدمير البنية التحتية للطرف الآخر. فعلى المسؤولين عن عمل او هدف معين سواء كان في الدعوة او الإعلام او السياسة او الدفاع او غيرها، عليهم أن يفكروا جيداً للتمييز بين القواعـد والبناء الفوقي، وذلك أن البناء الفوقي يسهل نقضه إذا

كانت القواعد رخوة او غير موجودة. وأشد من ذلك من يتخذ بناءً فوقياً مؤسَّساً على قواعد عدوه، فيمكن للعدو أن يدمره متى شاء.

ويتصل بذلك، قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ الفتح: ٢٩، فتدبر عبارة ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾، فإن السوق جمع ساق أي قام معتدلاً على الأعمدة (البُنى التحتية) التي تمتد منها الفروع أي البُنى الفوقية. وقد ذكرنا تفسيراً مفصلاً للآية في مبحث التدرج من (المنطلق).

وينبغي لكل ذلك مكافحة عوامل الإنحدار وهي في مهدها، أي قبل أن تصبح نقطة تحول.

وينبغي التذكُّر بأن مصدر كثير من أعمال الهدم الداخلي هو عمليات التحريك الخارجي، وتحتاج إلى مهارة فائقة في عمليات الرصد والمكافحة، وقد ذكرنا جملة من ذلك في (وِجْهَة اللواء/ المبحث الخامس: الحرب غير العسكرية).

ومنها: إعداد نقاط تحول راسخة تمتد إلى المستقبل، وكذلك رصد عوامل الإنحدار في مهدها ومنعها من التفاقم إلى نقاط تحول إلى الإنحدار.

نقطة التحول هي القضية او مجموع القضايا التي تؤدي إلى ظهور مسار جديد او إلى تأثير كبير في المسار القائم. وقد يكون التحول في مسار إنسان او جماعة او مؤسسة او دولة او دول متعدة بصورة متزامنة، وكذلك يمكن أن يكون التحول إيجابياً او سلبياً. وتوجد أمثلة كثيرة:

فعن سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ ﷺ، قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابَ عَنْهُ: « الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ » رواه البخاري وأحمد وغيرهما. ومعنى الحديث: من الآن فصاعداً نحن نغزوهم ولا يغزوننا، أي اصبحوا في حال الدفاع

المحض وهو حال ضعيف، لأن الدفاع القوي هو الذي يقترن بالقدرة على الهجوم. ويمكن أن يكون الحديث رؤية تحليلية من النبي ﷺ، ولكنها مُسددة بالوحي. وكانت نقطة التحول تلك في يوم تراجع أحزاب المشركين في معركة الخندق، غير أنها كانت نتيجة سلسلة من الأحداث التي ابتدأت بتشكيل دولة الإسلام في المدينة ثم معركة بدر وما بعدها إلى يوم الخندق. وواضح أن نقطة التحول تلك تضمنت أمرين مقترنين، الأمر الأول: استمرار صعود المسلمين عقيدياً ومعنوياً ومادياً، وواضح أن إطالة الإمتداد المستقبلي الصالح يعتمد على إدامة وتطوير المسار. الأمر الثاني: استمرار الإنحدار المعنوي والفكري للعدو. وينبه ذلك إلى أن الإنحدار المعنوي (القِيَم والأخلاق) ليس فيه مسار للعودة إلى الأعلى إلا بالعودة إلى منظومة معنوية صالحة، فلا عودة مع غياب هذه المنظومة، بل هو إنحدار متواصل او متدرج إلى الهاوية.

وقال تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ الأنفال: ٦٦، فتدبر عبارة ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ... ﴾، فلا شك أنها نقطة تحول، غير أن التحول هنا هو تراجع في درجة التفوق، كما أن كلمة «الآن» تنبه إلى أن الحكم المتعلق بها يمكن أن يكون حكماً ظرفياً خاصاً بأحوال معينة. وفي حال غياب التفوق المادي فإن نقطة التحول يمكن أن تكون تراجعاً ظرفياً عن المواجهة العسكرية كما كان الحال في العهد المكي. وينبغي في غياب التفوق المادي الحذر الشديد من الإستدراج إلى نقطة تحول إلى التهلكة، وقد بينا ذلك في (وجهة اللواء). ونُذكِّر بظاهرة «تأثير الفراشة»، مختصرها أن شيئاً صغيراً قد يُحدث تأثيراً كبيراً، وأن فقدان شيء صغير قد يؤدي إلى فقدان شيء كبير. ومن الأمثال المشهورة: «القشة التي قصمت ظهر البعير»، معنى ذلك أنك إذا حمَّلت شيئاً طاقته القصوى فإنه ينهار عند أدنى زيادة في الحمل، فهي

نقطة تحول إلى التهلكة. ولذلك كان تعريف «الوسع» أنه دُوَين الطاقة كما بينا في (المنطلق). بل ينبغي في بعض أحوال الخطورة العالية التي تستلزم قُدُرات احتياطية كبيرة، أن يكون الوسع أقل بكثير من مجموع الطاقة.

وقال تعالى: ﴿ ..... إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الأنفال: ٤١، يوم الفرقان هو يوم بدر كما تشير الآيات التي بعدها، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما. والفرقان في سياق الجهاد هو الحدث الذي فَرَق الله به بين المحق والمبطل وبين المنتصر والمهزوم. ولا شك أن نصر بدر كان نقطة تحول من جماعة حديثة العهد بإدارة الدولة وبالتعامل مع الصراع الدولي إلى قوة فاعلة ويجب أن يُحسب لها كل حساب، ويجب عليها أن تؤهل نفسها لإدارة العلاقات الخارجية.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ الحديد: ١٦، يُقال: أنى الأمر أي حان وقته، ويُقال: أما آن لك أن تفعل؟ فالمعنى: ألم يحن او يقرب الوقت للذين آمنوا أن تخشع... الخ. وعن ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: «مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَاتَبَنَا اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ» رواه مسلم. يُفهم من آية الحديد أنها تطالب المؤمنين حينذاك بنقطة تحول إلى مرتبة «الخشوع»، التي ينبغي أنهم قد أعدوا لها خلال السنوات الماضية. وتدل الآية على أن بناء النفس يحتاج إلى تدرج كي يمتد إلى المستقبل. وهذا مثال مهم، غير أن المؤمنين مطالبون بالتخطيط لإعداد نقاط تحول مستقبلية تخدم مسار تنفيذ الواجبات العامة.

ويُحتمل نحو هذا المعنى في قوله تعالى ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ النازعات: ١٧ – ١٩، التزكية في العربية هي التنمية بالخير، يُقال: زكا الزرع إذا حصل منه نمو وبركة، وأرض زكية طيبة منتجة، وكل شيء يزداد وينمو فهو يزكو زكاءً، يؤكد ذلك أن نقيض التزكية هو التدسية، أي تقليل الشأن والإخفاء، كما في قوله تعـــالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس: ٩ – ١٠. ولما كانت «النفس» تُطلق على الروح، وتُطلق كذلك على جملة الإنسان الحي، فإن تزكية النفس تشمل تزكية القلب وتزكية الحال. وقال أبو حيان: وَتَزَكَّى: تتحلى بالفضائل وتتطهر من الرذائل، والزكاة هنا يندرج فيها الإسلام وتوحيد الله تعالى. اهـ من (البحر المحيط). وتدبر الفرق بين قولك: هل لك في أن تزكى، وقوله تعالى ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾، فإن أداة الغاية «إلى» تُستعمل في الغاية الوشيكة والقريبة والمتوسطة والبعيدة، فتنبه الآية إلى أن طريق التزكية طريق متدرج بضوابط شـرعية ولكن يجب اجتناب التسـويف فيه. وقد ذهبت طائفة إلى جعل «إلى» مرتبطة بمضمون مقدر او محذوف تُستعمل معه «إلى»، وكأنه لا فرق بين: «إلى أن تزكى» و«في أن تزكى». وذلك كالقول بأنه لما كان المعنى دعوة فرعون جاز استعمال أداة الغاية لأنها تُستعمل مع مشتقاة الدعوة، ويكون المعنى: هل أدعوك إلى أن تزكى، ونقل ابن عادل هذا الرأي عن أبي البقاء رحمهما الله تعالى، وأراه تكلفاً، والله تعالى أعلم.

<u>وتقدم حديث أَبِي هُرَيْرَةَ</u>، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِّ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللهُّ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِّ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ » رواه البخاري وأحمد والبزار. ورواه الطبراني من طريق بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « إِنَّ الرَّجُلَ لِيُلْقِي الْكَلِمَةَ مِنْ رِضْوَانِ اللهِّ مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، فَيُكْتَبُ بِـهَا مِنْ أَهْلِ رِضْوَانِ اللهِّ إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيُلْقِي

الْكَلِمَةَ مِنْ سَـخَطِ اللهِّ مَا يُلْقِي لَهَا بَالًا فَيُكْتَبُ بِـهَا مِنْ أَهْلِ سَـخَطِهِ إِلَى يَوْمِ يَلْقَاهُ »، من (المعجم الأوسـط والصغير). فلا شك أن الكلمة التي تؤدي إلى عاقبة كبيرة جداً، لاشك أنها نقطة تحول كبيرة إلى درجة عالية في الجنة او إلى النار.

وقد تكون عاقبة الكلمة تابعة لحسـنها او لخبثها، ففي حسـن الكلمة قال تعـــالى ﴿ .... يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ المائدة: ٨٣ – ٨٥. وفي خبث الكلمة قال تعالى ﴿ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ التوبة: ٧٧.

وقد تكون عاقبة الكلمة تابعة لطول وصلاح أثرها، فقد قال تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٤ – ٢٥. وفي العموم في الآثار المسـتقبلية الصالحة والفاسـدة، قال تعـــالى ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ يس: ١٢.

فالمطلوب في التفكير الإستراتيجي، التفكير بعناية وبدون ارتجال لرسم أهداف مستقبلية كبيرة، بل أكبر بكثير من طاقتنا اليوم، ثم نفكر: ما هي الأعمال التي تمتد تدريجياً إلى الهدف المستقبلي، المباشرة منها وغير المباشرة، وما هي متطلباتها اليوم ومستقبلاً وما تحتاجه من تنمية المهارات والقُدُرات؟ وفي الطريق إلى الهدف، نُعِدُّ نقاط تحول تقربنا إلى الهدف الكبير وتُبْعِد العوائق. ونُصابِر حتى يصير الهدف ضمن قُدُراتنا.

ونُذكِّر مرة أُخرى بأن نقطة التحول الكبير ليست الحدث الحاسم وحده، ولكنها الحدث مع ما سبقه من سلسلة الأحداث المتتابعة او المتزامنة. ويقترن كل ذلك بعمليات الرصد والمكافحة لنقاط التحول التي يعمل العدو لأجلها، وغايته في هدم المجتمع والنمو.

وفي الغالب، تكون نقطة التحول نتيجة لمسار من العمل الجاد او نتيجة لعدد من العمليات المؤثرة. والإعداد لهذا المسار قد يحتاج إلى خبرات متعاونة. وبالجملة فإن وسائل بلوغ نقطة تحول حسنة تشمل:

- استمرار او تكرار عمليات ناجحة لتقوية الخير وتوهين الشر، لبلوغ نقطة تحول او عملية حاسمة، تؤدي إلى انهيار الشر وإلى هيمنة الخير.
- مهارات تحويل التصرف الصالح إلى ثقافة عامة.
- ملئ الفراغات التي يدخل منها الشر، لمنع الشر من إنشاء مسارات مضادة.
- ممارسة وظيفة الصياد الماهر، الذي لا ينتظر أن تظهر مشكلة او خرق للأداء، لأن ظهور الخرق في العلن يعني في كثير من الأحيان وجود خروق عديدة لم تظهر على السطح. فالصياد الماهر يلاحق الخروق ويراها وهي كامنة كي يتعامل معها، فبعض الخروق تُعالج برفق وهي كامنة. وأما الخروق الخبيثة فقد تُنصب لها كمائن كي تظهر على حقيقتها. وتدبر قوله تعالى ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ ص: ٢٠، ومن خصائص الملك الـمُشْتَد سلامته من الخروق. وقد ذكرنا وظيفة الصياد وغيره في (نخبة المسار)، وسيأتي بيانها باختصار إن شاء الله تعالى.
- رصد الفرص الصالحة وحُسْن استثمارها، فإن الفرص تقلل المسافات وتيسر بلوغ الغاية، وتُفَوِّت على العدو عمليات الإعاقة.
- مكافحة أسباب التراجع والإنحطاط، وقد ذكرنا جملة منها في كتبنا.

ومنهـــا: الحسنات المتعدية عبر الأجيال. ذكر الإمام ابن عبد السلام رحمه الله «الحسنات المتعدية» وهي التي يمتد أثرها إلى الآخرين. وأما الحسنات القاصرة فهي التي يقتصر أثرها على فاعلها.

يوضح الأمر قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٤ – ٢٥. في الآية الكريمة تمثيل لشجرة الكلمة الطيبة. **فتدبر عبارة**: ﴿ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾، فإنها كناية عن نمو في غاية الإمتداد إلى الأعلى، فإن السماء سقف كل شيء وكل بيت، كما في (العين) و(تهذيب اللغة) وغيرهما؛ والسماء كل عالٍ مُطِلٍّ كما في (مقاييس اللغة). وسقف الشجرة هي السماء الدنيا، وأما السحاب فهو سقف غير ثابت فلا يُحمل عليه. وينبه ذلك إلى أن نمو هذه الشجرة يمتد عبر زمن طويل وربما عبر الأجيال. يؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾، فإن الحين في العربية هو الوقت والقطعة من الزمان، طالت او قصرت، كما ذكر ابن فارس في (مقاييس اللغة) وبينه الأزهري في (تهذيب اللغة)، ونقل الأزهري عن الزجاج أنه قال: اختلفَ العلماءُ فِي تفسيرِ الحِين، فَقَالَ بَعضهم: كُلَّ سنة، وَقَالَ قوم: سِتَّة أَشْهُرٍ، وَقَالَ قوم: غدْوَة وَعَشِيَّة، وَقَالَ آخرُونَ: الحِينُ شهْرانِ، قَالَ: وجميعُ من شَاهَدْنَاهُ من أَهْلِ اللُّغة يذهبُ إِلَى أَنَّ الْحِين اسمٌ كالوقت يصلح لجَمِيع الأَزْمانِ كُلها، طالَتْ أَو قَصُرَت. قَالَ: وَالْمعْنَى فِي قَوْله: ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ ﴾، أَنه يُنتفعُ بهَا فِي كُل وقْتٍ لَا يَنْقَطِع نَفعُها الْبَتَّةَ، قَالَ: وَالدَّلِيل على أَن الْحِين بِمَنْزِلَة الْوَقْتِ قولُ النَّابِغَة وأنشده الْأَصْمَعِي: (تَنَاذَرَها الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمها .... تُطَلقُه حِيناً وحِيناً تُراجِعُ)، الْمعْنى أَن السُّمَّ يَخِفُّ أَلمه وقتاً وَيعود وقتا. اهـ. **وأما كلمة**: ﴿ أُكُلَهَا ﴾، الأُكُل هو الثمر او الـمُنْتَج المادي والمعنوي. فقد قال أبو إبراهيم

الفارابي: الأُكُلُ: المأْكولُ، والأُكُلُ: ثَمَر النَّخْلِ والشَّجَرِ، ويُقالُ: رَجلٌ ذُو أُكُلٍ: إِذا كانَ ذا رَأيٍ، وثَوْبٌ ذو أُكُلٍ: إِذا كان صَفيقاً. ويقال ظَلَّ مالي يؤكِّل ويشرِّبُ، أي يَرعَى كيفَ شاءَ. ويقالُ: أَكَّلتني ما لمْ آكُلْ، أي ادَّعيتهُ عليَّ. تآكَلَتِ الأَبْطالُ في الحرْبِ، أي: أَكَلَ بعضُهُمْ بعضاً. اهـ من مواضع متفرقة من (ديوان الأدب). وفي مادة «بخع» قال الأزهري: وَفِي حَدِيث عَائِشَة أَنَّهَا ذكرت عُمَر فَقَالَت: «بَخع الأرضَ فقاءت أُكُلَها»، أَي استَخرجَ مَا فِيهَا من الْكُنُوز وأموال الْمُلُوك. اهـ من (تهذيب اللغة). فالأُكُل هو الثمر او المُنتَج الصالح للإستعمال، سواء كان طعاماً او غيره، فقد قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ﴾ البقرة: ٢٧٥، وقال تعالى ﴿ .... حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ ﴾ آل عمران: ١٨٣ .

فلما كانت الشجرة في آية سورة إبراهيم ممتدة إلى السماء وكانت تؤتي أُكلها كل وقت بإذن ربها، فهي شجرة باقية بعد صاحبها، وحسناتها متعدية إلى الآخرين جيلاً بعد جيل.

ويتصل بذلك قوله تعالى ﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ الكهف: ٤٦، فتدبر معنى «الباقيات»، فأفضل الحسنات هي أوسعها أثراً وأطولها بقاءً. فهذا ما ينبغي للمؤمن العامل أن يفكر فيه ويبحث عن طرق لفعله في مجالات الحياة، كالأمور الإجتماعية او السياسية او القانونية او غيرها.

ومن أعظم الإمتداد عبر الأجيال ومما تشمله الباقيات الصالحات هو الإهتمام بالأجيال القادمة. قال تعالى ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ مريم: ٥٩، فلا شك أن من أهم أسباب الخلف السيء هو إهمال الآباء والأُمهات والمؤسسات التعليمية والمنابر التثقيفية والإعلامية. وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ الحشر: ١٨، تقدم في تفسير الآية أن الغد هو كناية عن المستقبل، فعلى كل مؤمن أن ينظر ما قدم للمستقبل ومنه تأهيل الجيل الجديد. وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُم مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » رواه مسلم والبخاري وأحمد وأبو داود والترمذي.

ومنهـــا: الآثار المتراكمة او المتزايدة، فإن كثيراً من المنافع والمضار تقبل التراكم والإمتداد البطيء، فلا يظهر أثرها إلا بعد زمن. مثال المنافع، التغذية الجيدة وأثرها في التقليل من الإصابة ببعض الأمراض، ومثال المضار التدخين (السجائر) وأثرها في التسبب بأمراض الرئة وغيرها، وقد لا تظهر هذه الأمراض إلا بعد سنين طويلة من التدخين.

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ ، قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ:« لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ » رواه مسلم وغيره. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ » رواه أحمد وابن حبان وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط. وعن سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ. » رواه الإمام أحمد وصححه الألباني. وفي المثل: تكون النار من مُستصغر الشرر.

ومن روائع كلام السلف، قول بعضهم: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها. قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾

محمد: ١٧، وقال تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ البقرة: ١٠. فلابد من سياسة ملئ المجتمع بالحسنات على تفاوت درجاتها، وكذلك مكافحة السيئات صغيرها وكبيرها، فرب حسنة في عائلة تنتج بطلاً يقود الأمة. ولا ريب أن جملة كبيرة من حسنات المجتمع تمتد إلى الجيل القادم وعبر الأجيال.

وينبغي التذكير بأن الأولويات العالية يجب أن تأخذ نصيبها من الإهتمام، فلا يصح أن نقصر فيها بسبب الإشتغال بغيرها، وقد بينا سبيل ذلك في الكلام عن «الأولويات» في (نخبة المسار).

وبقي التنبيه إلى أن بناء الوعي والمهارات الفكرية والتحلي بأخلاق البناء والتفوق، يُعَدُّ من ضروريات النهوض وتحقيق الأولويات.

ومنها: مكافحة الركود، او تأسيس المغالبة والتحسين المستمر. فإن الركود معناه البقاء في القعر والسماح للآخرين بأن يصيروا فوقك. ولا يختار الإنسان الركود إلا إذا كان خاملاً جداً او كان غارقاً في الملاهي والشهوات فلا تخطر على باله الإلتزامات الضرورية. ولذلك قيل إن الفكر الراكد كالماء الراكد، مُعرض للآفات. ونصوص القرآن متظاهرة في بيان هذا الأصل.

ويجب أن تكون الرؤية المستقبلية ممارسة واسعة وهادفة، لأن التغيرات في العالم أصبحت كثيرة جداً وسريعة جداً، ولن يلحقها من لا يمسح العالم في تطوراته، ولا من لا يمارس المغالبة والإستشراف بصورة مستمرة.

فمن مكافحة الركود **قوله تعالى**: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ الرعد: ١١، وقد تقدم تفسير الآية تحت عنوان: «الإستشراف المستقبلي».

ومن التحذير من أسباب الركود، **قوله تعالى**: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ الأعراف: ٩٥، فمن فوائد الآية: **(الفائدة الأولى)**: مقدمة تفسيرية. السيئة هنا الشدة وما شابه فإن السيئة تستعمل في كل ما يسوء صاحبه، والحسنة هنا الرخاء وتحصيل الرغبات المباحة فإن الشئ الحسن هو المبهج المرغوب فيه من المباحات. وتدبر عبارة ﴿ حَتَّىٰ عَفَوا۟ ﴾، فإن الأصل او الغالب في استعمال «عفا» أنه بمعنى الترك او المحو او الإزالة. قال ابن الأثير: فِي أَسْمَاءِ اللهَّ تَعَالَى «العَفُوّ» هُوَ فَعُول، مِنَ العَفْو وَهُوَ التَّجاوزُ عَنِ الذَّنْب وتركُ العِقَاب عَلَيْهِ، وَمِنْهُ قولُهم: عَفَتِ الريحُ الأَثَر، إِذَا طَمَسَته وَمَحَتْه. فالعَفْو: مَحْوُ الذُّنوب. اهـ من (النهاية). وكذلك ذهب ابن فارس وابن منظور أن أصل هذا اللفظ المحو والطمس. يُقال: هذه أرضٌ عَفْو: ليس فيها أَثَر فلم تُرعَ. وطعامٌ عَفْو: لم يَمَسَّه قبلَك أحد. وعفت الرِّيَاح الْآثَار إِذا درستها ومحتها. وَعَافَاهُ اللهُ مَحَا عَنْهُ الْأَسْقَامَ، وَالْعَافِيَةُ اسْمٌ مِنْهُ. وقد تدل كلمة «عفا» على نوع من الكثرة، غير أنها في الغالب كثرة بسبب الترك او المحو؛ **قال ابن فارس**: وَقَوْلُ الْقَائِلِ: عَفَا، دَرَسَ، وَعَفَا: كَثُرَ - وَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ - لَيْسَ بِشَيْءٍ، إِنَّمَا الْمَعْنَى مَا ذَكَرْنَاهُ، فَإِذَا تُرِكَ وَلَمْ يُتَعَهَّدْ حَتَّى خَفِيَ عَلَى مَرِّ الدَّهْرِ فَقَدْ عَفَا، وَإِذَا تُرِكَ فَلَمْ يُقْطَعْ وَلَمْ يُجَزْ فَقَدْ عَفَا. وَالْأَصْلُ فِيهِ كُلِّهِ التَّرْكُ كَمَا ذَكَرْنَاهُ. يُقَالُ نَاقَةٌ ذَاتُ عِفَاءٍ، أَيْ كَثِيرَةُ الْوَبَرِ طَوِيلَتُهُ. وَسُمِّيَ عِفَاءً لِأَنَهُ تُرِكَ مِنَ الْمَرْطِ وَالْجَزِّ. وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ كُلُّهُمْ: يُقَالُ مِنَ الشَّعْرِ عَفَوْتُهُ وَعَفَيْتُهُ، وَذَلِكَ إِذَا تَرَكْتَهُ حَتَّى يَكْثُرَ وَيَطُولَ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة). وقال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ البقرة: ٢١٩، «العفو» هنا هو ما كان تركه أسهل عليهم، وأما من زعم أنه أفضل المال وأجوده فقد أخطأ، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ في حكم الزكاة: « وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أموال الناس » رواه الإمام البخاري وابن حبان والدارقطني وغيرهم. **(الفائدة الثانية)**:

واضح أن عبارة «عفوا» في سياق الآية هي ما آلت إليه الأمور بعد حصول الحسنة، غير أن هذا المآل كان سبباً في أخذهم بغتة، فلا شك أن كثرة الحسنات الدنيوية اقترنت بمعايب كبيرة يستلزمها او تتضمنها عبارة ﴿ حَتَّىٰ عَفَوا ﴾. فالأقرب والله تعالى أعلم، أنه لما كان أصل العفو هو الترك والتجاوز واستسهال الأمور، فإن معنى عبارة ﴿ حَتَّىٰ عَفَوا ﴾، أن كثرة الإنغماس في التنعم بالمباحات جعلهم يتركون تدابير آبائهم في مواجهة السراء والضراء، ويتركون التحسين والمغالبة ومكافحة الركود والإعداد للمستقبل إنْ جاءهم ما أصاب آباءهم من قبل، فالعفوية غلبت التدبير والتخطيط في سلوكهم، فكانت العاقبة: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾. وهذا قريب من قوله تعالى ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الذاريات: ١٠ – ١١، يُقال: مَاء غَمْر أي كثير مُغرق، وقد غَمَرَه الماء يَغْمُرُهُ أي علاه، فهؤلاء قد غمرتهم الملذات والملاهي فأنستهم الحق، وأولئك في آية الأعراف انغمسوا في الملذات والمحاسن الدنيوية حتى عفوا، أي تركوا متاعب التفكير بالحذر والإعداد والوقاية، فصارت تصرفاتهم تلقائية ومبنية على استسهال الأمور. وذلك أن فترة السلم والرخاء قد تُشغل الناس بالإنغماس في اللذات والملاهي، بل باختراع وسائل جديدة لزيادة اللذة والراحة، وقد تُترك وتُهمل أخلاق المجد والقوة كالتنمية والإعداد والمغالبة والحذر والتأهب ونحوها. وذلك أن العفوية أُخت المجازفة والتشتيت وهي نقيض التخطيط والإعداد والتدبير، لأن أي عمل مركب من أجزاء ويتعلق بحال او وقت او غير ذلك فإنك إذا فعلته بعفوية فإنك تجازف بتشتيت الترتيب في تركيبه وبفصله عن متعلقاته. وتوجد تفاصيل أُخرى مهمة ذكرناها في تفسير الآية في (المنطلق).

وقريب من ذلك أي مكافحة أسباب الركود، **قوله تعالى**: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا

هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ الأنعام: ٤٤، أي فلما تركوا ما ذُكِّروا به فتح الله تعالى عليهم خيرات الدنيا حتى إذا فرحوا بها ظانين أنها تكفيهم للبقاء أي الإمتداد إلى المستقبل، أخذهم الله بغتة لأن الإسراف في الرخاء يُنسـي متطلبات البقاء والإمتداد.

وقريب من ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ الإسراء: ١٦، أي أمرناهم بالطاعة ففسقوا بالعصيان، وإنما يكون ذلك حين ينتشـر فسـق المترفين ويمتد في القرية، أي حين يكون المترفون هم القادة او هم أصحاب النفوذ ولا رادع لهم من القادة. يؤيـد ذلك قول الإمام القرطبي: قَرَأَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيُّ وَأَبُو رَجَاءٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَالرَّبِيعُ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ: «أَمَّرْنَا» بِالتَّشْدِيدِ (أي بتشديد الميم)، وَهِيَ قِرَاءَةُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَيْ سَلَّطْنَا شِرَارهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ. اهـ من (تفسير القرطبي). والترف ليس مرادفاً للغِنى، فإن الترف هو التوسع في التنعم المادي، إذا كانت لذة او شهوة هذا التنعم هي التي تسوق الإنسان في مجمل تصرفاته.

وفي ذلك تنبيه إلى أن الترف في النعم يسوق إلى الفسق والإجرام، فإنها عاقبة جعل القيادة للهوى والشهوة؛ وقد قال تعالى ﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴾ النساء: ٢٧ ؛ وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ سبأ: ٣٤. وأما تدميرهم كما في آية الإسراء فيمكن أن يكون بإضلالهم عن متطلبات البقاء والإمتداد.

وفي تأسيس المغالبة والتحسين المستمر، أي نقيض الركود، **قوله تعالى**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ آل عمران: ٢٠٠، وقوله تعالى ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ البقرة: ١٤٨، وقوله

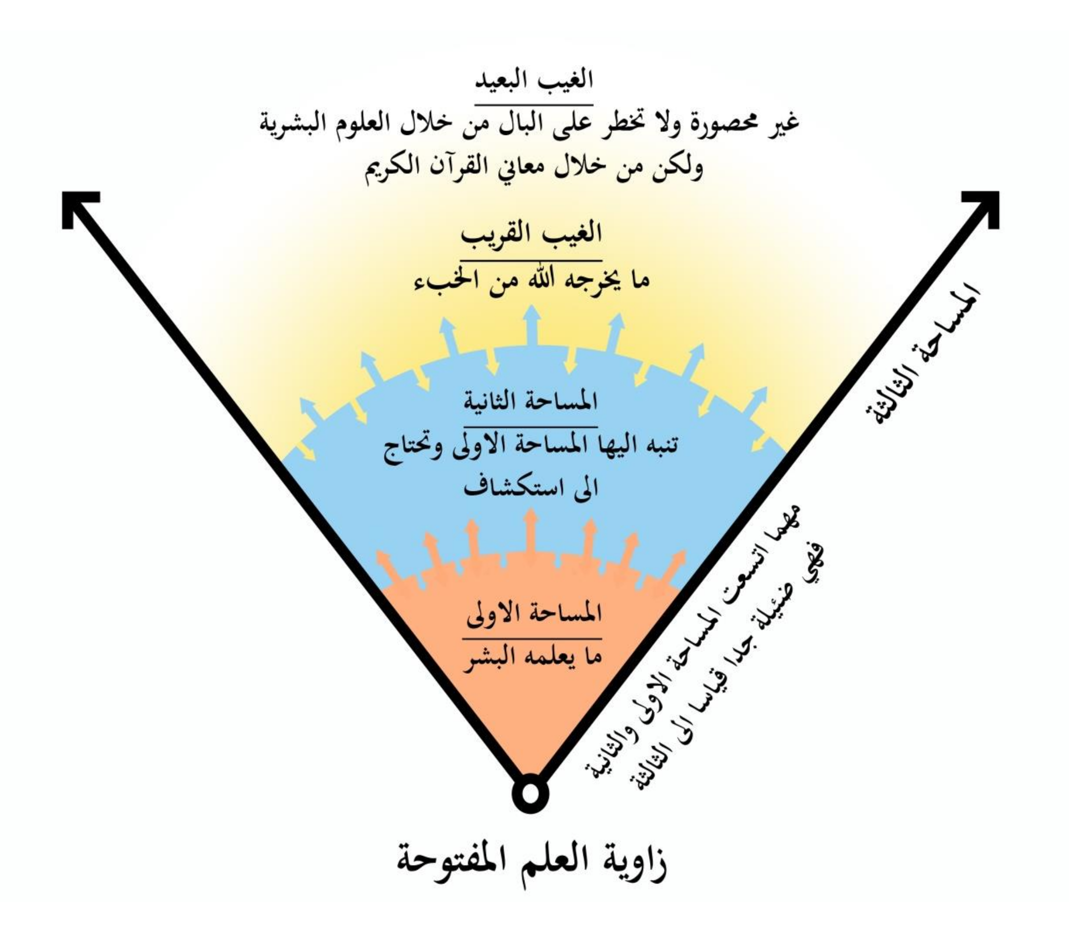
تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ الملك: ٢.
وقد سبق تفسير هذه الآيات في الكلام عن «التركيز»، وذكرناه بمزيد من التفصيل في (المنطلق).

ومنهـــا: جودة توقع صورة تفصيلية احتمالية للمستقبل الممتد من الماضي. وهذا جوهر رسم الأهداف المستقبلية الناجحة والتخطيط لتحقيقها. وقد سبق بيان ذلك في المبحث الثالث (الفائدة الثانية من تفسير آية الدخول إلى البيوت).

مسـاحات العلم:

قال تعالى ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء: ٨٥، فمهما بلغ البشر في العلم فهو في غاية القلة بالقياس إلى المكنون في كتاب الله تعالى وفي الكون. وتدبر أيضاً ذم من ينكر كل جديد ، كما ينبه إليه نحو قوله تعـــالى ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ ص: ٧.

ويمكن إيضاح تطور العلم والإزدياد منه عبر الأزمان، برسم مساحات متتابعة، يحصل بينها نوع من التداخل:



فيمكن التمثيل لمساحات العلم بزاوية ممتدة الذراعين إلى الأعلى (مثلث مفتوح)، **(فالمساحة الأولى)**: هي مساحة صغيرة في أسفل الزاوية وتمثل ما يعلمه البشر. ويوجد فوقها: **(المساحة الثانية)**: هي أكبر منها بكثير ولكنها محدودة جداً أيضاً، وهي تمثل ما يمكن أن يمتلك البشر بعض المؤشرات إليه ولكنهم يجهلون التفاصيل والحقائق، أي هي المساحة التي نجهل تفاصيلها ولكن يمكن أن نكتشف من المساحة الأولى ما يمتد إلى المساحة الثانية. وما نكتشفه من المساحة الثانية إنما هو امتداد من الأولى ويُحسب عليها، وبذلك تتسع المساحة الأولى تدريجياً. وأيضاً، فإن ما نكتشفه من المساحة الثانية فإن له

امتداداً إلى الجزء القريب من المساحة الثالثة، ويمكن اكتشاف هذا الإمتداد بصورة مجملة كي يصبح جزءاً من المساحة الثانية. وبتعبير آخر، فإن المساحة الثانية غيب إلا حين يمتد إليها بعض ما نعلمه في المساحة الأولى فينزل به إلى الأولى، ويحل محله في الثانية ما يتصل به من أسفل المساحة الثالثة. وهكذا تتسع تدريجياً المساحتان الأولى والثانية، ومن غير أن يظهر أي نقص في الثالثة لأنها في غاية الإتساع. **(المساحة الثالثة)**: فوق المساحة الثانية وممتدة إلى بُعد غير منظور من قِبَل البشر فهي كبيرة جداً. وبصورة إجمالية، فإن لهذه المساحة طبقتين، **الطبقة الأولى**: هي أسفل المساحة الثالثة أي الطبقة المحدودة الملاصقة للمساحة الثانية. والشواهد القطعية في البحوث والإستكشاف متظاهرة على أنك حين تكتشف شيئاً جديداً كان كامناً في المساحة الثانية، فإنك ترى في مسار الإكتشاف مجاهِل كثيرة تحتاج إلى استكشاف، وبعض هذه المجاهيل لها امتداد إلى أسفل المساحة الثالثة، أي إلى الطبقة الملاصقة للمساحة الثانية. معنى ذلك أن المساحة الثانية والطبقة الأولى من الثالثة تتضمن ما يخرجه الله من الخبء ويمكن البحث لإلتقاطه، ويمكن تسميته بـ: «الغيب القريب» الذي يمكن اكتشافه بدراسة ما يمتد إليه من المساحتين تحته. وقد استعمل ابن عاشور عبارة «أُمُورِ الشَّهَادَةِ الْغَامِضَةِ»، قال ابن عاشور: «ومفاتح الغيب جَمْع مضاف يعمّ كلّ المغيّبات، لأنّ علمها كلّها خاصّ به تعالى، وأمّا الأمور التي لها أمارات مثل أمارات الأنواء وعلامات الأمراض عند الطبيب فتلك ليْست من الغيب بل من أمور الشهادة الغامضة. وغمُوضُها متفاوت والناس في التوصّل إليْها متفاوتون ومعرفتهم بها من قبيل الظنّ لا من قبيل اليقين فلا تسمّى عِلماً» اهـ من (تفسير ابن عاشور/ الأنعام ٥٩). **الطبقة الثانية**: هي المساحة الكبرى فوق الطبقة الأولى والممتدة إلى ما لا يعلمه إلا الله تعالى، ولا نمتلك من المعطيات البشرية ما يُمكِننا من الدخول للإستكشاف في هذه الطبقة، ولكن يمكن عن طريق معاني القرآن الكريم أن ندخل فيها لغرض الإسكتشاف. وبعبارة أُخرى، فإن المعطيات الإلهيّة، أي الآيات والأحاديث،

تتضمن نقاط إنطلاق إلى المساحات كلها وتفتح باب التفوق في كل مجال، ينبه إلى ذلك قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ النمل: ٤٠. ويجري على هذا المعنى تفسير بعض السلف لقوله تعـــالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ الرعد: ٣١، فعلى تقدير أن «لو» في الآية شرطية فإن جوابها محذوف، فيحتمل أن يكون التقدير: ولو أن قرآناً فُعل به ذلك لكان هذا القرآن، ويمكن أيضاً أن تكون «لو» هنا للعرض، وقد ذكرنا تفسيراً مفصلاً للآية في (وجهة اللواء). وواضح أن الذي لا يمارس عمليات التغيير ولا يندفع إلى الأعلى في هذه المساحات، فإنه يبقى في قعر زاوية العلم ويندفع الآخرون فوقه. ولذلك قالوا إن على العالم أن يحافظ على صفة التلميذ ويحافظ كذلك على روح المغالبة. وواضح أن التحول بين المساحات يكون بحسب ما يكتشفه البشر من الإمتدادات القريبة. وأما من يريد أن يدخل الغيب من مكان بعيد، فقد قال تعالى ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾ سبأ: ٥٣ - ٥٤، هذا حكم الإجتهاد البشري المحض. وأما معاني القرآن الكريم فيمكن أن تدخل المساحات كلها وتُـحدث تَـفَوُّقاً نوعياً.

يوضح الحركة بين المساحات أنه حين يكتشف علماء الطبيعة ونحوهم شيئاً معيناً في الطب وغيره، فإن مسـار الإكتشـاف يدلهم على مجاهل كثيرة جداً هي في حكم الغيب القريب، بعضها يبدو متفرعاً من المسار، وبعضها يمتد إلى الأعلى. وبعبارة مختصرة أن كل اكتشاف كبير تتصل به أسئلة كثيرة لا يُعرف الجواب عنها. ولذلك يذهب الباحثون إلى

أن نهاية البحث الإستكشافي الجيد ليست مغلقة، بل محاطة بالمجاهل التي يمكن الإجتهاد في استكشافها.

ومن المهم في مساحات العلم، هو التسارع الشديد في التوسع العلمي خلال العقود الماضية. وقد ذكرنا أن الإكتشاف الجديد ينبه إلى مجاهل كثيرة يمكن الإجتهاد في استكشافها مما يؤدي إلى مضاعفات كثيرة في التوسع. وقد أدى ذلك إلى زيادة كبيرة جداً في المساحتين الأولى والثانية. ويقتضي هذا التسارع أمرين، **الأمر الأول**: أن تكون مهارات الرؤية المستقبلية منهجاً راسخاً في كل مؤسسة وأن تكون في متناول كل متعلم وكأنها أدب شعبي. **الأمر الثاني**: لما كانت المغالبة والمنافسة منهجاً ضرورياً للمحافظة على الذات واجتناب التراجع، فإن تسارع عمليات التغيير والتطوير توجب أن تتضمن المغالبة مسحاً عالمياً لمعرفة أين وصل الآخرون؟ وبخلاف هذين الأمرين فإن النتيجة هي الإنحطاط وتنمية التخلف.

مفاتح الغيب:

قال تبارك وتعالى ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ الأنعام: ٥٩. قال الأزهري: وَيُقَال للَّذي يُفْتَح بِهِ المِغْلاَق مِفتح بِكَسْر الْمِيم ومِفتاح وجمْعُها مَفَاتِح ومفَاتيح، وَهَذَا قَول النَّحْوِيين. اهـ من (تهذيب اللغة). وقال ابن سيده: والمِفْتَحُ والمِفْتاحُ: مَا فُتِحَ بِهِ الشَّيْء. اهـ من (المحكم). وقال ابن فارس: الْفَاءُ وَالتَّاءُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْإِغْلَاقِ. اهـ من (معجم المقاييس).

والمفاتح ليست محصورة بالآلات المعدنية التي تفتح الصناديق المعدنية وشبهها، بل تشمل أيضاً أفعال الإدارة والتدبير التي تفتح الصعاب وتُمَكِّن مما كان متعذراً، وتشمل أيضاً قُدُرات الله تعالى التي يدبر بها الخلْق.

ومنه نحو قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ الأنعام: ٤٤، وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الأعراف: ٩٦، وقوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ الشعراء: ١١٧ – ١١٨، ويتصل به قوله تعالى ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ القمر: ١١ – ١٤، وقوله تعالى ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فاطر: ٢.

وقال ابن الأثير: وَفِيهِ « أوتيتُ مَفَاتِيح الكَلِم »، وَفِي رِوَايَةٍ « مَفَاتِح الكَلم »، هُمَا جَمْعُ مِفْتَاح ومِفْتَح، وَهُمَا فِي الأَصْلِ: كلُّ مَا يُتَوَصَّل بِهِ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمُغْلَقات الَّتِي يَتَعذَّر الوُصُول إِلَيْهَا، فأَخْبر أَنهُ أوتيَ مَفَاتِيح الكَلم، وَهُوَ مَا يَسَّر اللهُّ لَهُ مِنَ البَلاغة وَالْفَصَاحَةِ والوُصول إِلَى غَوَامِضِ الْمَعَانِي، وَبَدَائِعِ الحِكَم، ومَحَاسِن الْعِبَارَاتِ وَالْأَلْفَاظِ الَّتِي أُغْلِقَت عَلَى غَيْرِهِ وتَعذَّرت. ومَن كَانَ فِي يَده مَفَاتِيح شَيْءٍ مَخْزُون سَهُلَ عَلَيْهِ الْوُصُولُ إِلَيْهِ. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ « أوتِيتُ مَفَاتِيح خَزَائِنِ الْأَرْضِ »، أَرَادَ مَا سَهَّل اللهُّ لَهُ ولأمته مِنَ افْتِتَاح البِلاد الْمُتَعَذِّرات، واسْتِخْراج الكُنوز الْمُمْتَنِعات. وَفِيهِ «أَنَّهُ كَانَ يَسْتَفْتِحُ بِصَعاليك الْمُهاجرين»

أَيْ يَسْتَنْصِرُ بِـهِمْ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَــالَى ﴿ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ ﴾ الأنفال: ١٩. اهـ من (النهاية في غريب الحديث).

وعلى ذلك فإن مشتقات «فتَح» تُستعمل في فتح المغاليق المادية والمعنوية، وبصرف النظر عن القُدُرات والوسائل. والشواهد كثيرة في القرآن الكريم وفي العربية. فمن فتح المغاليق المادية المحدودة قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ ﴾ يوسف: ٦٥، وقوله تعالى ﴿ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ ﴾ النور: ٦١. ومن مفاتح القدرات والتدبير ما ذكرناه من آيات. ومن مفاتيح المعاني والأعمال، مفاتيح الكلام كما في حديث أَبِي هُرَيْـرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ البَارِحَةَ إِذْ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ حَتَّى وُضِعَتْ فِي يَدِي » رواه البخاري وغيره.

وعلى ذلك، فإن مفاتح الغيب هي القُدُرات الربانية التي تتحكم في خزائن الغيب وما يقتضيه ذلك من قَدَر على العباد، نحو قوله تعالى ﴿ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴾، وسائر الآيات المذكورة قبل قليل. وهذا في المعنى، كقوله تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ الحجر: ٢١.

فقوله تعالى ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾، ليس معناه أن الإنسان لا يستطيع أن يتقرب إلى الغيب القريب أي ما يُخرجه الله من الخبء، والوصول إلى بعض معانيه بالبحث، كما ذكرناه قبل قليل في مساحات العلم. ولكن المعنى أن معرفة مفاتيح أي إدارة او تدبير الغيب او تدبير نظام عالَم الغيب، ليس هو بيد البشر من قريب ولا بعيد، بل هو خالص لله تعالى. وبعبارة أُخرى أن الغيب ليس عالَماً بلا نظام، بل هو خزائن عظيمة تعمل بنظام رباني، ولذلك كان المفتاح كناية عن إدارة نظامها. ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا

نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ الكهف: ٢٣ - ٢٤، واضح أنه يصح لك أن تقول: «سأفعل ذلك غداً» وهو غيب ولكن بشرط التعليق على مشيئة الله تعالى. ثم بعد وقوع الغيب وتحوله إلى حضور وشهادة يكون دور الإنسان في التعامل مع الأحداث. وقد نبهت عبارة المعجم الإشتقاقي إلى ذلك، قال الدكتور محمد حسن حسن جبل: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾، أي عِلمُ اللهَّ بجميع الأمور الغيبية، واستعار للقدرة عليها المفاتح. اهـ من (المعجم الإشتقاقي المؤصل).

وبهذا النظر يمكن تأويل قوله تعالى ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ ﴾ القصص: ٧٦، فالمفاتح هنا لا يلزم أن تكون المفاتيح المعدنية التي تفتح أبواب الخشب والحديد. ولكن يمكن أن تكون الإدارة او التدابير التي توصل إلى الحال المالي بالتفصيل، كعمليات الإستيفاء وإدارة تنمية الأموال وحسابات الربح والخسارة ومتابعة ذلك في مختلف اتجاهات العمل المالي. فإدارة تلك الأموال هي مفاتِح أموال قارون؛ وهي لكثرتها وتشعبها تُتعب عصبة قوية من خبراء الإقتصاد او إدارة الأموال، والله تعالى أعلم.

آية سورة الجن:

قال تعالى ﴿ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ الجن: ٢٥ – ٢٨.

قوله تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾، كلام يفسر ما قبله من تدبير توقيت اليوم الموعود، فلا يُظهر الله على تدبيره للغيب أحداً إلا من .... وعلى تقدير

أنه استثناء متصل كما هو قول أكثر المفسرين، فقد ذهبت طائفة إلى تخصيص عبارة ﴿ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾، بغيب دون غيب، كالإمام الرازي والبيضاوي والماتريدي، ويحتمله كلام آخرين؛ ويجوز في الإستثاء المتصل أن يكون فقط من بعض مضامين المستثنى منه، كقولك: تجولت في المدرسة إلا غرفةَ المدير. فيكون الإستثناء لجزئية محدودة من مضامين المستثنى منه.

ويوجد وجه آخر في الأعراب، قال السمين الحلبي: قوله: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾: يجوزُ أَنْ يكونَ منقطعاً أي: لكن مَنْ ارتضاه فإنه يُظْهِرُه على ما يشاءُ مِنْ غَيْبِه بالوَحْيِ. وقولُه: ﴿ مِن رَّسُولٍ ﴾، بيانٌ للمُرْتَضِيْنَ. وقوله: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ ﴾، بيانٌ لذلك. وقيل: هو متصلٌ. اهـ من (الدر المصون). وقال ابن عادل في تفسيره (اللباب) بمثل قول السمين الحلبي.

ووجه آخر في المعنى، أن معنى عبارة ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... ﴾، أن الله تعالى لا يُظهر على غيبه أحداً، أي لا يوحي إليهم بمضامين الغيب إلا من ارتضى من رسول؛ وأما غير الرسل فلا يوحَى إليهم بالغيب ولكن عليهم استكشاف ما يُخرجه الله من الخبء (أي الغيب القريب). وذلك على نحو قوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ آل عمران: ١٧٩، المعنى: أن الله تعالى لا يطلع الصحابة على الغيب، أي على ضمائر المنافقين، ولكن الإختبار والإبتلاء يُظهر ما في الضمائر وينهي حالة الغيب فيها، وقد تقدم تفسير الآية.

وواضح بعد كل ذلك أنه لا تعارض بين آية مفاتح الغيب وآية سورة الجن من جهة، وما ذكرناه من التقاط ما يُخرجه الله من الغيب القريب والعمل على استكشافه من جهة

أُخرى؛ وكذلك الأمر مع اختراق معاني القرآن الكريم للغيب، فهذا كله إنما هو التقاط لمعلومة بما ييسره الله لنا من فهم القرآن ومن كشف ما يمتد إلى ما يخرجه الله من الخبء (أي من الغيب القريب)، ولا شأن له بحال من الأحوال بمفاتح الغيب (أي بإدارة وتدبير أمور الغيب)، فهذا خاص بالله تعالى؛ والله تعالى أعلم.

الإيمان بالغيب:

قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ البقرة: ٢ – ٣ . فمن خصائص المتقين الإيمان بالغيب، أي بوجود الغيب، وهو مقادير هائلة من الأمور الخارجة عن الحضور والمشاهدة. ويشمل ذلك نوعين، **(النوع الأول)**: ما أخبرنا الله تعالى عنه من أنباء الغيب كالجنة وجهنم وقصص الأنبياء وغير ذلك، فهذا كله يجب الإيمان بوجوده. وإنْ تضمن معان تكليفية فيجب الإلتزام بها وفقاً لرتبتها التكليفية. **(النوع الثاني)**: الغيوب الكثيرة التي نجهل أمرها، فواجب المصابرة والمغالبة يوجب البحث عما يُخرِجه الله من الخبء، وفقاً لما ذكرناه في مساحات العلم، والله تعالى أعلم وله الحمد الكثير.

الإحتجاج
وميزان الأفكار

أما الحجة:

فهي الدلالة التي تُستعمل لتأييد الدعوى او لدفع دعوى الخصم. وبعبارة أُخرى، فإن الحُجّة هي الدليل الَّذِي يُراد بِهِ تأييد أمر معين او يُراد به الظفر عِنْد الْخُصُومَة. ولذلك قال ابن سيده: والحجة ما دوفع به الخصم، والجمع حُجج وحجاج. اهـ من (المحكم). وقال

ابن منظور: وَجَمْعُ الحُجَّةِ: حُجَجٌ وحِجاجٌ. وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجاً: نَازَعَهُ الحُجَّةَ. وحَجَّه يَحُجُّه حَجّاً: غَلَبَهُ عَلَى حُجَّتِه. وَفِي الْحَدِيثِ: « فَحَجَّ آدمُ مُوسَى »، أَي غَلَبَه بالحُجَّة. واحْتَجَّ بالشيءِ: اتَّخَذَهُ حُجَّة. اهـ من (لسان العرب).

وهذا التعريف يتناول الحجة الصحيحة والفاسدة، فالحجة الصحيحة كقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ الأنعام: ٨٣. والحجة الفاسدة نحو حجج المبطلين التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الشورى: ١٦، وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الجاثية: ٢٥.

والمشهور في كلام أهل العلم يوافق ما ذكرناه من تقسيم الحجج إلى صحيح وفاسد، لأنه يكثر في كلامهم وصف حجة معينة بأنها صحيحة، ووصف أخرى بأنها فاسدة او ضعيفة. وأما الاحتجاج، فهو استعمال الحجة كما ذكرناه في الاستدلال.

ويظهر من ذلك أن تفسير الحجة بالبرهان خطأ وقع فيه بعض أهل العلم، وذلك لأن البرهان لا يستعمل إلا في الصحيح من الحجج.

وقد ذكرنا جملة من قضايا الإحتجاج في (المنهج الفريد) وفي (تمكين الباحث).

الحجة البالغة لله تعالى:

قال تعالى ﴿ ..... قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ الأنعام: ١٤٨ - ١٤٩. حجة الله على خلقه هو القرآن او الوحي المنزل، كما يدل عليه نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ﴾ الأنبياء: ٤٥، ولفظ «**البالغة**» يجمع معنيين،

المعنى الأول: أنها الحجة التي تبلغ أي تصل وتحقق هدفها في هداية من في قلبه إيمان وفي إقامة الحجة على الآخرين. وعلى هذا المعنى قول الطبري وغيره. **المعنى الثاني**: أنها بالغة في ذاتها أي الحجة التي بلغت غاية القوة والوضوح في الإحتجاج بها وفي تأثيرها على القلوب غير القاسية، فإن القلب القاسي هو الذي لا يتأثر بالمؤثرات القيمة، ولكن بالشـهوات ونحوها. وعلى أصل هذا المعنى قول البيضاوي وغيره.

وقال تعالى ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ الأنبياء: ١٠. الذكر هنا اسم للأمر الذي ينبغي التذكر به، وتدبر الإضافة في «ذكركم»، فهو الذكر الذي قدَّره لكم الله الذي خلقكم ويعلم ما يناسبكم، فينبغي أن تشعروا أنه ذكركم إن كنتم تعقلون، وكأن المعنى: أفلا تعقلون أنه ذكركم؟ ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ المؤمنون: ٧١. والله تعالى أعلم.

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ العنكبوت: ٥١. فإن فيما أنزل عليهم من الكتاب كفاية لمن كانت همته الاسترشاد والإنصاف، وأما من كانت همته العناد والمكابرة فلا، كما هي عبارة الماتريدي.

وقال تعـالى ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ التوبة: ٦. قال عبد الكريم الخطيب: ففى غير ميدان القتال، وفى حال السّلم، قد يرى بعض المشركين أن يلتقى بالنبيّ ﷺ، ليعرف الدعوة الإسلامية، وليعرض على عقله وقلبه ما يدعو إليه الإسلام، وذلك حقّ له، يجب ألّا يحرم منه.. ليكون إيمانه على علم، وفى غير إكراه.. ولهذا أمر الله سبحانه النبىّ الكريم أن يستجيب لدعوة من يدعوه إلى طلب الأمان فى جواره، وذلك حتى يسمع كلام الله،

أي حتى يسمع ما نزل على النبي من قرآن يقرر أصول الإسلام، وأحكام شريعته، ثم إن لهذا المستأمن أن يطلب النّظرة إلى الوقت الذي يسمح له بالنظر والتدبر فيما سمع من كلام الله، وأن يجاب إلى هذا، حتى ينقطع عذره، وتقوم عليه الحجة. اهـ من (التفسير القرآني للقرآن).

وتدبر صيغة الحصر في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ الأنبياء: ٤٥، وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ يس: ١١، وفي قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ النمل: ٨١.

ويؤكد ذلك قوله تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ الجاثية: ٦ – ٨ ، فتدبر عبارة ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وتدبر الشرط الذي يستوعب الزمان والمكان ويتضمن الحصر في قوله تبارك وتعالى ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِيۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ سبأ: ٥٠.

وتدبر أن العلامات التي تهدي إلى الله يفهمها من في قلبه إيمان، قال تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ الحجر: ٧٢ – ٧٧.

وقال تعالى ﴿ ..... جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ إبراهيم: ٩ – ١٠، فتدبر عبارة ﴿ ... أَفِي اللَّهِ شَكٌّ .. ﴾.

وتدبر التحديات في قوله تعالى ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ .... ﴾ الطور: ٢٩ – ٣٥.

وقال تعالى ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ الواقعة: ٦٢، أي النشأة الأُولى في خلقكم من نطفة ولم تكونوا شيئاً، او النشأة الأولى في خلق أبيكم آدم من طين؛ أَيْ فَهَلَّا تَذَكَّرُونَ أيها الناس، فتعلموا أن الذي أنشأكم النشأة الأولى، ولم تكونوا شيئاً، لا يتعذّر عليه أن يعيدكم أحياءً من بعد مماتكم وفنائكم. وقال القرطبي: وَفِي الْخَبَرِ: عَجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ لِلْمُكَذِّبِ بِالنَّشْأَةِ الْأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولَى، وَعَجَبًا لِلْمُصَدِّقِ بِالنَّشْأَةِ الْآخِرَةِ وَهُوَ لَا يَسْعَى لِدَارِ الْقَرَارِ. اهـ.

يؤكد كل ذلك أن منشأ عدم الإستجابة للدعوة النبوية في عهد النبوة هو الهوى على سبيل الحصر، قال تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ القصص: ٥٠، وكذلك الأمر بعد عهد النبوية بشرط إتقان الدعوة.

وينبغي أن يقترن تبليغ الوحي ببيان (أي بشـرح) موجز وبحسب ما يقتضى المقام، فقد قال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل: ٤٤، وقال تعـالى ﴿ .... قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ الطلاق: ١٠ – ١١، وقد صحت قراءة «مبينات» بفتح الياء وبكسرها.

النهي عن اتباع ما لا علم لنا به:

وفي ذلك أدلة كثيرة:

منهـــا: قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ الإسراء: ٣٦، **أما «القفو»**، فالقَفَا مؤخر الشـيء، **قال الأزهري**: وَقَالَ اللَّيْث: القَفَا: مؤخَّر العُنُق، واستَقْفَيته إِذا جِئْته من خَلْفُ. قَالَ: وسمّيت قافية الشِعْر قافِية لِأَنَّهَا تَقْفو البَيْت. وَفِي حَدِيث مَرْفُوع: على قافية رَأس أحدِكم ثَلَاث عُقَد، فإِذا قَامَ من اللَّيْل وتوضأَ انحلَّت عُقْدَةٌ. اهـ، وقال الأزهري قبل ذلك: قَالَ اللَّيْث: القَفْوُ: مصدرُ قولِك: قَفَا يَقْفُو قَفْواً، وَهُوَ أَن يتَّبع شَيْئا. ثَعْلَب عَن ابْن الْأَعرَابِي: يُقَالُ: قَفَوْتُ فلَانا: اتّبعتُ أَثَرَه. اهـ من (تهذيب اللغة). **وقال ابن منظور**: وقَفاه قَفْواً وقُفُوّاً واقْتَفَاه وتَقَفَّاه: تَبِعَه. اللَّيْثُ: القَفْوُ مَصْدَرُ قَوْلِكَ قَفَا يَقْفُو قَفْواً وقُفُوّاً، وَهُوَ أَن يَتْبَعَ الشَّيْءَ. اهـ من (لسان العرب).

والقفو أصل واحد يمكن استعماله في عدد من المعاني، منها: **المعنى الأول**: اتِّباع الأمر وكأنك تنظر إليه من خلفه فتقبله وتعمل او تحكم به. **المعنى الثاني**: تَـتَـبُّع الشـيء بمعنى التحري عنه وملاحقته، كقولهم: قفوت أثر فلان أي تتبعته. **قال مكي بن أبي طالب**: وأصل القفو في اللغة التتبع. اهـ من (الهداية). **المعنى الثالث**: أن يُستعار «القفو» لمعان تتفرع من الإتباع او التتبع.

وآية الإسراء من الإتباع، أي من قولهم: قفا يَقْفُو، وقَفَوْتُه أَقْفُوه قَفْواً، وَتَقَفَّيْتُه، أي: اتبعته، كما في (العين). فمعنى الآية الكريمة: لا تتبع أي لا تحكم بما ليس لك به علم. وقد ذهب إلى ذلك الأخفش والزمخشـري وابن عطية والسـمين الحلبي في (عمدة الحفاظ) وابن عاشـور. ويجري على هذا المعنى قول ابن عباس وطائفة من التابعين كما رواها الإمام الطبري.

وأما «العلم»، فيشـمل في العربية نوعين، **(النوع الأول)**: العلم المطابق لحقيقة الأمر، ويمكن إثبات او نفي العلم بهذا الإعتبار، ويُطلق عليه أحيانا: العلم اليقيني او المعرفة الجازمة المطابقة للحقيقة. ومنه قوله تعالى ﴿ **كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧** ﴾ التكاثر: ٥ – ٧، وقوله تعالى ﴿ **وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ** ﴾ الحج: ٥٤. **(النوع الثاني)**: العلم الظاهر أي حين يتعذر الجزم بالمطابقة. وقد ذُكر العلم الظاهر في قوله تعالى ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ** ﴾ الممتحنة: ١٠؛ فقوله تعالى ﴿ **فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ** ﴾ إنما هو حكم بحسب ظاهر الأدلة، وليس جزماً بالمطابقة، ومع ذلك فإن القرآن صريح في تسميته بالعلم، وقد بيَّن أبو بكر الجصاص في (أحكام القرآن) أنه علم ظاهر.

وكذلك الأمر في آية الأحزاب، أي قوله تعالى ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ ﴾ الأحزاب: ٥.

والفرق بين العِلمَيْن أن العلم اليقيني هو إدراك الشيء بحقيقته او بصورة قطعية، وأما العلم الظاهر فهو إدراك للشيء بحقيقة تدل عليه، وليس لنقيضه حقيقة تدل عليه عند المجتهد؛ فهو علم ظاهر لأن من المحتمل حصول الخطأ في الإستدلال بالحقيقة.

وقد يزعم بعضهم أن قوله تعالى: ﴿ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ الأنعام: ١٤٣، يشهد للمشهور عن الأصوليين بأن العلم هو اليقيني فقط أو هو الجازم المطابق للحق، فلا مكان لعلم ظاهر، وذلك بدعوى أن الله تبارك وتعالى جعل العلم دليلا على الصدق وأن العالم بالشيء صادق إذا أخبر بعلمه، ولما كان الصدق يقتضي مطابقة الخبر لحقيقة الأمر، فقد يُفهم أن معنى الآية الكريمة يوافق رأي الأصوليين بأن العلم معرفة جازمة صادقة، أي مطابقة للحقيقة.

غير أن هذا التأويل يقلب مجرى الآية الكريمة، فهو تأويل غير سديد، وذلك لأن معنى الآية هو: إن كنت صادقا في مذهبك فإن لك علما تخبرنا به، وليس معنى الآية: إن كان لك علم فأنت صادق في مذهبك، وأنت ترى الفرق الكبير بين العبارتين، فأن آية الأنعام إنما ذكرت من تكلم بصدق في قضايا الحلال والحرام، وأنه لابد أن يوجد على صدقه علم يقيني او علم ظاهر أصاب في فهمه. وأما من تكلم بغير الصدق أو بالخطأ، فلم تذكره الآية سواء كان مستنداً إلى محض الهوى أو إلى علم ظاهر لم يُصب فيه، فلا شك أن آية الأنعام لا تساعد أولئك الأصوليين على مذهبهم.

وكذلك القول في معنى قوله تبارك وتعالى ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة: ١١١ . والبرهان هو أوكد الأدلة الذي يقتضي الصدق، فإن كان المستند علماً مطابقاً فإنه برهان، وإن كان المستند علماً ظاهراً فإن البرهان هو الحقيقة التي دلت عليه.

وحاصل ذلك أن آية الإسراء تدل على تحريم اتباع ما ليس بعلم قطعي ولا ظاهر وتحريم الحكم به، فهو ظن منهي عن اتباعه إلا باستثناءات محددة. وتوجد أحوال لا يُكتفى فيها بأي علم ظاهر، بل لابد من تكرار المراجعة والتنقيح والإستشارة حتى تصل إلى اليقين او تقاربه مع إعداد احتياطي لمواجهة الخطأ المحتمل.

وأما «الظن»، فقال الراغب: الظَّنُّ: اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدّا لم يتجاوز حدّ التّوهّم. اهـ من (المفردات). ويكثر استعمال الظن بمعنى الحسبان غير المستند إلى حجة صحيحة، فقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ الانشقاق: ١٤، وقوله تعالى ﴿... قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ الكهف: ٣٥ – ٣٦؛ فهذه الظنون من نوع الحسبان في قوله تعالى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ الهمزة: ٣، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الزخرف: ٣٧، وقوله تعالى ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ النور: ١٥. فهذه ظنون غالبة بالتوهم وليس برجحان الحجة.

فالظن في غالب الإستعمال شك راجح على الخيار الآخر في حسبان الإنسان، ولكنه ليس بعلم ظاهر، إما لخلوه من حقيقة تدل عليه، وإما لوجود دليل على النقيض من مرتبة الشيء المظنون. وأما الخلط بين العلم الظاهر والظن كما هي طريقة كثير من الفقهاء والأُصوليين المتأخرين، فلا شك أنه تقسيم مخالف للإستعمال القرآني. وقد بينا هذا الأصل في بدايات (تمكين الباحث) وفي (المنهج الفريد)، وبينا كذلك الفرق بين العلم الظاهر والظن. والقضية ليست مجرد اختلاف اصطلاحي في حقيقة العلم الظاهر أهو علم أم ظن؟ بل إن القضية أبعد من ذلك، لأن الأصولي الذي ينكر أو يهمل وجود علم ظاهر او غير جازم، فإنه مضطر لا محالة إلى الخلط بين العلم الظاهر والظن، وقد يؤدي ذلك به إلى الاحتجاج بكل ظن يُظَن أنه ظن غالب، ويفضي الأمر إلى ظهور مذاهب وآراء

كثيرة لا ترقى البتة إلى مرتبة العلم الظاهر، وإنما هي محض ظن معارَض بمثله. وسيأتي كلام عن الظن بعد قليل إن شاء الله تعالى.

وكذلك يُستعمل «الظن» بمعنى «الإعتقاد»، كما في قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ البقرة: ٤٥ - ٤٦، وقوله تعالى ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٢٤٩.

وقلنا إن القفو في آية الإسراء ليس من باب تتبع او ملاحقة متعلقات حقيقة الأمر والبحث عنها، فهذا يمكن أن يكون واجباً او ضرورياً. من ذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ الحجرات: ٦؛ ومنه أيضاً تتبع جذور وتفرعات الملاحظات العلمية فإنه من ضروريات الإكتشافات العلمية والمغالبة. يؤكد ذلك قوله تعالى ﴿ ... ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ الأحقاف: ٤، فتدبر عبارة ﴿ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾، فإن «مِنْ» تصلح هنا أن تكون تبعيضية، وكلمة «أثارة» هي البقية من الشيء كأنها أثره، والأثارة يمكن أن تكون غير مكتملة المعنى وتحتاج إلى تتبع ما تكتمل به من أصلها، فكأن المعنى: او أثارة من علم يمكن تتبعها، والله تعالى أعلم.

ومنها: نصوص النهي عن اتباع الظن، وقد ذكرنا معنى الظن قبل قليل في تفسير آية الإسراء. فمن ذم الظن في الدين، قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ الأنعام: ١٤٨، الآية الكريمة واضحة في أن الظن ليس بعلم، وفي الإنكار على متبعي الظن. وتدل الآية على أن منتهى الظن هو

الخرص، وَالْـخَرْص هُوَ حَزْرُ الشَّيْءِ، من غير تحقق ولا تدقيق؛ يُقَالُ: خَرَصْتُ النَّخْلَ، إِذَا رأيته من بُعد وحَزَرْتَ ثَمَرَهُ. ويُرَخَّص في الخرص عند الحاجة إلى التعامل مع المجاهِل. وأما في معرفة الدين وحقائقه فلا مجال للخرص بحال من الأحوال، فإنه قرين الكذب، ولذلك فسر أئمة العربية الخرص بالكذب، منهم الخليل في (العين) والزجاج وابن سيده؛ **وقال الأزهري**: قَالَ الزَّجَّاجُ: «الخراصون»: الكذَّابون. يُقَال: تَخَرَّصَ فلانٌ عَلَيَّ الباطلَ واخْتَرَصَهُ، أَي: اخْتَلقه وافتعَله. قَالَ: وَيجوز أَن يكون الخراصون الَّذين إِنَّمَا يَتَظَنَّوْنَ الشَّيْء، لَا يحُقُّونَهُ فيعمَلون بِمَا لَا يَعلمون. وَقَالَ الفرَّاء فِي قَوْله: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ الذاريات: ١٠، يَقُول: لُعِنَ الكذَّابون الَّذين قَالُوا: مُحَمَّدٌ شاعرٌ، وساحر وأَشْبَاهَ ذَلِك، خَرَصُوا مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ. قلتُ: وأَصْلُ الْخَرْصِ: التَّظَنِّي فِيمَا لَا يَستَيْقِنُه. وَمِنْه قيل: خَرَصْتُ النَّخْلَ والكَرْم، إِذا حَزَرْتَ ثمَرَه، لِأَن الحَزْر إِنَّمَا هُوَ تقديرٌ بِظَنٍّ، لَا إحاطَةٍ، ثمَّ قيل للكَذِب: خَرْصٌ، لِمَا يَدْخُلُه من الظُّنُونِ الكاذبة. اهـ من (تـهذيب اللغة).

وقال تعالى ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ يونس: ٣٦، فلا شـك أن الظن ليس بعلم، فإنه لا يُغني من الحق شـيئاً. ومثل ذلك قوله تعـــالى ﴿ **وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا** ﴾ النجم: ٢٨.

وهذه الآيات متظاهرة على أن الظن ليس بعلم، ولذلك ذهب عامة المفسرين في تفسير قوله تعالى ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ النساء: ١٥٧، ذهبوا إلى أن الإستثناء منقطع بمعنى: لكن اتباع الظن، لأن الظن ليس من العلم فلا يُستثى منه، من هؤلاء الإمام الفراء والزجاج والطبري والنحاس والجصاص ومكيّ في (مشكل إعراب القرآن) والماوردي ونجم الدين النسفي والزمخشري وأبو البقاء العكبري والمنتجب الهمداني والقرطبي والبيضاوي وأبو البركات النسفي وأبو حيان الأندلسي والسمين الحلبي وابن عادل والآلوسي وابن عاشور. وشـذَّ عن هؤلاء ابن عطية في

تفسيره فزعم أنه استثناء متصل، وكأن الظن نوع من العلم!! وقد رد أبو حيان على ابن عطية؛ وبصرف النظر عن الرد النحوي، فإن الآيات المتقدمة (الأنعام ويونس والنجم) تقطع بأن الظن ليس بعلم وبأنه لا يغني من الحق شيئاً.

وقد يقول قائل إن بعض الظنون او الشكوك الراجحة قد تكون صحيحة في باطن الأمر، فيُقال له: هذا صحيح ولكنها لا تنزل منزلة العلم او الحق إلا بعد التحري عنها وتحصيل ما يرتقي بها إلى منزلة العلم الظاهر او العلم المطابق.

ومع ذلك، يمكن الإستناد إلى الظن وما هو دونه لأجتناب المخاوف الدنيوية، مثال ذلك قوله تعـــالى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الأنفال: ٥٨، وقد بينا معنى الآية الكريمة في (وِجهة اللواء)؛ وكذلك قوله تبارك وتعـــالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ النساء: ٣٥.

المراء الظاهر، وعلم القِلّة:

قال تعالى ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٢. ونحتاج أولاً إلى فهم ألفاظ الآية.

(أما التماري)، فإن «المِرْية» الشك والتردد، ومنه قوله تعالى ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ هود: ١٧. ومَرَى الشَّيْءَ وامْتَرَاه اسْتَخْرَجَه والرِّيحُ تَمْرِي السَّحابَ وتَمْتَرِيه تَسْتَخْرِجُه، كما في (المحكم). ويُقال: مَرَيْتُ الشاةَ إذا حَلَبْتَهَا وَاسْتَخْرَجْتَ لَبَنَهَا، كما في (لسان العرب). وقال ابن الأثير: المِرَاءُ: الْجِدَالُ، والتَّمارِي والمُمَارَاةُ: المُجَادَلَةُ عَلَى مَذْهَبِ الشَّكِّ والرِّيبَة. ويقالُ لْلِمُناظَرَة: مُماراة، لِأَنَّ كلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا يَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَ

صاحِبِه ويَمْتَرِيه، كَمَا يَمْتَرِي الحالِبُ اللَّبَنَ مِنَ الضَّرْعِ. اهـ من (النهاية). وقال الزمخشري: ماريته مماراة: جادلته ولاججته، وتماروا، ومعناه المحالبة كأن كلّ واحد يحلب ما عند صاحبه. اهـ من (أساس البلاغة). فواضح أن المرية في الدين كفر لأنها ضد الإعتقاد واليقين، وكذلك المشتقات التي تتضمن الجدال على مذهب الشك بالدين او جحده، كما في نحو قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ الحجر: ٦١ – ٦٣، وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾ القمر: ٣٦، وقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ سبأ: ٢١. وأما التماري بين المتناظرين المسلمين على مذهب حلب ما عند الآخر من الأفكار والشك بما ليس عليه دليل من الأفكار، فهذا لا إشكال فيه، والإستثناء في آية الكهف ينبه عليه.

(وأما كلمة «مراءً ظاهراً»)، فتوجد وجوه مقبولة في معنى «ظاهراً» هنا، **الوجه الأول**: أنه مراء واضح يمكن بسهولة فهمه، ومن هذا المعنى قوله تعالى ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ لقمان: ٢٠، فالظاهرة الواضحة الجلية؛ والباطنة الخفية التي لا نعلمها او التي نحتاج إلى بحث وتنقيب لمعرفتها. وفي موضع من التفسير، قال الماتريدي: ﴿ .. إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾، نهي عن التعمق والخوض فيما تقصر عنه الأفهام، وإن كان معلومًا أن لله حججًا ظاهرة وغامضة. وفي ذلك تعليم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: أنه يكون ذلك باللطف والرفق يرى المقصود به؛ ليقرر به عنده الحجة، ويزيل عنه الشبهة من الوجه الذي يحتمله عقله، ويبلغه فهمه. اهـ مع اختصار من (تفسير الماتريدي). **الوجه الثاني**: أنه مراء بحجة قوية منتصرة، فلا يمكن دحضها ولكن ربما يلجأ الآخر إلى السكوت او التفاهات او التطاول بالباطل. واستعمال الظهور بهذا المعنى

كثير، منه قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ ﴾ الكهف: ٢٠ ، وقوله تعالى ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ الصف: ١٤. **الوجه الثالث**: هو وجه قوي المعنى كالوجه الثاني، غير أن فيه نظراً في التقدير، فقد ذهب التبريزي في عبارة «مراءً ظاهراً» إلى أن المعنى: ظاهِراً أي ذَاهِبًا بِحُجَّةِ الْخَصْمِ، نقله أبوحيان في تفسيره. واحتجوا لهذا التقدير بنحو قول ابن فارس: هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهُ. أَيْ زَائِلٌ، كَأَنهُ إِذَا زَالَ فَقَدْ صَارَ وَرَاءَ ظَهْرِكَ. اهـ من (معجم المقاييس). ولكن يُحتمل أن يرجع معنى الذهاب والزوال في هذه الأمثلة إلى عبارة «عنك»، فإن هذه العبارة تُستعمل لمعنى الإبتعاد كما هو الفرق بين قولك: «عَدَلَ إليه» و«عدل عنه». وقد يُشبه ذلك الفرق بين قولك: «هذا الأمر ظاهر فيك او بك» من جهة، وقولك: «هذا الأمر ظاهر عنك» من جهة أُخرى. فلتصحيح نحو هذا التفسير، نحتاج إلى تقدير محذوف، أي: مراءً ظاهراً عنك ضعفه، أي ذاهباً عنك ضعفه، والله تعالى أعلم. ويُستعمل لفظ «ظاهِر» لوصف الرؤية السطحية التي تغفل عن الأعماق وعن المضامين الداخلية، وهذه رؤية مذمومة كما سيأتي في العنوان القادم إن شاء الله، فهي غير مرادة في آية الكهف.

(وأما عبارة): ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾، فإن الإستفتاء هو طلب الفتوى او المعرفة، وهو مقيد هنا بعبارة «فيهم» أي في أمر أهل الكهف، والمعنى: لا تستفت في أمر أهل الكهف من تكلم بأمرهم من أهل مكة او غيرها. وسبب ذلك أن الكلام عن القدماء غير المعاصرين ليس بالأمر الصحيح إلا عن طريق الوحي المنزل او بالإسناد القوي الذي يصل إلى القدماء. ينبه إلى ذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ آل عمران: ٦٥ – ٦٦.

(وأما التنبيه إلى علم القِلَّة): فتدبر عبارة ﴿.... وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، قال الإمام الشوكاني رحمه الله تعالى: وَالْمَوْصُوفُونَ بِالرَّجْمِ بِالْغَيْبِ هُمْ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ الْقَائِلَيْنِ بِأَنـهُمْ ثَلَاثَةٌ، وَالْقَائِلِينَ بِأَنـهُمْ خَمْسَةٌ. ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، كَأَنَّ قَوْلَ هَذِهِ الْفِرْقَةِ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ بِدَلَالَةِ عَدَمِ إِدْخَالِهِمْ فِي سِلْكِ الرَّاجِمِينَ بِالْغَيْبِ. اهـ من (تفسير الشوكاني). أما الواو قبل «ثامنهم»، فقد تكلم فيها المفسرون، ولكن إن جاز أن تكون هذه الواو ابتدائية (أي استئنافية) لأنه يكثر في العربية استعمال الواو لابتداء كلام جديد، وأن تكون جملة ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، جملة استئنافية بنحو تقدير: وكان ثامنهم كلبهم، فلا شك حينئذ أنهم سبعة لأن الله تعالى جعل ثامنهم كلبهم؛ والجملة الإستئنافية كلام جديد منقطع في الإعراب عما قبله، ولكن يجوز أن تكون له صلة معنوية بما قبله وكذلك بالضمائر. وقال الشوكاني: وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، قَالَ: أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ، كَانُوا سَبْعَةً. وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ السُّيُوطِيُّ: بِسَنَدٍ صَحِيحٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، قال: أنا من أُولَئِكَ الْقَلِيلِ، كَانُوا سَبْعَةً، ثُمَّ ذَكَرَ أَسْمَاءَهُمْ. وَحَكَاهُ ابْنُ كَثِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ قَتَادَةَ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ، ثُمَّ قَالَ: فَهَذِهِ أَسَانِيدُ صَحِيحَةٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ كَانُوا سَبْعَةً. اهـ من (تفسير الشوكاني). وقال النحاس: وفي المجيء بالواو «وثامنهم» خاصة دون ما تقدّم قولان: أحدهما أن دخولها وخروجها واحد، والآخر أنّ دخولها يدلّ على تمام القصة وانقطاع الكلام. ذكر هذا القول إبراهيم بن السريّ فيكون المعنى عليه أنّ الله جلّ وعزّ خبر بما يقولون ثم أتى بحقيقة الأمر فقال: «وثامنهم كلبهم». اهـ من (إعراب القرآن)، والله تعالى أعلم.

وقد يسأل سائل: ما الفائدة من أمر عددهم؟ والجواب وبالله تعالى التوفيق أن في حكاية كلام الناس في عدد أهل الكهف فائدتين او أكثر، **الفائدة الأولى**: معرفة طبيعة كثير من الناس، فإن الأمور الشكلية تـهمهم جداً كالأسماء والأعداد والأعمار والأمكنة

وشبه ذلك، فهم ينشغلون بها أكثر من اشتغالهم بالمعاني. وهذا ينفع في معرفة كيفية التعامل معهم، ولذلك كان الأصل ترك المماراة في هذه الأمور إلا بالإستثناء المذكور في الآية. والذي أراه أنه استثناء للقليل من الكثير، لأن خوض الناس في مثل هذه الأمور كثير جداً. **الفائدة الثانية**: أنه مثال للتدريب على معرفة كيف تغوص في المعاني وكيف تُظهر المعاني الكامنة، فإن ما تستخرجه في موضع فإنك تستعمله في مواضع كثيرة بإذن الله تعالى، والله تعالى أعلم.

الإعْتِداد بالحقيقة او المضمون الداخلي:

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ الرعد: ٣٣. في الآية الكريمة فوائد عظيمة:

(الفائدة الأولى): تدبر الإلزامات في الآية الكريمة، فإن الكفار جعلوا لله تعالى شركاء، فقال تعالى ﴿ قُلۡ سَمُّوهُمۡ ﴾، أفيهم عظيم يدبر أمر السموات والأرض، أم هم مخلوقات لا تضر ولا تنفع إلا بإذن الله؟ ثم قال تعالى ﴿ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، وهذا استفهام توبيخ، أي: أم تخبرون الله تعالى بآلهة في الأرض تخفى على الله تعالى؟!

(الفائدة الثانية): ثم قال تعالى ﴿ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾، أي أم تُنَبِّئُونه بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ؟ وهو أيضاً استفهام توبيخ وإنكار، لأنه ظاهر قول ليس له حقيقة كما قال النحاس والزمخشري والرازي وأبو حيان وغيرهم. فإن المشركين أطلقوا اسم الآلهة على أشياء ليس لها أدنى شيء من معنى الأُلوهية. فقولهم ظاهر لا حقيقة له، لأن باطنه او حقيقته شيء آخر بعيد إلى الغاية عن المضامين الحقيقية للإسم. ويؤكد ذلك قوله

تعـــالى ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ يوسف: ٤٠، أي أسماء عارية عن مضامين الأُلوهية. ويتصل بذلك حال المنافقين وأمثالهم حين يتكلمون بكلام مخالف للحقيقة التي في قلوبهم، ومنه قوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ آل عمران: ١٦٧.

وهذا أمر في غاية الأهمية لأن الخداع والإيهام يستند بدرجة كبيرة على التضليل أي بإعلان ظاهر جيد او مرغوب، ولكن المضمون مناقض او مغاير عند التنفيذ. مثال معروف: مسجد الضرار، فإن اللافتة المعلنة هي مسجد لله تعـالى، لأجل الصلاة والعمل الصالح، ولكن المضمون الداخلي هـو الكفر والإفساد واستقطاب الأشرار. ويـوجد في العالم اليوم عدد كبير جداً من عناوين الخداع؛ مركز تجاري مثلاً، هو في الحقيقة مركز لغسيل الأموال؛ ومركز إعلامي، هـو في الحقيقة مركز لتحريك النميمة الكبرى بين الدول والمؤسسات؛ وأمثال ذلك من اللافتات.

مثال قريب قضية الديمقراطية، فإن صفتها المعلنة هي الحرية السياسية، أي المنافسة السياسية الآمنة مع تكافؤ الفرص، ولكن عند تنفيذ المضمون غير المعلن وجد الناس في بلاد المسلمين أن المنافسة غير آمنة وأن الفرص متفاوتة جداً.

ومما يؤكد أهمية المضامين الداخلية، قوله تعالى ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ..... ﴾ البقرة: ١٧٧، فمعلوم أنه يجب الإلتزام بالظواهر الواجبة في العبادات، غير أن قيمة هذه الظواهر إنما تتحقق إذا اقترنت بالمضامين الداخلية.

وتحت عنوان «الرؤية العميقة والمنقحة» في المبحث الثاني بينا ذم الرؤية السطحية، فلابد من التأهيل الفكري للدخول في الأعماق لكشف المضامين الداخلية.

(الفائدة الثالثة): دور المكر والتحريك الخارجي او العدائي في إعداد الظواهر الخادعة. وتدبر في ذلك عبارة ﴿ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾، في قراءة عاصم وآخرين: «زُيِّن» و«صُدُّوا» بالبناء للمفعول في الكلمتين؛ وتصلح هذه القراءة للتنبيه إلى وجود مَن يزَيِّن لهم مكرَهم ومَن يصدهم عن السبيل من خبراء المكر والتضليل. ويمكن أنهم رضوا بإغواء شياطين الجن والإنس، فأضلهم الله تعالى، كما ينبه إليه قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣ ﴾ الأنعام: ١١٢ – ١١٣.

تجلية الحقائق وإتقان الإحتجاج، وتحريم تلبيس الحق بالباطل:

تجلية الحقائق أي كشفها بوضوح كما هي، فلا تختلط بها يُـغَيب او يغير مضمونها، وإتقان الإحتجاج للحق عسى أن يكون الإحتجاج سلطاناً نصيراً يتعذر رده. وكشف الحقيقة يقتضي في كثير من الأحيان بياناً او تفسيراً موجزاً، كي ينكشف بلا لبس. **قال ابن فارس**: الْجِيمُ وَاللَّامُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَقِيَاسٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ انْكِشَافُ الشَّيْءِ وَبُرُوزُهُ. يُقَالُ جَلَوْتُ الْعَرُوسَ جَلْوَةً وَجَلَاءً، وَجَلَوْتُ السَّيْفَ جَلَاءً. وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: السَّمَاءُ جَلْوَاءُ أَيْ مُصْحِيَةٌ. وَيُقَالُ تَجَلَّى الشَّيْءُ، إِذَا انْكَشَفَ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة).

وحين نتكلم في الدين او نعمل على تنفيذه، فإن تجلية الحق واجب من لوازم الإستقامة والإخلاص لله تعالى. وينبغي التذكير بأن الحكمة والموعظة الحسنة في الجدال لا تجافيان الحسم والفصل في بيان كلمة الحق. قال تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا

تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ..... ﴾ النساء: ١٧١، وقال تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ الأعراف: ١٠٤ – ١٠٥، وقال تعالى ﴿ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ الأعراف: ١٦٩.

ومن فوائد تجلية الحقيقة، أنها تساعد المؤمنين على الإذعان للحق، وتقلل من حصول النزاع والإختلاف، خلافاً للإخفاء. فمن الإخفاء المؤقت قوله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ٦٨ ﴾ الكهف: ٦٧ – ٦٨ .

فالتجلية نقيضة الإخفاء والتغطية؛ سواء كان سبب الإخفاء الخلط والتلبيس، او كان سببه ضعف الإحتجاج:

(أما التلبيس)، فهو تضليل مركب، ومعناه في سياق تلبيس الحق بالباطل: الخلط للإيهام ولإخفاء الحقيقة. **قال ابن منظور**: واللَّبس، بِالْفَتْحِ: مَصْدَرُ قَوْلِكَ لَبَسْت عَلَيْهِ الأَمر أَلْبِسُ خَلَطْت. واللَّبْسُ واللَّبَسُ: اخْتِلَاطُ الأَمر. لبَسَ عَلَيْهِ الأَمرَ يَلْبِسُه لَبْساً فالْتَبَسَ إِذا خَلَطَه عَلَيْهِ حَتَّى لَا يعرِف جِهَتَه. فِي رَأْيِهِ لَبْسٌ أَي اختلاطٌ، وَيُقَالُ لِلْمَجْنُونِ: مُخالَط. والْتَبَسَ عَلَيْهِ الأَمر أَي اختلَطَ واشْتبَه. والتَّلْبيسُ: كالتَّدْليس والتَّخليط، شُدِّد لِلْمُبَالَغَةِ، وَرَجُلٌ لَبَّاسٌ وَلَا تَقُلْ مُلَبِّس. اهـ من (لسان العرب). ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴾ الأنعام: ٩، أي شَبَّهْنا عَلَيْهِم الأمر وزدناهم ضلالاً. وقال تعالى ﴿ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍ ﴾ الأنعام: ٦٥، أي يَخْلِطَ أمْرَكم خَلْطَ اضْطِرابٍ لا خَلْطَ اتِّفاقٍ، كما في (العباب الزاخر).

وقال تعـــالى ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٤٢، وقال تعـــالى ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ آل عمران: ٧١، وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ الأنعام: ١٣٧.

ومن أشنع أنواع التلبيس، حين يقوم أصحاب الهوى من رجال العلم بتلبيس الحق بالباطل في قضية معينة، ويستعملون في عرض القضية ما يشبه اللغة العلمية، ولكنهم يدفعون الرعاء إلى عرض القضية بلغة مشحونة بالسب والشتم وبالتضليل او التكفير، هذا بالإضافة إلى الصياح والصراخ. وإذا ظن المقلد أن إثم الخطأ على رجل العلم دون من يقلده، فهو واهِم، لأنه سيحمل وزر العدوان والسفه وترويج الباطل. يوضح الأمر أن الغرض من التقليد هو إبراء الذمة من غير اعتقاد صحة ما أخذه تقليداً، فلا يحق له بحال من الأحوال تعنيف المخالفين.

وتلبيس الحق بالباطل له وجوه كثيرة، من أهمها تسيير أحكام الدين في المسار الذي يهواه المتنفذون، او المسار الذي يهواه المترفون من أصحاب الأموال، او غيرهم من أهل الباطل. ومن وجوه التلبيس التكلف الواضح في تأويل النصوص، دفاعاً عن طائفة او مذهب، او دفاعاً عن مطامع.

ومِن أقدم أنواع التلبيس في التأريخ الإسلامي، تحريف معنى الحديث المتواتر في عمار ابن ياسـر رضي الله عنه أنه تقتله الفئة الباغية. من ذلك خبر عبد الله بن الحارث قال: إنني لأسير مع معاوية في منصرفه عن صفين بينه وبين عمرو بن العاص، قال فقال عبد الله بن عمرو: يا أبت سمعت رسول الله ﷺ يقول لعمار: « ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية »؟ قال فقال عمرو لمعاوية: ألا تسمع ما يقول هذا؟ قال فقال معاوية: «ما تزال تأتينا بِهَـنَةٍ

تدحض بها في بولك، أنحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به». رواه ابن سعد في طبقاته (٣/ ٢٥٣) بإسناد صحيح، رجاله من مشاهير الثقات سوى عبد الرحمن بن زياد وهو مولى بني هاشم، وقد وثقه ابن معين والعجلي، ونقله ابن كثير بالإسناد نفسه من مسند أحمد (البداية والنهاية ٦/ ٢٢١ و٧/ ٢٨١)، فراجعته في المسند وقد صححه شعيب الأرنؤوط. وفي خبر آخر وبإسناد غير هذا الإسناد قال معاوية: «أنحن قتلناه إنما قتله عليّ واصحابه جاءوا به حتى ألقوة بين رماحنا او قال سيوفنا». رواه الحاكم في سياق خبر طويل وصححه على شرط البخاري ومسلم ووافقه الذهبي (المستدرك ٣/ ٤٣٦). ولهذا الخبر شواهد اخرى عند ابن سعد وأبي يعلى والطبري وغيرهم. وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: وأما تأويل من تأوله أن علياً وأصحابه قتلوه وأن الباغية الطالبة بدم عثمان، فهذا من التأويلات الظاهرة الفساد التي يظهر فسادها للعامة والخاصة. اهـ من (منهاج السنة ٤/ ٤١٤). ويُحكى عن عليّ عليه السلام لما سمع ذلك التأويل أنه قال: فليقل معاوية إن النبي ﷺ قتل حمزة إذْ أخرجه إلى أُحُد!! او كما قال رضي الله عنه.

وتوجد أمثلة كثيرة يتضح فيها التكلف الشديد في التفسير من أجل إدخال معان أجنبية إلى النص الشرعي؛ وكثير منه تكلف متعمد. فعلى رجل العلم أن يكون مؤهلاً لتجلية الحقيقة وكشف التلبيس.

ولقضية الإخفاء والتلبيس تتمة إن شاء الله تحت عنوان «شراء الشهوات بالحق».

(وأما ضعف الإحتجاج): فله ضرران كبيران، **الضرر الأول**: أن الإحتجاج الضعيف للحق سيوهن الدعوة إليه، ويفتح للباب لتمشية ما يخالف الحق وللإيهام بتكافؤ القولين. **الضرر الثاني**: إطالة بقاء الأخطاء وتوارثها عبر الأجيال.

والإتقان واجب في الإحتجاج الشرعي وما يتصل به، فقد قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ النحل: ٩٠، لفظ «الإحسان» إذا لم يكن متبوعاً بحرف الغاية

«إلى» فإن معناه إتقان الخير والصالحات، ومنه قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ السجدة: ٧ . ومنه حديث شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: « إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

ومن خير دعاء أهل العلم مضمون قوله تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ الإسراء: ٨٠، ومن مضامين السلطان النصير الإحتجاج المتقن المحكم، كما ينبه إليه نحو قوله تعالى ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ الصافات: ١٥٦ – ١٥٧، وقوله تعالى ﴿ ...... وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف: ٣٣. وقد قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ الأنفال: ٢٩، أي يجعل لكم قدرة على التفريق والتمييز بين الأُمور المتباينة، وكشف التلبيس في احتجاج الآخرين.

ومن الصفات الرفيعة للإحسان في الإحتجاج، أن تبلغ في قوة الإحتجاج درجة تجعل من يرد عليك ردّاً مُعلناً مسؤولاً يرى نفسه قبل نهاية المطاف وكأنه يرد على القرآن الكريم وعلى السنة النبوية، وأن عليه أن يغير موقفه. ويصعب تحقيق هذه الدرجة في كل قضية نتصدى لها، ولكن إن أصبح إتقان الإحتجاج منهجاً عاماً فإن تلك الدرجة ستكون شائعة مع مر الزمان.

....

الإمتناع من قول
غير الحق على الله تعالى:

(أما معنى الحق): فالحق في العربية هو الثابت الصحيح لجليل أوصافه او لصحة وقوعه؛ ونقيضه الباطل وهو الزائل بسبب كبير عيوبه ومساوئه او عطل فوائده. وقال ابن منظور: وحَقَّ الأَمرَ يحُقُّه حَقًّا وأحقَّه: كَانَ مِنْهُ عَلَى يَقِينٍ؛ تَقُولُ: حَقَقْت الأَمر وأَحْقَقْته إِذا كُنْتَ عَلَى يَقِينٍ مِنْهُ. اهـ من (لسان العرب).

قال تعالى ﴿ ..... أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ الإسراء: ١٦، أي ثبت عليها القول فلا فكاك منه.

وقال تعالى ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ البقرة: ١٤٧، أي هو الثابت بيقين من ربك، فلا مجال للشك فيه.

وقال تعالى ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ الأنعام: ٦٦، أي هو الصحيح الثابت بيقين فلا وجه للتكذيب به.

وقال تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ السجدة: ٣؛ فهو الصحيح الثابت بيقين، فلا سبيل لوجود الإفتراء في مضامينه.

وقال تعالى ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ الأعراف: ٤٤، أي قد وجدنا ما وعدنا ربنا واقعاً يقيناً مطابقاً لما آمنا به، فهل وجدتم ذلك؟

(وأما النهي عن أن نقول على الله إلا الحق): فقد قال تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ النساء: ١٧١؛

وقال تعالى ﴿ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ﴾ الأعراف: ١٦٩؛ وقال تعـــالى ﴿ .... ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ الأنعام: ٩٣؛ وهذا نهي مقترن بأشد الوعيد، فمن أشد الكبائر أن يقول أحدهم غير الحق على الله تعالى؛ ومثله قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ النحل: ١١٦.

ويقتضي ذلك أكثر من أمر:

(الأمر الأول): أنه يجب الحذر الشديد في التعبير عن المعاني المستنبطة من القرآن والسنة النبوية، فلا يُقال هذا حكم الله او فرَضَ الله ذلك او حرَّمه إلا إذا كانت صحة الإستنباط قطعية ولا مجال للشك في مضامين المعنى المستنبط. فالمهم هنا أن المجتهد إذا لم يقطع بالصواب في اجتهاده، لم ينسبه إلى الإسلام، ولكن يقول: إنه رأي أو اجتهاد أو استحسان، أو ينبغي هذا ولا ينبغي هذا، وآمر بهذا وأنهى عن هذا، أو نحو ذلك مما يدل على المقصود، وهو أن الأمر أمر المجتهد، لكونه من أولياء الأمر الذين أمر الله تعالى بطاعتهم في اجتهادهم.

يؤكد ذلك حديث سُـلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ قَالَ: « وَإِنْ حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ عَلَى أَنْ تُنْزِلُوهُمْ عَلَى حُكْمِ اللـه فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللـه، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَـدْرِي أَتُصِيبَ حُكْمَ اللهَّ فِيهِمْ أَمْ لَا. » رواه عبد الرزاق وأحمد ومسلم وابن ماجه والنسائي في (السنن الكبرى) وغيرهم في سياق حديث طويل. وليس في الحديث جواز تحكيم الأهواء، ولكنه تنبيه او إرشاد في مثل تلك الأحوال إلى أحد خيارين، **الخيار**

الأول: إذا كان في الجيش من هو قادر على الإجتهاد فعليه أن لا يفترض أنه يستطيع القطع بالصواب في أحكام ساحة المعركة، ويلزمه إضافة الإحتياط إلى اجتهاده كي يجتنب انتهاك ما يمكن أن يكون محمياً في الشرع. وعليه بعد ذلك أن ينسب حكمه إلى رأيه وليس إلى الله ورسوله. **الخيار الثاني**: إذا لم يكن في الجيش مجتهد، جاز عند الضرورة تحكيم الحكمة الإنسانية إذا تعذرت معرفة حكم الشرع، وبشروط وضوابط من جنس ضوابط الإضطرار، وعلة او سبب هذا الحكم هو صيانة المنهج الإسلامي من أخطاء العاملين، كما هو صريح في الحديث.

وقد ذكرنا في هذا الأصل تفاصيل مهمة في (المنهج الفريد في الإجتهاد والتقليد)، تحت عنوان: «حكم نسبة الإجتهاد إلى الإسلام». ويتصل بذلك عنوان: «صيانة المنهج من أخطاء العاملين» في المبحث الرابع من (نخبة المسار).

(الأمر الثاني): عزل الأخطاء الإجتهادية للمدارس الفقهية، فإن من منفعة المدرسة الفقهية أنْ تقوم بتنقية وتهذيب ما فيها، فهذا خير من تراكم الإستدلال للخطأ وتلميعه بصورة قد تخدع القارئ وتوهمه بصحة القول وكأنه حق من عند الله تعالى. يوضح الأمر أن الحق واحد في موضع اختلاف المجتهدين، والأقوال الأُخرى أخطاء؛ هذا مذهب عامة الفقهاء، وقد بيناه بالتفصيل في الفصل الثاني من (المنهج الفريد في الإجتهاد والتقليد). وأيضاً فإن المدارس الفقهية تواجه الصديق والعدو، فينبغي لها التخلي عن كل خطأ لأنه قضية خاسرة. وسيأتي بيان ذلك تحت عنوان «تنقية المضامين المتبناة والتخلي عن القضايا الخاسرة». ونكتفي هنا بقوله تعالى ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ البقرة: ١٥٠؛ فينبغي للمسلم أن لا يجعل للآخرين حجة صحيحة عليه إلا من ظلم فهو يحتج علينا بالأباطيل. ولا شك أن التمسك بالأخطاء الفقهية لمدرسة معينة، لا شك أنه يجعل للآخرين حجة صحيحة علينا. معنى ذلك أنه من

الخطأ محاولة الإستدلال لتصحيح كل قول في مذهب معين، بل ينبغي في تنقيح المذهب الحرص على تقوية الأقوال الصحيحة وتـوهين الأقوال الضعيفة حتى يتم التيقن من ضعفها ويتم عزلـها. ولا شك أن هذا أفضل بكثير من تراكم الإستدلالات لتمشية كل قول في المذهب مما يُفسـد التنقيح ويساعد على بقاء الأقوال الضعيفة في المذهب، ويجعل المذهب جامداً وغير قابل للتصحيح.

(الأمر الثالث): أن تكون في الدعوة إلى الله تعالى مخلصاً لله تعالى، فلا تلبس الحق بالباطل، ولا تراوغ لإخفاء باطل في ثنايا الحق. فإن التزمت بذلك اتبعك مريدوا الحق؛ وأما إذا راوغت فقد تحملت آثاما متراكمة كثيرة.

رؤية الفراغات
ومواضع الضعف ومعالجتها:

وذلك لمعرفة وزن الإحتجاج وهل يمكن ملئ الفراغ او إزالة الضعف؟

(أما رؤية الفراغات ومواضع الضعف)، فمن ذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ آل عمران: ٦٥ – ٦٦، فتدبر عبارة ﴿ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ ﴾، أي: أن التوراة والإنجيل ما نزلا إلا من بعد موت إبراهيم عليه السلام. فكل رواية عن رجل، رواها عنه من جاء من بعده بلا واسطة بينهما، فهي رواية ضعيفة بسبب انقطاع (فراغ) مؤثر في الإسناد. معنى ذلك أن كل رواية مرسلة عن غير المعاصر، فلا حجة فيها. وأما الإرسال عن معاصر، فهي غير مذكورة في آية آل عمران، وهي حجة إذا كانت من ثقة عن ثقة، ككثير من مراسـيل الصحابة عن النبي ﷺ، وكرواية المدلس الثقة عمَّن عاصره ولكن ربما لم يسـمع منه تلك الرواية

مباشـرة لأنه قال في الإسناد: «عن فلان»، ولم يقل: «حدثني فلان او سمعت فلاناً» وهذا النوع موجود بكثرة في كتب الحديث المعتمدة، والأصل الإحتجاج به إلا إذا ثبت في إسناد معين أن الراوي أسـقط واسـطة غير قوية من الإسـناد، فنترك ذلك الإسـناد المعين. وربما يُقال إن الأصل في رواية الثقة عن المعاصر أنـها تسـتند إلى المقابلة والسماع، وأما الجزم بالرواية من غير سـماع فهو اسـتثناء فلا ندعيه إلا حين يثبت إسـقاط مجهول او ضعيف؟؟ والله تعالى أعلم.

وكل احتجاج خاطئ، فإن فيه فراغاً او أكثر، فانظر مثلاً قوله تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ الإسراء: ٤٢ – ٤٣، فالفراغ في تفكير المشركين هو أنهم نظروا بأُفق ضيق فلم يفكروا بلوازم مزعمة تعدد الآلهة التي توضح بعضها الآية الكريمة، وهي لوازم عديمة الوجود في أوثانهم مما يقطع ببطلان تلك المزعمة.

ومن الفراغات الشـائعة في التفكير الخاطئ إزاحة النظائـر والإحتمالات من التفكير، وكأنـها غير موجودة!! والقرآن الكريم يوضح ذلك، كما في نحو قوله تبارك وتعـالى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ﴾ الإسراء: ٦٧ – ٦٩.

وفي أحيان أُخرى كثيرة من الإحتجاج بين أهل العلم، يكون الدليل صحيحاً، ولكن الإستدلال به او تفسيره غير صحيح بسبب أخطاء التفسير؛ او يكون الإستدلال به غير تام إذْ يوجد فراغ او أكثر يجب ملؤه كي تتجلى الحجة ويصح التفسير. وهذا مجال واسع

وكثير الأمثلة، ونكتفي هنا بمثال واحد، وهو قول النبي ﷺ « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ... » رواه مسلم، فإن تفسـير التغيير باليد مبهم في كثير من المصادر، وبعضهم يفسر العبارة بمباشرة القوة عند الإستطاعة، وبعضهم يجعل التغيير باليـد من واجب السـلطة لأنه عنف. مثـال ذلك قول على القاري رحمه الله: « فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ » أَيْ: بِأَنْ يَمْنَعَهُ بِالْفِعْلِ بِأَنْ يَكْسِرَ الْآلَاتِ وَيُرِيقَ الْخَمْرَ وَيَرُدَّ الْمَغْصُوبَ إِلَى مَالِكِهِ. اهـ من (مرقاة المفاتيح). والفراغ الكبير الذي حصل، ربما هو تفسير عبارة «**بيده**» من غير تذَكُّر الإستعمال القرآني ومن غير رجوع إلى المعاجم الرئيسة للعربية، التي تستند إلى شواهد العربية وليس إلى الآراء الفقهية. أما الإستعمال القرآني، فإن «اليد» كناية عن العمل بصرف النظر عن وجود او عدم وجود العنف؛ فقد قال تعـــالى ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ البقرة: ١٩٥، أي لا تلقوا أنفسـكم بأعمالكم إلى التهلكة. وقال تعـالى ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ الروم: ٤١، أي بما كسب الناس بعملهم. وقال تعــالى ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ آل عمران: ١٨٢، أي بما عملتم. وفي الـحديث المشــهور وصف المسـلمين بـ: « وهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُم »، فاليد هنا مطلقة في التضامن العملي سواء كان عنيفاً او غير عنيف. يضاف إلى ذلك أن الحديث الصحيح نَصَّ صراحة على تقديم الرفق على العنف. معنى كل ذلك أن التغيير باليد هو التغيير بالمهارات العملية الذكية، ويمكن أن تكون غير مباشرة. ولذلك، فإن تفسير الحديث بالتغيير بالعنف او بالعمل المباشر، قد أوقع ضرراً عظيماً على الأمة، لأنه ينقل التغيير إلى اللسان عند فقدان القدرة على العنف او المباشرة، فلا مجال للمهارات العملية غير العنيفة وغير المباشرة (أي القوة الناعمة). وتُستعمل «اليد» لتدل على قوة العمل، ولا يلزم أن تكون قوة العنف، بل الغالب أنها قوة الإحكام والإجادة، فقد قال تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ الذاريات:

٤٧، وقال تعالى ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ ص: ٤٥، أي أُولي القُدُرات العملية والفكرية. ويمكن أن يدل السـياق على العموم في العمل العنيف وغيره، فقد قال تعـالى ﴿ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾ الفتح: ٢٠. وكذلك تدل المعاجم الرئيسة في العربية أن «اليد» هي القوة الفاعلة ولا يلزم أن تكون ضاربة، يُقال: امْرَأَةٌ يَدِيَّةٌ، أَيْ صَنَاعٌ، وَرَجُلٌ يَدِيٌّ، وَيَدَيْتُ عَلَى الرَّجُلِ: مَنَنْتُ عَلَيْهِ. ونقل ابن منظور عن ابن جِنِّي قال: أَكثر مَا تُسْتَعْمِلُ الأَيادي فِي النِّعم لَا فِي الأَعْضاء. اهـ من (لسان العرب).

ولاشك أن رصد الفراغات ومواضع الضعف أمر ضروري في الإحتجاج وفي تقويم الأمور وفي العمل المؤسسي، لأجل حمايته من التآكل والإنحدار؛ وكأن الراصد صياد قوي الملاحظة وواسع الأفق، يرى نقاط الضعف ويتتبع أسبابها (جذورها) وينظر كذلك إلى آثارها المحتملة. وفي هذا الأصل ثلاثة أمور في غاية الأهمية، **الأمر الأول**: أن تشخيص الفراغات ونقاط الضعف يحتاج إلى معرفة قوية بالصورة الصحية للإحتجاج او العمل، كي يلاحظ الراصد كل حيدة عن الصحة والسلامة؛ فهذا مثل الطبيب، يحتاج إلى معرفة شاملة بأنشطة الجسد الصحيح، وبذلك يلاحظ كل انحراف عن الصحة والسلامة. **الأمر الثاني**: كفاءة تشخيص الفراغات والضعف تحتاج أيضاً إلى معرفة غايات العمل، فإن عملاً معيناً قد يبدو جيداً الآن ولكنه قد يؤخر الوصول إلى الغاية او يكون غير كاف للمغالبة والتفوق. وتدبر في ذلك عمل الطبيب، فإن تصرفاً إنسانياً معيناً قد لا يعيق العمل اليوم غير أنه يـهلك ذلك الإنسـان بعد نحو عشـر سنوات او أكثر، كما في تدخين السكاير وغيرها من السموم والعادات ذات التأثير البطيء. **الأمر الثالث**: ينبغي في تشخيص الفراغات ونقاط الضعف، أن يقترن بتشخيص المحاسن، والمحاسن المتفوقة في الحسن. فكما يُراد اجتناب المساوئ وتغيير الأخطاء، فكذلك يُراد المحافظة على المحاسن وتنميتها والتفوق فيها. وينبغي التذكير هنا بإن سـياسـة التحسـين لا تقف عند

حد، ولذلك تُطلق عليها عبارة «التحسين المستمر». ويوضح الأمر أن المحاسن هي عوامل البناء والتنمية، وأما الفراغات ومواضع الضعف فهي عوامل الهدم، فلابد من رصدها ومكافحتها.

(وأما الرد على مواضع الضعف)، فقد قال تعالى ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ النساء: ٥٩؛ معنى ذلك أنه إذا اقتضى الأمر نزاعاً، فأن الأصل في الرد أنه ليس بقول فلان او فلان من العلماء، ولكنه إعادة الحكم إلى نصوص القرآن والسنة، ويتضمن ذلك أدوات فهم القرآن والسنة، وهي ثلاثة علوم رئيسة، والتزام سلوكي.

أما العلوم الرئيسة، ف**العلم الأول**: أصول الفقه. **العلم الثاني**: معاني النحو واللغة. **العلم الثالث**: علم الحديث وتشكيل مهارة في انتقاء الأحاديث الصحيحة، ولو بمتابعة أئمة الحديث. المهم أن على الذي يرد في القضايا العلمية بين أهل الإسلام أن يتوصل إلى القدرة في رده على بيان وتحديد وجه الضعف او الفراغ، من جهة تجاوز مقتضى أدوات فهم النصوص، أي العلوم الثلاثة الرئيسة المذكورة؛ وأما الرد بالتركيز على قول فلان وفلان من أهل العلم، فلا إلزام فيه وقد يُوَلِّد الشحناء والتنافر.

وأما الإلتزام السلوكي، **فالإلتزام الأول**:: التحلي بمكارم الأخلاق في الرد، فعَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ « إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ » رواه مسلم وغيره؛ وستأتي أحاديث أُخرى في الرفق إن شاء الله تعالى. **الإلتزام الثاني**: تحمُّل مسؤولية الرد في كل قضية لها أولوية، وذلك بالإعداد لرد مكتوب ومعلن. وهذا يجعل الراد في غاية الحذر والإعداد كي يجتنب الخطأ في رده، كما أن الإكتفاء بالرد القولي قد يكون بسبب عدم الإستعداد، فلا يبلغ غايته، وقد يُفاقم الخلاف. بل إن الرد بلا استعداد قد يهوي بصاحبه في جهنم، والعياذ بالله تعالى.

(ومن فوائد وغايات الرد)، أي النوع المذكور من الرد، **الغاية الأولى**: أن يكون الرد صحيحاً ومُحكماً ويكفي بإذن الله لحسم الخلاف. **الغاية الثانية**: أن يتصرف الراد بإنصاف، فإذا كانت حجج المقابل صحيحة وقوية، فإن الراد سيوقف رده ويتراجع، لأنه سيجد رده وكأنه رد على الأدلة الصحيحة، ويعلم بذلك أن القول الآخر صحيح، وأنه تحامل عليه لخضوعه لبعض عوامل ضعف الرؤية، كالتقليد وموافقة بعض الشيوخ والأصحاب من دون تحقق، او شبه ذلك من عوامل الضعف.

عدم جمع التناقضات:

ويشمل ذلك الفكر والإحتجاج والعقيدة، وكذلك العمل.

قال تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢)، فصح أن ما كان من عند غير الله تعالى، فإنه يضطرب ويتناقض ويفسد بعضه بعضاً. وأما كتاب الله تعالى فليس فيه شيء من ذلك بل هو صراط مستقيم واحد ولا اعوجاج فيه. وتقييد الإختلاف بالكثير إنما هو في وصف المناهج التي يضعها البشر، وليس له مفهوم مخالفة من حق القرآن، وبعبارة أخرى فإن القرآن منزه عن الاختلاف كله، القليل منه والكثير.

وقال تعالى:﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس: ٣٢) في الآية تصريح أنه ليس بين الحق والباطل مرتبة ثالثة، فإذا اختلف اثنان أحدهما محق، فلا محالة أن الآخر على الباطل. والآية عامة في الحق والضلال، لا فرق بين ما كان في عرف المتأخرين عقيدة أو شريعة. والمشهور عن الفقهاء القدامى أن الإجتهاد ينقسم إلى صواب وخطأ، وأن الحق واحد في موضع الخلاف، ولا يمكن للأقوال المتناقضة على محل حكم معين أن تكون صائبة كلها، وقد بينا تفصيل ذلك في (المنهج الفريد في الإجتهاد والتقليد).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (سبأ: ٢٤)، وهذا تصريح أيضا أن الذي كان عليه النبي ﷺ هو الهدى، وأن ما خالفه هو الضلال، وليس هناك مرتبة ثالثة بينهم. ونص الآية عام في مخالفات الكفار للنبي ﷺ، سواء خالفوه في العقيدة أو في الشريعة كما في اصطلاحات المتأخرين. وهذه الآية وإن كانت في سياق مخاطبة الكفار، فإن حكمها عام، فكل من قال بمثل قول الكفار بأن خالف بعض الهدي النبوي، فقوله باطل، وإن كان مسلماً غير متعمد. وكذلك صفات الكفار التي ذكرها القرآن في سياق الذم، كالكذب والنميمة وإتباع الظن ونحو ذلك، فإنه يذكر لأمرين: أحدهما: معرفة أحوال الكفار، والثاني إيجاب اجتناب ما يُذم لأجله الكفار.

وفي الإحتجاج، يمتنع إعطاء الشيء حكمين متناقضين، مرة هذا ومرة ذاك بحسب الهوى ونحوه. قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ التوبة: ٣٧. مثال ذلك في الإحتجاج الأُصولي والفقهي، أن يقدح أحدهم في إسناد حديث معين بدعوى أنه مرسل صحابي مثلاً، أي ان الصحابي الذي رواه لم يسمعه مباشرة من النبي ﷺ، ولكنه جزم بالرواية من غير تصريح بالسماع؛ فمن يرد إسناداً بهذه العلة فإنه ملزم بترك مراسيل الصحابة كلها، وهي كثيرة في الصحيحين وغيرهما، او يتراجع عن قدحه. وأما إذا أصر على رد الإسناد في حديث دون حديث فهذا تلاعب من نوع ما ورد في آية التوبة. وكذلك من احتج بقاعدة أُصولية او نحوية في قضية معينة، فيلزمه أن يحتج بها في سائر القضايا إلا إذا قام دليل على استثناء قضية معينة. فالنظر في اللوازم مفيد جداً في تقويم المذهب وفي خطوات تصحيح المسـار وتدارك العواقب.

ويتصل بذلك، أن من تبنَّى حكماً فعليه أن يقبل بلوازم الحكم إنْ كان قد انتبه إليها، وإذا فاتته فعليه أن يقبل بها عند تذكيره او يتراجع عمَّـا تبناه. يوضح الأمر أن رجل العلم قد يذهب مذهباً له عواقب أليمة لم ينتبه إليها، فهذه العواقب من لوازم مذهبه، غير أن لازم المذهب ليس بمذهب إلا بعد التنبيه إلى اللوازم والتمسك بها. وينبغي لذلك أن يفكر الفقيه جيداً بلوازم وعواقب الرأي الفقهي قبل التمذهب به.

وفي ذم التناقض في الجانب العملي، نحو قوله تعـــالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ الكهف: ٥٠، فالولاء والعداء لجهة واحدة، أمران متناقضان، فلا يجتمعان لجهة واحدة. ومن هذا النوع الأمر بالمعروف من غير نهي عن المنكر، فإنه تناقض عملي لأن المنكر يهدم المعروف؛ صحيح أن الصلاة تنهى عن المنكر، وأن الإنتهاء عن المنكر يجعل النفس تتقبل المعروف، غير أن التأثير غير المباشر ليس بكاف، بل لابد من مباشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وقد قال تعالى ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ المائدة: ٧٩. وهكذا الأمر في كل وظيفة إذا تم إسنادها إلى من تتناقض خصاله مع إجادة تلك الوظيفة.

مجرد عدم العلم بالأمر ليس نفياً له:

وكذلك عدم ذكر أمر في نص، فإنه لا يعني نفي الحكم عما هو من جنسه ولم يُذكر، إلا إذا كان في النص صيغة حصر بالمذكور. وبعبارة أُخرى: لا يجوز تخصيص العام ولا تقييد المطلق بمفهوم المخالفة للخاص او المقيد.

وأمثلته كثيرة، منها قوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ البقرة: ٣٦؛ فالآية الكريمة تصف الأرض بأنها مستقر لنا بصيغة النكرة في سياق الإثبات، فهي مطلقة

ويمكن أن تشمل الاستقرار المؤقت والمحدود. ولا ينفي ذلك إمكان تحرك البشر خارج الأرض ثم العودة إلى المستقر في الأرض، كالطيران من بلد إلى بلد والرحلات الفضائية. وواضح أن إبقاء المسكوت عنه في حيز الإحتمالات يفتح للإنسان مجالات البحث والإستكشاف.

وقال تعالى ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الأنفال: ٦١؛ فالآية تذكر جنوح المسلمين للسلم حين يبدأ الكافر المحارب بذلك، فمن يذهب إلى أن غير المذكور له نقيض حكم المذكور إذا كان من جنسه، فإنه يزعم عدم جواز أن يبدأ المسلمون بالجنوح للسلم وتسريب الرسائل بذلك. والصحيح أننا لا نحكم على المسكوت عنه إلا بنص يتناوله او بمفهوم له قوة النص المنطوق كمفهوم الإستثناء، وهذا مذهب الحنفية والظاهرية وآخرين. وقد صرح الإمام القرطبي في تفسير الأنفال وابن عاشور في تفسير «سورة محمد» أن للمسلمين أن يبتدئُوا بالمسالمة إذا دعت المصلحة وتخفيف المضار إلى ذلك.

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال « الثَّيِّبُ أحق بنفسها من وليها والبكر تُسْتأمَرُ وإذنها سكوتُها » رواه مسلم. ولما كان الوصف بالثيابة مقابلاً للوصف بالبكارة، فإنه يثبت للبكر عند الشافعية نقيض حكم الثيب عملاً بمفهوم المخالفة!! وذهب أبو حنيفة والظاهرية إلى أن البكر البالغ لا تُـكره على نكاح من يريده لها وليها سواء كان الولي أباً أو غيره. والصحيح أن أحاديث هذه القضية تُبطل إعطاء المسكوت عنه في أمر ما نقيض حكم المنطوق به، وذلك أن الأحاديث الصحيحة توجب إذن البكر؛ فعن ابن عباس أن جارية بكراً أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباها زوجها وهي كارهة فخيَّرها النبي ﷺ. رواه أبو داود وابن ماجه، وصححه شعيب الارنؤوط وعبد القادر الارنؤوط ونقلا تصحيحه عن ابن القيم أيضاً (تحقيق زاد المعاد ٥/ ٩٥=٩٦)، وقد رواه بعضهم مرسلاً وليس ذلك بضار فقد وصله جرير بن حازم وهو ثقة مشهور ولا إشكال عند الفقهاء والأصوليين في

قبول زيادة الثقة. ويشهد له حديث آخر رواه النسائي من حديث عائشة مرفوعاً وصححه الأرنؤوط ورواه ابن ماجه من حديث بريدة مرفوعاً وصححه البوصيري كما نقل الارنؤوط أيضاً. وتوجد أحاديث أُخرى ذكرناها في (تمكين الباحث/ المبحث الرابع، «منهج القائسين في التعليل بالمناسب والمؤثر والشبه»).

استخراج المضامين المتنوعة من النص:

في هذه الدراسة نصوص كثيرة تم استخراج معان متعددة منها، والفضل بعد الله تعالى يعود للمفسرين الذين أجادوا في استنباط فوائد متعددة من الآية الكريمة، كالإمام القرطبي والإمام الرازي وغيرهما رحمهم الله جميعاً. فالمقصود هنا التذكير بهذا الأصل، مع ذكر آية كريمة في المجال العقيدي والعلمي، وآية أُخرى في المجال السياسي والإجتماعي.

قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: ١٦٤؛ فلنتدبر عبارة ﴿ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، فإن النكرة في سياق الإثبات تكون مطلقة ويمكن توجيها إلى كل ما يمكن أن تتجه إليه من المعاني السليمة. فتشغيل العقل في هذه الآيات يمكن توجيهه لمعان متعددة، منها: **المعنى الأول**: أن هذه الآيات تهدي إلى الخالق العظيم المتفرد في تدبير مخلوقاته. **المعنى الثاني**: أن نجعل تلك الآيات مجالاً للدراسة والكشف العلمي والإستثمار لأجل تحصيل المنافع ودفع المضار. وتوجد آيات كثيرة من هذا النوع.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ البقرة: ٢١١؛ فإن تبديل النعمة يشمل أنواعاً، منها: **النوع الأول**: التحول إلى الترف والفسق او الكفر، ومنه قوله تعالى ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ طه: ٨١ ، فتدبر أنه هنا طغيان في الطيبات أي في الحلال. **النوع الثاني**: الترهل والإسراف في التنعم وأخذ أُمور الدين بضعف، مما يؤدي إلى الإنحدار وإهمال المنافسة والمغالبة، حتى يصبح الحال غنيمة يفترسها الخصوم؛ وفي هذا المعنى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ الأعراف: ٩٥، وقد ذكرنا تفسير الآية في أكثر من موضع.

الحذر من كره الرأي الآخر لمجرد أنه مخالف لك:

فلا ينبغي كره مذهب معين إلا إذا تيقنا أنه مخالف للحق، فإن من كره رأياً صحيحاً لمجرد أن لا يعلم صحته او لكونه مخالف للمشهور على ألسنة المتدينين، فإنه قد يُحجَب عن الإهتداء إلى صحته. قال تعالى ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ هود: ٢٨؛ ومعنى عبارة: ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾، أي أُبْهِمَتْ عَلَيْكُمْ عُقُوبَةً لَكُمْ، كما ذكر أبو البقاء في (التبيان في إعراب القرآن). والمفهوم من السياق: أَنُلْزِمُكُمُوها ونجبركم عليها وَأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ لا تلتفتون إليها، وفيه إشارة إلى أن المنكِر لا يمكن له الإستفاضة من أهل الدعوة إلى الله تعالى ولا يكاد ينتفع بهم ما دام مُنكراً كارهاً لما عندهم، ومن لم يعتقد لم ينتفع. هذا حاصل كلام الآلوسي في تفسيره.

ويتصل بذلك قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝٩ ﴾ الحج: ٨ – ٩، فتدبر عبارة «ثاني عطفه» فإن معناها في اللغة: لاوِياً عُنقَه عنك او مائلاً بجانبه عنك، فهي كناية عن الإعراض عن الحق والشعور بالإستغناء عنه، فعاقبته خزي في الدنيا وعذاب الحريق يوم القيامة.

ومن هذا الأصل قوله تعالى ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾ الإسراء: ٤٧، فتدبر أن الله تعالى لم يقل: بما يستمعون إليه، ولكنه تعالى قال في سياق الذم: ﴿ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾، فإن الباء في: «به»، للإيصال بأداة الإستماع او بمنهج الإستماع وهو المراد هنا، وهـذا كما تقول: رأيته بعيني وقاومته بالحجة والفكر وضربته بيدي، فالعقلية او المنهج الذي يستمع به أولئك الكفار كان رافضاً للمسموع مُسبقاً وغير مستعد لرؤية واسعة ولا عميقة ولا منقحة ولا تحليلية.

فينبغي أن نتذكر دائماً قوله تعالى ﴿ .... فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٨ ﴾ الزمر: ١٧ – ١٨؛ ومعلوم أن اتباع الأحسن يقتضي الفحص والمقارنة بين الخيارات.

وهذه قضية يقع فيها كثير من المتدينين ومن المنتسبين إلى العلم، فإن بعضهم قد يحمل قضية شرعية على المعنى الذي يكثر جريانه على الألسن التي يميل إليها، وربما ينظر إلى أدلتها ولكنه لا ينظر فيها، فهي رؤية سطحية من غير دراسة ولا تحليل، ثم يبدأ بالضجيج والصياح في الدفاع عن هـذه الرؤية وفي ذم كل مخالفة، وقد يأخذ بالسفه والسب والشتم، وهو كاره للرؤية المخالفة، وإذا استمع إليها فاستماعه ليس لفهمها ولكن

لرفضها اسـتناداً إلى رؤيته السـطحية، وهو لا يشـعر أنه يقع في إثم كبير وقد يُحجب عن الاهتداء إلى الحق.

الإحتجاج بالإلزامات العقلية:

وهذا كثير في القرآن الكريم، وقد سبق ذكره في المبحث الثاني تحت عنوان: «رؤية النظائر واللوازم».

الوزن والميزان:

قال تعالى ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ الشعراء: ١٨١ – ١٨٣. توجب هذه الآيات الكريمات أن يتعلم المؤمنون مهارات التقويم وبأعلى ما يمكن من الكفاءة، وأن يزنوا أفكارهم وخططهم قبل الشروع فيها. وسنحاول توضيح ذلك باختصار إن شاء الله تعالى:

(أما الكيل)، فإنه فحص لتقدير الشـيء، ويُسـتعمل في الأجسـاد وكذلك في المعاني ، فالمكايلة المقايسـة بالقول والتفكير، وكايل الرجل صاحبه أي واجهه بالكلام كيلاً بكيل، ويُقال: كِلِ الفرس بغيره أي قسـه به في الجري، وإذا أردت علم رجل فكِلْه بغيره.

وقال الأخطل:

فَقَد كِلتُموني بِالسَوابِقِ قَبلَها فَبَرَّزتُ مِنها ثانِياً مِن عَنانِيا

والفرق بين الكيل والوزن، هو أن الكيل يُستعمل في أمور يكون التقدير فيها تقريـبـياً فـي كثير من الأحيان أي أقرب ما يمكن إلـى الحقيقة، كالقياس بالمد والصاع والحجم والطول، وقد يمكن ضبط كيل السوائل بدقة ولكن يتعذر ضبط كيل التمر والفاكهة

ونحوها بدقة متطابقة في كل مرة لأن الكيل يختلف بعض الشيء باختلاف حجوم قِطع الفاكهة ومقدار الرطوبة فيها . وكذلك الأمر في قياس المعاني إلا حين تكون الفوارق جلية جداً وكبيرة.

فمعنى: ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ ﴾ ، الإيفاء بالكيل هو جعله وافياً أي تاماً ، فإذا كان في الأشياء التي يتعذر الإستقصاء فيها كما ذكرنا، فإن تحقيق الإيفاء يكون ببعض الزيادة على الواجب في الكيل، كما نبه إلى ذلك ابن عرفة في تفسيره، اللهم إلا إذا كان في الحق اشتراك يوجب التسوية بين الشركاء . وللتأكيد او التشديد في قضية الإيفاء بالكيل قال تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴾، فالـمُخْسِـر الـمُنْقِص، والعبارة تتضمن النهي عن التنقيص وكذلك النهي عن أن يكـون الإنسـان من جملة المخسـرين. ويتضمن ذلك في تقويم الأشخاص وفرق العمل إعطاء الناس وأعضاء المؤسسة حقهم المادي والمعنوي كاملاً، فإن تعذر الإستقصاء أعطينا زيادة منضبطة من باب الإحتياط. ويؤكد ذلك عبارة: ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ ﴾، فالبَخْسُ: النَّقْصُ، وبَخَسَه حَقَّه يَبْخَسُه بَخْساً إِذا نَقَصَهُ، كما في (لسان العرب)، وهذه العبارة عامة في الناس وعامة في أشيائهم.

(وأما الوزن)، فهو فحص ومعرفة قدر الشيء او ثقله وخفته، من الجهة المادية او المعنوية. قال ابن منظور: الوَزْنُ: رَوْزُ الثِّقَلِ والخِفَّةِ، وَزَنَ الشيءَ وَزْناً وزِنَةً. قَالَ أَبو الْعَبَّاسِ: قَالَ ابْنُ الأعرابي الْعَرَبُ تَقُولُ مَا لِفُلَانٍ عِنْدِي وَزْنٌ أَي قَدْرٌ لِخِسَّتِهِ. وامرأَة مَوْزونةٌ: قَصِيرَةٌ عَاقِلَةٌ. وأَوْزانُ العربِ: مَا بَنَتْ عَلَيْهِ أَشعارها، وَاحِدُهَا وَزْنٌ، وَقَدْ وَزَنَ الشِّعْرَ وَزْناً فاتَّـزَنَ؛ كلُّ ذَلِكَ عَنْ أَبي إِسحاق. وَهَذَا الْقَوْلُ أَوْزَنُ مِنْ هَذَا أَي أَقوى وأَمكنُ. والمِيزانُ: العَدْلُ. ووازَنَه: عَادَلَهُ وَقَابَلَهُ. وَقَدْ وَزُنَ وَزَانةً إِذا كَانَ مُتثبِّتاً. وَقَالَ أَبو سَعِيدٍ: أَوْزَمَ نفسَه عَلَى الأَمر وأَوْزَنَها إِذَا وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَيْهِ. اهـ من (لسان العرب). ولذلك يُستعمل الوزن فيما يوزن بالقبان ونحوه، وكذلك فيما يوزن باعتبار المعاني في تقويم الآراء

والأعمال. قال تعالى ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ الحجر: ١٩، أي مُقدّر بعلم وحكمة. وقال تعالى ﴿ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ الحديد: ٢٥، اللام هي لام التعليل في عبارة ﴿ لِيَقُومَ ﴾ ، فلما كانت الغاية من إنزال الكتاب والميزان هي قيام الناس بالقسط، فلا شك أن الميزان يتضمن الأدوات التي توزن بها الآراء والأعمال ويتم التقويم بها لتحقيق القيام بالقسط، وكثير من قضايا التزاحم تحتاج إلى أدوات او ميزان «شديد التحسس» لتقويم القرار قبل تنفيذه وبعد التنفيذ. وقال تعالى ﴿ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩ ﴾ الأعراف: ٨ – ٩، والمضمون: من ثقلت مزاياه وحسناته ومن خفت مزاياه وحسناته، فالوزن هنا هو وزن النوايا والآراء والأعمال. وتقول العرب: ما لفلان عندي وزن، أي قَدْر، وذلك لخسته. وقالوا: هذا القول أوزن من هذا أي أقوى وأفضل، ورجل وزين الرأي أي أصيله، ووازَنه عادله. والموازنة بين الأُمور المعادلة بينها أي مقارنة تقويم هذا الأمر بذاك.

وقوله تعالى ﴿ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴾، قال ابن منظور: والقِسْطاس: هُوَ مِيزَانُ الْعَدْلِ أَيَّ مِيزَانٌ كَانَ مِنْ مَوَازِينِ الدَّرَاهِمِ وَغَيْرِهَا. اهـ من (لسان العرب). وأما «المستقيم» فهو الثابت الإتجاه، فأصله من أقام فهو مقيم أي ثبت واستقر، ثم نُقل إلى صيغة الإستفعال وكأن الإستقامة هي عملية وجهود تحصيل الإقامة على الحق، والمستقيم هو الحامل لهذا الوصف. وصيغة «استفعل» تُستعمل لوصف الذات نفسها، كقولهم: اسْتَفْحَلَ الأمْرُ، واسْتَحصفَ الشَّيءُ: إذا اسْتَحكمَ، واسْتَعَظَّمَ واسْتكْبرَ. فالمستقيم هو الثابت الإتجاه فلا عوج فيه ولا انحراف. والأمر في عبارة ﴿ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴾، يوجب بذل غاية الجهد كي يكون التقويم مستقيماً إلى الغاية، فلا انحراف فيه، لا بقصد ولا بغير قصد. وليس معنى ذلك أن يكون المؤمن معصوماً من

الخطأ، ولكن يعني ضرورة إتقان مهارات التقويم ومهارات التفكير، والصبر على التنقيح والتعديل، وإتقان مهارات الإعداد الإحتياطي لتفادي آثار الأخطاء المحتملة. فالقسطاس المستقيم هو الميزان الثابت على العدل والسلامة من الإعوجاج مع كل ما يزنه من أُمور، ومع كل من يزنهم او يزن آراءهم وأعمالهم، وبصرف النظر عن الميول العقيدية والمذهبية والعاطفية وبصرف النظر عن الثراء والمنزلة الوظيفية وغيرها.

وتدبر أن مفعول ﴿ وَزِنُوا۟ ﴾ محذوف، وهذا ينبه إلى العموم في الأشياء الموزونة، المادية والمعنوية، بما في ذلك الأعمال المخطط لها والمتوقعة كالمخاطر والأزمات وغيرها، قبل التنفيذ، وكذلك عمليات التقويم أثناء التنفيذ وبعده. ويدل ذلك على وجوب العناية في وزن الأفكار والخطط والأعمال لأجل تقديم الأولويات، أي ما هو أعظم وزناً في المصلحة العامة، وكذلك لترتيب أجزاء العمل والخطط لأجل تحقيق الغاية بأعلى المعايير. فعمليات الوزن تشمل مهارات فهم الحكم الشرعي، ومهارات العمليات التنفيذية. ومما يُقال في هذا المجال: ضرورة العناية بتوازن السلطات وتوازن الأنظمة، كي لا تقضي سلطة على سلطة ولا نشاط شرعي على نشاط شرعي آخر.

فالوزن هو الفحص الذي يمكن للناس التدقيق فيه برجاء أن لا تقع زيادة ولا نقصان ولا انحراف. يساعد على هذه الرؤية أن معايير الحساب في الآخرة جاءت في القرآن الكريم بمشتقات «وزن» كما في آية الأعراف المذكورة قبل قليل، ولم أجدها في القرآن الكريم بمشتقات الكيل. فيقتضي الوزن بالقسطاس المستقيم استعمال أقصى ما يمكن من المعايير لبلوغ الوزن الحقيقي، فإن تعذر ذلك على الناس فينبغي توفية الوزن أي إعطاء زيادة في إجراءات جلب المصالح ودفع المضار، او زيادة للمشتري على نحو ما ذكرناه في الكيل.

ويتصل بذلك أنه توجد أمور كثيرة يصعب على أهل الخبرة حساب درجاتها بدقة كعواطف الناس وطرق استجابتهم للمؤثرات، وتوجد أمور كثيرة يصعب الركون فيها

دائماً إلى الدرجة الإجمالية، وذلك لأنـها تضم في طياتها مواضع ضعف غير ظاهرة ومواضع مخاطرة كبيرة إذا حصل خطأ في الوزن أي في التقويم، وهذا يمكن أن يُفسد الإعتماد على التقويم الظاهري. ويقتضي ذلك مساعدة التقويم الإجمالي بأمرين، أحدهما تقويم تفصيلي للمتعلقات والنتائج التي يمكن أن تقع، الأمر الآخر هو إجراءات احتياطية لتقليل المضار والمخاطر، كتقليل بناء الخطط على مواضع الشك او الضعف في التقويم، والإعداد للإحتمالات.

وفي تقويم الأفكار والخطوات والأعمال التي فيها قدر من الإبهام وتضارب الإحتمالات، فإن عبارة: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾، يمكن أن تشمل أمرين، **الأمر الأول**: الرفق مع صاحب الفكرة او العمل. **الأمر الثاني**: عدم الجزم بالقرار إلا بعد المزيد من الدراسة وحصر الإبهام وتضييق الإحتمالات، والله تعالى أعلم.

ويتصل بذلك قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ البقرة: ١٤٣، فإن في الآية أمرين في غاية الأهمية، **الأمر الأول**: أن واجب الشهادة على الناس إنما هي شهادة على آرائهم وأقوالهم وأفعالهم، كما أن «الوسط» في سياق الشهادة على الناس ولأجلها يدل على غاية العدالة كما ذكر السهيلي وغيره، لأن الوسط مسافته متساوية متعادلة من جميع من يشهد عليهم، فيشهد على الواقع بالحق بصرف النظر عن ميول القلب والأهواء. وأيضاً فإن الشهادة على آراء وأعمال الآخرين يقتضي التأهيل لوزن الآراء والأعمال. **الأمر الثاني**: لما كان المطلوب من المسلم أن يكون شاهداً على آراء الناس وأقوالهم وأفعالهم، فإن ذلك يقتضي أن يُرابط كل مسلم على مجال معين (إن استطاع) وأن يتعرف إلى الأُفق العالمي في هذا المجال وأن يُحاكم إلى الصراط المستقيم ما يريد أن ينتقيه او يشهد عليه من

الأُفق العالمي. معنى ذلك أن المطلوب من المؤمن أن يبلغ مرتبة الأُستاذية العالمية في مجاله. وقد سبق تفسير الآية في الكلام عن الأُفق الواسع.

الأعمال المبنية على المخاوف ونحوها:

مثاله قوله تبارك وتعالى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الأنفال: ٥٨. وقد سبق بيانها تحت عنوان: «الإستشراف المبني على العلامات».

من عوامل التفكير السليم

سبق ذكر عوامل كثيرة في هذا المبحث والذي قبله. وتوجد عوامل أُخرى، ذكرناها في (المنطلق) وفي (نخبة المسار)؛ وهذا العنوان امتداد لما يتصل به فيهما. وقد نذكر هنا سلوكاً من عوامل التفكير السليم، وذلك لأن سلوكاً معيناً قد يفرض نوعاً خاصاً من التفكير. فمن عوامل التفكير السليم:

النفس الطيبة الثابتة:

(أما النفس الطيبة) التي تؤمن بما أنزل الله: فهي بعيدة عن الرذائل وغير مغمورة باللهو والشهوات. وتأثير القرآن الكريم على النفس الطيبة التي تتذكر خالقها هي الحجة الأولى، كما سبق بيانه تحت عنوان «الحجة البالغة لله تعالى».

قال تعالى ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ يس: ١١، فالإنذار المؤثر محصور بهؤلاء.

ومثله قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ النمل: ٨١.

وقريب من ذلك قوله تعالى﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ق: ٣٧.

وتدبر أن العلامات التي تهدي إلى الله يفهمها من في قلبه إيمان، قال تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ الحجر: ٧٢ – ٧٧.

وتدبر قوله تعالى ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ الزمر: ٢٢، الشرح: فتح الشيء بإذهاب ما يصد عن الإدراك، كما في موضع آخر من (تفسير ابن فورك). وأما القلوب القاسية فهي التي أغلقت منافذ دخول الحق فلا تتفاعل مع مضامين الحق.

وقد ذكرنا في (المنهج الفريد) تفسيراً مفصلاً لقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ الواقعة: ٧٧ – ٨٠، ومعنى«مكنون» من كنَّ الشَّيءَ: أخفاه وستَره وصانه؛ والمس في الآية الكريمة مس معنوي، من نوع قوله تعالى ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الأنعام: ١٧. فمعاني القرآن مكنونة في المصحف ولا يفهمها وينتفع بها إلا المطهرون.

(وأما النفس الثابتة بالإيمان): فهي النفس التي رسخ الإيمان في قلبها، وليس هو هدياً ظاهراً غير مرتبط بالقلب. يوضح الأمر قوله تعالى ﴿ **وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ** ﴾ الأعراف: ١٧٥؛ قال ابن فارس: السِّينُ وَاللَّامُ وَالْخَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِخْرَاجُ الشَّيْءِ عَنْ جِلْدِهِ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة). فذاك الرجل جعل الدين غلافاً خارجياً غير مرتبط بالقلب، فسهل عليه أن ينسلخ منه. وأما إذا كان الإيمان الذي في القلب هو المنتِج للهدي الظاهر، فهذا هو الثابت بإذن الله تعالى، وسيأتي تفسير أكثر تفصيلاً تحت عنوان «إفراغ القلب من الحق»، إن شاء الله تعالى. وقال تعالى ﴿ .... **وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٌ** ﴾ الأعراف: ٢٦، فلما كانت التقوى في القلب، فلباس التقوى هو الهدي الظاهر الذي يحركه قلبُ التقي. فعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « التَّقْوَى هَاهُنَا – وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ – » رواه الإمام أحمد في سياق حديث، وجوَّد الإسناد شعيب الأرنؤوط، بل صحح الحديث لتعدد أسانيده.

جودة التفاعل مع الخير:

يوضح الأمر أن إنتاج الأفكار ومعرفة المهارات الفكرية إنما تظهر قيمتها حين نُـحسِـن توظيفها وجعلها فاعلة في خدمة الخير.

قال تعــــالى: ﴿ **أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٌ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ** ﴾ الحديد: ١٦، فهذا عتاب لطيف يوضح للمؤمنين أنه آن أوان التفاعل والإرتقاء في الصلاح، فإن إطالة الأمد تؤدي إلى القسوة؛ ومعنى القسوة هو فقدان او ضعف التفاعل مع المؤثرات التي ينبغي التفاعل معها.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ فاطر: ٣١ – ٣٢؛ توضح الآية تفاوت المؤمنين في جودة التفاعل، ففي تفسير الآية الثانية أقوال متعددة، لعل أقربها إلى سياق الآية إن شاء الله تعالى، أن اصطفاء العباد أمر عظيم، فعلى تقدير أن المسلم الظالم لنفسه بالكبائر ليس من المصطفين، فالآية الثانية ليست خبراً عن طبقة المصطفين بأن فيها ثلاث مجموعات، ولكن يشمل معناها الطبقات المتتابعة ابتداءً بأصحاب رسول الله ﷺ، وأن «مِنْ» في «فمنهم» وما بعدها لابتداء الغاية او المنشأ، أي: فخرج منهم او تَوَلَّد منهم. فالآية الأولى تتكلم عن الكتاب الذي أوحاه الله تعالى إلى محمد عليه الصلاة والسلام؛ وبعد ذلك أورث الله الكتاب أي القرآن الذين أصطفاهم أي اختارهم الله تعالى من المسلمين وعلماء الإسلام، فخرج منهم ظالم لنفسه وهي عبارة عامة تشمل الكافر والمنافق والمسلم الفاسق، وخرج منهم مقتصد أي متوسط في التقوى، وخرج منهم سابق بالخيرات. وأما عبارة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾، فإما أن ترجع إلى الذين اصطفاهم الله تعالى لأنهم أصل الكلام وليس إلى كل من خرج منهم، وإما أن ترجع إلى المقتصد والسابق بالخيرات، ولا يصح أن تشمل الظالمين إلا من انفصل عنهم بعد غسل ذنوبه. وأما الوعد بالجنة في الآية التي بعدها، فهو للسابق والمقتصد ولمن دخل الجنة بعد الحساب. يساعد على هذا التفسير أن ابن عباس ومجاهد وعكرمة فسروا الظالم لنفسه هنا بأنه الكافر او من أهل النار او من أصحاب المشأمة كما في آية الواقعة، روى ذلك عنهم الطبري، ونقل الطبري عن الحسن وقتادة أن الظالم لنفسه هو المنافق، ولا شك أن الكفار والمنافقين ليسوا من المصطفين، فلا يصح أن تكون «مِنْ» في «فمنهم» تبعيضية، والله تعالى أعلم.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ الحشر: ١٨؛ الآية الكريمة توجب على المؤمن أن يُقَوِّم ما سبق أن فعله، وهل يصلح لغد أم يحتاج إلى تحسين وتطوير؟

وقال تعالى: ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ النساء: ١١٤؛ وتقدير الآية: إلا نجوى من أمر بصدقة او .... فتدبر الثناء العظيم على النجوى المستثناة. والنجوى هو تفاعل بين جماعة قليلة العدد، ولكن يمكن أن تبلغ المعالى في مجالات النجوى المستثناة، وهي الأمر بالصدقة وأعمال الإغاثة، والأمر بالمعروف مع إتقان مهاراته، والإصلاح بين الناس بمجالاته الكثيرة والكبيرة.

وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ المائدة: ٢. فهذه صيغة أمر توجب مضمون الآية.

والتفاعل الجيد مع الخير يستلزم تفاعلاً مضاداً للشر وللإسراف فيما يُشغل عن المطالب العالية، أما التفاعل المضاد للشر فسيأتي قريباً تحت عنوان: «العداء للظلم والفساد» إن شاء الله تعالى. وأما التفاعل المضاد لما يُشغل عن المطالب العالية، فيوضحه:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ المنافقون: ٩؛ فمن فوائد التفسير، **الفائدة الأولى**: النهي في الآية يفيد التحريم، يؤكد ذلك عبارة ﴿ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾. **الفائدة الثانية**: الإلهاء بالأموال والأولاد ليس للحصر،

ولكن لأن القيام بالأولاد والأموال واجب، ومع ذلك يجب أن لا تُشغل عن ذكر الله تعالى، فالتحريم أشد في أنواع التسلية التي ليست بواجبة. **الفائدة الثالثة**: ذكر الله ليس محصوراً بالذكر القولي كالحمد والتسبيح والتكبير، فإن أصل التذكر في القلب وما يؤدي إليه من قول وعمل. **فالعبارة عامة في ذكر الله في شأننا كله**، أي في الصلاة ونحوها وفي القضايا الاجتماعية والسياسية وغيرها.

التفكير القوي بالمعالي:

نصوص مغالبة الآخرين توجب التوجه إلى المعالي والتفوق فيها، كقوله تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ البقرة: ١٤٨؛ وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران: ٢٠٠، وقد سبق تفسير ذلك باختصار في الكلام عن التركيز في المبحث الثاني، ثم ذكرنا المزيد في تفسير آية البقرة تحت عنوان «مهارات إنتاج وإنضاج الأفكار»، وستأتي تفاصيل وأدلة أُخرى في المبحث الرابع أي تفسير آية الإقتحام إن شاء الله تعالى.

ومن ضوابط ذلك، ما ذكرناه في (نخبة المسار) كقوله تعالى ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ يس: ١٢، ومعنى ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾، أي نتائج أقوالهم وأعمالهم وما تؤدي إليه على طول الزمن من مصالح او مضار. وواضح أن الآثار قد تكون آلاف الأضعاف لأصل القول او العمل او أكثر من ذلك. ونظير ذلك كما ذكر القرطبي قوله تعالى ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ القيامة: ١٣، وقوله تعالى ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ الانفطار: ٥ .

وقال تعالى ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ الكهف: ٤٦، فالأفضلية لما هو أبقى أثراً من جلب المصالح ودفع المفاسد. ولذلك فإن المعالي هي ما كان

أعظم صلاحاً عند المقارنة مع الخيارات الأخرى، وكان أبقى أثراً عند دراسة العواقب والمآلات المحتملة، ومع جودة الموازنة بين المنافع والمضار خلال المسار التنفيذي. وبذلك نفهم معنى الأحسن والأهدى في نحو قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الملك: ٢، وقوله تعالى ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ الإسراء: ٨٤ ، فإن الأحسن والأهدى هو ما كان أفضل من سائر الخيارات عند المقارنة.

وترجع المعالي كلها إلى مضامين قوله تعالى ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ الفاتحة: ٦ – ٧، فالإتجاه إلى معالى الأُمور يعتمد على المغالبة في ثلاثة أُمور، **الأمر الأول**: الفهم الواسع والمتقن للمرجعية الشرعية (الصراط المستقيم). **الأمر الثاني**: المغالبة في تحصيل النِّعَم المعنوية والمادية، فإن هذه النِّعَم هي وسائل المغالبة ووسائل إقامة الدين. **الأمر الثالث**: مكافحة أسباب التخلف والإنحدار، أي مكافحة أسباب غضب الله تعالى وضلال الأعمال.

وقد ذكرنا في (نخبة المسار/ المبحث السادس: «إدارة النفس والأعضاء») جملة من الأدلة والفوائد في المكارم والمعالي وفي غيرها مما يحتاجه المؤمن، وسيأتي المزيد هنا في المبحث الرابع عن الإقتحام، إن شاء الله تعالى.

أن تفكر وتخطط للأفضل:

أي لأفضل ما تقدر عليه الآن، وما هو أكبر بكثير للمستقبل، فإنما ينال المجد لأُمته من يفكر به ويرجوه من الله ويعمل له. وتدبر قوله تعالى ﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ الكهف: ٩٤ – ٩٥، فتدبر أنهم

طلبوا سداً وهو حاجز يمكن العلو عليه، فكان جواب ذي القرنين: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾، أي خير مما طلبتم، فاختار ذو القرنين ردماً، والردم كالدفن يغلق المنافذ كلها؛ ولا يزال ردم ذي القرنين رحمه الله فاعلاً إلى الآن.

ويؤكد حكم فعل ما هو خير من غيره، قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ الملك: ٢، فالأحسن هو الخيار المتفوق، ولا حجة لمن زعم أن معنى التفضيل غير مراد وإنْ كانت الصيغة صيغة تفضيل!!!

وقال تبارك وتعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ فصلت: ٣٤ – ٣٥، فتدبر أن الله تعالى لم يقل هنا: ولا تستوي الحسنة والسيئة، ولكنه تعالى كرر «ولا» مع ذكر السيئة أيضاً. ولما كان تأسيس المعاني مقدماً على توكيدها، فإن «ولا» الثانية غيرُ مؤكِّدة؛ إذ يُراد بالحسنةِ الجنسُ، وكذلك السيئة، فكلُّ واحدٍ منهما متفاوتٌ في جنسِه؛ لأنَّ الحسناتِ درجاتٌ متفاوتةٌ، وكذلك السَّيئاتُ. وقد ذكر هذا الوجه السمين الحلبي في (الدر المصون). وبعد ذلك قال تبارك وتعالى ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾، أي بالحسنة المتفوقة على سائر الحسنات، وهي هنا الإحتواء السلمي، بدليل عبارة ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾.

ويتصل بذلك، عدم إغفال الجهود الممكنة، قال تعالى ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ آل عمران: ١٦٧، فتدبر عبارة ﴿ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ﴾، فإن متعلق «ادفعوا» محذوف، فيمكن أن يكون التقدير: إن لم تقاتلوا فادفعوا العدو عنا بتكثير سواد الجيش او القيام بالأعمال غير القتالية التي يحتاجها الجيش؛ وتكثير

السواد تفسير مشهور. ويمكن أن يكون التقدير: إن لم تقاتلوا لوجه الله، فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وحريمكم، ذكره السمرقندي. وحكم عبارة ﴿ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ﴾، خاص بما قبل ظهور علامات النفاق، وأما بعد ظهورها فإن المطلوب هو إبعادهم عن الصف الأمني، فقد قال تعالى ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ التوبة: ٤٧. وأما عند انتفاء علامات النفاق فإن حكم ﴿ أَوِ ٱدْفَعُواْ ﴾، تشمل نظائره من الأعمال الثانوية التي تنفع العمل الجهادي وغيره. ومن المفيد تشغيل أكبر عدد ممكن من المواطنين.

ويتصل بذلك أيضاً، قوله تعالى ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا .... ﴾ التوبة: ٤٧، فمما تنبه إليه الآية الكريمة أنك إذا كنت ضمن مجموعة صغيرة او كبيرة فينبغي أن يزدادوا خيراً بك، أي بما تقوله او تفعله. فعلى كل مؤمن أن يؤهل نفسه لينفع أداء الجماعة.

إتقان التفكير وتنمية الوزن المعنوي:

(أما إتقان التفكير)، فلأن إتقان التفكير يؤدي إلى عمل متقن. وقد قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ النساء: ١٢٥؛ وقال تعالى ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ لقمان: ٢٢. معنى الآيتين: من أسلم وجهه لله وهو متقن في معرفة دينه وفي العمل به، فلا أحسن منه كما في آية النساء، وقد استمسك بالعروة الوثقى كما في آية لقمان. يوضح الأمر أنك إذا قلت: أحسنَ زيد إلى سعيد، فإن

الإحسـان هنا عطاء الخير، سـواء كان مالاً او علماً او غير ذلك. وأما الإحسـان إذا اتصل ظاهراً او تقديراً بفكر او عمل فهو إتقان الخير، ومنه قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾ السجدة: ٧، وكذلك قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ الكهف: ١٠٤.

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: « إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَـانَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِـنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَـفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » رواه مسلم وأحمد وغيرهما؛ والأصل في معنى « إِنَّ اللهَ كَتَبَ » أي إن الله فرض وأوجب.

وما أجمل قول ابن الوردي:

قيمـةُ الإنسـانِ مـا يحسِـنُـهُ   أكـثـرَ الإنسـانُ منـهُ أوْ أقـلْ

(وأما تنمية الوزن المعنوي)، فقد قال تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ الروم: ٦٠، أي لا يجدونك خفيفاً يمكن تحريكه وفقاً لإرادتهم وأهدافهم. وقد أدت مهارات التحريك العدائي إلى تدمير شـعوب وشـلِّ إرادتـهم. ومنه قوله تعـالى ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الزخرف: ٥٤ – ٥٥، أي وجدهم خفافاً او جعلهم خفافاً بسياسات تنمية التخلف وبإغراق الفكر بالأزمات والتفاهات وبالترويض، بل وبعمليات الإعداد للمقتل، إذ جعلتْهم خفتهم مسارعين في خدمة طغيان سيدهم؟ وتُكافَح الخفة بزيادة وتحسين الثقل المعنوي في أمرين، **الأمر الأول**: شدة الإلتزام بالمرجعية الشرعية، فلا يتحرك خلافها إلا بضوابط الإضطرار. ويقترن ذلك بالمرونة التنفيذية وبالنظر في الخيارات والبدائل، ولكنه جملة وتفصيلاً ضمن

الإطار الشرعي. **الأمر الثاني**: تنمية المهارات الفكرية كالأُفق الواسع وقوة الملاحظة والرؤية العميقة والمنقحة والتحليلية، ونحوها مما يساعد على تشخيص عمليات التحريك العدائي وجودة التعامل لمكافحتها.

تنقية المضامين المتبناة والتخلي عن القضايا الخاسرة:

(أما العقيدة اليقينية)، فأدلتها كثيرة ومعروفة، وقد ذُكر معنى «المرية والشك» في أكثر من موضع في هذه الدراسة، ونكتفي هنا بقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤.

(وأما تنقية المضامين المتبناة)، فالمقصود معالجة الأخطاء والتخلي عن القضايا الخاسرة. قال تعالى ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ البقرة: ١٥٠، فتدبر عبارة ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾، فهي جملة جديدة (استئنافية) ومرتبطة معنوياً بما قبلها، وتفيد التعليل (أي بيان السبب)، واللام في «لئلا» تفيد التعليل وهي متعلقة بمحذوف. والتقدير: أمرناكم بذلك في شأن القبلة لئلا يكون للناس عليكم حجة. وهذا التقدير هو مقتضى قول الزجاج وأبي البقاء العكبري وظاهر كلام النسفي. ومن المهم هنا أن كلمة «حجة» في عبارة ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾، هي نكرة في سياق النفي، وتفيد العموم، ولها حكم النهي لأن الواقع يمكن أن يكون على خلافها، فهي خبر عن حكم الشرع وليست خبراً عن الواقع؛

والمعنى: لا تجعلوا للناس عليكم حجة. وأما شأن القبلة فهو مثال على ذلك وفرد من أفراد العموم.

ويتضمن هذا النظر وجوب أن نراجع ما نتبناه من آراء فقهية وتبريرات من تأريخ المسلمين، وتبريرات من تأريخ الجماعات الإسلامية المعاصرة والمواقف المحسوبة على الإسلام. ويجب في كل ذلك التخلي بصراحة عن القضايا الخاسرة التي تجعل للآخرين حجة صحيحة علينا. وأما عبارة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾، أي إلا الذين ظلموا في احتجاجهم، أي احتجوا بالأباطيل وأساؤا في الإحتجاج، فهؤلاء مبطلون ويمكن ردهم بقوة او إهمالهم لوضوح جوانب الخطأ والإساءة عندهم.

ويتوهم بعض المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية او العلوم الشرعية، يتوهمون أن التمسك ببعض الأخطاء خير من التنازل الفكري أمام الخصم، وهذا من وحي الشيطان فإن التمسك بباطل يُفسد العمل ويذهب بالبركة ولا يأتي إلا بالشر.

العداء للظلم والفساد:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ النور: ٢١، وتشمل الفحشاء والمنكر كل أنواع الظلم والفساد، فهذه خطوات الشيطان، وحكمها المعاداة، فقد قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ فاطر: ٦.

وقال تعالى: ﴿ ... وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ الحجرات: ٧؛ ومعنى «وكَرَّه إليكم»، أي: بَغَّضَ إليكم، على وزن: ثَقَّبَ وجَرَّبَ. والكره عَلَى خِلَافِ الرِّضَا وَالْمَحَبَّةِ،

كما في (معجم مقاييس اللغة)، ويُقال: أمر كريه ووجه كريه. ومعنى الآية: أن الله تعالى ألقى في قلوبكم او أنزل إليكم ما يقتضي منكم كراهة كل ما هو كفر وكل ما هو فسوق وكل ما هو عصيان، لأن الألفاظ جاءت بصيغة العموم. وأما من فسر الآية بنوع من أعمال الكفر او الفسوق او العصيان، فكلامه لمجرد التمثيل وليس للحصر. وهذه الكراهة تستلزم الشعور بالإنكار لكل ما هو كفر او فسوق او معصية، ولذلك جاءت النصوص بالنهي عن المنكر، وهو عام في الكفر والفسوق والعصيان، يكره المؤمن طاعة لله تعالى فينكره.

وقد أنكر الله تعالى غاية الإنكار على من فقد الشعور بنكارة المحرمات، قال تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾ المائدة: ٧٨ – ٧٩.

قال تعالى: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ النساء: ١٤٨، الآية الكريمة توضح بقوة حق المظلوم أن يجهر بالسوء من القول فيما يتعلق بمظلمته، وتوجد أدلة أخرى تُشَرِّع للآخرين مساندة المظلوم في ذلك، وقد ذكرنا تفسير الآية في كتاب (أهل البيت).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ القصص: ١٧، أي لن أكون معيناً ولا ناصراً لهم في جرائمهم.

وقال تعالى ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ هود: ١١٣، رُكن الشيء جانبه الأقوى كما في (معجم مقاييس اللغة)، او جانبه الذي يُسكن إليه كما في (المفردات). فالآية تنهى أن يجعل المؤمن

من الظالمين ركنه الذي يطمئن ويسكن إليه. ففي حال وجود علاقات قانونية مشروعة بين الطرفين، فإن الآية توجب المراقبة ومتابعة الإلتزام.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ الشعراء: ١٥١ – ١٥٢، واضح من الآية أن مسار المسرفين مسار خاطئ ويجب اجتنابه. والإسراف تجاوز مذموم للحدود، سواء كان في التفكير او في العمل، فهو في الشرع تجاوز الحدود المشروعة، وله أشكال متنوعة. قال تعالى ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ الأعراف: ٨١؛ وقال تعالى ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ الإسراء: ٣٣؛ وقال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٧.

وأما قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ الفرقان: ٦٧، فكل إنفاق على معصية فهو إسراف، وكل مبالغة في الإنفاق على المباحات فهو إسراف إذا أشغل المؤمن عما يجب عليه.

ومن مضامين هذا العداء الإهتمام الشديد بمكافحة الظلم والفساد ، وكذلك وضع حواجز منيعة (قانونية وإدارية وأمنية) بين المصالح الخاصة من جهة، والقرار العام من جهة أخرى، فلا يمكن للمنافع الخاصة بحال من الأحوال أن تتحكم في القرار العام والمصلحة العامة.

ومن مضامين ذلك أيضاً مكافحة الفساد الظاهر والباطن او المباشر وغير المباشر، وهذا من خصائص الإسلام، كما في قوله تعالى ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ

ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٠، وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ الأنعام: ١٥١.

ومن المعلوم أن العداء للظلم والفساد متجذر في قلوب أهل الحق ويستلزم نوعاً من الغضب لحرمات الله تعالى. غير أن الغاية الكبرى لأهل الحق هو الإصلاح ونصرة الحق تحت غطاء شامل من العقل والحكمة والرؤية المنقحة للحاضر وللعواقب المحتملة، ومن غير خضوع لسطوة الغضب وشهوة الإنتقام والتنكيل.

ويجب في مكافحة الظلم والفساد أن يقترن بقوة بمشروع الإصلاح والتغيير. ونُذكِّر هنا بحديث أبي سعيد الخدري قال سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ. » رواه مسلم وغيره. وقد بينا في (المنطلق) وغيره أن اليد في مثل هذا السياق هي القوة الفاعلة وليست بالضرورة القوة الضاربة، ولذلك تُستعمل كناية عن العمل، كقوله تعالى ﴿ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ﴾ البقرة: ١٩٥، أي بعملكم، وقوله تعالى ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ ﴾ الروم: ٤١، أي بما عملوا بصرف النظر عن وجود او عدم وجود العنف. وواضح من حديث أبي سعيد أن « منكراً » نكرة في سياق الأمر فهي مطلقة بصرف النظر عن نوع المنكر ومن هو فاعل المنكر، ولكن يكون ترتيب التغيير بحسب متطلبات الأولويات والموازنات بين المنافع والمضار.

وفي غيرالجهاد القتالي، فإن الرفق في العمل مقدم على العنف في الرتبة او الأولوية، وذلك لنحو حديث عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ » رواه مسلم. وعَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ « إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ » رواه مسلم وغيره. وعَنْ جَرِيرٍ البجلي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ « مَنْ يُحْرَمِ

الرِّفْقَ ، يُحْرَمِ الْخَيْرَ » رواه مسلم وغيره ، وفي رواية « مَنْ يُحْرَمُ الرِّفْقَ يُحْرَمُ الْخَيْرَ كُلَّهُ » رواه أبو داود وصححه الألباني. ولا شك أن الزيادة في استعمال العنف تقترن بركود التفكير وبالنقصان في استعمال العقل، وهذه مصيبة كبيرة.

وينبغي لذلك إطلاق التفكير في تعلم وإتقان المهارات العملية غير العنيفة في التغيير، ويحتاج ذلك إلى صبر وحظ كبير من الحكمة، قال تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ فصلت: ٣٤ – ٣٥ .

وحدة الإتجاه:

يستلزم وحدة الإتجاه منع تضارب الإتجاهات المباحة في أصلها. قال تبارك وتعالى ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ..... ﴾ الأحزاب: ٤. وقد ذكرنا في (نخبة المسار) تفسيراً مفصلاً للآية الكريمة. ومختصر ذلك في أمرين، **(الأمر الأول)**: ينبغي للمؤمنين أن يكون لهم عقل واحد في المصالح العامة والغايات العليا وفي مساعدة بعضهم البعض وفي رفع الظلم بينهم. وقد يُطلق على ذلك عند خبراء القيادة والإدارة: عقل الجماعة او روح الجماعة او روح الفريق. وقد ظهر ذلك واضحاً في مثال للقيادة الجماعية، فقد بعث النبي ﷺ معاذاً وأبا موسى إلى اليمن وقال لهما « وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا » رواه مسلم والبخاري وغيرهما. وقال تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ آل عمران: ١٠٥، فيجب الإجتهاد في توليد الأفكار التي توحد الرؤية في القضايا التي يَعُمُّ تأثيرها ويمكن أن يؤدي الإختلاف فيها إلى التفرق، وإنْ تعذر ذلك فتوحيد العمل. ويؤسَسُ على وجوب التطاوع وجوب إعداد أنظمة ووسائل التطاوع، أي أنظمة التوافق على عمل

واحد وإن كانت الآراء مختلفة. معنى ذلك وجوب توحيد الإتجاه الإستراتيجي للمصالح العليا. ويؤسَس على ذلك أيضاً أن المؤسسات المتعددة وإنْ تنوعت وظائفها فإن بعضها يساند بعضاً، وتتجه كلها إلى تحقيق المصالح العامة والغايات العليا وكأنها قلب واحد، فلا يجوز أن يحصل تناقض استراتيجي بين وظائف المؤسسات المتعددة. فإن حصل ذلك التناقض فإنه ينبه إلى فساد الأهلية او خيانة الواجب الوظيفي او التقصير فيه. بل إن المعاكسة العملية المتعمدة للإتجاه الإستراتيجي في المصالح العليا قد يصل إلى درجة الخيانة. **(الأمر الثاني)**: واضح من امتناع حمل المتناقضات أن عقل كل عامل يجب أن لا ينقسم بين المتناقضات، فكل وظيفة يقوم إتقانها على المغالبة والمنافسة فلا يصح لموظف واحد أن يشتغل فيها وفيما ينافسها في وقت واحد. ولنضرب مثلاً مهنة الطبيب، فإنها مهنة رفيعة، ويقوم إتقانها في المؤسسة على التطوير والمغالبة، فإذا كانت وزارة الصحة تسعى لتقديم أفضل الخدمات لعامة المواطنين (الضمان الصحي)، فإن هذه الغاية تجعل التزاحم كبيراً بين غاية ومنافع المؤسسة العامة من جهة، وارباح المؤسسات الصحية الخاصة من جهة أخرى، لأن أرباح المؤسسة الخاصة تقوم إلى حد كبير على عدم كفاية المؤسسة العامة. ولذلك فإن الصحيح أن الطبيب في عمله الطبي ينبغي أن يكون متفرغاً للعمل الحكومي او للعمل الخاص من غير خلط بينهما، وهكذا الأمر في وظائف كثيرة جداً، ولكن من مستلزمات التفرغ أن يُعطَى الموظف حقه وكفايته. يوضح ذلك التنافس في الفروسية والرياضة، فلا يصح للاعب معين أن يعمل في الفريقين في وقت واحد لأنه سيفسد الفريقين او ينحاز إلى أحدهما، ولأن السباق قائم على منافسة الآخر ومغالبته. وأيضاً فإن كل وظيفة عالية الأهمية تحتاج من الموظف أن يعطيها أعظم ما يمكن من قلبه (أي عقله ومشاعره) لغرض إتقانها وتطويرها والمغالبة فيها.

....

رؤية المراحل ومقتضياتها:

قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ الأحقاف: ١٥. فتدبر عبارة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾، فالأَشُدُّ جَمْعُ شِدَّةٍ، أي بلغ اكتمال قواه الأساسية، ويقتضي ذلك أن لا يقف، بل يستمر بتنمية قواه الأساسية بالتدريب والتجربة والعلم والتفكير. المهم أن يرى أين بلغ وما هو تأهيله ولأي شيء يصلح؟

وعلى هذا الأصل قوله تعالى ﴿ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ ﴾ الفتح: ٢٩، فهذه أربع مراحل، ولكل مرحلة خصائص ومقتضيات. فإذا كنت في المرحلة الثانية فلا يصح أن تتصرف وكأنك قد تجاوزت المرحلة الرابعة. وقد ذكرنا تفسيراً مفصلاً للآية في الكلام عن التدرج في (المنطلق). وهكذا الأمر في نمو الأشخاص والمجتمع والمؤسسات والأعمال والدول، يجب التفكير بما يصلح للمرحلة مع الإعداد لبلوغ المرحلة التالية.

ضبط النفس:

لا ريب أن كل حركة في النفس توهن الحكمة او تُغيّب بعض البصيرة فهي حركة مذمومة وينبغي ضبط النفس لإخمادها او إزاحتها، ويمكن مراجعة (المنطلق) فقد ذكرنا فيه جملة من عوامل تغييب البصيرة، منها الفتور والغضب والتسرع وعدم استقرار الدوافع العقيدية والهوى.

وتدبر ماذا يمكن أن يفعل عدم ضبط النفس حين تُـبْهَرُ النفس (أي تُغلب) بمُغْر او مُـخيف، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ يوسف: ٣١ .

وتدبر قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ المعارج: ١٩ – ٢٤ ، وانظر الآيات بعدها. فأما الهلع، **فقال ابن منظور**: قَالَ الْفَرَّاءُ: الهَلُوعُ الضَّجُورُ، وَصِفَتُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً، فَهَذِهِ صِفَتُهُ. والهَلُوعُ: الَّذِي يَفْزَعُ ويَجْزَعُ مِنَ الشَّرِّ. قَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ: قَالَ أَبو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ: رجلٌ هَلُوعٌ إِذا كَانَ لَا يَصْبِرُ عَلَى خَيْرٍ وَلَا شَرٍّ حَتَّى يَفْعَلَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَيْرُ الْحَقِّ، وأَورد الْآيَةَ. اهـ من (لسان العرب). وأما الجزع، فهو نقيض الصبر وهو انقطاع النفس عن حمل ما نزل. فالهلع بسبب الخسائر المادية او بسبب الخوف من عدم تحصيل المطامع يجعل الهلوع يركز كل تفكيره على الكسب المادي وإن كان بالحرام وبالعدوان بغير حق، إلا المصلين والذين ذكرهم الله تعالى في سورة المعارج.

ولنتدبر قوله تعالى ﴿ .....أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٣٣ – ١٣٤، كظم الغيض حبسُ الكرب والغضب، وكتمانه على الرغم من إمتلاء النفس به. ولفظ ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ﴾، مجرور بأنه صفة المتقين في الآية التي قبلها، او منصوب بمعنى إرادة هؤلاء وهؤلاء، كأن يكون التقدير: أعني الذين ينفقون والكاظمين الغيظ. ولذلك فإن كظم الغيظ ليس من النوافل، بل هو تعريف للمتقين، ومعلوم أن جنس التقوى واجب.

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ « فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟»، قَالَ قُلْنَا: الَّذِي لَا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ، قَالَ « لَيْسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » رواه مسلم والبخاري وغيرهما.

ويتصل بذلك أحاديث وعوامل أُخرى ذكرناها في (المنطلق) تحت عنوان «ضبط النفس».

ضبط الراحة:

قال تبارك وتعـــالى ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾ الشرح: ٥ – ٨. فتدبر أن اليسر مع العسر قبل أن يكون بعده. ثم قال تعالى ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾، بالفاء التي تفيد ربط المعاني، وليس بالواو كقولك: وإذا فرغت. والنصب التعب، والفراغ نقيض الشغل. **قال الإمام الزمخشري رحمه الله:** فإن قلت: فكيف تعلق قوله فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ بما قبله؟ قلت: لما عدد عليه نعمه السالفة ووعده الآنفة، بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها، وأن يواصل بين بعضها وبعض، ويتابع ويحرص على أن لا يخلى وقتا من أوقاته منها. فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى. اهـ من (تفسير الزمخشري). وينبه كلام الزمخشري إلى أُصول نحوية، الأول: أن الفعل الماضي «فرغت» يُراد به وقوعه في المستقبل، ولا شك في ذلك حين يكون جواب الشرط بصيغة الأمر أي «فانصب». الأصل الثاني: أن الأصل في جواب الشرط أي «فانصب»، أن يكون في حكم القائم بمجرد أن يقع فعل الشرط أي «فرغت»، وهذا واضح جداً حين يتصل الجواب بالفاء. **وقال ابن فورك:** ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾، خطاب للنبي ﷺ والمراد جميع المكلفين من أمَّته. اهـ من (تفسير ابن فورك في المكتبة الشاملة). فمن فوائد آيات الشرح:

(الفائدة الأولى): الفراغ كالمعدوم عند المؤمن، فهو لنحو إلتقاط الأنفاس او التعافي من مرض حاد او لتقويم ما سبق او لما هو ضروري من النوم. وبخلاف ذلك فإن المؤمن إذا فرغ من واجب انتقل بقوة إلى غيره، فهذا مما تعنيه عبارة ﴿ فَٱنصَبۡ ﴾، أي فاتعب، يُقال: نَصِبَ نَصَباً أي أَعْيَا، وعيشٌ ناصِبٌ فيه كَدٌّ وجَهْدٌ، كما في (المحكم). وَقد أَنْصَبَه الدَّاء، كما في (المخصص). وقال ابن منظور: النَّصَبُ: الإِعْياءُ مِنَ العَناءِ. والفعلُ نَصِبَ الرجلُ، بِالْكَسْرِ، نَصَباً: أَعْيا وتَعِبَ؛ وأَنْصَبه هُوَ، وأَنْصَبَني هَذَا الأَمْرُ. وهَمٌّ ناصِبٌ مُنْصِبٌ: ذُو نَصَبٍ. اهـ من (لسان العرب). فالتدريب على التعب والمصاعب يُقوي الرأي، يدل على ذلك النظر في عواقب النقيض أي اعتياد النعومة والراحة، قال تعالى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨ ﴾ الزخرف: ١٦ – ١٨، صيغة الآية الثالثة تشمل المرأة إذا نشأت في الحلية والنعومة، وكذلك تشمل الرجل إذا نشأ في الزينة والنعومة. ولذلك كان التدريب على الحزم وقوة الإلتزام مطلوباً لحشد طاقات الجنود العسكريين وغير العسكريين، قال تعالى ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾ النمل: ١٧، فتدبر معنى «يوزعون»، فإن الوَزْع هو التوجيه بقدْر من الحزم، لأنه يُطلق على الكَفِّ والمنع، يُقال: وزع فلان فلاناً عن الظلم أي كفَّه عنه، والوازِع الزاجر عن الشيء والناهي عنه، ويُطلق كذلك على الإلهام والتبصير، وعلى ذلك تفسير قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ ﴾ النمل: ١٩. فعمليات السَّوْق تقتضي الكثير من التوجيه والحزم لإتقان التوزيع وضبط الحركة والإنتشار ومنع التشتت والشذوذ. ولعل أقرب شيء إلى هذه

المعاني هو العمل الذي يحتاج إلى اقتحام العقبات والمصاعب، وسيأتي تفسير آية الإقتحام إن شاء الله تعالى.

(الفائدة الثانية): المفروغ منه محذوف، ويفيد الحذف العموم في كل واجب تتصدى له، وهذا كقولك: «لا تسرق» من غير ذكر المسروق، فإنه يفيد العموم في كل مسروق. وعلى ذلك، فإن ما ورد عن السلف في تحديد المفروغ منه وما بعده، كقول بعضهم: إذا فرغت من الجهاد فانصب للعبادة، فهذا ونحوه مجرد أمثلة ولا تفيد التعيين ولا الحصر.

(الفائدة الثالثة): لما كانت عبارة ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾، متعلقة معنوياً بما قبلها فإنها تنبه إلى أن رؤية منافذ اليسر أثناء العسر تحتاج إلى جهد مُتعب مُنْصِب كي يفتح الله تعالى عليك في الخروج من العسر.

(الفائدة الرابعة): قوله تعالى ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾، ففي العمل العام والنصب وتحقيق الغايات اجعل رغبتك خالصة لله تعالى، وامنع عن مسارك ما يعارض ذلك من الهوى والشهوة والمصلحة الخاصة. وقال ابن جزي: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾، قدَّم الجار والمجرور ليدل على الحصر أي لا ترغب إلا إلى ربك وحده. اهـ من (التسهيل لعلوم التنزيل)، وقد صرح بمعنى الحصر أبو حيان ومكي والزجاج والزمخشري وابن عطية والنسفي وابن القيم والشوكاني وابن عاشور.

التفكير بالجماعة والأُمة:

وفيه مجالات عديدة:

منهـــا: الولاء في الدين، فإن المعاني المتنوعة لتصاريف كلمة «الولاء»، ترجع كلها إلى معنى التقرب المباشر والإقبال بالتعاون والتناصر والتأييد بالحق وبالإستجابة بالحق

للنداء. وواضح من النصوص الكثيرة، أن المفهوم الإسلامي للولاء مبني على التماسك الديني، أي عدم وجود حواجز عقيدية بين الأفراد. ومنه قوله تعالى ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة: ٧١.

والولي خلاف العدو، ولذلك قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ الكهف: ٥٠.

وهذا ليس بمانع من أن تقترن علاقة المسلم مع المسالمين من غير المسلمين، بمفاهيم مشتركة كالعدل والإتقان والصدق ومنع الظلم والأذى وغيرها، وتقترن كذلك بكثير من الإلتزامات العملية المتبادلة، كالتزامات ميثاق التعايش والسلم المجتمعي والمواطنة الصالحة والعلاقات الإنسانية النبيلة.

وأما مقتضيات الولاء، فتدبر حديث ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » رواه مسلم والبخاري وغيرهما ، ومعنى « ولا يُسْلِمُه » أي لا يتركه وقيعة للظلم والكربات والمصائب والمهالك والفشل، بل ينصحه ويعينه ويتعاون معه ويجلب الآخرين لنصرته ومساعدته. وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « الْمُسْلِمُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ، إِنِ اشْتَكَى عَيْنُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ، وَإِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ اشْتَكَى كُلُّهُ » رواه مسلم وأحمد.

ومن مقتضيات الولاء حديث قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ، قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَالْأَشْتَرُ إِلَى عَلِيٍّ، فَقُلْنَا: هَلْ عَهِدَ إِلَيْكَ نَبِيُّ الله ﷺ شَيْئًا لَمْ يَعْهَدْهُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً؟ قَالَ: لَا، إلا مَا فِي كِتَابِي هَذَا، قَالَ: وَكِتَابٌ فِي قِرَابِ سَيْفِهِ، فَإِذَا فِيهِ « الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ » رواه الإمام أحمد وغيره في سياق حديث، وصححه الحافظ الذهبي وشعيب الأرنؤوط على شرط الصحيحين.

ولنتدبر هنا عبارة « وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ »، فمعنى «ذمة الإنسان»، هي عهده وكفالته كما في (لسان العرب)، فهي إلتزامه ومسؤوليته تجاه الحرمات وتجاه كل ما يحتاج إلى حفظ ورعاية، فلا ذمة لمن تجرد من الإلتزامات. يُقال: في ذمتي كذا، أي هذا ما اتحمله والتزم به، ويُقال: من فعل كذا فقد برئت منه الذمة أي سقط الإلتزام بحقه. ومن الإجراءات القانونية المعاصرة: «براءةُ الذِّمَّة»، وهي: شهادة تفيد الخلوّ من المسئوليَّة الماليَّة أو الجنائيَّة، كما في (معجم اللغة العربية المعاصرة).

يوضح ذلك الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ قال « وَإِنْ حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهَّ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهَّ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَبِيكَ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ آبَائِكُمْ أَهْوَنَ عَلَيْكُمْ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهَّ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- » رواه عبد الرزاق وأحمد ومسلم وابن ماجه وغيرهم في سياق حديث طويل، بمعنى أنكم إنْ نقضتم إلتزامكم فهو أهون من أن تنقضوا إلتزاماً منسوباً إلى الله تعالى ورسوله ﷺ.

نرجع ألآن إلى عبارة: « وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ »، فتدبر أن الذمة هنا مضافة إلى المؤمنين، فالساعي هنا يسعى بذمة المؤمنين وليس بذمة غيرهم. وعبارة « أدناهم » تُستعمل في العربية بمعنى: أقربهم، وبمعنى: أقلهم منزلة. فالحديث واضح جداً أنه من باب ثقافة المسؤولية العامة والجسد الواحد، فالمسؤوليات العامة للمؤمنين وكذلك المسؤوليات الخاصة عند الضرورة، يسعى بها المؤمنون كلهم، الأقرب فالأقرب والأقدر

فالأقدر، أي رعاية القُرب المعنوي والمادي. وما ذكرناه هو خلاف المشهور في تفسير الحديث فقد حمله العلماء على أن لكل مؤمن مهما انخفضت منزلته، فله الحق في إجارة المشرك، أي تصح إجارة المشرك وبذل الأمان له من قِبَل المؤمنين عموما، الذكر والأنثى والحر والعبد والغني والفقير. غير أن ما ذكرناه هو الظاهر من صيغة الحديث، كما أن عمومه يشمل إلتزامات المؤمنين تجاه المسالمين من الكفار، ولا ضرورة لصرف النص عن ظاهره.

ومنهـا: قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ آل عمران: ٧٩. قال الطبري رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال عندي بالصواب في «الربانيين» أنـهم جمع رباني، وأن الرباني المنسوب إلى الرَّبَّان، الذي يربُّ الناسَ، وهو الذي يُصْلح أمورهم ويربّها ويقوم بها، يقال منه رَبَّ أمري فلان فهو يُربُّه رَبًّا وهو رَابُّه. فإذا أريد به المبالغة في مدْحه قيل هو رَبّان، كما يقال هو نعسان من قولهم نعَس يَنعُس. اهـ من (تفسير الطبري). فمعنى ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ... ﴾، أي: ولكن كونوا بمنزلة القادة المؤثرين في الآخرين، وهي في الغالب قيادة غير رسمية. وواضح من الآية أن طريق الربانية هو تعليم الكتاب المنزل ودراسة العلم النافع.

و يتصل بذلك تشكيل الصداقات الصالحة الهادفة او المجاميع الصغيرة المتعاونة على الخير، أي النجوى المستثناة والممدوحة في قوله تعالى ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١١٤. وقد ذكرنا تفسير الآيتين في (المنطلق)، وذكرنا في (نخبة المسار) تفاصيل أُخرى في تفسير آية آل عمران.

ومنهــا: ثقافة التناصح. النصيحة ضد الغش والخديعة، وهي تشمل النية والقول والعمل، يُقال: نَصَحْتُ له الوُدَّ، أي أَخْلَصْتُهُ، ونَاصِحُ العَسَلِ: خَالِصُهُ، وَرجل ناصِحُ الجيب: نقي الصَّدْر لَا غش فِيهِ. ونصح الثوب خاطه، وَالأَرْض المنْصوحَةُ الأَرْض الْـمُتـصِلَة النَّبَات، كَأَن تِلْكَ الجوب الَّتِي بَين أشخاص النَّبَات خيطت حَتَّى اتَّصل بَعْضهَا بِبَعْض. ولذلك عرّف الراغب النصح بأنه تَـحَـرِّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ صاحبِهِ. فلما كان الدين هو النصيحة كما في الحديث ، فلا مجال لموقف المتفرج، بل يجب إتباع المهارات العملية والقولية في التغيير وفي جلب المنافع ودفع المضار، وبحسب الإستطاعة.

قال تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ المائدة: ٧٨ – ٧٩.

وقال تعالى ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾ ﴾ العصر: ١ – ٣.

وعن تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ قَالَ « الدِّينُ النَّصِيحَةُ »، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ « للهِّ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُـولِهِ وَلِأَئِمَّـةِ الْمُسْـلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ » رواه مسـلم وأحمد وغيرهما. وتدل صيغة الحديث على أن لُبَّ الدين او جوهره هو النصيحة. ولذلك كان الإنكار شديداً في آيات المائدة والعصر. والحديث صريح أن النصيحة هي قبل كل شيء للدين، أي لله ولكتابه ورسوله، وتشمل كذلك أئمة المسلمين وعامتهم.

وعَنْ أَبِي الْمَلِيحِ: « أَنَّ عُبَيْدَ الله بْنَ زِيَادٍ دَخَلَ عَلَى مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ فِي مَرَضِهِ، فَقَالَ لَهُ مَعْقِلٌ: إِنِّي مُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ، لَوْلَا أَنِّي فِي الْمَوْتِ لَمْ أُحَدِّثْكَ بِهِ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « مَا مِنْ أَمِيرٍ يَلِي أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ

مَعَهُمُ الْجَنَّةَ. » رواه مسلم ورواه البخاري بنحوه. وعبيد الله بن زياد هو والي الكوفة ليزيد بن معاوية، وهو الذي أدار وقعة مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما.

ومنهـــا: العمل على رفع منزلة الأمة، **قال تعالى** ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ آل عمران: ١٠٤، فتدبر صيغة العموم في الخير والمعروف والمنكر. فالأمة كجملة يجب أن تحمل هذه الصفة، خاصة وأن آخر هذه الآية يُشعر بحصر الفلاح فيهم فلا مجال لاختيار عدم الفلاح، وهذا قول الزجاج وجماعة من المفسرين، ونقل ابن عطية أنه بمنزلة قولك: ليكن منك رجل صالح، وفي «مِنْ» هذه معنى التجريد أي تجريده للصلاح، وهو راجع إلى معنى «مِن» الإبتدائية او البيانية، وليست للتبعيض. وتشمل آية آل عمران مسؤولية كل فرد في حق نفسه، ومسؤوليته في النصيحة للآخرين وإعانتهم على النهوض. وقريب من ذلك صيغة الخبر عن الحكم الشرعي في قوله تعالى ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ آل عمران: ١١٠.

وهذا هو المعنى المركزي للتفوق الحضاري، وهو يعتمد على أُمور، **(الأمر الأول)**: اكتساب الخبرة لتشخيص الخير في كل مجال، المعمول به والمتروك، والدعوة إليه، مع ترتيب الأولويات. وينبغي هنا اكتساب مهارات الدعوة إلى الخير كما في آية آل عمران. **(الأمر الثاني)**: صياغة منظومة متكاملة لأنواع المعروف ولمناهج إقامته، فإن الأمر بالمعروف يتضمن السعي لإقامته، ويتضمن ذلك سبل إدامته والدفاع عنه، وتدبر في ذلك قوله تعالى ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ الشورى: ١٣؛ ومعنى

إقامة الدين النهوض به. **(الأمر الثالث)**: صياغة منظومة متكاملة لأنواع المنكرات ولمناهج مكافحتها ومنعها، فإن النهي عن المنكر يتضمن السعي لتغييره بالمهارات العملية، كما في حديث « من رأى منكم منكراً فليغيره ...».

<u>ومنهـــا</u>: تدريب الجمهور والنخبة ورفع منزلتهم في مناقشة قضايا المصلحة العامة والتفاعل معها. قال تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ النور: ٦٢، ونحتاج إلى ذكر فوائد لبيان معاني عبارات الآية الكريمة:

(الفائـدة الأولى): أهمية المشـاركة العامة، يدل عليها عبـارة ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ** ﴾، فإنـها عبـارة حصر ومبالغة وتدل على أن الصفات المذكورة بعدها هي مما يوجبه الإيمان بالإسـلام، يؤكد ذلك أنه لا يصح لأحد أن يغادر الإجتماع إلا بإذن من رسـول الله ﷺ؛ ويؤكد ذلك أيضاً قوله تعـــالى في الآية التي بعدها: ﴿ ... **قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا** ﴾ النور: ٦٣. <u>فينبغي وضع مناهج ثقافية وعملية لتدريب الشعب على خدمة المصالح العامة.</u>

(الفائدة الثانية): معية المشاركة، كما في عبارة ﴿ **وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ** ﴾، فإن المشـهور في معنى «مع» أنـها لبيان مكان او وقت المصاحبة او الإجتماع، وآية النور تشمل هذا المعنى. غير أن «مع» يمكن أن تتضمن الاجتماع في المعنى أيضاً، بل يمكن أن تتجرد للصحبة المعنوية. فالصحبة المعنوية قد أثبتها الراغب في (المفردات) والزركشي في (البرهان في علوم القرآن) وغيرهما، وهي كثيرة في القرآن الكريم، نحو قوله تبارك وتعالى

﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ** ﴾ الأنعام: ١٩، أي: أئنكم لتشـهدون أن مع الله في الأُلوهية آلهة أُخرى. وقال تعـــالى ﴿ **وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا** ﴾ الفرقان: ٢٧، أي مع الرسول الكريم في دينه وإن كان في غير ذلك الزمان والمكان. فيمكن جعل المعية في آية النور متشعبة على مراتب، **فمن مراتبها**: توظيف جماعة مختصة بشؤون المصالح العامة، كما هو الحال اليوم في الوزارات والمجالس النيابية. **ومن مراتبها**: استحداث صلة (يمكن أن تكون الكترونية) بجميع المؤهلين فكرياً وسلوكياً، لأجل الإستطلاع وحصد الأفكار؛ ويجب تنظيم الأداء في هذه المرتبة لضمان تفعيلها وعدم إهمالها. ونُذكر بأن التأهيل في مجالات معينة يشمل السلامة الأمنية. **ومن مراتبها**: تحديد مستشارين مؤهلين خارج الوظيفة وفي كل مجال من مجالات المصالح العامة، لغرض استشارتهم او إدخالهم في العمل عند الحاجة. وينبغي لكل مسـلم أن يسـعى لتحصيل أهلية المعية في الأُمور الجامعة مع من يقوم مقام النبي ﷺ من القادة، ويذكر بذلك حديث « الدِّينُ النَّصِيحَةُ »، وقد ذكرناه كاملاً قبل قليل.

(الفائدة الثالثة): العموم في الأمر الجامع. فإن عبارة ﴿ **عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ** ﴾، نكرة في سياق الإثبات فهي مطلقة في أي أمر جامع، ولها حكم العموم في الأمر الجامع من جهة تعلقها بنفي جواز ذَهاب من كانت له معية. وأما استعمال «على» فهي للإستعلاء المعنوي كالتمكن من الأمر والنهوض به او تولي الأمر. فعبارة ﴿ **عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ** ﴾، يمكن أن تشمل عدة أحوال، **الحال الأول**: التلبس بالأمر الجامع او الاستعداد له، كما في نحو قوله تعالى ﴿ **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ** ﴾ البقرة: ١٨٤. **الحال الثاني**: الشروع في الأمر الجامع والنهوض به؛ كما هو الإستعلاء او التمكن المعنوي في قوله تعالى ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ**

عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة: ٥، وقوله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ ﴾ المائدة: ٦٨. **الحال الثالث**: التخطيط لبناء أمر جامع والإعداد له؛ كما في نحو قوله تعالى ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ النساء: ٣٤، أي يتولَّون أمرهن.

(الفائدة الثالثة): أن عبارة «جامع» هي وصف للأمر، فهو أمر يتعلق بمصالحهم العامة. وأما من فسر الأمر الجامع بالأمر الكبير او الخطير كإعلان حرب او شبه ذلك، فهو تقييد بلا دليل للإطلاق في عبارة «أمر جامع»، ويفتح باباً للفساد ولاستبداد القادة إذا اتخذوا القرارات بمعزل عن الشورى بمزعمة أنها أُمور غير خطيرة؛ فالصحيح أن العبارة تشمل المصالح العامة كلها.

ولابد هنا من تعريف المصالح العامة. فقبل بضعة قرون كانت واجبات كثير من الحكومات هي الشرطة والقوة العسكرية والقضاء، ثم اتسعت المصالح العامة تدريجياً لتشمل مصالح عامة كثيرة كما يتضح من أنواع الوزارات وسائر المؤسسات الحكومية التخصصية. فسواء كانت المصلحة العامة في نظام إداري او قرار سياسي او غير ذلك، فيمكن إيضاح المصلحة العامة من خلال خصائصها:

الخاصية الأولى: أن تكون فيها فائدة او تنمية لعامة المواطنين. ويمكن أن تكون الفائدة مباشرة او غير مباشرة. مثال غير المباشرة اتخاذ قرار لرفع مستوى الطبقة الفقيرة، فإنه مصلحة عامة وإن كان عدد الفقراء أقل من رُبع السكان مثلاً، وذلك لأن القرار سيقلل من أعباء الفقر على الدولة والمجتمع، كما أنه يمثل تنمية بشرية تنفع عموم المجتمع.

الخاصية الثانية: أن فوائد القرار تمتد إلى المستقبل.

الخاصية الثالثة: فوائد المصلحة العامة ينبغي أن تكون متفوقة جداً على المضار المحتملة.

(الفائدة الرابعة): في معنى «لم يذهبوا» في الآية الكريمة. فإن عبارة ﴿ لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾، ليست خاصة بالمعية المكانية، بل تشمل على أقل تقدير كل من تعينت مسؤوليته من أهل الشورى والمؤهلين كما ذكرنا في مراتب الفائدة الثانية، وسواء كان تعيينه بالإنتخاب او بالتعيين او بالإلتزام الشخصي عملاً بالواجب الشرعي، وإنْ كان خارج المكان. يوضح الأمر أن كلمة «ذَهَبَ» ومشتقاتها تُستعمل في التحول المكاني وتُستعمل بكثرة في تَحَوُّل المعاني والأحوال، كقوله تعـــالى ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ فاطر: ٣٤، وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ ﴾ هود: ٧٤. فعلى هـذا المعنى يكون تقديـر العبـارة: لم يذهبوا عن الأمر حتى يسـتأذنوه، لا بسـفر ولا بشـغل آخر إلا من طريق الإسـتئذان (أي إجازة رسـمية). وهذا الوجه أقوى في الإشـراك المباشـر للمؤهلين وتدريبهم على صناعة القرار في المصالح العامة. وأما على المعنى المكاني فإن التقدير: لم يذهبوا عن المكان حتى يستأذنوه؛ وفي هذا الوجه إشراك من حضر من الجمهور في التداول في أمور المصلحة العامة، فإنْ صح هذا الوجه فهو على سبيل التدريب واستطلاع الآراء دون صناعة القرار، لأن إشراك من حضر اتفاقاً ليس معبراً عن رأي الجمهور ولا عن التأهيل المطلوب. وأما جواز الإسـتئذان بالذهاب وجواز قبوله من رسـول الله ﷺ، فينبه إلى أهمية وضع نظام لإجازات الموظفين.

ومنهـــا: السعي لضبط الأداء العام قبل القرار، قال تعالى ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة: ١٠٠؛ في الآية الكريمة ذم الجماعة بتكرار المخالفة الشرعية في القرار العام، مرة من بعضها، ومرة من طائفة أُخرى

منهم وهكذا، مما يدل على أن أكثرهم لا يؤمنون. ويقتضي ذلك أنْ يُسبَق القرار بضبط الرأي العام بالتوجيه من جهة وبالقوانين من جهة أُخرى، ولكن بشرط القُدْرة على تنفيذ القانون؛ وقد يحتاج الأمر إلى قدر من المرحلية والتدرج.

والدول التي لديها اليوم مهارة كبيرة في توجيه الرأي العام هي الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة الأميركية، غير أن الرأي العام عندهم لم يعد رأياً عاماً في حقيقة الأمر، ولكنه في ظروف مهمة مُنتَج صناعي، تصنعه النخبة المتنفذة وتزينه الآلات الإعلامية الهائلة والمتوافقة مع النخبة؛ ولهم مهارة عالية في زخرفة الـمُنتَج وفي تلطيخ البدائل بأدوات التضليل، وفي ترويض الرأي العام لقبول الـمُنتَج وإظهاره كرأي عام. فعلى أهل الحق تحصيل مهارات ذكية ومشروعة في توجيه الرأي العام.

تحذير: فقد ذكرنا في (وِجهة اللواء) ذم الذين لا يبالون إلا بأمورهم الخاصة، كما في قوله تبارك وتعالى ﴿ **وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ** .... ﴾ آل عمران: ١٥٤. يُقال: هَمَّني الشيء، أي أقلقني وأشغلني او أحزنني وأذابني، ومنه قَوْلُ الْعَرَبِ: هَمَّنِي الشَّيْءُ: أَذَابَنِي كما ذكر ابن فارس وغيره، والْمُهِمّاتُ: الأُمور الشِّدَادُ كما ذكر الصاحب في (المحيط). وتدبر أن عبارة ﴿ **يَظُنُّونَ** ... ﴾ خبر عن تلك الطائفة او حال لها كما بينه صاحب (الدر المصون). فتلك طائفة مغمورة في التفكير بالذات، فليس من الْمُهِمّاتُ عندها إلا منافعها الخاصة وسلامة وتنمية ممتلاكتها الشخصية، فلا كبير هَمٍّ على الدين ولا على مصالح الآخرين ولا المصالح العامة ولا على المحافظة على استقامة الحياة العامة ولا على نشر الخير في المجتمع. ولا شك أن الغمرة في الذات تُفسِد تفكيرهم وقناعتهم وتُبعدهم عن الحق وتسير بهم إلى ظنون الجاهلية وإلى النفاق في إبداء شيء وإخفاء غيره كما في السياق الكامل للآية

الكريمة. ونقيض هؤلاء من يكون مُهتَمّاً بدينه وبنشر الخير في المجتمع وبحماية المجتمع من الرذائل والفساد والظلم. والحمد لله تبارك وتعالى.

ويتصل بذلك قوله تبارك وتعالى ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ هود: ١١٦، أي جعلوا همهم في تتبع النعم الدنيوية حتى صارت هي التي تسوقهم في تصرفاتهم، فلا كبير اهتمام للدين والآخرة.

صيانة النفس من استهواء الشيطان:

قال تعالى ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ٧١. واضح أن الذي استهوته الشياطين هو مثال لمن رُدَّ على أعقابه بعد الهداية أي خرج من الإيمان الذي كان عليه، او انسلخ من الطريق إلى الله تعالى بعد أن كان سائراً عليه.

ونحتاج هنا إلى إيضاح ثلاث فوائد من تفسير عبارة: ﴿ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ ﴾، ثم الفائدة الرابعة في صيانة النفس من استهواء الشياطين:

الفائدة الأولى: معنى «الهوى». **قال ابن فارس**: (هَوِيَ) الْهَاءُ وَالْوَاوُ وَالْيَاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خُلُوٍّ وَسُقُوطٍ. أَصْلُهُ الْهَوَاءُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، سُمِّيَ لِخُلُوِّهِ. قَالُوا: وَكُلُّ خَالٍ هَوَاءٌ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴾ إبراهيم: ٤٣، أَيْ خَالِيَةٌ لَا تَعِي شَيْئًا، وَيُقَالُ هَوَى الشَّيْءُ يَهْوِي:

سَقَطَ. وَهَاوِيَةُ: جَهَنَّمُ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ يَهْوِي فِيهَا. وَالْهَاوِيَةُ: كُلُّ مَهْوَاةٍ. وَالْهُوَّةُ: الْوَهْدَةُ الْعَمِيقَةُ. وَأَهْوَى إِلَيْهِ بِيَدِهِ لِيَأْخُذَهُ . كَأَنَهُ رَمَى إِلَيْهِ بِيَدِهِ إِذَا أَرْسَلَهَا. وَتَهَاوَى الْقَوْمُ فِي الْمَهْوَاةِ: سَقَطَ بَعْضُهُمْ فِي إِثْرِ بَعْضٍ. وَأَمَّا الْهَوَى: هَوَى النَّفْسِ، فَمِنَ الْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا، لأنه خَالٍ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَيَـهْوِي بِصَاحِبِهِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي. قَالَ اللهُ تَعَـــالَى فِي وَصْفِ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ النجم: ٣. اهـ من (معجم مقاييس اللغة). وتدل آية النجم أن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، لا بسبب فراغ معرفي، ولا بسبب الإجتهاد بالرأي في الدين، أي من غير نص ديني. ويُطلق الهوى أيضاً على حركة النفس وإرادتها وإن كانت إرادة مشروعة، ومنه قوله تعالى ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ إبراهيم: ٣٧ ، قال الْفَرَّاءُ: رأَيت فُلَانًا يَهْوِي نَحْوَك، مَعْنَاهُ يُريدك، كما نقل ابن منظور في (لسان العرب). ولعل سر ذلك في عبارة ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾، أنه كما يجب أن تكون الإرادة مشروعة، فكذلك الحركة يجب أن تكون مشروعة. فلا ينفع أن تكون الإرادة في معرفة الحكم الشرعي، ثم تتحرك إليه برأي بعيد عن مرتبة العلم الظاهر، ولكن يؤخذ به في الفقه بسبب نوع من الميول الشخصية؛ ومن الأقوال المأثورة: «الهوى أشد من العمى»، لأن الضرير لا يرى الأجساد، وأما صاحب الهوى فلا يرى المعاني الصحيحة، بل يميل إلى المعاني الخاطئة.

الفائدة الثانية: الفعل «استهوته» صيغته: «استفعل»، ولها معان، والمناسب للسياق هنا معنى: جعله، كقولهم: استعبده أي جعله او اتخذه عبداً، وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ آل عمران: ١٥٥، أي جعلهم يزِلُّون. وقال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ يوسف: ٥٤، أي أجعله من خاصتي. فمعنى عبارة ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾، أي جعلته الشياطين

يَـهوِي في مستنقع الفساد والظلم والرذيلة، وجعلته الشياطين يَهْوَى ما هوى فيه. ولعله لذلك، كان يُقَالُ للمُسْتَهام (أي الهائِم) الَّذِي استَهامَتْه الجنُّ: اسْتَهْوَتْهُ الشياطينُ، كما ذكر الأزهري في (تهذيب اللغة) وابن منظور في (لسان العرب).

الفائدة الثالثة: معنى عبارة «حيران» في قوله تعالى ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾، فالمشهور في كتب المفسرين أن كلمة «حيران» تتمة لما سبقها، وهي منصوبة على الحال من الهاء الثانية (أي المفعول) في «استهوته»، او من «كالذي». والمعنى أن الشياطين استهوته في حال حيرته التي جعلته تائهاً متردداً فلا تستقر الهداية في نفسه، ولا يعزم على الإستجابه لأصحابه الذين يدعونه إلى الهدى.

فللشيطان فرائس (جمع فريسة) كثيرة، منها أن يكون الإنسان محتاراً من أمر الدين، أي متردداً شاكاً. وتدبر أن آية الأنعام شملت بصيغتها من كان مسلماً فَـرُدَّ على أعقابه؛ وعلى ذلك فإن الحيرة التي تجعل الإنسان فريسة للشيطان نوعان:

(النوع الأول): الكافر الذي غلبه الشك بالحق وامتلأ قلبه بالحيرة، فلا يتجه إلى الله عز وجل، قال تعالى ﴿ .... وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ... ﴾ إبراهيم: ٩ – ١٠. وقال تعـــالى ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ سبأ: ٢٠ – ٢١.

(النوع الثاني): من دخل في الإسلام، غير أن قلبه ميال إلى الجاه والنفوذ والتزلف إلى أصحاب الجاه والنفوذ، على نحو قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا

﴿ فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ الأحزاب: ٦٧، او كان قلبه متفلتاً من الإلتزامات، على نحو قوله تعالى ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ هود: ٨٧ ، وقوله تعالى ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ المائدة: ٧٩ ، وقوله تعالى ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ الإسراء: ١٦، أي أمرناهم بالطاعة والصلاح ففسقوا بالتفلت والعصيان. فمن لم يتب من هذا النوع، فإنه يظل يسوف الإلتزامات الدينية حتي تغيب عن باله، ويقترب من الذين قال تعالى فيهم ﴿ بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ المؤمنون: ٦٣، بل قد يصير عدواً للإلتزامات الدينية لأنها تقيد ظلمه وفساده. وخلال مرحلة من هذا المسار يصير الإنسان حيران من أمر دين الله تعالى، فلا يقين ولا اعتقاد، فينطبق عليه قوله تعالى ﴿ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ ﴾، او قوله تعالى ﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ ﴾ المجادلة: ١٩.

الفائدة الرابعة: صيانة النفس من الحيرة في العقيدة واستهواء الشياطين. قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٤٣) ﴾ الحجر: ٣٩ – ٤٣؛ فلننظر في مراتب تحصين النفس من استهواء الشيطان ومن الغواية، ويوجد تداخل كثير بين هذه المراتب. وقد أحسن علماء التصوف وتهذيب النفس في هذا المجال؛ والمقصود هنا الإنتفاع بما قدموه، مع بعض الزيادات والإيضاحات:

(المرتبة الأولى): الإرادة الصادقة، وهي أن تتخذ القرار بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وبالتوجه إليه. قال الراغب: والْإِرَادَةُ: إذا سعى في طلب شيء، وجُعل اسما لنزوع النّفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل، أو لا يفعل. اهـ من (المفردات). وفي معجم اللغة العربية المعاصرة أن الإرادة (مصدر أراد): تصميمٌ واعٍ على أداء فعل معين. أهـ. والشواهد القرآنية تؤكد ذلك، فالإرادة ليست مجرد خواطر وحديث نفس ولا هي تردد وحيرة من غير حسم، ولكنها قرار صادق او عزم على سلوك الطريق الطريق الصحيح او الخاطئ.

ولذلك يقع الذم على إرادة الطريق الخاطئ، نحو قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ النساء: ٦٠، وقوله تعالى ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ الأحزاب: ١٣.

وبخلاف ذلك، الإرادة السليمة، فإنها تستحق الثناء الطيب والجزاء الحسن، كقوله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ الكهف: ٢٨ ، وقوله تعالى ﴿ .... ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الروم: ٣٨.

وأما قوة الإرادة، فإن قوة القرار والعزم يتفاوت بين المؤمنين بحسب درجة الإيمان ومدى القُدرة على دفع أعداء الإرادة. فالمطلوب أن تكون الإرادة وافية بمطالب الأداء والمغالبة. وعلامة صدق الإرادة: إعداد العدة كما ذكر أبو طالب المكي وأبو يعلى بن

الفراء، وهي العدة الوافية للأداء وللمغالبة. ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ التوبة: ٤٦؛ فمن أراد الصلاة فعليه إعداد العدة، ومن أراد حفظ المواقيت فعليه أن يُعد العدة، وكذلك من أراد أن يجتهد في فهم القرآن الكريم فعليه أن يُعد العدة، وكذلك الأمر في سائر الغايات المشروعة، ومن أراد النهوض والتفوق في واجب من فروض الكفاية فعليه بعدة المغالبة (أي المصابرة والمرابطة). ولذلك فإن الإرادة هي لُبُّ القوة وأصلها، فكل قوي في أمر فإن قوة فعله في هذا الأمر تتناسب مع قوة إرادته، فإذا كان زيد حاد الذكاء ومتوقد الذهن فإنه لن يصير عالماً راسخاً إلا إذا كانت إرادته في طلب العلم قوية ومتفوقة، وهكذا في الأُمور كلها، فضعيف الإرادة عاجز وإنْ امتلك سائر الأسباب.

وإدامة حُسن الأداء يحتاج إلى حفظ الإرادة والصبر على تذكر المراد. ويتصل بذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ طه: ١١٥، العزم هُوَ توطين النَّفس على الْفِعْل. وقال الزمخشري: العزم: التصميم والمضيّ، وأن يتصلب في ذلك تصلباً يؤيس الشيطان من التسويل له. اهـ مع اختصار، من (تفسير الزمخشري). وواضح أن عبارة: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾، يتعلق معناها بالعهد المذكور في الآية، أي: ولم نجد له عزماً في حفظ العهد المذكور، وهذا مضمون قول القدماء من السلف كإبن زيد ومجاهد وقتادة وعمرو بن عبيد وسفيان الثوري والفراء، وهو قول جمهور المفسرين. يؤيد ذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ ... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ طه: ١٢١ - ١٢٢. وكان ذلك سبب نزول آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض. وتدل الآية على أن عدم المؤاخذة على النسيان ليس حكماً عاماً في أنواع النسيان، ولكنه يعم نوعاً خاصاً من النسيان.

وقد يكون سبب ضعف الأداء تشتت الإرادة او العزم، وذلك حين يقوم المؤمن بمهام متعددة وبسقف زمني محدد، فلا يستطيع تركيز الإرادة ولابد له من توزيعها على المهام، مما يؤدي إلى القصور. وعلاج ذلك في المصابرة والمرابطة التامة، أي على واجب واحد، وفي حال الإضطرار على واجبين أي مرابطة ناقصة. وما زاد على ذلك فليس بمرابطة. وقد سبق تفصيل ذلك في الكلام عن «التركيز» في المبحث الثاني.

وقد يُحسن المؤمن إعداد العدة في مجال ويقصر في مجال آخر، وقد تتكرر منه الذنوب ولكن يتكرر منه أيضاً الإستغفار والتوبة، فالإرادة ثابتة ومعصومة بإذن الله من الشك والحيرة في أمر الدين، غير أن درجات الإرادة تتفاوت كما تتفاوت درجات الإيمان. هذا في حال الفرد، وأما حال الجماعة والمؤسسة، فلابد أن تُؤسس على منهج الإستباق والمغالبة كي تبلغ التفوق، فيجب أن يتضمن نظامها أنظمة للتشخيص المبكر والإسراع بتصحيح الأخطاء وبتعويض النقص في مجالات العمل.

وسيأتي المزيد عن الإرادة في المرتبة الثالثة إن شاء الله تعالى.

(المرتبة الثانية): التعرُّف والتعلُّم والتدرج في ذلك. وذلك أن تشغيل الإرادة يستلزم معرفة المراد بنوع من التفصيل، كمعرفة ما يجب فعله وما يجب تركه وما هي الأهداف والغايات. قال ابن القيم: وَلما كَانَ كَمَال الارادة بِحَسب كَمَال مرادِها وَشرف الْعلم تَابع لشرف معلومِه كَانَت نِهَايَة سَعَادَة العَبْد الَّذِي لَا سَعَادَة لَهُ بِدُونِهَا وَلَا حَيَاة لَهُ إِلَّا بهَا ان تكون إِرَادَته مُتَعَلقَة بالمراد الَّذِي لَا يبْلى وَلَا يفوت، وعزمات همته مسافرة الى حَضْرَة الْحَيّ الَّذِي لَا يَمُوت، وَلَا سَبِيل لَهُ إِلَى هَذَا الْمطلب الأسني والحظ الأوفى إلا بِالْعلمِ الْمَوْرُوث عَن عَبده وَرَسُوله وخليله وحبيبه الَّذِي بَعثه لذَلِك دَاعياً وأقامه على هَذَا الطَّرِيق هادياً. اهـ من (مفتاح دار السعادة).

يوضح ذلك الواجبات المتداخلة للنبوة، قال تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن

﴿ قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ الجمعة: ٢؛ وقد ذكرنا في أكثر من موضع أن التزكية هي التنمية بالخير، المعنوي والمادي، وفي ذلك أكثر من مجال، **المجال الأول**: تزكية القلب او تعليم وتحقيق المعرفة بالله تعـــالى، كتعظيمه وتوحيده ومحبته وذكره والخوف منه وخشـيته وطاعته بطاعة كتابه وطاعة رسـوله الكريم. ويسـعى السائر او المريد إلى الإرتقاء في العمل بـهذه المضامين. **المجال الثاني**: تزكية الحال أي بتنمية ما يحتاجه المؤمن للنهوض بنفسه وبدينه: من العلوم الفقهية والإنسانية والطبيعية والمهارات الفكرية والمهنية وغيرها، ومن الأموال التي يحتاجها النهوض. وسـيأتي في المبحث الخامس إن شـــاء الله، تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ النساء: ٥؛ فتدبر عبارة ﴿ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾، فإن القيام يُستعمل بمعنى النهوض للأمر، أي الإستعداد والتحضير والتأهب لأداء الأمر. وكذلك يُستعمل القيام بمعنى النهوض بالأمر ومراعاة متطلباته وفعله وتوفيته حقه؛ فالْقِيَامُ وَالْقِوَامُ: مَا يُقِيمُكَ كما ذكر القرطبي، أي ما ينهض بك.

(المرتبة الثالثة): أسباب الثبات والتحسُّن، واجتناب الرجس والإنحدار. وهي هنا أكثر من عشرة أسباب، وهي في غاية الأهمية:

منهـــا: تقويم النفس ومحاسبتها، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ الحشر: ١٨؛ «الغد» كناية عن المستقبل، فعلى كل مؤمن أن ينظر، هل وضع أهدافاً مستقبلية في طريقه إلى الجنة؟ وأن ينظر فيما قدمه، هل يصلح لغد، أي لبلوغ الأهداف؟ وما هي سبل التحسين والتطوير؟ ومن توابع التقويم المبادرة بكثرة الإستغفار وبالسعي لتحقيق التوبة وما تشمله من عمليات التغيير والتحسين المستمر.

ومما يوجب المحاسبة والتقويم حديث أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْد الله ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ.» رواه البخاري وأحمد وغيرهما.

وكذلك حديث أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ: « لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ » رواه الترمذي وغيره ووصفه بأنه حسن صحيح، وصححه الألباني؛ فينبغي للمؤمن أن يُسائِل نفسه قبل أن يُسأل.

ومنهـــا: الصبر والشكر. وذلك أن النشاط والقوة قد تقل بعد زمن ويُصاب العامل بدرجة من الركود والتفلت، فلابد من مراقبة الصبر على العمل والمحافظة على قوته. يوضح الأمر أن الصبر ثلاثة أنـواع، ***النـوع الأول***: الصبر على البلايا والشـدائد، فلا يغلبه الجزع والـهلع، ومن واجباته أن الصبر عند الصدمة الأولى كما صح في الحديث وليس بعد الجزع والهلع. ***النوع الثاني***: الصبر على المكاره، كالصبر على المخاوف التي لابد منها، وعلى ترك ما يدعوك إليه الهوى والشهوة مما قد يُضعِف خدمتك لدينك او يؤخرك في المسار إلى الله تعالى. ***النوع الثالث***: الصبر على العمل والقوة فيه ومكافحة عوامل التفلت والفتور، وعوامل الغفلة بسبب الرخاء المفسد أي عدم ضبط الرخاء. قال تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ محمد: ٣١، وسيأتي تفسير هذه الآية الكريمة في فوائد تفسير آية الإقتحام إن شاء الله تعالى. وقال الراغب الأصفهاني رحمه الله: إنّ اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر. والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر فصارت المنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر: «بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نشكر»،

ولهذا قال أمير المؤمنين: من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله. وقال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٥. اهـ من (المفردات).

يوضح كلام الراغب أن تعوّد النعمة قد يُنسي الشكر ويستبدله بالبطر، قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ سبأ: ١٨ – ١٩، فكان من يسافر منهم يجد في طريقه قُرى بارزة، فالمسافر يجد حاجته وهو آمن ولا يحتاج إلى كثير من عدة السفر، ثم يصل إلى قُرى بارك الله فيها، فيجد فيها ما ذهب لأجله. قال الآلوسي: ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾، لما طالت بهم مدة النعمة بطروا وملوا وآثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير، وقالوا: لو كانت متاجرنا أبعد كان ما نجلبه منها أشهى وأغلى، فطلبوا تبديل اتصال العمران وفصل المفاوز والقفار، وفي ضمن ذلك إظهار القادرين منهم على قطعها بركوب الرواحل وتزود الأزواد الفخر والكبر على الفقراء العاجزين عن ذلك، فعجل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب القرى المتوسطة وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا مجيب. اهـ من (تفسير الآلوسي). وتدبر في الخاتمة قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

ويتصل بالشكر، قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ العاديات: ٦؛ قال الأزهري: قَالَ الفراءُ: قَالَ الكلبيُّ: لكَنُودٌ: لكَفُورٌ بالنعمةِ. وَقَالَ الحَسَنُ: لوَّامٌ لِرَبِّهِ يَعُدُّ المصائبَ ويَنسى النِّعَمَ. أَبُو عبيد عَن الْأَصْمَعِي: امرأَةٌ كُنُدٌ وكَنُودٌ أَي كَفُورٌ للمواصَلةِ. وَقَالَ اللَّيْث: كَنَدَ يَكْنُدُ كُنوداً. قَالَ أَبُو عَمْرو: كَنُودٌ: كَفورٌ لِلموَدّةِ. اهـ من (تهذيب اللغة). وقال أبو حيان: وَقَالَ الْفُضَيْلُ: هُوَ الَّذِي تُنْسِيهِ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ حَسَنَاتٍ كَثِيرَةً،

وَيُعَامِلُ اللهَّ عَلَى عَقْدِ عِوَضٍ. وَقَالَ عَطَاءٌ: هُوَ الَّذِي لَا يُعْطِي فِي النَّائِبَاتِ مَعَ قَوْمِهِ. وَقِيلَ: الْبَخِيلُ. وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: أَرْضٌ كَنُودٌ: لَا تُنْبِتُ شَيْئًا. اهـ من (البحر المحيط).

ومما يتضمن الصبر على العمل، قوله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الكهف: ٢٨، وقوله تعـــالى ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ مريم: ٦٥، وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران: ٢٠٠.

ومن عظيم أمر الصبر واليقين قوله تعـــالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤ . ونختم بـ: ***فائـــدة***: الصبر حسنة كبيرة دافعة للبلايا، وذلك أن المسلم سيُمتحن بالصبر لا محالة، فقد قال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٢؛ فمن يختار الصبر على العمل فعسى أن يدفع الله عنه صبر المصائب، فينبغي لكل مؤمن أن يختار قضية لها أولوية من واجبات الكفاية الكثيرة فيعمل عليها بصبر، بل يصابر ويرابط عليها حتى يتوفاه الله تعالى او يبلغ غايته.

ومنهـــا: التعب والسهر. يدل عليه نحو قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩، لفظ «جاهدوا» هنا مطلق في كل عمل نعمله لله تعالى؛ وسيأتي في مبحث الإقتحام إن شاء الله تعالى أن الجهاد في سبيل الله تعالى هو المبالغة والمغالبة في بذل الوسع والطاقة في مرضاة الله تعالى، وفي أي مجال من مجالات الخير والحق. يُقال: جَهَدَه المَرض والتعب وَالْحب يَجْهَدُه جَهْداً: هزله. وقال جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي الحنبلي: فمادة (جَ هـ دَ) حيث وُجِدَت فيها معنى

الْمُبَالَغة. اهـ من (الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي). ويتصل بذلك قوله تعالى ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ الشرح: ٧ – ٨، الفراغ نقيض الشغل، والنصب التعب. وفي الآية خطاب للنبي ﷺ بأن يجاهد في العمل، فإذا فرغ من عمل بدأ بآخر، وكأن الراحة معدومة إلا لالتقاط الأنفاس وتقويم ماسبق والتفكير بها بعد ذلك، وقد سبق تفسير آية الشرح تحت عنوان «ضبط الراحة»، من جملة عناوين: «من عوامل التفكير السليم».

ومنهـــا: مكافحة الهوى. الْهَوَى مَيْلُ الطَّبْعِ إِلَى مَا يُلائِمُهُ، كما ذكر ابن الجوزي. فالهوى الجائز محصور بالخيار بين المباحات، كمن يهوَى هذا الطعام ولا يهوى ذاك او يهوى هذه المرأة للزواج بها ولا يهوى تلك. وأما في الإلتزامات الشرعية وفي خيارات المصالح العامة وفي التفكير بالمآلات والعواقب وفي شبه ذلك، فإن اتباع الـهوى هو أصل الضلال فلا مجال له أبداً. قال تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ الأعراف: ١٧٦، وقال تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ القصص: ٥٠. ولذلك كان تدريب النفس على كبح الهوى أحد مضموني الطريق إلى الجنة كما في قوله تعـــــالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النازعات: ٤٠ – ٤١. يوضح الأمر أن من أراد أن يرتقي في الغايات الشرعية فعليه أن يكبح كثيراً من الهوى المباح في أصله لأنه قد يؤخر مساره إلى الغاية، فهذا هو طريق بلوغ المعالي في خدمة الدين. قال القشيري: وَكَانَ أبو بَكْر الوراق يمنع أَصْحَابه عَنِ الأسفار والسياحات وَيَقُول: مفتاح كُل بركة الصبر فِي موضع إرادتك إِلَى أَن تصح لَك الإرادة، فَإِذَا صحت لَك الإرادة فَقَدْ ظهرت عليك أوائل البركة. .. قَالَ المرتعش: الإرادة حبس

النفس عَن مراداتها والإقبال عَلَى أوامر اللهَّ تَعَالَى والرضا بموارد الْقَضَاء عَلَيْهِ. .. قَالَ ابْن خفيف: الإرادة استدامة الكد وترك الراحة وَقَالَ: لَيْسَ شَيْء أضر عَلَى المريد من مسامحة النفس فِي ركوب الرخص وقبول التأويلات. وسُئل عَنِ القُرب فَقَالَ: قربك منه تَعَالَى بملازمة الموافقات وقربه منك بدوام التوفيق. اهـ من (الرسالة القشيرية). ويؤكد هذه المعاني قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ الأحقاف: ٢٠، فكأن الإسترسال في الإستمتاع بالطيبات أنساهم ما يجب عليهم فأدى بهم إلى الكفر والفسق، والله تعالى أعلم. ويتصل بذلك قوله تبارك وتعالى ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ طه: ٨١، فتدبر أنه طغيان في الطيبات أي في الحلال، وأحد أنواع هذا الطغيان الإسترسال في المباحات إلى درجة تُنسي بعض الواجبات والإلتزامات.

ومنها: ما يتصل بما ذكرناه من مكافحة الهوى، وهي قضية ضبط الشهوات او اللذات المباحة، وذلك كالطعام والتسلية وسفر المتعة وغيرها، وهذا من فروع من الصبر، فهو صبر عن إرادة الإزدياد من اللذة والمتعة، وإنْ كانت مباحة. وينبغي التذكير هنا أن هذه المعاني ليست تشجيعاً للفقر ولا نهياً عن طلب الغنى، وإنما هي طلب للصبر عن الإكثار من التمتع، مما يُشْغِل عن مسار المعالى. وسيأتي بيان أهمية الأموال، في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ النساء: ٥، إن شاء الله تعالى. وحقيقة ذلك أن إرادة بلوغ رضوان الله تعالى وتحقيق المكارم والمعالي ينبغي أن تكون هي الحاكمة على إرادة التمتع بالملذات والشهوات. وقد تقدم قول القشيري: وَكَانَ أَبُو بَكْر الوراق يمنع أَصْحَابه عَنِ الأسفار والسياحات وَيَقُول: مفتاح كُل بركة الصبر فِي موضع إرادتك إِلَى أَن تصح لَك الإرادة، فَإِذَا صحت لَك الإرادة فَقَدْ ظهرت

عليك أوائل البركة. . قَالَ المرتعش: الإرادة حبس النفس عَن مراداتـها والإقبال عَلَى أوامر اللهَّ تَعَـــالَى والرضا بموارد الْقَضَاء عَلَيْهِ. ..... اهـ من (الرسالة القشيرية).

والصحيح قبول الرخص، غير أن طالب المعالي يغتنم الرخص لإعطاء المزيد من الوقت والجهد لواجب المرابطة ونحوه، وللتقدم في الإستباق. وعَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْتُ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ يَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَفْشُو فِيهِمُ السِّمَنُ » رواه أبو داود الطيالسي وأحمد والبخاري ومسلم وغيرهم، واللفظ للطيالسي. وعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ التكاثر: ٨، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَّ: أَيُّ نُعَيْمٍ نُسْأَلُ عَنْهُ؟ سُيُوفُنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا وَالْأَرْضُ كُلُّهَا لَنَا حَرْبٌ، يُصْبِحُ أَحَدُنَا بِغَيْرِ غَدَاءٍ، وَيُمْسِي بِغَيْرِ عَشَاءٍ. قَالَ: « عُنِيَ بِذَلِكَ قَوْمٌ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ، يُغْدَى عَلَيْهِ بِجَفْنَةٍ، وَيُرَاحُ عَلَيْهِ بِجَفْنَةٍ، وَيَرُوحُ فِي حُلَّةٍ، وَيَغْدُو فِي حُلَّةٍ، وَيَسْتُرُونَ بُيُوتَهُمْ كَمَا تُسْتَرُ الْكَعْبَةُ، وَيَفْشُوا فِيهِمُ السِّمَنُ. » رواه أبو يعلى في معجمه. وواضح أن في حديث عمران بن حصين ذمَّ السمن، فإنه نتيجة كثرة الأكل فوق الحاجة، أي بسبب غلبة النَّهم والشهوات عليهم. ولذلك كان علماء التصوف ينصحون بدرجة من الجوع. يوضح الأمر أن واجبات المغالبة والإستباق كثيرة وخاصة في فروض الكفاية، ولا يُكتفى في ذلك إلا بالسبق والتفوق في المغالبة وإدامة التفوق، ويستلزم ذلك التوقف عند حدٍّ في كثير من المباحات.

ومنهــا: بلوغ مرتبة النفس المطمئنة التي يُقال لها ما ذكره الله تعالى بقوله ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ الفجر: ٢٧ – ٣٠. الطُّمَأْنِينَةُ الشعور بالسكون والأمن والإستقرار او الثبات، وهي خلاف الهلع والجزع. وتستند الطمأنينة إلى أحد سببين، **(السبب الأول)**: زوال

سبب المخاوف، ومنه قوله تعالى في صلاة الخوف: ﴿ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ النساء: ١٠٣. **(السبب الثاني)**: التوكل على الله والإستنصار به، ومنه قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥. فالطمأنينة ثمرة العناية بالأسباب الخمسة السابقة، فهي نفس مطمئنة، أي آمنة ثابتة لأنها مستندة إلى صفات الله تعالى ومتعلقة بالرجاء مع الخوف من الله تعالى. فإذا وردت عليها مخاوف العدوان اطمأنت إلى حماية الله ودفاعه عن المؤمنين؛ وإذا وردت عليها مخاوف المرض اطمأنت إلى ذي الفضل العظيم وإلى قدرته، وإذا وردت عليها مخاوف الفقر اطمأنت إلى الرزاق المنان الوهاب، وإذا وردت عليها الشبهات والأقاويل أطمأنت إلى نصوص القرآن والسنة، وإذا وردت عليها شكوك المرجفين اطمأنت إلى أن الحق اليقيني هو في القرآن وفي السنن الصحيحة عن رسول الله ﷺ، وإذا وردت عليها دوافع السوء دفعتها بذكر الله تعالى، كما في قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ الرعد: ٢٨، وهكذا في سائر الأمور، **ولكن مع الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية**. وفي سورة المعارج أسباب الطمأنينة مفصلة، كما قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ المعارج: ١٩ – ٢٥، وإلى قوله تعالى

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ المعارج: ٣٢ – ٣٥.

ومنهـــا: اجتناب الرجس او الخبث المعنوي والمادي. قال تعالى ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾ الحج: ٣٠؛ **أما الإجتناب**، فيتضمن الإبعاد المطلق أي الإبعاد بكل وجه ومن كل جهة، ولذلك كان الأمر باجتناب الخمر في آية المائدة أبلغ بكثير من النهي عن شربها، لأن الاجتناب يوجب الإبعاد المطلق فيدخل في ذلك الشرب والصنع والبيع والشراء والنقل وشبه ذلك من التصرفات، فمن تصرف في الخمر بشيء من ذلك فإنه لم يجتنبها. **وأما الرجس**، فهو الشيء القذر سواء كانت القذارة مادية او معنوية كالفكر الفاسد والعمل الخبيث الذي يؤدي إلى سخط الله تعالى وعذابه. **وأما لفظ «مِن»**، في عبارة ﴿ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾، فإنها تصلح أن تكون لابتداء الغاية أي بيان المنشأ، وهذا إعراب مستقيم في العربية نحواً ولغةً وهو أبعد من غيره عن التكلف في التقدير، وقد نقله أبو حيان في (البحر المحيط) والسمين الحلبي في (الدر المصون) وغيرهما، كما في نحو قوله تعالى ﴿ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾ البقرة: ١٤٤. **وأما الوثن**، فإن كل ما عبده الناس من دون الله تعالى فقد اتخذوه وثناً، سواء كان بشراً او حَجَراً او منظومة (صورة) فكرية أضفوا عليها القدسية الدينية او أوجبوا عبادتها، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا ﴾ العنكبوت: ١٧، فهذه صيغة حصر تدل على أن كل من عبد شيئاً من دون الله تعالى فقد اتخذ ذلك الشيء وثناً. وأما إذا عبدوا نبياً فإن النبي ليس بوثن ولا طاغوت، ولكن الطاغوت هي مضامين الصورة الفكرية التي صنعوها بالغلو والأهواء، وخدعوا بـها أنفسهم وخدعوا الناس، وكذلك الأمر إذا عبدوا رجلاً صالحاً. وتنبه عبارة ﴿ وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا ﴾، إلى الأكاذيب في زخرفة الوثن وإظهاره بأوصاف

الألوهية او الصلاح. **وعلى ذلك يكون معنى عبارة:** ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾: اجتنبوا المكر والفواحش والقبائح والمنكرات التي تصدر من الأوثان او من طواغيت العالم ويمكن أن تنتقل إليكم او تنال منكم، علماً أن الرجس موجود أبداً في الأوثان، بعضه ظاهر وبعضه كامن؛ ويقتضي أصل دفع الضرر او سد الذرائع إعاقة حركة الشر وإبقائه بعيداً عنا، بالإضافة إلى مكافحة ما وصل إلينا. ويعم الرجس مسالك التضليل والإفساد كلها. وواضح من هذه النصوص أن القدسية الزائفة والطغيان هما مصدران كبيران لتصدير الأضرار إلى الآخرين. ويقتضي ذلك أنواعاً من تحليل وتقويم ما يتم تسويقه من الأفكار والأنشطة، وتشخيص الفساد الظاهر والكامن فيها، من أجل إعداد السياسات الوقائية الذكية.

ومنها: الـخَلْوَة. يُقَالُ: خَلَوتُ بِهِ وَمَعَهُ وإِليه وأَخْلَيْت بِهِ إِذا انْفَرَدْتُ بِهِ، كما في (لسان العرب). وتَـخَلَّى فلان للعبادة أي خلا مما يشغله عنها، بمعنى تفرَّغ لها. ومنه قوله تعالى ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ يوسف: ٩. فلابد من درجة من الخلوة في عبادة الله عز وجل، لمناجاته تعالى في الذكر والدعاء، وللتفكير بما سبق وتقويمه، والتفكير بما ينبغي إصلاحه او الإعداد له او التحوُّل إليه، وتكون الخلوة في البيت عادة باستثناء الإعتكاف في المسجد. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، **وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**.» رواه البخاري ومسلم وغيرهما. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ

مِنْهُ، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنِ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً .» رواه مسلم وأحمد وغيرهما. وأما من كان في وقته كله يخالط الآخرين، فإن سيفقد كثيراً من الخير، وتنزل به مرتبة المناجاة والدعاء. ويُشترط في الخلوة أن يُضبط وقتها فلا تضر الإلتزامات الدينية الأُخرى، فالخلوة الفعالة عظيمة الأثر وإنْ قل وقتها. وتوجد واجبات كثيرة توجب المخالطة، كالأمر بالصبر مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجه، وكالتناصح والأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى والتواصي بالحق وبالصبر، وكالإهتمام الشديد بالجماعة والمصالح العامة وشبه ذلك من الأحكام الكثيرة.

ومنهـــا: اتخاذ المحراب إذا دعت الحاجة. المحراب من مشتقات الحرب التي هي نقيض السلم وتُستعمل بمعنى القتال وبمعنى العمل العدائي، والمحروب هو الذي أُخِذ او سُلِب ماله. وقال الراغب الأصفهاني: المحراب: قيل: سُمّي بذلك لأنه موقع محاربة الشيطان والهوى، وقيل: لكون الإنسان حريباً (أي مجرداً) من أشغال الدنيا. اهـ من (تفسير الراغب). والمحراب على وزن مِفْعَال، ويكون اسماً او صفة، مثل: امرأةٌ مِنْجابٌ أي تَلِدُ الْنُّجَباءَ، والْمِحْراثُ: ما تُـحْرَثُ به الْنّارُ، والْمِنْهاجُ: الْطَّرِيقُ الْواضحُ. قال ابن فورك: «الْمِحْرَابَ» مجلس الأشراف الذي يحارب دونه لشرف صاحبه، ومنه: سمي المصلي: محراباً، وموضع القبلة أيضاً: محرابٌ. اهـ من (تفسير ابن فورك). ونقل ابن منظور عن الأزهري، قال: وسُمِّي المِحْرابُ مِحْراباً، لانْفِراد الإِمام فِيهِ، وبُعْدِه مِنَ النَّاسِ؛ قَالَ: وَمِنْهُ يُقَالُ فُلَانٌ حَرْبٌ لِفُلَانٍ إِذَا كَانَ بَيْنَهُمَا تَباعُدٌ. وَقِيلَ: سُمِّيَ المِحْرابُ مِحْراباً لأَنَّ الإِمام إِذَا قَامَ فِيهِ، لَمْ يأْمَنْ أَن يَلْحَنَ أَو يُخْطِئَ، فَهُوَ خائفٌ مَكَانًا، والمِحْرابُ: مَأْوَى الأَسَدِ. اهـ من (لسان العرب). فالمحراب يصلح أن يكون مكاناً للخلوة والمناجاة والتفكر، وتجريد الفكر من القضايا الدنيوية. قال تعــالى ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ آل

عمران: ٣٧، فكأنها خلت للعبادة فلا يدخلون عليها إلا لغرض. ولننظر في قوله تبارك وتعالى ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ مريم: ٢ – ٣، إلى قوله تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ مريم: ١١. وقال تعالى ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ .... ﴿٢٢﴾ ﴾ ص: ٢١ – ٢٢، فتدبر أنهم تسوروا المحراب أي أتوه من فوق وليس من المدخل النظامي، والسور الحائط المرتفع. فالمحراب ليس للعمل مع الآخرين، ولكن للخلوة والتفكر، والله تعالى أعلم. ولكل إنسان شاكلته (أوصافه الداخلية) في هذا المجال، فمن الناس من يحتاج إلى الخلوة حين يقوم بأي عمل يحتاج إلى تفكير، كالدراسة والكتابة. ومن الناس من رزقه الله تعالى قدرة على إهمال الضوضاء حوله وكأنها غير موجودة، فهو يفكر ويكتب ويركز ويحلل المسائل المعقدة من غير أن تؤثر عليه ضوضاء العائلة حوله. وأما مناجاة رب العالمين، فأفضل ما تكون في الخلوة.

ومنهـــا: المغالبة والإستباق، وإقتحام المصاعب. أما المغالبة فقد ذكرناها في المبحث الثاني تحت عنوان:«التركيز»، وذكرناها في (المنطلق) في تفسير آية المصابرة والمرابطة. وأما الإقتحام فسيأتي في المبحث الرابع إن شاء الله تعالى. ونُذَكِّر هنا أن الأهداف الصغيرة تؤدي إلى ركود النفس وفتور العمل، وأما الأهداف الكبيرة فتؤدي إلى رفعة النفس وقوة العمل وتنمية الصلة بالله تعالى.

ومنهـــا: التفكير بالعواقب، وهذا من أهم أسباب النجاة في الدنيا والآخرة، ويُعَدُّ إغفاله من أهم أسباب الأضرار والمهالك في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ الإنسان: ٢٧، وقال تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ

ﭐلۡعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ٢١﴾ القيامة: ٢٠ – ٢١. وقد سبق أيضاً الكلام فيه في المبحث الثالث، تحت عنوان «التفكير بالمآلات والغايات».

ومنهـــا: الصحبة الصالحة، وفيها نصوص شرعية كثيرة، ونكتفي هنا بقوله تعالى ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ الكهف: ٢٨، ومعنى ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ﴾، أي احبس نفسك عليهم، فإنْ فارقتهم في المكان بسبب الضرورات والحاجات فإن قلبك معهم كما تنبه إليه عبارة: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ ..﴾؛ ومن المنقول، قولهم: الصاحب ساحب.

التشبع بمهارات التفكير:

مهارات التفكير (او العلوم العقلية) التي تعلمناها من القرآن والسنة لها أهمية بالغة، فإنها تعمل في مجالات كثيرة جداً، والغفلة عنها توقع في أخطاء كثيرة وكبيرة. وقد ذكرنا مهارات كثيرة في هذه الدراسة، ويضاف إليها ما ذكرناه في (المنطلق) وفي (نخبة المسار) وفي (وِجْهة اللواء).

رؤية الواقع وتأثيره: تتصل هـذه الرؤية بأكثر من أصل كبير من الأُصول الشـرعية، وتحتاج إلى عنوان مسـتقل.

رؤية الواقع وتأثيره

تأثير الواقع في أُصول الفقه:

تكلم الأُصوليون عن الأحكام التكليفية والأحكام الوضعية. **أما الأحكام التكليفية**، فهي كل ما كلفنا الله تعالى بفعله او بتركه، أي أحكام الإيجاب والتحريم وما يلحق بهما اصطلاحاً او مجازاً من المندوبات والمكروهات والمباحات. وذلك مثل وجوب الصلاة والزكاة والصيام والعدل والإحسان وغيرها، ومثل وجوب ترك (أي تحريم) الخمر والميسر والربا والقتل غير المشروع وغيرها؛ واصطلاح «الأحكام التكليفية» موافق في لفظه للصيغ القرآنية. **وأما الأحكام الوضعية**، فهي مضامين الحال الواقع وتأثيرها على تنفيذ الحكم التكليفي، أي المضامين التي تجعل الحكم التكليفي قابلاً للتنفيذ او قابلاً لإيقاف أي تأجيل التنفيذ؛ وبعبارة أُخرى فإن الأحكام التكليفية متوقفة على الأحكام الوضعية. وهذه في اصطلاح الأُصوليين هي الأسباب والشروط والموانع.

قال أبو علي حسين بن علي الرجراجي: لأن كل حكم تكليفي لا بد له من سبب وشرط وانتفاء مانع، فإذا وجدت الأسباب والشروط وانتفت الموانع: وجب وقوع الحكم لدلالة تلك الأدلة على وقوعه، وإذا عدمت الشروط أو وجدت الموانع: سقط وقوع الحكم لدلالة تلك الأدلة على سقوطه؛ وإن عدمت الأسباب: سقط وقوع الحكم لعدم الدليل على وقوعه. ومثال ذلك: أن تقول مثلاً: الزوال سبب لوجوب الظهر، والبلوغ شرط فيه، والحيض مانع منه، فإذا وجد الزوال والبلوغ وانتفى الحيض وجبت صلاة الظهر، وإن عدم البلوغ أو وجد الحيض: سقط وجوب صلاة الظهر، وإن عدم الزوال سقط وجوب الظهر أَيضًا. اهـ من (رفع النقاب عن تنقيح الشهاب/ المكتبة الشاملة).

ويوجد نوعان من التداخل بين الحكم التكليفي والحكم الوضعي. **النوع الأول**: أن الطهارة او الوضوء مثلاً هو شرط لصحة الصلاة، فهو حكم وضعي، وهو أيضاً حكم

تكليفي مرتبط بالصلاة لأن الله تعالى أمرنا به. مثال آخر الزنا، فإنه سبب الحد فهو حكم وضعي حين يقع، غير أن المسلم مكلف بترك الزنا، وهذا حكم تكليفي. **النوع الثاني**: أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما هو مشهور عن العلماء، بمعنى وجوب السعي لتحصيله. وبعبارة أُخرى، أنه يجب السعي لتحصيل متطلبات إقامة الأحكام التكليفية، وكذلك السعي لإزالة الموانع. وبهذا المعنى يصير الحكم الوضعي تكليفاً على سبيل الفور او المطاولة، وذلك بحسب نوع الواجب ومقدار الوسع أي القُدُرات ووسائل تنميتها، وبحسب حال المكلفين وقدرتهم على الإستجابة. وقد تقدم أن علامة صدق الإرادة: إعداد العدة التي يفتقر إليها الواجب، كما في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ التوبة: ٤٦. وذكرنا أيضا أن النهوض بالدين واجب، كما في قوله تعالى ﴿ .... أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ الشورى: ١٣، إقامة الدين هي النهوض به في الأرض. ولا يقدح في هذا الأصل قول القائل: إن وجوب الزكاة لا يوجب تحصيل النصاب الذي تجب فيه الزكاة وأن ذلك يُشعر أن وجوب الزكاة ليس لذاتها ولكن لتطهير المال. وهذا القول مجرد افتراض، ولا أعلم دليلاً عليه، فإن التزكية (أي التنمية بالخير) واجبة في الأصل، وتشمل التنمية المعنوية والمادية، ولا ندري لعل بلوغ نصاب الزكاة هو الحد الأدنى كي يقوم المؤمن بنفسه وبمن هو مسؤول عنهم، وأن المطلوب هو الزيادة على ذلك؛ وسيأتي الكلام عن التنمية في المبحث الخامس إن شاء الله تعالى. والله تعالى أعلم.

يوضح ذلك قوله تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ ... ﴾ الحج: ٣٩-٤٠. معنى ﴿ أُذِنَ ﴾ أي أُجيز، يُقال: أذن له في الشيء أي أباحه له، والإذن بالشيء هو فك

الحجر وإطلاق التصرف. ومعنى عبارة ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾، أي لأنهم ظُلموا او بسبب توجيه الظلم إليهم، وقد صرح المفسرون بهذا المعنى كأبي حيان والزمخشري وابن عطية والرازي والبيضاوي وغيرهم، أي ان الباء سببية، كما في نحو قوله تعالى ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ البقرة: ٥٩. غير أن آية الحج مدنية، وأما الظلم الذي وقع على الذين يقاتَلون فإنما كان قبل ذلك بسنوات طويلة قبل الهجرة إلى المدينة. فعِلَة أي سبب القتال كان موجوداً في مكة، ولكن الحكم تأخر بسبب الأحوال على الأرض، أي بسبب عدم اكتمال شروط الحكم او عدم القدرة على إزالة الموانع، او بسببهما معاً.

ضرورات الواقع
التي تؤثر على الحكم التكليفي:

قد تكلمنا عن الإضطرار وضوابطه بقدر من التفصيل في كتاب (المنطلق)، والمقصود هنا الإختصار والوضوح مع الإحالة إلى (المنطلق) لمن أراد أن يعمل بـهذا الأصل. وتوجد ضرورات متنوعة بينها تداخل، ويمكن أن تؤثر على الحكم التكليفي:

منهــا: عمليات الإنقاذ الطارئة، كإنقاذ جريح او غريق او مصدوم، وكذلك الإنقاذ من جوع شديد او مرض خطير؛ فالأولوية هنا للإنقاذ بما تيسر وإنْ تضمن مخالفة شرعية، ولكن بشـرط أن لا يكون ضرر الإنقاذ أكبر من ضرر الخطورة القائمة. وقد قال تعــــالى ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ الأنعام: ١١٩، ففي الآية الكريمة تشريع للإستثناء من حكم التحريم إذا ألجأت الضرورة إلى ذلك. ويتصل بذلك إنقاذ المال والحقوق المادية والمعنوية، إذا كان ضرر الخرق الفقهي أصغر من ضرر ترك الأمر، كما في قوله تعالى ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ

أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴾ الكهف: ٧١، إلى قول تعالى ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴾ الكهف: ٧٩.

ومنهـــا: اجتناب التهلكة بمعناها العام، فقد سبق تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ البقرة: ١٩٥، وذكرنا أن لفظ «التهلكة» يشمل الموت ويشمل فساد الحال وتعطيل المنافع مع بقاء حياة معاقة. وذكرنا أيضاً أن عبارة «إلى التهلكة» وليس: في التهلكة، ينبه إلى أن طريق التهلكة يمكن أن يكون ممتداً، وأن العبارة تشمل التهلكة الوشيكة والقريبة والمتوسطة والبعيدة، أي العمل بأحكام الضرورات الحاضرة والمتراخية كما ذكرنا في (المنطلق). والحكم حينئذ لقانون الموازنات، فإن كان اجتناب التهلكة يستلزم النزول إلى حكم الإضطرار جاز ذلك إذا كان الضرر المتوقع من التهلكة أكبر من مضار الوقوع في الإضطرار؛ ويُعْتَد في هذا الأمر بالعوامل المؤثرة الداخلية والخارجية.

ومنهـــا: تزاحم الأحكام، وذلك حين تو جد أحوال على الأرض يتعذر معها إقامة حكمين في وقت واحد، فنضطر حينئذ إلى فعل ما هو أولى في هذا الحال، وإيقاف الحكم الآخر إلى حين. فمما ذكرناه في (المنطلق) حديث أبي سعيد الخدري قال سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى مَكَّةَ وَنَحْنُ صِيَامٌ ، قَالَ : فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِنَّكُمْ قَدْ دَنَوْتُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ » فَكَانَتْ رُخْصَةً ، فَمِنَّا مَنْ صَامَ ، وَمِنَّا مَنْ أَفْطَرَ ، ثُمَّ نَزَلْنَا مَنْزِلًا آخَرَ ، فَقَالَ « إِنَّكُمْ مُصَبِّحُو عَدُوِّكُمْ ، وَالْفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ فَأَفْطِرُوا » وَكَانَتْ عَزْمَةً ، فَأَفْطَرْنَا. رواه مسلم وغيره. فالجهاد يحتاج من جملة متطلباته إلى القوة الجسدية والصفاء او التفرغ الفكري، وتترتب عليه آثار كثيرة كالنيل من العدو وتوسع النفوذ وما يحتاجه التوسع من أنظمة ونفقات، ومن آثاره كذلك الخسائر

المادية والبشرية وربما تفاقُم الصراع. وأما الصيام فمن آثاره الضعف الجسدي والتباطؤ الفكري. فلا ريب أن آثار الصيام تتعارض مع متطلبات القتال إذا وقعا في وقت واحد. فهذا التعارض بين متعلقات الحكمين نسميه تزاحماً بين الحكمين، والفقه في تقديم أحد الحكمين عند التزاحم نسميه فقه الأولويات وهو يتضمن فقه الموازنات. فلما كانت الآثار الحاضرة للصيام تفسد متطلبات القتال، فإن من لم يفهم ذلك وصام وقت القتال فإنه قد يسـبب مصائب كبيرة لنفسه ولأمته. ومن آثار الجهاد أيضا الخسائر المادية والبشرية، فإذا لم تحسب هذه الأمور وأدت الخطط العسكرية إلى خسائر كبيرة جداً، فإن هذه الآثار قد توهن او تدمر متطلبات كثير من الواجبات الشرعية الأخرى كالرعاية الصحية والتعليم والتطوير والأمن وغيره، ومن هنا كان الإفراط في الإنفاق او العمل العسكري سبباً في إنهيار الأنشطة المدنية الواجبة، ويؤدي في النهاية الى انهيار القوة العسكرية كذلك، لأن الأنشطة المدنية داعمة للجندي.

مثال آخر أن من المقاصد الشرعية الكبيرة تنمية المؤمنين بالخير، أي بالمنافع المعنوية والمادية. قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ الجمعة: ٢. التزكية في العربية هي التنمية بالخير، سواء كان الخير مادياً او معنوياً. فمن الخير المادي قول ابن منظور: والزَّكاء: مَا أَخرجه اللهُ مِنَ الثَّمَرِ. وأَرضٌ زَكِيّـةٌ: طيِّبةٌ سَمِينَةٌ؛ حَكَاهُ أَبو حَنِيفَةَ. زَكَا، والزَّرع يَزْكو زَكاء، أَي نَمَا. وكلُّ شَيْءٍ يَزْدَادُ ويَنْمي فَهُوَ يَزْكُو زَكَاء. اهـ من (لسان العرب). ومثله قول آخرين، منهم الزمخشري في (أساس البلاغة). وأما التنمية او النمو بالخير المعنوي، فمنه قول الزبيدي: وزَكا الرَّجُلُ يَزْكُو زكواً: صَلُحَ؛ وَبِه فُسِّر قوْلُه تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ النور: ٢١، «مَا زَكَى مِنْكُم مِن أَحَدٍ»، أَي مَا صَلُحَ. اهـ من (تاج العروس).

وسيأتي تفصيل «التزكية والإحياء» في المبحث الخامس إن شاء الله تعالى. المهم هنا أن مطالب التزكية قد تتعارض مع الأحوال على الإرض في حال تعطيل الشريعة او العيش في بلاد غير المسلمين. مثال ذلك المسلم الذي يعيش في الدول الأوروبية او الغربية عموماً، فإن التنمية المادية للمسلم قد تتعذر في كثير من الأُمور إلا في ظل أنظمتهم الإقتصادية الربوية، علماً أن التنمية المادية هي من الحاجات التي تنزل منزلة الضرورة ولكن ضمن ضوابط شرعية، فإذا كانت تنمية الطائفة او الأُمة ضعيفة فإن نهوضها يكون ضعيفاً.

والجرأة في مثل هذه الفتاوى تعتمد على الصلاح والرسوخ العلمي وقوة الحجة، أي السلطان النصير كما في آية الإسراء، وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى إيقاف حكم الربا في دار الحرب أي دار غير الإسلام في عرفنا اليوم، وهو مذهب مشهور جداً عنه، ووافق أبا حنيفة كما نقل العلماء: إبراهيم النخعي وسفيان الثوري ومحمد بن الحسن الشيباني والناصر من الزيدية. ثم بعد زمن طويل جداً ومعاناة كثيرة أفتى المجلس الأوروبي للإفتاء عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، افتى بجواز أن يشتري المسلم في الدول الغربية بيتاً للسكن بقرض ربوي إذا كان لا يمتلك بيتاً ولا يستطيع أن يشتري بيتاً نقداً. وهذا قول الإمام يوسف القرضاوي وغيره من المعاصرين، وسبقهم إلى ذلك العلامة محمد رشيد رضا.

والحجة الصحيحة لقول أبي حنيفة ومن وافقه هو الإضطرار الذي يقتضيه تزاحم الأحكام، فإما التنمية التي يريدها الله تعالى للمسلمين وإنْ كان بإيقاف بعض الأحكام الشرعية في الأموال، وإما أن تبقى منخفضاً في التنمية المادية مع العمل بأحكام الإقتصاد الإسلامي في ظل كون النظام العام غير إسلامي.

وقد ذكرنا أن حكم الإضطرار غير مقصور على خشية تلف الجسد او الموت او انتهاك العرض، بل ينبغي إدخال تزاحم الأحكام في باب الإضطرار، أي خشية هلاك

العمل بالإسـلام او ببعض أحكامه. وأما مجيء نص الإضطرار في سـياق حكم الأكل، فليس دالاً على حصر الإضطرار به، فإن سـبب الورود من نوع سـبب النزول، فالعبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب ولا بخصوص الورود. ولاشك أن هلاك العمل بالدين او ببعض أحكامه هو الهلاك الحقيقي، لأن في أحكام الدين حياة الإنسان، كما في قوله تعـالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ الأنفال: ٢٤.

ويلحق بأصل التزاحم، قوله تعالى ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ الإسراء: ٢٦ – ٢٨.

والحرام الذي يتم إيقاف العمل بتحريمه فإنه يوصف بالعفو، ولا يوصف بأنه حلال. وقد توسع الإمام الشاطبي في (الموافقات، ١/ ١٠٠-١١٢) في هذا المعنى، وجعل العفو مرتبة بين الحلال والحرام، وأدخل فيه كل مخالفة لمطالب الشريعة بسبب عذر يعتد به في الدين كالإكراه والخطأ في الاجتهاد. ثم إذا زالت الموانع والأعذار سقط العفو، وظهر الحكم المطلوب في القضية. ومثَّل الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى بالتدريج في تحريم الخمر في عهد النبوة، ومقتضى كلامه أن الخمر لم تكن حلالاً في الشـرع قبل تحريمها، وإنما كانت في حكم العفو حتى نزل التحريم وسـقط العفو، والله تعـالى أعلم. وهذا رأي قوي جداً، وينبه إليه قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ المائدة: ١٠١. فهذا واجب عظيم الأهمية من أجل اجتناب تضليل الجمهور وإيهامهم بأن الحرام حلال.

يُضاف إلى ذلك أن تنمية الجمهور بالخير يُعَدُّ من المصالح العامة، فهو من مصالح الدين، ويجب أن يأخذ حقه من التوضيح الفقهي. والأمر أوسع من ذلك، فقد كان صلح الحديبية مشروعاً بأولوية عالية وإنْ خالف ما يقتضيه الولاء من نُصرة المسلمين المستضعفين الذين وصلوا إلى النبي ﷺ كأبي بصير وأبي جندل، وذلك لأن صلح الحديبية تضمن مصالح عامة كبيرة، قريبة ومستقبلية، وقد ذكرنا تفصيل ذلك وأمثلة أُخرى في أواخر مبحث الإضطرار من (المنطلق). ونكتفي هنا بقول الإمام أبي البركات ابن تيمية رحمه الله تعالى: إن مصالحة العدو ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائزة للحاجة والضرورة ، دفعاً لمحذور أعظم منه .اهـ من (المنتقى ، باب ما يجوز من الشروط مع الكفار)؛ وبالرواية عن حذيفة قال «إِنِّي أَشْتَرِي دِينِي بَعْضَهُ بِبَعْضٍ مَخَافَةَ أَنْ يَذْهَبَ كُلُّهُ» رواه ابن أبي شيبة.

ويتصل بذلك حكم رفع الحرج، قال تعالى ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ الحج: ٧٨؛ الحرج هو كل ضيق يتعذر الخروج منه، وواضح من الآية أن الجهاد ونحوه ليس من الحرج على الصحيح القادر، ولكن ورد التعقيب برفع الحرج لبيان رفع الإثم عن المريض والعاجز وعمَّن هو مكلف بواجب شرعي مزاحم للعمل العسكري. وأولى الحرج بالإزالة هو حين تضيق المداخل إلى أداء الواجبات الإسلامية. وتدبر لو أن قادة المسلمين لم ينهضوا بالبُنَى التحتية، فتخلف الاقتصاد والتعليم والأمن والرعاية الصحية، فإن هذا يوقع جمهوراً عظيماً في حرج كبير ويوقف التنمية واكتساب القوة. وبعض هذه الأمور قد تكون حاجية حين يتعلق الأمر بمكلف معين او بعدد محصور من المكلفين. وأما إذا عَمَّ في المجتمع ترك التعليم المدرسي او الجامعي او القُدْرة العلاجية او نحو ذلك من خدمات البُنى التحتية، فإن هذا عظيم الضرر والعواقب، ويدخل حقيقة في باب الضرورات ويتناوله حكم الإضطرار العام.

ويجب في العمل بتزاحم الأحكام والإضطرار، عدم نسيان الحكم المؤجل، لأنه حكم شرعي، فلابد من العمل الجاد الدائب لتجاوز المرحلة والخروج من حكم الإضطرار وإحياء الحكم المؤجل. وأما الأُنس بالإضطرار وبتأجيل حكم شرعي وعدم السعي للخروج من ذلك، فهذا ليس من سبيل أهل التحقيق. ويتصل بذلك قول القائل: لابد في الخطاب السياسي التركيز على المستطاع مع الإعداد لما هو غير مستطاع الآن.

وأخيراً، فإن جملة من الناس ومن أهل العلم قد يتأخرون في فهم مسوِّغات الإضطرار او تزاحم الأحكام، وقد يؤدي ذلك إلى سوء الظن والإختلاف. وفي حكاية قول الخضر عليه السلام، قال تعالى ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ الكهف: ٦٨ ؛ فلابد من الإيضاحات الكافية لاجتناب ذلك. وتدبر في قصة موسى والخضر عليهما السلام، أن موسى تراجع عن إنكاره على الخضر في خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، ومنه مضمون قوله تعالى ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ الكهف: ٧٣. وهذا لأن موسى كان يعلم أن الخضر أعلم منه كما صح في الحديث، وأن الخضر نبي غير مرسل كما تدل عليه آيات القصة. وأما بعد ختم النبوة، فإن أصحاب الغيرة على الدين سيقولون لمن يخالف الشرع من القادة وغيرهم بمعنى قوله تعالى ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ الكهف: ٧١، وبمعنى قوله تعالى ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ الكهف: ٧٤؛ ولن يتراجع أصحاب الغيرة عن ذلك وعما يقتضيه من تبعات حتى يعلموا التفاصيل وتظهر لهم الحجة التي سوغت العمل بالتزاحم، او يتبين لهم أن الأمر تفلت متعمد عن الإلتزام الشرعي، وأن مزعمة التزاحم او الضرورة او المرونة إنما هي زخرفة للخداع والتضليل؛ فالخيار هو البيان او تحمل العواقب.

ومنهـــا: أن الحكم المعلق على غاية يـقوم المسـلمون بتحقيقها بإذن الله تعـــالى، فإن الحكم يتوقف إذا قامت الأدلة والعلامات على تعذر تحقيق الغاية. وقـد سـبق ذكر هذا المعنى تحت عنوان: «التفكير بالمآلات والغايات»، وتفسـير حديث أَبِي مُوسَـى الْأَشْـعَرِيِّ ﵁، أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ قَالَ: « مَنْ قَاتَلَ لِتكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَـبِيلِ الله » رواه الإمام مسلم والبخاري وأحمد وغيرهم؛ فلا ينبغي اختيار القتال إذا كان التقويم التوقعي للنتائج هي عدم إمكان بلوغ إعلاء كلمة الله تعـالى في ذلك الظرف. ومن هذا الأصل التوازن في الخيارات الدفاعية بين القوة الذاتية والتعرض للمخاطر، فلا ينبغي أن تُعرض نفسـك لمخاطر يمكن أن تكون أكبر من قوتك الذاتية، أي قوتك التي تصنعها أنت وتُنتجها.

ومنهـــا: مقتضيات التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية، فإن حال الناس قد يقتضي تأخير العمل ببعض الأحكام الشرعية، وفي ذلك أدلة شرعية متعددة. ونُذَكِّر هنا بأن التدرج أصل مستقل، فبالإضافة إلى تعلقه بالعوامل الخارجية كالأسباب والموانع، فإنه يرتبط أيضاً بطبيعة النفس الإنسانية التي تحتاج إلى تدرج لأجل الإستيعاب وتنظيم الباطن ومقاومة الإضطراب والمؤثرات. يوضح الأمر أن العمل المتسرع يؤدي من الناحية التربوية إلى استجابة عملية مضطربة او متفلتة لأنها غير متناسقة مع تكامل استجابة النفس، وأما التدرج والمرحلية فإنه يفسح المجال لتكامل العمليات النفسية والدماغية وتحسين تجاوبها، كي يكون العمل قضية ثابتة وشـبه تلقائية، ويمكن حينئذ الإنتقال من حيّز العمل إلى حيّز التحسـين والتطوير.

ونكتفي هنا بقوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ الفرقان: ٣٢. وقد ذكرنا معنى الآية وأدلة أُخرى وتفاصيل مهمة، في الكلام عن التدرج، أي الفصل الرابع من كتاب

(المنطلق). ومقتضى الأدلة الشرعية أنك إذا أردت الرفق بالناس كما يجب، فلابد من إعادة ترتيب حياة الناس وفكرهم وأعمالهم بالتدريج قبل إتمام المسيرة المستقيمة. وبخلاف ذلك فإنك تكسر الناس وتنفرهم عن الدين، علماً أن تحبيب الدين إلى الناس لا يقل أهمية عن تعليمهم الدين وتنفيذه عليهم.

يوضح الأمر أن حياة الناس قبل التطبيق الشرعي قائمة على طريق مأهول ولكنه كثير الإعوجاج، فإذا أردت أن تنطلق فيه وكأنه طريق مستقيم، فعليك أن تهدم بيوتاً كثيرة على أهلها، فلا مفر من التدرج في الإنطلاق وفي عمليات التعديل.

وواضح من هذه الأمثلة أن رؤية المؤثرات الواقعية تحتاج إلى أربع خصال:

(الخصلة الأولى): أن الواقعية لا تُنسيك الهدف المستقبلي، فأنت تعمل للهدف المستقبلي وتفكر فيه ولكنك لا تعيش فيه عملياً إلا حين تبلغه.

(الخصلة الثانية): النظر إلى المؤثرات الواقعية نظر المخالط لها والواقع فيها، وليس نظر المراقب من بعيد الذي قد يسهل عليه إدعاء المثالية ولا يحكم على غيره كما يحكم على نفسه إلا حين يلابس الإضطرار. وكذلك رؤية الصلة بين الضروريات والحاجيات، فإن الحاجيات هي في كثير من الأحيان وسائل الضروريات والواجبات، ومعلوم أن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب.

(الخصلة الثالثة): الخبرة في تقويم قُدُرات الناس على تحمل التغيير وحسن الإستجابة له.

(الخصلة الرابعة): البحث عن المصالح العامة الكامنة في النصوص الشرعية والسعي لإتقان فقه الموازنات والأولويات.

من موانع
صحة التفكير

قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩ . فمن موانع التفكير السليم:

ضعف التأهيل:

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ النساء: ٥٨. وضعف التأهيل أنواع، **النوع الأول**: ضعف الإحاطة بضامين مجال التفكير وما يتصل بها او يؤثر عليها. فإذا كنت تتصدى لبلوغ هدف سياسي، فعليك بدراسة المشهد والمسار إليه بكل تفصيل وإتقان، وهذا بالإضافة إلى الخبرة السياسية المتراكمة. وهكذا في سائر الأهداف. **النوع الثاني**: ضعف الإحاطة بمهارات التفكير، وقد ذكرنا جملة منها في هذه الدراسة، وفي (المنطلق) وفي (نخبة المسار). **النوع الثالث**: ضعف الأمانة والإستقامة او ضعف العدالة، لأن ضعف الإستقامة يوهن الاهتمام بمسؤولية المصالح العامة، ويدفع بالتفكير لخدمة المنافع الخاصة، او يؤدي ضعف الأمانة إلى القيام بالحد الأدنى من الجهد لمجرد إسقاط الواجب، وليس للتفوق والمغالبة. وتدل نصوص القرآن على عدم أهلية المجروح بالعدالة لقيادة المسؤولية العامة؛ قال تعالى ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٢٤، وقال تعالى ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ هود: ١١٣، وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ الحجرات: ٦.

البعد عن الإيمان:

وفي ذلك أُمور ينبغي إيضاحها:

(الأصل العلمي):قال تعالى: ﴿ **فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠** ﴾ النجم: ٢٩ – ٣٠، نفهم أُموراً من الآيتين:

الأمر الأول: الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله تعـــالى؛ الإعراض هو الترك او عدم الإهتمام او عدم التصدي لدعوته. والتولي هو الإدبار والإنصراف عن الأمر، والمراد هنا هو الإنصراف التام أي رفض الإيمان، بدليل صيغة الحصر في عبارة ﴿ **وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا** ﴾.

الأمر الثاني: عبارة: ﴿ **ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ** ﴾، أي الحياة الدنيا هي مبلغهم من العلم فلا علم لهم فيما وراء الحياة الدنيا، وبصيغة أُخرى: هنا انتهى تحصيلهم من المعلومات، كما هي عبارة ابن عطية في تفسـيره، فلا رصيد لـهم في رؤية الحلال والحرام ولا ما يتصل بالدين من ثقافة وقانون وتربية وشـبه ذلك. يوضح الأمر أن كلمة «مبلغهم» مصدر ميمي يجسـد الحدث إلى منتهاه، بل يجسـد غاية ما وصل إليه الحدث، فالفرق بين البلوغ والمبلغ هو كالفرق بين الإنقلاب والمنقلب، فإن المنقلب يجسد خاتمة مسار الإنقلاب، كما في قوله تعـالى ﴿ .... **وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ** ﴾ الشعراء: ٢٢٧، وقد بين ذلك العلامة فاضل السامرائي في (معاني الأبنية). فمعنى العبارة القرآنية أن منتهى علمهم هي الحياة الدنيا، فقد تجد غير المؤمن عالماً قوياً بالطب او بالهندسة او بالفيزياء او بنحوها من العلوم، ولكن الأهواء قد تتجاذبه في كيفية استخدام هذه العلوم.

ومن القواسم المشتركة بين الذين يرفضون دين الله تعالى: اتباع الهوى وجعله حاكماً على الحق، قال تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ القصص: ٥٠ ، ثم يزخرف عديم الإيمان هواه ويُظهِره بواحد من ظواهر كثيرة. ومن الكلام المأثور: «الهوى أشد من العمى»، وذلك لأن الأعمى لا يرى الأجساد، وأما صاحب الهوى فلا يرى المعاني الصحيحة المتصلة بالدين وبالآخرة.

ثم لو قضى هذا عُمراً في دراسة القرآن الكريم فإنه لن يفقه معانيه. قال تبارك وتعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ..... ﴿٤٦﴾ ﴾ الإسراء: ٤٥ – ٤٦.

(تفاوت المنصرفين عن ذكر الله): نُذكِّر هنا بقوله تعالى ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ الحج: ٣١، وقد سبق تفسير الآية الكريمة، ونكتفي هنا بأن الفعل المضارع في «فتخطفه» وفي «تهوي به»، يصلح لمسار طويل يتكرر فيه الإختطاف والهَوِيّ حتى يبلغ المكان السحيق. وأما حرف الظرفية: «في مكان ..» فهو تعبير عن نهاية المطاف. فمنهم من يقف عند درجة معينة، ومنهم من يستمر إلى نهاية المطاف ويُطبع على قلبه كما في نحو قوله تبارك وتعالى ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ يونس: ٧٤.

يوضح ذلك، أن الله تعالى ذكر الصالحين ثم ذكر المنكرين لدين الله، ثم قال تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ الأحقاف: ١٩.

وهذا يؤكد تفاوت الناس عموماً فيما هم فيه، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ آل عمران: ٧٥.

وتوجد أحوال كثيرة يُكتفى فيها بدرجة الإطمئنان المتبادل وبالضمانات المتعارف عليها كالوصولات والمكاتبات القانونية. وأما في السياسة، فلا يُكتفَى بهذا النوع من الإطمئنان، لأن مسار الإنسان فد يتطور، ولأنه يوجد وراء كل شخص كثير ممن يؤثر عليه سياسياً، فلابد من إجراءات أكثر فاعلية.

وأيضاً، فإن القرآن الكريم يسدد المؤمن وينير عقله على قدر جهده وتقواه أي طهارة نفسه. قال تعـــالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الواقعة: ٧٧ – ٧٩، فقوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ أي كلام الله تعالى وهو كريم بمعانيه، ولكنه ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾، أي مستور في المصحف، ومنه قوله تعالى ﴿ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ البقرة: ٢٣٥، أي أسررتم أو سترتم في قلوبكم، ثم قال تعالى ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾، أي لا يفقه معانيه فيخرجها من الكِنّ الذي حفظ فيه القرآن إلا أصحاب القلوب النقية الطاهرة، فهذا مس معنوي من جنس قوله تعالى ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الأنعام: ١٧. **وقال الراغب الأصفهاني رحمه الله:** لكن محاسن أنواره –أي القرآن– لا يُثَقِّفُها إلا البصائر الجلية، وأطايب ثمره لا يقطفها إلا الأيـدي الزكية، ومنافع شـفائه لا ينالها إلا النفوس النقية، كما صرح تعالى به فقال في وصف متناوليه ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾، وقال في وصف سامعيه ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ

﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ فصلت: ٤٤. وذكرت أنه كما لا تدخل الملائكة الحاملة للبركات بيتاً فيه صورة أو كلب، كذلك لا تـدخل السـكينات الجالبة للبينات قلباً فيـه كبر وحرص، فالخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات.اهـ من مقدمة (المفردات). يؤكد ذلك، قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ الأنفال: ٢٩، أي يجعل لكم قدرة على رؤية الفروق بين الأُمور المتباينة، كالراجح والمرجوح، والصواب والخطأ، والحق والباطل. معنى ذلك أن لضعيف التدين نصيباً ضعيفاً من رؤية هذه الفوارق فيما يتصل بمعاني القرآن والسنة.

الرؤية الخادعة:

الرؤية الخادعة يمكن أن يقع فيها المسلم وغيره. قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ التوبة: ٢٥، فإنهم خُدِعوا بالكثرة وحدها، فأنستهم هذه الرؤية المؤثرات الأكثر أهمية، فأعظمها أهمية التوكل على الله تعالى، ثم الإعداد المادي والمهارات العملية في ساحة المعركة.

ويتصل بذلك قوله تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ الحشر: ٢، فتدبر أن إخراج أولئك حينذاك وقع على خلاف ظن المؤمنين وظن أولئك اليهود. فالمهم أن على المؤمنين إعداد العدة المناسبة وزيادة احتياطية وتقويم الموقف وفقاً للعوامل والمتغيرات بين الطرفين. ومع ذلك يجب التفكير بما هو خارج الحسبان من أفعال الله تعالى، فتدبر عبارة ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ

﴿ يَحْتَسِبُواْ ﴾، وكذلك قوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ الطلاق: ٢ – ٣.

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ طه: ١٢٠ – ١٢٢، فعلى المؤمن الحذر من أن رؤية معينة إنما هي من خُدَع الشيطان، وينبغي لذلك اعتماد تنقيح النظر بالرؤية الثانية فصاعداً، على نحو ما بيناه في المبحث الثاني.

وأما عند الكافر، فإن تزيين السيئات يُعطي مجالاً واسعاً للرؤى الخادعة، قال تعالى ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ فصلت: ٢٥، وقال تعالى ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ الزخرف: ٣٦ – ٣٧.

ويتصل بهذا الأصل، افتعال الأعذار غير الصادقة وخداع النفس بها قبل خداع الآخرين، ومنه قوله تعالى ﴿ .... وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾ الأحزاب: ١٣ – ١٥.

فينبغي للمؤمن أن يسأل الله الهداية والتسديد والتثبيت على الحق. وعن عَلِيٍّ عليه السلام، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « قُلِ اللهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بِالْـهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّـدَادِ سَـدَادَ السَّهْمِ » رواه مسلم وأحمد وأبو داود وأبو يعلى، وصححه الألباني وحسين سليم أسد، وقوَّاه شعيب الأرنؤوط. فواضح أن السداد إصابة القصد الصالح، فعلى المؤمن أن يجعل لكلمته او تصرفه غاية صالحة، كمن يسدد سـهمه إلى هدف مُـحَدد. وهذا غير ممكن إلا بضبط النفس، أي حماية عملية صناعة الكلمة والتصرف، من العوارض المؤثرة كالغضب والهوى والتسرُّع والإضطراب.

ومن أنفع الرُّقَى في هذا المعنى أن يرقي المسـلم نفسه بقوله تبارك وتعالى ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ إبراهيم: ٢٧.

أمراض النفس:

كالكبر وغيره كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٣٤، وقوله تبارك تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ غافر: ٥٦.

وتدبر مصير التوجه الفكري للمتكبرين، كما في قوله تعالى ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ الأعراف: ١٤٦.

وكذلك الحسد وإرادة حصر المنزلة والخير الدنيوي بأنفسهم، ومنه قوله تبارك وتعالى ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ البقرة: ٩٠. ومنه قوله تعالى ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ الأحزاب: ١٩، الشح أشد البخل، والمعنى أنهم بخلاء بالخير عليكم، فلا يريدون الخير الدنيوي إلا لأنفسهم. قال ابن فارس: الشُّحُّ، وَهُوَ الْبُخْلُ مَعَ حِرْصٍ. وَيُقَالُ تَشَاحَّ الرَّجُلَانِ عَلَى الْأَمْرِ، إِذَا أَرَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْفَوْزَ بِهِ وَمَنَعَهُ مِنْ صَاحِبِهِ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة). ثم قال تعالى ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ الأحزاب: ١٩، وفي العبارة تأكيد أنهم لا يريدون الخير إلا لأنفسهم.

ومن أكبر أمراض النفس، كراهة الحق والإشمئزاز منه، قال تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ الحج: ٧٢ . وقال تعالى ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ الزمر: ٤٥. وقال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ الزخرف: ٤٧.

ومن أمراض النفس اتباع الهوى، وقد قال سلفنا: «الهوى أشد من العمى»، وذلك لأن الأعمى لا يرى الأجساد، وأما صاحب الهوى فلا يرى المعاني الصحيحة. فالهوى أصل الإنحراف الفكري كما ينبه إليه قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ

أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ القصص: ٥٠.

ومن أمراض النفس التطبع بمضامين الكذب، قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ آل عمران: ٢٤، ولعله التأثير النفسي للبقاء على الكذب، فإن النفس تغتر به وكأنه حقيقة. وقيل: المغرورون هو ضعفاؤهم، والمفترون كبراؤهم؛ أي غَرَّ الضعفاءَ قول الكبراء، نقله أبو حفص النسفي في (التيسير في التفسير). وهذا تأويل قوي، فإنه يعبر عن حقيقة التأثير بين الطغاة واتباعهم.

الإحاطة بالخطيئة:

قال تعالى ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٨١. فتدبر عبارة ﴿ وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ ﴾، فإن مايحيط بالإنسان هو ما لا يترك له منفذاً للخروج والإقبال على أمور أخرى، او بعبارة أُخرى: استولَت عليه خطيئته وغلَبَتهُ، فلم يبقَ لغيرها عليه حكمٌ، كما هي عبارة أبي حفص النسفي في (التيسير في التفسير). ولذلك فإن الوصف في الآية يقع على نوعين من الناس:

(النوع الأول): الكافر الذي ينحدر شيئاً فشيئاً في الخطايا حتى يُحاط به فلا يخرج منه إلا الشر.

(النوع الثاني): المسلم الذي يكتسب سيئة كبيرة لا يمكن حمايتها في الدنيا إلا بالإصرار عليها والإستزادة منها حتى تملأ عليه نفسه وتحيط بأقواله وأفعاله، ويقوم بزخرفتها والإيمان بها ويقرن بذلك الإنكار لما يعترض طريقه من مضامين الحق والعدل

في القرآن. وقد وقع في ذلك كثير من الطغاة والمستبدين الذين حملت ظهورهم أوزاراً كبيرة من كثرة ما قتلوا من نفوس وانتهكوا من حرمات ونهبوا من أموال؛ ولا اعترفوا بخطأ ولا خضعوا لقصاص، بل زينوا إفسادهم وأنكروا كل ما يُعارض ذلك، ومنعوا محاولات التصحيح.

وتدل الآية الكريمة على أن الإنسـان الفاسـد يمكن أن يتطور تطورا سـفلياً سواء كانت البداية بالكفر او بسيئة كبيرة، لأن حكم الآية معلق على وصفين، الأول كسب السيئة، والثاني أن يُحاط الإنسان بخطيئته او بخطيئاته، وهذا تطور تدريجي، فمنهم من ينزل بالدركات إلى أن يحاط به، ومنهم من يقف في وسط المسار وتظهر له مواقف حميدة، ومنهم من يراجع نفسه ويتوب إلى الله تعالى.

وتدبر قراءة نافع من السبعة وأهـل المدينـة: «وأحاطت به خطيئاته» بصيغة الجمع، ويُنبه ذلك إلى نحو ما ذكرناه من أن السيئة العظيمة التي ابتدأ بها جرته إلى خطايا كثيرة أحاطت به، من قتل وعدوان وظلم وبطش وترويع وسائر الفواحش السياسية والإقتصادية والإجتماعية. وأما قراءة الجمهور ﴿ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ بالإفراد فإنها تجعل الإحاطة للذنب الذي ابتدأ به من كفر او جريمة فعلية كبيرة، وذلك لأن الخطيئة الكبيرة الأولى هي التي جرته إلى سائر الخطايا فكانت السيئة الأولى هي نقطة التحول والنزول في دركات الخطايا، فلا تعارض بين القرائتين.

وتوجد نصوص تؤكد تأثير الخطايا والآثام على قرار الإنسان وخياراته، والأمر أشد حين يتوغل الإنسان في الآثام ويصير فاسقاً. والفسق هو الخروج عن أمر الله تعالى، ولكنه أبلغ في الذم من الوصف بالذنب أو الظلم أو الإثم أو السوء أو العصيان، فإن المؤمن الصالح قد يصف نفسه بالذنب ونحوه كما في سيد الإستغفار وغيره، ولكنه لا يوصَف بالفسق. يوضح الأمر أن المسلم الفاسق قد بلغ درجة في الذنوب، وكأنه خرج عن الإستقامة إلى الجور والخبث في العمل، وبدرجة توجب إسـقاط عدالته، وقد قال تعـالى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَـٰدِمِينَ ﴾ الحجرات: ٦.

وأكثر ما يُطلق الفسق على المعاصي العملية الكبيرة، كما ينبه إليه قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ الأعراف: ١٠١ – ١٠٢، وقوله تعالى ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ البقـــرة: ٢٦ – ٢٧.

وواضح أن المعاصي الكبيرة توهن التفكير الإيماني وتوجه التفكير إلى المزيد من الخطايا والجرائم او إلى الكفر، قال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَـٰتِۭ بَيِّنَـٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ البقرة: ٩٩ – ١٠٠، وقال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ يونس: ٣٣، أي حقت كلمة الله على الذين فسقوا بأعمال الكفر وبالغوا فيها.

قسوة القلب:

قال تعـــالى ﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَـٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ البقرة: ٧٤، فإن القسوة هي ضعف او فقدان التفاعل مع المؤثرات التي ينبغي التفاعل معها، فلا تثير المؤثرات تفكيراً سلبياً، ولا تعاطفاً مع مظلوم ولا نصرة لحق ولا إبطالاً لباطل. وإنما ينطلق التفكير وفقاً

للأسباب التي أدت إلى القسوة. ومن أهمها سببان، **(السبب الأول)**: إطالة عهد الركود وعدم الإرتقاء حتى يصير الركود صفة راسخة، كما ينبه إليه قوله تعالى ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ الحديد: ١٦. **(السبب الثاني)**: أن تكون النفس مغمورة بالملاهي والشهوات والترف فهي غير مؤهلة للتفاعل مع الأمور الأُخرى، ينبه إلى ذلك نحو قوله تعالى ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴾ المؤمنون: ٦٣.

شراء الشهوات بالحق:

وهذا العنوان هو الوجه المضاد لأصل سابق تحت عنوان «تجلية الحقائق وإتقان الإحتجاج ...».

وشراء الشهوات بالحق داء قديم حديث، وقد يزل فيه من يُظهر التدين ويتوهم أنه داعية، ومع ذلك يحجب الحق ويُغيبه نضالاً عن حزبه او قادته. وهو داء شديد الخطورة، لأنه يُغَيِّب الحق ويُشوه الرؤية، ويضلل أعضاء المؤسسة والمجتمع والأجيال المتتابعة، ويُفسد النظام ويهوي بصاحبه في جهنم.

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة: ١٧٤. الكتمان نقيض الإعلان والإظهار. قال ابن فارس: الْكَافُ وَالتَّاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِخْفَاءٍ وَسَتْرٍ. مِنْ ذَلِكَ كَتَمْتُ الْحَدِيثَ كَتْمًا وَكِتْمَانًا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ النساء: ٤٢ . وَيُقَالُ: نَاقَةٌ كَتُومٌ: لَا تَرْغُو إِذَا رُكِبَتْ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة).

والوعيد الشديد في الآية ينبه إلى خطورة كتمان شيء من الدين، لأن عاقبة الكتمان أن الباطل سيحل محل الحق، سواء كان ذلك في المجال السياسي او الاقتصادي او الاجتماعي او غيرها. فهم أخذوا الثمن الدنيوي لتسويغ الباطل، وهذا ما تنبه إليه عبارة ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾.

ولنتدبر عبارة ﴿ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، فإن العبارة لم تصرح بالقوم المكتوم عنهم، فتُحمل العبارة على الإطلاق في الكتمان، سواء كتم عن هؤلاء او أولئك، ويقتضي ذلك العموم في المشمولين بالرسالة كلهم، كما في نحو قوله تعالى ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ آل عمران: ١٣٨، وقوله تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ النساء: ٧٩، وقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سبأ: ٢٨.

فواضح أن دين الله تعالى قرآناً وسنة، قد أُنزل إلينا لفهمه والعمل به ونشره والدعوة إليه. وليس في القرآن والحديث الصحيح ما يحل كتمانه، سواء كان كتمانه بعزله عن النشر او بحصر تداوله في الغرف المغلقة او بتحريف معناه، او بغير ذلك من وسائل كتمان النص او المضمون. وهذا غير معارض لنظام التدرج، فإن التدرج يشمل العمل التنفيذي؛ وأما التدرج في التبليغ والمعرفة فمع من أسلم حديثاً او خرج حديثاً من غمرته، وليس مع أعضاء المؤسسة الإسلامية وأمثالهم. ولكن الذي حاصرته الحجة بسبب كتمانه، فربما يفتعل الأعذار بمزاعم التدرج ونحوها. وقد قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ الأحزاب: ٣٩.

ويروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كتب إلى أبي بكر بن حزم : «ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتّى يعلم من لا يعلم، فإنّ العلم لا يهلك حتّى يكون سرّاً»، أي لا

يضيع العلم حتى يصير سـراً؛ الخبر منقول في (نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم).

ومن المعاني المأثورة أن إخفاء العمل نجاة في كثير من الأحيان، وأما إخفاء العلم فهلكة إلا في استثناءات الضرورة.

فالذين يكتمون الحق يجعلون الفتوى على هوى الطغاة، او هوى القادة والأسـياد الرسميين او غير الرسميين، او هوى التيار المخالط لهم على نحو قوله تعالى ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴾ المدثر: ٤٥، او لتبرير ما يعلمون أنه مخالف للدين وللإيهام بشرعيته. ويتحمل هؤلاء آثاماً متواصلة بسـبب كثرة المخدوعين والمضلَلين بكتمانهم، وبسبب تكرار العمل بما زيَّنوه زمناً طويلاً.

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ البقرة: ١٥٩ – ١٦٠. تُذكِّر الآية بأمرين إضافة إلى ما ذكرناه قبل قليل، **(الأمر الأول)**: عبارة ﴿ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ صريحة أن الوعيد الشديد على الكتمان يشمل كتمان المضمون المعنوي وإنْ كان النص الشرعي معلناً. وهذه مصيبة كبرى يقع فيها بعض المنتسبين إلى العلم الشرعي وبعض المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية، حين يتعمدون كتمان مضامين شرعية في مجال السياسة او الاقتصاد او الإدارة والقيادة او في غير ذلك من المجالات؛ وليس ذلك بسبب الإكراه والإضطرار، ولكن كما قال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ الأحزاب: ٦٧. **(الأمر الثاني)**: عبارة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ ... ﴾، فتدبر الإقتران بين لعنة

الله تعالى ولعنة اللاعنين، فاللاعنون بصيغة العموم هنا هم الصالحون الذين يُغضبهم كتمان المضامين الدينية. فواضح أن الذين يكتمون المضامين الدينية يستحقون اللعن أي الطرد والإبعاد مع السخط والإمتعاض، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك يتوب الله عليهم.

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٤٠.

معنى عبارة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده عن مضامين وأحكام الدين. يوضح الأمر أن «مِن» في عبارة ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، ابتدائية لبيان المنشأ، كما هو واضح وبينه ابن عاشور في تفسيره. وواضح من السياق المتصل بالآية أن الشهادة هنا ليست قضائية، ولكنها شهادة بالمضامين الدينية، كما في نحو قوله تعالى ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الرعد: ٤٣. فتدبر الذم الشديد لمن كتم شهادة عنده عن مضمون من مضامين دين الإسلام.

وقال تعالى ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٤٢. «اللبس» هو الخلط، والخلط للإيهام وإزالة الوضوح. قال ابن منظور: واللَّبْس، بِالْفَتْحِ: مَصْدَرُ قَوْلِكَ لَبَسْت عَلَيْهِ الأَمر أَلْبِسُ خَلَطْت. لبَسَ عَلَيْهِ الأَمرَ يَلْبِسُه لَبْساً فالْتَبَسَ إذا خَلَطَه عَلَيْهِ حَتَّى لَا يعرِف جِهَتَه. فِي رَأْيِهِ لَبْسٌ أَي اختلاطٌ، وَيُقَالُ لِلْمَجْنُونِ: مُخالَط. والتَّلْبيسُ: كالتَّدْليس والتَّخليط، شُدِّد لِلْمُبَالَغَةِ، وَرَجُلٌ لَبَّاسٌ وَلَا تَقُلْ مُلَبِّس. اهـ من (لسان العرب). والباء في ﴿ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ للإلصاق، كقولك: خَلَطْتُ الماءَ باللبن. والحق هو الثابت الصحيح او الثابت لجليل أوصافه او لصحة وقوعه؛ ونقيضه الباطل وهو الزائل بسبب كبير عيوبه ومساوئه او عطل فوائده. وظاهر إعراب «وتكتموا» الجزم عطفاً على «تلبسوا»، والتقدير: ولا تكتموا.

فالتلبيس المذكور هو الخلط لإظهار الباطل بصورة الحق، وللتعمية لجعل الإنسان كالأعمى عن إدراك الحق. فكتمان الحق من لوازم التلبيس بالباطل، وتدبر كيف قرن الله تعالى بينهما في آية واحدة. وقد جاء النهي عن تلبيس الحق بالباطل بجملة والنهي عن كتمان الحق بجملة معطوفة، وبذلك يُعلَم أن الجمع بينهما أمر في غاية القبح والشناعة. وقد يجد المبطل مصاعب في إنكار الحق مباشرة، فسبيله حينئذ التلبيس او تشويش دلائل الحق لجعلها طريقاً إلى الباطل، على أمل أن يغيب عن كثير من الناس رؤية الفساد في جمع الضدين.

وقد بينت الآيات القرآنية المذكورة قبل قليل أن الذين يكتمون هدى الله ملعونون وأنهم ما يأكلون في بطونهم إلا النار، فتدبر درجة الهبوط حين يُضاف إليه تلبيس الحق بالباطل، فهو ضرب من المراوغة والخداع مع الدين، وعقوبته شديدة جداً كما سيأتي تحت عنوان: «المراوغة في التعامل مع الشرع»، إن شاء الله تعالى.

ومن وسائل التلبيس القيام بعمليات تلميع وتمجيد قضية معينة ونشر تمجيدها كي تصير القضية مقبولة جداً، ويصير الإعتراض عليها منكراً. كل ذلك لتمشية محور فاسد من محاور القضية وإضفاء شرعية مزيفة عليه.

وفي كثير من الأحيان تكون درجة متدنية من التلبيس غير كافية، فلابد من التوغل في تزيين الباطل الذي يُراد الإقبال عليه (أي ما بين أيديهم)، وتزيين جذوره او نظائره السابقة (أي: وما خلفهم). وقد قال تعالى ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ فصلت: ٢٥.

ويتصل بالتلبيس: المداهنة، قال تعـــالى ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ ﴾ القلم: ٨ – ٩، ومعنى الآية الكريمة: ودوا من النبي ﷺ تليين وتلوين

وتطويع بعض مضامين دعوته وفقاً لأهوائهم كي يُقابلوا ذلك بالمثل، وهي استعارة من تدهين الشيء لجعله ليناً قابلاً لإعادة التشكيل، فلا مجال لذلك في الإسلام.

إفراغ القلب من الحق:

فإذا فرغ القلب من الحق سهل على الشيطان أن يملأه بالباطل؛ ومن المعاني المأثورة عن السلف: قلبك إن لم تُشغله بالحق شغله الشيطان بالباطل. وقد قال تبارك وتعالى ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ الأعراف: ١٧٥، فتدبر ترتيب الأحداث، **(الحدث الأول)**: أنه انسلخ من آيات الله تعالى، قال ابن فارس: السِّينُ وَاللَّامُ وَالْخَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِخْرَاجُ الشَّيْءِ عَنْ جِلْدِهِ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة). فذاك الرجل جعل الدين غلافاً خارجياً غير مرتبط بالقلب، فسهل عليه أن ينسلخ منه. وأما إذا كان الإيمان الذي في القلب هو المنتِج للهدي الظاهر، فهذا هو الثابت بإذن الله تعالى. والتعبير بـ: «انسلخ» ينبه إلى الإنفصال الكامل عن آيات الله تعالى، فهو رفض وكفر، وليست زلة مؤقتة. تصرح بذلك الآيتان بعد الآية التي ذكرنا تفسيرها. **(الحدث الثاني)**: لحقه الشيطان بعد انسلاخه من آيات الله. والفاء في ﴿ فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾، تدل على ذلك. **(الحدث الثالث)**: استقرار وحي الشيطان في القلب الخالي من الهدى، كما تدل عليه عبارة ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾، والْغَيُّ خلاف الرُّشْدِ ، قال تعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ البقرة: ٢٥٦، فالغي هو فساد الرأي، او إِظْلَامُ الْأَمْرِ كما هي عبارة ابن فارس. يوضح عبارة ابن فارس أن «الإغواء» هو التحريك في الظُّلمة او في حال تغييب الرؤية، مثاله نصب كمائن السقوط والمهالك المادية او المعنوية، فالمُغَوَّياتُ بالتشديد وفتح الواو واحدتها مُغَوَّاةٌ وهي حُفْرةٌ كالزُّبْية تُحْتَفَرُ للذئبِ ويجعلُ فيها جَدْيٌ إذا نَظر الذئبُ إِليه سقَط عليه

يريدهُ فيُصادُ، ومن هذا قيلَ لكلْ مَهْلَكة مُغَوَّاةٌ، والتَّغَاوِي: التَّجَمُّع والتَّعاوُن عَلَى الشَّرِّ. والغاوون (اسـم فاعل) هم الذين وقعوا في الإغواء ورضوا به لأنفسـهم.

وقد يقع المسلم بنوع آخر، وهو درجة معينة من فراغ القلب من الإندفاع إلى العمل، ولكن مع بقاء الإيمان بالدين.

الطعن بالأدلة الصحيحة:

أي بسبب نواقص في التفكير، وهذه النواقص شديدة الضرر، لأنها تجعل الكافر يثبت على كفره، وتجعل المسلم يثبت على خطأه، وتجعله يسارع بتكذيب ما يمكن أن يكون صحيحاً من المعاني والأدلة. وهذا بالإضافة إلى المخاطر الدنيوية المترتبة على التكذيب بما يمكن أن يكون صحيحاً، في الأمور الدفاعية والسياسية وغيرها. وتوجد نصوص قرآنية عديدة توضح ذلك:

منهـا: قوله تعالى: ﴿ **بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ يونس: ٣٩ ، قال ابن سيده: حاطَه حَوْطاً وحِياطةً: حفظه وتعهده. واحتاط الرجل، أَخذ فِي أُمُوره بالأحزم. والحَوْطَةُ والحِيْطَةُ والحَيْطَةُ: الاحتياطُ. وحاطَه الله حَوْطاً وحِياطةً، وَالِاسْم الحيطةُ: صانه وكلأه. والحائط: الْجِدَار لِأَنهُ يَحوطُ مَا فِيهِ. وكل من بلغ أَقْصَى شَيْء وأحصى علمه، فقد أحاطَ بِهِ. وَقَوله تَعَـالَى: ﴿ **وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ** ﴾ البروج: ٢٠، أَي لَا يعجزه أُحْدُ، قدرته مُشْتَمِلَة عَلَيْهِم. اهـ من (المحكم والمحيط الأعظم). وفي معنى قوله تعالى ﴿ **فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ** ﴾ النمل: ٢٢ ، قال الزجاج: ومعنى أَحَطْتُ علمتُ شيئاً من جميع جهاته، تقول: أحطتُ بهذا علماً، أي علمتُه كُلَّه لم يَبْقَ عليَّ منه شيء. اهـ من (معاني القرآن وإعرابه). ولما كانت الإحاطة بمعاني القرآن كلها متعذرة على الإنس

والجن، فإن الذي كذبوا به في عبارة ﴿ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾، هو ما عرضه النبي ﷺ عليهم من نصوص او من مضامين القرآن والإسلام، وهذا كاف في الوعيد والإنكار عليهم. فيمكن أن يكون المقصود أنهم كذبوا بالوعيد في الآخرة او ببعض المجملات القرآنية التي يأتي تفسيرها مستقبلاً، وذلك لأن عبارة ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾، تدل على توقع أن يأتي التأويل، كما أن لفظ «التأويل» يُستعمل بمعنى التفسير وبمعنى حقيقة المآل المستقبلي حين يقع، قال تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ .... ﴾ الأعراف: ٥٣.

وقال الإمام الزمخشري: بَلْ كَذَّبُوا: بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن، وفاجئوه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشئ على التقليد إذا أحسّ بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه- وإن كانت أضوأ من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة- أنكرها في أوّل وهلة، واشمأز منها قبل أن يحسّ إدراكها بحاسة سمعه، من غير فكر في صحة أو فساد، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب. اهـ مع اختصار من (تفسير الزمخشري). وقريب من ذلك قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ النمل: ٨٤ – ٨٥ .

ونرجع إلى العموم في عبارة ﴿ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾، فإنها تنبه أيضاً إلى التعامل بين الناس في الدنيا، فقد قلنا إن «لَـمَّا» تدل او تُشعر بتوقع أن يأتي تأويله؛ فيجب اجتناب التخلق بدرجة من التسرع المذموم، وذلك في التعامل بين الصالحين من العلماء والدعاة وغيرهم، فلا يسارع أحدهم إلى الإنكار على أخيه، ولكن يتناول الأمر برفق، فربما يأتيه تأويل مقبول بعد حين. وتنبه الآية الكريمة أيضاً إلى ذم أنْ يستدل

بعضهم برؤية جزئية، بعيدة عن الإحاطة، ويتخذ القرار قبل أن تأتيه الحقيقة والتفسير الصحيح. وتجمع هذه الرؤية ثلاثة أخطاء كبيرة، **(الخطأ الأول)**: الإعتماد على رؤية جزئية غير محيطة. **(الخطأ الثاني)**: قرار التكذيب قبل التنقيح وإعادة النظر، وبعبارة أُخرى: المجازفة بالإختيار، كما ينبه إليه قوله تعالى ﴿ **وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا** ﴾ الإسراء: ١١. **(الخطأ الثالث)**: عدم إثارة الإحتمالات، وبعبارة أُخرى الفشل في إثارة احتمال أن الأمر حق فلا ينبغي التكذيب به. وهذا سبب شائع من أسباب الخطأ او فساد الرؤية، ومنه قوله تعالى ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ الأحقاف: ٢٤، فلم يفكروا باحتمال صدق الرسالة وأن العارض عقوبة لهم. ومثل ذلك قوله تبارك وتعالى ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ** ﴾ المؤمنون: ٥٥ – ٥٦، فلم يفكروا باحتمال أن الله تعالى يُمدهم ليزدادوا إثماً، كما يوضحه قوله تعالى ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ آل عمران: ١٧٨.

ومنها: قوله تعالى ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ (الأنبياء: ٢٤)، فتدبر أن سبب إعراضهم هو الجهل بالحق، ولا ريب أنه ليس مطلق الجهل لأن بعض أنواع الجهل يقبل العُذر، وهو الجهل بسبب عدم بلوغ الحجة. معنى ذلك أن الجهل المفهوم من عبارة: ﴿ **لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ** ﴾، هو الجهل بالحق بعد بلوغ الحجة، كما تنبه إليه عبارة: ﴿ **فَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾، ويوجد أكثر من سبب لذلك، **(السبب الأول)**: هو رفض النظر في الحجة الصحيحة، وكأنه مكتف بما هو عليه ويشعر بالإستغناء عن غيره؛ وسيوضحه تفسير آية عبس بعد قليل إن شاء الله تعالى. **(السبب الثاني)**: هو النظر في

الحجة ليس لفحصها ولكن لافتعال حجة باطلة لردها، أي النظر فيها بهدف الإعراض عنها، لأنهم ألزموا أنفسهم مسبقاً برؤية خاطئة، وسيأتي إيضاح ذلك بعد قليل إن شاء الله تعالى. ويوجب ذلك الحذر الشديد من الإعراض عن حديث صحيح مع سلامة إسناده، بل يجب إعادة النظر فيه مراراً وتكراراً لفهم توافقه مع أحكام الشرع، وهكذا القول في النظر في حجة الفقيه المخالف وفي سائر الأدلة الشرعية. وتنبه الآية إلى عدم جواز الإعراض عن الأمر الخطير الذي لا نعلم حقيقته، ولكن ينبغي البحث والتعلم.

ومنها: قوله تعالى ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (الأحقاف: ١١)، الهداية أكثر من نوع، **(النوع الأول)**: وصول البيان والدلالة او وصولها والتعرف عليها، ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فصلت: ١٧. **(النوع الثاني)**: قبول الهداية والتوفيق للإنتفاع بها، ومنه قوله تعالى ﴿ .... وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ .... ﴾ الزمر: ٣٦ – ٣٧ . وعلى ذلك فإن آية الأحقاف تتضمن ذم أمرين، **(الأمر الأول)**: الإنكار على من أنكر شيئاً او جحده لأنه لم يتعرف إلى مضمونه؛ ويمكن أن يقع المؤمن بدرجة من ذلك. فلاجتناب هذه المذمة، ينبغي للمؤمن في القضايا الخلافية أن يبحث ويتثبت، فلا يُعادي ما يجهله كما يفعل كثير من الناس. **(الأمر الثاني)**: ذم من عرف الحق فلم يقبله، وجحده زاعماً أنه إفك. والمؤمن الثابت معصوم من ذلك، والحمد لله تعالى.

ومنها: الإلتزام مسبقاً برؤية خاطئة: قال تعالى ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ الإسراء: ٤٦ – ٤٧ ، فتدبر أن

الله تعـــالى لم يقل: بما يسـتمعون إليه، ولكنه تعـالى قال في سـياق الذم: ﴿ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾ ، فإن الباء في: «به»، للإيصال بأداة الإستماع او بمنهج الإستماع وهو المراد هنا، وهـذا كما تقول: رأيته بعيني وقاومته بالحجة والفكر وضربته بيدي، فالعقلية او المنهج الذي يسـتمع به أولئك الكفار كان رافضاً للمسموع مُسبقاً وغير مسـتعد لرؤية واسـعة ولا عميقة ولا منقحة ولا تحليلية. ويتصل بذلك قوله تعـــالى ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ النمل: ٤٣.

ومنهـــا: خطورة التكذيب بما يمكن أن يكون صحيحاً. من ذلك التكذيب بالجديد الذي لا تألفه عوائدهم من غير فحص له، قال تعالى ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ ص: ٧؛ فبالإضافة إلى وجوب الإستجابة السريعة إلى الإيمان، فإن صيغة العموم او الإطلاق في الآيات الأربعة المذكورة قبل قليل تدل أيضاً على وجوب الحذر من التكذيب بما يمكن أن يكون صحيحاً، فإن أخباراً صحيحة كثيرة تأتي في البداية بمشـهد غير متكامل او بعلامات غير مباشـرة، وقد يؤدي التكذيب بـها إلى خسـائر كبيرة، ولذلك أمر الله تعـــالى بالتبين او التثبت من خبر الفاسـق قبل التكذيب به، وقد يأخذ التبين وقتاً طويلاً. وفي قضايا المخاطر وشـبهها، قد يكون من الضروري اتخاذ تحضيرات احتياطية إلى أن تظهر الحقيقة. وكثير من غير المؤمنين لا يُكذِّبون في الأُمور الدنيوية بما يمكن أن يكون صحيحاً، بل يبحثون ويتبينون إلى أن تنكشـف الحقائـق، ولكن إذا جاؤا إلى الإيمان بالله تعــــالى وبدينه، فإن التكذيب وسـوء التفكير يغلبهم. وقد قال تبارك وتعالى ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ النجم: ٢٩ – ٣٠، المعنى: ذلك منتهى او غاية ما يصل إليه علمهم. ويتصل بذلك قوله تعـــــالى ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا

عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ ﴾ عبس: ٥ – ١١؛ فتدبر هنا أن الله عز وجل لم يقل: أما من كفر، ولكنه تعالى جعل العتاب على التصدي لمن استغنى؛ فإذا ظهر لك أن أحدهم قد استغنى عن دعوتك او عن مشروعك او عن العَرض الذي تعرضه عليه، فاجعل دعوتك له عملية أداء واجب او أكثر بقليل، فلا يصل عرضُك عليه مرتبة التصدي. والتصدي ليس مطلق العرض، ولكنه عَرض قوي او متكرر كصَدَى الصوت او التزام بالتعرض حتى تصل إلى غاية وكأنه تَـعَـقُّب لصدى الأمر لتحقيق غرض ما، وبنحو ذلك فسره الصاحب بن عباد في (المحيط).

ومنهـــا: ذم من يقتصر في الإذعان على الأدلة الموافقة له ولرأيه. وهذه صفة المنافقين، كما في قال تعـــالى ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (النور: ٤٧–٥١).

الإسراف والغلو في الحذر:

الحذر واجب في الأمور الخارجية والداخلية، وقد ذكرناه في (وِجهة اللواء) تحت عنوان «نصوص أخرى تقتضي الرصد»، ونكتفي هنا بقوله تعالى ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ المنافقون: ٤، وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا

﴿ لَكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ التغابن: ١٤. ومما ذكرناه في موضع آخر من (وِجهة اللواء) أن الحذر احتراز من مخيف كما ذكر الراغب، وتشمل عبارته الإحتراز من فوات مصلحة ضرورية لأن من المفسدة فقدان مصلحة ضرورية. ورجلُ حَذِرٌ وحَذُرٌ: مُتيَقِّظٌ مُتَحَرِّزٌ شَدِيدُ الحَذَرِ، ورجل حاذِرٌ مستعد متأهب كأَنه يَحْذَرُ أَن يُفاجَأَ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ الشعراء: ٥٦. فالحذر إعداد لدفع او مواجهة خطر مستقبلي او قريب، او لاغتنام مصلحة ضرورية خشية ذهَابها عنك. ومما ذكرناه في (نخبة المسار)، أن من متطلبات الحذر أن يكون لك رصد واسع يؤدي إلى رؤية جيدة لما يُحتمل وقوعه من مخاطر وتهديدات وإخفاقات، وكذلك لفرص المصالح، وأن تكون مستعداً للتعامل معها، أي قد أعددت عدتك لها قبل أن تقع.

غير أن الإسراف الفكري يُفسد الحذر كما يُفسد الإنفاق وتحصيل الحقوق، فقد قال تعالى في ذم المنافقين ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ المنافقون: ٤، قال الزمخشري: أى: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارة لهم، لجبنهم وهلعهم وما في قلوبهم من الرعب: إذا نادى مناد في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة: ظنوه إيقاعا بهم. وقيل: كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم. أهـ من (تفسير الزمخشري).

وقال بعض مشاهير اللصوص:

لَقَد خِفتُ حَتَّى لَو تَـمُرُّ حَمامَةٌ ... لَقُلتُ عَدُوٌّ أَو طَليعَةُ مَعشَرِ
وَخِفتُ خَليلي ذا الصَّفاءِ وَرابَني ... وَقيلَ فُلانٌ أَو فُلانَةُ فَاِحذَرِ
فَأَصبَحتُ كَالوَحشِيِّ يَتبَعُ ما خَلا ... وَيَترُكُ مَأنوسَ البِلادِ المُدَعثَرِ
إِذا قيلَ خَيرٌ قُلت هَذي خَديعَةٌ ... وَإِن قيلَ شَرٌّ قُلتُ حَقٌّ فَشَمِّرِ

ولأبي الطيب:

يرونَ من الذعرِ صوتَ الرِّياحِ　　　صهيلَ الجيادِ وخَفْقَ البنودِ

أي يحسبون صوت الرياح صهيل الخيول وخفق الأعلام.

وقد يؤدي الإسراف في الحذر إلى الإضرار بالعلاقات الإجتماعية، وقد يكون أشد بكثير من الوسوسة في الطهارة والغسل؛ بل قد يؤدي أيضاً إلى سوء تقدير المواقف الإستراتيجية وإيقاد الحروب بين الدول المتنافسة.

ونحتاج هنا إلى فهم آية كريمة توضح التوجيه الخاطئ للحذر:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ البقرة: ٢٤٣، ونحتاج إلى بيان فوائد في تفسير الآية الكريمة:

(الفائدة الأولى): في ألفاظ وعبارات الآية، **أما قوله تعالى** ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ﴾، فالهمزة في «ألم» أصلها للإستفهام وقد دخلت على حرف النفي، فصارت العبارة إيجاباً وتقريراً، وليست استفهاماً ولا نفياً، كما يتضح من كلام أبي حيان في تفسيره، وكلام أبي البقاء في (التبيان في إعراب القرآن). ومعناها التعجب ولفت الإنتباه إلى ذلك الحدث، وكذلك التذكير بمعنى تعريف من ليست له سابقة بهذا الخبر. وأما مضمون او سبب التعجب، فيمكن في العربية أن يكون إنكاراً على المرئي او استحساناً ومدحاً له. فمن الإنكار قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ النساء: ٦٠. ومن المدح والإستحسان قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

إبراهيم: ٢٤. وأما مع الاسم الموصول، أي عبارة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ ﴾، فإنها لم تُستعمل في القرآن الكريم إلا في التعجب من الصفة المذمومة للمرئي، أي ذم «الذين» كما في آية النساء وغيرها. وأما كلمة ﴿ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾، فألوف جمع ألف كشخوص وعيون، وهو جمع كثرة، ولذلك ذهب الإمام القرطبي أنهم زادوا على عشرة آلاف.

(الفائدة الثانية): سبب خروج ذلك العدد الكبير هو: ﴿ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾، وليس حذر الفتنة في الدين، ولا لأجل أن يجاهدوا، ولا بسبب ضيق العيش؛ وعددهم قد يزيد على عشرة آلاف ويمكن أن يبلغ عشرات الآلاف، وجملة «وهم أُلوف» هي جملة حالية. ومع ذلك كان اجتناب سبب الموت عندهم هو أن يخرجوا جميعاً من الديار. ولذلك صرح ابن عاشور أن جملة «وهم أُلوف» هِيَ مَحَلُّ التَّعْجِيبِ في الآية الكريمة. وبعبارة أُخرى، ألم يتضمن ذلك العدد الكبير مجاميع صغيرة تفكر في التعامل الصحيح مع أسباب الموت من دون الخروج الجماعي من الديار؟!! فقد يدل ذلك على درجة كبيرة من ركود العقل وفقدان عنصر المبادرة بسبب الهلع والجزع او الترف، ويدل كذلك على تركيز التفكير عندهم على الهروب من الموت وليس على تحسين الحياة، فرؤيتهم ليست واسعة، بل كأنها محصورة بأنفسهم وغير متفاعلة مع إخوانهم الذين لم يخرجوا، على نحو قوله تعالى ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ..... ﴾ آل عمران: ١٥٤. هذا بالإضافة إلى فقدان الشعور بالأضرار الكبيرة (القريبة والآجلة) للمفارقة الطويلة او الدائمة للديار إلا في أحوال استثنائية.

ولمعرفة الخسائر الجلية والكامنة للمفارقة الطويلة او الدائمة للموطن، تدبر قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ

ﱡﭐ ٱلۡقَتۡلِ ﱠ البقرة: ٢١٧، وقوله تعالى ﱡﭐ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﱠ البقرة: ٨٤.

فإن كان في البلد وباء، ففيه أحكام شرعية، ويمكن لمن لم تصل إليه الشريعة أن يفكر بعقل واسع وحكمة. وإن كان سبب الخوف من الموت أنه طُلِب منهم الجهاد في سبيل الله مع العناية بالضوابط الشرعية للجهاد، فإن الفرار من ذلك مصيبة كبيرة. وإنْ كان سبب الخوف من الموت وجود الإستبداد والطغيان، فقد لا يُعذر أحد في ذلك إلا لأمور محدودة، من هذه الأُمور: أن يُستهدف شخص معين او مجموعة صغيرة بأمر خطير يجعله مضطراً إلى الخروج بنفسه وربما مع أهله؛ ومن هذه الأُمور: أن يُضَيق على مجموعة في الرزق والحقوق، فتُضطر إلى الخروج. ولكن تدبر هنا أن عبارة الآية ﱡﭐ خَرَجُواْ ﱠ، وليس «أُخْرِجوا»، وظاهر ذلك أنهم خرجوا طوعاً وليس إجباراً. وأنظر في ذلك قوله تعالى ﱡﭐ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﱠ التوبة: ٤٠، فإن كفار مكة أرادوا منع النبي ﷺ من الهجرة، غير أن تعاملهم مع المسلمين كان في غاية السوء، وتضمن قتل بعضهم وتعذيب آخرين، هذا بالإضافة إلى التهديد والتخويف والمحاصرة، ولذلك كان حكم كفار مكة أنهم هم الذين أخْرَجوا النبي ﷺ كما في آية التوبة. يُضاف إلى ذلك أن النبي ﷺ هاجر في سبيل الله تعالى إلى أهل المدينة الذين التزموا بحمايته وحماية دعوته، فلم يهاجر إلا بعد أن أُعِدَّت له مدينة يُنْصَر دين الله فيها؛ وكان عليه الصلاة والسلام قد وافق قبل ذلك على هجرة مجموعات صغيرة إلى الحبشة. وأما الذين خرجوا وهم أُلوف، فإن فاعل الإخراج هم الذين خرجوا، وقد نبه إلى نحو ذلك العلامة عبد الكريم الخطيب في تفسيره، والله تعالى أعلم.

(الفائدة الثالثة): ذهب كثير من المفسرين إلى أن خروج أولئك القوم حذر الموت كان مذموماً، او أن إماتتهم كانت عقوبة لهم. فقد روى الطبري ما يقتضي ذلك عن

الحسن وعن قتادة، ومثله قول أبي بكر بن العربي كما نقل القرطبي في تفسيره. وقريب من ذلك قول أبي بكر الجصاص في (أحكام القرآن)، وهو مضمون كلام أبي حيان والبيضاوي وعبد الكريم الخطيب، وما نقله ابن عطية في تفسيره. وكلام آخرين يحتمل ذلك من غير تصريح.

(الفائدة الرابعة): حين تحذر أمراً، فلا تقصر تفكيرك على الخوف والهرب منه، فلعل هذا هو جوهر الملامة على الذين خرجوا وهم أُلوف حذر الموت. ولكن عليك أن تسأل الله السكينة والسلامة من الهلع، وفكِّر في الأمر بأُفق واسع وقابل للإتساع، وفكر في خطورته، وفي الأسباب والجذور، وفي المآلات والعواقب، وفي المتعلقات والعوامل المؤثرة، وفي الحلول والخيارات وفي الترجيح بينها؛ واستخدم مهارات التفكير التي سبق ذكرها، والله أعلم وله الحمد الكثير.

الإسراف والترف والإنغماس في التمتع الدنيوي:

أما الإسراف، فهو الإكثار بلا تبصر، او هو الإفراط ومجاوزة الحدود والضوابط. والإسراف ليس خاصاً بالأموال بل يشمل التفكير والتصرفات، ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ الأعراف: ٨١ ، وقوله تعالى ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ الإسراء: ٣٣.

وأما الترف، فيُقال: أترفته النعمة أي أطغته، واسترف القومُ أي طَغَوْا كما في (المحيط) للصاحب بن عباد. والـمُتْرَف هو الـمُتَنَعِّم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها كما ذكر ابن الأثير في (النهاية)، وهو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش كما في تهذيب الأزهري،

وزاد ابن عرفة كما نقل صاحب (تاج العروس) أنه سُـمِّيَ الْمُتَنَعِّمُ الْمُتَوَسِّـع فِي ملاذ الدنيا وشَـهَواتـها مُتْرَفاً لأنه مُطْلَقٌ لَهُ، لَا يُمْنَعُ مِن تَنَعُّمِهِ. والترف ليس مرادفاً للغِنى، فإن الغَني المنضبط بالحق والأخلاق ليس مترفاً. وحقيقة الأمر أن الترف هو التوسع في التنعم المادي، إذا كانت لذة او شهوة هذا التنعم هي التي تسوق الإنسـان في مجمل تصرفاته، فلا شـك أن الترف في النعم يُبعد عن التقيد بالحق ويسـوق إلى الإجرام. يوضح ذلك قوله تعـالى ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴾ هود: ١١٦، فالظالم يصير تابعاً لما أُتْرِف فيه، فالشهوة والملذات هي التي تتحكم فيه؛ قال الفراء: اتّبعوا فِي دنياهم ما عُوِّدوا من النعيم وإيثار اللذات على أمر الآخرة. اهـ من (معاني القرآن). وقال ابن عاشور: وَاتِّبَاعُ مَا أُتْرِفُوا فِيهِ هُوَ الِانْقِطَاعُ لَهُ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِ إِقْبَالَ الـمُتَّبِـع عَلَى مَتْبُوعِهِ. اهـ من (تفسير ابن عاشور). وبذلك يتضح معنى قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ سبأ: ٣٤، وقوله تعالى ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ... ﴾ الواقعة: ٤١ – ٤٦.

وأما الإنغماس في التمتع بالنعم الدنيوية، فإنها تُنسي الإلتزامات الواجبة وتُصيب بترهل الفكر والعمل، وتُصيب كذلك بضمور قُدُرات الإستجابة للحق. وتدبر قوله تعـالى ﴿ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ الأعراف: ٩٥، فإن معنى العفو هو الترك، فعبارة ﴿ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾، تعني: حتى تركوا ما ينبغي لهم من الإلتزامات والإحتياطات والحذر وصارت تصرفاتهم عفوية، بسـبب انغماسهم في اللذات والحسـنات الدنيوية، ونسـوا قوله تعالى ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

الأعراف: ٩٩، فحقت عليهم عبارة ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾. ومن هذا المعنى قوله تعالى ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ الفرقان: ١٨.

والدرجة الشديدة من الإنغماس، هي الغَمْر او الغرق، أي حين تكون نفس الإنسان مغمورة بالملاهي والملذات الدنيوية، فلا مجال للتفكير بالمكارم والمعالي التي ترضي الله تعالى. يوضح ذلك قوله تعالى ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴾ المؤمنون: ٦٣، وقال تعالى ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الذاريات: ١٠ – ١١، وقال تعالى ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ...... ﴿٣﴾ ﴾ الأنبياء: ٢ – ٣.
وتوجد الآن مهارات شيطانية لإغراق الناس باللهو والرغبات المسرفة والإهتمامات الفارغة، فلا يجد الغارق مجالاً للتفكير بالمعاني العميقة القَيِّمة.

وقريب من ذلك «البطر»، وهو الدهش والفرح بالمتعة مع الإستخفاف بالحقائق، ومنه حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ » رواه مسلم وغيره في سياق حديث. وقال تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ القصص: ٥٨، أي استخفت بمعيشتها وما فيها من نِعَم، ولم ترها شيئاً يستحق الشكر والعناية والتزكية (أي تنمية الخير).

وأما الطغيان في الحلال والمباحات، فيشمل ما تقدم بالإضافة إلى تسخير الحلال لخدمة الحرام، قال تعالى ﴿ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ

﴿ ... غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾ طه: ٨١، فتدبر أنه طغيان في الطيبات، أي في الحلال.

المثل السيء:

قال تعالى ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٣٨. فإن للمثل السيء والقدوة السيئة تأثيراً على ضعاف النفوس، مما يقتضي ثقافة مضادة استباقية لتسقيط النماذج السيئة.

ويقابل ذلك التأثير الجيد للمثل الحسن وللبيئة الصالحة، ومنه قوله تعالى ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ الأحزاب: ٢١. وقال تعالى ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ... ﴾ التوبة: ١٠٠، فتدبر عبارة «والذين اتبعوهم ..». وقال تعالى ﴿ .... وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ لقمان: ١٥. وقال تعالى ﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ ...... ﴿٢٩﴾ ﴾ مريم: ٢٨ – ٢٩.

التفلت من الضوابط العقلية الجلية:

ولهذا النوع وجوه متعددة:

منهـا: عدم الإلتزام بثوابت صحيحة، ولكن تغيير القناعات وفقاً للرغبات الدنيوية، وقد يُسمى ذلك بـ: «المعايير المزدوجة». قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ

ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ التوبة: ٣٧. ويكثر وقوع ما يشبه ذلك، كالتفلت من الحكم الشرعي بكلام مزخرف وليس بحجة.

وقريب من ذلك التسامح بتتبع ما يشتهي الإنسان من هذا المذهب وذاك، كأنْ يجمع المقلد في قضاياه ما هو أسهل عليه من هذا المذهب وذاك، أو يقع المقلد في قضية فيها حكم شرعي، فلا يقلد من يترجح تقليده من جهة أهليته، أو قوة دليله، أو تقواه، أو شبه ذلك من أسباب الاختيار، ولكنه يختار من المفتين في قضاياه من تكون فتواه في القضية المعينة سهلة على المقلد او جارية على هواه. وهذا من أفسد أنواع التقليد بلا خلاف، لأن المقلد لم يخلص إرادته لله تعالى في الأحكام الشرعية، ولكنه جعل التقليد تابعاً للهوى والشهوة والعياذ بالله تعالى. وأدهى من ذلك أن يكون المفتي المنتسب إلى العلم هو الذي يختار لكل مقلِد ما هو أسهل عليه من المذاهب، وأقرب إلى هواه!! فإن هذا خطأ كبير وإن كان يفعله بعض المنتسبين إلى العلم. **وقال الإمام الشاطبي رحمه الله**: ليس للمقلد أن يتخير في الخلاف، فإن ذلك يقضي إلى تتبع رخص المذاهب من غير استناد إلى دليل شرعي. وقد حكى ابن حزم الإجماع على أن ذلك فسق لا يحل. اهـ. ثم قال الشاطبي: قال سليمان التيمي: إن أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله، قال ابن عبد البر: هذا إجماع لا أعلم فيه خلافاً. اهـ من (الموافقات ٤/ ٨٣-٨٤ و ١١٠). ثم قال الشاطبي: وَهَذَا كُلُّهُ وَمَا أَشْبَهَهُ دَلِيلٌ عَلَى طَلَبِ الْحَذَرِ مِنْ زَلَّةِ الْعَالِمِ، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ عِنْدَ الْغَفْلَةِ عَنِ اعْتِبَارِ مَقَاصِدِ الشَّارِعِ في ذلك المعنى الذى اجتهد فيه، وَالْوُقُوفِ دُونَ أَقْصَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْبَحْثِ عَنِ النُّصُوصِ فِيهَا، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ وَصَاحِبُهُ مَعْذُورٌ وَمَأْجُورٌ، لَكِنْ مِمَّا يَنْبَنِي عَلَيْهِ فِي الِاتِّبَاعِ لِقَوْلِهِ فِيهِ خَطَرٌ عَظِيمٌ، وَقَدْ قَالَ الْغَزَالِيُّ: « إِنَّ زَلَّةَ الْعَالِمِ بِالذَّنْبِ قَدْ تَصِيرُ كَبِيرَةً وَهِيَ فِي نَفْسِهَا صَغِيرَةٌ»، وَذَكَرَ مِنْهَا أَمْثِلَةً، ثُمَّ قَالَ: «فَهَذِهِ ذُنُوبٌ

يُتَّبَعُ الْعَالِمُ عَلَيْهَا، فَيَمُوتُ الْعَالِمُ ويبقى شره مستطيرًا في العالم آماد مُتَطَاوِلَةً، فَطُوبَى لِمَنْ إِذَا مَاتَ مَاتَتْ مَعَهُ ذُنُوبُهُ ». **اهـ** من (الموافقات).

وقد زعم بعض العلماء المتأخرين جواز أن ينتقي المقلد ما هو أيسر عليه، مرة من هذا المذهب ومرة من ذاك وهكذا. واحتجوا بنصوص اليسر، وبحديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ « مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ. » رواه البخاري ومسلم وغيرهما. وذاك الإحتجاج خطأ كبير، فمعنى قول عائشة « مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ »، أي بين أمرين متماثلين في جلب النفع او دفع الضر وفي الخطورة، فلا إشكال حينئذ في اختيار الأيسر بل لا ينبغي إلا ذلك. والعمل بالدين خير كله، كما في نحو قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ الأنفال: ٢٤، ويشمل ذلك الإصابة في الإجتهاد دون الخطأ، فلابد من بذل الوسع لاجتناب الخطأ، فعلى المقلد أن يجتهد في اختيار المجتهد الذي يقلده، كأن يقلّد الأتقى من العلماء او الأعلم او المرابط على مجال الفتوى، ولا شك أنه لا يجوز أن يختار بالهوى بحجة التيسير.

ومنهــا: تجزئة الكل وفقاً للهوى. يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ ﴾ النساء: ١٥٠ – ١٥١، وهذا النوع له أمثلة كثيرة، كمن يريد أن يصلي ويصوم ولكنه يُنكر تحريم الربا او يُنكر تحريم الخمر او يُنكر المضامين السياسية في الإسلام. ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ الحجر: ٨٩ – ٩٢، أما «المقتسمون» فهم الجماعة التي اقتسمت أدوار الشر بينهم. ومن خطايا المقتسمين أنهم جعلوا القرآن عضين، أي قسموه إلى أعضاء ليأخذوا ويتركوا منه وفقاً لهواهم. وقد ذكرنا تفسيراً مفصلاً لهذه الآيات في (وجهة اللواء/ المبحث السادس: «السلم الداخلي ومكافحة التفرق»).

ومنهـــا: إغفال لوازم المعتقد. فكان مشركوا مكة يعلمون أن الأرض ومن فيها لله، وأن بيد الله ملكوت كل شيء، فكان يجب عليهم تعظيم الله تعالى، ولكنهم نسبوا إلى الله تعالى ما يتنزهون عنه ويعدونه من المساوئ، كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ النحل: ٥٧ – ٥٩.

وكذلك قوله تبارك وتعـــالى ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ المؤمنون: ٨٤ – ٨٩، فمع علمهم بكل ذلك فإنهم يرفضون الإيمان بدين الله وكتابه ورسوله.

ومنهـــا: تحكيم العقل خارج قُدُراته. وله أمثلة كثيرة، منها قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ١٠١.

الغلو في الحرية الفردية:

قال تعالى ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ هود: ٨٧. وقد تكلمنا عن هذا الموضوع في أوائل المبحث الثالث، تحت عنوان: «اجتناب الحرية غير المنضبطة».

الخضوع لوحي الشيطان:

قال تبارك وتعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾** ﴾ الأنعام: ١١٢ - ١١٣. فتدبر غاية الجمال في التعبير عن منهج الشر وذمه. ونكتفي هنا بأن أفئدة رافضي الإيمان تميل وتصغي إلى وحي الشيطان وترضى بمضامينه ثم تُحَوِّل وحي الشيطان إلى عمل، كما تدل عليه عبارة ﴿ **وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ** ﴾، أي وليكتسبوا، والإقتراف الإكتساب حسناً كان او سيئاً، إلا أنه في السوء أغلب. وواضح أن إصغاء الأفئدة إلى وحي الشر والرضا به يتبعه العمل بمقتضياته ولخدمته أي اقتراف الآثام. والفؤاد هو القلب كما هو مشهور، ولعل الأصح أنه جندي القلب أي الدماغ. ولنا في (نخبة المسار/ المبحث السابع: «إدارة الفكرة والكلمة») تفسير مفصل لهذه الآية الكريمة ولآيتي الأعراف.

وقال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا** ﴾ مريم: ٨٣، قال الزمخشري: الأز والهزّ والاستفزاز: أخوات، ومعناها التهييج وشدة الإزعاج، أي: تغريهم على المعاصي وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات. اهـ من (تفسير الزمخشري).

وقال ابن منظور: والأَزُّ: التَّهْيِيجُ والإِغراءُ. وأَزَّهُ يَؤُزُّهُ أَزّاً: أَغراه وَهَيَّجَهُ. وأَزَّهُ: حَثَّه. اهـ من (لسان العرب). ومنه: أزّت الْقِدْرُ، أي: اشتدّ غليانها.

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٦ – ١٧، توضح الآية تنوع مجالات عمل الفكر الشيطاني. قوله تبارك وتعالى ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾، أي فبسبب إغوائك إياي لأقعدنَّ لهم. وتدبر عبارة: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ ﴾، فإنها كناية عن الملازمة والمواضبة بلا فتور على جلسة عمل مستمرة، غايتها هو استهدافٌ تخريبيٌّ لأعمال الصراط المستقيم، فإن من أراد المبالغة في قضاء أمر قعد له أي تفرغ له، يؤكد ذلك أن كلمة ﴿ لَأَقْعُدَنَّ ﴾ هي جواب قسم والنون هي نون التوكيد الثقيلة. وقوله تعالى ﴿ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾، معناه: لأقعدن لهم على خلاف صراطك المستقيم او في الصد عن صراطك المستقيم. وجلسة العمل هذه تبحث عن كل ما يمكن لتخريب أعمال الصراط المستقيم، فإنها تبحث في الحوادث السابقة وفي الإحتمالات المستقبلية وفي التفرعات الجانبية، كي تجد فكرة تخويف او إغراء يمكن استعمالها لتضليل أهل الحق والإيقاع بهم. يوضح ذلك أن عبارة ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم ﴾ أُشبعت تأكيداً مثل ﴿ لَأَقْعُدَنَّ ﴾ فهو إصرار لا تردد فيه على إتيانهم. ثم قوله تعالى ﴿ مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾، فهذا لبيان أنه يأتيهم من الجهات المعنوية كلها وليست جهات مكانية محضة. فمن بين أيديهم، أي مواجهة ومما يبصرون ومما يُقبلون عليه او يُقبل عليهم، استعارة من قولهم: بين يديه أي أمامه. ومعنى من خلفهم، أي مغافلة ومما لا يبصرون ومن ماضيهم وما سبق أن فعلوه وأبرموه. وأما عن أيمانهم، أي من جهة حسناتهم ونقاط قوتهم. وأما عن شمائلهم، أي من

جهة سيئاتهم ونقاط ضعفهم وغفلتهم. وهذا من قول العرب: اجعلني عن يمينك أي من المعتمدين المقدمين، ولا تجعلني عن شمالك أي من غير المعتمدين، وعن الأصمعي: هو عندنا باليمين أي بمنزلة حسنة، وبالشمال للعكس من ذلك، وأيضا فإن اليمين مشتق من اليمن أي الخير والبركة، ويستعمل اليمين بمعنى القوة والقدرة كما ذكر المفسرون في قوله تبارك وتعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ الصافات: ٢٨. وأما الشمال فإذا خسَّت منزلة الرجل قيل له: أنت عندي بالشمال ويستعمل كذلك في الشؤم. مثال التعرض لنقاط القوة أن يحاول توريطهم بمشكلات تستهلك قوتهم، كالنزاع والحروب وغيرها، او يحاول تبذير عناصر القوة بتوجيهها إلى أمور قليلة النفع. ومثال التعرض لنقاط الضعف، أفكار التحريض في مواضع الحطام الإجتماعي والسياسي والإقتصادي، أي مجاميع الفقر والظلم والإقصاء، فإن التحريض ينتشر في هذه المواضع كالشرارة في الهشيم، فإذا كان الجهل حاكماً في هذه المجاميع فإن التحريض يجعلهم يتحركون على غير بصيرة، وقد يتولى أتباع الشيطان توجيه حركتهم. ومن قواعد الصراع المشهورة اليوم عمليات استهداف نقاط الضعف وعمليات توهين نقاط القوة، وربما يُسمى ذلك بالإستراتيجية غير المباشرة. فسلاح إبليس هو الفكرة التي يوسوس بها ويتبناها خبراء الشر، ويقدمونها للآخرين بوسائل الخداع كما يُدس السم في العسل.

<u>وقال تعالى</u>: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾ النور: ٣٩ – ٤٠؛ قال الراغب: السَّرَابُ: اللامع في المفازة كالماء، وذلك لانسرابه في مرأى العين،

وكان السّراب فيما لا حقيقة له كالشّراب فيما له حقيقة.... والقِيعُ والْقَاعُ: المستوي من الأرض، جمعه قِيعَانٌ. اهـ من (المفردات). ومما ذكرناه في (ثمار التنقيح) أن كلمة «الظمآن» عامة في أي ظمآن وليست خاصة بالظمآن من الكفار، هذا هو ظاهر السياق وأختاره أبو حيان والآلوسي وغيرهما، وكذلك ينبغي أن تكون الضمائر الراجعة إلى الظمآن في الآية. ولذلك فإن الآية الكريمة تشمل نوعين من الناس:

(النوع الأول): الكافر الذي يستمر بخداع نفسه حتى يأتي يوم الحساب فيجد حسبانه ليس بشيء ويجد بدله حساب الله تعالى.

(النوع الثاني): ضعيف الإيمان من المسلمين وهو ظمآن إلى ما ينجيه من مصائبه، فيخدعه تزيين الشيطان وزخارف أتباعه في أنظمتهم ووعودهم، وبعد أن يدخل فيها يجدها لاشيء ويجد بدلها الحساب في الدنيا، وهي النتيجة الطبيعية لمن طلب الخير من الطريق المؤدي إلى الشر.

ولذلك قال الآلوسي في آخر تفسيره للآية: ثم لا يبعد أن يكون في حكم هؤلاء الكفرة الفلاسفة ومتبعوهم من المتزيّنين بزيّ الإسلام، فإن اعتقاداتهم وأعمالهم حيث لم تكن على وفق الشرع، كسراب بقيعة. اهـ من (روح المعاني) . وفي آية النور التي بعدها تشبيه آخر لأعمال الكفار بأنها ظلمات مركبة بعضها فوق بعض.

وهذا كله لا يمنع من إتفاق المسلمين على مصالح مشتركة مع غير المسلمين، ولكنه يمنع من الإغترار بأنظمتهم، ويوجب إحاطة الإتفاق معهم بالحذر من احتمال عدم ثباتهم عليه. وقد سبق بيان ذلك في الكلام عن التقية في كتاب (المنطلق)، وفي كتاب (وِجْهَة اللواء). وينبغي التنبيه هنا إلى أن عملية بناء مصالح متبادلة يضطر غير المسلم إلى احترامها، تحتاج إلى مهارة عالية في المجالات السياسية وفي التوقعات والإحتمالات التي ينبغي الإعداد لها.

الإعاقة بسبب العقائد السابقة:

قال تعالى ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾ النمل: ٤٣. ولذلك يحتاج الناس إلى تدرج في التوغل في الدين الجديد؛ وبعبارة أُخرى يحتاجون إلى تدرج في التخلص من فروع الجاهلية. وقد سبق ذكر قوله تعالى ﴿ ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧) فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) ﴾ النازعات: ١٧ – ١٨، فتدبر التعبير بـ: «إلى أن تزكى»، وليس: «في أن تزكى»، فإن العبارة القرآنية تسمح بأن يكون طريق التزكية متدرجاً. وقد بينا أدلة التدرج في مبحث خاص في (المنطلق).

الفساد الباطن
والمراوغة في التعامل مع الله تعالى:

(أما الفساد الباطن) او الفساد غير المباشر كما في الإصطلاح الغربي، فقد حرمه الله تعالى كله.

قال تعالى ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٠. وقال تعالى ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ ... ﴾ الأنعام: ١٥١. الآيتان صريحتان في تحريم باطن الإثم والفواحش.

ومن أمثلته، نوايا ظالمة وراء أعمال تبدوا وكأنها مشروعة كما يوضحها قوله تعالى ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٨٨، وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ

بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ ﴾ النساء: ١٩. وقال تعـــالى ﴿ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْ ﴾ البقرة: ٢٣١.

ويمكن في ذلك كله إيجاد قرائن تدل على فساد الباطن، كما ينبه إليه نحو قوله تعـــالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ التوبة: ٤٣.

والفساد الباطن كثير جداً اليوم، فإنه يشمل المال السياسي، خاصة وأن بعض الدول تمنع المال السياسي المباشر، ولكنها تبيح المال السياسي غير المباشر. ويشمل كذلك مشاريع اقتصادية كثيرة مفيدة ولكن مع تعمد إخفاء ما هو أفضل وأقل كلفة، او مع تزيين المآلات القريبة، والتغطية والتضليل عن العواقب الخطيرة. ويشمل كذلك التضليل الإعلامي الذي يُـتَخذ دخَلاً للتغطية والتضليل. وسيأتي بعد قليل إيضاح لمعنى «الدَّخَلُ» المذكور في آية النحل، إن شاء الله تعالى.

(وأما المراوغة) في التعامل مع الشرع، فقدقال تعالى ﴿ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ الأعراف: ١٦١ – ١٦٢.

وتدبر أيضاً قوله تعالى ﴿ وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾ النساء: ١٥٤، فكانوا ممنوعين من الصيد في السبت، فراوغوا بأن شَرَعوا بالصيد يوم السبت وأتموه في اليوم او الأيام بعده. وقال تعـــالى ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾

الأعراف: ١٦٣. فكانت العاقبة مذكورة في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ البقرة: ٦٥ – ٦٦.

ومن هذا الأصل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ .... ﴾ النحل: ٩٢، وتوكيد ذلك بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ النحل: ٩٤. الدَّخَلُ: ما أُدخِلَ على الشّـَيء للفساد، فهو هنا بمعنى الدغل والخيانة والتحايل، قال ابن قتيبة: ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾، أي: دغلاً وخيانة وحيلاً أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ، أي: لأن يكون قوم أغنى من قوم، وقوم أعلى من قوم، تريدون: أن تقتطعوا بأيْمانكم حقوقاً لهؤلاء، فتجعلوها لهؤلاء. اهـ من (تأويل مشكل القرآن). والدَّخَلُ في الآية الكريمة هو مثال للتنبيه، ومثله كل أمر يتم إدخاله في عمل او أداء لتغطية الفساد الباطن، كما ذكرنا قبل قليل في المال السياسي ونحوه.

وتوجد أمثلة أُخرى كثيرة جداً للفساد الباطن:

منهــا: الفساد الباطن في تنفيذ الشورى العامة أي العمل النيابي: فالتملص من التزامات الشـورى وإفراغها من مضمونـها له طرق كثيرة لجعلها شـورى شـكلية بلا حقيقة. **(الطريق الأول)**: تغييب الشـفافية في أعمال الشـورى، وذلك لحجب مواضع الضعف والفساد عن الجمهور، ولتجنب عمليات المحاسبة والتقويم. **(الطريق الثاني)**: تخفيف شـروط الأهلية للنيابة او الشـورى، مما يُسـهل أن تسـتحوذ قُوى فاسـدة على صناعة القرار في المجلس النيابي او الشـورى الحزبية. فإذا كان أعضاء الشـورى ضعفاء،

فإن بعض القوى المتصارعة سوف تستحوذ على صنع القرار النيابي او الحزبي، وتصير الشورى عملية شكلية بلا حقيقة، ويتم تمرير قرارات بعيدة عن المنهج. **(الطريق الثالث)**: تهميش الرصد (الرقابة) والتقويم، مما يُسهل الإختراق الأمني والمهني وتحويل القرار النيابي من خدمة المصالح العامة إلى خدمة المصالح الخاصة. **(الطريق الرابع)**: إبهام الأهداف الشرعية والغايات الأصيلة، وتمرير مشاريع الآخرين بحجج جاهزة تُستخدم بلا ضوابط، كالإحتجاج بالمرونة وعدم التصلب وبالضرورة المرسلة (بضوابط مفتعلة فاسدة) وكذلك المصلحة غير المنضبطة. **(الطريق الخامس)**: الخيانة الباطنة، فإن الأصل الراسخ في عمل العضو النيابي او الشوري أنه يشاور أصحابه، ثم يُدلي بما يراه هو أنه أنفع للمصلحة العامة، وبصرف النظر عما يراه أصحابه وأعضاء حزبه؛ ولكنه للمحافظة على منزلته الحزبية او علاقاته الحكومية، فإنه ينصر دائماً ما يتبناه قادة الحزب؛ ولدفع الشبهة عن نفسه فإنه بين حين وآخر يخالف الحزب مخالفة غير مؤثرة. وهذه آفة عالمية، ولعل السبب أن بعض الدول تمنع الفساد المباشر، ولا تمنع الفساد غير المباشر أي الباطن، خلافاً للإسلام. **(الطريق السادس)**: من الخيانة الباطنة أيضاً التي يمكن أن يقع فيها الحزب السياسي؛ وهي أن الحزب قد يتشاور داخل التنظيم في قضايا الشعب والمصالح العامة، وليست خاصة بالحزب. ثم إذا تولى أعضاء الحزب المناصب، فإنهم يقضون بالرأي الشوري للحزب بعيداً عن الغالبية النيابية المؤهلة. **(الطريق السابع)**: المساومة والإبتزاز بين الكتل النيابية. قلنا أن واجب النائب هو التصويت للأمر الذي يرى هو أنه أصلح وأرشد، وبصرف النظر عن الآراء الحزبية. ولكن قد تقع مساومة على التصويت، وهو مؤشر فساد واضح، كأن تساوم الكتل البرلمانية بعضها بصيغة: وافقونا على هذا القرار كي نوافقكم على ذلك القرار. ولضمان الإلتزام الفاسد يتم تقديم القرارين في سلة او حزمة واحدة، كي يكون التصويت على حزمة المشروعين بصيغة واحدة أي بقرار واحد. وهذا فساد واضح وينبغي أن يكون منعه تلقائياً لأنه من

لوازم النزاهة، ومع ذلك نصت أنظمة بعض الدول الأوروبية على منعه. **(الطريق الثامن)**: تلميع أقوال ضعيفة جداً في حكم الشـورى، وذلك لتبرير تفرد القادة بالقرار. ولنتدبر قوله تعالى ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ** ﴾ الشورى: ٣٨ ؛ فإن كلمة «وأمرهم» مبتدأ كما ذكر المفسـرون، كما أن إضافة الأمر إلى ضمير الجماعة يدل على أن مجال الشـورى يتناول الأُمور العامة كلها، وأما التفريعات التنفيذية فلها نظامها التنفيذي. وكلمة «شـورى» مصدر مثل: بُشـرى ورُجعى، وهو خبر المبتدأ، ووضع المصدر موضع الخبر يفيد المبالغة كما ذكر ابن عاشـور وغيره، كما أن الأصل في الخبر أنه وصف للمبتدأ أي لأمرهم، والظرف «بينهم» هو وصف للشـورى في الأمر أنه بين أهل الشـورى فلا يصح أن يتجاوزهم. معنى كل ذلك أن «أمرهم» ليس هو قرار القائد ولا قرار فئة يختارها القائد، ولكن أمرهم هو ما أخرجته الشـورى. وفي ذلك تفاصيل تنفيذية لا مجال لـها هنا. **(الطريق التاسع)**: زخرفة وتزيين التملص من الإلتزامات الشـرعية، بأدلة زيوف وإملاءات من تكتلات الفسـاد. وتوجد طرق أُخرى.

ومنهـــا: المرونة المرسلة أي غير المنضبطة. المرونة خصلة مهمة جداً في السياسة والإدارة وفي الضرورات وفي كثير من المجالات العملية، غير أنها منضبطة بحدود الشرع الفقهية والسـلوكية، ومنضبطة عند الإضطرار بضوابط الضرورة الحاضرة والضرورة المتراخية.

ويأتي الإشكال في المرونة من طرفين، **(الطرف الأول)**: من تولى منصباً مهماً وليس له مَلَكَة شرعية ولا يجبر نقصه باستشارة أهل العلم. **(الطرف الثاني)**: من له نوايا خفية وليس بأمين، فيسـتند إلى مرونة مرسـلة بلا ضوابط ولكنه يسـندها إلى زخرفة فارغة لغرض التبرير والخداع.

فساد الجدال:

الجدال الفاسد هو محاولة تغليب الرؤية سواء كان بحق او بباطل. **قال تبارك وتعالى:** ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الكهف: ٥٤، فالإنسان كثير الجدل، وأكثر جدله لتمرير الهوى او لدفع الآخر ولو بالباطل.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ الزخرف: ٥٧ – ٥٨، فجدلهم ليس للبحث عن الحق ولكن لمجرد تبرير مخالفة الحق.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ الحج: ٣ – ٤، وقد ذكرنا تفسيراً مفصلاً للآيتين في (ثمار التنقيح)، **أما عبارة:** ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي بلا حجة صحيحة، ولكن بافتراضات وأوهام واستدلالات فاسدة. **وأما عبارة:** ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾، فصيغة عموم تقع على كل شيطان من الإنس والجن؛ ومعنى ﴿مَّرِيدٍ﴾ أي مجرد من الخير موغل في الشر، وأصل اللفظ من العري والتجرد، يُقال صخرة مرداء أي ملساء وصرح ممرد أي مملس وشجرة مرداء وغصن أمرد، أي لا ورق عليهما، وتمرَّد أي أقدم وعتا، وكأنه تجرد من الإلتزامات والضوابط. **وأما عبارة:** ﴿كُتِبَ﴾ كناية عن اللزوم والثبات، بمعنى أن الضلال نتيجة لا إنفكاك منها لموالاة الشيطان او موالاة أتباعه. **وقوله تعالى:** ﴿تَوَلَّاهُ﴾ أي أقبل عليه تقرباً منه، ولم يجعل حدود الله تبارك وتعالى حاجزاً بينهما، أي حاجزاً بينه وبين أفكار الضلال.

وأصله من الولي وهو لفظ يدل على القرب والدنو بلا فاصل، يُقال: كل مما يليك أي أقرب الطعام إليك فلا يفصل طعام غيره بينكما. وعلى هذا المعنى قوله تعالى ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ ﴾ التوبة: ١٢٣، أي أقرب الكفار المحارِبين إليكم فلا يفصل كفار آخرون بينكما، والمؤمن ولي أخيه المؤمن لشدة تقاربهما وتماسكهما وتناصحهما وتناصرهما، فلا يفصل شيء بينهما. وولي الأمر وتولّاه في سياق الكلام عن المذاهب والأفكار بمعنى لزم مذهباً واتخذه منهجاً او عقيدة. ومفهوم الولاء الديني غير معارض للعلاقات الطيبة مع غير المسلمين ولا مع بناء درجة عالية من التعايش الوطني بين الطرفين. وعلى ذلك فإن الإقبال على كافر مسالم لمساعدته او لضمان حقوقه او للبيع والشراء منه او التعامل المهني معه ونحو ذلك من العلاقات الإنسانية النبيلة، فهذا كله ليس بموالاة، وذلك لعدم وجود حواجز شرعية تمنع من ذلك. وأما الإقبال على الكافر المسالم لنصرة عقيدته او لتلقي مناهجه المخالفة للإسلام والإنتماء إلى فكره الديني او للإضرار بالمسلمين او شبه ذلك من الغايات الممنوعة في الشرع، فهذه هي حقيقة الموالاة الممنوعة.

وقد سبق ذكر قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ غافر: ٥٦.

وليس من هذا المعنى، الجدال بمعنى الحوار الذي يتضمن الطلب او الإلتماس، ففي سياق الحوار بين الملائكة وإبراهيم عليهم السلام قال تعالى ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦ ﴾ هود: ٧٤ – ٧٦؛ فافهم معنى الجدال هنا من التعقيب بعبارة ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ

مُّنِيبٌ ﴾. وكذلك قال تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ المجادلة: ١.

التحجر على التقليد
حين يجب التقويم وإعادة النظر:

وقد تكلمنا عن التقليد المذموم في مواضع متفرقة من هذا الدراسة، كما أن في القرآن الكريم آيات كثيرة تتصل بحكم التقليد.

ونُـذكر هنا **بقوله تعالى**: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ الزخرف: ٢٣ – ٢٥؛ فتدبر عبارة ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا ... ﴾، قال الإمام الرازي: وَالْمُتْرَفُونَ هُمُ الَّذِينَ أَتْرَفَتْهُمُ النِّعْمَةُ أَيْ أَبْطَرَتْهُمْ فَلَا يُحِبُّونَ إِلَّا الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاهِيَ وَيُبْغِضُونَ تَحَمُّلَ الْمَشَاقِّ فِي طَلَبِ الْحَقِّ. اهـ من (تفسير الرازي). وتدبر عبارة ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾، فإنهم لم يقلدوا آباءهم بوجه خاص، ولم يقلدوا أباً معيناً من آبائهم، ولكنهم قلدوا حالة شائعة كان آباؤهم عليها، فإن كلمة ﴿ عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾، أي على دين او على سُبُل مقصودة في حياتهم. وتدبر عبارة ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾، فإن صيغتها تشمل الحوار بين المؤمن والكافر كما هو السياق، فيكفر الكافر بدين المؤمن؛ وكذلك تشـمل الصيغة الحوار بين المسـلمين في قضايا النزاع، فيأبى أحد الطرفين أن ينظر في حجة أخيه ويأبى أن يرد النزاع إلى القرآن والسـنة النبوية.

وللإمام الرازي في تفسير هذه الآية كلام جيد عن حكم التقليد، ولم أنقله لأنه يوهم بالعموم في ذم التقليد.

ونُـذكر أيضاً **بقوله تعــالى**: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ الأحزاب: ٦٧. والمراد بالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يطيعونهم في الدنيا ويقتدون بهم، سواء كانت رئاستهم سياسية او محسوبة على الدين، او غير ذلك من أنواع تحصيل السلطة الرسمية وغير الرسمية. ونكرر هنا قول الإمام الغزالي رحمه الله: فهذه ذنوبٌ يُـتَبعُ العالِـمُ عليها فيموت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آماد متطاولةً، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبُه معه. اهـ من (إحياء علوم الدين). المهم هنا أن التقليد الجائز له ضوابط في حق المقلِد، وعليه الإلتزام بها كي يسلم يوم الحساب. وقد يقول معترض: إن آية الأحزاب هذه جاءت في سياق الكلام عن الكفار. وهذا الإعتراض ليس بشيء، لأن ما ذمه الله تعالى من سلوك الكفار فإننا مأمورون باجتنابه، فإن المسلم قد يقع في درجة او أكثر من صفات الكفار، ويوضحه حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ.» رواه البخاري ومسلم وابن حبان وغيرهم.

المبحث الرابع
فكر الإقتحام
والمسارعة الإستراتيجية

....

الإقتحام
وطلب المعالي

يشـمل هذا المبحث ما يُطلق عليه في المعاني المشـتقة من القرآن والسـنة: اقتحام العقبات والمصاعب، وطلب المعالي والمسـارعة في الخيرات، والنفار لخدمة الدين، والإسـتباق إلى الغايات، والمبادرة؛ ومن توابعها اغتنام الفرص وعدم تفويتها. ويتصل بذلك اصطلاح «الرشـاقة الإسـتراتيجية» وهو اصطلاح لباحث أميركي، وكذلك اصطلاح: «الخفة الإسـتراتيجية».

تفسير آيات سورة البلد:

قال تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ البلد: ٤ - ١٠ ، ثم قال تعالى ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ

وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾ البلد: ١١ – ١٨. في هذه السورة القصيرة فوائـد عظيمة، منها:

الفائدة الأولى: مختصر المعنى العام للآيات، بتصرف من التفسير القرآني للقرآن للعلامة عبد الكريم الخطيب رحمه الله تعالى. **الكبد**: المعاناة والشدة. والظرف: «فى» هو المحتوى الذي يضم الإنسان، وما يلاقى فيه من كبد. فحياة الإنسان- كل إنسان- فى هذه الدنيا، هى شدائد ومعاناة، فكم يفقد الإنسان من صديق وحبيب؟ وكم يتداعى على جسده من أمراض وعلل؟ وكم وكم؟ مما يطرق الناس من أحداث على مر الأيام، وكر الليالى؟ فالشباب يذبل ويولّى، والقوة تتبدد وتصبح وهناً وضعفاً، وسيعصف به الموت يوماً، ويلقى به فى باطن الأرض، جثة متعفنة، لا تلبث أن تصير ترابا! **وقوله تعالى** ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾؟ هو إلفات لهذا المغرور بقوته، المعتزّ بسلطانه وجاهه، المفتون بنفسه، المتشامخ بذاته، حتى ليحسب أن أحداً لن يقدر عليه، ولن يسلبه شيئاً مما معه. إنه أضعف من أن يثبت لنخسة من نخسات الحياة. **وقوله تعالى**: ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾، هكذا يقول الإنسان مباهياً مفاخراً بما أنفق من مال. واللبد: الكثير، الذي جمع بعضه إلى بعض، فكان أكداساً مكدسة. وفيم أهلك هذا السفيه المغرور هذا المال الكثير؟ أفي ابتناء محمَدَة، أو اكتساب مكرمة؟ أو إغاثة ملهوف؟ أو إطعام جائع؟ كلّا، إنه لا يعرف وجهاً من هذه الوجوه ولا تنضح يده لها بدرهم، من هذا المال الكثير الذي أهلكه. إنه أهلكه فى مباذله، وفى استرضاء شهواته، وإشباع نزواته. **وقوله تعالى**: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ ؟ أي أيحسب هذا السفيه المفتون، أن عين الله لا تراه، ولا تكشف عن هذه الوجوه المنكرة التي يهلك فيها هذا المال اللبد؟ وكلّا، فإنه محاسب على هذا المال الذي أهلكه. **وقوله تعالى**: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

﴿ وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾؟ هو تعقيب على موقف هذا الجهول، الذي ظن أن قدرته لا تُغلب، وأن ماله لا ينفد، وأنه لا يحاسب على ما يفعل!! وهل يجرؤ على أن يدّعى- ولو تجرد من كل حياء- أنه هو الذي أوجد وجوده، وأودع فيه هذه القوى التي يعمل بها؟ أيجرؤ على أن يقول إنه هو الذي خلق هاتين العينين اللتين يبصر بـهما، أو هو الذي خلق جهاز النطق الذي ينطق به، من لسـان وشـفتين؟ <u>**وقوله تعالى**</u> ﴿ وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾، النجد: ما ارتفع من الأرض، أشبه بالنّهد البارز على الصدر، وجمعه نجود، وبه سمى الصّقع المعروف من بلاد العرب بنجد، لأنه عال بارز على ما حوله من الأماكن، مثل تهامة وغيرها. والنجدان هنا، هما جانبا الخير والشر فى الإنسان. وسميا نجدين لأنهما أمران بارزان بين ما يتقلب فيه الإنسان من أمور. فالخير واضح الملامح، بيّن السّمات، وكذلك الشر، أمره ظاهر لا يخفى، ولن يخطىء أحد التفرقة بين ما هو خير وما هو شر، كما لا يخطىء أحد التفرقة بين النور والظلام، والنهار والليل، والحلو والمر، اللهم إلا من فسد عقله واختل تفكيره، فيرى الأمور على غير وجهها، تماما كمن تعطلت حاسة من حواسه، مِن سمع أو بصر أو شم، أو ذوق، فلا يميز بين المسموعات أو المبصرات، أو المشمومات أو المذوقات. فمعنى: «وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ»، أي عرّفناه وجهى الخير والشر، وأعطيناه الميزان الذي يزنهما به، ويضع كلّا منهما موضعه الذي هو له. وكما يشير النجدان إلى أن كلّا من الخير والشر بالمكان البارز الذي لا يخفى وجهه ولا تخطىء الأنظار الإستدلال عليه- كذلك يشيران إلى أن الاتجاه إلى أي منهما، وأخذ الطريق إليه، هو مرتقى صعب، يحتاج إلى جهد ومعاناة! فالذى يتجه إلى الخير، ويحمل نفسه على معايشته، إنما يغالب أهواء جامحة، ويدافع شهوات معربدة. وفى الحديث: «حفّت الجنة بالمكاره» .. ولهذا كان الصبر من عدّة المؤمنين، ومن زادهم على طريق الحق والخير. فمن لم يرزق الصبر، لم يقو على السير فى طريق الهدى والإيمان، قال تعالى ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ

لَفِى خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾ العصر: ١ – ٣.

الفائدة الثانية: معاني عبارة ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴾، يتضح ذلك بأمور:

(الأمر الأول): معاني النحو في العبارة. لهذه العبارة صلة معنوية قوية بما قبلها وبما بعدها، فيمكن أن تكون الفاء عاطفة لجملة «فلا اقتحم» على جملة «وهديناه»، وقد نص على العطف عدد من المصنفين في إعراب القرآن، منهم العلامة محمد الأمين في (حدائق الروح). وقال الأُستاذ محيي الدين بن أحمد: «فَلَا اقْتَحَمَ»، الفاء عاطفة، ولا نافية وهو قول أبي عبيدة والفراء والزجّاج، كأنه (أي تعالى) قال: ووهبنا له الجوارح ودللناه على السبيل فما فعل خيراً أي فلم يقتحم. اهـ من (إعراب القرآن وبيانه). ويحتمل معنى العطف كلام القرطبي وابن عادل وابن عاشور.

الإنكار في السياق: فالمساوئ الكبيرة المذكورة قبل عبارة الإقتحام تجعل السياق سياق إنكار، فالعطف بعبارة ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴾، يتضمن الإنكار عليهم بأنهم تمادوا في الملذات الدنيوية ولم يقتحموا العقبات إلى الصلاح. ويدل الإنكار على وجوب اقتحام العقبات في طريق الواجبات الدينية.

ويكثر الإنكار على نفي فعل الواجبات وعلى فعل المخزيات ومن غير حاجة إلى أداة الإنكار المشهورة وهي همزة الإستفهام وغيرها من أدوات الإستفهام. من ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ التوبة: ٥٤، وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الأحزاب: ١٨، وقوله تعالى ﴿ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ الشعراء: ٢٢، وقوله تعالى ﴿ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴾ الرعد: ٥، قال أبو حفص النسفي:

وإنْ جعلْتَ معنى قوله: ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ مِن اللهَّ تعالى فمعناه الإنكار؛ أي: أنكرْتَ أنتَ مِن هؤلاء كذا، فقد أنكرَ اللهُّ منهم قولهم: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾. اهـ من (التيسير في التفسير). وقال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ الحج: ٣، فهذا إنكار أيضاً، وقوله تعالى ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ الأنفال: ٦. وتوجد أمثلة كثيرة.

المعنى المركزي لـ: «فلا» هو النفي ولكن يمكن أن يتضمن معان أُخرى إضافة إلى النفي، ولذلك فسرها الجمهور بـ: فلم يقتحم او فما اقتحم او بعبارة تتضمن معنى النفي، فعلى هذا التفسير قول أبي عبيدة معمر بن المثنى والزجاج والأخفش وابن خالويه وأبي البقاء العكبري وأبي هلال العسكري وابن يعيش وأبي القاسم السهيلي وأبي البركات الأنباري والمرادي في (الجنى الداني) ومحمد بن يوسف ناظر الجيش وابن أبي زمنين ومكي ابن أبي طالب في (الهداية) والواحدي وأبي حفص النسفي والزمخشري وفخر الدين الرازي والمنتجب الهمداني وأبي حيان الأندلسي والسمين الحلبي في (عمدة الحفاظ) وشرف الدين الطيبي وأبي إسحاق الشاطبي في (المقاصد الشافية) والزركشي في (البرهان) وأبي البركات النسفي وابن عاشور.

وأما المعاني التي يمكن أن تقترن بالنفي: فالوجه الأول: تضمين النفي الجمع بين التحضيض على الإقتحام والإنكار على من لا يقتحم. قال ابن قاسم المرادي: وذهب قوم إلى أن قوله تعالى ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ﴾، تحضيض بمعنى:فألّا، ذكره ابن عطية. اهـ من (الجنى الداني في حروف المعاني). وقد ذهب القرطبي وابن عادل والسمعاني والبغوي وابن الجوزي (في «تذكرة الأريب») ومحمد الأمين الهروي (في «حدائق الروح») وآخرون إلى تفسير «فلا اقتحم» بـ: «فهلّا» وهي للتحضيض، وواضح أن التحضيض على فعل في سياق الإنكار على من لا يفعل، يدل على أنه تحضيض على واجب. وهذا أصح ممن قصر

المعنى على التحضيض او قصره على الإنكار، فكما أن سياق الذم قبل عبارة الإقتحام والعطف بالفاء يدل على الإنكار على من لا يقتحم، فكذلك أعمال الخير المذكورة بعد عبارة الإقتحام تطلب التحضيض والترغيب قطعاً، أي قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾. ويمكن أن يُقال: إن المعنى: أفلا يقتحم العقبة (أي بتقدير حرف استفهام محذوف)، فإن عبارة «أفلا» مستعملة بكثرة في القرآن الكريم بمعنى الإنكار على من لا يستجيب، ويتضمن ذلك التحضيض على الإستجابة، كقوله تعالى ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الذاريات: ٢٠ – ٢١، ففي آية الذاريات حث على التبصر وإنكار على من يمتنع عن التبصر. وربما يستبعد بعضهم حذف حرف الإستفهام، والصحيح أنه ليس بمستبعد، فقد قال تعالى ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾ الأعراف: ١١٣، والمعنى: أإن لنا لأجراً، وقد جاءت الهمزة غير محذوفة في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴾ الشعراء: ٤١. فالوجه الأول هو الصحيح إن شاء الله تعالى. **الوجه الثاني**: لتضمين النفي معنى الدعاء عليه بأن لا يقتحم العقبة، وذلك بسبب المساوئ التي ذكرتها الآيات عنه؛ ومن الدعاء قولهم: «لَا فَضَّ اللهُ فَاكَ»، كما ذكر الزركشي في (البرهان). وكذلك قولهم: لا عافاك الله، وقولهم: لا ردّه الله سالماً وغيرها. ولا شك أن الدعاء من الله تعالى عليه بأن لا يقتحم العقبة أي بأن لا يفعل الخيرات المذكورة، معناه أنه فعل منكرات اقتضت هذا الدعاء عليه، فالدعاء المذكور يتضمن الإنكار والتحضيض المذكورين في الوجه الأول.

ومما يقوي معنى التحضيض مع الإنكار، أن الغالب في كلام العرب أن «لا» النافية تُستعمل لنفي الاسم ولنفي الفعل المضارع، كقوله تعالى ﴿ **وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ** ﴾ البقرة: ١٢. والشائع في نفي الفعل الماضي استعمال «ما»، كقوله تعالى ﴿ ..... **مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنۡهُمۡ** ﴾ النساء: ٦٦. وقد ذكرنا قبل قليل دلالة نفي فعل الواجبات على الإنكار، وكذلك يُستعمل الفعل الماضي مع «لا» النافية لتضمين معنى التحضيض او الدعاء، كما ذكرنا قبل قليل. ويُستعمل الفعل الماضي أيضاً مع «لا» عند تكرار الفعل الماضي المنفي، كقوله تعالى ﴿ **فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ** ﴾ القيامة: ٣١، ويُقال أيضاً: «لا جلب خيراً ولا دفع ضراً».

ومع ذلك فإن «لا» النافية تُستعمل أيضاً لنفي الفعل الماضي من غير تكرار، كما في آية الإقتحام، وكما في الشعر القديم: (إن تغفر اللهم تغفر جَمًّا ... وأيُّ عبد لك لا أَلَـمَّا)، نقله أبو البركات الأنباري في (الإنصاف في مسائل الخلاف)، ومعناه: أي عبد لك لم يُلِم بذنب؟ ومن الرجز أيضاً قوله: (فأي أمر سيّئ لا فعلَه)، نقله ابن يعيش في (شرح المفصل). ومنه قول زهير: (... فَلَا هُوَ أَبْداهَا ولمْ يتقدَّمِ)، نقله ابن عادل في تفسير آية القيامة، ونقل عن الأخفش أن «لا» تنفي الفعل الماضي. وقال ابن عاشور: وَيَظْهَرُ أَنَّ كُلَّ مَا يَصْرِفُ عَنِ الْتِبَاسِ الْكَلَامِ كَافٍ عَنْ تَكْرِيرِ «لَا» كَالِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِ الْحَرِيرِيِّ فِي «الْمَقَامَةِ الثَّلَاثِينَ» : «لَا عَقَدَ هَذَا الْعَقْدَ الْمُبَجَّلَ فِي هَذَا الْيَوْمِ الْأَغَرِّ الْمُحَجَّلِ إِلَّا الَّذِي جَالَ وَجَابَ». اهـ من (تفسير ابن عاشور)، وقول ابن عاشور رحمه الله في غاية الجودة. وسيأتي المزيد عن هذا الأمر في القول الرابع من الفائدة السادسة إن شاء الله تعالى.

(الأمر الثاني): يمكن أيضاً أن تكون الفاء في عبارة ﴿ **فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ** ﴾، استئنافية، أي لبداية جملة جديدة غير مرتبطة بما قبلها في الإعراب، ولكن يمكن أن تتصل بما قبلها بالظمائر وبالمعنى. وهذا قول الدعاس في (إعراب القرآن). وظاهر هذا الإعراب

معنى التحضيض على الإقتحام والإنكار على ترك الإقتحام. وعلى تقدير صحة هذا الإعراب، فإنه غير معارض للإعراب بالعطف كما ذكرنا. وحكم وجوه الإعراب الصحيحة بلا تكلف وغير المتناقضة، حكمها العمل بكل منها وكأنها قراءات صحيحة، والله تعالى أعلم.

(الأمر الثالث): معنى «**الإقتحام**». قال ابن منظور: والقُحَمُ: الأُمور العِظام الَّتِي لَا يَركبها كُلُّ أَحد. وَقَالَ شَمِرٌ: كُلُّ شَاقٍّ صَعْب مِنَ الأُمور الْمُعضِلة وَالْحُرُوبِ وَالدُّيُونِ فَهِيَ قُحَم. وقُحَمُ الطَّرِيقِ: مَا صَعُبَ مِنْهَا. اهـ من (لسان العرب). والقُحَمُ تشمل الأمور العِظام من الخير والشر والأُمور المهلكة، قال ابن السكيت: ويقال: إنّه لذو قُحَمٍ عِظامٍ: يَتقحَّمُ في الأمورِ العظامِ الجسامِ، يدخلُ فيها من خيرٍ وشرٍّ. اهـ من (الألفاظ). قال تعالى ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴾ ص: ٥٩ – ٦٠.

والفرق مهم بين قَحَم واقتحم بإضافة التاء، فهو كالفرق بين «سمع واستمع»، فإن «سمع» قد يحصل بدون قصد، وأما «استمع» فيتضمن تعمد السماع والإجتهاد في تحصيله، ومثله الفرق بين «كسب واكتسب»؛ هذا مذهب سيبويه كما ذكر ابن يعيش في (شرح المفصل/ «معاني صيغة افتعَل»)؛ وهذا هو الأصل في الأفعال المتعدية على صيغة «افتعَلَ»، ويعرف صحة ذلك من يتدبر قوله تعالى ﴿ ... فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ .. ﴾ الزمر: ١٧ – ١٨. وقد زعم بعضهم أن لا فرق بين كسب واكتسب في قوله تعالى ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ البقرة: ٢٨٦، وهذه مزعمة غير صحيحة، وذلك أن الإقتران بين الأعمال الصالحة والمباحة من جهة، والأعمال المحرمة من جهة أُخرى، اقتضى زيادة التاء في جهة الأعمال المحرمة من أجل إخراج من وقع في الحرام خطأً وليس متعمداً. وقد يقول بعضهم: إذا كان معنى «اقتحم» بإضافة

التاء كما ذكرتم، فكيف يكون معنى قوله تعــالى ﴿ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴾ ص: ٥٩، فالجواب أن أحوال الآخرة كبيرة جداً وتجعلهم يدخلون العذاب قاصدين له. يؤيد ذلك قوله تعــالى ﴿ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾ لقمان: ٢٤، فكما أن المضطر في الدنيا يتعمد أكل الميتة وهو كاره لها، فكذلك أهل النار، تجعلهم أهوال الآخرة يقتحمون النار قاصدين لها، إذْ ليس للمضطر غير ما اضطُر إليه، والله تعالى أعلم.

يتضح مما تقدم أن الإقتحام نـوعان، **النـوع الأول**: الدخول في المصاعب بسـرعة وبلا إحجام ولا نظر في العواقب، قال ابن الأثير: يُقَالُ: اقْتَحَم الْإِنْسَانُ الأمْرَ الْعَظِيمَ، وتَقَحَّمَهُ: إِذَا رَمَى نفسَه فِيهِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّة وتَثَبُّت. اهـ من (النهاية). وذكر ابن منظور نحوه في (لسـان العرب)، وذكر غيره نحو ذلك. ففاعل ذلك قد أخذ من التفكير والتبصر نصيباً ضئيلاً. والأصل في اختزال الرؤية وإغفال النظر في العواقب هو النهي أي المنع، إلا في أحوال اضطرارية تعتمد على الخبرة وسـرعة البديـهة؛ وذلك لنحو قوله تعــالى ﴿ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ﴾ البقرة: ١٩٥، وقوله تعــالى ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ يوسف: ١٠٨. ومن الأقوال المأثورة: «من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه». **النوع الثاني**: الدخول في المصاعب والأُمور العظام بجرأة إذا كانت عدته المعنوية والمادية كاملة، او يدخل فيها بالعزم على خدمة هدف كبير، ويبقى في طور الإعداد الفكري والمادي حتى تتهيأ متطلبات نجاح العمل؛ وهذا هو الإقتحام المطلوب شرعاً. وقال ابن منظور: قَالَ سَاعِدَةُ ابْنُ جُؤَيَّةَ: (والشَّيْبُ داءٌ نَجِيسٌ، لَا دواءَ لَهُ ... للمَرءِ كَانَ صَحِيحاً صائِبَ القُحَمِ)، يَقُولُ: إِذَا تقَحَّمَ فِي أَمر لَمْ يَطِش وَلَمْ يُخْطِئ. اهـ من (لسان العرب). وسيأتي بيان النوع الثاني في الفائدة الثالثة إن شاء الله تعالى.

(الأمر الرابع): معنى «العقبة» وما تشمله من مجالات. تُطلق «**العقبة**»، على الطريق الوعر في صعود الجبل، وما يوضع في الطريق من مصاعب لصد العدو، وجمعه عِقاب وعَقَب وعقبات. فاقتحام العقبة كناية عن العمل الذي يشق على النفوس. وإذا تدبرنا قوله تبارك وتعالى ﴿ **وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾** ﴾، فإن التقدير: وما أدراك ما اقتحام العقبة، فإنه مفهوم من السياق، كما أن تفسير العقبة في الآية هو نفسه اقتحام العقبة. والعقبة هنا هي العوامل النفسية التي تمنع من فعل الخير العظيم، وما تقتضيه من مجاهدة النفس. فإن فك رقبة يحتاج إلى إعطاء الكثير من المال واقتحام عقبة شح النفس، ونحو ذلك في عقبات الإطعام في يوم ذي مسغبة؛ فالعقبات هي عوامل الإحجام عن الأمور العظيمة، كالمخاوف وإيثار الراحة على النصب والتعب وشبه ذلك. وواضح أن الإنكار على من لا يقتحم العقبات، يتضمن التحضيض على اقتحام العقبات وإيجابه في خدمة الواجبات الدينية، يؤيد ذلك الخاتمة الحسنة في الآية الأخيرة. وتدبر عبارة ﴿ **وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ** ﴾، فهي تَعَجُّب في لفظ الإستفهام كما ذكر ابن خالويه، ويُستعمل لتفخيم شأنها، وتنبه العبارة إلى كون إقتحام العقبة أمراً عزيزاً ينبغي فهمه والعمل به. وكذلك إيضاح معنى العقبة في قوله تعالى ﴿ **فَكُّ رَقَبَةٍ** ﴾ والآية التي بعدها، فقد ذهب بعض المفسرين إلى أن التقدير: اقتحامها فك رقبة او هو فك رقبة، والأصح إن شاء الله تعالى أن التقدير: منها فك رقبة او إطعام في يوم ...، وذلك لأن ما ذُكر إنما هو أمثلة من اقتحام المصاعب وليس للحصر، فما من صعوبة في مجال الخير او في مكافحة الشر إلا ويمكن النظر في جعلها فرصة للإقتحام؛ يؤكد ذلك نحو قوله تعالى ﴿ **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ** ﴾ التوبة: ٤٢.

(الأمر الخامس): ثقافة الإقتحام. لما كان اقتحام العقبات هو الدخول في الأُمور العِظام التي لا يركبها كل أحد، وما يقتضيه من العمل على تذليل العقبات الكبيرة في الطريق إلى الغاية، فإن ذلك هو طريق المعالي والتفوق. وينبغي التوسع في نشر هذا الحكم، لجعل أكبر عدد ممكن سائراً على هذا الطريق. وقد ذكرنا في أكثر من موضع أهمية وضع أهداف مستقبلية أكبر بكثير من قُدُراتنا اليوم، فإن الهدف الكبير يُحفز المؤهلين للبحث عن تنمية القُدُرات واغتنام الفرص وصناعة الفرص التي تساعد في بلوغ الهدف. ويمكن تشكيل فريق عمل لخدمة هذه الثقافة، كأن يضع رؤية للطموحات الكبيرة وللمصاعب والعوائق الكبيرة، وبقَدْر من التوضيح، لتحفيز الصالحين لانتقاء مجال الإقتحام. ويمكن أيضاً أن يكون المؤمن مقتحماً للعقبات في مجال عمله.

الفائدة الثالثة: أهمية الحزم في اغتنام او اقتحام فرص الخير. واضح مما سبق في تفسير عبارة ﴿ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴾، أن الله تعالى أوجب وحَضَّ على اقتحام المصاعب والعقبات في خدمة الواجبات الدينية، بمعنى دخول هذا الطريق بقوة، سواء كان ذلك في الأمور العلمية او العملية، وأن معنى الإنكار على عدم الإقتحام يدل على ذم تفويت هذه الفرص.

ولنضرب مثلاً إن كنت عالماً بالفقه او بإدارة الدولة او الهندسة او الطب او غيرها، فلا ينبغي لك أن تقتنع بالمباحث السهلة، فلا مصاعب ولا عقبات. بل ينبغي لك أن تقتحم المباحث المهمة التي تنتشر المصاعب والعقبات في طريقها، وهذا من أهم مضامين التفوق والمغالبة، فإن الفرص العظيمة إنما تكون في طريق الأهداف الكبيرة المركبة، وما تتضمنه من عقبات ومصاعب.

فالمرحلة الأولى من الإقتحام: هي العزم على البحث عن مشروع كبير لجعله هدفاً مستقبلياً، ولابد في ذلك من عمل جماعي للقيام بدراسة تحليلية للخيارات والبدائل

المحتملة، وما يقتضيه ذلك من شدة الإهتمام بمهارات التفكير والصبر على طول الطريق. وأما الإجراءات التنفيذية، فإنما تكون بعد إحكام عمليات التفكير والإعداد للنجاح والتخطيط. وبعبارة أُخرى، فإنك لا تهمل المراحل الأولى ثم تقتحم نهاية المسار، فإن مصير ذلك هو الفشل. والصحيح أن أهم العقبات هو تبني الأهداف الكبيرة بعد العزم وتحليل البدائل، لأنه يصطدم بالمخاوف وإيثار الراحة، وبإغفال المآلات او العواقب، وبضعف الرجاء، ونحو ذلك مما يُبعِد الإنسان عن الأُمور الكبار، ويقصره على الأمور الصغيرة السهلة، ولا شك أن من يكتفى بالأهداف السـهلة الخالية من المصاعب والعقبات ولا تحتاج إلى كثير من التفكير، فإنه يبقى في المؤخـرة ويتخلى عن المغالبة. ولذلك فإن الإقتحام هو قبل كل شيء تذليل العوامل النفسية المذكورة وثبات النية على هدف كبير. وبعد ذلك، **المرحلة الثانية**: تتم فيها دراسة الهدف وما يتصل به ويؤثر عليه، دراسة شاملة وتفصيلية؛ وكذلك دراسة سائر ما يحتاجه التخطيط والإعداد لتحقيق الهدف. وبعد أن يكون الإعداد متكاملاً، مع زيادة احتياطية، ويكون التخطيط التنفيذي مُنقحاً بصورة تامة، بعد ذلك تكون: **المرحلة الثالثة**: أي التوكل على الله تعالى في العمل التنفيذي، وتدبر في ذلك قوله تعـالى ﴿ .... **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ آل عمران: ١٥٩، أي خذ بالتشاور وتنقيح الأفكار، فإذا عزمت أي إذا أثبت التشاور والتنقيح اكتمال أركان العمل التنفيذي، فتوكل على الله تعالى. وهذا هو حقيقة السرعة الإستراتيجية. وقد ذكرنا ما يتصل بذلك تحت عنوان «دور الإستشراف في تشكيل المستقبل».

يوضح الأمر أن العزم يكون بعد الحزم، فمما ذكرناه في (نخبة المسار) عن الحزم، أن كل شيء جمعته بنوع من الشد كالإضبارة فقد حزمته، ومنه قولهم: حزمت الحطب او المتاع، وحزم فلان أمره وأخذ بالحزم في الأمور، فيُستعمل اللفظ في الأجسام والمعاني.

فالحزم في الأمور هو الكفاءة في جمع المتطلبات الفكرية والنفسية في حزمة واحدة، وجمع متعلقات القضية في حزمة واحدة أيضاً، ومتعلقات القضية هي الأهداف والوسائل (الموارد ونحوها) والأسباب والعوائق والمآلات والعواقب والمخاطر والموازنات بين المضار والمنافع وسائر ما يتصل بالقضية من مؤثرات. فالرجل الحازم هو الذي يجمع كل ذلك بكفاءة عالية تناسب الهدف، كما يجمع المتاع او يجمع الحطب في ربطة او عقدة واحدة، بهدف السفر او لإيقاد النار. فالحزم هو الإتقان والقوة في تدبير الأمور، ويعبر بعضهم بأنه ضبط الأمور وإتقانها، وبقولهم: المشاورة من الحزم. ومن ذلك حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ ، فَقَالَ « مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ » رواه البخاري وابن حبان في سياق حديث. فالحزم أقرب إلى قوة العقل والتفكير، والعزم أقرب إلى قوة قرار التنفيذ، يساعد على ذلك قولهم في المثل: «لا خير في عزم بغير حزم»، أي لا خير في قرار للتنفيذ إذا لم يأخذ حقه من التعقل والتفكير. والحزم من مضامين قوله تعالى ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: ٦٣.

ولتقي الدين أبي بكر الحموي:

والحزم والتدبير روح العزم   لا خير في عزم بغير حزم
والحزم كل الحزم في المطاولة   والصبر لا في سرعة المزاولة
وفي الخطوب تظهر الجواهر   ما غلب الأيام إلا الصابر

ويزيد الأمر وضوحاً **قوله تعالى**: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ ﴾ هود: ١ – ٢؛ **الإحكام**: هو غاية او تمام الإتقان. يُقال: نسج محكم أي متقن فلا تفاوت في نظامه ولا شقوق ولا فراغات. وعبارة «أُحْكِمَتْ آياتُهُ»، أي نظمت نظماً في غاية الإتقان فلا يقع فيه

تناقض ولا خلل، ولا يأتيه باطل ولا خطأ ولا فساد في مضامينه ولا في صياغته. ثم، أي بعد الإحكام، فُصِّلت الآيات، **قال الراغب**: الفَصْلُ: إبانة أحد الشّيئين من الآخر: حتى يكون بينهما فرجة، ومنه قيل: المَفَاصِلُ، الواحد مَفْصِلٌ، وفَصَلْتُ الشاة: قطعت مفاصلها، وفَصَلَ القوم عن مكان كذا، وانْفَصَلُوا: فارقوه. ويستعمل ذلك في الأفعال والأقوال نحو قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ الدخان: ٤٠. اهـ من (المفردات). فقد فصَّل الله تعالى آيات القرآن الكريم بأنواع من الأحكام والمعاني والتدابير، فأُنزِلت الآيات فصلاً فصلاً كما هي عبارة أبي القاسم الكرماني، او جُعلت فصولاً من أنواع المعاني والأحكام على نحو عبارة أبي حفص النسفي، وبهذا الإحكام والتفصيل فإن الآيات جاهزة في كل زمان للعمل التنفيذي من قبل البشر. وتدبر في الآية عبارة: ﴿ **الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ مِنْ رَحْمَنٍ وَلَا رَحِيمٍ، لِلتَّنْصِيصِ عَلَى أَنهُ لَا بُدَّ مِنَ الْحِكْمَةِ للقيام بالإحكام، ولابد من الخبرة بالمخلوق لإعداد الكتاب المنزل للعمل التنفيذي من قِبَل البشر. يؤكد كل ذلك **قول الآلوسي**: ﴿ **أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ** ﴾، في موضع العلة للفعلين السابقين (أي لفعلي الإحكام والتفصيل)، على جعل «أن» مصدرية وتقدير اللام معها كأنه قيل: كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله أي لتتركوا عبادة غيره عز وجل وتتمحضوا لعبادته سبحانه. اهـ من (تفسير الآلوسي)؛ فالإحكام والتفصيل لهما صلة متينة بنجاح العمل التنفيذي للبشر. وقريب من ذلك **قول الإمام الطبري، قال**: أحكم الله آياته من الدَّخَل والخَلَل والباطل، ثم فصَّلها بالأمر والنهي. .. وأما قوله: ﴿ **مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾، فإن معناه: حكيم بتدبير الأشياء وتقديرها، خبير بما تؤول إليه عواقبُها. اهـ من (تفسير الطبري). فينبغي دراسة مشهد الهدف والطرق المحتملة إليه بإتقان تام أي بكل مضامينه وبكل ما يمكن أن يتصل به او يؤثـر عليه خلال المسـار وبعده، وكذلك رؤية محاور وأقسـام المشـهد والطرق إليه، وما هي خصائص كل محور وما هي التفاعلات بين

المحاور، وبينها وبين ما يحيط بالمشهد، وكيف يمكن التعامل مع كل ذلك. وبعد ذلك يمكن تفصيل الخطط التنفيذية المحتملة وفقاً لعوامل وتوقعات النجاح، واختيار الوقت المناسب للشروع؛ والله تعالى أعلم وله الحمد الكثير.

الفائدة الرابعة: المصاعب بعد الإقتحام، وثمن المكارم والمعالي. الإقتحام في القضايا الشخصية البحتة، وفي الحسنات غير المتحدية للآخرين كعتق رقبة او إطعام في أيام المجاعة ونحو ذلك من الصالحات، فإن اقتحام هذا النوع من الأُمور يسير عادة برفق بين الآخرين ولا يواجه مصاعب منهم، ولكن يواجه مصاعب مجاهدة النفس.

وأما اقتحام القضايا التنافسية كالقرار السياسي والضوابط الرئيسة للإقتصاد وتقنين بعض التشريعات وشبه ذلك من الأُمور المتحدية، فإن اقتحامها بصورة مباشرة قد يواجه في كثير من الأحيان مصاعب المقاومة والتحريض والكراهية. وهذه لابد منها فإن من لم يركب المصاعب لم ينل المطالب. ويقتضي ذلك أمرين، **(الأمر الأول)**: قد تقتضي الضرورة إطالة مسار الإقتحام، فقد ذكرنا أن الإقتحام يبدأ بمجرد اختيار المشروع الكبير وما يتضمنه من التحدي والأمور الصعبة، والشروع في الإعداد والتخطيط لهذا المسار. ثم يمكن أن يطول المسار، كأن يبدأ الإقتحام العملي بالتمهيد والتَّهيِئَة، أي إعداد الأجواء القابلة؛ وتشمل «الأجواء» تقويم الرأي العام وقُدُرات المقاومة، بما في ذلك العوامل الخارجية. وتوجد وسائل لفحص الأجواء ثم إعادة تشكيلها. **(الأمر الثاني)**: اقتحام هذه القضايا قد يواجه أنواعاً من المصاعب والمطاعن، فقد طعن المشركون في الأنبياء، وزعموا أنه ﷺ ساحر او مجنون او مفتون او مرتبط بأجانب يتلقى التعليم منهم، فقد قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ النحل: ١٠٣. وفي عهد الصحابة، قامت حملة إعلامية واسعة وظالمة للطعن في عثمان ثم في علي رضي الله عنهما،

وكانت عاقبة المطاعن أن جعلها الله تعالى هباءً منثوراً، فلم يثبت منها شيء، ثم انقلبت المطاعن على من كان ظالماً في إشاعتها. وسِرُّ ذلك أن ما رفعه الدين لا تضعه الدنيا، وما رفعته الدنيا عادت عليه فوضعته. فالمقصود هنا أن من يقتحم لفعل الخير في القضايا المتحدية، فإن عليه أن يكون ثابتاً فلا تهزه الإشاعات ووشبهها. وقد قال تبارك وتعالى ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ لقمان: ١٧.

ويوضح ثمن المعالي قوله تعالى ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾ البقرة: ٢١٤.

وقوله تعالى ﴿ .... وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ آل عمران: ١٥٤.

وقوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ آل عمران: ١٧٩.

وذكرنا في (نخبة المسار)، ثمن المعالي من جهة الجهد الذي يجب تقديمه.

الفائدة الخامسة: مجالات الإقتحام. ذكرنا في الأمر الرابع من الفائدة الثانية أنه ما من صعوبة في مجال الخير او مكافحة الشر إلا ويمكن النظر في جعلها فرصة لاقتحام العقبة، وذلك حين لا نجد ما هو أيسر منها وليس بأقل منها في جلب المصلحة ودفع المفسدة، بما في ذلك المصالح والمضار المستقبلية. فينبغي اقتحام العقبات في العلوم الشرعية وسائر العلوم من فروض الكفاية، كالهندسة بفروعها والسياسة والإدارة وغيرها. وكذلك اقتحام العقبات في الأداء المهني (السياسي والأمني والدفاعي

والقانوني والإقتصادي والخدمي وغيرها). وكذلك الأمر في منهج المنافسة والمغالبة في كل مجال مهم.

الفائدة السادسة: في ذكر الإيمان بعد فك الرقبة والإطعام، قال تعالى ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾. الأصل في «ثم» أنها للفاصل الزمني، فإذا قلت: جاء زيد ثم سعيد، فمعناه أن سعيداً جاء بعد زيد؛ وهذا في عطف المفردات حيث يكون التركيز على المهلة بين أمرين او حدثين. وأما «ثم» في عطف الجمل، فإن الفاصل موجود ولكن ليس من الضروري أن يكون فاصلاً زمنياً، كما أن التركيز في الجمل قد يكون على مضمون معين وليس على الفاصل. وعلى ذلك، فإن ذكر الإيمان بعد فك الرقبة والإطعام، فيه أكثر من قول للعلماء:

(القول الأول): لما كانت الأعمال الصالحة ثمرة الإيمان، فإن «ثم» في الآية ليست للفاصل الزمني الذي يؤخر الإيمان، بل هي بمعنى الواو، والتقدير: وكان من الذين آمنوا. قال بذلك الفقيه الحنفي الإمام الجصاص في (أحكام القرآن). وقال مكي بن أبي طالب: قيل: «ثم» بمعنى الواو، والمعنى: وكان من الذين آمنوا [بفعله] هذه الخصال. اهـ من (الهداية). وهـذا قول ضعيف، ولا مُسَـوِّغ له إذا أمكن حمل «ثم» على ما يوافق أصلها.

(القول الثاني): إن سـورة البلد ذكرت بعض أحوال «الإنسـان» ابتداءً من قوله تعـالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ البلد: ٤ ، ثم الضمائر العائدة عليه، فالكلام هنا عن الإنسـان وليس عن المؤمن. ولما كان الأصل في معنى «ثم» هو التراخي او وجود الفاصل الزمني، فإن معنى كل ذلك أن الإنسـان الذي يقتحم العقبات ويفعل الخيرات فإنه يُتوقع منه أن يدخل في الإيمان ولو بعد حين. وهذا بخلاف قُساة القلوب من مدمني

الفواحش والعصيان، فإنه بعيد عن الإيمان، فقد قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ البقرة: ٩٩ – ١٠٠، وقال تعالى ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ الماعون: ١ – ٣ . والقول الثاني موافق لسياق الآيات وأُصول العربية، ولا تكلف فيه، وهو قول الأُستاذة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) رحمها الله، وذلك في (الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق)، وقد بينته بياناً حسناً، وذكرتْ لمعناه شـواهد من القرآن الكريم. ويقتضي قول الأُستاذة عائشة أن تكون عبارة ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ... ﴾، معطوفة على عبـارة ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾؛ ولا إشـكال في عطف الجملة الفعلية على الإسـمية، والعكس أيضاً إذا اسـتقام المعنى، وتـوجد أمثلة قرآنية عديدة.

(القول الثالث): إن «ثم» تُستعمل أيضاً للفصل والترتيب بصرف النظر عن الزمن، ولكن باعتبار مضمونٍ آخر، وقد يكون المضمون منطوقاً او مُقَدَّراً. فإنك تقول في وصف جماعة: «أفضلهم زيد ثم سـعيد ثم سـيف»، فالفاصل هنا فاصل معنوي. ونقل العلامة فاضل صالح السـامرائي عن القائلين بعدم لزوم الفصل الزماني قولهم: «أعجبنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب». اهـ من (معاني النحو ٣/ ٢٠٧). وقال الزركشي: وتقول: زيد عالم كريم ثم هو شـجاع. اهـ من (البرهان في علوم القرآن). يوضح الأمر قوله تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ الأنعام: ١، فإن الترتيب الزمني تحصيل حاصل هنا، غير أن التركيز في آية الأنعام على الإعراض عن الأدلة والعلامات؛ قال أبو المظفر السمعاني: هو مثل قَول الْقَائِل: أنْعمت عَلَيْك كَذَا، وتفضلت عَلَيْك بِكَذَا ثمَّ لَا

تشكرني، ثمَّ تكفر بنعمتي. اهـ من (تفسير السمعاني)؛ فالتركيز هنا على سوء استجابتهم على الرغم من وضوح العلامات والأدلة، ولا مانع أن يوجد فاصل بين رؤية العلامات وفهم دلالتها. وعلى هذا الأصل في عطف الجمل، فإن قوله تعالى في سورة البلد ﴿ .... ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴾، يمكن أن يكون معناه: فك رقبة او إطعام ثم نُذَكِّر أنه كان (أي قبل ذلك او كان مع اقتحامه) من الذين آمنوا. وتفسير «ثم» هنا قريب من تفسيرها في قوله تبارك وتعالى ﴿ ..... ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الأنعام: ١٥٣ – ١٥٤، فإن المفسرين قدروا جملة بعد «ثم» كتقدير: ثمَّ اتلُ عليهم أنا آتينا موسى الكتاب، فإن الغالب او الأصل في «ثم» أنها لفصل الحدث في الزمان، ولكنها تستعمل أيضاً لتأخير الخبر عن الخبر وليس لتأخر الواقعة، وقد بين ذلك أبو حيان والرازي وغيرهما. ويمكن أيضاً بالنظر إلى جنس الإنسان كما هو ظاهر السياق، أن يكون المعنى: أن أعمال الخير الكبيرة كفك رقبة او إطعام في يوم المسغبة، تؤهل الإنسان للدخول في الإيمان، على نحو ما تقدم في القول الثاني، والله تعالى أعلم.

(القول الرابع): لما كان المثال المنصوص عليه من اقتحام العقبة هو فك رقبة او إطعام في يوم ذي مسغبة ثم كان من الذين آمنوا ...، فمعناه أن هذه الحسنات ثابتة لمن يقتحم العقبات، وأما الذي لا يقتحم عقبات النفس فالمتوقع منه أن لا يفك رقبة ولا يُطعم في يوم ذي مسغبة ولا يكون من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة. وهذا مقتضى قول الزجاج في (معاني القرآن وإعرابه)، ويحتمله قول الفراء في (معاني القرآن). وهذا استدلال واضح من غير حاجة إلى افتراض تقديرات نحوية، لأن نفي اقتحام العقبات يشمل نفي ما تتضمنه هذه العبارة. غير أن الزجاج رحمه الله استدل له بتقدير تكرار «لا» مع الفعل الماضي، قال الزجاج: والمعنى في ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾،

موجود أن «لا» ثانية كأنّها في الكلام، لأن قوله: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴾، تدل على معنى: فلا اقتحم العقبة ولا آمن. اهـ من (معاني القرآن وإعرابه). يساعد على ما ذكرناه أن جملة ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴾، إن كانت جملة معترضة للبيان كما هو قول جماعة من المعاصرين، منهم صاحب (حدائق الروح والريحان)، او كانت جملة استئنافية كما هو قول الدعاس في (إعراب القرآن)، فإن الجملة الإعتراضية والإستئنافية غير تابعة في الإعراب لما قبلها، ولكن يمكن أن ترتبط بما قبلها بالضمائر وبمعان واضحة، وهذا يساعد في دفع تقدير تكرار «لا»، أي تقدير: فلا اقتحم ولا فك رقبة ولا أطعم ولا كان من الذين آمنوا وتواصوا ...، خاصة وأن المعنى واضح من دون تقدير ذلك. ومن أئمة العربية الذين ذهبوا إلى عدم لزوم التكرار للفعل الماضي مع «لا» أبو علي الفارسي وأبو العباس المبرد، كما نقل الشيخ محمد الأمين الهرري في تفسير (حدائق الروح والريحان)، وكذلك الأخفش كما ذكرنا قبل قليل. وقد ذكرنا في الفائدة الثانية أيضاً معلومات مهمة عن حكم تكرار «لا» مع الفعل الماضي.

الفائدة السابعة: نصوص أُخرى تتصل باقتحام العقبات:

منهـــا: قوله تعالى ﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾ النجم: ٣٣ – ٣٥، الكُدية ما صلب من الأرض والشدة من الدهر، ومعنى أكدى أنقطع عطاؤه قبل بلوغ غايته بسبب تعرضه لبعض المصاعب، وأصله إكداء الحافر، وذلك إذا انتهى الحافر إلى كُدْية (كصخرة مثلاً) يئس وانقطع حفره، ولذلك ذكر ابن الجوزي أنه يُقال: أكدى لكل من طلب شيئاً فلم يبلغ آخره او أعطى ولم يُتم. وعلى ذلك فكل من توقف بلا عذر قبل تحقيق غايته فقد أعطى قليلاً وأكدى. فعلى المؤمن أن لا توقفه العقبات، بل يجب أن يجتهد في البحث عن مخارج صالحة وطرق بديلة

للإستمرار. وقد ذكرنا في (المنطلق) و(نخبة المسار) قضايا فتح طرق العمل وتذليل العقبات.

ومنهـا: قوله تبارك وتعـالى ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ التوبة: ٤١، وهذه آية جامعة تشمل معنى الإقتحام والرشاقة الإستراتيجية، وفيها فوائد كثيرة، منها: **(الفائدة الأولى)**: النفر هو الدفع والإنطلاق ومنه النفر من الحج، وكل جازع من شيء نَـفُور، يُقال: نَـفَر القوم في الأمر يَنْفِرُون ويَنْفُرُون نُفُوراً ونفْراً ونِفاراً ونفيراً، وأنفروه أي نصروه ومدّوه، ونفروا في الأمر أي نهضوا إليه، والاسْتِنْفارُ: الاسْتِنْجادُ والاسْتِنْصارُ. ونفر فلان إلى الأمر: هبَّ وأسرع إليه بقوة، ونفَرتِ الدّابةُ: جَزِعت وتباعدت. ومن هذا الأصل حديث « وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا » ، أي لا تجعلوا الناس يـهربون من الإسـلام. **فالنفر إلى الأمر ليس هو مطلق الحركة والتوجه، بل هو حركة سريعة وقوية إلى غاية، ولا تصح إلا بترك ما يتعارض مع تحقيق تلك الغاية؛ ويشـمل النفار كل وظيفة واجبة سـواء كانت قتالية او غير قتالية. وبداية النفار هو العزم على السير إلى الغاية الكبيرة والبدء بالتفكير الجاد من أجل الإعداد للشروع في المسار**. يوضح ذلك أن ثقل الحركة يُـفسـد النفار، كما ينبه إليه قوله تبارك وتعـالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ التوبة: ٣٨. فالمهم هنا أن كل وظيفة تحتاجها الأمة، فإن المنتصب لها يجب أن يكون نافراً إليها، ويترك كل ما يتعارض مـع إتقانها وإجادتها، وبعبارة أخرى يكون مُـخْـتَصّاً بها بكل ما في هذه الكلمة من معنى، فعليه أن يصبر على الطريق الطويل للمرابطة على وظيفته، ولا يتوهم أنه يقطع الطريق بكتب محدودة وسـنوات قليلة. فإن قصّر في الإتقان لعذر، فعليه أن يحتاط لغيره فلا يمد نفسـه إلى المصالح والحقوق العامة، بل حتى مع إتقان الوظيفة فإنه يحتاج إلى مشاركة ومشاورة

المؤهلين قبل الشروع في الأمور العامة. والأمر واضح مما ذكرناه هذه الدراسة وفي (المنطلق) في تفسير آية المصابرة والمرابطة. **(الفائدة الثانية)**: استيعاب أفراد الأمة في النفار، كما في عبارة ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾، فهذه عبارة مطلقة في كل خفة او ثقل يمكن أن يؤثر في نوع ودرجة النفار، فهي تشمل من خف حمله ومن ثقل، ومن خفت او ثقلت حركته وإلى غير ذلك من أحوال الخفة والثقل؛ فتشمل العبارة أيضاً إيقاع الخفة والثقل على متعلقين، أحدهما ضد الآخر كالغنى والفقر. فيمكن مثلاً أن يكون متعلق الخفة والثقل هو سهولة او صعوبة حركة النفار، فالخفيف هو المتمكن والمدرب والمؤهل وغير الـمُثْقَل بالتزامات او مصاعب تعيقه عن النفار، وعكسه الثقيل، كمن قال: خفافاً من العيال، وثقالاً بهم. ويمكن أن يكون متعلق الخفة والثقل الصفة التي يحتاجها الأداء، فالخفيف هو غير المؤهل والثقيل هو حامل المؤهِلات، وقد نقل ابن عطية في تفسيره ما هو من هذا القبيل. ويمكن أن يكون متعلق الخفة والثقل هو المتطلبات التنفيذية، فالخفاف هي المجموعة الصغيرة وغير المحملة بأثقال مادية كبيرة، وأما الثقال فهي المجموعة الكبيرة كالجيش بآلياته الكثيرة. وهذا الإستيعاب الشامل لأفراد الأمة يؤكد أن النفار ليس خاصاً بالعمل العسكري، بل يُراد من كل فرد في الأمة أن ينطلق نافراً إلى عمل مناسب لأهليته من أعمال الخير، مع إمكان أن يعمل المؤمن لتطوير أهليته وتحسين نفاره، وهذا من أهم طرق المغالبة وتكوين أمة متفوقة. وقد ذهب الراغب الأصفهاني إلى أن قوله تعالى ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ يشمل المبادرة إلى جميع ثواب الله تعالى، كما في تفسيره في المكتبة الشاملة. معنى ذلك أن حكم النفار إلى عمل صالح يشمل كل فرد من المكلفين وبحسب قُدرته وتأهيله، إلا من كان مضطراً إلى خلاف ذلك، والمقصود أن تبلغ الأمة أعلى درجات الحياة في أنواع التخصصات والواجبات. **(الفائدة الثالثة)**: معنى الجهاد في نحو عبارة ﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾. أما الجهاد في سبيل الله تعالى فهو المبالغة والمغالبة في بذل

الوسع والطاقة في مرضاة الله تعالى، وفي أي مجال من مجالات الخير والحق. يُقال: جَهَدَه المَرَض والتعب وَالْحب يَجْهَدُه جَهْدا: هزله. وقال جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي الحنبلي: فمادة (جَ هـ دَ) حيث وُجِدَت فيها معنى المُبَالَغة. اهـ من (الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي). ويؤكد ذلك أن القرآن الكريم استعمل هذا اللفظ للمبالغة، كما في قوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ الأنعام: ١٠٩ . وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنهُ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ « جُهْدُ الْمُقِلِّ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ » رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وصححه الألباني وغيره، وهـو فـي بعض نسـخ كتب الحديث بفتح الجيم، والمعنى طاقة الـمُقِل كمن له مال قليل فيتصدق بربعه او بنحو ذلك، وقد تشمل أيضاً طاقة النفس، كما يوضحه أحد الوجهين في تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ التوبة: ٧٩ ، أي ليس لهم متاع المقاتل ولا ما يتصدقون به، فلا يجدون إلا طاقتهم الذاتية (أي النفسية او العلمية او البدنية)، وهذا قريب من أحد الوجهين في الآية كما نقلها ابن عاشور. وصح أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ « .... وَمِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ » رواه الإمام مسلم وغيره، وهو البلاء الذي يذهب بجزء كبير من الطاقة. وأما الجهاد بالأموال فهو إنفاق الأموال في وجوه الجهاد كلها، العسكرية وغيرها. وأما الجهاد بالنفس، فإن النفس في العربية تُستعمل بمعنى الروح وبمعنى ذات الشيء بجملته، كقولهم: أخرج نفسه من الأمر وجاء زيد نفسه، وعليه نحو قوله تعـالى ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ ﴾ النور: ٦، وقوله تعالى﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ فصلت: ٥٣. ولذلك فإن الجهاد بالنفس يقع على معنيين، المعنى الأول: المخاطرة بالروح وفق الضوابط الشرعية، وتشـمله الآيات الكثيرة الصريـحة في القتال في سـبيل الله تعـالى، وكذلك ما كان خاصاً بالقتال من نصوص الجهاد. المعنى الثاني: جاهدوا بأنفسكم، أي بما تتضمنه ذاتكم من طاقات، كالطاقة الحركية والدعوية والفكرية والعلمية والسياسـية والإعلامية والحياتية وغيرها. وواضح أن هذا المعنى (أي الثانـي)

يشـمل المعنى الأول ، لأن الروح داخلة في جملة الإنسان، فقواعد الأخذ بالعموم تقتضي تقديم هـذا المعنى.

ومنهــا: قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ التوبة: ٤٢. الآية الكريمة تصف المنافقين في غزوة تبوك، وهي تتضمن أيضاً وجوب مواجهة الصعاب واقتحام العقبات في خدمة الواجبات الدينية. فالعَرَض هو كلُّ ما عرض لك من منافع الدنيا؛ والسفر القاصد هو سفر متوسط بين البعد والقرب او متوسـط بين شـدة مشـقته وقلتها؛ وأما عبارة «بعدت عليهم الشـقة»، فالشُّقَّةُ مسـير إلى أرض بعيدة كما هو شائع في التفسير، او هي الغاية والمنفعة المشتقة (الناتجة) من السفر او العمل، فقد فسـر مكي بن أبي طالب العبارة بـ: «الغاية التي يقصد إليها». وحاصل أمر المنافقين مع غزوة تبوك أنه لو كان ما تدعوهم إليه منفعة دنيوية قريبة وسـفراً متوسطاً في مصاعبه، لخرجوا مع النبي ﷺ. وتدبر عبارة «عليهم»، أي بعدت الشقة عليهم وليس على الصحابة الذين سـاروا إلى تبوك، وهذا يوضح الفرق بين المقتحم والمحجم المتردد. فإن المقتحم يرى العقبات ويُعد العدة لـها، فإما أن يُعد لإزالتها او لتوهينها او الإلتفاف عليها او احتوائها او يُعد للتصدي لها بالعمل المباشـر.

ومنهــا: قوله تعــالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ محمد: ٣١، فمن فوائد التفسير، **(الفائدة الأولى)**: معنى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾، قال ابن منظور: بَلَوْتُ الرجلَ بَلْواً وبَلاءً وابْتَلَيْته: اخْتَبَرْته، وبَلاهُ يَبْلُوه بَلْواً إِذَا جَرَّبَه واخْتَبَره. وأَبْلَيْت فُلَانًا عُذراً أَي بَيَّنت وَجْهَ الْعُذْرِ لأُزيل عَنِّي اللَّوْمَ، وَكَذَلِكَ أَبْلاه جُهْدَه ونائِلَه. ابْنُ الأَعرابي: وَيُقَالُ أَبْلَى فُلَانٌ إِذَا اجْتَهَدَ فِي صِفَةِ حَرْبٍ أَو كَرَمٍ. يُقَالُ: أَبْلَى ذَلِكَ

اليومَ بَلاءً حَسَنًا. اهـ من (لسان العرب). ومن معنى الإختبار قوله تعالى ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ النساء: ٦، وقوله تعالى ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الأعراف: ١٦٨، وقوله تعالى ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ الأنبياء: ٣٥. **(الفائدة الثانية)**: معنى عبارة ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، أما معنى «حتى» هنا فقال ابن عاشور: وحَتَّى حَرْفُ انْتِهَاءٍ، فَمَا بَعْدَهَا غَايَةٌ لِلْفِعْلِ الَّذِي قَبْلَهَا وَهِيَ هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ فِي مَعْنَى لَامِ التَّعْلِيلِ. اهـ من (تفسير ابن عاشور). وأما عبارة ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، فإن الله تعالى عليم بكل شيء، فمعنى العبارة: حتى نجد الأثر العملي للجهاد والصبر ويمكن أن يشهده الناس. ونقل الحافظ ابن كثير عن ابن عباس ﵄ أنه يقول في مثل هذا: إِلَّا لِنَعْلَمَ أَيْ لِنَرَى. اهـ من (تفسير ابن كثير). وإلى هذا المعنى ذهب القرطبي وغيره. وقد ذكرنا قبل قليل معنى الجهاد، وتقدم أيضاً معنى الصبر. ولما كان الخطاب في ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾، يشمل المؤمنين عموماً، فإن عبارة ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، تنبه إلى أهمية او وجوب أن يكون لكل مؤمن نصيب جيد من الجهاد يكفي لوصفه بأنه «مجاهد»، ونصيب جيد من الصبر يكفي لوصفه بأنه «صابر»، وقد تقدم قبل قليل أن مطلَق الجهاد ليس محصوراً بالعمل العسكري. **(الفائدة الثالثة)**: معنى عبارة ﴿ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾. الأخبار تَنقل الأقوالَ والأعمالَ والأحداث وما تدل عليه، فمعنى أن الله تعالى يبلو أخبارنا: نحكم في أخباركم وما هو صحيح منها وما هو كذب وتضليل، ونحكم في عواقبها وفي الجزاء عليها، وما يُكشف منها وما يُـخفى عن الناس، ونحكم في مراتب أعمالكم، الحسن منها والسيء. ونقل القرطبي وغيره عن إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْأَشْعَثِ قال: كَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ بكى وقال: اللهم لا تبتلنا فإنك

إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا. اهـ من (تفسير القرطبي). ونقل السمعاني عن مجاهد نحو قول الفضيل بن عياض؛ وكلام الفضيل بن عياض من باب محاسبة النفس واتهامها، فإن الغاية من بَلْو الأخبار غير مصرح بها في هذه العبارة، فلا يلزم أن تكون فضيحة لذنوب الصالحين، والله تعالى أعلم.

ومنهـــا: قوله تبارك وتعـــالى ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المائدة: ٢١ – ٢٢. فحتى بعد تمام الإعداد، فإن من الناس من يريد تحقيق أفضل الغايات بدون مخاطرة أي بدون التعرض للتضحيات، بل بلا مخاطرة محسوبة. وللجواهري أبيات يصف بها هذا النوع من التفكير، منها:

هَوِيتَ لِنُصـرةِ الحـقّ السُهـادا ... فلولا الموتُ لم تُطِـقِ الـرُّقادا
ولـم تحتـجَّ أنَّ البَغْـيَ جيشٌ ... وأنَّ الزاحـفـينَ لـه فُـرادي
ولا أنَّ الليـالـيَ مُحرِجـاتٌ ... وأنَّ الـدَّهَر خصمٌ لا يُعـادى
و أنَّ الأمـرَ مرهـونٌ بـوقتٍ ... ينادي حـينَ يأْزَفُ لا يُنـادى
مَعـاذيـرٌ بها ادَّرَعَتْ نُـفـوسٌ ... ضعافٌ تَرهبُ الكُرَبَ الشِّدادا
تُريـدُ المجـدَ مُرتـميا عليها ... جَنـىً غَضّـاً تَلَقَّفُـهُ ازدِرادا !

ومنهـــا: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ ﴾ النحل: ١٢٠ – ١٢١،

ثم قال تعـــالى ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل: ١٢٣.

(قال الراغب): وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾، أي: قائماً مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة. وقوله تعالى ﴿ **لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ** ﴾ آل عمران: ١١٣، أي: جماعة. اهـ من (المفردات).

(وقال ابن قتيبة الدينوري**)**: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾، أي: إماماً يقتدي به الناس، لأنه ومن اتبعه أمّة، فسمّي أمّة لأنه سبب الإجتماع. وقد يجوز أن يكون سمّي أمّة: لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمة. ومن هذا يقال: فلان أمّة وحده، أي: هو يقوم مقام أمة. اهـ من (تأويل مشكل القرآن).

فالفرد الذي يصير سبباً في أمر عظيم النفع فإنه أُمة. من ذلك أن ينظر الفرد إلى أمر عظيم النفع ويمكن تحقيقه بلا قتال ولا جيوش، ولكن بالتعب والنصب وبشدة الاهتمام بالمهارات التي يحتاجها الأمر، وبالصبر على المسار، سواء كان ذلك في المجال الاقتصادي او السياسي او الدعوي او غير ذلك. وقد يستطيع أن يستميل آخرين إلى المشروع. ويجب في جميع الأحوال إنضاج الفكرة قبل الإقتحام، فيحتاج المرء قبل الإقدام إلى المزيد والمزيد من التنقيح وإلى مهارات استطلاع آراء أهل المعرفة والمؤهلين ولو بصورة غير مباشرة، ويحتاج إلى الحزم قبل العزم على الإقتحام وبنحو ما ذكرناه في هذا المبحث عن الحزم. فإن فعل كل ذلك وكتب الله له النجاح فهو أمة.

الفائدة الثامنة: دفع شبهة من قد يتوهم أن حكم التيسير يخالف حكم الإقتحام والنفار والجهاد. قال تعالى ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ** ﴾ البقرة: ١٨٥، فليس معنى الآية أن الإسلام ليس فيه مكابدة ولا معاناة ولا تضحيات،

فهذا لا يقوله من يعرف حقيقة الإسلام. والصحيح أن طريق اليسر هو الدخول في المصاعب لتذليلها او إزالتها؛ كما أن العمل بالتكاليف الشرعية مهما تضمن من معاناة ومكابدة فإن مآله إلى اليسر وتذليل المصاعب وإلى تحقيق المطالب. فهذا كقوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢١٦؛ واضح من الآية أن العبرة بالمآل والعاقبة.

ولا شك أن اجتناب المصاعب معناه تكريس الشدائد وتفاقمها وزيادة المعاناة. وقد قيل «إن الوصول إلى الحياة بالمخاطر خير من الوصول إلى الموت براحة». وأما حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَأْثَمْ، فَإِذَا كَانَ الْإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ، وَاللهِ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ، حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللهِ، فَيَنْتَقِمُ للهِ.» رواه البخاري ومسلم وغيرهما، فلا يعارض ما ذكرناه، فإن عائشة أم المؤمنين وصفت عمل رسول الله ﷺ ولم تنقل قوله عليه الصلاة والسلام، كما أن قول عائشة رضي الله عنها: «مَا خُيِّرَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ»، أي بين أمرين متماثلين في جلب النفع او دفع الضر وفي الخطورة، فلا إشكال حينئذ في اختيار الأيسر بل لا ينبغي إلا ذلك.

يضاف إليه أن عبارة: «إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا» هي صيغة تفضيل تشمل المصاعب؛ يوضح الأمر أنه يصح أن تقول في رجلين قصيرين: هذا أطول من هذا، ولا يصح أن تقول فيه: إنه طويل. وكذلك في المقارنة بين المصاعب، يصح أن تقول: هذا أيسر من ذاك، ولا يصح أن تقول إنه سهل يسير؛ يدل على ذلك نحو قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ يوسف: ٣٣، فواضح أن يوسف عليه السلام فاضل بين كريهين بكلمة

«أحَبُّ إليَّ»، أي أقل كراهة. ويتصل بذلك قوله تبارك وتعالى ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ النحل: ٩٢؛ فإن الأُمة التي هي أربى من أُمة يمكن أن يشمل أُمتين صغيرتين في الحجم والموارد، غير أن إحداهما أكثر او أكبر او أغنى من الأُخرى؛ قال ابن قتيبة: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾، أي: دغلاً وخيانة وحيلاً أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ، أي: لأن يكون قوم أغنى من قوم، وقوم أعلى من قوم، تريدون: أن تقتطعوا بأيْمانكم حقوقاً لهؤلاء، فتجعلوها لهؤلاء. اهـ من (تأويل مشكل القرآن).

والله تعالى أعلم وله الحمد الكثير.

ونختم بقول شاعر اليمن البردوني :

ورحـــت من سفر مضن إلى سفر أضنى لأن طريق الراحة التعـــبُ
لكـــن أنا راحل في غير مــا سفر رحلي دمي وطريقي الجمر والحطبُ

السـبق
واغتنام الفُرَص

قال ابن منظور: الفُرْصةُ: النُّهْزَةُ والنَّوْبةُ، وَقَدْ فَرَصَها فَرْصاً وافْتَرَصَها: أَصابَها، وَقَدِ افْتَرَصْتُ وانتَهَزْتُ. وأَفْرَصَتْكَ الفُرْصةُ: أَمْكَنَتْكَ. وافْتَرَصْتُها: اغتَنَمْتُها. قَالَ الأَزهري: الفُرْصة وَهِيَ النُّهْزَة. يُقَالُ: وَجَدَ فُلَانٌ فُرْصةً أَي نُهْزَةً. وَجَاءَتْ فُرْصَتُكَ مِنَ الْبِئْرِ أَي نَوْبَتُك. وانتَهَزَ فلانٌ الفُرْصةَ أَي اغتَنَمَها وفازَ بِهَا. اهـ من (لسان العرب).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزَاةٍ فَلَقِيَ الْمُشْرِكِينَ بِعُسْفَانَ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ الظُّهْرَ فَرَأَوْهُ يَرْكَعُ وَيَسْجُدُ هُوَ

وَأَصْحَابُهُ» ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: كَانَ هَذِهِ فِرْصَةً لَكُمْ لَوْ أَغَرْتُمْ عَلَيْهِمْ، مَا عَلِمُوا بِكُمْ حَتَّى تُوَاقِعُوهُمْ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: فَإِنَّ لَهُمْ صَلَاةً أُخْرَى هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَاسْتَعِدُّوا حَتَّى تُغِيرُوا عَلَيْهِمْ فِيهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ النساء: ١٠٢، إِلَى آخِرِ الْآيَةَ. رواه الحاكم في سياق حديث وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

فالفُرصة في العربية هي كل حدث او حال او وقت، يمكن اغتنامه لبلوغ هدف مشروع او غير مشروع.

فضل السابقين:

قال تعالى ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الواقعة: ١٠ – ١١، فمن فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: معنى لفظ «السابقون». السبق في العربية هو أن يكون الشيء قبل الآخر في أمر من الأمور، قال تعالى ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾ الحجر: ٥، أي ما تهلك قبل أجلها وما تتأخر عنه؛ وهكذا من يتقدم ويصل قبل غيره او يفعل ما لم يفعله غيره او ينطلق بقوة تاركاً عوامل التثاقل والتثبيط وراءه، أي قبل أن تتمكن منه عوامل التثاقل والتأخير. وقد يكون السبق بين اثنين فصاعداً، يُقال سبق فلان فلاناً. وقد يكون السبق من طرف واحد، بمعنى أنه يسبق هواه وأسباب التثاقل، فهو مبادر بقوة إلى غايته، وكذلك بأن يبادر في الصالحات كي يسبق محاولات الإعاقة ولا يعطيها فرصة.

وأما الإستباق، فهو بذل الجهد في السبق، ويمكن أن يكون بين اثنين فصاعداً، قال تعالى ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾ يوسف: ٢٥، أي اسرع كل واحد منهما كي يصل قبل الآخر

إلى غاية واحدة وهي الباب، والتقدير: استبقا إلى الباب؛ وإضافة التاء في صيغة «افتعل» لبيان تكليف النفس بالسبق وبذل الجهد فيه، ويكون الفرق بين «سبق واستبق» كالفرق بين «سمع واستمع، وكسب واكتسب، وغَنم واغتنم»، وعن قتادة في قوله تعالى ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ البقرة: ١٤٨، أي سارعوا إليها، وقال قتادة: «لا تُغلَبُنَّ على قبلتكم». رواه الطبري، أي جاهدوا لأجلها. وواضح أن السبق في آية الواقعة ونحوها هو السبق في الصالحات.

الفائـدة الثانيـة: معنى الإعراب، فظاهر السياق أن عبارة ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾، جملة واحدة من مبتدأ وخبر، كما في (التبيان ..) لأبي البقاء العكبري، وذكره أبو حيان والرازي وغيرهما. ومعنى هذا الإعراب: والسابقون هم السابقون، فلا يحتاجون إلى تعريف بغير ما عرفتم عنهم من جليل مضامين السبق إلى الصالحات. وبعبارة أُخرى أنه إذا اتحد المبتدأ والخبر فالمراد به المبالغة في التعظيم او في الذم. من ذلك قول أبي النجم العجلي:

أنا أبو النجم وشعري شعري لله درى ما أجن صدري
تنام عينى وفؤادي يسرى مع العفاريت بأرض قفر

ومثل ذلك قول القائل: «وعبد الله عبد الله»، وقوله: «أنت أنت». هذا حاصل ما أخذ به الزمخشري في تفسير الآية، وما نقله الرازي وغيره. ويقوي هذا الإعراب أنه يحتاج إلى تفسير فقط، ولا يحتاج إلى تقدير محذوفات.

الفائدة الثالثة: منزلة السابقين، فتدبر عبارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾، قال سهل التستري: ولم يقل القريبون، وعلامات المقرب واضحات من هذه الأمة، فالقريب وجد من الله المنة والكرامة، والبعيد وجد من الله العذاب والعقوبة، والمبعد وجد من الله

الحجاب والقطيعة، والمقرب وجد من الله اللقاء والزيارة. اهـ من (تفسير التستري)؛ فهم الذين يقرّبهم الله منه بإعلاء منازلهم فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ كما هي عبارة القاسمي.

وهذا بخلاف حجب الكفار عن الله تعالى، كما في قوله عز وجل ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ المطففين: ١٥.

الفائـدة الرابعة: مجالات السبق. حاصل ما تقدم أن الأُمور التي يقع عليها الإستباق المذكور هي الأُمور التي تُقَرِّب إلى الله تعالى أكثر من غيرها، فهي أصل المكارم والمعالي، ولها نصيب كبير من عامل او أكثر من خمسة عوامل، **(العامل الأول)**: أن يكون الإستباق على ما هو أعظم أجراً من الحسنات، كالحسنات التي بينت النصوص كبرها، كقوله تبارك وتعالى ﴿ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ ﴾ التوبة: ١٩ – ٢٠؛ وكمن أحيا نفساً بتأهيلها وإعدادها للعمل فكأنه أحيا الناس جميعا، وكحديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة، وكأحاديث المحبة في الله تعالى، وغيرها. **(العامل الثاني)**: الحسنات عموماً إذا كانت كثيرة وتحمل صفة المبادرة، فقد قال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ المؤمنون: ٦١. **(العامل الثالث)**: أن يكون الإستباق على الحسنة المتعدية إلى الآخرين فيتسع أجرها، كمن يُعَلِّم الخير لعدد من الناس، وكمن يُبعد الضرر عن جماعة من الناس او يُبعده عن شعب كامل. **(العامل الرابع)**: الإستباق على الحسنات التي يمتد نفعها في الزمن، فقد قال تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا

كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ إبراهيم: ٢٤ – ٢٥، فتدبر عبارة ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾. وقال تبارك وتعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يس: ١٢؛ وقال تعالى ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ الانفطار: ٥. وقد تقدم حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الله ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » رواه مسلم وأحمد وابن ماجه والترمذي، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط. **(العامل الخامس)**: يشمل العوامل السابقة كلها، وهو السبق في استخراج معاني القرآن الكريم. فإن من إعجاز القرآن سعة معانيه، فلا نهاية لها، وقد سبق بيان ذلك تحت عنوان «مقدار الغيب». فمن اجتهد في تحصيل أدوات فهم القرآن وفي نظام تدبر القرآن وفي تحصيل الثروة المعرفية (الشهادة على الناس في آرائهم وأعمالهم)، فإنه قد يسبق بإذن الله تعالى إلى معان عظيمة الفائدة، ينتفع بها الناس في زمنه وبتعاقب الأجيال. والإحسان في تدبر النصوص الشرعية هو الذي يصنع الأئمة بإذن الله تعالى، كما حصل في عهد الصحابة ومن بعدهم.

وقد بينا نظاماً لتدبر القرآن الكريم في (نخبة المسار في فقه القيادة والإدارة) تحت عنوان: الهداية المستمرة (ختمة التدبر).

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ .» رواه مسلم وأحمد وأبو داود وغيرهم.

السابقون الأولون ومن تبعهم بإحسان:

قال تعالى ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ التوبة: ١٠٠. ومن فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: معنى «السابقون الأولون». ذكرنا معنى «السابقون» قبل قليل، غير أنه خاص هنا بكلمة «الأولون»، وهي جمع «أول»، ومعناها: جماعة السابقين الذين تقدموا في بدايات الأمر وقبل الآخرين، فما هو الحد الفاصل بين السابقين والمتأخرين في عهد النبوة؟ والذي أعلمه أنها الحديبية او بيعة الرضوان، وهذا قريب من قول الشعبي وابن سيرين والإمام الشافعي وغيرهم. فمن هاجر او نصر رسول الله ﷺ في بيعة الرضوان او قبلها، فهو من السابقين الأولين. ويؤكد أن السابقين الأوائل كانوا من المهاجرين ومن الأنصار، اتفاق عامة القراء على قراءة ﴿ وَٱلْأَنصَارِ ﴾، بالخفض عطفاً على «المهاجرين». وأما من هاجر بعد الحديبية وقبل فتح مكة كخالد بن الوليد رضي الله عنه، فهو مهاجر ولكنه ليس من السابقين. وأما بعد فتح مكة فقد انقطعت الهجرة كما ثبت في الحديث، فمن تحول إلى المدينة بعد فتح مكة فقد غير سكنه، وليس بمهاجر. وتوجد أحاديث صحيحة توضح أهمية السبق وأهمية الحسنات العظيمة، وتدل أيضاً على الحد الفاصل.

يوضح الأمر حديث أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ » رواه مسلم وغيره. فهذا الحديث خاص في السابقين من الصحابة ، يدل على ذلك قوله ﷺ « فإنّ أَحدَكم »، فهذا خطاب

لقوم مع رسول الله ﷺ ولكنهم لا يقارنون بأمثال عبد الرحمن بن عوف. يؤيد ذلك أنه يمتنع حمل الحديث على العموم في الصحابة فيما بينهم، لأنه من المحال أن يكون الجبل الذي ينفقه ابو بكر او عمر او عثمان او عليّ لا يدرك مُدّ خالد وامثاله من غير السابقين وإنما الأمر هو العكس، فمن المحال أن يكون تقدير الحديث: لا تسبوا أحداً منكم فلو أنفق ...الخ. ومن المحال أيضاً أن يكون الخطاب في الحديث للأجيال القادمة بعد الصحابة وليس لطائفة من المسلمين في عهد النبوة.

ويقطع بذلك حديث الشعبي عن عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى رضي الله عنه، **قَالَ**: شَكَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَوْفٍ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « يَا خَالِدُ، لِمَ تُؤْذِي رَجُلاً مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟ لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا لَمْ تُدْرِكْ عَمَلَهُ »، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، يَقَعُونَ فِيَّ، فَأَرُدُّ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لَا تُؤْذُوا خَالِدًا، فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ الله صَبَّهُ اللهُ عَلَى الْكُفَّارِ» رواه ابن حبان فهو صحيح عنده، (الإحسان، ٩/ ١١٠) ، وإسناد ابن حبان صحيح، ورواه الإمام أحمد في (فضائل الصحابة ، الحديث ١٣) بمثل إسناد ابن حبان. ونقله الحافظ ابن حجر العسقلاني من كتاب أبي يعلى، بمثل إسناد ابن حبان، وقال ابن حجر: حسن بهذا الإسناد، لأن أبا إسماعيل المؤدب صدوق، وقد سكت عنه البوصيري. وقال الهيثمي في (المجمع): رواه الطبراني في الصغير والكبير باختصار والبزار بنحوه ورجال الطبراني ثقات. اهـ من (المطالب العالية). وضعفه بعضهم بواحدة من ثلاث علل غير قادحة، **العلة الأولى**: أن الإسناد فيه أبو إسماعيل المؤدب، علماً أنه ثقة، ولا إشكال في تفاوت عبارات التوثيق، فإن التفاوت كثير الحدوث في وصف الثقات. قال الإمام الذهبي: أبو إسماعيل المؤدب وثقه ابن معين – فيما رواه عن ابن معين أربعة حفاظ. اهـ من(تذهيب تهذيب الكمال). والحفاظ الذين نقلوا التوثيق عن ابن معين، سماهم الحافظ المزي في (تهذيب الكمال) وهم: إِبْرَاهِيم بْن عَبد الله بْن الجنيد، وجعفر بْن أَبي عثمان الطيالسي، وأبو داود، ومعاوية بْن صالح بْن أَبي عُبَيد الله الأشعري.

ووثقه العجلي وأبو داود كما في (الوافي بالوفيات) وابن حبان والدارقطني وابن عبد البر في (الإستغناء). وقال ابن حبان: أبو إسماعيل المؤدب مات على إتقان وضبط. اهـ من (مشاهير علماء الأمصار). فلا يضر أبا إسماعيل قول النسائي وابن معين في رواية أبي قدامة السرخسي: ليس به بأس. وذكرنا أن معاوية بن صالح ممن نقل توثيقه عن ابن معين؛ ولكن روى ابن عدي عن معاوية بن صالح عن ابن معين، قال: ضعيف، ثم قال ابن عدي: وأَبُو إِسْمَاعِيلَ الْمُؤَدِّبُ لَمْ أَجِدْ فِي ضَعْفِهِ إلا مَا حَكَاهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ يَحْيى (أي ابن معين). وهو عندي حسن الحديث، ليس كما رواه معاوية بن صالح عن يَحْيى، وله أحاديث كثيرة غرائب حسان، وتدل على أن أبا إسماعيل من أهل الصدق، وَهو ممن يكتب حديثه. اهـ من (الكامل). وعلى تقدير صحة رواية ابن عدي عن معاوية بن صالح عن ابن معين، فالأصل أن التوثيق المجمل مُقَدم على الجرح المجمل. وذكرنا قبل قليل أن الحافظ ابن حجر حَسَّن الحديث ووصف أبا إسماعيل بأنه صدوق. **العلة الثانية**: أن عبد الله بن إدريس وهو ثقة رواه بإسناده إلى الشعبي مرسلاً، أي بدون ذكر الصحابي، وقد رجح أبو زرعة المرسل، وفي (أحاديث معلة ظاهرها الصحة) أقر مقبل الوادعي أن الحديث ظاهره الصحة، ثم مال إلى العلة التي ذكرها أبو زرعة. وهذه علة ضعيفة لأن الأصل قبول زيادة الثقة، وتوجد أحاديث صحيحة كثيرة اسندها بعضهم، ورواها آخر بإرسال او انقطاع وشبه ذلك من النواقص؛ فمن أخذ بهذه العلة فعليه أن يرد كل حديث رواه ثقة متصلاً ورواه ثقة آخر مرسلاً او منقطعاً بالإسناد نفسه او بمغايرة في الإسناد، ويؤدي ذلك إلى رد أحاديث صحيحة كثيرة. وإنما يُصار إلى ترجيح رواية على رواية حين يوجد تناقض بين الخبرين ويتعذر الجمع بينهما. ولا تناقض هنا بين الروايتين، ويمكن الجمع كذلك مع حديث أبي سعيد مرفوعاً، كما بينا قبل قليل. ولكن يظهر أن بعض المحدثين يريدون نوعاً من التسوية بين الصحابة كلهم في الفضيلة المذكورة، لأنهم ألفوا القول بأن حديث « فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا

نَصِيفَهُ » يراد به كل من له صحبة وإن كانت صحبة متأخرة، وكأن الخطاب فيه للصحابة كلهم فيما بينهم!!! **العلة الثالثة**: الإعتراض على معنى الحديث كما ذكرنا قبل قليل، فقد زعم الشيخ الألباني أن الحديث شاذ بهذا السياق والتمام، كما في (ضعيف موارد الضمآن)!!

وحديث عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى صريح في تعليل حكم الحديث بكون عبد الرحمن من أهل بدر وبأن خالداً ليس من أهل تلك المنزلة وأنه لو انفق مثل اُحُد ذهباً ما أدركها. والقياس أبعد حين يقارن من هو دون خالد كمعاوية، بمن هو أفضل من عبد الرحمن كعلي عليه السلام.

ويؤيد ذلك حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ الْحُدَيْبِيَةِ قَالَ: « لَا تُوقِدُوا نَارًا بِلَيْلٍ »، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَاكَ قَالَ: « أَوْقِدُوا وَاصْطَنِعُوا، فَإِنَّهُ لَا يُدْرِكُ قَوْمٌ بَعْدَكُمْ صَاعَكُمْ وَلَا مُدَّكُمْ » رواه الإمام أحمد بإسناد حسنه ابن حجر في (فتح الباري، باب غزوة الحديبية ٧/ ٣٥٧) وحسنه كذلك شعيب الأرنؤوط، ورواه أيضاً النسائي في (الكبرى) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي. فبالإضافة إلى فضيلة بيعة الرضوان، فإن هذا الحديث ينفي أن يدرك فضلهم من أسلم او هاجر من الصحابة بعد تلك البيعة. وهذا يوافق ما تقدم من منزلة خالد بن الوليد بالقياس إلى السابقين. وقد أسلم خالد وهاجر بعد الحديبية وقبل فتح مكة. ولا ينفي الحديث فضيلة من سبق قبل الحديبية، كمن قتل شهيداً في اُحد او هاجر وجاهد ثم تخلف لعذر عن الحديبية.

وعن جَابِرٍ رضي الله عنه: أَنَّ عَبْدًا لِحَاطِبٍ جَاءَ رَسُولَ الله ﷺ يَشْكُو حَاطِبًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا؛ فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ .» رواه مسلم وأحمد والترمذي وغيرهم.

ولذلك يتعين أن «مِن» تبعيضية في عبارة: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾، لأنه يوجد من المهاجرين المتأخرين كخالد بن الوليد، مَن لا يُدرك عمل الأولين، كما تقدم في الحديث الصحيح. وواضح أن العبارة القرآنية خاصة في الأولين من السابقين. وقد ذهب ابن عاشور إلى أن «مِن» تبعيضية، وهو معنى قول أبي موسى الأشعري ﷺ وسعيد بن المسيب وقتادة والشعبي، كما في روايات الإمام الطبري عنهم. ونقل بعض المفسرين هذا القول، منهم نجم الدين النسفي والرازي وابن عادل والآلوسي.

فعن الشعبي قال: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾، «هم الذين بايعوا بيعة الرضوان». رواه الطبري. وعن عامر قال: «فَصل ما بين الهجرتين بيعة الرضوان، وهي بيعة الحديبية.» رواه الطبري، وعامر هو الشعبي. وعن أبي موسى قال: «المهاجرون الأولون، من صلى القبلتين مع النبيّ ﷺ.» رواه الطبري. وعن سعيد بن المسيب قوله: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾، قال: «هم الذين صلوا القبلتين جميعًا.» رواه الطبري، وروى مثله عن قتادة وابن سيرين. ونقل ابن عادل في تفسيره عن ابن عباس أيضاً أن السابقين الأولين هم الذين صلُّوا إلى القبلتين. وقد ذكر أبو بكر بن العربي مراتب السابقين الأولين، ثم قال: الثَّامِنَةُ: أَهْلُ الْحُدَيْبِيَةِ، وَبِهِمْ انْقَطَعَتْ الْأَوَّلِيَّةُ. وَاخْتَارَ الشَّافِعِيُّ الثَّامِنَةَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ. اهـ من (أحكام القرآن).

وأما من زعم أن السابقين الأولين في آية التوبة يدخل فيها جميع المهاجرين والأنصار بصرف النظر عن وقت هجرتهم، فقوله ليس بصحيح لأنه أهدر صفة الأولين، كما في عبارة ﴿ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾، ولم يأخذ بمعنى الأحاديث الصحيحة التي ذكرناها قبل قليل. وأما من زعم أن عبارة ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾، تشمل

الصحابة كلهم وإن لم يكن مهاجراً ولا أنصارياً، فهذا قد غيَّر معنى الآية جملة وتفصيلاً فلا قيمة لقوله.

ويؤيد ما ذكرناه، قوله تبارك وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾ الأنفال: ٧٤ – ٧٥، الآية الكريمة صريحة أنه توجد هجرة أُولى، ثم هجرة بعدها في عهد النبوة كما تدل عليه عبارة ﴿ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ ﴾، أي في عهد النبوة. فالمشهور في قوله تعالى ﴿ مِنۢ بَعْدُ ﴾، أنه بعد بيعة الرضوان وقبل فتح مكة وذلك لما ثبت أن هجرة الصحابة انقطعت بفتح مكة، وثبت كذلك استحقاق الفضيلة العالية لكل من آمن وهاجر وجاهد قبل بيعة الرضوان. ومقتضى كل ذلك ان بيعة الرضوان هي الفارق بين الهجرتين في آية الانفال. وفي تفسير آية الأنفال هذه قال القرطبي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ ﴾ ، يُرِيدُ مِنْ بَعْدِ الْحُدَيْبِيَةِ وَبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ. وَذَلِكَ أَنَّ الْهِجْرَةَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كَانَتْ أَقَلَّ رُتْبَةً مِنَ الْهِجْرَةِ الْأُولَى. اهـ من (تفسير القرطبي)، وذكر نحو ذلك مكي بن أبي طالب وابن الجوزي وغيرهما.

<u>الفائدة الثانية</u>: اتِّباع السابقين الأوائل. فتدبر في آية التوبة عبارة ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ..... ﴾، فتدل جملة «اتبعوهم» على صلاح وأهلية السابقين الأولين للإقتداء بهم، فإن الله تعالى إنما يمدح اتِّباع الصالحين من الناس، كقوله تعالى ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ لقمان: ١٥؛ يؤكد ذلك الثناء العظيم على السابقين الأولين وعلى من اتبعهم بإحسان، كما في عبارة الرضا عنهم وما بعدها. وأما أهل الباطل والضلال، فإن الله تعالى ينهى عن اتباعهم، قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا

تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ النور: ٢١، وقال تعالى ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا** ﴾ النساء: ١١٥. وعموم عبارة ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾، يشمل الصحابة من غير السابقين الأولين ويشمل من جاء بعدهم.

وتدبر أيضاً ضبط إتباع السابقين الأولين بأنه: «بإحسان»، أي بإتقان جميل وبإجادة جميلة، من قولهم: فلان يُحسن العمل أي يجيد ويتقن العمل، والأصل في الحُسْن أنه ضد القبح كما سنبين بعد قليل إن شاء الله تعالى. ويشمل الإتباع بإحسان أمرين: **(الأمر الأول)**: أن يركز الإتّباع على الوصف الذي نالوا به الدرجة العالية، وهو السبق والمبادرة في فعل الصالحات، وخاصة الصالحات الكبيرة، وأن لا يكونوا من المتأخرين الذين فوَّتوا فرصة السبق. قال عبد الكريم الخطيب: والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار.. هم الذين سبقوا إلى الإسلام، فكانوا الكوكبة الأولى التي تقدمت ركبه الميمون، أولئك هم الذين حملوا أعباء الدعوة الإسلامية، واحتملوا- فى صبر ورضا- مواجهة العاصفة التي هبّت عليهم عاتية مزمجرة، تحمل فى كيانها جهالة الجاهلية، وحماقاتها، وسفاهاتها، وعتوّها وضلالها.. فكان لهم عند الله هذا المكان الكريم، وتلك المنزلة التي اختصهم بها، وأفردهم فيها.. فمن أراد أن يلحق بهم ويضاف إليهم، فسبيله إلى ذلك أن يقفو أثرهم، ويتبع سبيلهم، ويحسن كما أحسنوا، ويبلى كما أبلوا.. فذلك هو الثمن لمن يطلب رضا الله، ويطمع فى أن يكون مع أحبابه وأصفيائه.. فيكون بهذا مضافا إليهم مع الذين اتبعوهم بإحسان. أهـ من (التفسير القرآني للقرآن). **(الأمر الثاني)**: أن يكون اتباعه للسابقين الأولين اتباعاً جميلاً، فإنه اتبعهم أي اقتدى بهم وإنْ كان بعيداً في الزمن عنهم؛ وهم حملة راية الإسلام الأولين، فلهم فضل كبير في وصول الإسلام إلى

الأجيال المتتابعة؛ وصاحب المروءة يُقَدِّر الفضل ويحب من اتبعه لفضله. وأما من اتبع السابقين الأولين بالإساءة والقبائح، فلا شك أنه بعيد عن مضمون ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾، سواء كانت له صحبة متأخرة او كان من غير الصحابة.

فمن يريد منزلة السابقين، فعليه أن يستقرِئ ويدرس حال الإسلام والمسلمين، وما هي المخاطر والتهديدات، وما هي فرص خدمة الإسلام وما هي فرص نهوض المسلمين. ثم عليه أن ينظر في الخيارات المتاحة وفرصها التنفيذية، ويُقَوِّمها كي يَعرف الخيار الأحسن في كل مجال، فقد قال تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ الملك: ٢. وبعد ذلك يقتحم الفرصة على بصيرة. ومن المفيد جداً أن يتخذ المؤمن صديقين او ثلاثة او أربعة، لتشكيل مجموعة ذكية تتشارك في التفكير، وقد اثنى الله على هذه المجاميع القليلة العدد، كما في قوله تعالى ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ١١٤، أي إلا نجوى من أمر بكذا وكذا، وتدبر الثناء العظيم على مجاميع النجوى المستثناة، أي فمن يفعل شيئًا من هذه الثَّلاثة المذكورة في الإستثناء خالصاً لله تعالى فسوف يؤتيه الله أجراً عظيماً، وقد بين ذلك أبو حفص النسفي في (التيسير في التفسير) والإمام الرازي في تفسيره. وتدبر حصر النجوى المستثناة بثلاثة أنشطة واسعة جداً، فالصدقة يمكن أن تكون على فقير واحد، ويمكن أن يكون سعياً قوياً لضمان ضروريات الشعب كله او الطبقة الفقيرة والمتوسطة منه. وأما «المعروف»، فيشمل كل خير، الصغير منه والعظيم. وأما الإصلاح بين الناس، فيمكن أن يكون بين فردين او بين بيتين او بين مؤسستين او بين شعبين ودولتين. وهذه السعة ضرورية كي يدخل فيها كل باحث عن الفرص والسبق، كُلٌّ حسب تأهيله واستطاعته وهمته.

وينبغي أن نُفصل معنى «الإحسان»، فإنها كلمة في غاية الأهمية. فإن الحُسْن ضد القبح كما ذكر ابن فارس وابن سيده وغيرهما، والإحسان ضد الإساءة، والحسنة نقيض السيئة. ويُستعمل الحسن في جمال وجودة الظاهر كقولهم: فلان حسن الهيئة وحسن الملبس ورجل حسن القوام وامرأةٌ حَسناء. ويُستعمل الحُسْن بكثرة أيضاً للتعبير عن جمال وجودة المضمون والمعنى، وجمال وجودة العمل؛ ومنه عبارة: «أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا» في الحديث المشهور؛ وقال تعالى ﴿ **وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا** ﴾ النساء: ٦٩. ومنها أمثلة متفرقة في (جمهرة اللغة) وغيره، كقولهم: فُلَان حسن الطية والطوية إِذا كَانَ حسن السريرة. وَيُقَال: رجل حسن الكتبة وَالْكِتَابَة، وفلَان حسن الصَّحَابَة أَي الصُّحْبَة. وَفُلَان حسن الْمَذْهَب وقبيح الْمَذْهَب أَي الطَّرِيقَة. وَفُلَان حسن الْمدْخل وقبيح الْمدْخل أَي الْمَذْهَب فِي أُمُوره. والمَعْدَلَة: السّيرة الْحَسَنَة. وَفُلَان حَسَنُ الْعشْرَة والمعاشَرة. وَفُلَان حسن الطَّرِيقَة، أَي حسن الْمَذْهَب والسَّجِيَّة.

ولذلك يُستعمل الحسن فيما بلغ الغاية من الجمال والجودة، ومنه قوله تعالى ﴿ **وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ** ﴾ آل عمران: ١٩٥. ومن هذا الأصل قوله تعالى ﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا** ﴾ آل عمران: ٣٧.

ومن المشهور في العربية استعمال الإحسان بمعنى: إتقان الخير وإجادته وإحكامه، وذلك لأن الخير جميل والإتقان جميل، ونقيضهما قبيح وسيئ، ولذلك يُستعمَل الحسن بكثرة للتفضيل، كقولهم: هذا أحسن من هذا، أي أفضل وأجود. فمن هذا المعنى قوله تعالى ﴿ **ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ** ﴾ السجدة: ٧، أي أحكم وأتقن. وكذلك قوله تعالى ﴿ **ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا** ﴾ الكهف: ١٠٤، أي يحسبون أنهم يجيدون فعل الخير؛ وتدبر فضيلة إتقان التديُّن، كما في قوله تعالى ﴿ **وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينًا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ**

حَنِيفًا ﴾ النساء: ١٢٥. وكذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ النحل: ٩٠، أي بالعدل وإتقان الصالحات. يؤكد ذلك تعريف الإحسان بأن تعبد الله كأنك تراه، فإنه غاية الإتقان في عبادة الله تعالى. ومنه قول ابن الوردي في لاميته:

قيمـةُ الإنسانِ ما يحسِـنُـهُ أكـثـرَ الإنسانُ منهُ أوْ أقـلْ

أي قيمة الإنسان ما يجيده ويتقنه من العمل النافع.

الأمر بالمبادرة:

ويتصل بالمبادرة، اصطلاح: «**الرشاقة الاستراتيجية او الخفة الاستراتيجية**».

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا » رواه مسلم وغيره. وفي رواية « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَوِ الدُّخَانَ أَوِ الدَّجَّالَ أَوِ الدَّابَّةَ أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ » رواه مسلم أيضاً. ومن فوائد الحديثين:

الفائدة الأولى: في معنى المبادرة في اللغة والنحو:

قال ابن منظور: بَدَرْتُ إِلى الشَّيْءِ أَبْدُرُ بُدُوراً: أَسْرَعْتُ، وَكَذَلِكَ بادَرْتُ إِليه. وتَبادَرَ القومُ: أَسرعوا. وابْتَدَروا السلاحَ: تَبادَرُوا إِلى أَخذه. وبادَرَ الشيءَ مبادَرَةً وبِداراً وابْتَدَرَهُ وبَدَرَ غيرَه إِليه يَبْدُرُه: عاجَلَهُ. اهـ من (لسان العرب).

وقال ابن فارس: الْبَاءُ وَالدَّالُ وَالرَّاءُ، أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا كَمَالُ الشَّيْءِ وَامْتِلَاؤُهُ، وَالْآخَرُ الْإِسْرَاعُ إِلَى الشَّيْءِ. (أَمَّا) الْأَوَّلُ فَهُوَ قَوْلُهُمْ لِكُلِّ شَيْءٍ تَمَّ بَدْرٌ، وَسُمِّيَ الْبَدْرُ بَدْرًا لِتَمَامِهِ وَامْتِلَائِهِ. وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: قَوْلُهُمْ بَدَرْتُ إِلَى الشَّيْءِ وَبَادَرْتُ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة).

وقال الزبيدي: وبدره الأمر، وبدر إليه يبدر بدرا: عجل وأسرع إليه واستبق ، قال الزجاج: وهو غير خارج عن معنى الأصل، يعني الإمتلاء؛ لأن معناه استعمل غاية قوته وقدرته على السرعة، أي استعمل ملء طاقته. اهـ من (تاج العروس).

ويُقال: بادَره وابتدَرَه، أي عَاجَلَه وأَسرعَ بالشيء إِليه؛ وابتدَر القَوْمُ أَمْراً وتَبَادَرُوه، أَي بادَرَ بعضُهم بَعْضًا إِليه، أَيُّهُم يسْبِقُ إِليه فيَغْلِبُ عَلَيْهِ؛ والبادرة في الكلام ما يبدر في حدة الغضب وكأنه يغلب كوابح العقل في خروجه. وقال تعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴾ النساء: ٦، أي لا تأكلوا أموال اليتامى مُسَابَقَةً لِكِبَرِهم. فكأننا في المبادرة نغالب الموانع والمنافسين كي يكون عنصر المبادأة معنا، فإن الإهتمام بعنصر المبادأة يُعَدّ من مستلزمات المغالبة والتحسين. فالمبادرة هي المسارعة إلى الشيء او التسابق إليه.

وتدبر عبارة « بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ » فإن كلمة «بادروا» صيغة مفاعلة مثل سابقوا وسارعوا وهاجموا، وخاصة حين يتعدى الفعل إلى مفعول ظاهر او مُقـدَّر؛ وكأننا نغالب شخصاً او حدثاً متوقعاً او نغالب عوامل الفتور والتثبيط في النفس، كي يكون عنصر المبادأة معنا. والمفاعلة واضحة من الحديث، فالمعنى: أفعلوا بلا تأخير كي تسبقوا ما يقطع عنكم العمل، كقيام الساعة او الفتن او تعـذر العمـل بسـبب الشـواغل الخاصة او العامة. وبعبارة أبي العباس القرطبي قال: وقوله: « بَادِرُوا بِالأَعمَالِ فِتَنًا »، أي: سَابِقُوا بالأعمالِ الصالحةِ هجومَ المِحَنِ المانعةِ منها. اهـ من (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم).

الفائدة الثانية: من مضامين وعوامل المبادرة، وهي عوامل مرتبطة بقوة بالمبادرة:

منهـــا: أن التأخير او التراخي موافق لمفهوم الغفلة، فهو مناقض للمبادرة وغاياتها كالمغالبة والإعداد والحذر. ومن لوازم المبادرة اجتناب التسويف والتمييع والتأجيل بلا مسوّغ.

ومنهـــا: أن الإنسان المبادر ذاتي التحفيز، فهو مستعد دائماً لتوجيه فكره وعمله إلى واجباته، ولا ينتظر الأوامر والتوجيهات إلا لضرورة ولضبط العمل بلا فوضى، فإن معنى المبادرة هو المسارعة إلى الشيء او التسابق إليه.

ومنهـــا: أن المبادر يتقدم على بصيرة كما يوجب الشرع، ولكن بلا تردد، فإن الإستقامة هي الثبات على التقدم في الطريق، وأحب العمل إلى الله تعالى أدومه وإنْ قلَّ. ولا تتوقف بسبب مشقة العمل او صعوبته فإنك إذا بدأت واستقمت بلغت الغاية.

الفائدة الثالثة: في أهمية ومنافع المبادرة. في المبادرة منافع كبيرة:

منهـــا: أن المبادرة من ضرورات اغتنام الفرص وعدم تفويتها وعدم إعطاء فرصة للخصم لإفسادها، بل هي من ضرورات البقاء والتقدم في بيئة تنافسية، الغلبة فيها لمن يُغالب ويسبق.

ومنهـــا: أن إتقان المبادرة أمر مهم جداً في عامة المجالات كالمجال السياسي والإقتصادي والدفاعي وغيرها. وتعني الإستعداد للتحرك بسرعة وجدية عالية وكفاءة، وبعبارة أُخرى أنك تملك السبق في التحرك بما ينفعك ويدفع الضرر عنك وفي تحريك الآخرين بهذا الإتجاه. ومن هنا كان الإمساك بـ « بزمام المبادرة او المبادأة » أمر في غاية الأهمية، وأما فقدان زمام المبادرة فمعناه أن حركتك تابعة لحركة الآخرين. وواضح أنه كي تكون ثقافة المبادرة فعالة فإنها يجب أن تستند إلى أساس متين من الإعداد النفسي والفكري والمعرفي والوظيفي والمادي. ويمكن أن تخسر المؤسسة والدولة مصالح كبيرة بسبب تثاقل الحركة الإستراتيجية وضعف المبادرة.

ومنهـــا: أن الإهتمام بعنصر المبادأة يُعَدّ من مستلزمات المغالبة والتحسين. وبعبارة أُخرى أن المحافظة على عنصر المبادأة هو القدرة المتكررة على سبق الطرف المقابل

بإجراءات تجلب المنفعة او تدفع الشـر عنا، وذلك بهدف البقاء والتقدم في بيئة خطرة، والحكم فيها للمتقدم في المنافسة. وواضح أن فقدان عنصر المبادأة يعني انتظار ما يبدأ به الخصم، وربما نكون غير مستعدين له. وينبغي الحذر في الصراع السـياسـي من تَوهّم المبادأة، فإن طرق التحريك (الإسـتدراج) الماكرة قد تسـتدرج الخصم إلى مبادأة متوقعة منه وتـكون ضارة به، وهـو لا يشـعر أن المبادأة الحقيقية إنما كانت لخبراء التحريك. ويتصل بذلك، القدرة على المناورة او التملص او التراجع وسحب المبادرة من يد العدو الطاغي، فلا تُسـتدرج إلى مواجهة خاسرة ولا إلى مواجهة حسب شروط عدوك.

الفائدة الرابعة: متطلبات منهج المبادرة. هي متطلبات عديدة:

منهـــا: صفة الطبيب الحاذق في التشخيص والعلاج، فإنه يعتمد على قاعدة معرفية واسعة بعلامات الصحة (الحقيقية والخادعة)، تجعل الطبيب ينتبه بسرعة إلى أي خروج عن المسار الصحيح، فهو مبادر سريع الإنتباه وبصورة مبكرة إلى وجود أمر مباين للسلامة وقبل أن يتفاقم الأمر، ومبادر حاذق في جمع وتحليل الأعراض ونتائج التحريات التي يحتاجها التشخيص كي يتعرف إلى العوامل المحلية والخارجية، أي من أين جاء الداء وما هي العوامل التي تمده، ثم هو خبير بأعلى المعايير في المبادرة بعلاج المرض مع المحافظة على سلامة المريض، أي في حل المشـاكل بأدنى الأضرار، ومع إجراءات وقائية تـمنع التكرار. وكذلك الأمر في التشـبع بعلامات صحة مسار المؤسسة ونحوها، والمبادرة في الإنتباه والتحليل حين يرى المبادر علامة مبكرة على الخروج عن الصحة. وقد تكون المبادرة في إجراءات تفاوضية او سياسية او اتفاق تبادل مصالح او عمليات تحريك او غير ذلك من أنشطة العلاقات او أنشطة الصراع. ولا يتم ذلك بإتقان إلا بوجود قاعدة معرفية جيدة ومتجددة عن حال المؤسسة وحال الطرف الآخر والعوامل المؤثرة على الطرفين والتوقعات المستقبلية، كي يمكن صياغة المبادرة وتفعيلها.

ومنهـــا: صفة الصياد الماهر، فله مجالات عملية مهمة، فمن صفاته: أنه لا ينتظر أن يأتي إليه المريض كما يفعل الطبيب، أي لا ينتظر أن تُعرض عليه مشكلة كي يتعامل معها، بل هو صياد المشاكل فهو يبادر بالبحث بمهارة عن العيوب ومواطن الضعف والإختراقات والفراغات، ولا يكتفي بذلك، فهو ينصب الكمائن لكشف العيوب الخفية وكبحها او إزالتها قبل أن تتفاقم، وكذلك يتابع ملئ الفراغات قبل أن يملأها الخصوم. فبعبارة أُخرى: أن من المبادرة أن تكون عمليات ردم او إصلاح الشقوق والفجوات ليست متروكة للمصادفة أي متى ما وجدت فجوة ردمتها، بل يجب إتقان وظيفة الصياد الماهر الذي يرصد ويبادر بالبحث عن الشقوق والفجوات، الظاهرة منها والباطنة، بل ينصب الكمائن للشقوق والفجوات كي تقع وينكشف حالها بلا تأخير، أي قبل أن تظهر على السطح. وتدبر حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » رواه الإمام مسلم وغيره، وفي لفظ « الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ إِنِ اشْتَكَى رَأْسُهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّــهَرِ » رواه مسلم أيضا. ويُسـتعمَل اللفظ «تداعى» بمعنى: دعا بعضه بعضاً لأجْل غاية، كقولهم: تَدَاعَى القَوْمُ على بَنِي فلانٍ. ولكن بعد تفاقم الأمر يكون التداعي من جنس قولهم: تداعى البناءُ: إذا تَصَدَّعَ او تقوَّض وآذن بالإنـهيار والسّـقوط. فلابـد من رفع التعبئة الوظيفية لممارسـة وظيفة الصياد: فلا يُكتفى بتغيير ما يظهر على السطح من أخطاء ونقاط ضعف، بل ينبغي ممارسة وظيفة الصياد الماهر الذي يبحث عن الأمور التي تحتاج إلى تغيير او الثغرات التي تحتاج إلى معالجة قبل أن تصل إلى السـطح، أي بزمن طويل قبل أن يتداعى الجسـد كله. وهذا من مقتضيات المحافظة على اشـتداد المؤسسة وإدامة مصالحها، كما ينبه إليه قوله تعـــالى ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ ص: ٢٠، وكذلك من مقتضيات المؤسسة العصية على الإختراق والإحتواء كما ينبه إليه قوله تعالى ﴿ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ أَن يَظْهَـرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾

الكهف: ٩٧. غير أن خصلة الصياد هذه يجب أن تُضبط بالشرع في توظيفها في المجتمع والمؤسسة. ومن فوائد صفة الصياد أنه ماهر مبادر أيضاً في قطف الأفكار الجيدة وتحويلها للدراسة والتوظيف. بل يستطيع بالمهارة في اصطياد المعاني من الخبرات السابقة للآخرين، أن يكتسب خبرة غير مباشـرة تزيد بكثير على خبرته الوظيفية المباشـرة. وكذلك يجب على الصياد أن يرصد وينقب عن التطورات العلمية والتطبيقية التي يمكن أن تؤثـر على مجاله التنافسـي كي لا يتأخر في اغتنامها او مواجهتها.

ومنهـــا: صفة الفنَّان المتقن، والمقصود به هنا كل محب لعمله متفنن فيه، أي يجهد نفسه في تحسينه وتطويره وإتقان فنونه، وله فيه وِجْهة او شاكلة (او بصمة) خاصة، ويمكن أن يصبح مدرسة خاصة عالية الجودة؛ ولا فرق من هذه الجهة بين أن يكون أديباً او خطاطاً او سياسياً او مهندساً او كاتباً او غير ذلك، المهم أن ملكة الإحساس عنده عالية وتظهر على أعماله آثار صورته الداخلية الفريدة، فهو لا يسـتطيب الجميل والجيد ولا يصبر عليه إذا كان بالإمكان فعل ما هو أجمل وأجود، وتراه ثابتاً على المبادرة للبحث عن المزيد من التحسين والتجويد. ويتصل بذلك حديث أَنَسٍ ﵁ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ « مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ: مَنْهُومٌ فِي عِلْمٍ لَا يَشْبَعُ، وَمَنْهُومٌ فِي دُنْيَا لَا يَشْبَعُ » رواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي مصرحاً أنه لم يجد له علة، ورواه ابن أبي شيبة موقوفاً على ابن عباس. النهم في الشيء شدة الرغبة والحرص والولع به، يُقال: نَهِمَ (على وزن فَرِحَ) فهو نَهِمٌ ونهيم ومنهوم بكذا، وعبارة: « لا يشبعان »، كناية عن عدم القبول بالتوقف عند حد معين، بل يسـتمر ويبادر في طلب الزيادة والتحسين والتطوير، وهذا في حق العلم لا نهاية له إلا بالوفاة، وذلك لقوله تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه: ١١٤، وقوله تعـــالى ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ يوسف: ٧٦ .

ومنهـــا: صفة الـمُخَطِط، فإن خطته تتحول إلى عمل تنفيذي، فهو بحاجة إلى مهارة عالية في توظيف الأفكار وتحويلها في مجال معين إلى منهج عملي قابل للتنفيذ، فلابد له قبل التنفيذ من توجيه المبادرة إلى التثبت من لوازم التنفيذ الحاضرة، ومن قُدُرات تنمية الوسع مستقبلاً، ومن العقبات والمضادات المحتملة. وبعبارة مختصرة، لابد من توجيه المبادرة إلى رؤية كل ما يمكن أن يؤثر على الخطة من العوامل الداخلية والخارجية، وسواء كان التأثير المحتمل على الشروع في التنفيذ او على المسار التنفيذي او على الهدف بعد تحقيقه، وكيف يمكن السعي لإزالة العقبات او تقليلها او تقليل خطورتها. وقد تكون خبرة المخطط العملية في السياسة او الدفاع او الصحة او التعليم او غيرها، فهو في كل ذلك يحتاج إلى أُفق واسع في الرؤية الإفتراضية للملابسات المحتملة للتنفيذ العملي والفوارق بين مضامينها، وذلك لتبصير المنفذين بما هو من مجالهم وما ليس من مجالهم وكيف يكون التعامل مع كل ذلك، ولكن مع قَدْر من المرونة. وأما القيادة التنفيذية العليا في مجال الهدف، فالمفترض فيها الأهلية العالية للتفاعل مع مطارحات مجموعة تصميم الهدف والتخطيط له من أجل التوصل إلى أفضل قرار.

ومنهـــا: الإستجابة السريعة بالدخول في فهم الأمر وما يحتاجه من دراسة وتحليل كي يكون التنفيذ على بصيرة. والإستجابة في العربية هي تلبية نداء الخير او الشر، او تلبية الرغبة والحاجة، وقد قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الأنفال: ٢٤، وعَنْ أَبِي سَعِيدِ ابْنِ الْمُعَلَّى، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَدَعَانِي فَلَمْ آتِهِ حَتَّى صَلَّيْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ فَقَالَ: « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي؟ »، فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، قَالَ: « أَلَمْ يَقُلِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾؟ » رواه الإمام أحمد والبخاري والنسائي وأبو داود وغيرهم؛ وتدبر ما يدل عليه الحديث من سرعة

الإستجابة لما يحيينا وبلا تأخير حين يكون الحال واضحاً، فإن المنادِي هنا هو رسول الله نفسه ﷺ. والأمور التي تحيي الإنسان هي ضرورات الحياة عموما من العقائد والشرائع والمعالي والمنافع ودفع المضار، بالإضافة إلى جملة من الحاجيات والتحسينيات التي تساعد الضروريات. يُقال: أَحْيَا القومُ ، أي حَسُنت حالُ مواشِيهمْ. ومنه الخبر: «أَحْيُوا مَا بَيْنَ العِشاءَيْن» أَيِ اشْغَلُوهُ بِالصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ، وَلَا تُعَطِّلوهُ فَتَجْعَلُوهُ كَالميِّت بعُطْلَته. وتدبر ضبط هذا المجال حين تتزاحم المصالح كما يدل عليه الإنكار في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ الجمعة: ١١. وقد ذكرنا في (نخبة المسار) بعض التفاصيل عن الإستجابة.

ومنهـــا: المهارة والمبادرة في اصطياد وإنتاج وإنضاج الأفكار، وقد تقدم بيانه في المبحث الثالث تحت عنوان: «مهارة إنتاج وإنضاج الأفكار».

أكتساب صفة
المبادرة والسبق بالخيرات:

قال تبارك وتعـــالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ المؤمنون: ٥٧ – ٦١. تبين الآيات الأوصاف التي توصل المؤمن الى مرتبة السابقين، فمن فوائد هذه الآيات:

الفائدة الأولى: الخشـية والإشفاق كما في عبـارة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴾.

(أما الخشية): فإنها تتضمن الخوف المناسب لأوصاف ما نخشاه، فيمكن أن تكون الخشية خوفاً محضاً أي مطلق الخوف، نحو قوله تعالى ﴿ .... وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ... ﴾ التوبة: ٢٤، وقوله تعالى: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَـٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ طه: ٩٤. وأما خشية الله تعالى، فهو شعور مركب مما توجبه صفات الله تعالى. يوضح ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ فاطر: ٢٨، فتدبر المبالغة او الحصر بأن العلماء من المؤمنين هم الذين يخشون الله تعالى لأن معرفتهم قوية بصفات الله تعالى وبدينه عز وجل. ولذلك قال الراغب: الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خُصَّ العلماء بها. اهـ من (المفردات)؛ وصرح ابن القيم في (مدارج السالكين) أن الخشـية خوفٌ مقرونٌ بمعرفة. اهـ. يؤيد ذلك الثناء الكبير على أهل الخشية كما في نحو قوله تعالى ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ق: ٣١ – ٣٣. وقال تعالى ﴿ ... رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ البينة: ٨. ويمكن أن يُستعمل الخوف بمعنى الخشية، كما في نحو قوله تعالى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ الرحمن: ٤٦، فمن خاف مقام ربه أعلى درجة ممن غلب عليه خوف الوعيد، لأن قلب الأول متفاعل مع مضامين مقام الله تعالى، فهو في معنى الخشية، والله تعالى أعلم.

(وأما الإشفاق): فقال ابن منظور: والشَّفَق والشَّفَقة: رقَّة مِنْ نُصْحٍ أَوْ حُبّ يؤدِّي إِلَى خَوْفٍ. اهـ، وقال: وأَشْفَقْت عَلَيْهِ وأَنا مُشْفِق وشَفِيق، وَإِذَا قُلْتَ: أَشْفَقْت مِنْهُ، فَإِنَّمَا تَعْنِي حذِرْته، وأَصلهما واحد. اهـ من (لسان العرب). ومن جميل شعر العرب:

إذا تذكرتُ بِـنْـتي حين تندبُـني ... فاضت لِعَبْـرَةِ بِـنتي عَبْرتـي بدم

أحاذرُ الفقـرَ يـوما أن يُـلِمَّ بها فيهتك الستر عن لحم وعن وَضَم
تهوى لقائي وأهوى موتها شفقاً والموتُ أكرمُ نـزّال على الـحُـرُمِ
أي أهوى موتها شفقاً عليها من عواقب الفقر.

فمعنى قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾، أي هم من خشية ربهم في الدنيا مشفقون على أنفسهم أن يكونوا مقصرين في خدمة الدين والإعداد للآخرة؛ وهذا يدفعهم إلى العمل والإستباق والتقويم والتصحيح. ومن هذا المعنى كلام أهل الجنة كما في قوله تعالى ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الطور: ٢٥ – ٢٧، فتدبر أنه بسبب الإشفاق من خشية الله تعالى مَنَّ الله عليهم بثواب الآخرة.

والإشـفاق الذي يُقرِّب إلى الله تعـالى درجات، قال أبو إسـماعيل الهروي: الإشفاق دوَام الحذر مَقْرُونا بالترحم وَهُوَ على ثَلَاث دَرَجَات. الدرجَة الأولى إشفاق على النَّفس أَن تجمح إِلَى العناد وإشـفاق على الْعَمَل أَن يصير إِلَى الضّيَاع وإشـفاق على الخليقة لمعْرِفَة معاذيرها. والدرجة الثَّانِيَة: إشفاق على الْوَقْت أَن يشوبه تفرق وعَلى الْقلب أَن يزاحمه عَارض وعَلى الْيَقِين أَن يداخله سَـبَب. والدرجة الثَّالِثَة: إشـفاق يصون سَـعْيه من الْعجب ويكف صَاحبه عَن مخاصمة الْخلق وَيحمل المريد على حفظ الْحَد. اهـ من (منازل السائرين).

فينبغي أن يكون المؤمن مشفقاً على نفسه مما قدم لغد، ومدى حاجته للتغيير والتحسين في أجواء التنافس والمغالبة، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ الحشر: ١٨، الغد هو اليوم الذي يلي يومك، والعرب تكني عن المستقبل بالغد كما ذكر القرطبي وغيره، وتنكير «غد» ينبه إلى الإطلاق او العموم في أيام المستقبل لأن كل يوم من أيام المستقبل هو غد لليوم الذي سبقه. وفي هذا

تقريب للمستقبل وكأنه غدك، ويمكن لذلك استعارة قول الشاعر: «إن غداً لناظره قريب». وهذا مثل التعبير عن الماضي بالأمس، قال تعالى ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾ يونس: ٢٤.

وهذا بخلاف حال الظلَمة والمجرمين، فإنهم لا يشفقون على أنفسهم من خشية ربهم إلا بعد أن يُبعثوا، فلا ينفعهم الإشفاق، قال تعالى ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا .... ﴾ الكهف: ٤٩، وقال تعالى ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ الشورى: ٢٢. وسبب ذلك أن إشفاقهم في الدنيا لم يكن من خشية الله تعالى، ولكن كانوا يبالغون في الإشفاق خشية أن يقِلَّ مالهم او تقل متعتهم ولهوهم او تعترضهم مصاعب دنيوية، او كما عبَّر بعض السلف أنهم قد غمرهم الإشفاق رهبة الإملاق.

الفائدة الثانية: الإيمان، كما في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾.

فمما ذكرناه في (ثمار التنقيح) أن الإيمان بالشيء في العربية هو: الإعتقاد الذي تقتضيه صفات الشيء الذي نؤمن به، فالإيمان بالواحد الذي لا إله إلا هو يقتضي قبول عبادته وحده لا شريك له، كما قال تعالى ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٩٣. والإيمان بالرب الذي لا رب سواه يقتضي قبول القلب لأمره وتسليم الأمر إليه والكفر بأعدائه، وإنْ كان العمل بذلك ضعيفاً. وهكذا يُقال في سائر صفات الله تبارك وتعالى. بيان ذلك أن الألفاظ العربية لا توجد مجردة إلا في المعاجم والقواميس، والتي يقتصر بعضها على المعنى المشترك دون الزيادات واللوازم التي يقتضيها الإستعمال، وذلك من

أجل الإختصار واعتماداً على فهم القارئ. وأما في لغة لعرب التي نزل بها القرآن فلا توجد الألفاظ إلا ضمن كلام مفيد ومقيدة بقيود يقتضيها الإستعمال.

فالإيمان بآيات الله تعالى يتضمن اتباع ما فيها، وتحقيق الغاية من إنزالها، ونكتفي هنا بقوله تعالى ﴿ ... قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ الطلاق: ١٠ – ١١، فعلى قدر قوة الإيمان يحصل الخروج من الظلمات إلى النور.

يوضح ذلك أن «الإيمان» قد يُراد به في الإستعمال القرآني الإيمان الذي أدى إلى القيام بالواجبات وخدمة الدين، وليس مجرد الدخول في الإسلام، كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: ٢، وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ الحجرات: ١٥، فتدبر صيغة الحصر او المبالغة في عبارة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ﴾. وقريب من ذلك قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ الأنفال: ٧٤، فتدبر عبارة ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾، فلو كانت العبارة: أولئك مؤمنون حقاً، بتنكير المؤمنين، لجاز أن يشمل الوصف مؤمنين آخرين بأوصاف مغايرة، غير أن العبارة القرآنية خاصة بأولئك وبمن كان بمنزلتهم.

فهذا النوع من الإيمان هو الذي يؤهل لتحصيل السبق والمسارعة بالخيرات. وأما الإيمان الذي هو مجرد قبول الإسلام والدخول فيه، فهو إيمان صحيح ولكنه دون الإيمان المذكور قبل قليل، وقد ذكرنا تفاصيل ذلك في (ثمار التنقيح على فقه الإيمان).

الفائـدة الثالثة: السـلامة من الشـرك، كمـا في عبـارة ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾. فتدبر أن العبارة جاءت بجملة فعلية في سياق النفي، وهي كالنكرة المنفية تفيد العموم في نفي الشرك الجلي والشرك الخفي. الشرك في العربية هو أن يجعل الشيء لاثنين فصاعداً، فيستويان أو يشتركان في صفة معينة أو حق معين أو فعل معين أو غير ذلك، فالشرك ضد التوحيد والإخلاص والإسلام. يُقال: شارَكتُ فلاناً: صرتُ شَريكَهُ، واشْتَرَكْنا وتَشارَكْنا في كذا. قال تعالى ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ الزمر: ٨ ، الند هو الشريك في أمر مهم، وشأن الله في غاية الأهمية كله: صفاته ودينه وحقوقه على عباده. فكل من اعتقد نداً لله تعالى في حق من حقوقه عز وجل او في صفة من صفاته فقد أشرك، سواء عبد الطواغيت او الأصنام او غيرها، وقد ذكرنا تفاصيل ذلك في (ثمار التنقيح على فقه الإيمان)، ونحتاج هنا إلى تفسير مختصر لآيتين لهما صلة بما نحن فيه من الإستباق، وإلى ذكر أحاديث توضح حقيقة الشرك الخفي او الشرك الأصغر، فإن المسلم قد يقع فيه؛ ويُسمى بالشرك الأصغر لأن صاحبه يبقى في دائرة الإسلام وليس مرتداً، ولكنه ذنب عظيم.

وفي القرآن والسنة إيضاحات كثيرة:

منهـــا: قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الأنعام: ١٦٢ – ١٦٤، «المحيا» و«الممات» مصدران ميميان يجسدان أحداث الحياة والموت، وأمثال ذلك «المنقلب» فإنه يجسد أحداث الأنقلاب إلى نهاية المسار، وكأنها اجتمعت في المنقلب؛ وكذلك «المصير» فإنه يجمع مضامين الصيرورة إلى منتهاها؛ وكذلك المصدر الميمي في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ النجم: ٣٠، فكأن ذلك هو كل وغاية ما يمكن أن يصلوا إليه من العلم. وعلى ذلك، فإن عبارة ﴿ وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى ﴾،

تتضمن أحداث الحياة والموت. ولإيضاح ذلك على طريقة النحاة، يمكن حمل المعنى على مضاف محذوف، تقديره: أعمال الحياة وأعمال الموت، يؤيد ذلك أن عبارة ﴿ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ تتعلق بما قبلها كله، فكما يجب على المكلف أن يجعل صلاته كلها لله لا شريك له، ونسكه كله لله تعالى لا شريك له، فكذلك الحكم في أعمال الحياة كلها وأعمال الإعداد للموت كلها، والصيغة في الألفاظ الأربعة صيغة عموم لأنها نكرات مُعرّفة بالإضافة.

ويؤكد كل ذلك عبارة: ﴿ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ ﴾، أي ذلك كله وجب عليّ أن أفعله. فلو كان ما سبق ذكره خبراً محضاً، لكان المناسب أن يُقال: وبذلك أُخبرت او بذلك آمنت. معنى ذلك أن الخبر في آية الأنعام هو خبر عن حكم الشرع وليس خبراً عن واقع الحال. والمقصود هنا أن العمل لله تعالى يشمل مجالات الحياة كلها، الإجتماعية والتعليمية والثقافية والسياسية والإقتصادية والأمنية والدفاعية وغيرها، وكذلك التخطيط للموت كما يوضحه نحو قوله تعالى ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾ الفجر: ٢٣ – ٢٤؛ ويؤكد ذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ١٠٢. وكثير من الناس يفهمون كيف تكون الصلاة والصيام والحج والصدقة لله تعالى، ولكنهم لا يفهمون كيف يكون لله تعالى ما يأخذون عليه خيراً او ربحاً في الدنيا من تجارة او صناعة او زراعة او مهنة كالتعليم والطب والهندسة والإدارة وغيرها من أعمال الحياة. والذي أفهمه من آية الأنعام أن الخير من أعمال الحياة كلها ينبغي أن يكون لله تعالى بما في ذلك أخذ الأجرة والربح على العمل، فإنه العدل والنظام الضروري لأعمال الحياة، خاصة إذا اقترن بالإجادة والإتقان وباجتناب الإثم، وينبغي للمؤمن أن يستحضر النية وأن يدرب نفسه على هذا الأمر. يؤيد ذلك حديث أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ « وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ »، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا

أَجْرٌ؟ قَالَ: « أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ » رواه مسلم وغيره في سياق حديث، ومعنى «بضع أحدكم» أي مواقعة زوجته.

فلما كانت أعمال الحياة كلها يجب أن تكون لله رب العالمين لا شريك له كما نفهمه من عبارة ﴿ **وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي** ﴾، وذلك على أقل تقدير بنية الإقبال على الحلال لأنه حلال، والإبتعاد عن الحرام لأنه حرام عند الله، وبنية فعل الواجبات طاعة لله تعالى ولخدمة دينه، **فإن الشرك الخفي** هو أن يقوم الإنسان بعبادة او بأمر من أمور طاعة الله تعالى لا شريك له، فيجعل بعضه لغير الله. مثال ذلك أن يُحسِّن المسلم صلاته كي يظن الآخرون خشوعه، او يتصدق كي لا يُقال: بخيل. وهذا هو الرياء وهو من الكبائر، وقد قال تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ الماعون: ٤ – ٧، وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ١٤٢.

وأيضاً، فإن من يجعل أعمال حياته والإعداد لموته، يجعلها لله تعالى فإنه يحتاج إلى كثير من التفكير كي ينظم حياته فلا يؤدي تزاحم الأعمال إلى الفوضى، ويحتاج إلى تفكير بالأولويات وباغتنام الفرص في تنمية الخير وخدمة الدين. ومن هداه الله إلى ذلك، فإن يبلغ منزلة السابقين بإذن الله تعالى.

ومنهـــا: قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ البينة: ٥، قال الراغب: الخالص كالصافي إلّا أنّ الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصّافي قد يقال لما لا شوب فيه،

ويقال: خَلَّصْته فَخَلَصَ، فحقيقة الإخلاص: التّبرّي عن كلّ ما دون الله تعالى. اهـ من (المفردات). وقال ابن عاشور: وَالْإِخْلَاصُ: الْإِمْحَاضُ وَعَدَمُ الشَّوْبِ بِمُغَايِرٍ، وَهُوَ يَشْمَلُ الْإِفْرَادَ. وَسُمِّيَتِ السُّورَةُ الَّتِي فِيهَا تَوْحِيدُ اللهَّ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ، أَيْ إِفْرَادِ اللهَّ بِالْإِلَهِيَّةِ. اهـ من (تفسير سورة الزمر). ومن هذا المعنى نحو قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ البقرة: ٩٤، معنى ذلك أن أعمال الدين يجب أن تكون كلها لله تعالى لا شريك له.

ومنهـــا: حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال سَـمِعْتُ رَسُـولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ. » رواه مسلم والنسائي في (الكبرى). فهؤلاء أصابهم نصيب كبير مما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ الفرقان: ٢٣. وليتذكر المؤمن دائماً حديث عُمَرَ بْن الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: سَـمِعْتُ رَسُـولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى

امْرَأَةٍ ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه » رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان وغيرهم، والسياق من البخاري.

ومنهـــا: حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: « أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ.» رواه مسلم. فينبغي للمؤمن في عمله المهني أن يُجيد ويُتقن العمل إرضاءً لله تعالى، وليس تزلفاً للمدير او للمسؤول؛ وإنْ لم يكن هذا نفاقاً، فإنه شروع في طريق النفاق.

ومنهـــا: حديث مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ »، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهَّ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ « الرِّيَاءُ ، إِنَّ اللهَّ يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً » رواه الإمام أحمد بإسناد جيد كما ذكر الحافظ المنذري؛ ومحمود ابن لبيد مختلف في صحبته ، إلا أن الحديث قد رواه أيضاً الطبراني عن محمود عن لبيد عن رافع بن خديج، وإسناده جيد كما ذكر المنذري في باب الترهيب من الرياء من (الترغيب والترهيب ، ١/ ٦٨-٦٩).

وعن يَعْلَى بْن شَدَّادِ ابْن أَوْسٍ ، عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ « كُنَّا نَعُدُّ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهَّ ﷺ أَنَّ الرِّيَاءَ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ » رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

ومنهـــا: حديث ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: « مَنْ سَـمَّعَ سَـمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَائَى رَائَى اللهُ بِهِ. » رواه مسلم والبخاري. أي من أسمع الناس عن نفسه وأراهم عمله رياءً، فإن الله تعالى يجعل الناس يسمعون ويشهدون رياءه او معايبه. وقد يكون ذلك في الدنيا، ولكنه واقع قطعاً في الآخرة، ففي رواية « مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ يَوْمَ

القِيَامَةِ » رواه البخاري. وفي حديث آخر « مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ الله بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ » رواه الإمام أحمد.

ومنهــا: حديث أَسْـمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما قالَت جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنَّ لِي ضَرَّةً فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ أَتَشَبَّعَ مِنْ مَالِ زَوْجِي بِمَا لَمْ يُعْطِنِي؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ « الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ » رواه مسلم والبخاري وأبو داود وابن حبان وغيرهم. يشمل الحديث كل من يُظهر تحصيل فضيلة من علم او غيره او التشبع منها وهو ليس كذلك، فهذا يلبس ثوبين من الكذب، فإنه يكذب على الناس ويكذب على الـمُعطي. ويشمل هذا الحديث كل من يُخادع بكفاءة ليست فيه او بتدين خلاف باطنه او بمزايا قد تعرى منها.

ومنهــا: حديث أَبِي مُوسَى، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:« مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله » رواه مسلم والبخاري وغيرهما. فإذا كانت الحمية او العصبية الدنيوية ظاهرة على المقاتل وليست مطلية بطلاء الدين فإنها مذمومة جداً، ولكنها باب خاص غير باب الرياء. والذي يكون من نوع الرياء وأشـد هو العصبية للتيارات الفكرية والفقهية والمذهبية والحزبية. ونوع الرياء فيه، أن المتعصب يُظهر عصبيته بمظهر الدين، وإنْ كانت مجرد عصبية للمخلوق أي لما أحاط به من هذه التيارات. وأما ما هو أشد من الرياء، فذلك حين يبدأ المتعصب باختراع التبريرات والمسوغات المطلية بطلاء الدين، من أجل تلميع قادته وحزبه وتغييب الصورة الواضحة للحق؛ فيدخل بذلك في معنى كتمان الحق وتسويق الباطل، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ

ﭐللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ البقرة: ١٥٩ – ١٦٠، وقال تعالى ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ ﴾ فاطر: ٨. ثم يتفاقم الأمر حين تتحول التبريرات والمسوغات المفتعلة إلى قناعات لا أساس لها من الشرع، ولكن من ظلام النفس واتباع الشيطان؛ وهذا ما وقعت فيه بعض الأُمم السابقة، كما يوضحه قوله تعالى ﴿ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ آل عمران: ٢٤.

ومنهـــا: حديث ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَكَلَّمَهُ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، فَقَالَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « أَجَعَلْتَنِي للهِ عَدْلًا؟ قُلْ: مَا شَـاءَ اللهُ وَحْدَهُ » رواه النسـائي (فـي السـنن الكبرى) وأحمد وابن أبـي شـيبة، وفـي لفظ « جَعَلْتَ للهِ نِدًّا بَلْ مَا شَـاءَ اللهُ وَحْدَهُ » رواه الطبراني (في المعجم الكبير).

ومنهـــا: حديث البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﵁، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ الحجرات: ٤، قَالَ: قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُـولَ اللهِ إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « ذَاكَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ » رواه الترمذي والنسائي في (الكبرى) وصححه الألباني، ورواه ابن جرير الطبري بإسناد جيد متصل، كما ذكر ابن كثير في السيرة. ولهذا الحديث رواية أُخرى من طريق صحابي آخر عند الإمام أحمد وابن أبي شيبة. وهذا حديث في غاية الأهمية، فإن الثناء بخير او بشر إنما تكون له قيمة إذا استند إلى الشرع. ومن المأثور أن «ما رفعه الدين لا تضعه الدنيا، وما رفعته الدنيا عادت عليه فوضعته». فمن توهم أن حمده زين وأن ذمه شين لأنه ماهر في صناعة الكلام او في ترويج الإشاعات، فإنه ينازع الله تبارك وتعالى كما هو واضح من الحديث. ومن تدبر سيرة عثمان وعلي رضي الله عنهما يجد أن المطاعن الباطلة فيهما ملأت البلاد في عهدهما،

فلم يبق لتلك المطاعن أدنى قيمة، وبقي عثمان وعلي من كبار رواة القرآن الكريم عن النبي ﷺ، والأُمة كلها تحتاج إليهما وإلى أمثالهما إلى قيام الساعة، ولكن تحولت المطاعن بالحق على من أطلقها متعمداً.

ومنهـــا: قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ الشعراء: ٤٤، وعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ فَحَلَفَ رَجُلٌ بِالْكَعْبَةِ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَيْحَكَ لَا تَفْعَلْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهَّ فَقَدْ أَشْرَكَ » رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وصححه أيضاً الألباني.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: وَاللهَّ وَحَيَاتِك يَا فُلَانَةُ وَحَيَاتِي، وَيَقُولُ: لَوْلَا كَلْبُهُ هَذَا لَأَتَانَا اللُّصُوصُ وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا الله وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا فَإِنَّ هَذَا كُلَّهُ بِهِ شِرْكٌ. رواه ابن أبي حاتم، ونقله عنه ابن كثير وغيره.

الفائدة الرابعة: العطاء، وإدامة وتحسين العطاء. فلنتدبر عبارة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴾، قراءة عامة القراء متفقة على قراءة ﴿ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ ﴾، من الإيتاء أي العطاء. والمعنى: يُعْطُونَ مَا أَعْطَوْا، سواء كان عطاءً مالياً او غيره، فمن العطاء المالي نصوص إيتاء الزكاة ونحوها، ومن العطاء غير المالي نحو قوله تعالى ﴿ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ البقرة: ٥٣، وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ الأنبياء: ٥١، وقوله تبارك

وتعالى ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ الأنبياء: ٧٩، وقوله تعالى ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ البقرة: ٢٥١.

وأما كلمة ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾، أي خائفة، فالوَجَلُ هو الخوف كما في (تهذيب اللغة) او الفزع كما ذكر ابن سيده وابن منظور، من: وجِل يَوْجَلُ وَجَلاً فَهُوَ وَجِلٌ، وَالْأُنْثَى: وَجِلة، وَقوم وجِلون.

فمعنى الآية أنهم يعطون ما أعطوا من خدمة الدين وعطايا الخير، وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، فهم خائفون من الذنوب ومن التقصير. ومجال التقصير واسع جداً، واحتمالات حصول التقصير كثيرة. وخاصة حين نتعامل مع فرض المصابرة والمرابطة، فقد قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران: ٢٠٠، الآية الكريمة مطلقة في الأمر بالمصابرة والمرابطة أي المغالبة او المنافسة والإستباق، سواء كان ذلك في الواجبات العلمية او العملية، وقد سبق بيان ذلك في المبحث الثاني تحت عنوان «تركيز التفكير». ومما ذكرناه أن معنى الآية يشمل أمرين، **الأمر الأول**: غالبوا أنفسكم، أي غالبوا عوامل الملل والركود والتفلت. **الأمر الثاني**: غالبوا خصومكم في الصبر على مقتضيات المنافسة والمواجهة. **ولما كان أُفق المنافسة عالمياً**، فإن قلب المؤمن العاقل يكون دائماً وجِلاً أن يكون قد أخذ من الراحة أكثر مما ينبغي، او يكون قد قصر في إعطاء قواعد التفكير حقها او قصر في فحص أداء المنافسين والخصوم، او غير ذلك من مداخل الخطأ والتقصير. وينبغي لوَجَل المؤمن أن يقترن بالرجاء والأمل وليس باليأس، فإن رحمة الله تسع كل شيء للذين يتقون، فقد علمنا النبي ﷺ سيدَ الإستغفار، وفيه « أعوذ بك من شر ما صنعت »، ويشمل هذا الدعاء أن يعيذنا الله من نتائج وآثار الأخطاء والتقصير، وأن يبدل الله سيئاتنا حسنات وأن يبدل ضعفنا قوة. غير أن هذه المحاسن لا ترتمي على من آثر الراحة وابتعد عن الجهد والنصب،

ولكن ييسرها الله تعالى ويأتي بأسبابها، لمن اختار النصب واجتهد، قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩، والمحسنون هم المجيدون في التفكير بالخير والعمل به. وقال تعالى ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النجم: ٣٩ – ٤١.

وحاصل ذلك أن العطاء او عمل الخير، ينبغي أن يقترن بمكافحة أسباب الخطأ والتقصير، وكذلك مكافحة أسباب فشل التحسين المستمر وعدم التفوق في كل واجب قائم على المنافسة والمغالبة. ونختم هذه الفائدة بقوله تعالى ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾ البقرة: ١٤٨.

الفائدة الخامسة: تحصيل السبق والمسارعة في الخيرات. فتدبر عبارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾، أي: أصحاب الصفات المذكورة يسارعون في الخيرات وهم سابقون. وتوجد أمور توضح معاني العبارة:

(الأمر الأول): اسم الإشارة «أُولئك» يرجع إلى كل من سبق ذكره. يوضح الأمر أن ننظر من جديد إلى الآيات الخمسة، وهي قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾، فإن اسم ﴿ إِنَّ ﴾، هو ﴿ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴾ وما عطف عليه إلى قوله تعالى: ﴿ رَٰجِعُونَ ﴾، وخبر الجميع هو: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾، وهذا قول او معنى قول الطبري ومكي في (مشكل إعراب القرآن) والمنتجب الهمداني في (الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد) وأبي حيان

والمراغي وابن عاشور في تفاسيرهم، وقول غيرهم أيضاً. يؤكد ذلك تكرار الأسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ بعد الواو في الجمل العطوفة، ويفيد ذلك شمول أصحاب كل جملة بـ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ ... ﴾. فلو كان السياق: إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون وهم بآيات ربهم يؤمنون وهم ...، أي بدون تكرار الاسم الموصول، لكانت صفات متعددة لجماعة واحدة. قال ابن عاشور: وَتَكْرِيرُ أَسْمَاءِ الْمَوْصُولَاتِ لِلِاهْتِمَامِ بِكُلِّ صِلَةٍ مِنْ صِلَاتِهَا، فَلَا تُذْكَرُ تَبَعًا بِالْعَطْفِ. وَالْمَقْصُودُ الْفَرِيقُ الَّذِينَ اتُّصِفُوا بِصِلَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّلَاتِ. اهـ من (تفسير ابن عاشور). وربما يظن بعضهم أنها أربع صفات بينها تفاوت، فكيف تؤدي كلها إلى نتيجة واحدة وهي المسارعة في الخيرات والسبق لها؟ والجواب وبالله تعالى التوفيق: أنه توجد صفات وأعمال تؤدي إلى غيرها، نحو قوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ العنكبوت: ٤٥. فكل صفة من الصفات المذكورة في الآيات الأربع تؤدي إلى نفس مرتبطة بقوة بالله تعالى وبدينه، بسبب الإشفاق من خشية الله، او من طريق الإيمان القوي بالله تعالى، او من طريق اجتناب الشرك كله جليه وخفيه واجتناب فروع الشرك الخفي، فأعمال المؤمن كلها لله تعالى كما ذكرنا في معنى قوله تعالى ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾، او من طريق عطايا الخير والإزدياد منها خوفاً من عدم الكفاية كما تنبه إليه عبارة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾.

(الأمر الثاني): معنى عبارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾، كلمة «يسارعون» صيغة مفاعلة بين طرفين او أكثر، مثل: نازع وخالط وحاسب وصاحب وغالب؛ فإما أن تُحمل على هذا الأصل، ويكون معنى يُسارعون أي يُسابقون الآخرين في فعل الخيرات؛ وإما أن تُحمل على مفاعلة ذاتية، أي يسابقون دوافع الإبطاء والتراخي في أنفسهم وفي

العوامل المؤثرة عليهم. وهذا أصح من قول من أغفل صيغة المفاعلة وزعم أن يُسارعون بمعنى يُسرعون، وقد نقل القرطبي وأبو حيان عن الزجاج أن «يسارعون» أبلغ من «يسرعون». وفي جميع الأحوال فإن الإسراع يستلزم رغبة شديدة في فعل الخير، بل أشد الرغبة كما هي عبارة الزمخشري؛ ويستلزم كذلك مكافحة ومقاومة عوامل الإبطاء والتراخي. وتدبر ذكر الخيرات بصيغة الجمع التي تنبه إلى أن المسارعة في هذا المجال تؤدي إلى فعل خيرات كثيرة.

(الأمر الثالث): معنى عبارة ﴿ **وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ** ﴾، **أما اللام** في «لها» فهي للإختصاص او الإستحقاق او التمليك بحسب معنى السياق، ويشمل ذلك إيصال المعنى إلى جهة معينة أي خاصة، كإيصال السبق إلى ضمير الخيرات هنا، وسواء كانت اللام مكسورة مع الإسم الصريح او اسم الإشارة، نحو قوله تعالى ﴿ **لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ البقرة: ٢٨٤؛ اوكانت مفتوحة مع الضمير، نحو قوله تعالى ﴿ **بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ** ﴾ البقرة: ١١٦. **وأما الضمير في «لها»**، فإنه يعودُ على «الخيرات»، كما هو واضح، ولا حاجة إلى إعادة الضمير إلى معان مُفْتَرَضة. **وأما كلمة «سابقون»**، فالسابق هو الذي يصل بالخيرات قبل غيره، فهو اسم للفاعل الذي حقق السبق، هذا هو الأصل او الظاهر في الإسم المحض للفاعل (الاسم المشتق في مباحث الأُصوليين). ومثل هذا التركيب قوله تعالى ﴿ **أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ** ﴾ هود: ٢٨، فعبارة «كارهون» اسم للفاعل وتفيد حصول الكره في ذلك الوقت؛ وكذلك قوله تعالى ﴿ **مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ** ﴾ الأنبياء: ٥٢. ويمكن بدلالة قرينة استعمال اسم الفاعل للحدث المستقبلي، وهو مجاز عند عامة الأُصوليين، ويدل إما على تحقيق الحدث، ولكن في المستقبل، كقوله تعالى ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ**

ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ الأنبياء: ٩٨، او يدل على إرادة تحقيق الـهدف مستقبلاً، كقول القائل: إني فاعل ذلك لك، أي فاعله إن شـاء الله لك او لأجلك. ويمكن أيضاً أن يدل السياق على أن الفاعل كان فاعلاً في الماضي، وهو يدل أيضاً على أن الحدث حصل وكان موجوداً، ولكن في الماضي، كقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ الشعراء: ٢٠٨. وأما عند غياب ما يدل على المستقبل او الماضي، فإن اسم الفاعل يُعَبِّر عن حصول وتحقيق الفعل ووجوده مِن قِبَل الذين ذكرهم النص، وليس مجرد التحرك إليه.

وقد أدعى أبو حيان رحمه الله أن عبارة ﴿ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾، معناها: وهم إليها سابقون، وهذا ليس بصحيح لأنه يغير المعنى بلا دليل. فإن تقدير: وهم إليها سابقون، يقبل معنى أنهم لا يزالون في طريق الإستباق قبل بلوغ الغاية. ففي قوله تعالى ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ لقمان: ٢٩، قال العلامة فاضل صالح السامرائي: معناه لا يزال جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له. اهـ من (معاني النحو ٣/ اللام). وأما اللام في عبارة ﴿ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾، فهي لام الإختصاص والتملك وما يتفرع منهما، وهي متوافقة مع اسـم الفاعل في إفادة تحقيق السـبق، فالعبارة خبر عنهم يبين مهارتـهم في تحقيق الهدف.

وحاصل كل ذلك، أن عبارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾، تدل على المسارعة في السـعي في الخيرات، وأما عبـارة ﴿ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾، فتؤكد أنـهم سـاروا بقوة وتخطيط وإعداد، فنجحوا في مسـعاهم وسـبقوا في تحقيق ما يـهدفون إليه، فصفة العطاء غالبة عليهم.

وتوجد أقوال للمفسـرين تجري على معنى ما ذكرناه وذكره الزمخشـري، **قال الماتريدي**: يحتمل، أي: سـبقوا أُولَئِكَ الكفرة بـها. اهـ، **وقال الرازي**: فَالْمَعْنَى فَاعِلُونَ

السَّبْقَ لِأَجْلِهَا أَوْ سَابِقُونَ النَّاسَ لِأَجْلِهَا أَوْ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ أَيْ يَنَالُونَهَا قَبْلَ الْآخِرَةِ حَيْثُ عُجِّلَتْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا. اهـ، **وقال أبو البقاء العكبري**: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَهُمْ لَهَا ﴾؛ أَيْ لِأَجْلِهَا. وَقِيلَ: التَّقْدِيرُ: وَهُمْ يُسَابِقُونَهَا ؛ أَيْ يُبَادِرُونَهَا ؛ فَهِيَ فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ ؛ وَمِثْلُهُ: ﴿ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾ المؤمنون: ٦٣، أَيْ لِأَجْلِهَا وَإِيَّاهَا يَعْمَلُونَ. اهـ ، **وقال ابن عاشور**: وَمَعْنَى وَهُمْ لَهَا سابِقُونَ أَنَّهُمْ يَتَنَافَسُونَ فِي الْإِكْثَارِ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ، فَالسَّبْقُ تَمْثِيلٌ لِلتَّنَافُسِ وَالتَّفَاوُتِ فِي الْإِكْثَارِ مِنَ الْخَيْرَاتِ بِحَالِ السَّابِقِ إِلَى الْغَايَةِ، أَوِ الْمَعْنَى وَهُمْ مُحْرِزُونَ لِمَا حَرَصُوا عَلَيْهِمْ، فَالسَّبْقُ مَجَازٌ لِإِحْرَازِ الْمَطْلُوبِ لِأَنَّ الْإِحْرَازَ مِنْ لَوَازِمِ السَّبْقِ. اهـ.

ومن باب السبق أيضاً، قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فاطر: ٣٢، أي: ومنهم من حقق السبق بإذن الله، أي بفضل الله وتوفيقه. ولو كانت العبارة: متسابقون او مستبقون لجاز أن يُقال إنهم في طريق الإستباق.

(الأمر الرابع): تحقيق الهدف، نعود إلى عبارة ﴿ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾، أي حققوا السبق وبلغوا غايتهم كما ذكرنا قبل قليل، معنى ذلك أن الثناء العظيم وما يتبعه من أجر ليس مقصوراً على السير في الطريق بصرف النظر عن تحقيق او عدم تحقيق الهدف، بل يشمل بدرجة كبيرة تحقيق الهدف. معنى ذلك وجوب بناء مهارات تحقيق الأهداف وما تقتضيه من جودة التفكير والإعداد والتخطيط. وهذا أمر في غاية الأهمية، فإن مقولة: «علينا بالعمل، والنتائج على الله»، قد تؤدي إلى مفاهيم خاطئة، منها إغفال ربط النتائج بالأسباب، علماً أننا مأمورون بإعداد الأسباب لتحقيق النتائج. فقد قال تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا۟

لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ... ﴾ الأنفال: ٦٠، وقال تعالى ﴿ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ ﴾ التوبة: ٤٦.

وتدبر قوله تعالى ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ عبس: ٢٣، فإنه إنكار شديد على من لم يقض ما أمره الله. وقضاء الشيء هو إحكامه والفراغ منه أي فعله وإتمامه؛ ومنه قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ ﴾ النساء: ١٠٣، أي إذا فعلتم واتممتم الصلاة فأذكروا؛ وقضى فلان طوافه أي فعله وأتمه، وقال تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ﴾ القصص: ٢٩، أي أتم أجل العمل وفرغ منه. **وقال الأزهري**: قَالَ ابْن الْأَعرَابِي: وَقَالَ الله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ الأنعام: ٨ ؛ قَالَ أَبُو إِسْحَاق: معنى قُضِي الْأَمر: أُتمَّ إهلاكُهم. قَالَ: وَقضى فِي اللُّغَة على ضرُوب كلُّها تَرجع إِلَى معنى انْقِطَاع الشيءِ وتمامِه، وَمِنْه قَوْله جلّ وعزّ: ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗا ﴾ الأنعام: ٢، مَعْنَاهُ: ثمَّ حَتَم بذلك وأتَـمَّه. وَمِنْه الْأَمر، وَهُوَ قَوْله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الإسراء: ٢٣، مَعْنَاهُ: أَمر، لأنّه أَمرٌ قَاطع حَتْم. اهـ من (تهذيب اللغة). **وقال ابن فارس**: الْقَافُ وَالضَّادُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْكَامِ أَمْرٍ وَإِتْقَانِهِ وَإِنْفَاذِهِ لِجِهَتِهِ، قَالَ تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾ فصلت: ١٢، أَيْ أَحْكَمَ خَلْقَهُنَّ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة).

فلو كان التقويم بالنتائج غير مطلوب لأوجب الله تعالى السعي فقط للأمر الشرعي وليس بقضاء الأمر. ويوجب ذلك عناية فائقة بالتخطيط للمستقبل وحسن إدارته ومكافحة عوامل الفشل في تحقيق الأهداف. ومن أسباب الفشل عدم الإعتداد بالأمر الواقع، مما يؤدي إلى إهمال التدرج والمرحلية، وإغفال مقتضيات الضرورة، ونسيان

مقتضيات الضرورة المتراخية. وذكرنا تفاصيل كثيرة عن إعداد المشاريع والأهداف والتخطيط لها، وذلك في (نخبة المسار) وما يتصل بها في (المنطلق).

وربما يعترض بعضهم بنحو قصة نوح عليه السلام، وكيف سعى زمناً طويلاً يدعو قومه إلى الإسلام، فأصر معظمهم على الكفر. وهذا اعتراض ضعيف، فإن الله تعالى أمرنا بالدعوة إلى الإسلام وهذا ما يجب أن نقضيه ونجدد العمل به، ولم يأمر الله بأن نجعل غير المسلم مسلماً. وتدبر صيغة الحصر او المبالغة في نحو قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ ص: ٦٥. وقال تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ القصص: ٥٦.

وتدبر حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، أَنَّ رَسُـولَ الله ﷺ قَالَ: « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله » رواه مسلم والبخاري وأحمد وغيرهم. فإن لام التعليل في بداية عبارة « لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا »، تقديرها: لأجل أن تكون ....، معنى ذلك أن عاقبة العمل او التقويم بالنتائج والمآلات جزء أساسي من تقويم العمل الجهادي وغيره، وقد يُطلق عليه: «التقويم بالجدوى»، فإذا كانت نتيجة العمل الجهادي إعلاء كلمة الله تعالى مع الإلتزام بشـروط العمل العسـكري فهو في سـبيل الله تعالى. وسبق أن ذكرنا تفاصيل مهمة أُخرى في تفسـير هذا الحديث، تحت عنوان «التفكير بالمآلات والغايات».

(الأمر الخامس): لمن أراد المزيد، فقد ذهب الإمام الزمخشري رحمه الله ومن وافقه إلى جواز المعنى الذي ذكرناه في تحقيق الهدف، ولكنه استخرجه بطريق آخر. فقد نقل السمين الحلبي عن الزمخشـري أنه قال: أي فاعلون السَّـبْقِ لأجلها أو سـابقونَ الناسَ لأجلها، أو إياها سابقون أي: ينالونها قبل الآخرة، حيث عُجِّلت لهم في الدنيا. قلت (القائل هو السمين الحلبي): يعني أنَّ «لـها» هو المفعولُ بـ: «سابقون» اهـ، وسـبق أن

قال السمين الحلبي: وتكونُ هذه الجملةُ [أي: « وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ »]، مؤكدةً للجملةِ قبلها، وهي: ﴿ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾، ولأنها تفيدُ معنىً آخرَ وهو الثبوتُ والاستقرارُ بعدما دَلَّتِ الأولى على التجدد. اهـ من (الدر المصون). وقد رد السمين الحلبي اعتراض أبي حيان على الزمخشري.

(الأمر السادس): ويتصل بالمسارعة والمبادرة قوله تعالى ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ هود: ٥٢، في الآية الكريمة مرحلتان: طلب المغفرة ثم التوبة، فأما عبارة ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾، فإن من مضامين طلب المغفرة أن يعترف الإنسان بذنبه وبخطئِه وتقصيره وتأخره ويندم عليه، ويطلب من الله تعالى أن يغفر له ويتجاوز عنه. وينبغي لهذه المرحلة أن تكون قصيرة كي يَتحوَّل المؤمن إلى التوبة، وهي ما يقوم به العبد المؤمن من تغيير وتحسين كي يعصمه الله تعالى من الكبائر والإصرار. وينبغي المبادرة إلى الإستغفار ثم المبادرة إلى التوبة فإنها واجبة، كما أن إطالة الأمد قد يصير تسويفاً ويؤدي إلى قسوة القلب أي ضعف او عدم استجابة القلب للمؤثرات الشرعية. قال تعالى﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ الحديد: ١٦.

قواعد في اغتنام
وفي صناعة الفرص

أنواع الفرص:

(النوع الأول): الفرص العامة والشائعة؛ وهي مِنْ فرص الحياة اليومية إلى الجنة والمغفرة والرحمة، ويستطيع كثير من المؤمنين اغتنامها، بنشاط فردي او بمجموعة صغيرة، كمساعدة فقير او نصرة مظلوم او عيادة مريض او تعليم جاهل او دعوة إلى خير او إصلاح بين طرفين او حضور جماعة او غير ذلك من وجوه الخير الكثيرة. وهذا النوع من جملة مضامين قوله تعالى ﴿ **لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ النساء: ١١٤، وتدبر الثناء العظيم على النجوى المستثناة، كما في عبارة ﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ** ﴾، فإنها تشمل مجموعة النجوى كما يقتضي السياق، وتشمل بلفظها كل فرد يفعل شيئاً من ذلك، كما أنها مطلقة في الصدقة وفي المعروف وفي الإصلاح بين الناس، فتشمل من سعى بمعروف محدود جداً، ومن سعى بمعروف عظيم واسع الإنتشار.

وتدبر في ذلك حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللهِ، دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ لَكَ، وَلِلْجَنَّةِ أَبْوَابٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ »، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَلْ عَلَى مَنْ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلِّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ « نَعَمْ، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ » . رواه الإمام النسائي والبخاري وابن حبان. وفي رواية صحيحة أخرى عن أبي

ذر قال: وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ « مَا مِنْ رَجُلٍ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَـبِيلِ اللهَّ إِلَّا ابْتَدَرَتْهُ حَجَبَةُ الجْنَّةِ »، قُلْتُ: وَمَا زَوْجَانِ مِنْ مَالِهِ؟ قَالَ: « عَبْدَانِ مِنْ رَقِيقِهِ، فَرَسَانِ مِنْ خَيْلِهِ، بَعِيرَانِ مِنْ إِبِلِهِ » رواه ابن حبان وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط، وظاهر السياق أن تفسير الزوجين جزء من الحديث المرفوع، وهو كذلك في رواية للطبراني والبزار ، والله تعالى أعلم. وقد ذكرنا تفسير الحديث في الكلام عن «المصابرة والمرابطة» من (المنطلق).

(النوع الثاني): فرص تنمية النفس او المجموعة او المؤسسة او نحو ذلك. قال تعالى ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٥١. سيأتي تفسير الآية في المبحث الخامس إن شاء الله تعالى، المهم هنا أن «التزكية» هي التنمية بالخير من النفع المادي والمعنوي، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال « احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ » رواه مسلم وأحمد والنسائي في (الكبرى) وغيرهم في سياق حديث، وصححه الألباني وغيره. فينبغي لكل مؤمن أن يعمل لتنمية نفسه دينياً واجتماعياً ومهنياً، وكذلك تنمية شعوره بالمسؤولية ضمن الجماعة؛ معنى ذلك أن يبحث عن فرص التنمية وأن يغتنم ما هو أفضل له. وحدود التنمية المشروعة مفتوحة، وشرطها في المنافع الشخصية المحضة أن لا تؤدي إلى تفريط في الإلتزامات الشرعية. وأما التنمية التي تخدم الدين فينبغي أن تُبنى على الإستباق العالمي والمغالبة، وتُغتنم أنواع الفرص من أجل السبق. وحكم الأفراد يشمل المؤسسات والجماعات بصورة أشد. وبالجملة، فإن حجم الفرص يتفاوت جداً، فيمكن أن تكون فرصة عابرة محدودة مثل الحصول على سعر منخفض لسلعة استهلاكية، ويمكن أن يكون حجم الفرصة عظيماً عند الله تعالى، كالسبق بالخيرات التي تجعلك من المقربين، وبين هذا وذاك مراتب كثيرة.

وسنذكر في النوع الرابع ما يتصل بهذا النوع إن شاء الله تعالى.

(النوع الثالث): فرص النفع العام. وهي الكلمة او القرار او العمل، تنفع به جماعة كبيرة او شعباً او أُمة. ولا فرق في ذلك بين النفع المباشر، والنفع عن طريق منع او إبعاد الضرر. ونرجع إلى نحو قوله تعالى ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ يس: ١٢. وواضح أن الفرق كبير بين من انتشرت آثاره في عشرة مواضع، ومن انتشرت آثاره في ملايين المواضع.

ويعمل هذا الأصل في المنافع والمضار او الحسنات والسيئات، كما هو العموم في عبارة ﴿ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾.

فمن النصوص الخاصة بالمضار او السيئات، حديث أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ. » رواه مسلم وأحمد وأبو يعلى، ورواه البخاري مختصراً. وفي رواية: « لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. » رواه مسلم. الغدر في الأصل ترك الوفاء، وهو هنا ترك الوفاء بحق الرعية على الأمير؛ واللواء هو الراية العظيمة، وأصل رفع اللواء أنه للشهرة والعلامة. ولما كان الغدر مكتوماً ومستتراً به او مُزَيناً مُزخرفاً في الدنيا، شهر به صاحبه في الآخرة، ليفتضح به على رُؤُوس الْأَشْهَادِ؛ وَالِاسْتُ الدُّبُرُ، وقد يكون كناية عن الظهر كما في بعض كتب شرح الحديث. وتدبر أن راية الفضيحة تُرفع بقَدْر الغدر، ثم تدبر عبارة « أَلَا وَلَا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ. »، العامة خلاف الخاصة، فالظاهر أنه أمير مدينة او دولة، فإن الشعب هو العامة التي تجمع المجاميع الخاصة (المهنية والإقتصادية وغيرها). فلا يوجد غادر أعظم من هذا لأنه غدر بعدد كبير جداً من الأُمة وربما يقتدي به من يأتي بعده من الأُمراء. والأمر واضح جداً فيمن ختم حياته بأن غدر بالأمة. وقد ذهب بعض العلماء إلى تفسير عبارة « أَمِيرِ عَامَّةٍ. »، بأنه تولى الإمارة

بمساندة العوام غير المؤهلين، أي بمعزل عن أهل الحل والعقد المؤهلين للتصدي للمصالح العامة. قال الإمام الطيبي: يريد بـ: « أمير العامة » من قدمه العوام وسفلات الناس، ولم يكن له استحقاق ولا لأهل الحل والعقد، من خواص الناس عليه اتفاق. من (شرح المشكاة)، وهو قول صاحب (مرقات المفاتيح) أيضاً، وهذا المعنى مشمول بالحديث، غير أن العامة خلاف الخاصة، فكان أعظم الغدر غدر أمير عامة لأنه غدر بعامة الأمة من أهل الحل والعقد ومن غيرهم.

ومن النفع العام عن طريق دفع الضرر، قوله تعالى ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ الكهف: ٩٥، أي ما مكني فيه ربي خير مما سألتم، أي خير من السد، فجعل ردماً بينهم وبين يأجوج ومأجوج. والردم يغلق المنافذ كلها كالدفن، ولا زلنا إلى اليوم ننعم بردم ذي القرنين، رحمه الله تعالى.

فلا شك أن باب جلب المصالح العامة ودفع المفاسد العامة، فيه أجر عظيم إلى الغاية، وينبغي لكل مؤهل أن يبحث عن الفرص المشروعة إليه.

(النوع الرابع): الفرص التخصصية وبناء الخبرات. يوضح الأمر أن استقلال الدولة ليس بتام إلا إذا كانت تمتلك خبرات ذاتية كبيرة ومنافسة في عامة المجالات الضرورية كلها، كالعلوم التي يقوم عليها بناء المجتمع، وبناء الدولة وإدارتها وإدارة علاقاتها، والعلوم التي تقوم عليها الصناعة والزراعة والتجارة وغيرها. فإذا كانت الخبرات كثيرة ومتفوقة، فإن العالم سيحتاج إلينا وسيفتح لنا فرصاً كثيرة، تُساعدنا في النمو والتطور. وأما إذا كانت الخبرات الذاتية قليلة وضعيفة في كثير من المجالات، فإننا سنحتاج إلى تحصيل فرص للبداية ولوضع الأُسس. وتدبر قوله تعالى ﴿ .... فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ الرعد: ١٧، فمقدار وحجم الفرص التي يمكن أن تنالها يعتمد على ثلاثة أمور، **الأمر الأول**:

مدى قدرتك على إبعاد الزبد والغثاء، وتنقية الأجواء للحق وللمنافع الحقيقية. **الأمر الثاني**: مقدار ما تُنتج مما ينفع الناس معنوياً ومادياً، وهذا يجعل الفرص تأتيك طوعاً. **الأمر الثالث**: أن تكون أنت صاحب القرار فيما تملك، فقد قال تعالى ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ النحل: ٧٥. وذكرنا في (نخبة المسار) تفسيراً مفصلاً لآية الرعد.

(النوع الخامس): الفرص الخبيثة او فرص الفساد. ففي وصف الباحثين عن الفرص الخبيثة قوله تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ الأعراف: ١٤٦، وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ آل عمران: ١٧٦، وقوله تعالى ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ المائدة: ٥٢، وقوله تعالى ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ المائدة: ٦٢.

وعلى المؤمن أن يُحصن نفسه كي لا ينال الخبث منه، قال تعالى ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ الحج: ٣٠، وقد تقدم تفسير الآية الكريمة في الفائدة الرابعة/ المرتبة الثالثة، مما تحت عنوان «صيانة النفس من استهواء الشيطان».

التأهيل للسبق ولاغتنام الفرص:

(الأداء الفكري المحكم): ولنضرب مثلاً واضحاً: المزارع، وكيف يفكر في إعداد أرضه وما تحتاجه من سقي وسماد وبذور وترقب الموسم المناسب، وغير ذلك من أسباب جودة الإنتاج. وكذلك الأمر وإن كان أكثر تعقيداً في المجال السياسي والإقتصادي والدفاعي والأمني ونحوها، فالسياسي مثلاً يجب أن ينظر في كل ما يُحتمل أن يؤثر على بلاده من الداخل والخارج، ويشمل ذلك الواقع القائم وما يُحتمل أن يقع. وتدبر في ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة: ٢٥١ ، وقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٩؛ فعلى السياسي المخلص تتبع أخبار السياسة الدولية، الظاهر منها والكامن، وتتبع الصراع الدولي وما يمكن أن يُحدِثُه من تحولات؛ وأن يفكر بما عنده وبما عند الآخرين، وبما يريد تحصيله، كي يستطيع أن يخطط لصناعة الفرص، ونحو ذلك في المجالات الأُخرى. وقد ذكرنا جملة كبيرة من المهارات الفكرية في هذه الدراسة، وفي (المنطلق) وفي (نخبة المسار). ومن الأُمور المهمة هنا: صفة الصياد الماهر التي ذكرناها في الفائدة الرابعة تحت عنوان: «الأمر بالمبادرة»، كما ذكرناها في (نخبة المسار)، ويحتاج الصياد إلى التوسع والتدقيق في دراسة مجال نشاطه. معنى ذلك هنا، أن الصياد لا ينتظر أن تُعرض عليه الفرص، بل هو خبير في تشخيص الفرص الكامنة او الخفية في مجاله لأنه قد توسع في دراسة مجاله والإشتغال والإهتمام به، فصياد الفرص السياسية هو غير صياد الفرص الثقافية او الاقتصادية او الأمنية. وبخلاف ذلك، فإن الصياد او الراصد لن يرى فرصته لأنها تأتي ضبابية او غير صريحة، ولذلك قيل:«إن الفرص تأتي متنكرة وتذهب ساخرة»، وهذا هو السر وراء تضييعها في كثير من الأحيان.

(الصفات الأربع): وهي الصفات المذكورة في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ المؤمنون: ٥٧ – ٦١. وقد تقدم قريباً تفسير مفصل لهذه الآيات. ونهدف هنا إلى أمرين، **الأمر الأول**: أن المؤهل بهذه الصفات سوف لن يقف عند حد في مجال مسؤوليته، بل يستمر بالتحسين والإزدياد، خشية الحساب في الآخرة، فهو حريص على السبق. **الأمر الثاني**: أن المؤهل بهذه الصفات سوف يلتزم بالمشروعية، ولن يحيد عنها من أجل كسب غير مشروع او لمجرد الإنتقام او شبه ذلك من دوافع النفس. وأما الظالم الفاجر فقد يسبق بالمنكرات ويسارع ، كما ينبه إليه قوله تعالى ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأعراف: ٨٠، وقوله تعالى ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ المائدة: ٦٢.

(الإقتحام على بصيرة): أي اقتحام العقبات والمصاعب، وعدم الإقتصار على الأُمور السهلة، فإن الفرص الكبيرة تكون مع المصاعب والمشاق. وقد سبق بيانه في تفسير قوله تعالى ﴿ .... فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ .... ﴾ البلد: ١١.

(الوجهة المختارة): أي دراسة مجال تنافسي بأُفق فكري متين والتفوق فيه. يوضح الأمر أن الفرص لا ترتمي علينا من غير وجود عوامل استقبالها او البحث عنها او صناعتها. فينبغي لكل مستطيع من المؤمنين أن يرابط على مجال معين وأن يركز عليه، وقد تكلمنا في المبحث الثاني عن «تركيز التفكير». ويحتاج ذلك إلى أُمور، **الأمر الأول**:

التعرف الجيد إلى الأُفق العالمي في هذا المجال. **الأمر الثاني**: منهج التنافس والمغالبة العالمية. **الأمر الثالث**: أقصى ما يمكن من استخراج المعاني الكامنة في القرآن الكريم مما يتصل بمجال المرابطة، وذلك بالإنتفاع بـ: «ختمة التدبر»، وقد سبق التنبيه إلى أهميتها، وذكرناها بقَدْر من التفصيل في (نخبة المسار/ تحت عنوان: «الهداية المستمرة»). **الأمر الرابع**: الغاية من المصابرة والمرابطة هو بلوغ التفوق النوعي، وقد تكلمنا عنه في المبحث الثالث من (وِجْهَة اللِّواء في فقه الأمن والدفاع). فمن سار على هذا المنهج، فإنه سيجد بإذن الله تعالى الفرص التي يحتاجها، وعليه أن يجتهد في طرق اغتنامها.

عوامل مهمة في التعامل مع الفرص:

فمن هذه العوامل بالإضافة إلى ما سبق ذكره:

(رصد الفرص): ويتصل ذلك بما ذكرناه قبل قليل عن وظيفة الصياد، غير أن الرصد أوسع لأنه يتضمن الإعداد. فالرصد لأمر هو الرقابة وتتبع الأنشطة مع الإعداد لخدمة ما تقتضيه الأحداث. يُقال: رَصَدَه يَرْصُدُهُ رَصْداً ورَصَداً، ومنه: رصَدَ العدوَ أي راقبه متتبعاً لحركته ودوافعه، والرَّصَدُ هم القوم الذين يرصُدون كالحَرَس، وتراصد الرجلان، أي راقب أحدهما الآخر. والفرق بين الرصد والترقب، أن الترقب يعني الإنتظار مع ملاحظة الأحداث للإحتراز من الشر، كما في قوله تعالى ﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ ﴾ القصص: ١٨، غير أن الرصد أقوى من الترقب في تضمن التأهب والإعداد الذي يتطلبه الموقف. وقد نقل ابن فارس عن الكسائي قال: رَصَدْتُهُ أَرْصُدُهُ، أَيْ تَرَقَّبْتُهُ، وَأَرْصَدْتُ لَهُ أَيْ أَعْدَدْتُ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة)، ونقله أيضاً الأزهري في (تهذيب اللغة) عن الأصمعي والكسائي. ويُقال: أرصدت له مالاً أي أعددته له، ومنه الحديث « إِلَّا دِينَاراً أُرْصِدُهُ لِدَيْن »، والرَّصائدُ الوصائِد: مصايدُ تُعدّ

للسّـباع. وقال تعـــالى ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ التوبة: ١٠٧، أي ترقباً وانتظاراً وإعداداً لاستقبال من حارب والتعاون معه، وكذلك قوله تعـــالى ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ الفجر: ١٣ - ١٤، بتقدير: إن ربك لهم ولأمثالهم لبالمرصاد، أي يرقبهم وقد أعد لهم في الدنيا والآخرة ما تقتضيه أعمالهم.

فعلى راصد الفرص، أن يدرس بتفصيل ودقة مجاله الذي يرابط عليه، وكل ما يتصل به او يؤثر عليه من العوامل الداخلية والخارجية، ويستعمل ما سبق ذكره من مهارات التفكير، ليضع قائمة بما يحتاج إلى تحصيله من مصالح كبيرة، وما يحتاج إلى دفعه ومنعه من مخاطر ومضار، في الحاضر وعلى المدى الزمني الوشيك والقريب والمتوسط والبعيد . وبعد كل ذلك، تزداد فائدة الرصد، بأن يفكر الراصد جيداً ما هي فرص تحصيل مصالح كبيرة، وفرص اجتناب المضار والمخاطر خلال المديات الزمنية المذكورة، وهل يمكن أن أفعل شيئاً لتقريب الفرصة او تحقيقها؟ وبعض الفرص تحتاج إلى ترقب وانتظار، وتحتاج في كثير من الأحيان إلى تحريك أفكار بطريقة ذكية، وكأنها عمليات دبلوماسية غير رسمية ومن بُعد؛ وهذه مهارة في غاية الأهمية، وقد تكلمنا عنها في (نخبة المسار) تحت عنوان «إدارة الفكرة والكلمة»، وقد يتم بها تحقيق مكاسب عظيمة. وقد يؤدي تحريك الفكرة إلى تحقيق رسالة لا مركزية، وكأنه تنظيم غير حزبي ولا إداري. وقد يحتاج نيل الفرصة إلى صناعة حدث معين.

(الإنتظار الإستراتيجي): وقد ذكرنا هذا العنوان بالتفصيل في أواخر (نخبة المسار)، ونكتفي هنا بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ فاطر: ١٠، فتدبر إدخال الضمير «هو» فإنه زيادة لفظية تفيد تأكيد إلصاق معنى الخبر بالمبتدأ وكأن البوار وصف ثابت لمكرهم فلا يزول البوار بتغير

العوامل الخارجية، وهذا كنحو قوله تعـــالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ التوبة: ١٠٤، هذا سواء جعلت الضمير المتوسط ضمير فَصْل او توكيد او جعلته مبتدأً. والبوار هو فرط الكساد والهلاك، والمبير المهلك . غير أن الذبول الذاتي او التلقائي لا يعني مجرد الإنتظار وترك العمل، ولكنه يشجع على ثبات النفس والتنمية في ظل إنزواء ظاهري، وكذلك ما يمكن من العمل المضاد لتسريع بوار الظلم. المهم هنا أن مكر الظالمين يحمل في داخله عوامل الكساد والذبول بصرف النظر عما يأتيه من كوارث وضربات، وذلك بسبب قيامه على الباطل (أي الزائل بسبب فساد صفاته) وعلى التحلل من القيم السامية. ويستعمل بعض خبراء السياسة الغربيين عبارة «الإستسلام التكتيكي» لوصف العمليات المقصودة لاجتناب المواجهة. وعلى أي حال فإن كل مجال تمت محاصرته من كل جهة فإن الدخول فيه على سبيل المواجهة يعني تهلكة أكيدة او استسلام، كما هو حال الجيش المحاصر. والحل هو إما في المناورة أي التحرك إلى مجال آخر غير مُستهدف، او التراجع او تقديم تنازلات تقبلها ضوابط الضرورة والتقية، وقد بينا أصول ذلك في (المنطلق). وبهذه الرؤية فإن بعض مراحل الإنتظار الإستراتيجي سوف تقترن بفرص كبيرة بإذن الله تعالى. ولإبن المقري شعر جميل في ذم ركوب الغرر والمجازفة بلا رؤية:

وما ناطح الصخر الأصم مميز	ولا اجتر ذو عقل قياد الردى خرطا
ولا ركب الإِنسان في الناس مركبا	أضر من الجهل المضر ولا استمطى
ألا ربما كان الجهول بجهله	على نفسه مما يحاربه اسطا
إذا جمحت خيل المكائد عندنا	ضبطنا بحسن الرأى أرسانها ضبطا

(عدم إعطاء فرصة للخصم): وهذا أصل في غاية الأهمية، ويشمل مجالات كثيرة، سياسية واقتصادية ودفاعية وغيرها، ويعبر عنه بعضهم بمهارة اجتناب الإستدراج

إلى الأرض الرخوة. ويتصل بذلك مهارات المناورة ومنها عمليات التخطي والتجاوز، أي تجاوز ما يطمع الخصم أن تدخل فيه.

فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ النساء: ١٤١، الآية الكريمة نفي بمعنى النهي. يوضح الأمر أن كل خبر في القرآن الكريم يمكن أن يكون الواقع مخالفاً له، فهو خبر عن حكم الشرع وليس خبراً عن الواقع على الأرض، وفي هذا الأصل شواهد كثيرة في القرآن الكريم وفي كلام العرب، منها قوله تعالى ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ البقرة: ١٩٧. فمعنى آية النساء أنه يجب العمل على الإجتناب التام للوقوع تحت نفوذ الكافر او تقليل ذلك إلى أقل ما يمكن عند الإضطرار إليه وبصرف النظر عن كونها ضرورة حاضرة او متراخية. وبعبارة أُخرى يجب اجتناب التصرف الذي يُعطي الخصم سلطة للنيل منك معنوياً او مادياً. وتُراعى في هذه المساعي قواعد إدارة القوة او قواعد إدارة الضعف في حال الضعف، وقد تكلمنا عن إدارة الضعف في أواخر (نخبة المسار). وهذا أصل واضح في السيرة النبوية في العهد المكي، ثم السياسات النبوية مع الأمم في العهد المدني. ومن يجهل هذا الأصل فإنه قد يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، إما بتقصيره او غلوه في إدارة القوة، وإما بتقصيره في إدارة الضعف. وكما يقع ذلك في المجال السياسي والعلاقات الدولية، فإنه يقع كذلك في المجال الجنائي والأخلاقي والعلاقات المدنية بين المسلمين وغيرهم، مثاله نقل الإجماع على قطع المسلم إذا سرق ذمياً. غير أن الأمر أوسع وأخطر في المجال السياسي، فيجب على المسلم أن لا يجازف بلا نظر في العواقب، بل يجب عليه مراعاة أن لا تؤدي تصرفاته إلى زيادة نفوذ الكافر عليه. وما ذهبنا إليه يحافظ على ظاهر العموم والإطلاق في ألفاظ آية النساء، فهو أولى من المذاهب التي تخصص الآية بأحوال الآخرة او تخصصها بقوة الحجج وليس بنفوذ السلطة، ونحو ذلك مما ليس عليه دليل من التخصيصات. وما ذكرناه، فعليه عمل وفتاوى الفقهاء، خاصة الشافعية والحنفية، في كثير من أبواب الفقه.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ البقرة: ١٥٠، فتدبر عبارة ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾، فإنها تصلح أن تستقل بحكم عام يشمل أمر القبلة وغيره. وذلك أنه يجوز أن تكون اللام في «لئلا» متعلقة بمحذوف، تقديره: أمرنا بذلك لئلا يكون للناس، وعلى هذا الإعراب قول الزجاج في (معاني القرآن وإعرابه) وقول أبي البقاء العكبري في (التبيان)، وجوَّزه المنتجب الهمذاني في (الكتاب الفريد) وذكره أبو حيان في (البحر المحيط) كأحد وجهي الإعراب. وكلمة «حجة» نكرة في سياق النفي، وتفيد العموم، ولها حكم النهي لأن الواقع يمكن أن يكون على خلافها، فهي خبر عن حكم الشرع وليست خبراً عن الواقع؛ والمعنى: لا تجعلوا للناس عليكم حجة، ويوجب ذلك التخلي عن القضايا الخاسرة، كي لا تكون فرصة للآخرين علينا. ويشمل ذلك التخلي عن الدفاع عن الأخطاء وعن التبريرات الزائفة وعن المواقف الخاطئة. وأما عبارة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾، أي إلا الذين ظلموا في احتجاجهم، أي احتجوا بالأباطيل وأساؤا في الإحتجاج، فهؤلاء مبطلون ويمكن ردهم بقوة او إهمالهم لوضوح جوانب الخطأ والإساءة عندهم. وقد سبق تفسير الآية تحت عنوان: (تنقية المضامين المتبناة).

(اجتناب فرص الخداع والإيقاع): مثال من إعطاء فرصة للشيطان وهو عدو، قال تعالى ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا

﴿ يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠ – ٢٢.

ومن الأُصول الجامعة في هذا الأمر، قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠١ – ٢٠٢. فتدبر عبارة ﴿ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾، أي فكرة متحركة تطوف بـهدف الإغواء، وأصلها من الشيطان، ولكن قد ينقلها فلان او فلان من الناس او صحيفة معينة او أخبار تلفزيونية او تواصل الكتروني او لقاء ثقافي او غير ذلك. أما التقي المتبصر فيمتلك نظاماً للتفكير والنظر، فإذا مست تلك الفكرة سمعه او نظر عينه او إدراكه تذكر النظام القرآني للتفكير، فإذا تذكر أبصر الفرق بين النافع والضار، او أبصر الطريق إلى من يهديه إلى ذلك، كما تنبه إليه عبارة ﴿ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾. وتدبر عبارة ﴿ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ﴾ ، فقد قرأ نافع وأبو جعفر: يُمِدُّونَهُمْ، بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الْمِيمِ مضارع أمدَّ فهو من المدد والإمداد، أي تقوية الشيء، بمعنى: يساعدونهم في أمر الغي كخدمته وتقويته وسائر أشكال الإمداد المعنوي والمادي لتغليب الغي على الهداية، وهذا الإستعمال من نوع قوله تعالى ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ ﴾ الإسراء: ٦. وقرأ الباقون يَمُدونهم بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّ الْمِيمِ من مدّ وهو من المد، كما يُقال: مَدَّ اللهُ فِي عُمُرِكَ، ومد الحبل أي طوّله، والمعنى: أي يطيلون لهم الحبْل في الغي او يساعدونهم على إطالة عمر الغي. واضح من كل ذلك أن الفكرة الشريرة ليست معزولة ولا مفصولة عن أخواتها، بل يأتيها المد المعنوي والإمداد المادي من قريب ومن بعيد، وكأنه تنظيم عالمي يعتمد على الفكرة الشريرة وكيفية إمدادها وخدمتها. وحركة الفكر الشيطاني تهدف إلى أمرين:

الأمر الأول: التضليل والإيقاع بالمصائب، فهذا سبيل الأعداء، وقد قال تعالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ البقرة: ٢٠٨، والوقاية منه التثبت وتحكيم المهارات القرآنية في التفكير، وكذلك استشارة المؤهلين الصالحين.

الأمر الثاني: التخويف والتيئيس والإصابة بالقنوط، أي قطع الرجاء والأمل، قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران: ١٧٣ – ١٧٥. وقال تبارك وتعالى ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ البقرة: ٢٦٨؛ والوقاية من ذلك هو قوة الرجاء مع اتخاذ الأسباب، كما في نحو قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ الشعراء: ٦١ – ٦٢، فحين تأتي مخاوف الخطر او المرض او الفقر، فمع اتخاذ الأسباب عليك أن تقتدي بموسى عليه السلام او بيعقوب عليه السلام بعد أن فقد الولدين، كأن تقول: بل أرجو من الله تعالى الحفظ او الحماية او الدفع والدفاع عني، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، والله خير ناصراً وهو ولي المؤمنين، او تقول: أرجو من الله العافية والغنى.

والأمر أفضل إذا كان الرجاء مسبوقاً بحسنات، فقد قال تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ الكهف: ١١٠، فعلى نحو تفسير سعيد بن جبير فإن المعنى: فمن كان يرجو لقاء ثواب ربه او نعمة ربه فليعمل عملاً

صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً، وهذا المعنى يشمل نِعَم الدنيا والآخرة، وأعظمها رؤية الله تعالى في الآخرة.

وفرص الخداع قد أوقعت كوارث كبيرة في التأريخ الإنساني، وفي المجالات المختلفة، الاجتماعية والسياسية والعسكرية والإقتصادية وغيرها.

وأما إذا أراد الله تعالى أن يمكر بطائفة، فإنه أمر واقع ولا مرد له، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ النساء: ١٤٢. ومن أكثر الفرص إيهاماً، تلك التي لا يظهر أثرها إلا بعد زمن طويل. من ذلك فرعون اللعين، إذ استدرجه الله تعالى إلى حماية وتربية موسى عليه السلام في طفولته، قال تعالى ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ طه: ٣٩. وتوجد أمثلة كثيرة من هذا النوع من الفرص.

(صناعة الفرص): من المفيد جداً أن تتعلم كيف تصنع الفرص، ويعتمد ذلك على التأهيل بعدة أُمور، **الأمر الأول**: الإستعداد، أي التأهيل بكل ما ذكرناه عن الفرص، كي تكون على بينة واسعة ومتينة، وتعرف القضايا التي تريد الحصول عليها، والقضايا التي تريد منعها او إبعادها، وتستطيع تعيين الحدث الذي يخدمك. وبخلاف ذلك، فإن الكثير من الفرص تموت او يغتنمها غيرك. **الأمر الثاني**: العروض وتحريك الأفكار. المثال اليومي للعروض هو عروض الوظائف، فهي فرصة للمؤسسة لكسب أفضل المتنافسين، وهي فرصة أيضاً للباحث عن وظيفة. والأمر أكثر تعقيداً وخطراً بكثير في العروض السياسية والإقتصادية. فالغاية من العرض هو الحصول على مصلحة كبيرة او استراتيجية، ولن يقبل العرض أحد إلا إذا حصل هو أيضاً على منفعة مناسبة. وبعبارة أُخرى، فكر بالعرض وكأنه مفتاح، يفتح طريقاً لك، وطريقاً مقبولاً لمن يستجيب

للعرض. وعليك أن تدرس الخيارات الممكنة كلها كي تختار أفضل خيار من جهة تحقيق المنافع وإبعاد المضار. ويخضع كل ذلك للتقويم ولقواعد الأداء الإستراتيجي وصناعة القرار، وقواعد إدارة الفكرة والكلمة او تحريك الأفكار، وقد تكلمنا عن هذه الأُمور في المباحث: الثاني والرابع والسابع من (نخبة المسار). **الأمر الثالث**: صناعة او إعادة انتاج الحدث، من أجل إثارة الفُرص.

أما صناعة الحدث، فمثالها أن تكون عارفاً بما تحتاجه من الآخرين في المستقبل القريب، وتتوقع جيداً أيضاً ما يمكن أن يحتاجه الآخرون منك. فإذا كان الظرف مناسباً، فإنك تقوم بصناعة خارطة فكرية عن إمكان تبادل المنفعة بين الطرفين، ثم تقوم بتحريك الفكرة بالطريق المناسب. ومن الطرق المحتملة في تحريك الأفكار: اللقاءات المباشرة الدبلوماسية او غير الرسمية، والإعلام الذكي، وخبراء تحريك الأفكار من عناصر المخابرات وأمثالهم من المراسلين والسياسيين، والتواصل الاجتماعي المنضبط، وربما الإشاعات الذكية. ويستمر تبادل تحريك الأفكار بهدف الوصول إلى اتفاق رسمي. وينبه إلى ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ الأنفال: ٦١، فتدبر أن الله لم يقل: إن طلبوا السلم، ولكن إن جنحوا، أي إن مالوا للسلم فمل إليه، وهذا يُعرف من أفكارهم وأحاديثهم الداخلية، وسبيله الرصد وتبادل الملاحظة الجيدة وتحريك الأفكار، فإن كان الميل حقيقياً كان الوصول إلى اتفاق غاية الطرفين.

وأما إعادة انتاج الحدث، فهو أن تأتي إلى حدث كبير ولكنه راكد بسبب الغموض او سوء الفهم، فأحييته بالتحليل الجيد وإظهار معانيه الحيوية او الخطيرة التي تؤدي بك إلى اغتنام فرصة او إبعاد ضرر.

الإنطلاق من القيود:

أي اجتناب عوامل تصغير وتضييع الفرص. وهذا من الضروريات لكل من عزم على الإقتحام او الإستباق في قوة الإنتاج، كما أمر الله به في نحو قوله تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ البقرة: ١٤٨. وقد ضرب الله تعالى لنا الأمثال في الفرق بين المقيد والمنطلق.

من ذلك قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾ النحل: ٧٥ – ٧٦.

وتوجد قيود كثيرة ينبغي الإنطلاق من أسرها:

منهـــا: الأهداف الهزيلة الرخيصة، أي الأهداف الدنيوية المحضة، بعيداً عن خدمة الدين والمصالح العامة. وأما الأهداف الدينية، فهي مهمة كلها ولكنها عند التزاحم تنقسم إلى ما هو مهم وما هو أهم، فلابد من ضبط الأمور بنظام للأولويات. ولنتدبر قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾ النور: ٦٢، الجمع ضد التفريق، والأمر الجامع هو الأمر الذي يؤثر على الجماعة او الأمر الذي يحتاج إلى الجماعة، فحقيقته أنه أمر المصالح العامة، وآية النور توجب على المؤمنين مشاركة القيادة في هذا المجال. وقال تعالى ﴿ ... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ .... ﴾ آل عمران: ١٥٤، فتدبر ذم تلك الطائفة المغمورة في التفكير بالذات، فليس من المُهِمّاتُ عندها إلا منافعها الخاصة

وسلامة وتنمية ممتلاكتها الشخصية، فلا كبير هَمٍّ على الدين ولا على مصالح الآخرين ولا المصالح العامة ولا على المحافظة على استقامة الحياة العامة ولا على نشر الخير في المجتمع. ولا شك أن الغمرة في الذات تُفسِد تفكيرهم وقناعتهم وتُبعدهم عن الحق وتسير بهم إلى ظنون الجاهلية وإلى النفاق في إبداء شيء وإخفاء غيره كما في السياق الكامل للآية الكريمة.

ومنهـــا: الرضى بالقضايا السهلة، بعيداً عن اقتحام المصاعب وعن أهداف المغالبة.

وقد سبق أن ذكرنا تفسير آية الإقتحام. وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ الملك: ٢، فتدبر عبارة ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾، فإن الأحسن هو المتفوق على غيره. ولنتدبر قوله تعالى ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ التوبة: ٤١، فعبارة ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾، مطلقة في كل خفة او ثقل يمكن أن يؤثر في نوع ودرجة النفار، فهي تشمل من خف حمله ومن ثقل، ومن خفت او ثقلت حركته وإلى غير ذلك من أحوال الخفة والثقل، وهذا الإستيعاب الشامل لأفراد الأمة يؤكد أن النفار ليس خاصاً بالعمل العسكري، بل يُراد من كل فرد في الأمة أن ينطلق نافراً إلى عمل مناسب لأهليته من أعمال الخير، مع إمكان أن يعمل المؤمن لتطوير أهليته وتحسين نفاره، وهذا من أهم طرق المغالبة وتكوين أمة متفوقة. وقد سبق تفسير مفصل للآية الكريمة في هذا المبحث، في أواخر الفائدة السابعة من تفسير آية الإقتحام.

ومنهـــا: تفرق الإرادة او ضياع المسار بعد البداية. ومن أهم أسبابه، **(السبب) الأول**: التفلت من الصبر والمصابرة، والتحول إلى أهداف ثانوية سهلة ولكنها مزخرفة بالأماني. **(السبب الثاني)**: إهمال التقويم المتكرر او فساد مقياس التقويم؛ وبذلك

يقعون في وَهْم جودة المسار، ويغفلون عن تراجعهم عن استقامة الإتجاه إلى الهدف الكبير.

(السبب الثالث): ضعف الاهتمام وقلة البذل والعطاء، ويوجب ذلك تغييراً جذرياً لأنه ينبغي للمسؤول أن يرى أن حياته في تحقيق الأهداف.

ومنهـــا: غفلة الرخاء، أي الإنغماس في التنعم، مما يُنسي متطلبات وفرص الحذر والمغالبة. يوضحه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ الأعراف: ٩٥، العفو الترك والنسيان بمعنى الإغفال، أي تنعموا حتى أغفلوا متطلبات التحصين والبقاء، وأغفلوا العداوات الكامنة (أي غير الظاهرة)، كالتدابير الخفية والـخلايا النائمة والرماد الذي يُـخفي ناراً تحته، وأغفلوا الخروق والتصدعات في بنيانـهم، فظهر عليهم ما لم يفكروا به، كما تنبه إليه عبـارة ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾. والنصوص في عواقب الترف تؤكد ذلك.

ومنهـــا: الإهمال، أي عدم الإستعداد لاغتنام الفرص. وقد سبق ذكر مضامين الإستعداد تحت عنوان «التأهيل للسبق واغتنام الفرص»، وعنوان «رصد الفرص».

ومنهـــا: التشبع بالأماني والأحلام، فمما ذكرناه في (نخبة المسـار)، قوله تعـــالى ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ النساء: ١١٨ – ١١٩، إلى قوله تعـــالى ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ النساء: ١٢٠. التمني في غالب الإستعمال هو ترقب المرغوب إما من الشـهوات، وإما من غيرها ولكن بلا تمهيد الطرق ولا إعداد الأسباب، وإنما هي رغبة، كأماني جودة الأحوال وقوة المؤسسة وضعف الخصوم وشبه ذلك مما يُشبه أحلام اليقظة

والأوهام. وسيأتي تفصيل ذلك في تفسير آية النساء في المبحث الخامس (التفكير العدائي) إن شاء الله تعالى.

ومنهـــا: قيود البقاء ضمن الحال القائم والخوف مما يعقب الإنطلاق من مواجهة فكرية او مؤسسية. وهذا نقيض ما أمر الله تعالى به من الإقتحام ونقيض المغالبة والإستباق، وقد تكلمنا هذه المعاني في عدة مواضع من هذه الدراسة.

ومنهـــا: أسباب في إدارة العمل، وفيها أمثلة متنوعة، منها:

- التردد، ومن أنواعه تأخير العزم على القرار بعد اكتمال حزم الأمور، كما سبق بيانه. وفي العلاج العملي للتردد بسبب ضعف الثقة، يُنقل أن نابليون كان يرد على جنوده بثلاث كلمات، فمن قال: لا أقدر، قال له: حاول؛ ومن قال: لا أعرف، قال له تعلم؛ ومن قال: مستحيل، قال له: جرِّب. نقله الباحث منير عبود في (موسـوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية).
- الخوف من الفشل مع وجود أسـباب النجاح، وكأنه نقص في العزم او في الشـجاعة.
- سـوء التقدير (فهم خاطئ/ معلومات ناقصة/ نظام عمل عقيم/ عدم تحليل المصاعب والقيود في الطريق/ سوء تحديد نقاط الإنطلاق/ الشواغل/ ضعف المهارات الفكرية/ ضعف إدارة الواقع).
- سـوء إدارة الوقت.
- ضعف التأهيل.
- أسباب شخصية (العمر/ المرض ..).

المبحث الخامس
فكر التنمية بالخير

....

هذا المبحث يتمم ما ذكرناه في كتاب (وِجْهة اللواء) تحت عنوان: «الغزو الاقتصادي» وإلى نهاية المبحث الخامس. وأُصول التنمية قريبة إلى المباحث الفقهية، ولكنها تعتمد بدرجة كبيرة جداً على المهارات الفكرية في تدبير واستخدام الوسائل التنفيذية. فالمقصود هنا بيان أُصول التنمية بالخير كما نفهمها من النصوص الشرعية، من أجل فتح الطريق لتشغيل الفكر في الوسائل التنفيذية.

التزكية والإحياء
او التنمية بالـخيـر

تقوم التنمية على محاور متداخلة، **المحور الأول**: عمليات التزكية والإحياء. **المحور الثاني**: عمليات الإعمار المادي والمعنوي. **المحور الثالث**: تحصيل المنافع والأموال والتوازن فيها. **المحور الرابع**: المنافسة والمغالبة. **المحور الخامس**: مكافحة العوائق وعوامل الهدم.

أما محور التزكية والإحياء:

ففيه أدلة كثيرة:

منهـــا: **آيات التزكية**، قال تعـــالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ

﴿ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٥١. وبمثل هذا المعنى جاءت عبارة ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، منها قوله تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ الجمعة: ٢. ومن فوائـد الآية الكريمة:

(الفائدة الأولى): معنى ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾، التزكية في العربية هي التنمية بالخير، سواء كان الخير مادياً او معنوياً. فمن الخير المادي قول ابن منظور: والزَّكاء: مَا أَخرجه اللهُ مِنَ الثَّمَرِ. وأَرضٌ زَكِيـةٌ: طيِّبةٌ سَمِينَةٌ؛ حَكَاهُ أَبو حَنِيفَةَ. زَكَا، والزَّرع يَزْكو زَكاء، أَي نَمَا. وكلُّ شَيْءٍ يَزْدَادُ ويَنْمي فَهُوَ يَزْكُو زَكَاء. اهـ من (لسان العرب). ومثله قول الزمخشري في (أساس البلاغة) وغيره. وأما التنمية او النمو بالخير المعنوي، فمنه قول الزبيدي: وزَكا الرَّجُلُ يَزْكُو زكواً: صَلُحَ؛ وَبِه فُسِّر قوْلُه تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ النور: ٢١، «مَا زَكَى مِنْكُم مِن أَحَدٍ»، أَي مَا صَلُحَ. اهـ من (تاج العروس).

ومن التنمية بالخير المعنوي، قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ النور: ٢٨، وقوله تعالى ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ النور: ٣٠.

وقال الراغب: أصل الزَّكَاةِ: النّموّ الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدّنيويّة والأخرويّة. اهـ من (المفردات).

وقال الإمام الطبري: قد دللنا فيما مضى قبل على أن معنى «التزكية»: التطهير، وأن معنى «الزكاة»: النماء والزيادة. اهـ من (تفسير آية البقرة). ولا حجة لدعوى الطبري في

إخراج التزكية دون الزكاة عن معنى النماء إلى معنى التطهير، فإنهما من أصل واحد. وتدبر في قوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ التوبة: ١٠٣، عطف التزكية على التطهير، فإن الأصل فيه المغايرة بين الكلمتين، كما أن تأسيس كل كلمة لحكم، مُقدم على دعوى تأكيد الثانية للأولى. وظاهر المعنى أن التطهير محو السيئات، وأما التزكية فهي تنمية النفس بالخير بعد تطهيرها. وفي كثير من الأحيان يوجد تلازم بين التطهير وتنمية النفس بالخير، وكأن أحدهما يمهد للآخر، ولعل منه النهي عن عضل النساء، وفيه قوله تعالى ﴿ .... ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ البقرة: ٢٣٢.

وقال أبو الحسين أحمد بن فارس: أصلُ الزكاة – فيما حُدِّثْنا به عن المُفَسِّر عن القُتَيْبِيّ: النَّماءُ والزِّيادةُ. وسُمِّيَتْ بذلك، لأنها تُثَمِّرُ المالَ وتُنَمِّيهِ، ومنه يُقال: زَكَا الزَّرْعُ: إذَا كَثُرَ رِيعُهُ، وزَكَتِ النَّفَقَةُ، إذا بُورِكَ فيها، ومنه تَزْكِيَةُ القاضي للشُّهودِ، لأنه يَرْفَعُ منهم بالتَّعْديل والذِّكْرِ الجَميلِ، ثم يُقال منه: فلان زَكِيٌّ، وهو أزْكَى مِن فُلانٍ. قُلْنا: وعلى هذا التَّاويلِ أوْجَبَ الشافعيُّ الزكاةَ في مالِ اليتيم، لأن الزكاةَ لَمَّا كانتْ مَوْضوعَةً للنَّماءِ رُجِيَ مِن مالِ الْيَتِيمِ، كما يُرْجَى مِن مالِ غيرِه، فوَجَبَتْ فيها الزكاةُ، والعربُ تقولُ للواحِدِ: خَسَا. ولِلاثْنَيْن: زَكا. اهـ من (حلية الفقهاء).

والتركيز على مطلق التزكية وليس مطلق التنمية، لأن التزكية خاصة بالخير سواء كانت مادية او معنوية. وأما النمو والتنمية، فإنها يمكن أن تشمل تنمية الدول والأرض والعقار مثلاً، ولكن بالوسائل المحرمة.

فمعنى ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾، أي يرشدكم ويهديكم إلى أصول التزكية أي التنمية بالخير المعنوي والمادي، والله تعالى أعلم. يؤكد ذلك أن نقيض التزكية هو التدسية أي تقليل الشأن والإخفاء، كما في قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا

﴿١٠﴾ ﴾ الشمس: ٩ – ١٠، وقال تعالى ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ النحل: ٥٩.

(الفائدة الثانية): في وظائف النبوة. فتدبر الوظائف الأربع في قوله تعالى ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾، فإنها من أهم وظائف النبوة، وهي تلزم كل من يخلف النبي ﷺ في سياسة الأُمة، خاصة وأن عبارة ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا ﴾، هي صفة لـ: ﴿ رَسُولًا ﴾، وكذلك حكم العبارات المعطوفة على عبارة ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾، فهذه صفات او وظائف من الأداء النبوي، فينبغي أن تُعطى حقها من التفكير، والإعداد لها بالعلم والعمل. يؤكد ذلك أن إقامة الدين عموماً يعتمد على درجة وسعة التنمية، فلا مجال للقبول بتخلف التنمية، بل إذا تزاحمت التنمية العامة مع أحكام أُخرى فلا شك أن للتنمية العامة أولوية عالية. وقد سبق بيان ذلك في الكلام عن تزاحم الأحكام في جملة ما يقع تحت عنوان: «ضرورات الواقع التي تؤثر على الحكم التكليفي».

وتدبر أن الوظائف الأربعة وردت في الآية بصيغة المضارع لأنه يقبل، بل يدل على التكرار والتجدد في طريق الإرتقاء. يوضح الأمر أن غاية النبي ﷺ في العمل بعبارة ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾، هي أن يبلغ بهم أعلى ما يمكن من مراتب التزكية، فإنه إنما يتعامل مع رجال دولته وجنودها الذين يريد أن يصل بهم إلى أعلى المراتب، كما يدل عليه نحو قوله تبارك وتعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ الصف: ٩. غير أن ذلك إنما يكون بالتدرج وعلى قدْر تفاعل المؤمن مع متطلبات التزكية. فإن التزكية تزيد او تنقص بحسب الإقبال والجهد، وقد قال تبارك وتعالى ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ مريم: ٧٦. وأيضاً فإن الزكاء المادي

ينبغي أن يسير جنباً إلى جنب مع الزكاء الروحي والإلتزام الديني. وقد سبق الكلام عن معنى قوله تعالى ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ النازعات: ١٨، فتدبر الفرق بين قولك: هل لك في أن تزكى، وقوله تعالى ﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾، فإن أداة الغاية «إلى» تُستعمل في الغاية الوشيكة والقريبة والمتوسطة والبعيدة، فتنبه الآية إلى أن طريق التزكية طريق متدرج بضوابط شرعية ولكن يجب اجتناب التسويف فيه.

ومجال التزكية واسع جداً، وكذلك مقاديرها. أما تزكية النفس فلا حدود للإرتقاء بها. وأما تزكية الحال كالتعليم والنمو المادي، فإن الواجب فيها يتناسب مع مطالب النهوض بالدين وبالأُمة، وعلى سبيل المغالبة. وينبغي عدم المبالغة في الركون إلى كون كثير من مطالب النهوض هي فروض كفاية، فإن حكم فرض الكفاية يتضمن أن الإثم يعم الجميع إذا لم يأخذ فرض الكفاية كفايته من الخدمة؛ ولذلك ينبغي لمن لم يُشمَل بفرض الكفاية أن يتتبع ويراقب أداء من تصدى له. وكذلك توجد مقادير ضرورية لتحقيق النهوض الواجب للفرد وللعائلة.

(الفائدة الثالثة): الصلة بين التزكية والإحياء، فإنها صلة قريبة جداً، فإن علامة الحياة هي النمو والإنتاج، وهذا مضمون الزكاء والتزكية. وسيتضح الأمر في تفسير آية الأنفال (العنوان التالي) إن شاء الله تعالى.

ومنها: **آية الإحياء بالإستجابة للدين**. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ... ﴾ الأنفال: ٢٤، فمن فوائد الآية الكريمة:

(الفائدة الأولى): في معنى الإحياء. الحياة نقيض للموت وللتهلكة المادية والمعنوية.

قال الأزهري: وَمِنْه قَوْلهم لَيْسَ بفلان حَيَاة أَي لَيْسَ عِنْده نَفْعٌ وَلَا خيرٌ. وَيُقَال حايَيْتُ النَّار بالنفْخ كَقَوْلِك أَحْيَيْتُها. اهـ من (تهذيب اللغة).

وقال ابن منظور: الحَيَاةُ نَقِيضُ المُوْتِ، والحيُّ مِنَ النَّبَاتِ: مَا كَانَ طَرِيّاً يَهْتَزّ. وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ يس: ٧٠ ، أَي مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا وَكَانَ يَعْقِلُ مَا يُخاطب بِهِ، فَإِنَّ الْكَافِرَ كَالْمَيِّتِ. الْجَوْهَرِيُّ: أَحْيَا القومُ حَسُنت حالُ مواشِيهمْ. وأَرضٌ حَيَّةٌ: مُخْصِبة كَمَا قَالُوا فِي الجَدْبِ مَيِّتَةٌ. وأَحْيَا القومُ أَي صَارُوا فِي الحَيَا، وَهُوَ الخِصْب. وإحْياءُ اللَّيْلِ: السَّهَرُ فِيهِ بِالْعِبَادَةِ وَتَرْكِ النَّوْمِ، وَمَرْجِعُ الصِّفَةِ إِلَى صَاحِبِ اللَّيْلِ. أبو زَيْدٍ: تَقُولُ أَحْيَا القومُ إِذَا مُطِرُوا فأَصابَت دَوابَّهُم العُشْبَ حَتَّى سَمِنَتْ، وَإِنْ أَرادوا أَنفُسَهم قَالُوا حَيُوا بعدَ الهُزال. وأَحْيا اللهُ الأَرضَ: أَخرج فِيهَا النَّبَاتَ، وَقِيلَ: إِنَّمَا أَحْياها مِنَ الحَيَاة كأَنها كَانَتْ مَيْتَةً بالمحْل فأَحْياها بِالْغَيْثِ. اهـ من (لسان العرب).

وقال الراغب الأصفهاني: الحياة تستعمل على أوجه، **الأوّل**: للقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حَيٌّ، قال عزّ وجلّ: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ الحديد: ١٧، وقال تعالى: ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ ق: ١١، **الثانية**: للقوّة الحسّاسة، وبه سمّي الحيوان حيوانا، قال عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ فاطر: ٢٢، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فصلت: ٣٩ ، فقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا ﴾، إشارة إلى القوّة النّامية، وقوله: ﴿ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾، إشارة إلى القوّة الحسّاسة. **الثالثة**: للقوّة العاملة العاقلة، كقوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ الأنعام: ١٢٢. وقول الشاعر: (وقد

أسمعت لو ناديت حيًّا ... ولكن لا حياة لمن تنادي). **والرابعة**: عبارة عن ارتفاع الغمّ، وبهذا النظر قال الشاعر: (ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميّت الأحياء). وعلى هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٩، أي: هم متلذّذون، لما روي في الأخبار الكثيرة في أرواح الشّهداء. **والخامسة**: الحياة الأخرويّة الأبديّة، وذلك يتوصّل إليه بالحياة التي هي العقل والعلم، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الأنفال: ٢٤، وقوله: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴾ الفجر: ٢٤، يعني بها: الحياة الأخرويّة الدّائمة. **والسادسة**: الحياة التي يوصف بها الباري، فإنه إذا قيل فيه تعالى: هو حيّ، فمعناه: لا يصحّ عليه الموت، وليس ذلك إلّا لله عزّ وجلّ. اهـ من (المفردات/ مع إتمام بعض الآيات التي ذكر جزءًا منها).

فواضح أن معنى عبارة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، أي يحييكم بالمنافع ودفع المضار في دنياكم وآخرتكم.

فعلامة مطلق الحياة، أي: أي حياة كانت، فعلامتها النمو والإنتاج و بعث ما كان خامداً او غير موجود، كإحياء النار بالنفخ وإحياء الأرض وكحياة المنافق الجسدية وشبه ذلك. وأما الإحياء بالإيمان وبالمنافع والقِيَم الصالحة، فهو بعث ما كان خامداً او ما كان غير موجود، بعثاً نافعاً في طريق الصلاح او الكمال. ومما يؤكد استعمال مشتقات «الحياة» في الوجود النافع والسعيد، نحو قوله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ طه: ٧٤.

وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ المائدة: ٣٢، يشمل من استنقذها من شدة المرض او الجهل او الظلم او نحوه، بأن فعل ما يكفي لنقلها إلى

حال الصحة او العلم او العدل. وعن ابن عباس قال: « من شدّ على عضُد نبيّ أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعًا، ومن قتل نبيًّا أو إمام عدل، فكأنما قتل الناس جميعًا.» رواه الطبري في تفسيره.

وتشمل ثقافة الإحياء، إعداد وفعل ما ينفع الناس وينهض بهم، ومكافحة عوامل الهلاك المادي والمعنوي. قال تعالى ﴿ .... كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ الرعد: ١٧. وتدبر قصة أصحاب الجنة التي قال تعالى فيها ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾ القلم: ١٩ – ٢٠، إلى قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ القلم: ٣٣. فلا شك أن هلاك البنية الاقتصادية عذاب، ويجب العمل على اجتنابه.

ويُنبه إلى كل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ فاطر: ٢٢؛ فتدبر أن الله لم يقل هنا: وما يستوي الأحياء والأموات، ولكنه تعالى كرر «ولا» مع ذكر الأموات أيضاً. ومن جهة علوم العربية، فإن عبارة «ولا» هنا، يمكن أن تكون مؤكدة لنفي الإستواء او تكون مؤسسة لمضمون جديد. وتقتضي قواعد الأصول أنه إذا استقام المعنى، فإن تأسيس المعاني مقدم على توكيدها. معنى ذلك أن النفي الثاني بـ: «ولا» ليس لمجرد التأكيد، وهذا قول طائفة خلافاً للقول المشهور عند المفسرين، إذ ذهبوا إلى أن النفي الثاني للتأكيد. غير أن قاعدة تقديم التأسيس على التوكيد قاعدة مشهورة، وربما يحصل خلاف فيها في تفسير كلام الناس وذلك لتأثير العرف على الصياغة اللفظية. ونكتفي هنا بقول الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: قَاعِدَةُ «التَّأْسِيسُ أَوْلَى مِنْ التَّأْكِيدِ»، فَإِذَا دَارَ اللَّفْظُ بَيْنَهُمَا، تَعَيَّنَ عَلَى التَّأْسِيس. اهـ من (الأشباه والنظائر). ومقتضى التأسيس في الآية أن الأحياء لا يستوون في مضامين

الحياة المعنوية، بل يتفاوتون في علامتي الحياة، أي إنتاج الخير والنمو بالخير. وكذلك الأموات، فإنهم يتفاوتون في المضامين المعنوية للموت، ما بين التردد بين الكفر والإيمان من جهة، والمسارعة في الكفر والطغيان به من جهة أُخرى.

وقال العلامة فاضل صالح السامرائي: وكذلك قوله تعالى ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾، تدل على معاني ثلاث هي أن الأحياء لا يستوون فيما بينهم، والأموات لا يستوون فيما بينهم، والأحياء والأموات لا يستوون أيضاً، وهذه المعاني كلها مُرادة. اهـ من (لمسات بيانية/ المحاضرات/ المكتبة الشاملة). وفي نظير هذه الآية، أي قوله تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ فصلت: ٣٤، ذكر السمين الحلبي وجهاً في معنى الآية، حاصله أن «ولا» الثانية غيرُ مؤكِّدة؛ إذ يُراد بالحسنةِ الجنسُ، وكذلك السيئة، فكلُّ واحدٍ منهما متفاوتٌ في جنسِه؛ لأنَّ الحسناتِ درجاتٌ متفاوتةٌ، وكذلك السَّيئاتُ. بل رجح الزركشي هذا الوجه في آية فصلت، فقال: فَمَنْ قَالَ: الْمُرَادُ أَنَّ الْحَسَنَةَ لَا تُسَاوِي السَّيِّئَةَ فَـ «لَا» عِنْدَهُ زَائِدَةٌ، وَمَنْ قَالَ أَنَّ جِنْسَ الْحَسَنَةِ لَا يَسْتَوِي أَفْرَادُهُ، وَجِنْسَ السَّيِّئَةِ لَا يَسْتَوِي أَفْرَادُهُ وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَةِ، فَلَيْسَتْ زَائِدَةً وَالْوَاوُ عَاطِفَةٌ جُمْلَةً عَلَى جُمْلَةٍ. اهـ من (البرهان في علوم القرآن).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، **قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى**: فتضمنت هذه الآية أموراً، أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل باستجابة لله ولرسوله. فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهراً وباطناً. ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول صلّى الله عليه وسلّم. فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة. فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة. وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ﷺ. اهـ مع اختصار من (التفسير القيم).

(الفائدة الثانية): أحكام الدين كلها تحيي المؤمنين. فإن «ما» في عبارة ﴿ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾، اسم موصول كما في مصادر إعراب القرآن وهو يصلح للعموم، فالأصل أنه يُحمل على العموم إلا إذا ثبت تخصيصه، ولا نعلم بعد البحث ما يدل على التخصيص. قال الإمام القرطبي: وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْجُمْهُورُ: الْمَعْنَى اسْتَجِيبُوا لِلطَّاعَةِ وَمَا تَضَمَّنَهُ الْقُرْآنُ مِنْ أَوَامِرَ وَنَوَاهِي، فَفِيهِ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَالنِّعْمَةُ السَّرْمَدِيَّةُ. وَالصَّحِيحُ الْعُمُومُ كَمَا قَالَ الْجُمْهُورُ. اهـ من (تفسير القرطبي)، أي ان الآية عامة في الإستجابة للدين، وليست خاصة بالجهاد او غيره. واللام في ﴿ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾، حرف جر يفيد الإختصاص، كما أن الفعل «دعا» يتعدى باللام. وقال ابن عاشور: وَاللَّامُ فِي «لِمَا يُحْيِيكُمْ» لَامُ التَّعْلِيلِ أَيْ دَعَاكُمْ لِأَجْلِ مَا هُوَ سَبَبُ حَيَاتِكُمُ الرُّوحِيَّةِ. اهـ من (تفسير ابن عاشور)، والتعليل يقوي العموم.

فواضح من الآية أن كل شيء يدعونا إليه الله تعالى ورسوله ﷺ فإن فيه حياة لنا، فهو ينهض بنا في الإيمان وفي العمل وفي التنمية الفكرية والثقافية وفي التعليم والبحث وفي السياسة وفي الاقتصاد وفي المجتمع وفي الأمن والدفاع وفي الخدمات العامة كالطرق والإتصالات والكهرباء ونحوها من الأُمور التي تضمنت نصوص الشرع طلبها او كانت من الوسائل التي يحتاجها تنفيذ الأحكام الشرعية. فهذه المجالات وأمثالها كلها يجب أن تُشْمَل بعمليات التنمية والمغالبة. وأما الأمور التي لم تُذكر بالإسم في الشرع، فإنها في حكم المذكورة بالمعنى حين تُستخدم لخدمة الدين وفي عمليات التنمية والمغالبة أي حين تكون هذه الأمور وسائل للواجبات، كعلوم الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء وغيرها، فإن أدوات القوة داخلة كلها في قوله تعـــــالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾ الأنفال: ٦٠. وأما المباحات التي هي متعة محضة وليست من وسائل

الواجبات، فهذه ليست من مضامين الإحياء والتزكية، وإنما هي متعة تُضبط باجتناب الإسراف فيها.

وواضح أن عبارة ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، ليس لها مفهوم مخالفة في حق الله تعالى ورسوله، فإن مضامين دين الإسلام كلها تؤدي إلى إحياء العباد، وفي هذا المعنى آيات عديدة. ولكن توجد أمور تحتاج إلى صيغة الشرط في الآية، **الأمر الأول**: التدرج في نزول الوحي، فإنه يقتضي تكرار الدعوة. **الأمر الثاني**: تكرار الحاجة إلى تكليف مؤمن بشيء او تذكيره بحكم، فإنه يقتضي تكرار الدعوة. **الأمر الثالث**: تجديد الدعوة لأجل التذكير والتثبيت. ولكن يمكن أن تتفاوت المضامين الإسلامية في أولويتها حين تتزاحم الأحكام على محل واحد؛ وقد تقدم ذكر تزاحم الأحكام في المبحث الثالث تحت عنوان: «رؤية الواقع وتأثيره».

ولما كانت دعوة الله ورسوله تحيي المؤمنين، فكل دعوة مخالفة لها تهلكهم، فلا تحل الإستجابة لها، فهذا هو مفهوم المخالفة الذي تنبه إليه الآية. والإحياء بالدين هو الأمر في الأحكام والأنظمة الشرعية، وأما الوسائل التنفيذية فتؤخذ من كل مكان بعد تنقيتها من الشوائب.

وعَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى، قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: « أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، ثُمَّ قَالَ لِي: « لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ »، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ»، قَالَ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الفاتحة: ٢، « هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ » رواه الإمام البخاري وغيره. وحكم قطع الصلاة عند دعوة النبي ﷺ قد يكون خاصاً

بالنبي ﷺ، غير أن الحديث يدل على أن أعمال الإحياء أي التنمية بالخير لـها أهمية كبيرة وأولوية عالية.

(الفائدة الثالثة): تتابع عمليات الإحياء. ففي عبارة ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، فإن الفعل المضارع «يحييكم» يفتح أُفقاً مستقبلياً، لأنه يدل على التكرار والمطاولة. فالتدرج في نزول الوحي يقتضي تكرار الإستجابة، والثبات على الدين يقتضي ثبات الإستجابة. ويمكن في البداية أن يغيب عنك وجه الإحياء في أمر معين ولكنك ستراه بوضوح بإذن الله تعالى فيما بعد. وبعبارة أُخرى، فإن المؤمن التقي الحي يحصل على المزيد من الإحياء مـع كل اسـتجابة لله تعالى ولرسـوله ﷺ. ويتضمن ذلك أن الإحياء ليس مقتصراً على الإنقاذ من خطر شـديد او تـهلكة قريبة، بل يشـمل الإحياء نمو الخير والإزدياد منه كما تدل عليه الآية بوضوح. وذهب ابن عاشور إلى أن اللام في عبارة ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾، هي لام التعليل، أي دعاكم لأجل ما تحيون به؛ وهذا إعراب صحيح أيضاً، فإن لام التعليل تدخل على الفعل المضارع وعلى الأسماء، والتعليل أقوى في الدلالة على الأُفق المسـتقبلي للإحياء.

(الفائدة الرابعة): مجالات وقواعد التنمية الشاملة. فإذا عدنا إلى العموم في قوله تعـالى ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ البقرة: ١٩٥، فإنه يتناول جوانب الإحياء كلها، فإن الفقر والمرض والجهل وشبهها تؤدي إلى التهلكة فهي نقيض الإحياء. ويوجب ذلك الاهتمام الشديد بالبنى التحتية وبالتنمية، وضبط ذلك بموازنات تجعل جانب الإحياء أعظم بكثير من جانب الهلاك في المجتمع والمؤسسات. وسـيأتي تفصيل تحت عنوان خاص إن شـاء الله تعالى.

(الفائدة الخامسة): عبارة ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾، فإن القلب محل الآمال والأماني وميول الفكر والرغبات والأهواء، فيمكن أن تشمل العبارة أمرين، **الأمر الأول**: أن دين الله تعالى ليس بتابع لرغبات الناس وميولهم، بل إن دين الله يحول بين ما ينبغي للمرء من جهة دينه، وما يريده ميل النفس والهوى من جهة أُخرى. **الأمر الثاني**: أن العبارة تنبه المؤمن إلى ضرورة المبادرة بالإستجابة وباستثمار الفرص العملية بعد تقويمها، فإن الله تعالى قد يحول بين المتأخر المسَوِّف وبين القدرة على الإستجابة وعلى تحصيل الفرص، وذلك بإحداث المصاعب والعوائق وشبهها. وبعبارة نقلها مكي في تفسيره: «يحول بين المرء وبين ما يتمناه بقلبه من طول العيش وامتداد الآمال والتسويف بالتوبة، فيعاجله الموت قبل بلوغ شيء من ذلك».

ومنهـــا: **قوله تعـــالى**: ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴾ المائدة: ٣٢، فمن الفوائد:

(الفائدة الأولى): في أنواع الإحياء، فإن جملة ﴿ أَحۡيَاهَا ﴾ فعل في سياق الشرط وتفيد العموم او الإطلاق في كل أنواع الإحياء التي يمكن أن يفعلها الإنسان؛ وضمير النفس يقع على أي نفس محرمة كانت. فمن أنواع إحياء النفوس أي النهوض بها بمضامين الخير، **النوع الأول**: الإحياء بالدعوة إلى دين الله تعالى، فإنه إحياء عظيم لمن يَقبل الدعوة بصدق، قال تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٢. **النوع الثاني**: زيادة الإحياء بالأخلاق والإلتزامات الطيبة

والعلم والمهارات، وبكل نشاط أمر الإسلام بجملته او حض عليه كما سبق في آية الأنفال. مثاله قوله تعالى ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ المجادلة: ١١. **النوع الثالث**: ذكرنا أن علامة الحياة النمو والإنتاج، فمن التزم بمؤمن حتى يجعله نامياً مُنتِجاً للمنفعة، فقد أخذ بدرجة كبيرة من درجات قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾. **النوع الرابع**: الإحياء بالإنقاذ من المخاطر والمهالك، وبالإنقاذ من الأمراض والعوائق التي تُقعِد الإنسان عن العمل والنشاط. **النوع الخامس**: الإحياء بتمكين الإنسان من الضروريات كالغذاء والخدمة الصحية والسكن والتعليم والزواج والعمل ونحوها؛ وبتمكينه أيضاً من جملة من الحاجيات. يوضح الأمر أن إعداد قُدرة احتياطية أمر مطلوب في الشرع، بل هو واجب في كثير من الأُمور، وقد بينا ذلك في (وجهة اللواء). ولا شك أن الحاجيات، وبدرجة أقل التحسينيات، هي القوة الإحتياطية لمواجهة الطوارئ على الضروريات. بل إن المطلوب من العلماء والباحثين المخلصين توقع المآلات الضرورية قبل بلوغها، كي يتم فعلاً تنزيل ما تتطلبه التوقعات من الحاجات منزلة الضرورة. والذي أراه أن استقامة أمر الضرويات يتطلب وجود وفرة من الحاجيات، وبدرجة أقل من التحسينيات. يضاف إلى ذلك أن المباحات هي وسائل الواجبات، فالمجتمع الذي يقل فيه مالكو المباحات (وكثير منها حاجيات) فإنه مجتمع ضعيف عاجز عن مواجهة متطلبات التنمية الرشيدة والمنافِسة. وذكرنا في (المنطلق) تفاصيل عن ذلك؛ ويتصل بذلك كلام مهم للإمام الغزالي في (إحياء علوم الدين/ كتاب الحلال والحرام). **النوع السادس**: الإحياء العام الذي يشمل الشعب عموماً؛ ويشمل ذلك التنمية السياسية والإقتصادية والمجتمعية والدفاعية والأمنية والفكرية والثقافية والعلمية وغيرها؛ ويكون كل ذلك على سبيل المنافسة والمغالبة بين الأُمم.

(الفائدة الثانية): معنى عبارة ﴿ فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا ﴾، نُذَكِّر أولاً أن التشبيه نوع من المماثلة في بعض الوجوه، ولا تلزمه المطابقة الكاملة بين الشيئين. وقد ذكرنا أن علامة الحياة النمو والإنتاج، فمن أعان مؤمناً كي ينمو ويُنتِج، فله أجر مع كل حركة من حركات النمو والإنتاج في حياة من أخذ الإعانة وفي آثار ذلك بعد موته، فتُضاعف الحسنات وكأنه أحيا الناس جميعاً. فالصدقة التي تُشَغِّل النمو والإنتاج صدقة جارية، وبعبارة أُخرى فإن مساعدة واحدة ولكنها تُمكن إنساناً من النمو والإنتاج، ربما تكون أفضل من عدد من الصدقات التي تُطعم فقط. وربما يُراد من العبارة التنبيه إلى فضيلة صدقة الإحياء التي تجعل الإنسان نامياً مُنتجاً كي يقتدي الآخرون بـها، ويأخذ كل فاعل لها أجرها وأجر آثارها وأجر من يستن بها، والله تعـالى أعلم.

وأما محور الإعمار:

فقد قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ هود: ٦١، قوله تعالى ﴿ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾، فيه مسائل:

(أما أصل اللفظ ومعناه): فمشتق من عَمَرَ يعمر عِمارَةً، ويدل على إصلاح الشيء بالبناء او الإعداد او التأهيل المادي والمعنوي؛ والتعمير ضد التخريب. **قال ابن سيده**: عَمَرَ الله بك مَنْزِلك يَعْمُرُه عِمارَةً وأعمَرَه: جعله آهلا. وَمَكَان عَميرٌ: عامِرٌ، وعَمَرَ الرجل مَاله وبيته يَعْمُرُه عِمارَةً وعُمُوراً وعُمْرَانا: لزمَه. وَحكى اللحياني عَن الْكسَائي: تركته يَعْمُرُ ربه: أَي يُصَلِّي ويصوم. اهـ من (المحكم). **وقال ابن منظور**: والمَعْمورُ: المخدومُ. وعَمَرْت رَبِّي وحَجَجْته أَي خَدَمْتُهُ. والعِمارةُ: مَا يُعْمَر بِهِ المُكَانُ. والعُمارةُ: أَجْرُ العِمارة. وأَعْمَرَ عَلَيْهِ: أَغناه. واعْتَمَر الأَمْرَ: أَمَّه وَقَصَدَ لَهُ. اهـ من (لسان العرب). **وقال الراغب**:

والْعَمْرُ والْعُمُرُ: اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة، فإذا قيل: طال عُمُرُهُ، فمعناه: عِمَارَةُ بدنِهِ بروحه. اهـ من (المفردات).

وقال تعالى ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ التوبة: ١٨؛ ومن معاني التصوف أن عمارة المساجد هي من مواقف العبودية لله تعالى، فلا تتأتى إلا بتخريبِ مواقف الهوى والشهوة. وعمارة الأرض تشمل البناء المادي والمعنوي، يدل على ذلك كلام أئمة اللغة، وكذلك كلام الزمخشري وأبي حيان والبيضاوي والآلوسي في تفسير آية التوبة.

قال أبو حيان: وَيَتَنَاوَلُ عِمَارَتُهَا (أي عمارة المساجد) رَمَّ مَا تَهَدَّمَ مِنْهَا، وَتَنْظِيفَهَا، وَتَنْوِيرَهَا، وَتَعْظِيمَهَا، وَاعْتِيَادَهَا لِلْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ. وَمِنَ الذِّكْرِ دَرْسُ الْعِلْمِ بَلْ هُوَ أَجَلُّهُ، وَصَوْنَهَا عَمَّا لَمْ تُبْنَ لَهُ مِنَ الْخَوْضِ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا. من (البحر المحيط)؛ وسبقه إلى ذلك الزمخشري.

(وأما صيغة «استفعل»): في ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾، فيمكن هنا حملها على معنيين أو أحدهما، **المعنى الأول**: أي جَعَلَكم عُمَّارَها، كما في (ديوان الأدب) وفي (المحكم)، وعلى هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ النور: ٥٥، أي يجعلهم خلفاء في الأرض، وكذلك قولهم: اسْتَعْبَدَهُ أي جعله عبداً. **المعنى الثاني**: طلب منهم العمارة فيها، كما قال الزمخشري في (أساس البلاغة)، واستعمال «استفعل» بمعنى الطلب كثير في العربية، كقولهم: اسْتَخبَرْتُهُ واسْتَحَلفته واسْتَعْلَمْتُهُ واسْتَعْجلْتُه. وعلى المعنيين، فإن حكم المغالبة يقتضي إتقان عمارة الأرض بالخير والنفع والتفوق في ذلك. وأما عمارة الأرض بالتفاخر والإسراف في المتعة فلا شك في ذمه وأنه خلاف مقاصد الشرع، فهو من جنس الذين قال تعالى فيهم ﴿أَتَبۡنُونَ

بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾ الشعراء: ١٢٨ – ١٣١.

وأما محور تحصيل المنافع:

فقد قال الراغب: النَّفْعُ: ما يُسْتَعَانُ به في الوُصُولِ إلى الخَيْرَاتِ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ فهو خَيْرٌ، فَالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ. اهـ من (المفردات).

وقال أبو العباس أحمد بن محمد الفيومي الحموي: النَّفْعُ الْخَيْرُ وَهُوَ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ الْإِنْسَانُ إلَى مَطْلُوبِهِ يُقَالُ نَفَعَنِي كَذَا يَنْفَعُنِي نَفْعًا وَنَفِيعَةً فَهُوَ نَافِعٌ، وَانْتَفَعْتُ بِالشَّيْءِ وَنَفَعَنِي اللهُ بِهِ وَالْمَنْفَعَةُ اسْمٌ مِنْهُ. اهـ من(المصباح المنير في غريب الشرح الكبير).

ولما كانت القيمة للمضمون الحقيقي وليس للظاهر المزخرف، فإن النفع هو الخير الحقيقي وليس الشر المزخرف ولا الضر المزين.

وقد جعل الله تعالى للمنافع قيمة عالية، كما في قوله تبارك وتعالى ﴿ ..كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ الرعد: ١٧. وذكرنا في (نخبة المسار) تفسيراً مفصلاً لآية الرعد تحت عنوان (بناء النفوذ العميق)، ومما ذكرناه: فمن أراد أن يحمل المنافع المعنوية فعليه أن يجهز للناس أفضل ما يمكن من الأنظمة الفكرية والسلوكية والتعليمية والقانونية والسياسية وغيرها، وأفضل ما يمكن من الصالحين المؤهلين لتشغيل هذه الأنظمة. ومن أراد أن يحمي المنافع المعنوية فعليه أن يجهزها بأفضل ما يمكن من المنافع المادية كالمدارس والجامعات والمصانع ومراكز البحث وسائر وسائل العمل والحماية. فالنفوذ العميق هو الإمساك بمنافع معنوية ومادية ممتدة في أبعاد الأرض، كما هو

معنى العمق في قوله تعالى ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ الحج: ٢٧، أي من كل طريق بعيد. وما كان كذلك فهو ماكث في الأرض ومن المتعذر إزالته.

ولذلك أنكر الله على من يدعو ما لا ينفع فلا يمكن تحصيل النفع منه، وما لا يضر فلا يمكن أن يُراد منه منع الضر او دفعه، كما في نحو قوله تعالى ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ الأنعام: ٧١؛ وكقوله تعالى ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾ الحج: ١٢ – ١٣.

وأنكر الله أشد الإنكار على من يُهلك المنافع، كما قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٤ – ٢٠٦.

وتدبر التزاحم بين أعمال التنمية الاقتصادية والإجتماعية وأعمال الجهاد، **كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ**: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ، وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلَادَهَا » رواه البخاري ومسلم وغيرهما في سياق حديث.

وقد تجتمع المنفعة والمضرة في شيء واحد، كما يدل عليه قوله تبارك وتعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ البقرة: ٢١٩؛ فتدبر أن هذه الآية الكريمة لم تمنع الخمر ولكن منعت

الوقوع في الإثم بسبب الخمر؛ وبعد ذلك بزمن نزلت آية المائدة التي حرمت الخمر جملة وتفصيلاً. فكل أمر او عمل يلزمنا ولكنه يتضمن او يؤدي إلى منفعة ومضرة، فيجب السعي لتحصيل المنفعة واجتناب المضرة. فإن تعذر الإجتناب التام وكانت المضرة أكبر من المنفعة كما في الخمر، فقد تعين اجتناب الأمر كله والبحث عن البدائل الصالحة. وإن كانت المنفعة هي الأكبر وكانت ضرورية لعينها، فيصح تحمل الضرر الأدنى الذي يتعذر اجتنابه، لأجل تحصيل تلك المنفعة.

ولقيمة المنافع الحقيقية، أوجب النبي ﷺ الحرص عليها، ويقتضي ذلك جعل تحصيل المنافع ثقافة عامة. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » رواه الإمام مسلم وأحمد والنسائي في (الكبرى) وأبو يعلى وغيرهم، وصححه الشيخ الألباني وحسين سليم أسد وغيرهما. فتدبر عبارة « احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ »، فإنها تتضمن شدة العناية بتحصيل المنافع؛ وتدبر عبارة « وَلَا تَعْجَزْ »، أي قاوم العوائق وأحسن في بلوغ المنافع. وسر ذلك أن المنافع الدنيوية هي وسائل الواجبات وتحقيق الغايات الشرعية، بل هي من ضروريات المغالبة إن لم يحتكرها الفاسدون. ويتضمن كل ذلك قوله تعالى ﴿ .... وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ الرعد: ١٧. وأما ظاهر النهي عن «لو»، فينبه سياق الحديث إلى أن المراد به تَذَكُّر القَدَر وما فيه من أسرار لا يعلمها إلا الله تعالى، فإن «لو» المذكورة قد تُنسي حكم القدر. وقال العجلوني: وجمع النووي بينه وبين ما ثبت من استعماله صلى الله عليه وسلم: « لو سلك الناس وادياً »، « لو استقبلت من أمري ما استدبرت »، بأن الظاهر أن النهي عن إطلاقها فيما لا فائدة فيه، وأما من قالها تأسفا على ما فات من طاعة الله

تعالى، أو ما هو متعذر عليه منها ونحوه، فلا بأس، وعليه يحمل ما وجد في الأحاديث. اهـ من (كشف الخفاء ومزيل الإلباس).

وينبغي التذكير بأن الطغيان في المنافع يـجعلها في حكم المضار، فقد قال تعالى ﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴾ طه: ٨١؛ فإن الطيبات هي المنافع المشروعة في الأصل، المالية وغيرها. وأما الطغيان، فكل شيء يجاوز القدر فقد طَغَى، مثلَ ما طَغَى الماءُ على قَوْمِ نُوْحٍ، وكَمَّا طغتِ الصَّيحةُ على ثَمُودَ، والطَّاغِيةُ: الجبار العنيد، كذا في (العين). وقال ابن منظور: وَفِي حَدِيثِ وَهْبٍ: إِنَّ لِلْعِلْم طُغْياناً كطُغْيانِ المَالِ، أَي يَحْمِل صاحِبَه عَلَى التَّرَخُّص بِمَا اشْتَبَه مِنْهُ إِلى مَا لَا يَحِلُّ لَهُ، ويَتَرَفَّع بِهِ عَلَى مَنْ دُونَه، وَلَا يُعْطي حَقَّه بالعَمَلِ بِهِ. وكلُّ مُجَاوِزٍ حدَّه فِي العِصْيانِ طَاغٍ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴾ الشمس: ١١، قَالَ: أَراد بطُغْيانِها. اهـ من (لسان العرب). ومعنى آية الشمس: كذبت ثمود بسبب طغيانها، فالباء سببية وهو قول جمهور المتأولين، كما نقل ابن عطية في تفسيره.

والطغيان في الحلال أنواع كثيرة، **منهــا**: الإسراف والتبذير في إنفاق المال. **ومنهــا**: تسخير الحلال والقُدُرات والوجاهة لخدمة الحرام ولمساعدة الظلمة. **ومنهــا**: الإسراف في التمتع بالطيبات وفي السعي لأجلها، بدرجة تنسيه ما يوجبه الشرع عليه. **ومنهــا**: حين توجد بأيدي المترفين قُدُرات مالية كبيرة، ولا رادع لهم عن سوء الإستغلال، قال تعالى ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ الإسراء: ١٦، أي أمرنا مترفيها بطاعة الله تعالى وبالفضائل ففسقوا بالعصيان والفساد؛ وإنما يكون ذلك حين ينتشر فسق المترفين ويمتد في القرية، أي حين يكون المترفون هم القادة او هم أصحاب النفوذ ولا رادع لهم من القادة. وقد تقدم شرح مفصل

للترف في المبحث الثالث تحت عنوان: «الإسراف والترف والإنغماس في التمتع الدنيوي».

ومن هذا المحور، قيمة الأموال، قال تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ النساء: ٥؛ فتدبر عبارة ﴿ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾، أي جعل الله أموالكم لكم قياماً، وباختصار، فإن القيام مصدر قام، كما ذكر أبو البقاء العكبري وغيره. والقيام في الأجساد نقيض الجلوس والسقوط والإضطجاع، تقول: جلس فلان على الكرسي ثم قام عنها، وقام المريض ثم سقط، ومنه قوله تعالى ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الحشر: ٥. وأما في المعاني وفي أداء الأُمور، فإن القيام يُستعمل بمعنى النهوض للأمر، أي الإستعداد والتحضير والتأهب لأداء الأمر. وكذلك يُستعمل القيام بمعنى النهوض بالأمر ومراعاة متطلباته وفعله وتوفيته حقه؛ ونقيض ذلك: توانَى وتقاعس وتكاسل وتثبط. فمن النهوض للأمر او إليه قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ ... ﴾ المائدة: ٦. ومن النهوض بالأمر أي فعله وتوفيته حقه من الجهد، قوله تعالى ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ المائدة: ٦٨، وقوله تعالى ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ الأنعام: ٧٢، أي أدوها بشروطها وواجباتها. وقال تعالى ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ آل عمران: ١١٣، ونقل ابن منظور عن الإمام الفراء: أُمَّة قَائِمَة أَيْ مُتَمَسِّكَةٌ بِدِينِهَا. وقِوَامُ الأَمر، بِالْكَسْرِ: نِظامُه وعِماده، كما في (لسان العرب).

نرجع إلى آية النساء وعبارة ﴿ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾، فهي نص صريح أن الأموال سبب كبير من أسباب النهوض بالمؤمن وبالجماعة وبالدولة، فالمال هو مِن الذي يُقِيمُك كما هي عبارة أبي عبيدة في (مجاز القرآن)؛ والمال هو قيام عيشك كما روى الطبري عن الحسن؛ **وقال الزجاج**: يقال: هذا قوام الأمْر وملاكه. المعنى: التي جعلها الله تقيمكم فتقومون بها قياماً، فهو راجع إلى هذا، والمعنى جعلها الله قيمة الأشياءِ فبها يقوم أمْركم. اهـ من (معاني القرآن وإعرابه)؛ **وقال الماتريدي**: هكذا جعل اللهَّ هذه الأموال أغذية للخلق، بها يقوم دينهم وأبدانهم. اهـ من (تفسير الماتريدي)؛ وَالْقِيَامُ وَالْقِوَامُ: مَا يُقِيمُكَ كما ذكر القرطبي، أي ما ينهض بك. ولابد من التذكير بأن الآية ليس فيها حصر ما يقوم بنا بالمال، ولكن المال سبب كبير لإقامة الحال، وعبارة السمين الحلبي: جعله (أي المال) مما يمسسككم ويرد قواكم لأنه سبب رزقكم. اهـ من (عمدة الحفاظ). ومما قيل في المال: «رجل بلا مال رجل فقير، وأفقر منه من لا يملك إلا المال»، نقله الباحث منير عبود في (موسوعة الأمثال والحِكم والأقوال العالمية).

ويوجب كل ذلك السعي لتحصيل الأموال واستثمارها والإنتفاع بها وصيانتها وحمايتها من عوامل الفساد والطغيان.

ومن هذا المحور، الإعداد الإحتياطي، منها قوله تعالى ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ البقرة: ١٥٥ – ١٥٧؛ أي ولَنُصِيبنكم بذلك إصابة تشبه فعل الـمُخْتَبِر لأحوالكم، هل تصبرون على البلاء وعلى العمل وتثبتون على ما أنتم عليه من الطاعة؟ وواضح أن الجماعة الواعية لا تجلب على نفسها هذه المصائب عمداً، ولكنه ابتلاء تقتضيه الأحوال القاهرة او بسبب سوء إدارة الجماعة، ويجب على

الجماعة السعي بقوة لاجتناب المصائب. فلا شك أن حصول شيء من تلك المصائب يُرشد إلى العمل والإعداد لإجتنابها، ولتقليل أضرارها حين تقع. ويوجب ذلك التنمية ضد المخاوف (كالتنمية الدفاعية والأمنية والصحية والثقافية وغيرها)، وكذلك التنمية الغذائية والمالية والإنتاجية (الثمرات). وتوجد نصوص أُخرى في الإعداد الإحتياطي، ذكرناها في تفسير آية الإعداد وما بعدها من (وِجْهة اللواء)، وسيأتي ذكرها هنا باختصار تحت عنوان: «من عوامل تأسيس وإدامة التنمية» إن شاء الله تعالى.

وأما محور المنافسة والمغالبة: فقد ذكرناه في (المنطلق) وفي (نخبة المسار)، في تفسير قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ آل عمران: ٢٠٠، وقوله تعالى ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ البقرة: ١٤٨. وسبق ذكره في هذه الدراسة أيضاً.

وأما مكافحة العوائق والهدم: فسيأتي ذكره قريباً في موضعين إن شاء الله تعالى.

مجالات
وقواعد التنمية بالخير

سبق أن ذكرنا أن التنمية الشاملة تشمل كل مجال طلب الشرع العناية به وإقامته، فإن فيه حياة لنا، وتشمل كذلك وسائل خدمة الدين والنهوض به في مجالات الحياة، وقد بينا ضابط ذلك في الفائدة الثانية من تفسير آية الأنفال.

فمجالات التنمية الشاملة تشمل:

- الفكر والثقافة الإسلامية.

- العلم وتنمية البحث والتطوير.
- التربية والتعليم ومكافحة الأمية.
- كفاية الضروريات ووفرة من الحاجيات لعامة المواطنين.
- رؤية الأُفق العالمي لمجالات التنمية وجعله ثروة معرفية وليست عقائدية، ويمكن الإنتفاع بها فيما يخدمنا ولا يتعارض مع الإسلام.
- الإنتاج المادي كالصناعة والزراعة والبناء، والعلوم المتصلة بها.
- الأنظمة الإجتماعية وقواعدها الإسلامية، كالنظام الأُسَرِي والتكافل والمسؤولية العائلية.
- الخبرة البشرية ومهاراتها التي يمكن أن تخدم كل مجال من مجالات التنمية.
- الأنظمة (القيادة والإدارة والتنفيذ) في المجالات المتنوعة، كالمجال السياسي والإقتصادي والدفاعي والأمني والقانوني والتعليمي وغيرها، وجعل هذه الأنظمة خاضعة دائماً للتقويم والتحسين المستمر.
- الخدمات العامة، كالمياه والكهرباء والموصلات والطاقة والصرف الصحي وغيرها.
- عمارة الأرض بالخير والنفع، المادية منها والمعنوية والعلمية.
- تنمية القوة: وتعتمد على التنسيق والتوجيه الإستراتيجي لمجموع المجالات المذكورة أعلاه بالإضافة إلى الأمن والدفاع. ويحتاج هذا المجال إلى عنوان خاص.

تنمية القوة:

القوة ضد الضعف، والمستضعَف هو المقدور عليه من العدو. فمعنى القوة باختصار هو القدرة على التأثير في الآخرين والقدرة على تقليل او منع الوقوع تحت تأثيرهم. ويمكن قياس القوة بقياس هذين العامليْن في المجالات التي تُشكل القوة بصورة مباشرة او غير مباشرة؛ ويشمل ذلك الأنشطة الدفاعية والأنشطة التي يمكن أن تساعد الدفاع.

يوضح الأمر أنه لا تو جد قوة بشرية تستقل بنفسها إلا قوة العقيدة في القلب؛ وأما المجالات الأُخرى كالقوة الثقافية والعلمية والعسكرية والأمنية والبشرية والسياسية والإقتصادية، فإن بعضها يرتبط ببعض ويؤثر عليه.

ويوجب الإسلام بناء القوة بأنواعها كلها، وعلى سبيل المغالبة والتنافس، وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل في المبحث الثالث من (وِجْهَة اللواء). ونكتفي هنا بذكر بعض النصوص الشرعية:

قال تعالى ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ (٦٠) ﴾ الأنفال: ٥٩ – ٦٠.

وقال تعالى ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا (٨٤) فَأَتۡبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾ الكهف: ٨٣ – ٨٥؛ فتدبر الترابط بين التمكين وتحصيل الأسباب بأنواعها في المجالات كافة.

وقال تعـــــالى ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴾ الإسراء: ٦؛ فتدبر أن الله تعالى لم يقل: أكثر نفراً أي أكثر عدداً، ولكنه تعالى قال ﴿ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ﴾، أي أكثر قدرة على استنفار الآخرين من شعبهم ومن غيرهم. فقوة بني إسـرائيل خلال العقود الماضية تعتمد بدرجة رئيسـة على قدرتـهم على تحريك الآخرين وتوظيفهم لخدمتها. ولم يحصل ذلك إلا بعد جهود كبيرة وعلى مدى زمن طويل.

وقال تعالى ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ الأنبياء: ٤٤؛ **أما الأرض**: فهي التي عليها الناس، ويُعبر بالأرض أيضاً عن أسفل الشيء كما يُعبر بالسماء عن أعلاه، وأَرْضُ الإِنسانِ رُكْبتاه فما بَعْدَهُما وأرْضُ النَّعْلِ ما أصابَ الأرضَ منها كما في (المحكم) لإبن سيده؛ ويُقَالُ لِأَعْلَى الْفَرَسِ سَمَاءٌ، وَلِقَوَائِمِهِ أَرْضٌ كما قال ابن فارس في (معجم مقاييس اللغة). وقال أبو البقاء الكفوي: الأَرْض: كل مَا اسْتَقر عَلَيْهِ قدماك، وكل مَا سفل فَهُوَ أَرض. اهـ من (الكليات). **وأما عبارة «ننقصها»**: فالنقص نقيض الزيادة. وينبه السياق إلى أن التقدير: نأتي النفوذ في الأرض او السلطة على الأرض ننقصها من أطرافها، فليس المقصود النقص في جرم الأرض. وفي تفسير ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ الرعد: ٤١، قال ابن كثير: وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: لَوْ كَانَتِ الْأَرْضُ تَنْقُصُ لَضَاقَ عَلَيْكَ حُشُّكَ، وَلَكِنْ تَنْقُصُ الْأَنْفُسُ وَالثَّمَرَاتُ، وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ: لَوْ كَانَتِ الْأَرْضُ تَنْقُصُ لَمْ تَجِدْ مَكَانًا تَقْعُدُ فِيهِ، وَلَكِنْ هُوَ الْمَوْتُ. وَقَالَ ابن عباس في رواية: خرابها بموت علمائها وفقهائها وَأَهْلِ الْخَيْرِ مِنْهَا، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضًا: هُوَ مَوْتُ الْعُلَمَاءِ. اهـ من (تفسير ابن كثير). **وأما عبارة «من أطرافها»**: فطرف الشيء جانبه وناحيته وامتداده، ويُستعمل في الأجسام والمعاني، كقوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ طه: ١٣٠؛ وقوله تعالى ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ آل عمران: ١٢٧. فكأن الأرض في آيتي الرعد والأنبياء هي أرض نفوذ الأمر والسلطة. ولما كان للبُنى التحتية تأثير حاسم على النفوذ والسلطة، فإن أكبر تأثير للتناقص في الأطراف هو تناقص البنى التحتية التي تمد المركز في أعمال الدولة ومؤسساتها. ويشمل ذلك الجوانب المتنوعة التي ينبغي أن تُعَد كي تمد المركز بالقوة الاقتصادية والبشرية والعلمية والمعنوية وغيرها. فتنبه الآية إلى أن زوال الأُمم يمكن أن يكون ابتداءً من أطراف البُنَى التحتية

التي تمد المركز، ويتفاقم الأمر حتى يضعف إمداد المركز وتدخل فيه اختراقات الأطراف، وبذلك تتضاءل قُدُرات المركز الدفاعية ويسهل النيل منه. والتعقيب بعبارة: ﴿ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ يساعد على تفسير «الأرض» بما ذكرناه، كما أن هذا التفسير يصلح كقاعدة عامة، وليس خاصاً بزمن دون آخر. وأما من حمل كلمة «الأرض» في الآية الكريمة على الجسم او الجرم الذي نعيش عليه، فإنه مضطر إلى تضمين الآية ما ذكرناه من المعاني كي تتم معرفة كيفية زوال الدول الذي قصدته الآية. ومن المهم هنا أن في الآية الكريمة إشارة إلى عدم كفاية طرف واحد من الأطراف التي يمكن أن تمد مركز القوة، بل تجب العناية الكبيرة بالمركز وبالأطراف التي تمده بأنواع الإمدادات، وحمايتها كلها من الترهل والإختراق. وقال الراغب: إنّ نقص الأطراف من الشيء موصّل إلى توهينه وإزالته، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾. اهـ من (تفسير الراغب/ في المكتبة الشاملة)، والله تعالى أعلم.

وتوجد نصوص شرعية تخص البنى التحتية، منها قوله تعالى ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ النحل: ٢٦، وقوله تعالى ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ الفتح: ٢٩، وقد ذكرنا هذا الأمر في (المنطلق) وفي (نخبة المسار).

من أُصول التنمية:

للتنمية أُصول فقهية مهمة:

منهـــا: فهم الصلة بين البناء والهدم، او التوازن بين الأوامر والنواهي (أي المعروف والمنكر). فمما ذكرناه في (المنطلق) وفي (نخبة المسار)، أن تنمية البناء الإسلامي، إنما هو

بطاعة الأوامر الشرعية، أي إقامة الواجبات من عبادات ومعاملات وقوة وعدل وعمران ومؤسسات وأنظمة اجتماعية وقانونية وسياسية ودفاعية وغيرها، وكذلك ترسيخ منهج التنافس والمغالبة في إتقان الأنظمة وفي فروض الكفاية الكثيرة. وأما التحريم او النواهي الشرعية فهي حماية للبناء من الهدم ومن تراجع التنمية. فبناء الفرد بالتقوى والفضائل والعلم يُهدم بالشهوات والأهواء وعوامل الجهل، والبناء الإجتماعي يُهدم بالرذائل والفساد، والبُنية القانونية تُهدم بالظلم والفساد، والبُنية السياسية والأمنية تُهدم بتولية الظالمين وموالاة الأعداء وشبهها من المحرمات السياسية، وهكذا الأمر في المباني الإسلامية كلها. وعند التساهل في تمرير الفساد وحصول النخر في قواعد البناء، فإن الهدم يتسارع جداً، ولذلك قالوا: إن الهدم أسرع من البناء ، وقد قال تعالى ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ النحل: ٢٦. ولذلك كله، فإن من ضرورات التنمية أن تُقام البُنى الشرعية بتدرج منضبط تجمع فيه بين البناء والحماية من الهدم، وتجمع فيه أيضا بين إطلاق وسائل البناء أي فتح الذرائع وبين سد الذرائع إلى الهدم، فهذا كله من ضرورات العمل، وقد نضطر لمنع مفسدة كبيرة الى تحمل مفسدة دونها. وسبق ذكر المزيد تحت عنوان: «طرق إطالة الإمتداد المستقبلي».

ومنهـــا: عدم حصر التفكير بوسيلة المباشرة والتنفيذ. فلأجل التمهيد لإقامة الحق وتنميته ولتقليل الفساد ومنعه، يجب التفكير بكل الوسائل والأحكام التي تخدم المقصود وتساعد عليه.

ولفهم ذلك يمكن النظر إلى أحكام دينية لها وسائل ثابتة بالشرع. فالسرقة مثلاً وسبل منعها، فقد ثبتت في الشريعة أحكام كثيرة تؤدي إلى سلامة المجتمع وندرة السرقة بالإضافة إلى تشريع قطع يد السارق التي هي وسيلة المباشرة، وقد يكون القطع متأخراً في

الرتبة عن الوسائل الأخرى. وأما الزنا فإنه لا يمنع بقطع الذكر أو الإختصاء ولكن بغض البصر وستر ما يجب ستره وتيسير النكاح والحد وما أشبه ذلك. والكذب كذلك لا يمنع بقطع اللسان ولكن بغير ذلك من الأحكام وأساليب التربية الإسلامية.

فكذلك الأمر في الوسائل التي ليس فيها نص، ولكن يتصرف بها المسلمون منعاً وإيجاباً بحسب ما تقتضيه الأحكام الإسلامية، فإن وليّ الأمر أو الفقيه لا يحصر فكره بوسيلة المباشرة وإلا فإنه قد يتأخر بحيث لا يقدر أن يفعل شيئاً، ولكنه يخدم المقصد الديني من كل جهة وبكل وجه مشروع.

وأيضاً فإن وسيلة المباشرة قد يكون فيها فوائد أخرى كثيرة مما يوجب سد الذريعة من غير وسيلة المباشرة، فعن سعد ابن أبي وقاص قال: أَرَادَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ أَنْ يَتَبَتَّلَ، فَنَهاهُ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَوْ أَجَازَ لَهُ ذَلِكَ لَاخْتَصَيْنَا. رواه مسلم والبخاري وغيرهما. والمراد بالتبتل هنا الإنقطاع عن النكاح، وإنما أرادوه منعاً للوسيلة التي تشغلهم عن الإنقطاع إلى الله تعالى، وقد قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ المزمل: ٨، فالتبتل هو الإنقطاع، فلم يحل لهم الاختصاء أو قطع الذكر لأجل الانقطاع إلى الله تعالى.

وقريب من ذلك التنمية الثقافية والأخلاقية والعلمية والصناعية والزراعية وغيرها، فإن البداية في كثير من الأحيان ليست بالمرحلة الختامية، ولكن بأعمال أُخرى (غير مباشرة) تمهد وتوصل بعد زمن إلى الغاية المرجوة؛ وحتى حين تقدر أن تبدأ بالغاية المرجوة بصورة مباشرة، فإنك تحتاج عادة إلى تنمية العوامل المساعدة غير المباشرة، وإلى مكافحة العوامل الضارة غير المباشرة. ويحتاج الأمر إلى تخطيط بأُفق واسع يرى العوامل المؤثرة سلباً وإيجاباً بصورة واسعة وقابلة للإتساع.

ومنهـــا: منهج تنمية الوسع (القُدُرات). فإن ما لا تقدر عليه الآن، فإنك تقدر عليه بعد تطوير قُدُراتك بإذن الله تعالى. وإن كنتَ قادراً على السعي لتنمية الوسع فإنك مكلف

بذلك إذا كان في خدمة الواجبات الشرعية. وقد تكلمنا بتفصيل عن هذا الأصل وما يتصل به، في (المنطلق/ الفصل الثالث : الضرورة والإضطرار والتَّـقِـيَّـة: تنمية الوسع او تطوير القُدُرات).

من عوامل تأسيس وإدامة التنمية:

- تُعَدُّ التنمية الشاملة من أهم مطالب الدين كما سبق بيانه في تفسير آيات التزكية والإحياء، وذلك أن ظهور الشرع وأحكامة يرتبط بقوة بالتنمية.
- إشـراك عامة الشـعب إذ يجب تنميتهم كلهم، فإن واجب التزكية والإحياء يشمل كل مؤمن، ويشمل بالتلازم المؤسسات والدولة.
- إعداد البيئة الصالحة للتنمية، مثل ثقافة المسؤولية العامة ووجود الأنظمة الجيدة ومكافحة عوائق التنمية.
- شمول الجوانب التي يقوم عليها الإحياء، أي التي يشملها طلب شرعي مباشر او غير مباشر، على نحو ما ذكرناه في تفسير آيات التزكية والإحياء.
- التوازن بين المجالات، وليس معنى ذلك تساوي الجهد والإنفاق بينها، ولكن المقصود أن يأخذ كل مجال نصيبه بحسب أولويته وأهميته الإستراتيجية. وبعبارة أُخرى، يُعطى كل جانب نصيبه المقرر في توازن المصالح. وأما التوسع في جزء من الإسلام من طريق التفريط في أجزاء أخرى ، فهذا من جنس الغلو في الدين.
- الإلتزام الشـرعي والأخلاقي. ونُذكِّر هنا بقوله تعـــالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣، فكأن المعنى على حذف مضاف، تقديره: أعمال الحياة وأعمال الموت أي أعمال التحضير للموت، فينبغي أن تكون كلها لله

تعالى، ومنضبطة بأحكام الشرع. وقد تقدم تفسير الآية في الفائدة الثالثة من عنوان «اكتساب صفة المبادرة والسبق بالخيرات».

● الواقعية: أي العمل ضمن الوسع مع عمليات تنمية الوسع. مثال ذلك قوله تعالى ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ الأحزاب: ٦، فالنبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم في رعاية مصالحهم ، ومن أهمها تنميتهم وتقوية دور الدولة في خدمتهم. وتدبر حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله أَنّ رَسُولَ الله ﷺ قال « أَنا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ » رواه الإمام مسلم وغيره في سياق حديث. والضَّيَاع مصدر ضاع يضيع ضياعًا، ومثله: قضى يقضي قضاءً، ويُستعمل إسماً لكل ما هو معرض أن يضيع إنْ لم يُتعهد كالذرية الصغار والأطفال والزَّمْنى الذين لا يقومون بذاتهم وسائر من يدخل في معناهم من المرضى والمعاقين. وبلوغ الدولة لهذا الإلتزام العالي يتدرج بحسب تدرج قُدُرات الدولة، فبعد ذكر هذا الحديث في (طرح التثريب) قال الحافظ زين الدين العراقي او ابنه أبو زرعة: وَالَّذِي تَقَدَّمَ مِنْ الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا «أَنَّهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَعَلَ ذَلِكَ حِينَ فَتَحَ الْفُتُوحَ وَاتِّسَاعِ الْأَمْوَالِ». وَكَيْفَ كَانَ، فَهَذَا الْحُكْمُ وَهُوَ «امْتِنَاعُهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنْ الصَّلَاةِ عَلَى مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ» مَنْسُوخٌ بِلَا شَكٍّ فَصَارَ يُصَلِّي عَلَيْهِ وَيُوَفِّي دَيْنَهُ كَمَا ثَبَتَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ. اهـ من (طرح التثريب). وقد سبق الكلام عن رؤية الواقع وتأثيره في المبحث الثالث.

● التطور والتغيير او المنافسة والمغالبة: يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ آل عمران: ٢٠٠، وقوله تعالى ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ البقرة: ١٤٨ . وقد ذكرنا تفسير الآيتين في (المنطلق).

● التقويم المنتظم لمسار التنمية.

● العمل للأجيال القادمة: من ذلك الاهتمام بالطفولة والشباب ونقل الرسالة إليهم، وحساب حاجة الأجيال القادمة في الموارد الطبيعية وفي سلامة البيئة وفي السكن. ومن ذلك جعل المشاريع الإنتاجية قابلة للإستمرار إلى الجيل القادم ولكن من غير تفريط بالتطوير والتحسين ومقتضيات المغالبة. وهذه الرؤية يشملها حديث ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ « أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » رواه مسلم والبخاري وغيرهما. وعلى الجيل الحاضر أن لا يكون سبباً في انحراف الجيل القادم، وقد قال تعالى ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ ﴾ مريم: ٥٩ – ٦٠ .

● توفية الحقوق: وقد ذكرنا ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ الشعراء: ١٨١ – ١٨٣، وقد تقدم تفسير هذه الآيات في المبحث الثالث تحت عنوان «الوزن والميزان».

● الإعداد الإحتياطي: توجد أدلة عديدة توجب هذا الإعداد ، فقوله تبارك وتعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم ..... ﴾ الأنفال: ٦٠، يشمل القوة المُجَهزة للإستعمال والقوة الإحتياطية لتحسين الأداء (أي القوة الإضافية)، وكذلك الإحتياط المدَّخر، وقد ذكرنا تفسيراً مفصلاً للآية في (وجهة اللواء). وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ الفرقان: ٦٧، فتقدير

الإنفاق بما يقوم به الأمر وعدم الإسراف بإنفاق ما تبقى، يستلزم إبقاء رصيد احتياطي للنوائب او التنمية في مجال آخر او الإدخار. وكذلك أدلة السياسات الوقائية، فإنها تشمل الإعداد الإحتياطي ، كقصة ردم يأجوج ومأجوج، وكذلك قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ النساء: ٧١، فإن الحذر إعدادٌ لخطر مستقبلي محتمل. وقصة يوسف عليه السلام مثال واضح على الإدخار للنوائب، وذكرنا في (المنطلق) أدلة أخرى، كما ذكرنا في (وجهة اللواء) تفاصيل مهمة. وفي كثير من الأحيان تكون العاقبة أليمة جداً لمن رمى بقُدُراته كلها ولم يترك رصيداً احتياطياً. ومن الإحتياط لتحسين الأداء، قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ البقرة: ٢٨٢.

- المحافظة على دور الدولة في التنمية، وذلك لمسؤولية القيادة عن تنمية الشعب، وكذلك لمنع استبداد المنافع الخاصة وتحولها إلى مضار. فتدبر أن مسؤولية التزكية او التنمية بالخير تبدأ من قيادة الدولة كما سبق في قوله تعالى ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٥١. وكذلك التوجيه إلى أعمال الإحياء أي التنمية بالخير، كما سبق في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الأنفال: ٢٤. هذا بالإضافة إلى واجب الدولة في الإنهاء المتدرج لإحتكارات الأغنياء الصناعية والتجارية والمهنية وغيرها، فقد قال تعالى ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ الحشر: ٧، وقد قرأ هشام وأبو

جعفر المدني: «تكون» بالتاء، و: «دُولةٌ»، بالرفع على أنه فاعل لكان التامة فلا يوجد حذف ولا حاجة إلى تقدير، ومعنى هذه القراءة: كي لا توجد دُولة بين الأغنياء منكم، ولفظ «دُولة» اسم لما يُتداول، وهو في الآية نكرة منفية تفيد العموم. وتفصيل ذلك أن تقسيم الفيء على الوجه المذكور هو واحد من التشريعات التي تهدف إلى منع وجود أي نشاط من الأنشطة المهمة في المجتمع يحتكره الأغنياء، فلا يجوز مثلا أن يكون نظام العمليات الإنتخابية معتمداً على تمويل غير مقيد يستخدمه الأغنياء كي تكون المناصب القيادية بأيديهم وأيدي من يأخذ منهم، ولا يجوز كذلك أن تعتمد وظائف الشهادات العليا بشكل واسع على الدراسة بالنفقة الخاصة إذا كانت باهظة الثمن يحتكرها الأغنياء وأولادهم، ولا يجوز أن يكون جزء كبير من الإعلام حكراً عليهم، وإلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة. وقراءة الجمهور ليست معارضة لمعنى قراءة هشام وأبي جعفر المدني، وقد بينا ذلك في (وجهة اللواء)، تحت عنوان: «الفقه الاقتصادي في مواجهة عولمة الرأسمالية». وللدولة كذلك المسؤولية الكبرى في سياسة الموارد الطبيعية والمحافظة على كونها مالاً عاماً. والدولة مسؤولة كذلك عن ضبط ترشيد الإستهلاك من قِبَل المنتِج والمستهلِك، ومسؤولة عن حماية المستهلِك والإنتاج الإستراتيجي؛ ومسؤولة أيضاً عن ضوابط توفية حقوق العاملين في المؤسسات الحكومية وغيرها. ومن مسؤوليات الدولة أن تضمن من المؤسسات الإنتاجية عدم التعدي على البيئة.

● من ضوابط التعاقد مع شركات الإستثمار: الإستثمار الإصطلاحي هو وسيلة شائعة من وسائل التنمية، مثل التعاقد مع شركة لإصلاح أراض زراعية او لإنشاء مطار مدني او غير ذلك من المشاريع. غير أن الإستثمار وسيلة لسرقة الشعوب وتنمية الفساد في الدول الضعيفة وفي ظل الحكومات الفاسدة. فلابد من ضبط الإستثمار بضوابط تضمن الحقوق المشروعة للطرفين، فمن الضوابط:

- ✓ النزاهة الوظيفية للجهة الحكومية المسؤولة عن التعاقد والمتابعة.
- ✓ مراعاة معايير عالية في خصائص المشروع، وبتقنيات متقدمة.
- ✓ الأصل في الإستثمار الأجنبي المنع إلا عند عدم التيقن من قُدرة الشركات المحلية على تحقيق المعايير المطلوبة او تقديم الضمانات المطلوبة او تمويل العمل بدون قروض حكومية، وأما قروض المصارف غير الحكومية فلا مانع منها، ويتحمل المستثمر المحلي مسؤوليتها بالكامل. وكذلك يجوز الإستثمار الأجنبي عند غلو الأسعار المحلية قياساً إلى الأجنبية.
- ✓ المنافسة المفتوحة في اختيار أفضل الشروط.
- ✓ تكون حقوق المستثمر بعيدة جداً عن مضامين امتلاك الأُصول الوطنية، ولكن مضامين الأجر وقيمة العمل. وبعبارة أُخرى، يكون المستثمر مالكاً لشركته ولقيمة عمله. ويمكن أن تُدفع قيمة العمل بالتدريج من أرباح الـمُنْـتَج او من الإستقطاعات من مُستعمِلي الـمُنْـتَج.
- ✓ جعل الإستثمار الأجنبي وسيلة لنقل التقنيات العلمية والصناعية وغيرها مما يتضمنها الأداء التنفيذي، ويشمل ذلك تدريب وتأهيل الفنيين المحليين، وكذلك تشغيل العمالة الوطنية بنسبة تتوافق مع طبيعة العمل.
- ✓ لا يجوز أن يقوم المستثمر ببيع الإستثمار او تحويله إلى جهة أُخرى، سواء كانت أجنبية او محلية.
- ✓ شراكة المستثمر الأجنبي مع شريك محلي ممكنة قبل الإبرام النهائي للعقد، ولكنها ليست ضرورية إذْ يمكن أن تُدخل الفساد. وبدلاً من ذلك، توضع شروط مفصلة في العقد تُـمَكِّن الطرف الأول في العقد (أي المؤسسة الحكومية) او مَن يخوله الطرف الأول من تعديل المسار الخاطئ.

✓ يُسَـنُّ قانون مفصل للإستثمار عموماً، كشروط الإستثمار والتسهيلات الضرورية في حركة الأموال ونقل الأدوات والإشراك الفني فقط للخبراء الدوليين، والمحافظة على سلامة البيئة، وتُسَـنُّ مواد قانونية لتسوية النزاع. ويوضع قانون للإستثمار الأجنبي؛ ثم يُبرمُ عقد خاص مع كل شركة.

عوائق التنمية:

ما نذكره هنا إن شاء الله، له تتمة ذكرناها في (وِجْهة اللواء) تحت عنوان: «من الأعمال المالية المفسدة للمصالح العامة»؛ وأُخرى ذكرناها في (نُخبة المسار/ المبحث الرابع) تحت عنوان: «اجتناب أسباب ركود الطاقات ومقاومة الأنظمة».

فمن عوائق التنمية التي تجب مكافحتها:

- إغفال شمول الأنظمة بمتطلبات التنمية، وخاصة النظام السياسي فإن الإستبداد يُعَدُّ من أشد عوامل الركود وعوائق التنمية، وسواء كان الإستبداد ذاتياً او كان من متطلبات التبعية الخارجية.
- استهلاك طاقات المواطنين بالفقر والمرض والبطالة والأزمات وبتخفيض العملة النقدية الوطنية.
- الفساد الوظيفي.
- التخريب المجتمعي، كالتفلت من الإلتزام العائلي، وغيره من أحكام المجتمع في الإسلام. وكذلك تعاطي المخدرات والفساد الاجتماعي.
- نفوذ المترفين وعداوتهم الباطنة للمصالح العامة، وقد سبق بيان هذا الأصل.
- الإضرار بالموارد الوطنية، قال تعالى ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٥ – ٢٠٦، وقال

تعالى ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٥١ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢ ﴾ الشعراء: ١٥١ – ١٥٢. ويشمل الإفساد في الأرض: إفساد الموارد، والعدوان على الحقوق والإلتزامات الواجبة.

● الغلو الشائع في الإستهلاك: فينبغي توجيه صناعة الإستهلاك بتغليب معايير الفائدة (المنفعة) على معيار مطلق الرغبة في سلع الإراحَة وتخفيف المشاق، وبعبارة أخرى تغليب معايير الفارق الوظيفي بين منافع السلع على معيار الإغراء الصوري والإقتناع الظاهري؛ والغاية من ذلك أن يكون الطرفان رابحين، أي المنتِج والمستهلِك. وهذا النوع من التوجيه يحتاج إلى ملكة قانونية وتنفيذية لتحقيق الغاية، وهي ترشيد مسار التنافس التجاري وليس إماتة التنافس. ومن الصعب تحقيق هذه الغاية بالكامل، ولكن بدرجة نافعة للإقتصاد. وبخلاف ذلك، فإن أرباح المنتجين هي خسائر المستهلكين. يؤيد ذلك أيضاً أن الشركة او المؤسسة الخاصة عليها إلتزامات المواطنة والتعايش، حالها في هذا الأمر حال الفرد، معنى ذلك أن مصلحة رؤوس الأموال في الشركة يجب أن تقترن برؤية مماثلة لصالح المستهلِك. وتدبر في هذا المعنى حديث أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » رواه البخاري وغيره.

● الغلو الشائع في اللهو والتفاهات، وقد يصل كثير من هؤلاء إلى مضمون قوله تعالى ﴿ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١ ﴾ الذاريات: ١٠ – ١١، يُقال: مَاء غَمْر أي كثير مُغرق، وقد غَمَرَه الماء يَغْمُرُهُ أي علاه، فهؤلاء قد غمرتهم الملذات والملاهي فأنستهم الصواب وحسن التفكير. وتوجد في المجتمعات وسائل كثيرة تغمر الناس بالشهوات والتفاهات، وتمنعهم من النمو بالخير والفضائل

والعمل الصالح. وسيأتي زيادة تفصيل في المبحث القادم (السادس) تحت عنوان: «إعداد المجتمع للتضليل».

● الغلو في الحرية الفردية: فعن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا » رواه الإمام البخاري وأحمد والترمذي، وقوله ﷺ « والواقع فيها » أي الساقط في عدم الإلتزام بمضامينها، وتدبر العبارتين الأخيرتين في الحديث، فإنه صريح في منع الإضرار بالآخرين وفي الأخذ على أيديهم. وبعبارة أُخرى، أن الحرية الفردية يجب أن لا تضر الآخرين. ويتصل بهذا المعنى قوله تعالى ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ هود: ٨٧.

● إلزام الرجل او المرأة بآراء فقهية غير مُلزمة، فهي بعد التنقيح مباحة او فرض كفاية يُضبط بضوابط فروض الكفاية. يوضح الأمر أن التنمية يجب أن تضبط بضوابط التنافس والمغالبة، أي بضوابط المصابرة والمرابطة، فكل إلزام بها ليس بملزم فإنه يوهن المرابطة والمغالبة. مثال ذلك ما يذهب بعضهم إلى إلزام المرأة بلزوم بيتها إلا عند الضرورة كأن تكون مريضة فتذهب إلى المستشفى. يوضح الأمر قوله تعالى ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ

﴿ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٢ – ٣٣؛ فلو كانت العبارة: لستن كالنساء، لدلت على أن الخطاب التكليفي لأُمهات المؤمنين خاص بهن إلا إذا دلَّ دليل على العموم كما في أمرهن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. غير أن العبارة القرآنية صيغتها: ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾، ولفظ القلة أي «كأحد من» يؤكد إخراج سائر النساء من الحكم إلا بدليل للعموم، وهذا كحال صيغة القلة في نحو قوله تعالى ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ الإسراء: ٢٣، وكقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ الأنعام: ١٥٩. ويؤكد أن القرار في البيوت خاص بأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، أنه في غيرهن عقوبة كما في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ النساء: ١٥. وتوجد أمثلة أُخرى كجواز حضور النساء في المساجد وغيره.

المبحث السادس
التفكير العدائي

....

معنى العداء

يدل لفظ «العدو» على حركة في النفس او الجسد او العمل، وهي حركة تباعد وعدم وِئام او أحدهما؛ ويُستعمل في ثلاثة معان، بينها كثير من التداخل:

المعنى الأول: التحرك الجسدي او المعنوي، بترك جهة او التحول إلى جهة. فالعَدْو هو الجري او نوع من الإنطلاق. يُقال: عَدَا الرَّجُلُ والفرسُ وَغَيْرُهُ يَعْدُو عَدْواً وعُدُوّاً وعَدَوانًا وتَعْداءً وعَدَّى، كما في (لسان العرب)؛ وعَدَا الماءُ يَعْدُو: إِذا جَرَى، كما في (تاج العروس). وأَتيْته عَدْواً، وَقَالُوا: هُوَ مِنِّي عَدْوةُ الفَرَس، تُرِيدُ أَن تَجْعَلَ ذَلِكَ مسافَة مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ. والعَدَوانُ والعَدَّاء، كِلَاهُمَا: الشَّديدُ العَدْوِ. وتَعَادَى القومُ: تَبارَوْا فِي العَدْو. وقال تعالى ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ الكهف: ٢٨. وَيُقَالُ للخَيْل الْمُغِيرة: عادِيَة؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴾ العاديات: ١. وكذلك يُستعمل هذا المعنى في حركة المعاني والأفكار، يُقال: عَدَا الأَمرَ يَعْدُوه وتَعَدَّاه، كِلَاهُمَا: تَجاوَزَه. وعَدَا طَوْرَه وقَدْرَهُ: جاوَزَهُ. وَيُقَالُ: مَا يَعْدُو فلانٌ أَمْرَكَ أَي مَا يُجاوِزه. وعَدَاهُ عَنِ الأَمْرِ عَدْواً وعُدْواناً وعَدّاه، كِلَاهُمَا: صَرَفَه وشَغَله. وَقَدْ عَدَانِي عَنْكَ أَمرٌ فَهُوَ يَعْدُونِي أَي صَرَفَني. **وقال ابن منظور**: وتَعَادَى مَا بَيْنَهُمْ: تَباعَدَ. والعَدَاءُ: البُعْد، وَكَذَلِكَ العُدَواءُ. وقومٌ عِدًى: متَباعدون، وَقِيلَ: غُرباءُ، مقصورٌ يُكْتَبُ بِالْيَاءِ، والمَعْنيان مُتقارِبانِ، وهُم الأَعْدَاءُ أَيضا لأَن الغَرِيبَ بَعِيدٌ؛ قَالَ الشَّاعِرُ: (إِذَا كنتَ فِي قَوْمٍ عِدًى لستَ مِنْهُمُ، ...

فكُلْ مَا عُلِفْتَ مِنْ خَبِيثٍ وطَيِّب). قَالَ عَلِيُّ بنُ حَمْزَةَ: قومٌ عِدًى أَي غُرباءُ، بِالْكَسْرِ، لَا غيرُ، فَأَمَّا فِي الأَعداءِ فَيُقَالُ عِدًى وعُدًى وعُداةٌ. وعَدَّيْتُ عَنِّي الهمَّ أَي نحَّيته. وَتَقُولُ لِمَنْ قَصَدَكَ: عدِّ عنِّي إِلَى غَيْرِي. اهـ مع اختصار من (لسان العرب). ومن هذا المعنى: عَدْوَى المرض. وفي (تاج العروس): عَدَّاهُ تَعْدِيَةً: أَجازَهُ وأَنْفَذَه، فتَعَدَّى. والتَّعَدِّي: مُجاوَزَةُ الشَّيءِ إِلَى غيرِهِ. اهـ.

المعنى الثاني: عدم استواء الشيء او عدم استقامته، وكأنه يعتدي على من يستعمله. قال ابن منظور: تَعَادَى المكانُ: تَفاوَتَ وَلَمْ يَسْتوِ. وجَلَس عَلَى عُدَوَاءَ أَي عَلَى غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ. والتَّعَادِي: أَمكنةٌ غَيْرُ مستويةٍ. أَبو عَمْرٍو: العُدَوَاءُ الْمَكَانُ الَّذِي بَعْضُهُ مُرْتَفِعٌ وَبَعْضُهُ مُتطأْطِئٌ، وَهُوَ الْمُتَعَادِي. والعُدَوَاءُ، عَلَى وَزْن الغُلَواءِ: الْمَكَانُ الَّذِي لَا يَطْمَئِنُّ مَن قَعَد عَلَيْهِ. اهـ مع اختصار من (لسان العرب). وفي تاج العروس: بعُنُقِي وَجَعٌ مِن تَعادِي الوِسادِ (مِن المَكانِ المُتَعادِي غَيْر المُسْتَوِي). اهـ.

المعنى الثالث: حركة فيها ظلم او إضرار، يُقال: عدا زيد على فلان، أي وثب عليه او حمل عليه او انقضَّ عليه او أصابه بمكروه. والعَدُو خلاف الولي وخلاف الصديق، فإن القُرب من أهم مضامين الولاية، كما أن البُعد من أهم مضامين العداوة. قال تبارك وتعالى ﴿ .... إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ الكهف: ٥٠. وقال تعالى ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٩٣، فلما كان الظلم عدواناً فإنه يُجازى بمثله.

وفي تفسير قوله تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ المائدة: ٢، قال الإمام ابن القيم: كل منهما (أي الإثم والعدوان) إذا أفرد

تضمن الآخر. فكل إثم عدوان، إذ هو فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به، فهو عدوان على أمره ونهيه. وكل عدوان إثم، فإنه يأثم به صاحبه. ولكن عند اقترانهما فهما شيئان، بحسب متعلقهما. فالإثم ما كان محرم الجنس، كالكذب والزنا، وشرب الخمر، وغير ذلك. والعدوان: ما كان محرم القدر والزيادة. فالعدوان تعدي ما أبيح منه إلى القدر المحرم، كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله، أو بدنه، أو عرضه، فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره، وإذا أتلف عليه شيئا أتلف عليه أضعافه، وإذا قال فيه كلمة «قال» فيه أضعافها. فهذا كله عدوان وتعد للعدل. اهـ من (التفسير القيم/ المكتبة الشاملة)، ما بين القوسين الصغيرين محذوف من نسخة الشاملة.

ومن المعنى الثالث قول ابن منظور: وأَعْدَيْتَ فِي مَنْطِقِكَ أَي جُرت. والعَادِي: الظَّالِمُ. قَالَ أَبو بَكْرٍ: قولُ العَرَب فلانٌ عَدُوُّ فلانٍ مَعْنَاهُ فُلَانٌ يَعْدُو عَلَى فُلَانٍ بالمَكْروه ويَظْلِمُه. وَيُقَالُ: فُلَانٌ عَدُوُّك وَهُمْ عَدُوُّك وَهُمَا عَدُوُّك وفلانةُ عَدُوَّةُ فُلَانٍ وعَدُوُّ فُلَانٍ؛ والعَدُوُّ: ضِدُّ الصَّدِيق، يَكُونُ لِلْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ والأُنثى والذكَر بلفظٍ وَاحِدٍ. وَقَوْلُهُمْ: عَدَا عَلَيْهِ فَضَربه بِسَيْفِهِ، لَا يُرادُ بِهِ عَدْوٌ عَلَى الرِّجْلين وَلَكِنْ مِنَ الظُّلْم. وعَدَا عَدْواً: ظَلَمَ وَجارَ. وَيُقَالُ: كُفَّ عَنَّا عادِيَتَك أَي ظُلْمك وَشَرَّكَ، وعَادِيَةُ الرَّجُلِ عَدْوُه عَلَيْكَ بِالْمَكْرُوهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ المائدة: ٢، والاعْتداءُ والتَّعَدِّي والعُدْوان: الظُّلْم. وعَدَا عَلَيْهِ عَدْواً وعَدَاءً وعُدُوّاً وعُدْواناً وعِدْواناً وعُدْوَى وتَعَدَّى واعْتَدَى، كُلُّه: ظَلَمه. اهـ مع اختصار وترتيب من (لسان العرب).

وقال ابن منظور أيضاً: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ ﴾ البقرة: ١٧٣، فقَالَ يَعْقُوبُ: هُوَ فاعِلٌ مِنْ عَدَا يَعْدُو إِذَا ظَلَم وجارَ. وعَدَا عَلَيْهِ عَدْواً وعَدَاءً وعُدُوّاً وعُدْواناً وعِدْواناً وعُدْوَى وتَعَدَّى واعْتَدَى، كُلُّه: ظَلَمه. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ البقرة:

١٩٠، قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تقاتِلُوا غَيْرَ مَن أُمِرْتُم بِقِتالِه وَلَا تَقتلوا غَيْرَهُمْ، وَقِيلَ: وَلَا تَعْتَدوا أَي لَا تُجاوزوا إِلى قَتْل النِّساءِ والأَطفال. والعَدَاوَة: اسمٌ عامٌّ مِنَ العَدُوِّ، يُقَالُ: عَدُوٌّ بَيِّنُ العَدَاوَة، وفلانٌ يُعَادِي بَنِي فُلَانٍ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾ الممتحنة: ٧. قَالَ سِيبَوَيْهِ: عَدُوٌّ وصْفٌ، وَقَدْ يُثَنَّى ويُجمع ويُؤَنَّث، وَالجَمْعُ أَعْدَاءٌ، والأَعَادِي جَمْعُ الجَمْعِ، والعِدَى والعُدَى: اسْمَانِ لِلْجَمْعِ. والعَادِي: العَدُوُّ، وجَمْعُه عُداةٌ؛ وَقَدْ عَادَاه مُعَادَاةً وعِداءً، والاسمُ العَدَاوَة. اهـ مع اختصار وترتيب من (لسان العرب).

<u>ومن الحركة العدائية التي تبدأ</u> في النفس ثم تسري في الجسد والعمل، قوله تعالى ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ المائدة: ١٤. الإغراء في العربية هو ضرب من التحريض والحث والتزيين والتهييج من أجل إدخال جهة معينة في مسار معين. فقد فسر الأئمة «أَوْلَعَه بِهِ»، بمعنى: اغراه، كما في (المحكم، ولسان العرب، وتاج العروس)؛ وفسروا «الأَزُّ»: بالتَّهْيِيجُ والإِغراءُ، وأَزَّهُ يَؤُزُّهُ أَزّاً: أَغراه وَهَيَّجَهُ، كما في (لسان العرب) وغيره؛ وفسروا «أَضْرَاهُ بِهِ» أَي أَغراهُ، كما في (لسان العرب) وغيره، وتوجد شواهد كثيرة بهذا الإتجاه. والإغراء من قِبَل البشر قد ينجح وقد يفشل، وقد يكون بمعلومات صحيحة او خادعة. وأما حين يكون الإغراء من قِبَل الله تعالى فهو واقع قطعاً، ومعناه أن الله تعالى أنشأ بينهم العوامل والأسباب الفاعلة في إيقاع العداوة، ولعله بسبب ذلك ذكر الصاحب بن عباد أن الإغراء هو الإنشاء، وذكر قولهم: أغريت بينهم العداوة (المحيط في اللغة ٢/ ١٣٧). وليس معنى الآية أن الله تعالى حرضهم على العداوة، ولكن بسبب سوء أفعالهم أنشأ الله تعالى بينهم متطلبات وأسباب العداوة. وفي معنى العداوة والبغضاء، **<u>قال ابن عاشور</u>**: الْعَدَاوَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْعَدْوِ وَهُوَ التَّجَاوُزُ وَالتَّبَاعُدُ، فَإِنَّ مُشْتَقَّاتِ مَادَّةِ (ع د و) كُلَّهَا تَحُومُ حَوْلَ التَّفَرُّقِ وَعَدَمِ

الْوِئَامِ. وَأَمَّا الْبَغْضَاءُ فَهِيَ شِدَّةُ الْبُغْضِ. اهـ من (تفسير ابن عاشور). وأما عطف البغضاء على العداوة، فلبيان دوام وجود العداوة الظاهرة او الكامنة إلى يوم القيامة، يوضح الأمر أن العداوة وحدها قد تكون بسبب اختلاف على بعض المنافع ومن غير بغضاء، فإذا تم حسم الخلاف انتهت العداوة. وأما مع وجود البغضاء، فإن حسم خلاف معين إنما يُحَوِّل العداوة الظاهرة إلى عداوة كامنة وإلى أنواع من التآمر الإستراتيجي الخفي؛ وبعد حين تظهر العداوة الصريحة من جديد.

اللبس بين العَدْو عَلَى الرِّجْلين

والعَدْو على الآخرين او على الحقوق: تقدم أن «عدا يعدو عدواً» يُستعمل بمعنى جرى وانطلق، وبمعنى اعتدى وظلم. وتقدم تنبيه ابن منظور إلى اجتناب اللبس في ذلك، أي قول ابن منظور: وَقَوْلُهُمْ: عَدَا عَلَيْهِ فَضَربه بِسَيْفِهِ، لَا يُرادُ بِهِ عَدْوٌ عَلَى الرِّجْلين وَلَكِنْ مِنَ الظُّلْم. وعَدَا عَدْواً: ظَلَمَ وَجَارَ. اهـ من (لسان العرب).

ولنتدبر هنا قوله تعالى ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ النساء: ١٥٤، فظاهر مذهب ابن عطية أن عبارة ﴿ لَا تَعْدُوا۟ ﴾، نهي عن الجري او نهي عن الـحُضر، وأكثر ما يُستعمل الـحُضر في جري الدواب. قال ابن عطية: ﴿ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾، أي على الحيتان وفي سائر الأعمال، وهؤلاء كانوا بأيلة من ساحل البحر فأمروا بالسكون عن كل شغل في يوم السبت فلم يفعلوا. اهـ من (تفسير ابن عطية). ونقل الرازي وابن عادل هـذا القول كأحد القولين. وذهب أكثر المفسـرين إلى أن عبـارة ﴿ لَا تَعْدُوا۟ ﴾، نهي عن الظلم او نهي عن تجاوز الحد او تجاوز الحق، وهي عبارات متقاربة، من هؤلاء الإمام الطبري ومكي في (الهداية) والنحاس في (إعراب القرآن) والمنتجب الهمداني في (الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد) والسمرقندي والماوردي

والواحدي والشوكاني وابن عاشور. ويؤكد صحة قول الجمهور ثبوت القراءة الصريحة في الإعتداء؛ قال ابن عاشور: وَقَوْلُهُ: ﴿ لَا تَعْدُواْ ﴾، قَرَأَهُ نَافِعٌ فِي أَصَحِّ الرِّوَايَاتِ، وَهِيَ لِوَرْشٍ عَنْهُ وَلِقَالُونَ فِي إِحْدَى رِوَايَتَيْهِ عَنْهُ- بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَتَشْدِيدِ الدَّالِ الْمَضْمُومَةِ- أَصْلُهُ: لَا تَعْتَدُوا، وَالِاعْتِدَاءُ افْتِعَالٌ مِنَ الْعَدْوِ، يُقَالُ: اعْتَدَى عَلَى فُلَانٍ، أَيْ تَجَاوَزَ حَدَّ الْحَقِّ مَعَهُ، فَلَمَّا كَانَتِ التَّاءُ قَرِيبَةً مِنْ مَخْرَجِ الدَّالِ وَوَقَعَتْ مُتَحَرِّكَةً وَقَبْلَهَا سَاكِنٌ، تَهَيَّأَ إِدْغَامُهَا، فَنُقِلَتْ حَرَكَتُهَا إِلَى الْعَيْنِ السَّاكِنَةِ قَبْلَهَا، وَأُدْغِمَتْ فِي الدَّالِ إِدْغَامًا لِقَصْدِ التَّخْفِيفِ، وَلِذَلِكَ جَازَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِظْهَارُهَا فَقَالُوا: تَعْتَدُوا وَتَعَدُّوا. اهـ من (تفسير ابن عاشور).

ويؤيد صحة قول الجمهور، قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ البقرة: ٦٥، والفرق بين عدا واعتدى، هو كالفرق بين سمع واستمع، وغنم واغتنم، وجهد واجتهد وقلع واقتلع؛ فالثانية صيغة «افتعل» وتدل على نوع من المبالغة في العدو، ولا تكاد تُستعمل إلا بمعنى الظلم وتجاوز الحد المشروع. فمن تجاوز الحد المشروع، قوله تعالى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ البقرة: ٢٢٩، وقوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ الطلاق: ١. وكان نوع العدو او الإعتداء يوم السبت هو الشروع في الحرام والمراوغة مع رب العالمين، فقد كان الصيد محرماً عليهم يوم السبت، فشرعوا بالصيد يوم السبت ثم أتموه بعد السبت.

مراتب العداوة

من الضروري معرفة مراتب العداوة، لأن طرق التعامل مع العداوة تختلف بين المراتب، وتختلف أيضاً بين الوقائع ضمن المرتبة الواحدة.

العداوة المستعرة: منها قوله تعالى ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٠ – ٦١. وقد ذكرنا تفسيراً مفصلاً لآيتي الأحزاب في (ثمار التنقيح / الباب الثالث؛ المبحث الثالث: «الخيار الجنائي في التعامل مع المنافقين»)، وفي (وجهة اللواء في فقه الأمن والدفاع/ المبحث السادس، تحت عنوان: «مكافحة مُـخَرِّبـي المجتمع»).

ومنها قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ التوبة: ١٠٧.

ومنها قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ الأنفال: ٣٠، وسيأتي تفسير هذه الآية إن شاء الله تعالى.

ومنها قوله تعالى ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ البقرة: ١٩٠.

العداوة الظاهرة: منها قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران: ١١٨.

ومنها قوله تبارك وتعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ المنافقون: ٤. فتدبر المبالغة في عبارة ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾، وكذلك إيجاب إجراءات الحذر.

العداوة الكامنة: أصلها في قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ الأنفال: ٦٠. فتدبر عبارة ﴿ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾، فإنها معطوفة على عدو الله وعدوكم، أي يجب الإعداد لهم، علماً أننا لا نعلمهم، فهي قوة احتياطية. معنى ذلك أن عداوتهم كامنة وليست معلنة، إما لأنهم ينتظرون الظرف المناسب لإظهار العداوة، وإما لوجود الإستعداد العدائي الذي يستعر عند تعرضهم لعوامل التهييج والتأجيج، وإما لنفاقهم او خداعهم، فإنهم قد يظهرون الإيمان ولكنهم يحاولون إخفاء خدمتهم للعدو.

والعدو غير المعروف يمكن أن يكون كبير الخطورة، وقد يُظهر عداوته في لحظة حرجة او حاسمة من أجل إلحاق أكبر ضرر. ولذلك يُقال: إن المعرفة المفصلة بالعدو هي طريق التأثير او الإنتصار عليه. معنى ذلك أن القُدُرات الإحتياطية للعدو المجهول يجب أن تكون كبيرة.

ومن أقوى الأسباب في إظهار العداوة الكامنة هو تحصيل السلطة او القوة النافذة، ومنه قوله تعالى ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ الممتحنة: ٢، أي إن يظفروا بكم يكونوا لكم أعداءً بالعمل والقول؛

وقوله تعالى ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ التوبة: ٨.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ التوبة: ٩٨؛ أي منهم من يرصد الفرص للنيل منكم وإظهار عداوته.

وتدبر غاية الإيضاح في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٠٤ – ٢٠٦.

ويتصل بذلك، ما نزل في كفار قريش من قوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ البقرة: ٢١٧، فإن عبارة ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ تنبه إلى أن فترات الهدوء هي فترات عداوة كامنة وإعداد للقتال.

ومن العداوة الكامنة عداوة المنافقين والأصدقاء المخادعين، وتوجد أمثلة ذكرها القرآن الكريم:

منهـــا: التشكيك والترويض برؤية تكرار التراجع عن الدين والإرتداد، قال تعالى ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ آل عمران: ٧٢.

ومنهـــا: التعاون الخفي مع الأعداء، قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ التوبة: ١٠٧.

ومنهـــا: إثارة الشائعات الضارة (الأراجيف) وترويج النفاق وأهدافه، قال تعـــالى ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾ الأحزاب: ٦٠ – ٦٢. وقد ذكرنا في (ثمار التنقيح على فقه الإيمان) وفي (وِجهة اللواء) تفسيراً مفصلاً لهذه الآية الكريمة.

وينبغي قبل كل شيء ملاحظة العداوة الكامنة والتنبه لها، وتوجد أمور تساعد على ذلك، **منهـــا**: ممارسة وظيفتي الطبيب والصياد، وقد تقدم ذكرهما في المبحث الرابع: الفائدة الرابعة من تفسير حديث الأمر بالمبادرة. **ومنهـــا**: ملاحظة الفساد الباطن وغير المباشر، ومنه الفساد المتراخي في العواقب والمآلات، وقد تكلمنا عنه في أكثر من موضع في هذه الدراسة وفي (نخبة المسار)، وذكرنا أمثلة، منها مسجد الضرار، فإن العنوان المعلن هو مسجد للعبادة والعمل الصالح، غير أن باطنه وحقيقته نقيض ذلك. **ومنهـــا**: قوة الملاحظة ومهارة إثارة الإحتمالات، فتلاحظ الرماد الذي يُـخفي ناراً تحته، وتنتبه إلى الكلمات التي تهدف إلى الإرجاف وإثارة الفتن. وبهذه المهارات وغيرها تخطط للتعامل مع العداوة الكامنة، لمنعها او إبعاد ظهورها، او تخفيفها او تحويلها إلى علاقات حسنة او غير ذلك من الخيارات.

العداوة المتحوِّلة: قال تبارك وتعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ فصلت: ٣٤ – ٣٥. فالذي تأمر به الآية الكريمة هـو أن تحاول أن تسع عدوك وأن تتقن مهارة الإحتواء السـلمي (دبلوماسـية الوفاق) لأجل تخفيف العداوة والتحول إلى علاقات سـلمية. وسـيأتي تفسـير الآيتين في هذا المبحث، تحت عنوان: «الإستبداد والتنكيل وما يقابله من مهارات بناء السلم»، إن شاء الله تعالى.

العداوة الضمنية: وذلك حين يكون العداء مخفياً في مضامين كلام او عمل، او حين يكون العداء غير مقصود، وبعبارة أُخرى حين يكون العداء نتيجة غير مقصودة لكلام او عمل معين. وقد نبه إلى ذلك الراغب الأصفهاني في (المفردات)، وتابعه عليها السمين الحلبي في (عمدة الحفاظ).

والعداوة الضمنية هي بعض ما يشمله قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ التغابن: ١٤. يوضح الأمر أن أحد الزوجين والأولاد قد يطلبون من الزوج الآخر أموراً تتعارض مع الإلتزام الديني، ويشمل ذلك أكثر من صنف، **الصنف الأول**: زوجة او أولاد يثبطون عمداً عن طاعة الله تعالى، وقد يكون التثبيط صريحاً او غير مباشر. وفي بداية الإسلام كان اختلاف الدين موجوداً بين أفراد العائلة الواحدة، وكذلك بعد إباحة زواج المسلم من الكتابية في العهد المدني. فهذه عداوة مقصودة ولكن قد يتم إظهارها وكأنها شفقة. **الصنف الثاني**: نحو ما يُروى أن الرجل إذا أراد الجهاد مع رسول الله ﷺ، فربما بكى أولاده وزوجه قائلين: إلى من تَدعنا؟ فيرقّ ويقيم معهم، وفي هذا

المعنى رواية عند الإمام الطبري. **الصنف الثالث**: بعض الأولاد وأحد الوالدين ضعاف العلم بالإلتزامات الشرعية، ويحاولون توجيه الوالد الملتزم إلى غاياتهم الدنيوية التي تُضعف التزاماته. وتدبر في آية التغابن عبارة ﴿ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾.

أسباب العداء
وأسباب التفريط في الخيار السلمي

أسباب العدوان كثيرة، وتعمل بين الأفراد والمجاميع والمؤسسات والدول؛ وكذلك أسباب التسرع إلى العنف قبل إعطاء الخيار السلمي حقه. ونحتاج هنا إلى ذكر جملة من الأسباب شديدة الأهمية، ويمكن للقارئ أن يبحث عن المزيد.

النفس الطاغية المتكبرة:

وقد يُسمى ذلك بشهوة القوة والتسلط او غرور القوة، وهو درجات متفاوتة ضمن أصل واحد. وفي كثير من الأحيان يقترن ذلك بأمراض نفسية أُخرى كالحقد والحسد وشهوة الإستحواذ.

فالدرجة الكبرى يوضحها نحو قوله تعالى ﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴾ طه: ٧١، فيجب عند الطاغية أن لا يختاروا لأنفسهم شيئاً مهماً إلا بعد إذن الطاغية وكأنه مالكهم، وبخلاف ذلك فإن العقوبة في غاية القسوة والوحشية.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾ الشعراء: ١٣٠ – ١٣١، البَطْشُ: تناول الشيء بالصولة والسَّطْوَةُ، وَالْأَخْذُ بِالْعُنْفِ. ومعنى «جبارين» أي قهَّارين، بالسيف والسوط وغيرها من وسائل القمع والتنكيل والإسراف في الشدة مع الآخرين.

وتوجد درجات دون ذلك قد يُصاب بها المسلم وغيره، فقد ذكر الله تعالى الصالحين والفاسدين ثم قال ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ الأحقاف: ١٩.

ومعلوم أن الطغيان والكِبر من الكبائر، قال تعالى ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ القصص: ٨٣. وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ. »، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: « إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ. » رواه مسلم وابن حبان. ومعنى « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ »، بالنسبة للمسلم في الآخرة أي لا يدخلها إلا بعد ذهاب الكبر من قلبه، إما باستهلاك حسنات ماحية او بعذاب مؤقت في النار والعياذ بالله تعالى، او بغير ذلك مما يعلمه الله. وأما « بَطَرُ الْحَقِّ » فهو الإستهانة بالحق حين يُعرض عليه. وأما « غَمْطُ النَّاسِ »، فهو الإنتقاص منهم وبخسهم حقهم، والله تعالى أعلم.

أمراض القلب الأخرى والقناعات الخاطئة:

وهي أمراض وقناعات او أماني متنوعة بالإضافة إلى الكِبر، ويمكن أن تؤدي إلى العدوان.

منهــا: الحسـد والحقد كما في قوله تعـــالى ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ المائدة: ٢٧، إلى قوله تعالى ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ المائدة: ٣٠. وقال تعالى ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴾ المائدة: ٦٤، والمعنى أن ما ينزله الله تعالى على سيدنا محمد ﷺ يجعل الكافر المعاند يزداد طغياناً وكفراً؛ وقريب من ذلك قوله تبارك وتعالى ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴾ فاطر: ٤٢.

ومنهــا: الإنتقاص من الآخرين ومن حقوقهم، مما يؤدي إلى استسهال العدوان عليهم او على حقوقهم. قال تعـــالى ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ الشعراء: ١٨٣؛ وذكرنا قبل قليل قول النبي ﷺ « الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ. » رواه مسلم وغيره.

ومنهــا: غياب القِيَم السـامية، فمن فقد هذه القِيَم فإنه يبادر بالعدوان إذا رأى حاله قوة.

ومنهــا: قناعات خاطئة بين الطوائف والملل. يوضح ذلك قوله تعالى ﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ آل عمران: ٧٥، فتدبر عبارة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي

﴿ ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾، اي: لا حرَج علينا فيما أصبنا من أموال العرب، كما هي عبارة الطبري، او ليس علينا جناح فيما أصبنا من هؤلاء لأنهم أمِّيُّون كما في رواية للطبري عن ابن عباس. ونقل الراغب عن الحسن وابن جريج قولهما: كانت اليهود عاملوا العرب، فلمّا أسلموا امتنعوا من ردِّ أموالهم، وقالوا: لا يحق لكم بعد أن دخلتم في الإِسلام، وقيل معناه: ليس علينا سبيل لكوننا أبناء الله وأحباءه، ومن عدانا عبيدٌ لنا، وماهم مالنا فلا حرج علينا في تناوله، وهذه أقوال متقاربة، وكانوا قد زعموا أن ذلك دين شرعه الله لهم، فأكذبهم بقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾. اهـ من (تفسير الراغب/ المكتبة الشاملة).

ومنهـــا: المطامع العدوانية. المَطْمَعُ: مَا طَمِعْتَ فِيهِ، ويُجمع على: مطامِع. وهذا سبيل أتباع الشيطان عموماً فلا حد لمطامعهم إذا كانوا قادرين على الإرغام او الإكراه. فهم على خطوات قدوتهم الشيطان كما يوضحه قوله تعالى ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ المجادلة: ١٩، «اسْتَحْوَذَ عَلَى الشَّيْءِ»: أي حَوَاهُ وَأَحَاطَ بِهِ، وضمه إلى حوزته او ممتلكاته وصَرَّفَه كيف يريد؛ والأحوذي: الذي أحاط بشأنه وأصبح حاذقاً فيه؛ ويقال: حاذ الإبلَ، إذا جمعها واستولى على سوقها وحركتها. وتدبر حكاية قول فرعون لموسى في قوله تعالى ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ الشعراء: ١٨، فكان من جواب موسى عليه السـلام: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الشعراء: ٢٢.

ويُعَدُّ الإستحواذ من أهم أنواع العدوان الدولي، ويشمل الإستحواذ على الثروات وعلى مناهج التربية والتعليم وعلى أنظمة الدولة والمؤسسات، وعلى غيرها من القُدُرات

الوطنية. ولمعرفة مقدار شـدة الإستحواذ الدولي ووطأته، راجع التأريخ الإستعماري في الدول الأفريقية وامتداداته إلى اليوم.

ضعف الأداء الفكري:

سبق ذكر قوله تبارك وتعـــالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ فصلت: ٣٤ – ٣٥. معنى «يُلَقَّاها» أي: يُجْعَلُ لَاقِياً لـها. وواضح من الآيتين أن سياسـة الإحتواء السـلمي وتحويل العدو إلى صديق او إبعاد الخطر بلا سفكٍ للدماء، لا يُعطاها ولا يُوَفق لها إلا الذين شـأنـهم الصبر على العمل وكظم الغيظ وتفضيل الإحتواء على الإنتقام، ولا يُعطاها إلا ذو حظ عظيم أي له نصيب عظيم من مؤهلات الإحتواء السـلمي، أي العقل والحكمة والرفق، فهي وظيفة النخبة او النخبة من النخبة، ولكن ينبغي لكل مؤمن أن يحاول تحصيل درجة منها، كما هو حكم تحصيل درجات الفضائل عموماً.

يوضح الأمر، أن التفكير المنهجي أصعب بكثير من العمل، فإذا كان الأداء الفكري او العقلي ضعيفاً، فإن ضعيف التفكير سيجد نفسـه ذاهباً إلى العنف والعَدْو على الخصم، وسيزعم او يتوهم أنه استنفذ المساعي السلمية، علماً أن الحقيقة غير ذلك، وأنه ربما لم يبدأ بالخطوات الصائبة الأولى في هذه المساعي. ويؤدي هذا المنهج إلى دخول حروب غير ضرورية وإلى الإسراف في الصراعات التي تُشغل عن التنمية وتُفاقم الخسائر والأضرار. ولا شك أن من المصائب الكبيرة تضييع فرص الأداء العقلي التي أمر الله تعالى بها كما في عبارة ﴿ٱدْفَعْ ..... ﴾، وأثنى الله عليها غاية الثناء الحسن.

وعلى تقدير أن سبب العَدْو على الخصم أي سبب الرد العنيف موجود، فإن شرعيته تبدأ مع فشـل عمليات الإحتواء الذكية المتقنة، او سـمها إن شئت «القوة الناعمة».

وينبغي تذكر أن الأصل تفضيل كسب الشيء على تحطيمه، وأن فتح الأبواب أفضل من كسرها، غير أن الفتح يحتاج إلى مهارات عالية لتحصيل المفاتيح المناسبة، وأما الكسر فيقدر عليه من له نصيب ضئيل من العقل والحكمة. فلابد من وجود النخب من النخب لتوجيه عمليات الإحتواء في الأنشطة السياسية والإجتماعية وغيرها.

الضعف في ضبط النفس:

قال تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٥١، وقال تعالى ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ يوسف: ١٠٨؛ ومما ذكرناه في (المنطلق) أن كل حركة في النفس تُوهن الحكمة او تُغيّب بعض البصيرة فهي حركة مذمومة وينبغي ضبط النفس لإزاحتها. والإنسان بحاجة دائمة إلى الإستجابة للمؤثرات والضغوط في الظروف الإجتماعية او الإقتصادية او السياسية او الأمنية، ومن أهم عوامل رداءة الإستجابة: الفتور والغضب والتسرع وعدم استقرار الدوافع العقيدية والهوى، ففي الأول تضييع العقل وفي الثاني تغطيته وفي الثالث تجاوزه وفي الرابع إهماله او الإنقلاب عليه وفي الخامس الإنحراف عنه. ونكتفي بذكر النصوص الشرعية في العوامل الثلاثة الأولى.

ففي اجتناب الفتور نحو قوله تعالى ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: ٦٣.

وفي مقاومة الغضب قوله تعالى ﴿ .... أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٣٣ – ١٣٤؛ وتدبر أن كظم الغيظ ليس من النوافل، بل هو تعريف للمتقين، ومعلوم أن جنس التقوى واجب. وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ

ﷺ « فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟» ، قَالَ قُلْنَا: الَّذِي لَا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ، قَالَ « لَيْسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » رواه مسلم والبخاري وغيرهما. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ « لاَ تَغْضَبْ » ، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ « لاَ تَغْضَبْ » رواه البخاري وغيره. وفي الدعاء المشهور من حديث عَمَّار قال دَعَوْتُ بِدُعَاءٍ كَانَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ يَدْعُو بِهِ: « اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَمِنْ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ » رواه الإمام أحمد وصححه شعيب الأرنؤوط. وقد ذكرنا في دراسة أُخرى أنه يجب في القرار الإستراتيجي أن يكون بمعزل تام عن العواطف والغضب.

وفي اجتناب التسرع قوله تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ٨٣؛ وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ الحجرات: ٦؛ وتدبر قوله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ الحديد: ٢٥، فإن الميزان هو الحكمة والخبرة او الآلة العقلية التي توزن بها الأفكار والأمور قبل الإسراع بالتصرف. وعن ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال لِلْأَشَجِّ أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ « إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ » رواه مسلم وغيره ، والأناة التثبت او الترفق وعدم التعجل ، وهو مصدر أنى يأني. وكثير من قواعد التفكير المذكورة في هذه الدراسة تقتضي إعطاء التفكير

الوقت الكافي (أي الصبر والأناة) وعدم التسرع إلا عند الإضطرار. وسبق أن ذكرنا في الكلام عن التنقيح أن إنضاج التفكير يحتاج إلى حضانة العقل للقضية مما يسمح بالتحليل التدريجي.

غياب الردع
والفشل في إدارة الضعف:

أما إدارة الضعف، فقد تكلمنا عنه في المبحث الأخير من (نخبة المسار)، وكذلك في الكلام عن الوِسْع والإضطرار في (المنطلق)، ونكتفي هنا ببعض ما ذكرناه في (وِجهة اللواء) في تفسير قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ ... ﴾ الحج: ٣٩ – ٤٠. معنى ﴿أُذِنَ ﴾ أي أُجيز، يُقال: أذن له في الشيء أي أباحه له، والإذن بالشيء هو فك الحجر وإطلاق التصرف. ومعنى عبارة ﴿ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾، أي لأنهم ظُلموا او بسبب توجيه الظلم إليهم، وقد صرح المفسرون بهذا المعنى كأبي حيان والزمخشري وابن عطية والرازي والبيضاوي وغيرهم، أي ان الباء سببية، كما في نحو قوله تعالى ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ البقرة: ٥٩. غير أن آية الحج مدنية، وأما الظلم الذي وقع على الذين يقاتَلون فإنما كان قبل ذلك بسنوات طويلة قبل الهجرة إلى المدينة. فعِلَة أي سبب القتال كان موجوداً في مكة، ولكن الحكم تأخر بسبب الموانع وعدم اكتمال الشروط. وهكذا الأمر بصورة عامة، أي تبعية التصرف العملي لاكتمال الشروط وانتفاء الموانع، وخاصة في الأحكام التي تعتمد على القوة والمغالبة، فإن من ضرورياتها إكتمال الشروط وانتفاء الموانع. وتدبر أن الإذن بالشيء هو فك الحجر عنه من غير إيجاب، لأنها أول آية في تشريع الجهاد القتالي كما قال ابن عباس ومجاهد

والضحاك وقتادة وغيرهم. معنى ذلك أن حكم القتال خضع لنوع من المرحلية والتدرج. ومن تدبر في السياق قوله تعالى ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ ..... ﴾الحج ٤٠، فإنه ينبه إلى أن الأمر ليس مقتصراً على المرحلية، ولكن لفتح الخيارات غير القتالية للمدافعة، فإن مقاومة الظلم تبدأ بعمليات الدفع غير القتالية، ولكن من المهم أن يعلم الظالم أن القتال خيار موجود. ومن الممارسات السياسية أن تبقى بعيداً عن الأنظار حتى يتم استعدادك، وأن تتقن فن النشاط الصامت أي الحركة غير الإستفزازية.

<u>وأما غياب الردع</u>، فيوضحه نحو قوله تعالى ﴿ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءً وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ الممتحنة: ٢، أي إن يظفروا بكم بسبب غياب القوة الرادعة يكونوا لكم أعداءً بالعمل وبالكلمة؛ ومن الأقوال المأثورة: من أمن العقاب أساء الأدب. ولذلك أمر الله تعالى بإعداد القوة الرادعة كما في قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ ﴾ الأنفال: ٦٠.

معنى ذلك أنه عند غياب القوة الرادعة، يجب إتقان إدارة الضعف على نحو ما ذكرناه في مواضع متعددة من كتبنا. ونُذَكِّر بقوله تعالى ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ النساء: ١٤١، الآية الكريمة نفي بمعنى النهي. يوضح الأمر أن كل خبر في القرآن الكريم يمكن أن يكون الواقع مخالفاً له، فهو خبر عن حكم الشرع وليس خبراً عن الواقع على الأرض، فمعنى آية النساء أنه يجب العمل على الإجتناب التام للوقوع تحت نفوذ الكافر او تقليل ذلك إلى أقل ما يمكن عند الإضطرار إليه، وبصرف النظر عن كونها ضرورة حاضرة او متراخية. وبعبارة أُخرى يجب اجتناب التصرف الذي يُعطي الخصم فرصة للنيل منك معنوياً او مادياً.

الإسراف في الإنتقام:

قال تعالى ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ الإسراء: ٣٣، الإسراف هنا هو أي زيادة في على الحكم الشرعي في القتل، كأن يقتل بعض قرابة القاتل او يقتل بعد قبول الدية والتزام الطرفين بها.

وقال تعالى ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ النساء: ١٤٨، **أما ألفاظ الآية الكريمة**: فلا تحتاج إلى تفسير. **وأما الإستثناء**: أي عبارة: ﴿ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾، فهو استثناء متصل، وهذا قول الفراء وأبي عبيدة كما نقل الرازي، وهو قول الزمخشري والمنتجب الهمذاني والنسفي؛ وجوَّز الإتصال آخرون. يوضح الإستثناء المتصل قولك: ما نجح الطلاب إلا المثابرين او المثابرون، فقد استثنيت المثابرين من: الطلاب ومن عدم النجاح، والمعنى: نجح المثابرون من الطلاب. وإذا استقام المعنى، فإن الأصل في الإستثناء بـ: «إلا» أن يُحمل على الإتصال، إذ لا يجوز قطع الإستثناء عن بعض المستثنى منه إلا بقرينة توجب ذلك. يوضح الإستثناء المنقطع قولك: وصل المسافرون إلا الحقائبَ، فإنه استثناء للحقائب من الحكم، أي من الوصول وليس من المسافرين، وحمل الآية على هذا النوع يُغيِّب المعنى ويضطرنا إلى تقدير محذوفات متعددة، ولا ضرورة لهذا التكلف. ويمكن تقدير اتصال الإستثناء في الآية بأنه استثناء من الجهر بالسوء كما نص عليه الزمخشري والمنتجب الهمذاني: فمعنى الآية: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا جهر من ظُلم. ولو افتى فقيه بعبارة: لا يجهر بالسوء إلا المظلوم، فإن الإستثاء من مجرد المنع يدل على مطلق الجواز للجهر بذلك، فيمكن أن يكون الجهر مباحاً وليس مندوباً ولا واجباً، وأما في آية النساء فإن الإستثناء يشمل عبارة ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ﴾، فمعنى الإستثناء أن الله يحب للمظلوم أن يجهر بالسوء من القول. ويمكن الجهر في المجالس الاجتماعية وفي المنتديات والصحُف ومواقع التواصل الالكتروني وغيرها. ويحق لمن جزم بوقوع الظلم

أن يشارك المظلوم بالإساءة إلى الظالم، لأن المسلمين جسد واحد ويد واحدة، وبعضهم أولياء بعض، ومعلوم أن من أهم مضامين الولاء: النصرة. والآية تنبه المؤمن إلى الإشتغال بنفسه وإصلاح عيوبه، فلا يجهر بالقدح في الآخرين إلا عند وقوع الظلم منهم. وتوجد أخطاء توقع في الإسراف في هذا المجال، **منهـــا**: الجهر بالإساءة في أمور ليست لها صلة بالظلم. **ومنهـــا**: شمول الإساءة لأشخاص آخرين ليس لهم صلة بالظلم، ولكن لمجرد قربهم من الظالم او عملهم معه في أُمور أُخرى. **ومنهـــا**: معاونة المظلوم على غير بصيرة، وبذلك يأخذ الإنكار صبغة العُثُو أي الفوضى وفُقدان النظام؛ وقد قال تعالى ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ الشعراء: ١٨٣. ويُقابل ذلك أن يتعمد الإستبداد اختراق إنكار الظلم وإدخال الفوضى عليه وإظهاره بمظهر الفساد. فهذه الأُمور وشبهها يجب أن يُحسب حسابها في الإنكار. والله تعالى أعلم.

سـوء تقديـر الموقف:

سوء التقدير سبب شائع لحدوث تصرفات عدائية بين الأفراد والمجاميع والدول، وقد تقوم حروب كبيرة بسبب سوء التقدير.

وأيضاً، فإن سوء تقدير الموقف، وسوء فهم الحكم الشرعي هما من أسباب التفريط في الخيار السلمي.

وقد ذكرنا في المباحث السابقة (الثاني والثالث والرابع) نصوصاً كثيرة ومهارات يحتاجها من يريد أن يُحسِن في تقدير الموقف، كقوله تعـــالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ الأنفال: ٢٩، وقوله تبارك وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩.

ونقيض تلك المهارات هي أسباب سوء تقدير الموقف، كالرؤية الجزئية، والرؤية المتسرعة او ضعيفة التنقيح، وكذلك ضعف التحليل، وإغفال بعض الإحتمالات وغمر النفس في الملذات واتِّباع الهوى والإنحراف المتعمد، وسائر ما يُوهن او يُفسِد الرؤية، مما ذكرناه في هذه الدراسة وفي غيرها. ونكتفي هنا بقوله تعالى ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ الأعراف: ١٤٦، وقوله تعالى ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ العنكبوت: ٣٨.

ولنفترض لغرض الإيضاح، وجود خلافات كبيرة وتنافس استيراتيجي بين طرفين، ولأجل اجتناب الحرب اتفقا على خطوط حمراء لكل طرف، فلا ينبغي للطرف الآخر أن ينتهكها. ويقوم عادة كل طرف برصد أنشطة الطرف الآخر وتحليلها لمعرفة إنْ كانت تتضمن انتهاكاً لبعض الخطوط الحمراء. والإستجابة المتبادلة لهذا التوافق يُسمى بـ: «التوازن المستقر».

فإذا قام أحد الطرفين بكسر التوازن في خط من الخطوط الحمراء، فإن كانت الخطورة غير عالية حالياً وغير وشيكة، فإن الطرف الآخر سيقوم بتصعيد مقابل وقد يوقع أضراراً على مصالح الطرف الذي كسر التوازن؛ ويتكرر التصعيد وخفض التصعيد بينهما حتى يتشكل بينهما توازن جديد او يتفاقم الصراع بينهما. وأما إذا كانت الخطورة عالية جداً ووشيكة، فقد يقوم الطرف الآخر بشن حرب واسعة، كما حصل في الحرب العالمية الثانية وفي غيرها.

ويمكن للحسابات الخاطئة (سوء التقدير) أن تُضَخِّم الإنتهاك الصغير او تُصَغِّر الإنتهاك الكبير. أما تضخيم الإنتهاك الصغير فيمكن أن يؤدي إلى تصعيد الصراع او إلى حرب شاملة. وأما تصغير الإنتهاك الكبير فيمكن أن يؤدي بعد زمن إلى فشل نظام التوازن والتحوُّل إلى حرب باردة او ملتهبة.

وتوجد أسباب كثيرة لسوء التقدير والحسابات الخاطئة:

منهـــا: نقص المعلومات او كثرة المجاهل والغموض فيها، وسببه الرؤية الجزئية او قلة الجهد او ضعف التنقيح او خطأ التحليل او الفشل في إثارة الإحتمالات او نحو ذلك من تخلف المهارات الفكرية.

ومنهـــا: إغفال بعض العوامل المؤثرة وما تقتضيه من إعداد او تغيير في الخطط. ويرجع ذلك إلى بعض أسباب ضيق الأُفق عن رؤية المشهد كاملاً.

ومنهـــا: ضعف أهلية مجموعة تحليل المعلومات، فإن لهذه المجموعة دور كبير في توجيه وتحديد مواضع التركيز في تتبع المعلومات.

ومنهـــا: الإسراف في الإعتماد في التحليل على الإفتراضات. يوضح الأمر أنك تُعِدُّ قدرات احتياطية لمخاطر افتراضية، وأما في الإقدام ومواجهة المصاعب والمخاطر فإنك تُعِدُّ لأسوأ الإحتمالات وأشدها خطورة، ولا تفترض خلاف ذلك.

ومنهـــا: الوقوع في عمليات الإيـهام والتضليل، أي الفشـل في رصد ومكافحة التضليل.

ومنهـــا: إهمال الإعداد للمفاجآت مما يمكن أن يوقع خسائر كبيرة. فينبغي رصد المصادر المحتملة للمخاطر ورصد أنواع المخاطر ومساراتها الواضحة والخادعة، مما

يساعد على توجيه إنذار مبكر بالخطورة والإعداد للتوقعات الممكنة؛ كما أن السبق بالإعداد يساعد على اتخاذ قرار صحيح حين يكون الوقت ضيقاً.

ومنهـــا: ارتفاع درجة الشك بين الخصوم، فحين يتم كسر التوازن الذي ذكرناه وتضمحل موانع التصعيد المتبادل، فإن درجة الشك تصبح عالية جداً، وتَـقِلُّ المعقولية في تفسير نوايا وخطوات الآخر، ويمكن أن يؤدي ذلك إلى القيام بحرب خاطئة او غير ضرورية.

ومنهـــا: أن يكون سوء التقدير مجرد صورة فارغة، ولكنها مُفتعلة لتبرير حرب ظالمة متعمدة. وكثير من الحروب كانت من هذا النوع.

أعمدة
ألفكر العدائي

المقصود بالفكر العدائي هو فكر من يحمل العداء او يمارسه، او الفكر الذي يدل على العداء. وقد يُطلق أيضاً على الفكر الذي يتضمن العداء او يؤول إليه، وبصرف النظر عن المقاصد ونوع الممارسة.

الأعمدة الأربعة للعمل العدائي:

قال تعالى ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ الأنفال: ٣٠. ونكتفي هنا بمختصر، ومن أراد المزيد فليرجع إلى تفسير الآية في (وِجْهَة اللواء).

واضح من صيغة الآية أن الأهداف الثلاثة للمكر هي عبارة ﴿لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ ﴾؛ وأما العمود الرابع فهو المكر نفسه، أي الوسائل التنفيذية لبلوغ الأهداف الثلاثة المذكورة.

فأما المكر: فهو التآمر الخفي او السري للإضرار والإفساد، فلا يُستعمل في وصف البشر إلا للنشاط غير المشروع، وقد يقترن بإظهار الود والإحسان. والمؤامرات الخفية سياسة ثابتة للمعتدين قديماً وحديثاً، ينبه إلى ذلك نحو قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٣. وأصبح العمل الخفي اليوم يُدار من قِبَل مؤسسات ضخمة تتمتع بغطاء قانوني لسرية العمل. وأما الإلتزام بضوابط شرعية دينية او شرعية قانونية محترمة دولياً، فأمر في غاية البعد او المحدودية، خاصة وأن هذه الأعمال تستند في كثير من الأحوال إلى معنى الضرورة والإضطرار ومن غير إظهار ضوابط الإضطرار التي تخضع لها هذه المؤسسات، معنى ذلك هو الإنفلات من الضوابط وإباحة كل شيء بالضرورة المزعومة.

وطريق الشيطان هو العمل الخفي ومن وراء حواجز وعناوين خادعة، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ الأعراف: ٢٧. ولنتدبر نحو قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ النور: ٢١، فلما نهانا الله عن اتباع خطوات الشيطان علماً أننا لا نراه، فمعناه أنه يجب علينا أن نفكر ونبحث عن المعاني والعلامات التي تدل على او تنبه إلى خطوات الشيطان، بما في ذلك محاولة رؤية المفاسد الباطنة والمفاسد الآجلة (أي العواقب السيئة). وكذلك، فإن من كان متابعاً لخطوات الشيطان، فإنه يبالغ جداً في التآمر الخفي والنوايا المضمرة والخطط غير

المعلنة؛ وتدبر هنا قوله تعـالى ﴿ .... قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ آل عمران: ١١٨.

وأما إثبات الـمُستَهدَف: كما في عبارة ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾، فهو الإعاقة والتعطيل، وبمختلف الإتجاهات. فإن إثبات الـمُستَهدَف يُراد به إعاقة حركته او منعه منها، من ذلك قولهم: ضربوه حتى أثبتوه، أي جعلوه فاقداً للحركة والنشاط، ومنه خبر ابن أبي قتادة قال: «نَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِحِمَارٍ وَحْشٍ، فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ فَطَعَنْتُهُ فأَثْبَـتُّه» رواه الإمامان مسلم والبخاري. ومنه: أُثْبِتَ فلانٌ فَهُوَ مُثْبَتٌ إذا اشتَدَّتْ بِهِ عِلَّتُهُ وأَثْبَتَتْهُ جِراحهُ فَلم يَتَحَرَّكْ، ذكره الأزهري في (تهذيب اللغة). والمُثْبَتُ: الذى ثَقُلَ فلم يَبْرَحِ الفِراشَ، كما ذكر ابن سيده في (المحكم). وقال ابن الأثير: وَمِنْهُ حديثُ مَشُورَة قُريش فِي أَمْر النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ بعضُهم: «إِذَا أَصْبَحَ فَأَثْبِتُوهُ بالوَثَاق». اهـ من (النهاية).

وللعدو وسـائل كثيرة للإعاقة، وقد تصل إلى إعاقة جزء كبير من الحياة. فمن وسـائل الإعاقة:

- الإعاقة الجسدية: كالإقامة الجبرية وتقييد حرية الحركة وكالإضرار بالجسد، وسائر مهارات وضع الحواجز المادية لإعاقة الحركة.

- تعطيل متطلبات الحركة او الإستحواذ عليها، ومن أهمها الأموال (الإقتصاد) والأمن وإدارة المؤسسات. فمن السياسات المعادية نهب الأموال وتشجيع الفساد الوظيفي وإشاعة الفقر والبطالة وسحق العملة النقدية الوطنية، والتوريط بالديون الربوية ومحاصرة التنمية وإيجاد أسباب ووسـائل إهدار الأموال، هـذا بالإضافة إلى نشـر الخوف والرعب كي يمتنع الناس من الحركة، وبعبارة أُخرى: التدمير من الداخل. ويتصل بذلك قوله تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا

تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ آل عمران: ١١٨؛ أما عبارة ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾، يقال: ألا في الأمر يألو إذا قصر فيه، ولا ألوك جهداً أي لا أقصر، والخبال فساد الحال، والمعنى: لا يقصرون في تدبير ما فيه فساد حالكم. وأما عبارة ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ ﴾، أي ودوا عنتكم، والعنت المشقة وشدة الحال والهلاك. وكذلك عبارة ﴿ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ ﴾، أي لم يستطيعوا إخفاء ما في قلوبهم إخفاءً تاماً، غير أن فلتات اللسان قليلة جداً بالنسبة إلى ما تخفي صدورهم. وذكرنا في (ثمار التنقيح) تفسيراً مفصلاً لهذه الآية الكريمة.

- استهلاك طاقة الحركة: او استراتيجية الإجهاد، وذلك بإحاطة المستهدَف بالمشاكل والأزمات الإقتصادية والأمنية والقانونية وغيرها. وقد تتم إعاقة جمهور كبير بمثل هذه الأزمات وبتعطيل او تقليص الخدمات العامة كالماء والكهرباء والمواصلات ونحوها.
- الإعاقة المعنوية: وكان النبي ﷺ معصوماً من الناس، فلم يستطيعوا النيل المعنوي منه، غير أن الإعاقة المعنوية يمكن أن تؤثر بصورة مؤقتة على غير الأنبياء من الصالحين، كما حصل في عمليات تلويث سمعة عثمان وعلي رضي الله عنهما، وقد ذكرنا تفاصيل ذلك في (أهل البيت)، ويمكن مراجعة المبحث السابع أي إدارة الفكرة من (نخبة المسار). غير أن الإعاقة المعنوية باب واسع جداً، ويستخدمه خبراء التحريك وحرب الأفكار بمهارة كبيرة، ومن وسائلهم:

✓ الحرب الإعلامية والنفسية على المصلحين.

✓ تشكيل خطوط وتكتلات ظاهرها الإصلاح وباطنها الفساد. ويتبع ذلك عمليات ذكية في خلط الأوراق وتلطيخ النظيف بدنس الفاسد.

✓ إضفاء القدسية على عناوين وشعارات يتمسك بها الفاسدون تمسكاً ظاهرياً فقط ويجعلونها الأهداف التي يجب عدم التعكير عليها.

✓ المهارة في تبرير الظلم والفساد، أي في زخرفة المنكرات وتسويقها.

✓ احتكار مصادر النفوذ وسوء استغلالها، مع عمليات عزل المصلحين عنها.

✓ تهميش الفضائل والأعراف الأصيلة، وتسهيل عمليات النيل منها.

✓ مكيال خاص لإعاقة المصلحين، والقدرة على تمريره بصرف النظر عن القوانين والأنظمة. واستراتيجية الكيل بمكيالين يوضحها قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ التوبة: ٣٧.

✓ عمليات الضغط على المصلحين، لتحييدهم او كسب ذمم بعضهم او اختراق مؤسساتهم.

✓ إماتة مشروع الخصم بمنحه مكاسب شخصية تجعله يتنحى عن مشروعه او عن أجزاء من مشروعه، ويسقط في ذلك من كان ضعيف الثبات.

✓ عمليات تضليل وتحريك الرأي العام.

- الوصاية والتحكم: بحيث تكون الحركة منضبطة بإرادة الخصم. وهذه يمكن أن تكون معلنة بعد هزيمة كبرى واستسلام غير مشروط، او تكون خفية كما في الإختراق الإستراتيجي والنفوذ غير المعلن للأجنبي.

وأما عبارة ﴿أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾: فإنها مطلقة في أنواع من القتل ، منها:

- القتل البطيء: وذلك بنشر أسباب الموت، كالفقر والسحق الإقتصادي والتلوث وخفض الخدمات الضرورية وفقدان الأمن وتنمية الجهل والتخلف. ومن

خطورة القتل البطيء أن الناس يتكيفون معه تدريجياً، حتى يصير وكأنه حالة طبيعية.

● القتل غير المباشر: سواء كان بتسخير وسطاء تنفيذيين او بتفعيل النميمة السياسية وشبهها من وسائل تحريك الآخرين او بتلفيق تهم باطلة. وتذكر هنا أن الفاعل (أي القاتل هنا) يشمل المباشر والـمُسبِب المتعمد والمشارك عن قصد او بالتدبير وإن كان بعيداً عن المشهد المكاني للجريمة، وقد بينا ذلك في (تمكين الباحث)، ونكتفي هنا بالتذكير بقوله تعالى ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ التوبة: ٤٠، فتدبر إسناد فعل الإخراج إلى كفار مكة لأن ظلمهم تسبب بذلك، وإنْ كانوا يريدون منع النبي ﷺ من الخروج.

● القتل المباشر: سواء كان بعمليات الإغتيال او بإيقاد الحروب او باستعمال غير معلن لأدوات الدمار الشامل او بغير ذلك.

● إيقاد الحروب لقتل أكبر عدد ممكن من الشعب.

وأما عبارة ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾: فتشمل الإخراج المادي او المعنوي، والمشهور في التفسير أن المعنى: او يخرجوك من موطنك مكة، ومثله قوله تعالى ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ الإسراء: ٧٦. والإخراج القسري من الموطن أمر كبير عند الله تعالى ، فإنه في كثير من الأحيان يُعطل الطاقات ويمكن أن يشتت العوائل ويُفسد الأبناء والأحفاد، وقد يصل إلى درجة التدمير البطيء. وتدبر في ذلك قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ البقرة: ٢١٧. غير أن العبارة في آية الأنفال غير مقيدة بالإخراج من الأرض،

فهـي تشـمل أيضاً ما أراده كفار مكة من إخراج النبي ﷺ من أمر دعوته، فإن الخروج يكون من الأجسام ومن المعاني، يُقال خرج من الأمر أي تركه او انسحب منه، وخرج فلان من دينه، وفلان خريج فلان إذا تعلم منه، وقد قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ البقرة: ٢٥٧ . ومما ينبه إلى محاولات إخراج النبي ﷺ من دعوته، قوله تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ القلم: ٨ – ٩، وقوله تعالى ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ الإسراء: ٧٣ – ٧٤.

والسياسات العدائية متنوعة في الإخراج القسري من المكان، وكذلك في الإخراج المعنوي، أي الخروج من موقف او إلتزام ، منها:

- الإبعاد إلى جهة محددة ليس فيها مؤيد ولا نصير، فهي أشبه بسجن كبير.
- الإبعاد بظروف قاسية تستنزف القوة، كما يحصل اليوم في عمليات التهجير وغيرها.
- التنسيق مع دول الإستقبال لتقييد حريته وجعله أشبه بالطريد الشريد.
- ما ذكرناه قبل قليل في الإعاقة المعنوية.
- عمليات الإغراء والإغواء والتضليل والتخويف والتضييق لإخراج خصومهم من إلتزاماتهم المعنوية.

الإستبداد والتنكيل وما يقابلها من مهارات بناء السلم:

أما الإستعداد للتنكيل: فيوضحه نحو قوله تعالى ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ التوبة: ٨؛ ضمير الفاعل في: «يظهروا» يرجع إلى المشركين المعادين المحاربين كما يدل عليه السياق قبل هذه الآية وبعدها. والمعنى: إن يظهروا عليكم لا يحفظوا ولا يراعوا فيكم حرمة، من رقَبَ الشيء إذا نظر إليه نظر تعهُّد ورعاية وحراسة. والإل العهد او القرابة او الإعتبار السياسي كما يُفهم من كلام أبي حيان، وأما الذمة فكل ما ينبغي أن يُراعى ويُحفظ من جهة المروءة والأخلاق والإلتزامات الأدبية كالصحبة والجوار والحقوق القديمة والحقوق الإنسانية ونحوها. وقريب من ذلك قوله تعالى ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ الممتحنة: ٢، أي إنْ يظفروا بكم ويتمكنوا منكم تظهر الأعمال العدائية ضدكم. وهذه الآية الكريمة أيضاً في المشركين المعادين الذين أخرجوا النبي ﷺ وأصحابه من ديارهم.

وفي حكاية قول هود لقومه قال تعالى ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ الشعراء: ١٣٠. وفي قصة أهل الكهف قوله تعالى ﴿ ...... وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ الكهف: ١٩ – ٢٠.

وأما الإستبداد الشديد والتنكيل: فتوضحه قصة فرعون كما في قوله تعالى ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ الشعراء: ٤٩؛ وكذلك قوله تعالى في قصة فرعون ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ النازعات: ٢١ – ٢٤. ومن الإستبداد الشديد مع التنكيل قوله تعالى في قصة أصحاب الأُخدود ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ البروج: ٤ – ٨.

وأما مهارات بناء السلم: فأربع مهارات رئيسة ذكرناها مفرقة في (وِجهة اللواء) وغيره، ونذكرها هنا باختصار:

(المهارة الأولى): عدم إعطاء مسَوِّغ للعدو المتغلب: قال تعالى ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ النساء: ١٤١ ، الآية الكريمة نفي بمعنى النهي. يوضح الأمر أن كل خبر في القرآن الكريم يمكن أن يكون الواقع مخالفاً له، فهو خبر عن حكم الشرع وليس خبراً عن الواقع على الأرض، وفي هذا الأصل شواهد كثيرة في القرآن الكريم وفي كلام العرب. فمعنى آية النساء أنه يجب العمل على الإجتناب التام للوقوع تحت نفوذ الكافر او تقليل ذلك إلى أقل ما يمكن عند الإضطرار إليه وبصرف النظر عن كونها ضرورة حاضرة او متراخية. وقد سبق تفصيل لذلك في المبحث الرابع، تحت عنوان: «عدم إعطاء فرصة للخصم».

(المهارة الثانية): الدفع بالتي هي أحسن. قال تعالى ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ فصلت: ٣٤– ٣٥. ففي

التعامل مع الخصم يعتاد بعضهم تصعيد العداوة وما تقترن به من أضرار، ولكن يمكن أن يكون التعامل بأن تسع خصمك، وهو نوع من الإحتواء السلمي (دبلوماسية الوفاق) لأجل تخفيف العداوة والتحول إلى علاقات سلمية، وهذا هو الذي تأمر به هذه الآية الكريمة . وتدبر أن هذا الإحتواء يقوم على الرفق، كما يدل عليه تقديم الحسنة على السيئة، وكذلك الدفع بالتي هي أحسن وتحوُّل العدو إلى شبه الولي الحميم. وتدبر أيضاً أن الإحتواء المذكور يحتاج إلى صبر وإلى حظ عظيم من التوفيق والعقل والحكمة. وهذا كله يفضي إلى تحصيل غايات كبيرة بعمل عقلي كبير وما يقتضيه من تفاوض ونحوه، ولسلامته من الأضرار يُعبر عنه أحياناً بتحصيل أمور كبيرة بوسائل يسيرة او ضعيفة، وهو تعبير مجازي لأن هذا النوع من العمل ليس بالهين ولا بالضعيف ، بدليل عبارة ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾، فهو وظيفة النخبة او النخبة من النخبة، ولكن ينبغي لكل مؤمن أن يحاول تحصيل درجة منها، كما هو حكم تحصيل درجات الفضائل عموماً.

ولا شك أن التفريط في مثل هذه المعاني العظيمة يعني التفريط في التفكير وفي تشغيل العقل، وهي مصيبة كبرى بالغة الضرر. ومن هذا الأصل أن الإحتواء في كثير من الأحيان، خاصة في الصراع السياسي، ليس مجرد كلمة طيبة وهدية، ولكنه صبر على كثير من التفكير والإعداد والتخطيط للإحتواء السلمي وما يحتاجه من مقدمات وإجراءات عملية من الحلم والتحفيز (كرسائل التطمين القولية والعملية وبناء المصالح المشتركة) والأفكار الذكية والإثارة والمراجعة. وتدبر في الآية الكريمة عبارة ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾، فدخول كاف التشبيه لأن الخصم إذا كان كافراً فإنه لا يصير ولياً حميماً في حقيقة الأمر، ولكنه يختار التعامل السلمي وربما التحالف وكأنه ولي حميم، وقد يساعد في كثير من أعمال الخير والفضيلة. وحتى بعد بداية العنف، يمكن القيام بإجراءات تخفيفية مدروسة بعناية كي يؤول الأمر وكأنه ولي حميم. وقد يقع كثير من الدمار

والهلاك بسبب ضعف مهارات ومتطلبات الإحتواء، ويشمل ذلك الصراع الداخلي والخارجي، وتأريخ الشعوب يشهد لذلك. وفي كثير من الأحيان، يكون إعطاء الخصوم فرص عمل منضبطة ويمكن التعامل معها، أفضل من تضييق شديد يجعلهم يعملون بصورة غير منظورة.

وأما مزعمة بعضهم أن آية فصلت منسوخة، فإن كان يريد النسخ الإصطلاحي فإن مزعمته بلا دليل، ومن يتدبر الآية يجد أنه من البعيد جداً أن ينسخ الله حكماً وصفه بأنه ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾. يوضح الأمر أن معنى النسخ الاصطلاحي هو ترك العمل بحكم منزل من عند الله تعالى والإفتاء بذلك، وهذا من عظائم الآثام إلا باجتماع شرطين، **الشرط الأول**: العلم بالمتقدم والمتأخر من النصين. **الشرط الثاني**: تعذر الجمع بين النصين، وهذا ما لا سبيل له هنا وفي كثير من مزاعم النسخ. فلا شك أنها آية محكمة غير منسوخة، وليست محصورة بين الأفراد، بل يشمل حكمها الجماعات والدول.

(المهارة الثالثة): بناء خبرة واسعة في المهارات السلمية. قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ البقرة: ٢٠٨، وقد ذكرنا تفسير الآية في (نخبة المسار) وفي (وِجهة اللواء). ونكتفي هنا بأن عبارة «كافة» يصلح أن تكون حالاً أي وصفاً للسلم، والمعنى: ادخلوا في السلم من كل جوانبه ومسالكه ومهاراته. وبذلك فإن السلم ليس استثناءً، بل هو أصل كبير مقارن لأصل الدفاع او الجهاد العسكري. ويتصل بذلك قوله تعالى ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ الأنفال: ٦١ – ٦٢؛ وقد ذكرنا تفسير آية الأنفال في كتبنا الأُخرى.

(المهارة الرابعة): بناء القوة التي تمنع العدوان. وهذا نص قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ ﴾ الأنفال: ٦٠، فالمطلوب إعداد قوة كافية تجعل من يحمل نوايا عدوانية يخاف من القيام بعمل عدائي، بل قد تجعله يفضل الدخول في علاقات سلمية ومصالح متبادلة. وتُسمى هذه في اللغة المعاصرة بالقوة الرادعة، وهذا في الحقيقة احتواء سلمي مبني على قوة رادعة، وقد اعتمدت عليه أوروبا وأميركا بعد الحربين العالميتين، الأولى والثانية.

سبل الشيطان في الإغواء

سبل الشيطان في الإغواء هي نفسها سبل أتباعه، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة توضح الصلة بين الشيطان وأتباعه.

قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣ ﴾ الأنعام: ١١٢ – ١١٣.

وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١، يوضح المعنى أن كل طاعة لبشر يجب أن لا تتعارض مع طاعة الله تعالى، فإن حصل تنازع وتعارض في عقيدة الطاعة، أي من اعتقد صحة رأي مع علمه بأنه يخالف الإسلام، فهو بمعنى اتخاذ الند لله تعالى، أي الشرك. وإنْ كان التعارض في العمل مع صحة المعتقد فهي المعصية او الفسق وما أشبه ذلك او الإضطرار.

وقال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: ٢٧؛ وقال تعالى ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الأعراف: ٣٠؛ واضح من آيتي الأعراف وجود ولاء متبادل بين الشياطين وأهل الضلالة من الناس وما يقتضيه الولاء من متابعة وتعاون على الشر.

آيات الإسراء:

قال تعالى ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾ الإسراء: ٦٢ – ٦٥.

فمن فوائد الآيات:

الفائدة الأولى: معنى لفظ حنك ومشتقاته. تتضمن كلمة «حنك» معنى الإحتواء والإستيعاب. وتُستعمل اشتقاقاتها في مجالين، **(المجال الأول)**: في الأجساد، فحَنَكُ الْإِنْسَانِ: أَقْصَى فَمِهِ، كما ذكر ابن فارس، والمقصود من باطن الفم. ويُؤخذ منه الفعل في استعمال الحنك، قال ابن منظور: وَفِي حَدِيثِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنه كَانَ يُحَنِّكُ أَولاد الأَنصار ؛ قَالَ: والتَّحْنِيك أَن تَمْضُغَ التَّمْرَ ثُمَّ تدلُكه بحَنَك الصَّبِيِّ دَاخِلَ فَمِهِ؛ يُقَالُ مِنْهُ: حَنَكْتُه وحَنَّكْتُه فَهُوَ مَحْنوك ومُحَنَّك.. واسْتَحْنك الرجلُ: قَوِيَ أَكله وَاشْتَدَّ بَعْدَ ضَعْفٍ وَقِلَّةٍ، وَهُوَ مِنْ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُمْ: هَذَا الْبَعِيرُ أَحْنَكُ الإِبل مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَنَكِ، يُرِيدُونَ أَشَدَّها أَكلًا. والحُنُك: الأَكَلَةُ مِنَ النَّاسِ. وَاحْتَنَكَ الجرادُ الأَرض: أَتَى عَلَى نَبْتِهَا وأَكل مَا عَلَيْهَا.

والحَنَك: الجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ يَنْتَجِعون بَلَدًا يَرْعَوْنَهُ. يُقَالُ: مَا تَرك الأَحْناكُ فِي أَرضنا شَيْئًا، يَعْنِي الجَمَاعَاتِ الْمَارَّةَ. اهـ من (لسان العرب). وقال الصاحب: واحْتَنَكْتُ الرَّجُلَ: أخَذْتَ مالَه وشَيْئه. اهـ من (المحيط)، أي: كأنه أكل مالَ الرجل بالحَنَك كما عبَّر بذلك ابن منظور. وقال ابن سيده: وحَنَكَ الدَّابَّة يَحْنِكُها ويَحْنُكُها حَنْكا واحتَنَكَها، شدّ فِي حِنكها الْأَسْفَل حبلا يَقُودهَا بِهِ. اهـ من (المحكم). **(المجال الثاني)**: في إدارة النفس، كالترويض والتجربة والتدريب الفكري. فقد نقل ابن الأثير حَدِيثِ طَلْحَةَ «قَالَ لِعُمر: قَدْ حَنَّكَتْكَ الْأُمُورُ» أَيْ رَاضَتْكَ وهَذَّبْتك. اهـ. وَيُقَالُ حَنكْتُ الشَّيْءَ إِذَا فَهِمْتَهُ، كما نقل ابن فارس. وقال ابن منظور: والحُنْكةُ: السِّنّ وَالتَّجْرِبَةُ وَالْبَصَرُ بالأُمور. وحَنكَتْه التّجارِبُ والسِّنُّ حَنْكاً وحَنكاً وأَحْنكَتْه وحَنَّكَتْه واحْتَنَكَتْهُ: هَذَّبته، والإِسم الحُنْكة والحُنْك والحِنْك. الأَزهري عَنِ اللَّيْثِ: حَنّكته السِّنُّ إِذَا نَبَتَتْ أَسنانه الَّتِي تُسَمَّى أَسنان الْعَقْلِ، وحَنّكتْه السنُّ إِذَا أَحكمتْه التجارِبُ والأُمور، فَهُوَ مُحَنَّك ومُحْنَك. ابْنُ الأَعرابي: جَرَّذَه الدهرُ ودَلَكه ووَعَسَهُ وحَنَّكه وعَرَكه ونَجَّذَهُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ. واحْتَنك الرجلُ أَي اسْتَحْكَمَ. وَرَجُلٌ مُحْتَنَك وحَنيك: مُجَرَّب. وحَنَكْتُ الشيءَ: فَهِمْتُهُ وأَحكمته. الْفَرَّاءُ: رَجُلٌ حُنُك وامرأَة حُنُكة إِذَا كَانَا لَبِيبَيْنِ عَاقِلَيْنِ. اهـ من (لسان العرب).

وفي المجالين: يتضمن الِاحْتِنَاكِ معنى الاستيعاب والإحتواء المادي او المعنوي، فالمجالين من أصل واحد، فقولهم احْتَنَكَ الجرادُ الأَرض: أي أَتَى عَلَى نَبْتِهَا وأَكل مَا عَلَيْهَا، او اسْتَأْصَلَهُ، كما هي عبارة ابن فارس او أكله كله كما هي عبارة ابن قتيبة ومعنى عبارة غيره. وحَنَكَ الدَّابَّة شدّ فِي حِنكها حبلا يستوعب مدار الربط. وذكر ابن قتيبة في غريب القرآن: واحْتَنَكَ فلانٌ ما عند فلان من العلم: إذا استقصاه. اهـ. والمُحْتَنَك: الرَّجُلُ الْمُتَنَاهِي عَقْلُهُ وَسِنُّهُ، كما في (لسان العرب). وصرح ابن فارس في مقاييسه أن الإحتناك يدل على التَّنَاهِي فِي الْأَمْرِ.

الفائدة الثانية: معنى عبارة ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. يصح أن يشمل الاِحْتِنَاكِ هنا المجالين لأنهما من أصل واحد كما ذكرنا، فمعنى المجال الأول، أن يعزم الشيطان او يُقسم أنه سيتحكم بذرية آدم عليه السلام، كما يقود السائق دابة جعل في حنكها حبلاً. ومعنى المجال الثاني، أن يعزم الشيطان أنه سيحتوي عقول ذرية آدم عليه السلام، ويتحكم بها عن طريق الترويض والتدريب على الخطايا وشبه ذلك من مهارات إعادة تشكيل العقل. وهذا تأويل قوي إن شاء الله تعالى.

وواضح من مضمون الإحتواء والإستيعاب أن الشيطان يريد احتواء الإنسان بأنشطته كلها، العقيدية والعملية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية وغيرها. ويوجب ذلك على المؤمنين أن يرصدوا كل ثغرة وكل فراغ يمكن أن يدخل منه فكر الشيطان. وتدبر قوله تعالى ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ ﴾ ص: ٢٠، فالملك المشدود كالحبل المفتول بقوة، فلا فراغات بين خيوطه. وكذلك الملك المشدود، ليس فيه شقوق ولا فراغات.

وقد تكلمنا عن «الترويض» بقدر من التفصيل في «المبحث الخامس: الحرب غير العسكرية» من كتاب (وِجهة اللواء)، ونكتفي هنا بالمعنى الإجمالي. فالترويض الذي يفعله البشر هو نوع من التدريب، وهو التليين والتطويع والتذليل، يُقال: رُضْتُ الدابّة أَرُوضُها رَوْضاً ورِياضةً: إِذا علّمتَها السَّيْرَةَ وذلّلتَها. ويُطلق الترويض في العُرف السياسي على عمليات تغيير استجابة الآخرين، وذلك بتطويعهم لقبول الضعف وتوابعه في مواجهة العدو او قبول الفكر المضاد او الظلم والفساد، أي التدريب السلبي. والناس يتفاوتون جداً في قدرتهم على مقاومة الترويض السلبي، ولذلك يلجأ المستبدون إلى أنواع من الترويض، بعضها للجمهور وبعضها للنخب وبعضها الآخر للمقاومين. ونكتفي هنا بمثال واحد، وهو ترويض الحواس الظاهرة: وأهمها هنا السمع والبصر، وذلك أن الحواس منافذ إلى الفكر والقلب، فتدريب النظر على رؤية التعري والمفاتن المحرمة يروض النفس للتفاعل بِلِين مع هذه المحرمات. ومثلها تكرار او إدمان رؤية

مظاهر الترف والإسراف والملذات المقترنة بعوامل الترغيب والتشويق. وكذلك الأمر مع تدريب السمع على سماع التوافه والأباطيل والمظالم من غير استنكار. فإن أُلْفَة المنكرات الحسية يمكن أن يؤدي إلى أُلْفَة المنكرات المعنوية. وتبلد الإحساس بضرر المنكرات يوضحه نحو قوله تعالى ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ المائدة: ٧٩ ، فتدبر عبارة ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ ﴾، فإنها تدل على العموم في نفي التناهي ، وكأن المنكَرات صارت أمراً طبيعياً بينهم.

الفائدة الثالثة: معنى عبارة ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾، **(أما الإستفزاز)** في قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾، فمن: فزَّ يَفِزّ إذا فزع او خاف من أمر، او تحرك فزعاً، يُقال: فَزَزْتُ خوفًا من صوت الإنفجار، وزيادة الهمزة والسين والتاء في أوله (صيغة استفعل) تصلح هنا للجعْل، نحو قولهم: اسْتَعْبَدَهُ أي: عبَّدَه، بأن جعله عبداً او سار به مسار الإستعباد. فمعنى ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ... ﴾، أي اجعل من استطعت منهم يصير فزعاً من المخاوف الدنيوية التي يثيرها الشيطان ويطوف بها أتباعه. **(وأما عبارة)**: ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾، فالصوت يشمل كل رأي مُعلن وإن كان الإعلان بالكتابة. قال الزمخشري: وله صوت في الناس وصيت، وذهب صيته فيهم. اهـ من (أساس البلاغة). ويُقال: فلان بعيد الصوت، إذا سار صيته في الناس، وقال ابن فارس: وَالصِّيتُ: الذِّكْرُ الْحَسَنُ فِي النَّاسِ. يُقَالُ: ذَهَبَ صِيتُهُ. اهـ من (معجم مقاييس اللغة)، وقال الزبيدي: أصات الرجل بالرجل: إذا شهره بأمر لا يشتهيه. والصيت، بالكسر: الذكر، يقال: ذهب في الناس صيته، أي ذكره. يقال: له صوت وصيت، أي ذكر. اهـ من (تاج العروس).

فالصوت جنس لما يمكن أن يسمعه السامع وإن كان من خلال الوسائط، يؤيد ذلك تفسير ابن عباس لآية الإسراء، فعن ابن عباس ﷺ قال: «صوته كلّ داع دعا إلى معصية الله» رواه الطبري وغيره. وطريقة الشيطان هي تحريك الفكرة السيئة عن طريق أوليائه ومن يعينهم بجهله، وتدبر قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ الأعراف: ٢٠١ – ٢٠٢، فتدبر أنه طائف (من الطواف)، وأصله من الشيطان ويمكن أن ينقله أولياء الشيطان ومن يساعدهم، ولهم إخوان في الغي يمدونهم من قريب ومن بعيد في تحريك هذه الأفكار ولا يَفْتُرُونَ في خدمة الشيطان، فهو تنظيم عابر للحدود. **(وأما صيغة الأمر)** في عبارة ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ وما بعدها، فيُراد بها التهاون بالشيطان وبمن اتّبعه والتهديد له، لأنّ من عصى فإنّما عصيانه على نفسه، على نحو قوله تبارك وتعالى ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ هود: ١٢١ – ١٢٢. فمعنى عبارة ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾، أي خوفهم بصوتك من حوادث الدنيا.

فمن صوت الشيطان ما ذكره الله في نحو قوله تعالى ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٦٨.

وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥.

وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ المائدة: ٩١.

وقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ البقرة: ٢٧٥.

وقوله تعالى ﴿ ... وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾ النساء: ٦٠.

وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ الأنفال: ٤٨، وإلى غير ذلك من الآيات.

الفائـدة الرابعـة: معنى عبـارة ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾. **(أما عبـارة)**: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾، فالإجلاب من: جلب الشيء إذا جاء به وأحضره، وأجلب القومُ أي أحضر بعضهم بعضاً واجتمعوا وتألبوا. وأجْلب الرجل: توعد بشر، وَجمع الْجمع كما في (المحكم). وأَجْلَبُوا عَلَيْهِ إِذَا تَجَمَّعوا وتألبُوا، كما في (النهاية). والخيل كناية عن المركب، والرَّجْل: جمع راجل. والمعنى: أجْلِب عليهم بكل راكب وماش في معصية الله تعالى من شياطين الجن والإنس؛ فكلُّ راكبٍ في معصيةِ اللهَّ فهو من خيلِ إبليس مهما كان مركبه، وكل ماشٍ في معصيةٍ فهو من رجل ابليس. **(وأما عبارة)**: ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ﴾، فتشمل كل مال صار فيه نصيب للمعصية وخدمة الشيطان، وتشمل كل ولد استطاع الشيطان أن يشارك الوالدين المسلمين في توجيهه وتحديد مساره، بسبب تقصير الوالدين او بسبب آخر. وأما وعد الشيطان، فقد قال تعـالى ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ

وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ ... ﴾ إبراهيم: ٢٢.

الفائدة الخامسة: قوله تعالى ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾، فلا سلطان للشيطان على المؤمنين الصالحين؛ وتدبر صيغة الحصر او المبالغة في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ النحل: ٩٨ – ١٠٠.

آية الأعراف:

قال تعالى ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ الأعراف: ١٦ – ١٧، قد ذكرنا تفسيراً مفصلاً للآيتين في (نخبة المسار/ المبحث السابع، تحت عنوان: الجهات المعنوية في تحريك أفكار الشر).

ويمكن هنا الإقتصار على المعنى الإجمالي. فعبارة ﴿ لَأَقْعُدَنَّ ﴾، هي كناية عن الملازمة والمواضبة بلا فتور على جلسة عمل مستمرة، غايتها هو استهدافٌ تخريبيٌّ لأعمال الصراط المستقيم، فإن من أراد المبالغة في قضاء أمر قعد له أي تفرغ له. وعزم إبليس أن يأتي الناسَ من الجهات المعنوية كلها، فـ: «من بين أيديهم»، أي مواجهة ومما يبصرون ومما يُقبلون عليه او يُقبل عليهم أي من حاضرهم ومستقبلهم، استعارة من قولهم: بين يديه أي أمامه. ومعنى «من خلفهم»، أي مغافلة ومما لا يبصرون ومن ماضيهم وما سبق أن فعلوه وأبرموه؛ وكذلك يأتيهم «عن أيمانهم» أي من نقاط قوتهم، ويأتيهم «عن شمائلهم»

أي من نقاط ضعفهم. ولا شك أن جهات حركة إبليس هذه يمكن أن تظهر للعلن على غير حقيقتها، ككثير من الواجهات الخادعة او المشحونة بمتفجرات معنوية غير ظاهرة او غير معلنة.

آية الأعراف الأُخرى:

قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ الأعراف: ٨٦؛ في الآية الكريمة حكاية لكلام شعيب عليه السلام مع قومه.

وذكرنا في تفسير الآية السابقة أن القعود كناية عن الملازمة والمواضبة بلا فتور على جلسة عمل مستمرة، غايتها هو استهدافٌ تخريبيٌّ لأعمال الصراط المستقيم. ومعنى عبارة ﴿ بِكُلِّ صِرَٰطٍ ﴾، أي بكل طريق مادي او معنوي لصد الناس عن دعوة شعيب، وتدبر استعمال كلمة «كل» فهم يحاولون شمول كل طريق مادي او معنوي للتهديد والتحذير من التقرب إلى دعوة شعيب عليه السلام او للطعن في الدعوة. وهذا قريب من قوله تعالى ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ الأعراف: ٢٠٢.

وأما معنى ﴿ تُوعِدُونَ ﴾، فقال الإمام الزجاج: ومعنى توعدون أي توعدون من آمن بشعيب بالعذاب والتهدد. يقال: وعدته خيراً، ووعدته شرًّا، فإذا لم تذكر واحداً منهما، قلت في الخير وعدته وفي الشر أوعدته. اهـ من (معاني القرآن وإعرابه).

آية النساء:

قال تعالى ﴿ .... وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ

فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ النساء: ١١٧ – ١١٩.

من فوائد هذه الآيات الكريمات:

الفائدة الأولى: عبارة ﴿ شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾، معنى «مريد» أنه مجرد من الخير موغل في الشر، وأصل اللفظ من العري والتجرد، يُقال صخرة مرداء أي ملساء، وصرح ممرد أي مملس، وشجرة مرداء أي لا ورق عليها، وتمرَّد أي أقدم وعتا، وكأنه تجرد من الإلتزامات والضوابط. فإبليس مجرد من الفضائل جملة وتفصيلاً، ولا يأمر إلا بشر. وأما أتباع او أولياء إبليس، فتجردهم للشر يكون على قدر موالاتهم لإبليس، فقد ذكر الله الصالحين والفاسدين ثم قال تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ الأحقاف: ١٩؛ فالأصل في التعامل معهم أن تحسب حساب الإحتمالات كلها، وأن تكون حذراً ومراقباً لاحتمال تغيير المواقف.

ويتصل بذلك قوله تبارك وتعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ الحج: ٣ – ٤؛ الضمير البارز المنصوب في «تولاه» يصح أن يعود على الشيطان المريد لأنه أقرب مذكور ولأنه مقصود مهم؛ وهذا قول طائفة من المفسرين. ويصح أيضاً أن يعود الضمير المنصوب في «تولاه» على الإنسان الذي يجادل بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، لأنه أصل الكلام؛ وقد جوَّز ذلك أبو حيان في (البحر المحيط) والسمين الحلبي في (الدر المصون). والوجهان قويان من جهة المعنى وصناعة النحو، ولا تناقض بينهما، فهما كالقراءتين في الإحتجاج بهما.

الفائدة الثانية: معنى عبارة ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾، أما الإضلال فهو الإدخال في المجال الخاطئ، ووسائله كثيرة جداً، وسنذكر جملة منها في عنوان مستقل بعد تفسير هذه الآية إن شاء الله تعالى.

وأما عبارة ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾، فإن الأصل في الـمَنى هو التقدير، ويتفرع منه ما يرجع إلى بعض أنواع وأوصاف التقدير:

فمنهـا: التقدير بمعنى القَدر الواقع والقضاء النافذ، وهو قضاء الله تعالى وقَدَره. يُقال: مَنَى اللهُ الشَّيْءَ يَمْنِيه: قَدَّرَه؛ وَيُقَالُ: مَنى اللهُ لَكَ مَا يسُـرُّك أَي قَدَّر اللهُّ لَكَ مَا يَسُـرُّك؛ ومنه: المَنى والمَنِـيَّـةُ: المُوْتُ لأَنه قُدِّر عَلَيْنَا، كما في (لسان العرب). ويتبع هذا النوع نحو قولهم: مُنِيتُ بِكَذَا وَكَذَا، أي ابْتُلِيت بِهِ. وَيُقَالُ: مُنِيَ ببَلِيَّة أَي ابْتُلي بِهَا كأَنما قُدِّرت لَهُ وقُدِّر لَهَا. وعلى نحو ذلك: مُنِينا لَهُ، أي وُفِّقْنا له، فهو قدَر علينا. وَمَاءُ الْإِنْسَانِ مَنِيٌّ، أَيْ يُقَدَّرُ مِنْهُ خِلْقَتُهُ، كما في مقاييس ابن فارس.

ومنهـا: التمني بمعنى أن الإنسان يرجو من الله تعالى أن يُقدر له الخير. ومنه حديث عَائِشَـةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُـولُ اللهَّ ﷺ: « إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيُكْثِرْ، فَإِنَّمَا يَسْـأَلُ رَبَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ. » رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ كما ذكر نور الدين الهيثمي في (مجمع الزوائد)، وصححه الألباني في (صحيح الجامع الصغير وزيادته). وقال ابن منظور: وتَمَنَّى الكتابَ: قرأَه وكَتَبَه. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ الحج: ٥٢، أَي: قَرَأَ وتَلا فأَلْقَى فِي تِلاوته مَا لَيْسَ فِيهِ؛ وتَمَنَّى إِذا تَلا الْقُرْآنَ؛ قَالَ أَبو مَنْصُورٍ: والتِّلاوةُ سُمِّيَتْ أُمْنِيَّة لأَنَّ تَالِيَ القرآنِ إِذا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ تَمَنَّاها، وإِذا مرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ تَمَنَّى أَن يُوقَّاه. اهـ مع اختصار من (لسان العرب).

ومنهـا: التقدير البشري المستند إلى مجرد الرغبة والأحلام العريضة، وقد يبلغ درجة الكذب والإفتعال. قال ابن الأثير: التَّمَنِّي: تَشَهِّي حُصُولِ الأمْرِ المَرْغُوبِ فِيهِ، وَحَدِيثُ

النَّفس بِمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ. اهـ من (النهاية). وتَمَنَّى الشيءَ أَرَادَهُ وَمَنَّاهُ إياهُ وبه وهِيَ الْمُنْيَةُ والمِنْيَةُ وَالأُمنِيَّةُ، كما في مقاييس ابن فارس. والأَمَانِيُّ جمع أُمْنِيّةٌ؛ والمُنَى، بِضَمِّ الْمِيمِ: جَمْعُ الْمُنْيَة، وَهُوَ مَا يَتَمَنَّى الرَّجُلُ، كما في (لسان العرب). وقال ابن منظور: وَفِي رِوَايَةٍ (أي عن عثمان): مَا تَمَنَّيْتُ مُنْذُ أَسلمت، أَي مَا كَذَبْت. والتَّمَنِّي: الكَذِب، تَفَعُّل مِن مَنَى يَمْنِي إذا قَدَّر لأَن الْكَاذِبَ يُقدِّر فِي نَفْسِهِ الْحَدِيثَ ثُمَّ يَقُولُهُ، وَيُقَالُ للأَحاديث الَّتِي تُتَمَنَّى الأَمَانِيُّ، وَاحِدَتُهَا أُمْنِيّةٌ؛ وَفِي قَصِيدِة كَعْبٍ: (فَلَا يغُرَّنْكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وعَدَتْ ... إِنَّ الأَمَانِيَّ والأَحْلامَ تَضلِيلُ). وتَمَنَّى: كَذَبَ ووضَعَ حَدِيثًا لَا أَصل لَهُ. وتَمَنَّى الحَديث: اخْتَرَعَهُ. اهـ من (لسان العرب).

فمعنى عبارة ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾، سأجعل في نفوسهم من الأماني ما يُضلهم ويخدعهم ويصرفهم عن طاعتك؛ كالأماني في اتباع الأهواء وتهوين الإصرار، والتسويف في العمل وتغليب متاع الدنيا على مطالب الدين، وتصديق الآمال والمواعيد الكاذبة والأوهام التي تجعلهم يطمعون فيما لا يقع وتوصلهم إلى المضار والمهالك.

وقد تكرر في القرآن الكريم التحذير من اتباع الأماني، قال تعالى ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ القصص: ٨٢.

وقال تعالى ﴿ .... وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ الحديد: ١٤.

وقال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ البقرة: ٧٨ ، وواضح من صيغة الحصر في عبارة ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾، أن أمانيهم ليس فيها علم، فهي رغبات وأوهام وما شابه ذلك.

وقال تعالى ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة: ١١١.

وقال تعالى ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ النساء: ١٢٣.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، يقول: لا يتمنى الرجل يقول: «ليت أنّ لي مالَ فلان وأهلَه»، فنهى الله سبحانه عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله. رواه الطبري.

وعن مجاهد في قوله ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، قال: قول النساء: «ليتنا رجالاً فنغزو ونبلُغ ما يبلغ الرجال». رواه الطبري.

وتدبر حديث ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا. » رواه البخاري ومسلم وغيرهما؛ فتدبر صيغة الحصر في الحديث، وظاهرها حصر جواز تمني ما عند الآخرين في هذين الأمرين؛ والحسد هنا معناه الغبطة أي من غير إرادة زوال ما عند الآخرين. وفي تفسير آية النساء تكلم الإمام القرطبي عن حكم تمني الأعمال الصالحة عند الآخرين.

فالتمني في غالب الإستعمال هو ترقب المرغوب إما من الشهوات، وإما من غيرها ولكن بلا تمهيد الطرق ولا إعداد الأسباب، وإنما هي رغبة او شهوة، كأماني جودة الأحوال وقوة المؤسسة وضعف الخصوم وشبه ذلك مما يُشبه أحلام اليقظة والأوهام. وقد تُؤَسَّسُ أعمال على هذه الأماني، وتنتهي بفشل او بمصيبة وإنهيار كبير لأنها في حقيقة الأمر أوهام. وتُعَد هذه الأماني من أهم عوائق المعالي. ومعنى ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾، لأُسَوِّلَنَّ

لهم، أي أُلقي في نفوسهم هذه الأماني. وتوجد أمثلة كثيرة جداً من الأماني والأوهام، منها:

- توهم القدرة على عمل معين، وهو في حقيقة الأمر أكبر من الوسع، ومصيره إلى فشل وتهلكة، كما أن هذا الوَهْم يقطع الصبر ويُفسد عمليات تنمية الوسع.
- توهم عدم القدرة مع وجود الوسع، مما يؤدي إلى ضياع الفرص والتخلف.
- توهم بقاء الأمور كما هي، مع إمكان تنمية الوسع وبناء واقع جديد. وكذلك تفاقم عوامل الإنحدار عند الآخرين، وما يقترن به من فرص.
- توهم القوة او النصر، وهو في الحقيقة استدراج إلى المقتل.
- توهم المنعة والحصانة، مما يؤدي إلى الغفلة عن التصدعات والمخاطر.
- توهم المبادأة واغتنام الفرصة، وهو في الحقيقة استدراج.
- توهم إمكان تحقيق أهداف كبيرة من غير تخطيط (تدبير) وإعداد ولا مصابرة ومرابطة ولا استباق ومغالبة.
- توهم سلامة المسار من غير تقويم شامل، مما يؤدي إلى إغفال مواطن ضعف تستلزم التراجع والتخلف، كضعف الأهلية وفشل أنظمة القيادة والإدارة ووجود فساد ومظالم او وجود اختراق مؤثر.
- توهم الكثرة، وإنما هو حشد ظاهري قلق.
- توهم الخير والصلاح في قضية معينة، وإنما هو شر وفساد، ولكن كما قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ البقرة: ١١ – ١٢.
- توهم الحاجة او الضرورة وإنما هي شهوة، وقد ذكرنا تفاصيل مهمة في العناوين القريبة من (نخبة المسار).

ويتصل بالأماني قوله تعالى ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ النساء: ٣٢ ؛ فقد يملك أخوك نعمة غير أنك تصلح لنعمة أُخرى، كما أن تمني نعمة الآخرين يورث الحسد، كما أنك في الغالب لا تعلم نوايا الآخر ولا مدى التزامه الشرعي في التصرف بالنعمة، فربما تقع في مصيبة إذا تمنيت مكانه، وقد ذكرنا الآية الكريمة في قصة قارون. وتدبر في آية النساء عبارة ﴿ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾، فإذا استحسنت عملاً صالحاً عند زيد وهو رجل صالح، فلك أن تسأل الله تعالى أن يرزقك هذا العمل الصالح بصرف النظر عن أمر زيد، أي تجنب في التمني أن تربط العمل بفلان او فلان فإنك لا تدري، ربما تقع أحياناً في نحو ما تضمنه قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ القصص: ٧٩ ، اللهم إلا فيما استثناه حديث « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ »، والله تعالى أعلم.

الفائدة الثالثة: عبارة ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾، البَتْك: الْقَطْعُ، وبَتَك الشيء أي قطعه، وَسيف باتك وبتوك إِذا كَانَ صَارِمًا، والبِتْكَةُ: الْقطعَة من كل شَيْء، او كُلُّ طَائِفَةٍ صَارَتْ فِي يَدِكَ مِنْ ذَلِكَ، كما هي عبارة ابن منظور، وَالْجمع بتك. وتشديد التاء (بتَّك) للمبالغة، كما في الآية. فمعنى الآية الكريمة أنهم يقطعون آذان الأنعام او يشقونها لإزالة قطعة منها. وهذا من أمر الشيطان وهو نوعان، **(النوع الأول)**: البتك بقصد المثلة او التعذيب، والأحاديث الصحيحة كثيرة في النهي عن المثلة، منها حديث عَبْدِ الله بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ وَهُوَ الْأَنْصَارِيُّ قَالَ: نَهَى رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « عَنِ الْمُثْلَةِ وَالنُّهْبَةِ » رواه الإمام أحمد وصححه شعيب الأرنؤوط على شرط

الصحيحين. **(النوع الثاني)**: بتك الأذن ضمن تشريع بشري يستند إلى الهوى، وتدبر قوله تعالى ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ المائدة: ١٠٣؛ قال الراغب: يقال: بَحَرْتُ كذا: أوسعته سعة البحر، تشبيها به، ومنه: بَحرْتُ البعير: شققت أذنه شقاً واسعاً، ومنه سميت البَحِيرَة. قال تعـــالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ ﴾ ، وذلك ما كانوا يجعلونه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها فيسيبونها، فلا تركب ولا يحمل عليها. وسموا كلّ متوسّع في شـيء بَحْراً، حتى قالوا: فرس بحر، وللمتوسـع في علمه بحر، والتَبَحُّرُ في العلم: التوسـع. اهـ من (المفردات). وعَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَ: « هَلْ تُنْتَجُ إِبِلُ قَوْمِكَ صِحَاحًا آذَانُهَا، فَتَعْمَدُ إِلَى الْمُوسَى فَتَقْطَعُ آذَانَهَا، فَتَقُولُ: هَذِهِ بُحُرٌ، أَوْ تَشُقُّ جُلُودَهَا، وَتَقُولَ: هَذِهِ صُرُمٌ، فَتُحَرِّمُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ؟ »، قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: « فَكُلُّ مَا آتَاكَ اللهُ لَكَ حِلٌّ، سَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ مِنْ سَاعِدِكَ، وَمُوسَى اللهِ أَحَدُّ مِنْ مُوسَاكَ. » رواه ابن حبان، وصححه شعيب الأرنؤوط على شرط مسلم، ورواه أحمد والحاكم في سياق حديث وصححه الإمام الذهبي. فتدبر عبارة « فَتُحَرِّمُهَا عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ؟ »، فإنها تنبه إلى أنهم جعلوا بتك الآذان علامة على تشريع معين، شرَّعوه بمحض الهوى والظن.

الفائدة الرابعة: معنى عبارة: ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِ ﴾، **(أما التغيير)**: فهو تصيير الشيء على خلاف ما كان عليه، قال ابن سيده: وَتغَير الشَّيْء عَن حَاله: تحوَّلَ، وَغَيره: حوَّله وبدَّله، وَغير عَلَيْهِ الْأَمرَ: حوَّلَه، وَغِيَـرُ الدَّهْر: أحداثُه المُغيرَة. من (المحكم). ويكون على نوعين ، **النوع الأول**: تغيير صورة الشيء او صفته او مساره دون ذاته، نحو قوله تعالى ﴿ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ ﴾ محمد: ١٥، ويشمله أيضاً

قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ الرعد: ١١. وهذا النوع من التغير هو موضع الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل. **النوع الثاني**: هو تبديل الذات بغيرها، ومنه قوله تعالى ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ الأنعام: ١٤، ويقول أحدهم: غيرت داري، إذا أراد الإنتقال إلى دار آخر. **(وأما لفظ «خلْق»)**: فأصله مصدر يدل على الحدث، أي عملية التكوين الأساسي التي ينمو بها المخلوق. فالفرق بين الخلق والمخلوق هو كالفرق بين الأكل والمأكول، وبين القتل والمقتول، وبين السلب والمسلوب. ويمكن في العربية استعمال المصدر بمعنى الاسم، كاستعمال الخلق بمعنى المخلوق، غير أن هذا خلاف الأصل، فلا نصير إليه إلا بدليل يوجب ذلك.

وعمل الشيطان لتغيير خلق الله يشمل أكثر من نوع:

(النوع الأول): هو نوع شائع قديماً وحديثاً، ولكنه يشمل الإنسان من جملة المخلوقات، فالغاية الرئيسة لأهل الباطل تغيير توجه الإنسان ومساره. وكأن المعنى لعبارة: ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾، مبني على حذف مضاف، والتقدير: فليغيرن توجُّه او تصرف او مسار خلق الله تعالى، أي تغيير توجه تكوين الإنسان من الغاية التكليفية من الخلق وهي عبادة الله تعالى، فقد قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦، إلى عبادة غير الله تعالى. وهذه للشيطان غاية كُبرى، فإنْ استوعبت مركز التوجه فإنها تجعل الإنسان الضال يمارس تضليل الآخرين، لأن وِجهة الصلاح قد شُلَّت عنده، وأصبح مجرَداً للضلال. يوضح ذلك الروايات عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد وإبراهيم، في قوله تعالى ﴿ وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾، قالوا: «دين الله.» رواه الطبري بأسانيد متعددة إليهم، ومعنى هذه الروايات أن «خلق الله» أي تكوين الإنسان يتضمن الفطرة السليمة التي إن حافظتَ على سلامتها فإنها تتجه بك إلى دين الله تعالى. وأما إنْ غيرها أتباع الشيطان وأفسدوها فإنها تتجه بصاحبها إلى

عبادة الأهواء والأوثان. وعلى هذا المعنى حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أنهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟ » رواه مسلم والبخاري وأبو داود وغيرهم، فالتغيير العدائي للجسد من جنس التغيير العدائي للنفس او القلب. وعلى هذا المعنى قول ابن عطية: وقالت فرقة: «تغيير خلق الله» هو أن الله تعالى خلق الشمس والنار والحجارة وغيرها من المخلوقات ليعتبر بها وينتفع بها، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة. اهـ من (تفسير ابن عطية).

(النوع الثاني): هو استحداث نوع آخر من التغيير في التكوين الذي خلق الله تعالى المخلوقات به، وقد ظهر هذا النوع في القرن السابق، وذلك باستعمال الهندسة الوراثية والتلاعب بالمنظومة الوراثية للمخلوق. وقد استُعمل ذلك بكثرة في النباتات، وسواء كان ذلك بقَطْع عامل وراثي أصيل او بإضافة عامل وراثي (جين) غير أصيل، فهو سبيل الشيطان، ولا شك أنه ضار. فقد قال تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ الحجر: ١٩، فمكونات النبات موزونة بالصورة التي أنبتها الله في الأرض، فمن تلاعب بالعوامل الوراثية للنبات فقد أخرجه من التوازن بمزعمة «التعديل الجيني او الوراثي». وهذا النوع في تغيير التكوين يمكن أن يؤدي إلى تغيير ظاهر او كامن في الجسد. ويبدو أيضاً أنه حصلت في هذا القرن تجارب على الإنسان، ولا شك أنها غير مشروعة.

وأما العلاج بالجينات، فهو جائز إذا كان لتعويض نقص في الجينات، يوضح الأمر قوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ التين: ٤، ينبه ذلك إلى أن الخلل في الأمراض الوراثية أُحادية الجين، هو خلل غير أصيل، ولكنه مرض كامن أثّر على إنتاج أحد الزوجين او على الجنين، فأحدث النقص في الحيمن او البويضة او في بدايات تكوين

الجنين، فخرج بذلك عن وصف «أحسن تقويم»، كما تتغير وظائف الأعضاء عند البالغين بسبب الأمراض. ولذلك فإن هذا النوع من العلاج بالجينات هو محاولة لإعادة المريض إلى أحسن تقويم، كما هو الحال في علاج الأمراض الأُخرى، والله تعالى أعلم.

وأما من جاء إلى عبارة ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾، ففسر الخلق بالمخلوق، واستنبط من الآية تحريم عمليات التغيير الموضعي في الجسم وإن كانت المضامين الداخلية للتكوين باقية على أصلها، واستدل بذلك لتحريم عمليات التجميل وشبهها، فإن هذا التفسير يحتاج إلى الجواب على أمرين، **(الأمر الأول)**: حمل المصدر على معنى اسم المفعول، أي تفسير الخلق بالمخلوق، ويحتاج ذلك إلى دليل، وقد بينا ذلك في بداية تفسير العبارة. **(الأمر الثاني)**: أن هذا التفسير يستلزم تقدير ضوابط، ولا يصح ذلك إلا بأدلة. يوضح الأمر أن العبارة ليست خاصة في النساء ولا في البشر عامة، بل هي عامة في «خلق الله»، فإن حملناه على المخلوق فإنه يشـمل قض الظفر والشـعر، ويشـمل فتح الطرق، وقص أجزاء من الجبال لفتح الطرق او توسـيعها او تعديلها، وغير ذلك من أمثلة كثيرة جداً. وأما تحريم الإخصاء والتشـويه والتمثيل، فهذا ثابت بأدلة أُخرى غير هذه الآية الكريمة، والله تعالى أعلم.

الإيهام والتضليل والـحرب النفسـية

معنى التضليل وحكمه وآثاره:

ضَلَّ الشَّيْءُ إذا خَفِي وَغَابَ او ضاع. قال تعالى ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾ السجدة: ١٠، أي صارت أجسادنا تراباً ذاهباً

في الأرض فلا يتبيَّن. ومنه قولهم: ضلَّ الماءُ فِي اللَّبن، أي غاب؛ وقولهم: الجارية لا ترفع رأسها استحياءً، فكأنّها ضلَّ لها شيءٌ فهي تطلُبُه، ويُقالُ: هو ضُلُّ بنُ ضُلٍّ: إذا كان لا يُعْرَفُ. **ونقل الأزهري عن أَبي عَمْرو قال**: أصل الضلال الغَيبوبة، يُقَال: ضلَّ الماءُ فِي اللَّبن، إِذا غَاب، وضلَّ الكافِرُ: غَابَ عَن الحُجَّة، وضلَّ الناسِي، إِذا غابَ عَنهُ حِفْظُه. قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ طه: ٥٢، أَي لَا يغيب عَنهُ شيءٌ، وَلَا يغيب عَن شَيْءٍ؛ وَقَوله: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ البقرة: ٢٨٢، أَي تغيب عَن حِفظها، أَو يغيب حِفْظُها عَنْهَا. اهـ من (تهذيب اللغة). والضَّالَّةُ هي الضَّائِعة حقيقة او مجازاً، من الأُمور المادية او المعنوية، ومنه: «الكَلِمَة الحَكِيمَة ضَالَّة الْمُؤمن»، أي لا يزال يبحث عنها وكأنها قد ضاعت منه.

وضَلَّ يَضِلُّ ضلالاً، أي غَيَّب عن نفسه الحجة ورؤية الحق او غاب عنها، فالضّلالُ والضَّلَالةُ ضد الهُدَى والرشاد. والتضليل هو أن توقع الآخرين في الضلال والوَهْم، او أن تحجب عنهم رؤية الحقيقة. وأَضَلَّه يُضِلُّه: جَعَلَهُ ضَالًّا. ورجلٌ مُضَلّل أي لا يوفَّق لخير، صاحبُ غَواياتٍ وبَطالاتٍ. وفلان صاحب أَضاليلَ، الواحدةُ أُضلُولةٌ. قال تعـــالى ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ سبأ: ٥٠.

فأما الله تبـارك وتعـــالى، فإنه بحكمته وعلمه يُضل من يشـاء، على نحو قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ الصف: ٥؛ وعلى نحو قوله تعالى ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ النساء: ٨٨؛ وقوله تعـــالى ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ إبراهيم: ٢٧.

غير أن التضليل سياسة ثابتة للشيطان ضد كل إنسان، وبأشد الدرجات. ويختلف أتباع إبليس في عمليات التضليل بحسب درجة شيطنتهم. قال تعالى ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ النساء: ٦٠؛ فتدبر أن غاية الشيطان أن يضل الإنسان ضلالاً بعيداً، فمن بلغ ذلك من البشر صار بعيداً جداً عن الحق فيصعب جداً او يتعذر عليه العودة إلى الهدى؛ او أحاطت به خطاياه (كما في آية سورة البقرة ٨١) فأصبح أسير الخطايا ولا يستطيع أن يخرج إلى فضاء الصلاح، فهو من الجهة المعنوية بعيد جداً عن الخير. وفي تفسير نظير هذه الآية، قال ابن عاشور: وَوَصْفُ الضَّلَالِ بِالْبَعِيدِ مَعَ أَنَّ الْبُعْدَ مِنْ صِفَاتِ الْمَسَافَاتِ هُوَ اسْتِعَارَةُ الْبُعْدِ لِشِدَّةِ الضَّلَالِ وَكَمَالِهِ فِي نَوْعِهِ، بِحَيْثُ لَا يُدْرَكُ مِقْدَارُهُ، وَهُوَ تَشْبِيهٌ شَائِعٌ فِي كَلَامِهِمْ: أَنْ يُشَبِّهُوا بُلُوغَ الْكَمَالِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْمَسَافَاتِ وَالنِّهَايَاتِ كَقَوْلِهِمْ: بَعِيدُ الْغَوْرِ، وَبَعِيدُ الْقَعْرِ، وَلَا نِهَايَةَ لَهُ، وَلَا غَايَةَ لَهُ، وَرَجُلٌ بَعِيدُ الْهِمَّةِ، وَبَعِيدُ الْمَرْمَى، وَلَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا، وَبَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ، وَقَوْلِهِمْ: هَذَا إِغْرَاقٌ فِي كَذَا. اهـ من (تفسير ابن عاشور/ النساء ١٦٧).

وقال تعالى ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ .... ﴾ النساء: ١١٧ – ١١٩؛ ووصف الشيطان بأنه مَريد يعني أنه مجرد من الخير موغل في الشر، وأصل اللفظ من العري والتجرد، يُقال صخرة مرداء أي ملساء وصرح ممرد أي مملس وشجرة مرداء أي لا ورق عليها، وتمَرَّد أي أقدم وعتا، وكأنه تجرد من الإلتزامات والضوابط.

وقال تعـــــالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ الحج:

٣ – ٤؛ وقال تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾ يونس: ٨٨؛ وقال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ إبراهيم: ٣٠.

وأما عند المسلم، فإن الإضلال والتضليل محرم إلا بإستثناء شرعي، وذلك في موضعين، **(الموضع الأول)**: حين تكون الحرب مشروعة، سواء كانت حرباً عسكرية او غير عسكرية، فقد ثبت شرعاً حكم الرد بالمثل وأن الحرب خدعة. وقد بينا في (وِجهة اللواء في فقه الأمن والدفاع) الأسباب التي تجعل الحرب مشروعة وعادلة. **(الموضع الثاني)**: في عمليات تغييب المعلومات من أجل المحافظة على السرية في بعض أنشطة الأمن والدفاع وما يتصل بها، وكذلك كل نشاط ينص قانون على سريته، وهذا الموضع هو أيضاً من متطلبات الإعداد الدفاعي للحرب.

وأما آثار الحرب النفسية، فهي تضليل غير المحصنين وإيقاعهم في الإشاعات والأراجيف، وإدخالهم في مسارات خاطئة عظيمة الإثم. وأما الذين عصمهم الله من التضليل، فقد قال تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الأنعام: ٣٣ – ٣٤.

ونحتاج الآن إلى بعض التفصيل لعمليات التضليل. ولما كانت الكثرة الساحقة من عمليات التضليل عدوانية وغير مشروعة، فإن التفصيل سيشمل العمليات ذاتها بصرف النظر عن مشروعيتها.

مجالات التضليل:

المجالات التي يستهدفها العدو بالتضليل كثيرة، فإنها تشمل إدارة عناصر القوة كلها، وإدارة الإعداد للمستقبل، وإدارة مكافحة الإنحدار. ويتضمن ذلك أُموراً كثيرة، **منهـــا**: استهداف التفكير وصناعة القرار الإستراتيجي في السياسة والأمن والدفاع والإقتصاد وغيرها. **ومنهـــا**: استهداف الثقافة والأخلاق والعقيدة. **ومنهـــا**: استهداف الرؤية وتحليل الأحداث. **ومنهـــا**: استهداف القُدُرات المعنوية، كالتماسك والمعنويات العالية والعزة والمسؤولية الجماعية وغيرها. وقد ذكرنا في بدايات (وِجهة اللواء) جملة من خصائص القوة للشعب والمجتمع. **ومنهـــا**: استهداف الرصد الداخلي ومهارات التشخيص المبكر للشقوق والتصدعات، بالإضافة إلى التشخيص المبكر للفرص الصالحة. وكذلك استهداف الرصد الخارجي ومهارات التشخيص المبكر للفرص الصالحة، والتآمر الإسـتراتيجي، والإسـتدراج والإيقاع.

فهذه المجالات وشبهها مُعَرَّضة دائماً للإستهداف والتضليل من قِبَل الخصوم والأعداء. فالواجب هو بناء نظام لردم الثغرات والشقوق ومواطن الضعف، ولرصد عمليات التآمر والتضليل، ولمواجهة ذلك. وتدبر قوله تعالى ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ ص: ٢٠، الملك المشدود او المشتد هو الملك المحكم في مجالاته كلها، فلا ثغرات ولا شقوق ولا تصدعات، لا في الأجزاء المادية ولا في الأجزاء المعنوية، فلا مجال لاختراقه؛ وإنْ حصل اختراق بعوامل التضليل وشبهها فهو مجرد مرور متهالك، فلا يغير العقول ولا السلوك. ولنا ما يتصل بذلك في (المنطلق) وفي (نخبة المسار) وفي (وِجْهَة اللواء).

تغييب الرؤية والوعي:

مثال ذلك أن يحدث حدَثٌ يُراد إماتة التفكير فيه، او يُثار موضوع غير مرغوب فيه عند المتلاعبين بالعقول؛ حينئذ يلجأ المتلاعبون إلى وسائل لتغييب الرؤية:

منهـــا: إهمال الحدث وعدم تغطيته إعلامياً، خاصة حين توجد مجموعة محددة متسلطة على الإعلام، سواء كان تسلطاً معلناً كما في الحكومات المستبدة، او كان تسلطاً خفياً كما في دول غربية.

ومنهـــا: المحافظة على سرية العمل والنشاط، وعدم السماح بأي تسريب للمعلومات عنه؛ وعند الحاجة يتم تضليل الآخرين عنه. وهذا كثير في التنافس السياسي وفي المجالات التي تتصل بالأمن القومي.

ومنهـــا: إزالة الحقائق المتاحة من مصادر المعلومات، ويساعد ذلك على التكذيب بالخبر او إعطائه صورة مغايرة تماماً ولا صلة لها بالحقيقة، غير أن التعتيم الإعلامي او تجريد الإعلام من حقيقة معينة يحتاج إلى كتم الأفواه وإلى نوع من الهيمنة على الإعلام.

ومنهـــا: عمليات تشتيت الإنتباه لأجل منع ملاحقة الخبر، أي إثارة قضايا او افتعال أحداث تكفي لإشغال الجمهور المتلقي للأخبار وتقليل اهتمامه بقضايا أُخرى. وقد يتضمن ذلك افتعال أزمات او تحريك أحداث مروِّعة.

ومنهـــا: شل الإنتباه، ويكون ذلك بأكثر من نوع من الأحداث، النوع الأول: إحداث صدمة كبيرة تجعل الإنسان لا يفكر إلا بالتعامل مع هذه الصدمة. مثال ذلك الشروع في حرب او كارثة بيئية حادة وما شابه ذلك. النوع الثاني: عمليات استهلاك الطاقة، فلا مجال للإنسان أن يفكر إلا بمتطلبات الحياة اليومية؛ مثال ذلك تعطيل الخدمات العامة وإعاقة المسالك التجارية.

ومنهـــا: الإغواء والإغراء برؤية بديلة. أما الإغواء من البشر، فهو التضليل بتزيين وزخرفة الباطل ثم الإغراء للعمل به؛ والغاوي هو الذي غرَّته الزينة فأهدر القيمة المعنوية وأغفل العواقب، وأخذ ببديل فاسد. فالمُغَوَّياتُ بالتشديد وفتح الواو واحدتها مُغَوَّاةٌ وهي حُفْرةٌ تُحْتَفَرُ للذئْبِ ويجعلُ فيها جَدْيٌ إِذا نَظر الذئبُ إِليه سقَط عليه يريدهُ فيُصادُ، ومن هذا قيلَ لكلْ مَهْلَكة مُغَوَّاةٌ، والتَّغَاوِي: التَّجَمُّع والتَّعاوُن عَلَى الشَّرِّ، والغَيّ إظلام الرؤية وهو نقيض الرشد.

وتدبر قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ الحجر: ٣٩ – ٤٢، وقوله تعالى ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فصلت: ٢٥.

فيمكن أن يكون الإغواء باستخدام حقائق تساعد على الإقناع وعلى إخفاء التضليل. وبعبارة أُخرى يمكن أن يكون الشر وراء ستار من الخير (شر باطن او متراخ)، او يكون الشر بعد تمويه بالخير.

ويمكن الإغواء أيضاً بتحليل ذكي للمعلومات ولكنه خادع ومضلِّل. ويمكن أن يكون الإغراء بمنفعة مباشرة كالمال ونحوه، ويمكن أن يكون الإغراء بمنفعة مزعومة غير مباشرة كالإغراء بعمل او إجراء معين بعد الإيهام بأنه يوصل إلى الخير والمنفعة. ويقترن ذلك بأجواء مناسبة للمخدوع كأجواء الحزن او الرغبة بالثأر والإنتقام او أجواء الإحتفال او غير ذلك من وجوه الإثارة والجذب المناسبة للحدث.

وبذلك يتعامل المخدوعون مع الفرضيات والإشاعات ومع عمليات التضخيم او التوهين وكأنها مُسَلَّمات ويمكن تحريكهم وفقاً لها، وبذلك ينسون الأصل، ويتوهمون أن الرؤية البديلة هي الضائعة التي يبحثون عنها.

وارخص أنواع الإغواء هو الإنقياد لأسماء خالية من المضمون، بل فيها مضمون معاكس، كما يدل عليه نحو قوله تعالى ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ النجم: ٢٣، أي ان أوثانهم هي مجرد أسماء ليس فيها أي شيء من خصائص الألوهية. وهكذا في التضليل بأهلية شخص او جماعة لعمل غير أن صاحبها فاقد الأهلية، والأمثلة كثيرة جداً.

تشويه المشهد والرؤية:

وهذا من أخطر أنواع التضليل. ولتشويه الرؤية طرق كثيرة:

منهـــا: تقديم رؤية ناقصة (جزئية) من المشهد الكامل، وذلك بعدحذف او حجب المضامين التي يمكن أن تثير ما لا يريده المضلِلون، او العكس أي حذف المضامين المهدئة وإبقاء المضامين التي تثير الغضب والرغبة بالإنتقام، وذلك بحسب التحريك الذي يريده المتلاعبون بالعقول. وبالإضافة إلى التضليل، فإن تكرار الرؤية الجزئية تُـرَوِّض المتلقين وخاصة الشـباب على التفكير الجزئي، فلا يعرف الإسـتيعاب ولا يتطلع إلى رؤية الأُفق الواسـع. ومن أنواع الرؤية الجزئية المبالغة في تخفيف القضية المعقدة (أي: «تبسيطها»)، وذلك للتركيز على محور معين وفق رؤية المتلاعبين بالعقول، ويقتضي ذلك عزل ما يمكن أن يمنع التلاعب من أجزاء المشهد. ومن الرؤية الجزئية حذف جذور الحدث وأسبابه العميقة كي يبدو الحدث عند المتلقي وكأنه غير مُبَرر.

ومنهـــا: تنكيس وظيفة الإعلام، فإن وظيفته نقل الأخبار وليس صناعتها. ومن مهارات تشويه المشهد صناعة إضافات على المشهد الحقيقي، وإتقان صياغتها كي تظهر كجزء أصيل من المشهد. وذلك من أجل توجيه المتلقي إلى اتجاه معين، أي تحريك المتلقي

مع هذا الإتجاه او ضده، او لتبرير مطالب معينة او للإيقاع بأعمال عنيفة، او غير ذلك من آثار تغيير الوعي.

ومنهـــا: التركيز على محور معين من المشهد، والتوسع في تفاصيله وآثاره من أجل تسويغ إجراءات معينة او تحريك الآخرين باتجاه معين.

ومنهـــا: إضفاء الغموض على المشهد الواضح، كي تلتبس المعاني ويرتبك المتلقي، ويتعذر استنباط أمر واضح، وهذا على نحو ما نهى الله عنه في قوله تعالى ﴿ **وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ البقرة: ٤٢. ولإضفاء الغموض يلجأ المضللون إلى تعقيد المشهد بمعطيات مبهمة او متضاربة، او يعتمدون في التعقيد على المهارة في التحليل المربك، او يبالغون في جمع معلومات صحيحة ولكنها عديمة القيمة في تفسير الحدث وإنما تضاف لإرباك المتلقي. ويشمل هذا النوع وغيره ما ذكره الله عن المنافقين، في قوله تعالى ﴿ **لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ** ﴾ التوبة: ٤٨؛ فمعنى ﴿ **وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ** ﴾، أي نَوَّعوا لك الآراء والإحتمالات ودوَّروها إلى هذه الجهة وتلك، طمعاً في تضليل القرار النبوي وصرفه عن وجهه، حتى جاء الحق وظهر أمر الله تعالى وهم كارهون.

ومنهـــا: تحريف المشهد او تغيير صورته، قال تعالى ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ آل عمران: ٧٨؛ لَيُّ العُنق واليد والحبل: هو الفَتْل، واللَّيُّ: عطفُ الشيء عن الإستقامة إلى الإعوجاج. والإلتواء: الإنحراف والإنعطاف. والتوى فلان عليَّ إذا غيَّر أخلاقه عن الاستواء إلى

ضده. ولوى لسانه عن كذا، إذا غيره؛ ولوى فلانٌ فلاناً عن رأيه إذا أماله عنه. وليُّ الألسنة عمّا في القلب هو الكذب. وليُّ الألسنة بالكتاب كما في الآية هو تحريف لفظ الكتاب او معناه. وتوجد أمثلة كثيرة، نذكر منها محاولة ترويج أن الخمر ليس بحرام بمزعمة عدم النص على تحريمه ولكن باجتنابه، وأن هذا بزعمهم يتحقق بدرجة مخففة من الإجتناب!! ويُراد بهذه المزعمة التلبيس على من عنده استعداد لتعاطي الخمر، وذلك لأن القرآن حرّم الخمر تحريماً مشدداً، فقد قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ المائدة: ٩٠، فإن وصف الخمر بأنه رجس يقطع بالتحريم لأن القرآن صريح بأن النبي ﷺ يُحلُّ لنا الطيبات ويحرم علينا الخبائث؛ كما أن وصف الخمر بأنه من عمل الشيطان يقطع بالتحريم ويؤكده، لأن الله تعالى نهى أي حرم اتباع خطوات الشيطان؛ وهذا كله يفيد الإجتناب التام لكل استخدام للخمر.

ومنهــا: الحط في المشهد او جانب منه عن طريق تلطيخ أصحابه وتشويه سمعتهم وتحريك الإشاعات، من أجل إماتة الإهتمام بالمشهد نفسه. من ذلك قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الأعراف: ١٣١. ومن ذلك مطاعن المشركين برسول الله ﷺ، منها قوله تعالى ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ ص: ٤؛ ومنها التلطيخ بالفتنة او الإنحراف، قال تعالى ﴿ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧ ﴾ القلم: ٥ – ٧ . ومنها مزعمة الإرتباط بجهة اجنبية، قال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ

نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾ النحل: ١٠٣.

ومنهـــا: التعميم والتضخيم او البناء على النموذج السيئ. مثال ذلك نموذج سياسي سيئ يدعي المرجعية الإسلامية وربما كان نموذجاً مصنوعاً بهدف الإساءة إلى الإسلام؛ ومع ذلك يُتخذ هذا النموذج سبباً لتعميم رفض العمل السياسي الإسلامي.

ومنهـــا: التضخيم والتهوين؛ فالتضخيم هو أن تجعل الشيء عظيماً او مخيفاً او شبه ذلك من المعاني. والتهوين هو أن تجعل الشيء هيناً خفيف الوزن. ويُستعمل ذلك بكثرة في التنافس الدفاعي وفي الإعلام الحربي، إذْ تقوم كل جهة بتضخيم قوتها وتقليل خسائرها؛ وتقوم بالمقابل بتضخيم خسائر عدوها.

زخرفة التضليل:

الكذب والخداع في غير الحرب المشروعة هو من كبائر المعاصي عند المسلم الصادق. وأما الشيطان وأتباعه، فإن الكذب والتضليل سياسة ثابتة او متكررة عندهم، ولمجرد تحقيق مكاسب دنيوية وإن كانت المكاسب غير مشروعة. وبعض أنواع زخرفة التضليل تدخل في جملة «تشويه المشهد او الرؤية» الذي ذكرناه قبل قليل.

قال تعالى ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ العنكبوت: ٣٨.

وقال تعالى ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ فاطر: ٨ .

وقال تعالى ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فصلت: ٢٥. ومعنى ﴿ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾، أي ما هو أمامهم ويفعلونه في حاضرهم؛ ومعنى عبارة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾، أي جذورهم وماضيهم وما يبقى خلفهم من أعمال وآثار.

وقال تباك وتعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ البقرة: ١١ – ١٤.

وتوجد وسائل ومهارات لزخرفة التضليل:

منهـــا: استمالة وشراء ذمم خبراء عمليات التجميل، من الصحفيين والإعلاميين والمفكرين. والمطلوب منهم تغييب او تشويه الحقيقة، وكذلك تجميل التضليل الـمُتبنَى او زخرفة المنكر المتبوع، وبطريقة تقنع المتلقي.

ومنهـــا: إثارة العاطفة او الكره والإشمئزاز، بحسب نوع التضليل، او صناعة دليل زائف، كما يوضحه قوله تعالى ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ يوسف: ١٦ – ١٨.

ومنهـــا: عزل او إغفال الرؤية الكلية من أجل التركيز على تشابه مزعوم بين الحق والباطل، كنقاط تشابه مزعومة بين الإسلام والإشتراكية او الإسلام والرأسمالية مثلاً،

وفي أمور ليست لها قيمة حقيقية إلا ضمن ارتباطها بالمشهد الكلي. والهدف من ذلك تمييع الفروق الكبيرة بين المنهجين وتجميل الرأسمالية وشبهها. فهذا ليس من باب المفاهيم المشتركة التي يمكن أن تعمل بصورة مستقلة كالإتقان والنزاهة الوظيفية التي يمكن أن يتصف بها أصحاب المناهج المتنوعة.

ومنهـــا: الإيهام بوجود حجة صالحة، ويقع هذا بكثرة، فترى المبطل يزعم مثلاً أن الحق يصحح عمله. وقد حصل ذلك في صدر الإسلام بعد الخلافة الراشدة، فعَنْ يُوسُفَ ابْنِ مَاهَكَ قَالَ: «كَانَ مَرْوَانُ عَلَى الْحِجَازِ، اسْتَعْمَلَهُ مُعَاوِيَةُ، فَخَطَبَ فَجَعَلَ يَذْكُرُ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ لِكَيْ يُبَايَعَ لَهُ بَعْدَ أَبِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ شَيْئًا، فَقَالَ: « خُذُوهُ »، فَدَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ فَلَمْ يَقْدِرُوا، فَقَالَ مَرْوَانُ: إِنَّ هَذَا الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ: ﴿ **وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ** ﴾ الأحقاف: ١٧، فَقَالَتْ عَائِشَةُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ: « مَا أَنْزَلَ اللهُ فِينَا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ عُذْرِي ». رواه البخاري (فتح الباري، كتاب التفسير ٨/ ٤٦٧-٤٦٨).

وعن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه قال مروان: «سنةُ ابي بكر وعمر»، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: «سنة هرقل وقيصر»، قال مروان: «هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿ **وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ** ﴾»، فبلغ ذلك عائشة فقالت: «كذب والله، ما هو به، ولو شئت أن أُسميَ الذي أُنزلت فيه لسميته ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه فمروان فضفض من لعنة الله». رواه الإمام النسائي بإسناد صحيح في (السنن الكبرى)، ورواه الحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم، ورواه الإسماعيلي كما نقل ابن حجر وسكت عنه، فهو حسن عنده على أقل تقدير، وذلك في (فتح الباري ٨/ ٤٦٧-٤٦٩)، وقد اعله الذهبي بما ليس بعلة، وقد بينت ذلك في (أهل البيت بين الخلافة والملك). وقول مروان « سنة ابي بكر وعمر » يريد بذلك أن

اسـتخلاف معاوية لإبنه يزيد مثل اسـتخلاف أبي بكر لعمر واسـتخلاف عمر لواحد غير معين من السـتة، وفي ذلك رواية من طريق اسـماعيل بن أبي خالد حدثه عبد الله المدني وقد سـاقها ابن حجر بنصها في (فتح الباري) وسـكت عنها. وتوجد أمثلة أُخرى في العهد الأموي.

ومنهـــا: رفع الصوت وخفض المعاني والمضامين، فإذا أرادوا زخرفة منكر بالغوا في الثناء الفارغ، وبأوصاف القوة المادية ونحوها مما يشترك فيها المؤمن والكافر؛ ويقترن ذلك بذم من يخالف، بأنواع أوصاف الذم. وهذا عند العارف ليس بشيء، فقد قال تعالى ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ لقمان: ١٩. وأما غير العارف من المسلمين فقد يخشى الصوت المتعالي ولا يعرف كيف يُقَوِّم المعاني والمضامين وفقاً للإلتزام بأحكام الشرع. وقد قال تعالى ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ الحج: ٧٢، أي تعرف في وجوه الذين كفروا الكراهة والإشمئزاز؛ وأما كلمة: «يكادون»، فتستعمل «كاد» لمقاربة حصول الفعل من غير أن يحصل، فلا يُقال: كاد زيد يدخل المدينة، إلا وقد شـارفها كما ذكر العلامة فاضل صالح السـامرائي في (معاني النحو)؛ وأما السطو، فأَصْلُهُ القهْر والبَطْش كما ذكر ابن الأثير في (النهاية)، فكأنهم قد ظهرت منهم مقدمات السطو كالمطاعن او التهديد او غير ذلك، ولكنهم لم يصلوا إلى السطو؛ وتوجد درجات مثل ذلك او دونها او أشد منها، يمكن لكل ظالم أن يقع فيها؛ والله تعالى أعلم.

ومنهـــا: التعلق الخادع بعناوين لها أهمية عند المواطنين، مثل الوطنية والأمن القومي، والحرية السياسية وزيادة الدخل وغيرها. ومثل ذلك، الخداع بوعود كاذبة ومحاسن وهمية قد خططوا لها أن تموت تدريجياً او تتلاشى، وإنما المراد تهدئة المتلقين

وترويضهم على قبول الواقع السيء وعلى الفرح بانجازات محدودة جداً كتبليط شارع او ترميم مدرسة.

ومنهـــا: ومنها مدح قادة التضليل وافتعال الحسنات لهم وتضخيم ما له وجه جيد من أعمالهم.

ومنهـــا: التملص من القبائح والمساوِئ، وإلصاقها بجهات أُخرى، او افتعال أسباب لتبرير المساوِئ وتحسين موقف المسؤولين.

وكثير من عمليات تشـويه وتغييب الحقيقة تُسـتعمل لزخرفة المنكرات وتجميل الضلال.

إعداد المجتمع للتضليل:

توجد عوامل عديدة تفتح الطريق للتضليل، ومعرفتها يجب أن تقترن بمناهج مكافحة هذه العوامل:

فمنهـــا: الخفة المعنوية للمجتمع. قال تعالى ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ الزخرف: ٥٤. الخفيف هو القليل الوزن وهو ضد الثقيل ، والسين والتاء في ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ ﴾ تصلح هنا لمعنى الوِجدان او الجعل والإتخاذ ، أي وجدهم او جعلهم خفافاً، كقولك: استضعفته أي وجدته ضعيفاً او جعلته ضعيفاً، واستعبده أي جعله عبداً، واستشهد رجلين أي اتخذهما شـاهدين له او طلب منهما الشهادة. فالمقصود هنا عملية إزالة ثقلهم وتحويلهم إلى الخفة، أي عملية «إعادة تشكيل الثقافة او صناعة استجابة جديدة». فإذا كان او صار وزنهم المعنوي خفيفاً، فإن الرياح تحركهم كيف تشاء، رياح الوعيد والتخويف والإغراء ونحوها؛ وكانوا غير مستعدين لأدنى مواجهة، ففعل فرعون ذلك بهم فأطاعوه.

وبعكس هؤلاء أصحاب المعنويات العالية وطلّاب المعالي، كما وصفهم الله في نحو قوله تعالى ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ النور: ٣٦ – ٣٧.

والخفة المعنوية قد تشبه التضخم المالي حين تكون الحقيبة مملوءة بالمال، ولكنه غير كاف لشراء الضروريات. وكذلك المصاب بالخفة المعنوية، قد تكون ذاكرته مملوءة بالمعلومات ولكنه فاقد الهوية ويتعذر عليه رؤية الحق.

ولذلك، فإن وسائل تخفيف الوزن المعنوي متنوعة، مثل إضعاف مناهج التعليم والتربية، والإغراق باللهو والملذات والتفاهات، والإغراء بالشهوات، والإلهاء عن العمل للمعالي. وهذه الأمور متحققة أيضاً حين يقل الوزن المعنوي لرجال البلد او المؤسسة، فإذا وجدهم الخصم خفافاً استطاع تحريكهم لما يضرهم عن طريق عمليات الخداع والتضليل، ويستطيع أيضاً أن يزيد من خفتهم بعمليات الترويض وإعادة التشكيل؛ ويمكن أيضاً لخفتهم أن يطلب منهم الخفة أي الإسراع في تنفيذ خططه. وقد دُمرت شعوب ومؤسسات ووقعت حروب قاسية عن طريق تحريك الآخرين. وصار للدول القوية اليوم خبرة ومهارة عالية في عمليات التحريك بالأفكار والإستدراج، وفي اختيار القابلين للتحريك. وصارت الشعوب الضعيفة في حال المتلقي السلبي الذي يتحرك من حيث لا يشعر حسب خطط الأقوياء ثم يطلب منهم المساعدة لحل المشكلة!! وتدبر تعليل التحول إلى الخفة والطاعة للطاغية بعبارة ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾، فالفاسق يسهل عليه قبول ذلك. وتوجد في (نخبة المسار) زيادة في تفصيل هذا الأمر.

ومنهـــا: «السير مع التيار»، أي الإنصهار في جزئيات عقيدة مخالفة، او الإندماج في ثقافة معادية. قال تعالى ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ

﴿نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ المدثر: ٤٢ – ٤٥. فتدبر العبارة الأخيرة، ومعناها أنهم كانوا يسايرون التيار بسبب ضعف دواعي الحق في نفوسهم وفقدان روح المواجهة الفكرية؛ وواضح أن كل صفة من الصفات المذكورة تكفي لدخول جهنم والعياذ بالله تعالى. وقال ابن عطية: و «الخوض» الذهاب فيما لا تسبر حقائقه. اهـ، وقال في موضع آخر: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ التوبة: ٦٩، أي خلطتم كالذي خلطوا، وهو مستعار من الخوض في المائعات، ولا يستعمل إلا في الباطل، لأن التصرف في الحقائق إنما هو على ترتيب ونظام، وأمور الباطل إنما هي خوض، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم «رب متخوض في مال الله له النار يوم القيامة». اهـ من (تفسير ابن عطية).

ومنها: الإغراق باللهو والتفاهات. قال تعالى ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ المؤمنون: ٦٣ – ٦٤؛ يُقال: مَاء غَمْر أي كثير مُغرق، وقد غَمَرَه الماء يَغْمُرُهُ أي علاه؛ هذه الآية تصف حال المشركين ومعنى: أنهم في غمرة من هذا أي في غمرة مما نزل عليك وهو الحق، فهم غارقون في اللهو والملذات الدنيوية او غارقون في الباطل والصد عن دين الله تعالى، فهم في غفلة غامرة تحول بينهم وبين الحق والإيمان، ولهم أعمال غير أعمال الإيمان هم لها عاملون؛ هذا معنى تفسير الطبري والزجاج ومكي بن أبي طالب والزمخشري وابن عاشور وآخرين؛ وكأن عبارة ﴿فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ تتضمن معنى: في غمرة عن هذا. ويؤكد ذلك قوله تعالى قبل ذلك: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ المؤمنون: ٥٣ – ٥٤؛ وقوله تعالى ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ الذاريات: ١٠ – ١١. فلا

شك أن هذه الغمرة ليست بمعنى الـهُيام في الله تعالى ولا شدة التفكر بالآخرة، كما زعم بعضهم.

ووسائل الغمر والإغراق المعنوي كثيرة وشائعة جداً اليوم، كقضاء الساعات الطويلة يومياً في استخدامات اللعب واللهو وإضاعة الوقت، الموجودة في «الإنتر نت» ويسهل إدخالها في الحاسبة او الهاتف النقَّال. هذا بالإضافة إلى التلفاز وجلسات إضاعة الوقت والإسراف في إغراءات السوق.

ولذلك يكثر في هؤلاء من يتصف بمضمون قوله تعالى ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ .... ﴾ الأنبياء: ٢ – ٣، فتدبر ذم أن يكون حال الناس ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾، فإن وقت اللهو هو للصبيان، ولكنه قصير جداً للمؤمنين المكلفين؛ وأما أن يصير اللهو وظيفة مستقرة، فهذا نقيض المطالب الشرعية في المغالبة وفي أخذ الأُمور بقوة. فإذا كان مقدار ونوع اللهو يُضعف الأداء الشرعي والمغالبة، فهو إسراف في اللهو، وقد قال تعالى ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ الأنعام: ١٤١.

ولا شك أن الإستسلام لعمليات الإغراق باللهو والتفاهات يؤدي إلى فراغ الفكر من القِيَم الأصيلة والعقائد الراسخة مما يُسَهِّل عمليات غرس الثقافة البديلة، وبذلك تمتلئ النفس بالمشهد كما يريده المضلِلون.

ومنهـــا: جعل ثقافة التسلية والترفيه موازية، بل غالبة لثقافة الجد والمكارم والمعالي. وتُبذل الجهود الكبيرة لإتقان اللهو والمبالغة الشديدة في تنميته وتنويعه وإغراء الجمهور به وإشاعته. وتُبنى مؤسسات ضخمة، وظيفتها صناعة اللهو والتسلية والتوسع في ترويجها والإغراء بها، كي ينفق المجتمع الأموال والأوقات الكثيرة لمجرد اللهو؛ وقد نبه إلى ذلك

الكاتب: «هربرت أ شيللر» في كتابه (المتلاعبون بالعقول). بل إن إتقان صناعة اللهو قد يفوق إتقان صناعة القرار الإستراتيجي، والأموال التي تُخصص لصناعته قد تكون كبيرة جداً. كل ذلك كي يحيط اللهو بعقول الجمهور.

وتدبر ذم الثبات على اللهو واللعب كما في نحو قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ الطور: ١١ – ١٢؛ فتدبر الوعيد للذين هم في خوض يلعبون؛ وتدبر استعمال حرف «في» وهو أداة الظرفية والوعاء، وكأنهم مستقرون في وعاء الخوض (التخبط) واللعب. وذكرنا قبل قليل معنى قوله تعالى ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾.

ومنهـــا: سوء إدارة التربية والتعليم، مما يؤدي إلى انتاج كثير من الشباب الفارغ الذي يمكن خداعه بأنواع من الرؤى الفاسدة. وينبغي لمواجهة ذلك اعتماد بضعة أُمور، **(الأمر الأول)**: الموارد المادية والبشرية للتعليم ينبغي أن تكون متفوقة. **(الأمر الثاني)**: يكون المعلمون والمدرسون في المدارس الحكومية متفرغين للعمل الحكومي، ولهم زيادة مغرية في رواتبهم. **(الأمر الثالث)**: تُصاغ المناهج الدراسية صياغة متقنة، وتتضمن تعليماً دينياً للمسلمين، وثقافة وطنية، وقِيَماً أساسية (الأخلاق وغيرها)؛ ومن هذه القِيَم العداء للظلم والفساد. **(الأمر الرابع)**: بالإضافة إلى تسابق الطلاب في الإمتحانات، تُنظم لهم مسابقات في القِيَم المعنوية وبمكافآت. **(الأمر الخامس)**: تُسن قوانين وأنظمة تمنع وتردع اختراق التعليم بأفكار المصالح الخاصة وبالثقافة المضادة لديننا وقِيَمنا.

ومنهـــا: عمليات الغرس الثقافي، وعمليات التصدير الهجومي للثقافات الضارة والمعادية. وقد ذكرناها تحت عنوان «المهارات الإعلامية والرسائل الهادفة» في (وِجْهَة اللواء في فقه الأمن والدفاع).

ومنهـــا: وسائل أمنية للأنظمة المستبدة، وذلك كتجنيد عدد هائل من العناصر الأمنية في المجتمع، ويقومون بترويج مجتمعي للفكر التضليلي؛ وإذا أخرجوا عوائلهم في تظاهرات يومية فهي مظاهرات مليونية تلبس صورة الإرادة الشعبية، وهي في الحقيقة إرادة وظيفية غير حرة لأنها منقادة في الباطن لأوامر عدد قليل من السياسيين والأمنيين. ومع ذلك، فإنها تربك أهل الحق وتربك المسؤول النزيه.

ومنهـــا: الإستبداد الباطن (الخفي)؛ وهو استبداد حقيقي ولكنه يستند إلى عوامل مركبة ومزخرفة تجعله يظهر بمظهر الحرية والعدالة؛ وهذا هو حال الدول الكبرى، بما في ذلك الدول الغربية الكبرى ومن يحذو حذوها. فمما تستند إليه هذه الأنظمة لإخفاء وتلميع الإستبداد:

- الصلة القوية بطبقة المترفين ومنحهم نفوذاً غير رسمي وقدرة على التأثير على المستويات القيادية العليا. وتجد أن كثيراً من كبار السياسيين الغربيين قد شغلوا مناصب إدارية كبيرة في الشركات الكبرى. ولتقوية الشراكة بين السياسيين والمترفين (الرأسماليين) يتم تمجيد الرأسالمية وإيهام الجمهور أنه الخيار الوحيد البديل عن الاشتراكية الشيوعية. وبذلك تصبح الرأسمالية خياراً وطنياً وقومياً وحيداً، وتصبح طبقة المترفين مطلقة الأيدي في رسم الإقتصاد الوطني وفي التأثير لجعل القرار السياسي خادماً لها. والترف ليس مرادفاً للغِنى، فيمكن للغني أن يكون غير مترف. الترف هو التوسع في التنعم المادي، إذا كانت لذة او شهوة هذا التنعم هي التي تسوق الإنسان وتتحكم به في مجمل تصرفاته، فهو لا يصمد أمام الشهوة او اللذة، وهو بعيد عن ضبط تصرفاته بالحق والشرع والمصالح العامة. وواضح أن الترف نوع من الإسراف المعنوي، ويستلزم عادة الإسراف المادي. فينبغي التذكير هنا أن قرار المترفين هو قرار بعيد عن الحق، ووِجْهَتُه الحقيقية هي

زيادة ثروة ونفوذ النخبة الرأسمالية. وقد قال تعالى ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ .... ﴾ الواقعة: ٤١ – ٤٦؛ وقال تعالى ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴾ الإسراء: ١٦، أي أمرناهم بالحق ففسقوا بالعصيان والضلال؛ وقال تعـــالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ سبأ: ٣٤، فتدبر صيغة الحصر في الآية.

● توسيع شبكة المترفين: فمن يطور نفسه نحو الثروة والنفوذ فالطريق هو العمل مع طبقة المترفين وخدمة أهدافها. ويقع الاختيار على من هو أذكى وأكثر فاعلية في هذا المجال. وبذلك تتسع الشبكة ويزداد نفوذها. وفي تقرير لإحدى المنظمات الفاعلة أنه ارتفع عدد أصحاب المليارات في سنة واحدة (بين ٢٠١٦-٢٠١٧م)، بصورة غير مسبوقة، بمعدل ملياردير واحد كل يومين.

● لا يلزم أن توجد قوانين مباشرة تسمح بنفوذ غير رسمي لنخبة المترفين الرأسماليين، ولكن توجد عوامل تؤدي إلى هيمنة غير رسمية لطبقة المترفين. ومن أهم هذه العوامل: تمجيد الرأسمالية المتطرفة وحمايتها قانونياً، وضعف او غياب قوانين مكافحة الفساد غير المباشر (الفساد الباطن) في المال السياسي وغيره؛ ونتيجة ذلك هي أن تصير السلطة السياسية جزءاً من النخبة الرأسمالية. يُضاف إلى ذلك ضعف او غياب مكافحة الإحتكار غير المباشر او غير التقليدي، مما يؤدي إلى زيادة هيمنة النخبة الرأسمالية على السوق.

● نتيجة ما تقدم هو هيمنة طبقة المترفين على الإعلام والإقتصاد والسياسة، ولهذه الأدوات تأثير بالغ على السلطة وعلى المجتمع. وبذلك تتكون حكومة ظل غير معلنة او دولة عميقة داخل الدولة، لها تأثير شديد وطويل الأمد على السلطة الرسمية. وتتضمن هذه الهيمنة تنسيقاً واسعاً بين المؤسسات المختلفة، وتتشكل داخلها «لوبيات» وظيفية ضاغطة، لعل من أهمها في أميركا هو «المجمع الصناعي العسكري» واللوبي اليهودي. وستجد أمثلة وتفاصيل في البحث في الانترنت عن عبارات مثل: «ثراء النخبة الأمريكية» وشبهها، وما تتضمنه التقارير من أن ١-٢ في المائة في العالم يحصدون نحو ٨٠ في المائة من الثروة العالمية في السنة التي حصل فيها الإحصاء. والفجوة الإقتصادية داخل أميركا هائلة أيضاً ولكنها أصغر من الفجوة العالمية.

● ولطبقة المترفين علاقات دولية. فمن المؤسسات الدولية: البنك الدولي/ صندوق النقد الدولي/ منظمة التجارة العالمية/ مجموعة الدول الصناعية السبع/ ومجموعة العشرين.

● إغراق عقل الجمهور وملئ الفراغات فيه باللهو والتسلية وبالمعلومات غير المفيدة وبالشهوات، كي يصبحوا غافلين عما ينفعهم وعن رؤية الحقائق، ويكونوا كما وصفهم الله بقوله تعالى ﴿ .... وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ المؤمنون: ٦٢ - ٦٣، وقوله تعالى ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ ﴾ الذاريات: ١٠ - ١٢. والغاية النهائية من عمليات الإغراق الفكري هي استهلاك الطاقات الفكرية للجمهور وجعله عاجزاً عن

التفكير السليم في القضايا المركبة المعقدة، وتحويله إلى جمهور سلبي ضئيل التفاعل مع السياسات العليا والأُمور الكبيرة، بل يقبل المضار المزخرفة وكأنها محاسن.

● خداع الجمهور بمزاعم مزخرفة ذكر جملة منها الكاتب هربرت أ. شيللر في كتابه (المتلاعبون بالعقول)، وذكرها باحثون آخرون؛ منها: **(المزعمة الأولى)**: مزعمة حيادية الإعلام وأنه يمثل الحقيقة المجردة او يمثل جمهور الأُمة، ويقوم به من يريد من الشعب، فإن الحكومة الإميركية لا تمتلك وزارة إعلام. علماً أن الإعلام تسيطر عليه مجموعات قليلة ويمكن أن تكون قريبة من مآرب النخبة المترفة وما يتصل بها من مجاميع الضغط. معنى ذلك أنه من السهل عليهم أن يجعلوا القِيَم الوطنية والثقافية وتحليل الأحداث ليست ثوابت ينشأ عليها الجمهور، ولا يتم تحليلها بالعدل والموضوعية، ولكنها مُنتَجٌ صناعي، يصنعه إعلام النخبة وفقاً لمآربهم، ويُدْخلونه في عقل الجمهور بمهارات إعلامية مؤثرة، هي أشبه بالمكر الإعلامي والتضليل الخفي. ومنها: **(المزعمة الثانية)**: أن الديمقراطية تجعل الشعب هو صاحب الخيار في الأُمور الكبيرة، بصورة مباشرة عن طريق حرية التعبير بوسائل فردية او جماعية، او بصورة غير مباشرة عن طريق المجالس المنتخبة من الشعب، النيابية وغيرها. وهذه مجرد مزعمة لأن الأحزاب الكبيرة تابعة او متصلة بقوة بالنخبة المترفة، ولهم من الهيمنة على السياسة والإعلام ما يمكنهم من غرس أفكار وثقافات معينة في عقل الجمهور، والقيام أيضاً بترويض الجمهور بمهارات الدعاية والإثارة وغيرها، وذلك لجعل الجمهور يقبل او يتبنى الأفكار التي صنعتها النخبة. ولذلك تكلم كثيرون عن «صناعة الرأي العام»، وتكلم آخرون عن «صناعة الإجماع». وبذلك تصير الأفكار والثقافات المتصلة بالسياسات العليا، تصير مُنتَجاً صناعياً يتبناه الجمهور من غير أن يعلم أعماقه. وقد بين ذلك بوضوح الأُستاذ الأميركي المشهور: ناعوم

تشومسكي، ففي كتابه «السيطرة على العقول» ذكر أن الديمقراطية نوعان، وقد ذهب تشومسكي إلى أن النوع الحاكم (أي النوع الذي يُنفَذ في الواقع) هو النوع الثاني، ومضمونه هو السيطرة المتشددة على الإعلام ومنع العامة من إدارة شؤونهم، فإن العامة كالقطيع الضال، فمن الضروري أن تتولى إدارتهم طبقة متخصصة. ولكن يُسمح للقطيع بين حين وآخر بتأييد أحد أفراد النخبة على غيره واختياره قائداً، وبعد هذا الاختيار (الانتخابات) ترجع العامة إلى وظيفة المشاهدة وليس المشاركة، وعليهم أن يُشغلوا أنفسهم بالتسلية والجنس والكرة ونحوها. وضمن هذه المعاني والتنظيرات تكون الأحداث في ظل أنظمة ديموقراطية تُعَدُّ سليمة!! (وانظر في «السيطرة على العقول» ما تفرق في العناوين الأربعة الأولى، وكذلك ما بعدها).

نصوص أُخرى في الفكر العدائي والتضليل الإعلامي:

منهـــا: قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ
(١١) أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ
قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤) ﴾
البقرة: ١١ – ١٤.

ومنهـــا: قوله تعالى ﴿ .... وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ (٤١) وَلَا
تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) ﴾ البقرة: ٤١ – ٤٢.

ومنهـــا: قوله تعالى ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ البقرة: ٥٩.

ومنهـــا: قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة: ١٧٤؛ الآية تنبه إلى التضليل الإعلامي وتكييف العلم الشرعي لخدمة مقاصد الطغاة.

ومنهـــا: قوله تعالى ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ٤٦.

ومنهـــا: قوله تعـــالى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ المائدة: ١٣.

ومنهـــا: قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ النساء: ١٥٠ – ١٥١.

ومنهــا: قوله تعالى ﴿ .... سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ ﴾ المائدة: ٤١.

ومنهــا: قوله تعالى ﴿ .... فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الأعراف: ٤٤ – ٤٥. الصد عن سبيل الله تعالى يمكن أن يكون مباشراً او غير مباشر (أي المضامين الباطنة والمستقبلية)؛ ويمكن أن يكون مقصوداً او غير مقصود.

ومنهــا: قوله تعالى ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ الأعراف: ١٢٣ – ١٢٤.

ومنهــا: قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ الأعراف: ١٣١.

ومنهــا: قوله تعالى ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾ الأعراف: ١٦٣. تنبه الآية إلى ممارستهم تضليل النفس والأتباع بإيهام جواز تعمد الشروع في الحرام من غير إتمامه، وبإيهام جواز الفكر المراوغ مع الله تبارك وتعالى.

عناوين أُخرى
ذكرناها في دراسات سابقة

العنوان الأول: تحريك أفكار التأثير عموماً، ومنها أفكار التضليل؛وهذا موضوع في غاية الأهمية، وقد ذكرناه بقَدْر من التفصيل في (نخبة المسار/ المبحث السابع: إدارة الفكرة والكلمة؛ ومنه: «العمليات الفكرية المعادية»).

العنوان الثاني: هو تفسير مفصل لقوله تعالى ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ الأحزاب: ٦٠ – ٦٢. وهو أيضاً موضوع في غاية الأهمية، وقد ذكرناه في (ثمار التنقيح على فقه الإيمان) تحت عنوان: «الخيار الجنائي في التعامل مع المنافقين»؛ وذكرناه ببعض المغايرة في المبحث السادس أي: السلم الداخلي ومكافحة التفرق، من (وِجْهة اللواء في فقه الأمن والدفاع)، تحت عنوان: «مكافحة مُخَرِّبي المجتمع».

تم بفضل الله تعالى كتاب «رجاء الفلاح في التنمية الفكرية»،
وذلك في أواخر شهر صفر ١٤٤٥هـ الموافق لشهر أيلول ٢٠٢٣م،
راجياً من الله تعالى أن يبارك في هذه الدراسة وأن يرزقني رضوانه
وأن ييسر لي إتمام ونشر كل ما بدأت به، وأن يزيدني من فضله
إنه الكريم الأكرم، والحمد لله رب العالمين.

من أهم المصادر

تفسير القرآن العظيم وعلومه:

١- جامع البيان، وهو تفسير الإمام الطبري .

٢- معاني القرآن، الإمام أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء.

٣- معاني القرآن وإعرابه، للإمام الزجاج.

٤- معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس.

٥- إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس.

٦- الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي.

٧- تفسير الراغب الأصفهاني.

٨- أحكام القرآن، لأبي بكر الجصاص.

٩- أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي.

١٠- تفسير الكشاف، الإمام الزمخشري.

١١- التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي.

١٢- التيسير في التفسير، نجم الدين أبو حفص النسفي.

١٣- البحر المحيط، لأبي حيان.

١٤- التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء العكبري.

١٥- الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد، المنتجب الهمذاني.

١٦- لباب التأويل في معاني التنزيل، علي بن محمد أبو الحسن الخازن.

١٧- تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير.

١٨- فتح القدير، الإمام الشوكاني.

١٩- روح المعاني، للآلوسي.
٢٠- التحرير والتنوير، لابن عاشور.
٢١- تأويلات أهل السنة، لأبي منصور الماتريدي.
٢٢- اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل.
٢٣- الدر المصون، لشهاب الدين السمين الحلبي.
٢٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. الإمام البقاعي. دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٦م - ١٤٢٧هـ.
٢٥- لطائف الإشارات، القشيري.
٢٦- محاسن التأويل للقاسمي.
٢٧- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب.
٢٨- مدارك التنزيل، للنسفي.
٢٩- المحرر الوجيز، لابن عطية.
٣٠- في ظلال القرآن، لسيد قطب.
٣١- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد.
٣٢- دراسات لأُسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة.
٣٣- حدائق الروح والريحان، محمد الأمين الهرري.
٣٤- الإتقان في علوم القرآن، للإمام السيوطي.
٣٥- البرهان في علوم القرآن، للإمام الزركشي.

السيرة والحديث وشرحه:

١- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للحافظ ابن حجر.

٢- صحيح مسلم، تحقيق وشرح محمد فؤاد عبد الباقي.
٣- سنن النسائي.
٤- السنن الكبرى للنسائي.
٥- سنن أبي داود.
٦- سنن الترمذي.
٧- سنن ابن ماجه.
٨- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، لابن بلبان .
٩- المستدرك على الصحيحين، للحاكم مع تعليقات الإمام الذهبي .
١٠- المصنف، لابن أبي شيبة.
١١- المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني.
١٢- نيل الأوطار، للإمام الشوكاني.
١٣- سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ الألباني.
١٤- دلائل النبوة للإمام البيهقي.
١٥- زاد المعاد، لابن قيّم الجوزية.
١٦- السيرة النبوية، لابن كثير.
١٧- السيرة النبوية للذهبي.

علوم الحديث ورجال الأسانيد:

١- تدريب الراوي، للإمام السيوطي.
٢- توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، للإمام الصنعاني.

٣- الاجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة، لأبي الحسنات اللكنوي، وعلق عليه عبد الفتاح أبو غدة.

٤- نزهة النظر، للحافظ ابن حجر.

٥- تهذيب التهذيب، للحافظ ابن حجر.

٦- لسان الميزان، للحافظ ابن حجر.

٧- تهذيب الكمال. للحافظ المزي.

اصول الفقه:

١- المسوّدة، لابن تيمية وأبيه وجده.

٢- الإحكام في اصول الأحكام لابن حزم.

٣- شرح تنقيح الفصول، للقرافي.

٤- الفروق، للقرافي.

٥- العقد المنظوم في الخصوص والعموم، للقرافي.

٦- البحر المحيط في اصول الفقه، للزركشي.

٧- كشف الأسرار، لعلاء الدين البخاري.

٨- شرح المنار، لابن ملك.

٩- إحكام الفصول، لأبي الوليد الباجي.

١٠- شرح الكوكب المنير، لابن النجار.

١١- تمكين الباحث من الحكم بالنص في الحوادث، وميض العمري.

١٢- المنهج الفريد في الإجتهاد والتقليد، وميض العمري.

المفردات والمعاجم:

١- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني.

٢- عمدة الحفاظ، شهاب الدين السمين الحلبي.

٣- المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده.

٤- تهذيب اللغة، للأزهري.

٥- المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد.

٦- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس.

٧- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير.

٨- أساس البلاغة، للزمخشري.

٩- لسان العرب، لابن منظور.

١٠- الكليات، لأبي البقاء الكفوي.

١١- المعجم العربي الأساسي، أحمد العايد / داود عبده / أحمد مختار عمر / صالح جواد طعمه / الجيلاني بن الحاج يحيى / نديم مرعشلي / بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

١٢- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل.

١٣- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لأبي الفرج بن الجوزي.

١٤- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، للدامغاني.

١٥- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، لأبي هلال العسكري.

النحو وما يتصل به:

١- معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي.

٢- معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي.

٣- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة.

٤- الجنى الداني في حروف المعاني، حسن بن قاسم المرادي.

٥- رصف المباني في شرح حروف المعاني، المالقي.

٦- الإستغناء في أحكام الإستثناء، الإمام القرافي.

٧- بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية.

٨- اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء العكبري.

٩- الأدوات النحوية في كتب التفسير، د. محمود أحمد الصغير.

١٠- المعجم المفصل في النحو العربي، د. عزيزة فوّال بابتي.

١١- المحيط في أصوات العربية ونحوها وصرفها، محمد الأنطاكي.

١٢- نحو اللغة العربية، د. محمد أسعد النادري.

١٣- شرح المفصل، لابن يعيش.

١٤- شرح الجمل، لابن عصفور.

١٥- المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، لأبي النصر أحمد بن محمد السمرقندي الحدادي.

الفقه:

١- الذخيرة، للإمام القرافي.

٢- المحلى، لابن حزم.

٣- الحاوي الكبير، للماوردي.

٤- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لابن رشد.

٥- شرح فتح القدير، لابن الهمام.

٦- المغني، لابن قدامة، مع الشرح الكبير.

الضرورات والموازنات والذرائع والتدرج:

١- أصل اعتبار المآل بين النظرية والتطبيق، د. عمر جدية.

٢- حالة الضرورة في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان.

٣- نظرية الضرورة الشرعية، جميل محمد بن مبارك.

٤- نظرية الضرورة الشرعية، د. وهبة الزحيلي.

٥- الإكراه وأثره في التصرفات الشرعية. د. محمد سعود المعيني. مكتبة بسام، الموصل، العراق. ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

٦- الموازنة بين المصالح والمفاسد في ضوء مقاصد الشريعة، د. ابراهيم عبد الرحمن عبد العزيز العاني، (ديوان الوقف السني، بغداد) .

٧- ضوابط الإجتهاد التنزيلي في ضوء الكليات المقاصدية، د. وورقية عبد الرزاق.

٨- فتح الذرائع، د. محمد رياض فخري الطبقجلي.

٩- سد الذرائع عند الإمام ابن قيم الجوزية، سعود بن ملوح العنزي.

١٠- المنطلق في فقه العمل. وميض بن رمزي بن صديق العمري.

مهارات التفكير وما يتصل بها:

وأكثرها كتب مترجمة.

١- أسلحة الخداع الشامل، شيلدون رامبتون و جون ستوبر. الدار العربية للعلوم، ٢٠٠٤م.

٢- الطبقة الحاكمة في أمريكا، ستيف فرايزر ـ غاري غرستل. الدار العربية للعلوم ٢٠٠٦م.

٣- نظام الحكم في الولايات المتحدة الأمريكية، لاري إلويتز. الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة ١٩٩٦م .

٤- انهيار العولمة وإعادة اختراع العالم. جون رالستون سول. الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ٢٠٠٩م .

٥- عندما تحكم الشركات العالم. ديفيد سي. كورتن. وزارة الثقافة العراقية، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد ٢٠٠٦م .

٦- نظرية الإحتواء، إيان شابيرو. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠١٢م.

٧- التفكير السديد للقيادة العسكرية المؤثرة، العميد جي نازاريث، ترجمة: اللواء الركن المتقاعد محمد خالد. دائرة العمليات، مديرية التطوير القتالي (وزارة الدفاع العراقية/ سلسلة الثقافة العسكرية ٢٩)، ١٩٨١م.

٨- تولي القيادة: فن القيادة العسكرية وعلمها، تحرير: صامويل هيز مع وليم توماس. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٤م .

٩- مراكز الفكر، ستيفن بوشيه. دار الفارابي ٢٠٠٩م.

١٠- القوة الرابعة، غاري هارت. مكتبة العبيكان ، ٢٠٠٥م.

١١- متلازمات الفساد، مايكل جونستون. العبيكان للنشر ٢٠٠٨م.

١٢- أسرار التفاوض، ديفيد براون. مكتبة جرير، ٢٠١١م.

١٣- الوصول إلى موافقة، روجر فيشر ـ وليام يوري ـ بروس باتون. الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠م.

١٤- المتلاعبون بالعقول، هربرت أ شيللر. عالم المعرفة.

١٥- السيطرة على الإعلام، نعوم تشومسكي.
١٦- حروب العقل. ماري د. جونز و لاري فلاكسمان. شركة العبيكان، الرياض ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.
١٧- الرأي العام والحرب النفسية، د. مختار التهامي. دار المعارف بمصر، ١٩٧٤ م.
١٨- فن غسيل الأدمغة، عبد الحميد حمود. دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٨م.
١٩- التفكير الاستراتيجي، د. كمال الهلباوي. دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر ، ٢٠٠٤م.
٢٠- النظم الإنتخابية، د. ظاهر غندور، المركز الوطني للمعلومات والدراسات، بيروت ، ١٩٩٢ م.
٢١- موسوعة الأمثال والحكم العالمية، إعداد: منير عبود، صياغة الترجمة: أحمد حاطوم. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ٢٠١١ م.
٢٢- مبادئ النجاح، جاك كانفيلد مع جانيت شويتزر. مكتبة جرير، الرياض، ٢٠١١م.
٢٣- أعظم ١٠٠ فكرة للإبداع الرائد، جون آدير، مكتبة جرير، الرياض ، ٢٠١٣م.
٢٤- الإبداع العام والخاص، ألكسندر روشكا، عالم المعرفة، الكويت (١٩٨٩ م).
٢٥- نقطة التحول، مالكولم غلادويل. الدار العربية للعلوم ، ٢٠٠٦م.
٢٦- إدارة الأولويات، ستيفن ر. كوفي مع أ.روجر ميريل مع ريبيكا ميريل. مكتبة جرير، الرياض، ١٩٩٨م.
٢٧- القراءة السريعة المهنية، جيرهارد هورنر. العبيكان للنشر، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٧م.
٢٨- كتاب القراءة السريعة، توني بوزان. مكتبة جرير، ٢٠١٨م.

٢٩- الإدارة علم وفن، جوان ماغرينا. دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٨م .

٣٠- قواعد الإدارة، ريتشارد تمبلر. مكتبة جرير، الرياض ، ٢٠٠٨م .

٣١- نظرات في مسألة الزعامة، جون س. ماكسويل. دار الجيل، بيروت، ١٩٩٩م.

٣٢- القيادة في الأزمات، داني كوكس مع جون هوفر. بيت الأفكار الدولية، أمريكا، ١٩٩٨م.

٣٣- فن الإنتقاء، شيينا أينغار، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٠م.

٣٤- القيادة: ممارسات ومهارة وخلاصة بحوث، أندرو ج. دوبرين. وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١١م.

٣٥- الإستشراف، إدوارد كورنيش. الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٧م.

من المصادر الالكترونية:

١- المكتبة الشاملة ، كتب الموقع الرسمي.

٢- مصادر كثيرة عن مهارات التفكير، ومهارات التضليل، وعلوم القيادة والإدارة وغيرها.

٣- موسوعة الشعر العربي.

المحتوى

الإحتجاج وميزان الأفكار: ٢٢١

من عوامل التفكير السليم: ٢٦٣

مؤلفات د. وميض بن رمزي بن صديق العمري:

١- ثمار التنقيح على فقه الإيمان (وهو النسخة المنقحة من: فقه الإيمان).

٢- المنطلق في فقه العمل (أخلاق وأحكام البناء والتفوق).

٣- نخبة المسار في فقه القيادة والإدارة.

٤- وِجْهَة اللواء في فقه الأمن والدفاع.

٥- أهل البيت بين الخلافة والملك (نسخة منقحة ومزيدة).

٦- تمكين الباحث من الحكم بالنص في الحوادث.

٧- المنهج الفريد في الإجتهاد والتقليد.

٨- الخليفة الراشد الأول.

٩- الإمامة والتقريب بين السنة والإمامية.

١٠- نهضة الحسين في الفقه والتأريخ (وهو مستل من كتاب: أهل البيت).

١١- رجاء الفلاح في التنمية الفكرية، (مُعَدٌّ للنشر).

١٢- الطب في القرآن الكريم (بالإشتراك مع د. محمد جميل الحبال).



الدكتور وميض العمري



رجاء الفلاح في التنمية الفكرية


ISBN: 978-9922-690-53-7
9 789922 690537

مكتب التفسير
للطبع و النشر
أربيل - الشارع الثلاثيني قرب المنارة المظفرية
/TafseerOffice
+964 750 818 08 65
www.al-tafseer.com
tafseeroffice@yahoo.com